قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

روسو والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا، وإنجلترة، وألمانيا
من ١٧٥٦ إلى ١٧٨٩

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الرابع من المجلد العاشر

٤٢

تونس
بيروت

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان

فهرس

الجزء الرابع من المجلد العاشر

الكتاب السادس

إنجلترة جونسن : ١٧٥٦ – ٨٩

صفحة

الفصل السابع والعشرون : الثورة الصناعية ١١

١ – أسبابها ١١

٢ – مقوماتها ١٥

٣ – ملابساتها ٢٣

٤ – عواقبها ٢٩

الفصل الثامن والعشرون : المسرحية السياسية ١٧٥٦ – ٩٢ ... ٣٥

١ – البنية السياسية ٣٥

٢ – أبطال الدراما ٤٢

٣ – الملك ضد البرلمان ٥٩

٤ – البرلمان ضد الشعب ٦٥

٥ – انجلترة ضد أمريكا ٧٦

٦ – انجلترة والهند ٨٧

٧ – انجلترة والثورة الفرنسية ٩٦

٨ – الأبطال يتقاعدون ١٠٤

الفصل التاسع والعشرون : الشعب الانجليزى ١٧٥٦ – ٨٩ ... ١٠٧

١ – أساليب الحياة الانجليزية ١٠٧

٢ – الأخلاق الانجليزية ١١٢

صفحة

٣ — الإيمان والشك ١١٧
٤ — بلاكستون وبنتام والقانون ١٢٢
٥ — المسرح ١٢٦
(أ) التمثيل ١٢٦
(ب) جاريك ١٢٩
٦ — لندن ١٣٣

الفصل الثلاثون : عصر رينولدز ١٧٥٦ — ٩٠ ... ... ١٣٩

١ — الموسيقيون ١٣٩
٢ — المعماريون ١٤٠
٣ — ودجوود ١٤٢
٤ — جوشوا رينولدز ١٤٧
٥ — توماس جينزبرو ١٥٤

الفصل الحادى والثلاثون : جيران انجلتره ١٧٥٦ — ٨٩ ... ... ١٦١

١ — ارلندة جراتان ١٦١
٢ — الخليفة الاسكتلندية ١٦٦
٣ — التنوير الاسكتلندى ١٦٩
٤ — آدم سمث ١٧٦
٥ — روبرت بيرنز ١٨٢
٦ — جيمس بوزويل ١٩٣
(أ) الشبل ١٩٣
(ب) بوزويل خارج بريطانيا ١٩٧
(حـ) بوزويل فى وطنه ٢٠١

الفصل الثانى والثلاثون : المسرح الأدبى ١٧٥٦ — ٨٩ ... ٢٠٥

١ — الصحافة ٢٠٥
٢ — لورنس ستيرن ٢٠٧

٣ — فانى بيرنى ٢١٣
٤ — هوراس ولبول ٢١٤
٥ — ادورد جبون ٢٢١
(ا) اعداده ٢٢١
(ب) الكتاب ٢٢٨
(ح) الرجل ٢٣٥
(د) المؤرخ ٢٣٨
٦ — تشاترتن وكوبر ٢٤٢
٧ — أولفر جولدسمث ٢٤٩
الفصل الثالث والثلاثون : صموئيل جونسن ١٧٠٩ — ٨٤ ... ٢٥٩
١ — النشأة المشوهة : ١٧٠٩ — ٤٦ ... ... ٢٥٩
٢ — القاموس : ١٧٤٦ — ٥٥ ... ... ٢٦٣
٣ — الحلقة المسحورة ٢٧٠
٤ — الدب الأكبر ٢٧٦
٥ — الفكر المحافظ ٢٨١
٦ — الخريف ٢٨٧
٧ — الافراج : ١٧٨١ — ٨٤ ... ... ٢٩٠
٨ — بوزويل فى أيامه الأخيرة ٢٩٥

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

الفصل الرابع والثلاثون : البهاء الأخير ١٧٧٤ — ٨٣ ... ... ٣٠٣
١ — ورثة العرش : ١٧٥٤ — ٧٤ ... ... ٣٠٣
٢ — الحكومة ٣٠٩
٣ — الملكة العذراء ٣١٢
٤ — الملك الطيب ٣٢٠
٥ — وزارة طورجو ٣٢٤
٦ — وزارة نكير الأولى ١٧٧٦ — ٨١ ... ... ٣٣٦

صفحة

٧ — فرنسا وأمريكا ٣٣٩

الفصل الخامس والثلاثون : الموت والفلاسفة ١٧٧٤ — ٨٠٧... ٣٤٩

١ — نهاية فولتير ٣٤٩
(أ) الشفق فى فرنيه ٣٤٩
(ب) تمجيد فولتير ٣٥٢
(حـ) تأثير فولتير ٣٦٠

٢ — خاتمة روسو : ١٧٦٧ — ٧٨ ... ... ٣٦٣
(أ) الروح المعذب ٣٦٣
(ب) تأثير روسو ٣٧٢

٣ — لحن سير جنائزى ٣٧٩
٤ — خاتم الفلاسفة الفرنسيين ٣٨٣
٥ — الفلاسفة والثورة ٣٨٨

الفصل السادس والثلاثون : عشية الثورة ١٧٧٤ — ٨٩ ... ... ٣٩٣

١ — الدين والثورة ٣٩٣
٢ — الحياة على شفا الثورة ٣٩٧
٣ — الصالونيات ٤٠٢
٤ — الموسيقى ٤٠٧
٥ — الفن فى عصر لويس السادس عشر ٤١٠
٦ — الأدب ٤١٦
٧ — بومارشيه ٤٢٥

الفصل السابع والثلاثون : تشريح الثورة ١٧٧٤ — ٨٩ ... ٤٣٧

١ — النبلاء والثورة ٤٣٧
٢ — الفلاحون والثورة ٤٤٢
٣ — الصناعة والثورة ٤٤٤

صفحة

٤ — البورجوازية والثورة ٤٤٩

٥ — احتشاد القوى ٤٥٤

الفصل الثامن والثلاثون : الانهيار السياسى ١٧٨٣ — ٨٩ ... ٤٥٩

١ — القلادة الماسية : ١٧٨٥ ... ... ٤٥٩

٢ — كالون : ١٧٨٣ - ٨٧... ... ... ٤٦٣

٣ — لومينى دبريين : ١٧٨٧ — ٨٨ ... ... ٣٦٦

٤ — عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩ ... ... ٤٧١

٥ — يدخل ميرابو ٤٧٥

٦ — التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩ ... ... ٤٨٠

٧ — مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩ ... ... ٤٨٣

٨ — إلى الباستيل ٤٩٢

ختام ٤٩٥

المراجع ٤٩٩

* * *

الكتاب السادس

انجلترة جونسن

١٧٥٦ - ٨٩

الفصل السابع والعشرون

الثورة الصناعية

١ - أسبابها

لم بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت فى انجلترة ؟ لأن انجلترة كانت قد انتصرت فى حروب عظمى على القارة وحفظت فى الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب ، ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة ، ولأن جيوشها وأساطيلها ، وسكانها المتزايدين ، هيأوا لها سوقاً متسعة للمنتجات الصناعية ؛ ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة ؛ ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كدست رأسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار ؛ ولأن انجلترة سمحت لنبلائها — ولثرواتهم — بالاشتغال بالتجارة والصناعة ؛ ولأن إحلال الرعى تدريجياً محل فلاحة الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للمصانع ؛ ولأن العلم فى انجلترة كان يوجهه رجال ذوو نزعة عملية ، فى حين كان على القارة منصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد ؛ وأخيراً لأن انجلترة كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة ، شاعرة على نحو غامض بأن السبق فى الثورة الصناعية سيحقق لانجلترة الزعامة السياسية للعالم الغربى طوال حقبة قرن أو يزيد .

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها الأرمادا الأسبانى ، وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندة فى الحروب الانجليزية الهولندية ، وعلى فرنسا فى حرب الوراثة الاسبانية ؛ ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل تجارة المحيط حكراً على بريطانيا . وكان

للبحرية البريطانية التي لاتقهر الفضل في تحويل القنال الانجليزى إلى ما يشبه الخندق المائي الحالى لهذا «الحصن الذى شيدته الطبيعة . . ليدرأ عنها شر المرض وذراع الحرب»[1] (كما قال شكسبير) . فلم يعف الاقتصاد الانجليزى من نهب الجنود المغيرين وسلبهم فحسب ، بل غذته وحفزته حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة في القارة ، ومن هنا هذا التوسع الزائد في صناعات النسيج والمعادن ، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج والمصانع تستكثر منه .

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات . وكانت كندا وأغنى بقاع الهند المثمرة التي وقعت من نصيب انجلترة في حرب السنين السبع . وأكسبت رحلات كرحلات الكبتن كوك (١٧٦٨ — ٧٦) الامبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الاستراتيجية في الحرب والتجارة وثبت انتصار رودنى على دجراس (١٧٨٢) — السيطرة البريطانية على جميكا ، وبربيدوس ، وجزر البهاما . ثم ظفرت بنيوزيلنده في ١٧٨٧ ، وباستراليا في ١٧٨٨ . وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس في القرن الثامن عشر. وكانت التجارة مع المستوطنات الانجليزية في أمريكا الشمالية تستخدم ١,٠٧٨ — سفينة و ٢٩,٠٠٠ ملاح[2] . وازدهرت لندن وبرستل ولفربول وجلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطلنطى هذه . وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطعام والتبغ والتوابل والشاى والحرير والقطن والخامات والذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسوم العالية عليها وثبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا . ولم تقم مكوس داخلية (كتلك التي عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا) عقبة في سبيل انتقال السلع في أرجاء انجلترة واسكتلنده وويلز ، وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة للتجارة الحرة في غربى أوربا . وحظيت الطبقتان العليا والوسطى بربحاء عظيم جداً ، وبقدرة شرائية كانت حافزاً إضافياً للإنتاج الصناعى .

ولم تكن النقابات الحرفية كفؤا لتلبية حاجات الأسواق المتسعة فى الداخل والخارج . لقد أسست أولا لسد حاجات البلدة وما حولها ، وغلت يدها نظم عتيقة ثبطت الابتكار والتنافس والاقتحام ، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية ، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع ، أو لحساب الطلبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبيتها . وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً « مقاولون » ومتعهدون يعرفون كيف يجمعون المال ، ويتوقعون الطلب أو يخلقونه ، ويحصلون على الخامات ، وينظمون الآلات والعمال للإنتاج لأسواق فى كل أركان المسكونة .

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية ، ومن غنائم الحرب ، ومراكب القرصنة ، ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة ، ومن الثروات الكبيرة التى تحققت فى تجارة الرقيق أو فى المستعمرات . كان الانجليز يرحلون عن بلادهم فقراء ، فيعود بعضهم أغنياء . ففى تاريخ مبكر (١٧٤٤) أتيح لخمسة عشر رجلا عائدين من جزر الهند الغربية من المال ما يكفى لشراء انتخابهم للبرلمان[٣] . وما وافى عام ١٧٨٠ حتى كان « النوابون » Nabobs الذين أثروا فى الهند قوة فى مجلس العموم ، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاستثمار . وبينما كان النبلاء فى فرنسا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، كان نظراؤهم فى انجلتره معفين من هذا الحظر ، ونمت الثروة المتأصلة فى الأرض بفضل استثمارها فى المشروعات التجارية ؛ من ذلك أن دوق بردجووتر غامر بميراثه فى تعدين الفحم . وأودع آلاف البريطانيين مدخراتهم فى المصارف التى كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة . وانتشر مقرضو المال فى كل مكان : فقد اكتشف المصرفيون أن أيسر طرق الأثراء هى التعامل فى نقود غيرهم . فكان فى لندن عشرون مصرفاً فى ١٧٥٠ ، وخمسون فى ١٧٧٠ ، وسبعون فى ١٨٠٠[٤] . وعد بيرك اثنى عشر مصرفاً خارج لندن فى ١٧٥٠ ؛ وفى ١٧٩٣ كان هنالك أربعمائة[٥] . وأضافت النقود الورقية إلى الانفتاح المخصب ، فبلغت فى ١٧٥٠ اثنين فى المائة من العملة وفى ١٨٠٠ بلغت عشرة فى المائة[٦] . وغمرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نثرت التجارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة .

واحتاجت الحوانيت والمصانع المتكاثرة إلى رجال . وتعاظم المدد الطبيعي من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التي لم تعد قادرة على كسب قوتها من الفلاحة . وطالبت صناعة الصوف المزدهرة بالصوف ؛ وانتزع المزيد من الأرض من الفلاحة وخصص للرعي ؛ وحلت الأغنام محل الرجال ؛ ولم تكن قرية « أوبرن » (التي حزن عليها جولد سمث (القرية المهجورة الوحيدة في بريطانيا . ففي الفترة من ١٧٠٢ إلى ١٧٦٠ كان هناك ٢٤٦ قانوناً برلمانياً يصرح بنزع اربعمائة فدان من الزراعة ، ومن ١٧٦٠ إلى ١٨١٠ كان هناك ٢٠٤٣٨ قانوناً ، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً(٧) . ولما تحسنت الآلات الزراعية ، لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة ، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها ، فباع الألوف من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء في مزارع واسعة أو في مصانع ريفية أو في المدن . وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضي ، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار ، أو الفلاحين الملاك ، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحربية والأخلاقية لانجلتره . وزادت أثناء ذلك الهجرة من ايرلنده والقارة اعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال في المصانع .

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً في التحول الاقتصادي الذي طرأ على انجلتره القرن الثامن عشر . وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز في الغازات ، وجوزف بلاك في الحرارة والبخار ، على تحسين الآلة البخارية . وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عمليين يحبذون الدراسات التي يرجى تطبيقها على الصناعة . كذلك كان استعداد البرلمان البريطاني لمراعاة الاعتبارات المادية ، ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه ، فإن العديد منهم شاركوا في التجارة أو الصناعة ، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التي فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد . وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة — وترك الأجور والأسعار حرة في الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطلب — هؤلاء ظفروا بتأييد عدة زعماء

برلمانيين ، فتحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات . وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق انجلتره فى الثورة الصناعية .

٢ — مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هى الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع . ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها انجلتره بالحديد والفحم وسيولة الطرق . ولكن الحديد على الصورة التى جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التى لابد من إزالتها بصهره بالنار . كذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التى أزيلت بتسخينه أو « طهوه » حتى يستحيل إلى «الكوك» وتحول خام الحديد المحمى المنقى لدرجات متنوعة بالكوك المحروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب .

ورغبة فى زيادة الحرارة بنى ابراهام داربى (١٧٥٤ وما بعدها) أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافى من منفاخ تشغله ساقية . وفى ١٧٦٠ استعاض جون سميتن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى ؛ ورفع تيار الضغط العالى الثابت إنتاج الحديد الصناعى من اثنى عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن فى اليوم[٨] . ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله فى مئات النواحى الجديدة . مثال ذلك أن رتشرد رينولدز بنى فى ١٧٦٣ أول سكة حديد معروفة — وكانت طرقاً حديدية يسرت إحلال المركبات محل خيول الحمل فى نقل الفحم والحديد .

وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعى وأثروا ثراء طائلا باستخدامهم الحديد فى أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن . مثال ذلك أن جون ولكنسن وأبراهام داربى الثانى أقاما أول قنطرة حديدية على نهر سفرن (١٧٧٩) . وأضحك ولكنسن انجلترة حين اقترح بناء سفينة حديدية . وقال بعضهم إنه جن . ولكنه وقد اعتمد على المبادىء التى أرساها أرخميدس . ركب

بألواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (١٧٨٧) . وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التي أقامها والكنسن ، أو رتشرد كرونشي أو أنتونى بيكن . وأصبحت برمنجهام القريبة من طبقات هائلة من الفحم والحديد أهم مركز لصناعة الحديد فى انجلتره . ومن هذه الورش تدفق إلى ورش انجلتره ومصانعها الجديد من العدد والآلات الأكثر قوة واحتمالا والأحق بالاطمئنان إليها .

وكان الفحم والحديد ثقيلين غالي النقل إلا بالماء . وأتاح الساحل الغنى بالفجوات العميقة للنقل البحرى الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى. وكان لابد من احداث ثورة فى وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية Turnpikes التي بنيت بين ١٧٥١ و ١٧٧١ . (وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة turnstiles المرشوقة بالمناخس التي تعوق المرور حتى تدفع المكوس) (٩) . وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية . وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل ، وأخلى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات البريد . على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليصونوها وسرعان ما تدهورت حالها .

إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية . لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة ، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات . وقد تحول جيمس برندلى ، الذى لم يكن له حظ من التعليم النظامى أو الفنى ، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات فى جيله ، إذ حل عمله الميكانيكى مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقايات . وفى ١٧٥٩ -- ٦١ شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق بردجووتر فى ورسلى ، فأنقص هذا إلى النصف ثمن الفحم فى مانشستر ، ولعب دوراً رئيسياً فى جعل تلك المدينة حاضرة صناعية . وكان من أجمل المناظر فى انجلترة القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برندلى -- بردجووتر الممتدة بسقاية تعلو تسعة وتسعين قدماً فوق نهر ايرويل فى بارتن . وفى

١٧٦٦ بدأ برندلى شق قناة الجراند ترنك التى ربطت نهرى ترنت ومرزى ففتحت بذلك طريقاً مائياً عبر وسط انجلترة من البحر الإيرلاندى إلى بحر الشمال . وربطت قنوات أخرى نهر ترنت بالتيمز ، وما نشستر بليفربول ؛ ولم تنقضى ثلاثون سنة حتى خفضت مئات القنوات الجديدة تكاليف نقل التجارة فى بريطانيا تخفيضاً كبيراً .

أما وقد توفر الثورة الصناعية المواد والوقود والنقل ، فقد بقى عليها بعد ذلك أن تستكثر من السلع . وكان الطلب على الآلات اللازمة لتعجيل الإنتاج على أشده فى المنسوجات . فالناس فى حاجة إلى الكساء ؛ والجنود والسبايا كان يجب تموينهم بالأزياء الخاصة بهم . وكان القطن يدخل انجلترة بمقادير تتزايد بسرعة — ثلاثة ملايين رطل فى ١٧٥٣ . واثنان وثلاثون مليوناً فى ١٧٨٩[١٠] ، ولم يكن فى طاقة العمل اليدوى أن يصنع بضائع معقولة فى الوقت الذى يلبى فيه الطلب . إن تقسيم العمل الذى كان قد تطور فى حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه .

وكان جون كاى قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر (١٧٣٣) ، ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر (١٧٣٨) . وفى ١٧٦٥ غير جيمس هارجريفز ، وهو من أهالى مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل فجعلها أفقية بدل أن تكون رأسية ، وركب عجلة فوق أخرى ، وشغل ثمانى منها ببكرة واحدة وسير ، ونسج ثمانية خيوط فى وقت واحد ؛ ثم أضاف مزيداً من القوة لمزيد من المغازل حتى استطاع مغزله Spinning jenny (وجنى هو اسم زوجته) أن ينسج ثمانين خيطاً فى وقت واحد . وخشى الغزالون اليدويون أن تفقدهم هذه البدعة حرفتهم وقوتهم . فحطموا آلات هارجريفز فهرب بحياته إلى نوتنجهام حيث أتاح نقص العمال لمغازله أن تركب . فلما جاءت سنة ١٧٨٨ كان عددها فى بريطانيا قد بلغ عشرين ألفا . وكانت عجلة الغزل بسببها إلى أن تصبح حلية رومانسية .

وفى ١٧٦٩ وفق رتشرد آركرايت بناء على اقتراحات ميكانيكيين شتى فى تطوير « إطار مائى » تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن

بين سلسلة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة . وحوالى عام ١٧٧٤ جمع صموئيل كرومتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آركرايت فى آلة هجين لقبها ظرفاء الانجليز « بغلة كرومتن » : فكانت حركة المغازل المتعاقبة إلى الخلف وإلى الإمام بالتناوب تمد الخيط وتفتله وتلفه فتجعله أرفع وأقوى ؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذى تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج . وكانت المغزلة القديمة (الجنى) والإطار المائى يصنعان من الخشب ، أما البغلة فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد ١٧٨٣ ، وأصبحت من المتانة بحيث تحتمل سرعة التشغيل الآلى وضغطه .

وكانت الأنوال الآلية التى تشغل بالكرانك والأثقال تستعمل من قبل فى ألمانيا وفرنسا ، ولكن حدث فى ١٧٨٧ أن شيد إدموند كارترايت فى دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولا بقوة الحيوان المحركة . وفى ١٧٨٩ استبدل بهذا المحرك آلة بخارية . وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من مانشستر فى إنشاء مصنع كبير يدار فيه أربعمائة نول بالبخار . وهنا أيضاً ثار العمال ، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسيه . وبنيت فى العقد التالى أنوال آلية كثيرة ، حطم المشاغبون بعضها ونجا بعضها وتكاثر ، وانتصرت الآلات .

وكان مما أعان انجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة من أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير . فأقيمت الطواحين والمصانع فى القرن الثامن عشر فى الريف أكثر مما أقيمت فى المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكفى لإدارة عجلات كبيرة . هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لو لم يحل البخار قط محل الماء قوة محركة ، وأن تختلط الصناعة بالزراعة فى الريف بدلا من أن تحشد فى المدن . ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيح الوسيلة الأقل ، وقد وعدت الآلة البخارية (التى تألقت هى أيضاً — إلى وقت قريب — بوهج رومانسى) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم فى أى زمان مضى .

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لاثمرة لها تماماً . ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الاسكندرى (٢٠٠ م ؟) ، لأن دنتن بابين وصف جميع مكونات ومبادىء آلة بخارية عملية فى ١٦٩٠ . ثم صنع تومس سافرى مضخة يديرها البخار فى ١٦٩٨ . وطورها تومس نيوكومن (١٧٠٨ — ١٢) إلى آلة يكثف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخارى المولد من الماء المحمى ، ويدفع فيها تناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل ؛ هذه « الآلة الهوائية » ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية فى ١٧٦٥ .

وكان وات بخلاف معظم مخترعى ذلك الجيل طالباً كما كان رجلا عملياً . كان جده معلم رياضيات ، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً بلدة جرينوك فى جنوب غربى اسكتلنده . ولم يحظ جيمس بتعليم جامعى ، ولكنه كان ذا تطلع خ ق واستعداد ميكانيكى . ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التى وبخته قائلة « لم أر قط ولداً خاملا مثلك . . . فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة ، بل نزعت غطاء تلك الغلاية ، ثم أعدته إلى مكانه ، ثم أمسكت تارة قلنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز ، وممسكاً بالقطرات محصياً إياها[١١] » . وفى القصة رائحة الأسطورة ، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها « ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاى » ، وجاء فى مخطوط آخر : « أخذت أنبوبة زجاجية ملوية وأدخلتها فى فم غلاية شاى ، وغمرت الطرف الآخر فى ماء بارد »[١٢] .

وحين بلغ وات العشرين (١٧٥٦) حاول أن يبدأ عمله فى ج سجو صانعاً للأدوات العلمية . وأبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل فترة التلمذة كلها ، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضها . واختلف إلى محاضرات الكيمياء التى يلقيها جوزيف بلاك ، وكسب صداقته ومساعدته ، واهتم خاصة بنظرية بلاك فى الحرارة الكامنة[١٣] .

ثم تعلم الألمانية والفرنسية والإيطالية ليقرأ الكتب الأجنبية بما فيها كتب الميتافيزيقا والشعر . وقد راع السير جيمس روبيسن تنوع معلوماته . وكان يعرفه فى تلك الآونة (١٧٥٨) . فقال « رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا . ولكنى وجدت فيلسوفاً »(١٤) .

وفى ١٧٦٣ طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلة نيوكومن كان يستعمل فى تدريس الفزياء . وأدهشه أن يجد ثلاثة أرباع الحرارة التى تمد بها الآلة تضيع هباء . فبعد كل ضربة كباس تفقد الأسطوانة الحرارة من جراء استعمال الماء البارد لتكثيف كمية البخار الجديدة التى تدخل الأسطوانة ، فقد كان قدر كبير من الطاقة يتبدد حتى حكم أكثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية . واعتزم وات تكثيف البخار فى وعاء منفصل لا تؤثر درجة حرارته المنخفضة فى الأسطوانة التى يتحرك فيها الكباس . وزاد هذا « المكثف » كفاءة الآلة فى نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدى قرابة ثلاثمائة فى المائة . يضاف إلى هذا أن الكباس بفضل اصلاح وات للآلة أخذ يحركه تمدد البخار لا الهواء ، لقد صنع وات آلة بخارية لامراء فيها .

أما الإنتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العملى فقد أفنى اثنى عشر عاماً من حياة وات . ولكى يصنع عينات ويحدث تحسينات متعاقبة فى آلته اقترض أكثر من ألف جنيه ، أكثرها من جوزف بلاك . الذى لم يفقد إيمانه به قط . وتنبأ جون سميتن ، وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً ، بأن آلة وات لا يمكن « تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع أجزائها بالدقة الكافية »(١٥) . وفى ١٧٦٥ تزوج وات . وكان عليه أن يكسب مزيداً من المال . فنحى اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسة ، فرسم تصميمات الثغور والكبارى والقنوات . وخلال ذلك قدمه بلاك إلى جون روبك الذى كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التى تمد بالوقود مصانع الحديد التى يملكها فى كارون . وفى ١٧٦٧ وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات . وذلك لقاء ثلثى الأرباح التى تتحقق من التركيبات

أو المبيعات . ورغبة فى حماية استثمارهما طلب وات فى ١٧٦٩ إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آلته ، فمنح البراءة حتى عام ١٧٨٣ . وأقام هو وروبك آلة بخارية قرب أدنبره ، ولكن صنعة الحدادين الرديئة تسببت فى فشلها ؛ وفى بعض الحالات كانت الأسطوانات التى صنعت لوات أكبر فى قطرها ثمن بوصة فى طرف منها فى الآخر .

وباع روبك نصيبه فى الشركة إلى ماثيو بولتن (١٧٧٣) بعد أن فتت النكسات فى عضده . وبدأ الآن ارتباط ملحوظ فى تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ فى تاريخ الصناعة . ذلك أن بولتن لم يكن مجرد إنسان يجرى وراء الربح ، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أنفقده ثروته فى هذا السبيل . ففى ١٧٦٠ تزوج وهو فى الثانية والثلاثين من امرأة غنية ، وكان فى وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها ، ولكنه بدلا من هذا بنى فى سوهو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع انجلترا ، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات . وكان يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات فى مبانى مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار . وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن ، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التى ثقبت بغير دقة . فغامر مغامرة محسوبة مفترضاً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه . وفى ١٧٧٤ نقل آلة وات إلى سوهو ، وفى ١٧٧٥ لحق بها وات . ومد البرلمان أجل البراءة من ١٧٨٣ إلى ١٨٠٠ .

وفى ١٧٧٥ أخترع كبير الحدادين ولكنسن قضيب ثقب أسطوانياً مجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير . وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تبيع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم فى طول بريطانيا وعرضها . وقد زار بوزويل سوهو فى ١٧٧٦ وكتب يقول :

« لقد تفضل على مستر هكتور بمرافقتى لرؤية مصانع مستر بولتن الكبرى . . . ووددت لو كان جونسن معنا ، لأنه كان مشهداً كان يسرنى

أن أتأمله على ضوء علمه . ولقد كانت ضخامة بعض الآلات وتعقدها خليقة بأن تكون قريعاً لعقله الجبار . ولن أنسى ما حييت عبارة مستر بولتن التى قالها لى « إننى ياسيدى أبيع هنا ما يريد العالم كله أن يملكه — القوة المحركة » . وكان يشتغل بمصنعه نحو سبعمائة نفس . وقد رأيت فيه « زعيم قبيلة حديدياً ، وبدا أنه أب لقبيلته »[١٦] .

على أن آلات وات البخارية كانت لاتزال ناقصة ، وقد جاهد على الدوام لتحسينها . ففى ١٧٨١ سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة ؛ مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكنات العادية . وفى ١٧٨٢ سجل آلة بخارية ثنائية العمل ، يتلقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف . وفى ١٧٨٨ سجل اختراع « ضابط على شكل بلية طياره » ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المتماثلة فى الآلة . وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة ، وكان على وات أن ينتظر حلول عام ١٧٨٣ حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ فى أن تؤتى ثمراتها . فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشيط ، وواصل العمل فى شركة بولتن ووات أبناؤهما . وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة ، واستمتع بشيخوخة رضية ، ومات ١٨١٩ وقد بلغ الثالثة والثمانين .

وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة فى هذا العصر الزاخر الذى « يملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره ، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره »[١٧] على حد قول الدين تكر . وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروى وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ مبلل من الورق الرفيع (١٧٨٠) : وطبق أحد موظفيه المدعو وليم مردوك آلة وات البخارية على الجر ، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال فى الساعة (١٧٨٤) ، وقاسم مردوك رجلا فرنسياً يدعى فليب لوبون أمتياز استعمال غاز الفحم فى الإضاءة ، وأنار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (١٧٩٨) ، والمنظر المحورى للاقتصاد الانجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة

وتزيد السرعة ، وتسخر نفسها للآلات فى عشرات الصناعات ، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار (١٧٨٥ وما بعدها) ، وتغير وجه الريف ، وتغزو المدن ، وتحجب السماء بغبار الفحم وأبخرته ، وتختبىء فى أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة انجلترة على البحار .

واقتضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة ، المصانع ورأس المال . وكانت مقومات الصناعة — وهى الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال — تتعاون على خير وجه إذا جمعت فى مبنى أو مصنع واحد ، وفى تنظيم وضبط واحد ، تحت رئيس واحد . لقد كانت المصانع موجودة من قبل ؛ ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق ، وأصبح « نظام المصنع » علماً على النظام الجديد فى الصناعة . فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكلفة ، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه ، وتسلطت المصارف على المصانع ، واتخذ المركب كله اسم الرأسمالية — وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون . أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة ، وتحررت المشروعات الصناعية تحرراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية ، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكل من جديد وجه بريطانيا وسماءها وروحها .

٣ — ملابساتها

كان على صاحب العمل والعامل كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهاراتهما وعلاقاتهما . فأما صاحب العمل الذى أخذ يتعامل مع عمال لايفتأ عددهم فى ازدياد ، وفى دورة أسرع لرأس المال ، فقد فقد الصلة الحميمة بهم ، واضطر أن ينظر إليهم لابوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك ، بل يشتغلون جزئيات فى عملية لايحكم عليها إلا بالأرباح . وكان معظم الحرفيين قبل ١٧٦٠ فى ورش النقابات أو فى بيوتهم حيث لاتكون ساعات العمل صارمة لاتلين ، وحيث يسمح بفترات للراحة ؛ وفى عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتى بربح . وعلينا ألا نتمثل حال الرجل

من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية فى صورة مثالية ؛ ولكننا لانخطىء إذا قلنا أن المشاق التى تعرض لها آنئذ كانت تخفف منها التقاليد ، والتعود ، والهواء الطلق فى كثير من الحالات . فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل ، وزيادة أجره ، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التى ازداد تدفقها من الآلات . ولكن تصف القرن الذى حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد ١٧٦٠ ، كان لعمال انجلتره نصف قرن حافلا بالذل اللا إنسانى الذى كان أحياناً شراً من العبودية .

كان أكثر المصانع فى تلك الفترة يشترط اثنتى عشرة ساعة إلى أربع عشرة من العمل فى اليوم على مدى ستة أيام فى الأسبوع [١٨] . وكانت حجة أرباب العمل أنه لامفر من الاحتفاظ بالعامل ساعات طويلة لأنه لايمكن الاعتماد عليه فى الحضور بانتظام : ذلك أن عمالا كثيرين كانوا يسرفون فى الشراب يوم الأحد اسرافاً يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الإثنين ؛ وكان هؤلاء — بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون بيوتهم فى الثلاثة الباقية . وقد فسر آدم سمث هذه الظاهرة فقال « أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو فى حالات كثيرة السبب الحقيقى للتبطل فى الأيام الثلاثة الباقية » ؛ ونبه إلى أن اطالة فترة العمل أو الزيادة فى سرعته قد تؤدى إلى الانهيار البدنى أو العقلى ؛ وأردف « أن الرجل الذى يعتدل فى العمل اعتدالا يمكنه من أن يعمل باستمرار لايحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدى أكبر قدر من العمل » [١٩] .

أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار . ففى ١٧٧٠ كان رغيف الخبز الذى يزن أربعة أرطال فى نتنجهام يباع بنحو ستة بنسات ، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة ، ورطل الزبد بسبعة . وقد حسب آدم سمث حوالى عام ١٧٧٣ متوسط أجر العامل اللندنى بعشرة شلنات ، وفى المراكز الأصغر بسبعة ، وفى إدنبره بخمسة [٢٠] . وقال آرثر يونج حوالى عام ١٧٧٠ أن الأجر الأسبوعى للعامل الصناعى الانجليزى

يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً . وظاهر أن الأجور كانت أقل كثيراً بالنسبة للأسعار منها الآن ، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعي . وبعد ١٧٩٣ ، حين بدأت انجلترا حربها الطويلة مع فرنسا الثائرة ، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور ، وبات الفقر مدقعاً .

وأوصى كثير من اقتصاديي القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل . وحتى أرثر يونج صرح بهذا الرأى ، وهو الذى أزعجه ما شهده من فقر فى بعض أقاليم فرنسا : « لا يجهل إلا أبله أنه لابد من الإبقاء على فقر الطبقات الدنيا وإلا لما نشطت أبداً »[٢١] . أو كما قال ج. سمث :

« من الحقائق التى يعرفها جيداً كل خبير بهذا الموضوع أن العوز ، إلى حد ما ، يحفز على الاجتهاد ، وأن الصانع (أى العامل اليدوى) الذى يستطيع العيش على شغل ثلاثة أيام ، سيظل متبطلا سكران بقية الأسبوع . ويمكننا على العموم أن نؤكد منصفين أن خفض الأجور فى صناعة الصوف سيكون بركة على الشعب ، ولن يضار منه الفقراء حقيقياً . وبهذه الطريقة قد نحسن تجارتنا ، وندعم دخولنا ، ونصالح الشعب بالإضافة إلى هذه المنافع »[٢٢] .

واستخدمت النساء والأطفال فى المصانع ، عادة لأداء العمليات التى لا تحتاج إلى مهارة . وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لا تقل عن أجور أزواجهن ، ولكن الأجور العادية لعاملات المصانع بلغت فى المتوسط ثلاثة شلنات وستة بنسات — ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر[٢٣] . وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها فى ١٧٨٨ تشغل ٥٩٠٠٠ امرأة و ٤٨٠٠٠ طفل[٢٤] . وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفا وألف طفل فى مصانعه بلانكاشير[٢٥] . ولم يكن تشغيل الأطفال بدعاً فى أوربا ، فقد كان أمراً مسلماً به فى المزارع والصناعة الأسرية . وإذ كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضى إلى فائض فى المتعلمين

وندرة فى العمال اليدويين ، فإن قلة قليلة جداً من الانجليز فى القرن الثامن عشر هى التى رأت ضيراً فى ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلا من المدرسة . وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها ، رحب أصحاب المصانع بالغلمان والفتيات ذوى الأعوام الخمسة أو يزيد . وكان المسئولون فى الأبرشيات الذين ضاقوا بالإنفاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتبطين ، أحياناً فى أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة ؛ وفى حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلا معتوهاً واحداً فى كل عشرين طفلا[٢٦] . وكان يوم العمل العادى للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة . وكثيراً ماكانوا يسكنون جماعات ، وفى بعض المصانع كانوا يعملون فى ورديات من اثنتى عشرة ساعة ، بحيث ندر أن توقفت الآلات أوخلت الأسرة من شاغليها . وكان النظام يحفظ باللطم أو الركل . وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درئه فى صبيان المصانع هؤلاء ؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوهات فى جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة ، ومنهم من قتل نفسه . وكان فى بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفى لذم تشغيل الأطفال هذا ، على أن هذا التشغيل تقلص لا لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة ، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً .

وأخضع الأطفال والنساء والرجال فى المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل . وكانت المبانى فى حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة ، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشى المرض . وكانت القواعد صارمة ، وانها كانتها تعاقب بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه [٢٧] . وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات ، والعادات المتسيبة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة — كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضى الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق فى داخل البلاد وخارجها . واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاطل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته ، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون

إلى أخذ وظيفته ، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك « وعاء » من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أوالمرفوتين. وحتى العامل الكفء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفت إذا تشبعت السوق المتاحة بـ « إنتاج زائد » يفوق قدرتها الشرائية ، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن .

وكان العمال في ظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أوالبلدية ، أما في حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أي حماية إطلاقاً . وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت في انجلتره كما تقدمت في فرنسا ؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لايستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدى للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب . وكان قضاة الصلح يحتفظون من قبل ببعض الأشراف على الأجور في مصانع القرى ، أما في المصانع بعد ١٧٥٧ ، فلم يكن لهم أي اشراف[٢٨] . ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل في شئون أقطاب الصناعة ، وكان فيض الصادرات المتعاظم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية ؛ وكان الانجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات .

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا — رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التي يقومون عليها — فقراء عام ١٨٠٠ كما كانوا قبل قرن[٢٩] . ثم انهم لم يعودوا يملكون أدوات حرفتهم ، ولم يكن لهم نصيب يذكر في تصميم السلعة المنتجة ، ولم ينالوا كسباً من توسع السوق التي يغذونها . وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الأنجاب المرتفع الذي يؤتى ثماره في المزرعة ؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم في الشراب والجنس ، وظلت نساؤهم يقومن بعدد من يلدن من الأطفال . وانتشر الفقر المدقع ؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من ٦٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٤٢ إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في ١٧٨٤[٣٠] . ولم تستطع الزيادة في الإسكان أن

تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم ، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كئيبة . وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض . ولم يحل عام ١٨٠٠ حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أي ظروف عرفت في تاريخ انجلتره السابق .

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم . فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقير . وقرر البرلمان في ١٧٦٩ اعتبار تخريب الآلات جناية[٣١] . ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام ١٧٧٩ في حشد من الغوغاء تعاظم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف ؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة ؛ وصهروا الأطباق البيوترية ليصنعوا منها الأعيرة . وأقسموا أن يدمروا كل آلة في انجلتره . وفي بولتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً ؛ وفي أولدم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل (أبي السير روبرت الوزير) ، وحطموا أجهزته الغالية . وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آركرايت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول ، ففروا للفور مدحورين . وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق . وعالل قضاة الصلح هذا بأن « تدمير الآلات في هذا البلد لن يكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى . . . مما يؤذي تجارة بريطانيا[٣٢] . وطالب « صديق للفقراء » مجهول الهوية إلى العمال أن يتحلوا بمزيد من الصبر « أن كل التحسينات بواسطة الآلات ينجم عنها أول الأمر بعض المصاعب لأشخاص بعينهم . . . أو لم يكن أول أثر للمطبعة هو حرمان الكثير من النساخين من حرفهم ؟ »[٣٣] .

وحرم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية ؛ ومع ذلك وجدت « جمعيات العمال المهرة » التي يرجع بعضها إلى القرن السابع عشر . وفي القرن الثامن عشر كثر عددها لاسيما بين صناع النسيج . وكانت أولا أندية اجتماعية أو جمعيات لتبادل المنافع ، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً ، ونظمت أحياناً الاضرابات حين كان البرلمان يرفض

ملتمساتها . مثال ذلك أن السنتين ١٧٦٧ — ٦٨ شهدتا اضرابات للملاحين والنساجين وصانعي القبعات والخياطين وطاحني الزجاج ؛ وصاحب العديد من هذه الاضرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين[٣٤] . وقد أجمل آدم سمث النتائج حتى ١٧٧٦ :

« ليس من العسير أن نتكهن بانتصار أحد الفريقين حتماً » في النزاع في جميع الظروف العادية ، وإكراهه الفريق الآخر على الامتثال لشروطه . فأرباب الأعمال يستطيعون لقلة عددهم أن يتكتلوا بأسهل كثيراً من العمال ، والقانون . . . لا يحرم تجمعاتهم ، في حين يحرم تجمعات العمال . وليس لدينا قوانين برلمانية تمنع التكتل لخفض أجور العمال ، ولكن القوانين الكثيرة تمنع التكتل لرفعها . وفي جميع هذه النزاعات يستطيع أصحاب المصانع الصمود زمناً أطول بكثير . . . وكثير من العمال لا يستطيعون العيش وهم متعطلون ولو أسبوعاً واحداً ، وقليلون يستطيعونه شهراً وندر من يستطيعونه سنة »[٣٥] .

وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء في المصانع أو في البرلمان ؛ ففي ١٧٩٩ قضى مجلس العموم بعدم شرعية أي اتحادات ترمي إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل ، أو إلى انقاص كمية العمل المطلوبة من العمال . ويعاقب العمال الداخلون في تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال[٣٦] .

٤ — عواقبها

كانت نتائج الثورة الصناعية هي تقريباً كل شيء تلاها في انجلتره إذا استثنينا الأدب والفن ؛ وليس في الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين . على اننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغير المستمرة والتي لم تنته بعد .

١ — تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات — وهي عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة في إنتاج السلع وتوزيعها عن

طرائق عام ١٨٠٠ أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التى سادت قبلها بألفى عام .

٢ — انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالى والمشروعات الحرة . وكان آدم سمث الصوت البريطانى للنظام الجديد ، وأسبغ بت الثانى على النظام التكريس الحكومى فى ١٧٩٦ .

٣ — تصنيع الزراعة — أى الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً ، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أودولية — هذا التصنيع ماض فى طريقه اليوم . والمزرعة التى كانت تفلحها الأسرة تنضم إلى النقابات الحرفية فى ركب ضحايا الثورة الصناعية .

٤ — تشجيع العلم وتطبيقه وبثه . وقد انصب التشجيع أولا على البحوث العملية ولكن الدراسات فى العلم البحت أفضت إلى نتائج عملية هائلة ، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً ، وأصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين للحياة الوسيطة .

٥ — أعادت الثورة الصناعية (لانابليون كما توقع بيت الثانى) رسم خريطة العالم بضمانها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً للأرباح على مدى ١٥٠ عاماً . وقد عززت الأمبريالية لأنها حملت انجلتره — ثم غيرها من الدول الصناعية — على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب . وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أوتصونها ، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهمياً والتكافل واقعياً .

٦ — غيرت انجلتره طابعاً وحضارة بتكثير سكانها ، وتصنيع نصفها ، وتحريكها شمالا وغرباً إلى مدن مجاورة لمناجم الفحم أو الحديد ، أو للطرق

المائية أو البحر ؛ وهكذا نمت ليدز وشفيلد ونيوكاسل وما نشستر وبرمنجهام وليفربول وبرستل . . . وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من انجلتره ، ومن غيرها من الدول المصنعة ، إلى بقع ملطخة من الأرض تنفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغبار ، وأرسبت الخبث البشرى فى أحياء قذرة مدخنة بائسة .

٧ — ميكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصى ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة .

٨ — فرضت تحسيناً وسرعة فى المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت التحكم فى مناطق أوسع من رأس مال واحد .

٩ — ولدت الديمقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن ، وإلى التفوق السياسى نتيجة تدريجية لذلك . ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة فى حمايته ، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع متزايد من الجماهير ، واثقة من أن فى الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادىء . ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً فى التاريخ الحديث .

١٠ — وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم فى العمال والمديرين ، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل . وكان الهدف تدريب الذكاء التقنى ، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير فى الذكاء العلمانى .

١١ — نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أى نظام سابق لأنه لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتفاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع فى الشعب .

١٢ — أرهفت العقل الحضرى ، ولكنها بلدت الحس الجمالى ؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفى النهاية أقلع الفن نفسه عن نشدان الجمال . وكان من آثار إسقاط الارستقراطية عن عرشها — زوال حفظة المعايير والأذواق وحكمتها ، وهبوط مستوى الأدب والفن .

١٣ — رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه ، وأفضت إلى التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين ، وأفضت إلى نظريات ميكانيكية النزعة فى علم الأحياء نحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية .

١٤ — تضافرت هذه التطورات فى العلم ، والنزعات الشبيهة بها فى الفلسفة ، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع ، على إضعاف العقيدة الدينية .

١٥ — غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية . إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قوى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً ، مكدرة اجتماعيا . وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعاً ومكثفاً لأنانية الإنسان الفطرية . لقد كانت الغرائز غير الاجتماعية تجد كابحاً لجماحها فى سلطة الوالدين ، وفى التعليم الأخلاقى فى المدارس ، وفى التلقين الدينى . ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها . وكانت الأسرة فى النظام الزراعى هى وحدة الإنتاج الاقتصادى كما كانت وحدة الاستمرار العرقى والنظام الاجتماعى ؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذى يفرضه الأبوان والفصول ؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق . أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتى الإنتاج ، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادى لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية . وإذ أصبح تشغيل الأطفال غير مجز فى المدن لم يعد للأطفال نفع اقتصادى . وانتشر ضبط النسل ، وأكثر انتشاره بين الأفراد الأكثر ذكاء ، وأقله بين الأقل ذكاء ، مما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية : وإذ حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة وواجبات البيت ، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب ؛ وكان التحرير معناه التصنيع . وإذ استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التى طالت بين النضج البيولوجى والاقتصادى جعلت العفة السابقة للزواج أشق ، وحطمت الناموس الأخلاقى الذى كان ممكناً فى المزرعة بفضل النضج الاقتصادى المبكر ، والزواج المبكر ، والعقوبات الدينية

ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقة على غير هدى فى فترة فاقدة لحس المسئولية الأخلاقية ، بين ناموس أخلاقى يحتضر وآخر جديد لم يتشكل بعد .

وما تزال الثورة الصناعية ماضية فى طريقها قدماً ، وليس فى قدرة عقل واحد أن يستوعبها فى جميع مظاهرها ، أو أن يصدر حكماً أخلاقياً على نتائجها . ولقد ولدت مقادير وأنواعاً جديدة من الجرائم ، وألهمت العلماء كل ما اتصف به المبعوثون الدينيون والراهبات من اخلاص وتفان ، وأنتجت المبانى القبيحة ، والشوارع الكئيبة ، والأحياء الفقيرة القذرة ، ولكن هذه لم تكن مستمدة من صميمها ، وهو احلال القوة المكنية محل الجهد البشرى . وهى الآن تهاجم شرورها ، لأنها وجدت أن الأحياء الفقيرة القذرة تكلف أكثر من التعليم ، وأن التخفيف من الفقر يثرى الأغنياء . وفى استطاعة المعمار الوظيفى والبراعة الميكانيكية — كما نرى فى الكبارى مثلا — أن تخلقا جمالا يزاوج بين العلم والفن . وأخذ الجمال يصبح مجزياً . والتصميم الصناعى يتبوأ مكانه بين فنون الحياة وأسباب تجميلها .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

١٧٥٦ — ٩٢

١ — البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى انجلترا ، والصراع السياسى أكثر الدرامات اثارة فيها . فقد جعل عمالقة الخطابة الانجليزية — شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان — هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك ، وبين البرلمان والشعب ، وبين انجلتره وأمريكا ، وبين ضمير انجلتره وحكام الهند الانجليز ، وبين انجلتره والثورة الفرنسية . وكان البناء السياسى اطار المسرحية وأداتها .

كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية ، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية ، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان . أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكماً للسوابق باستثنائين ، أولهما المجناكارتا الذى وقعه الملك يوحنا فى ١٢١٥ ، والثانى نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر فى ١٦٨٩ (الذى عرض تاج انجلتره على وليم أورنج وزوجته مارى) بهذا العرض « قانونا يعلن حقوق وحريات الرعية ويسوى مسألة وراثة التاج » وقد أكد « قانون الحقوق » هذا كما سمى اختصاراً ، أن « سلطة وقف القوانين أو تنفيذ القوانين بأمر ملكى دون موافقة البرلمان غير قانونيه » وأن « جباية المال للتاج أو لاستعماله بدعوى الحق الملكى الخاص ، دون إذن البرلمان . . . عمل غير قانونى » ثم أردف : « ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن . . . أمير أورنج سوف

يحميهم (أى البرلمان) من انتهاك حقوقهم التى أكدوها هنا ، ومن أى اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحرياتهم ، فإن . . اللوردات الروحيين والزمنيين ونواب العموم . . يقررون أن يكون وليم ومارى ، أمير وأميرة أورنج ، وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على انجلتره وفرنسا وارلندة . » ومعنى هذا إن وليم الثالث ومارى الثانية بقبولهما العرش قبلا ضمنا القيود التى وضعتها أرستقراطية انجلتره المزهوة القوية على سلطة الملك بهذا التصريح. وحين عرض البرلمان فى «قانون تسوية» لاحق (١٧٠١) ، وبشروط معينة ، التاج على «الأميرة صوفيا» (الهانوفرية) وورثتها البروتستنت «افترض أنها هى وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على «قانون للحقوق» سلبهم كل الحق فى وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان . وبينما كانت جميع دول أوربا تقريباً حتى ١٧٨٩ يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها ، كان لانجلتره حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدها نصف العالم .

وقد قدر تعداد ١٨٠١[1] سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية :

١ — فى القمة ٢٨٧ نبيلا ونبيلة زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو ٧,١٧٥ شخصاً . وكان داخل هذه الفئة مراتب فى ترتيب تنازلى : أمراء الدم (الملكى) ، وأدواق ، وماركيزات ، وايرلات ، وفيكونتات ، وبارونات . وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلا بعد جيل .

٢ — ستة وعشرون أسقفاً — «لوردات روحيون» وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيون الـ ٢٨٧ أن يجلسوا فى مجلس اللوردات . وقد ألف هؤلاء معاً — وجملتهم ٣١٣ أسرة — طبقة النبلاء الأصليين ، ويصح استعمال لقب «لورد» لهم جميعاً إلا الأدواق والأمراء . وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية ، ودون حق توريثها ، بفضل التعيين فى الوظائف العليا فى الحكومة أو الجيش أو البحرية ؛ ولكن كان المتبع عادة أن يعين فى هذه الوظائف أشخاص رفعوا إلى مقام النبالة من قبل .

٣ — نحو ٥٤٠ بارونتا ، وزوجاتهم ، يحق لهم أن يضعوا لقب « سير » و« ليدى » فى صدر أسمائهم الأولى ، وأن يورثوا هذين اللقبين .

٤ — نحو ٣٥٠ فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين ، دون توريثهما .

٥ — نحو ستة آلاف « سكواير » Squires (e) وهم الـ « gentry » أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين . وكان البارونيتات ، والفرسان ، وهؤلاء الملاك ، وزوجاتهم ، يؤلفون « الطبقة الدنيا من النبلاء » ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم فى الطبقة « الارستقراطية » .

٦ — نحو عشرين ألف « سيد » (جنتلمان « أو سيدة » (ليدى) يعيشون على دخول دون عمل يدوى ، لهم شعارات نبالة ، ومفروض أنهم من أصل كريم « gentle » — أى ولدوا فى مجموعة الأسر العريقة المقبولة « gens » .

٧ — وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان ، الأكليروس الأدنى ، وموظفوا الدولة ، ورجال الأعمال ، والمزارعون ، وأصحاب المتاجر ، ومهرة الصناع ، والعمال ، والجنود ، والبحارة ، كذلك نحو ١٠٤,٠٠٠ من المعدمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو ٢٢٢,٠٠٠ من « المتشردين ، والغجر ، والأشرار ، واللصوص ، والمحتالين ، ومزيفى العملة البخسة ، داخل السجون أو خارجها ، وعامة البغايا» [٢] .

وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة ، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء الـ ٢٨٧ تسعة وعشرين فى المائة من الدخل القومى فى ١٨٠١)[٣] ، وبروزها فى الوظائف العليا مدنية أو حربية ، وهيبة عراقتها ، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع ، وكانت انجلتره من ناحية النظام الانتخابى مقسمة إلى أربعين اقليماً أو مقاطعة ريفية (Counties) و ٢٠٣ مدينة ذات ممثلين (boroughs) . وكان يستثنى من حق التصويت النساء ، والمعدمون ، والمجرمون المحكوم عليهم ، والكاثوليك الرومان ، والكويكرز ، واليهود ، واللاأدريون ، وغيرهم ممن

لايستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الانجليزية وعقائدها . ولم يكن حق التصويت للبرلمان مخولا فى الأقاليم إلا للملاك البروتستنت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً ، ومجموعهم نحو ١٦٠,٠٠٠ . ولما كان التصويت علنياً ، فإن قليلين جداً من الناخبين كانوا يجرءون على تأييد أى مرشح غير الذى رشحه كبار ملاك الإقليم ، ومن ثم لم يكترث بالتصويت الا نفر قليل نسبياً من الناخبين ، وكان الكثير من الإنتخابات يتقرر بترتيب يتفق عليه الزعماء دون اقتراع على الإطلاق . وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم — وهم يراهنون بالكثير فى سياسة الحكومة ومصير الأمة — أن يكون تمثيلهم فى البرلمان متناسباً مع ثروتهم . وقد وافق على هذا الرأى معظم صغار الملاك .

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية . ففى مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب ، وفى مدينة لندن كما كانت مكونة آنئذ ستة آلاف ؛ وفى برستل خمسة آلاف ؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة[٤] وفى اثنتى عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور؛ وفى معظم المدن الباقية اقتصر على ذوى الأملاك ؛ وفى عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم « تكتل » بلدى عرف بأنه « أولجركية حضرية من المحامين والتجار والسماسرة وصانعى الجعة ، تحصنت فى تكتل ينتخب ذاته ، وخولت له براءة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة »[٥]. وكان بعض هذه التكتلات يعطى صوته للمرشح (أو المرشحين) الذى يدفع راعيه (أو راعيهم) أغلى ثمن . فى ١٧٦١ أعلنت مدينة صدبرى صراحة عن بيع صوتها ؛ وفى الانتخاب التالى عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها فى البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية[٦] . وكان امتياز اختيار المرشح فى بعض المدن ملكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لاتسكن هناك بالضرورة ، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لو شاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجى للبرلمان[٧] . وكانت « دوائر الجيب » هذه تباع أحياناً كالسلع . فاشترى اللورد أجرمونت مدهرست ودفع فيها ٤٠,٠٠٠ جنيه[٨] وفى بعض « الدوائر

الفاسدة Rotten boroughs » كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر فى حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة . وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذى يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إثمال الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الأدلاء بصوته [٩] . وقد سيطر ١١١ « راع » على الانتخابات بمختلف الوسائل فى ٢٠٥ مدينة[١٠] . وبلغ عدد الناخبين نحو ٨٥,٠٠٠ فى المدن » و ١٦٠,٠٠٠ فى الأقاليم — والجملة ٢٤٥,٠٠٠ .

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم ٥٥٨ عضواً فى ١٧٦١ . فأرسلت أسكتلنده خمسة وأربعين ، وأقاليم انجلتره وويلز أربعة وتسعين ، والمدن ٤١٥ ، والجامعتين نائبين عن كل . وكان مجلس اللوردات يضم آنئذ ٢٢٤ من كبار النبلاء ، علمانيين أو روحيين . وكان « الامتياز البرلمانى » يشمل حق البرلمان فى إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع ، وفى فرض الضرائب وبهذا يملك « قوة المال » ، وفى الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم فى عضويته ، وأن يعاقب — بالسجن إن شاء — أى ضرر يلحق بأعضائه أو أى عصيان لقواعده ؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام ، بما فى ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التى يتفوه بها فى البرلمان .

أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار whigs فكان فى ١٧٦١ قد فقد تقريباً كل دلالة ، وكان الانقسام الحقيقى بين المؤيدين والمعارضين لـ « الحكومة » الحالية ، أو الوزراء ، أو الملك . وكان المحافظون بوجه عام يحمون مصالح ملاك الأرض ؛ والأحرار على استعداد بين حين وحين للنظر فى رغبات طبقة رجال الأعمال ؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء . ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير .

والمشروع لايصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك . وكان الملك يملك « الحق الملكى الخاص » أى السلطات ، والامتيازات ،

والحصانات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الانجليزيين . فكان له سلطات حربية : فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، يستطيع اعلان الحرب ، ولكنه يحتاج إلى المخصصات البرلمانية ليخوضها ؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام المعاهدة وعقد الصلح . وكان له بعض الحقوق التشريعية ، فهو يستطيع الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان — ولكن كان فى استطاعة البرلمان أن يحمله على الموافقة بما يملك من قوة المال ، وعلى ذلك لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص ، ولكنه لايستطيع تغيير القانون العام ، أو استحداث جريمة جديدة ؛ أما المستعمرات فيستطيع أن يشرع لها كما يشاء . وكان له سلطات تنفيذية . فله وحده أن يدعو البرلمان أو يؤجله أو يفضه ، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة . وكان بعض الضجة التى اصطخبت فى العقود الأولى (١٧٦٠ — ٨٢) من حكم جورج الثالث الذى امتد ستين عاماً يدور حول مدى حق الملك فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة .

وقد ضيق حق الملك فى التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التى يقترحها وزراؤه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسى البرلمان كليهما بقبولها . وكان هذا يتم بالمساومات السياسية ، أو بالوعد بالمناصب أو المعاشات أو بقبضها ، أو بالرشوة (فى ١٧٧٠ كان أكثر من ١٩٠ عضواً فى مجلس العموم يملكون وظائف تعيين فى الحكومة) . أما الأموال والمكافآت التى تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتى من « القائمة المدنية » للملك ، وهى حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (المخصصات الملكية) ، ولبيوته وخدمه ، وللرواتب التى يدفعها ، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة . وقد خصص البرلمان لجورج الثالث ٨٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام لهذه القائمة المدنية ؛ ولكنه كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ فى نفقاته ؛ وفى ١٧٦٩ أضاف البرلمان ٥١٣,٥١١ جنيهاً ، وفى ١٧٧٧ أضاف ٦١٨,٣٤٠ جنيهاً ليدفع الديون الملكية . وكان بعض مال الملك يستخدم فى شراء الأصوات فى الانتخابات البرلمانية(١١) ،

وبعضه لشراء الأصوات فى البرلمان نفسه . وفى حالات كثيرة كانت الاعتمادات التى يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاوى. فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذى ينفقه فى الانتخابات أو التشريع « النوابون » العائدون إلى انجلتره بثروة جمعوها فى الهند ، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تفادى تدخل الحكومة ، اكتملت لنا صورة للفساد السياسى منقطعة النظير غربى الأودر ، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور .

وينبغى أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطانى . فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً ؛ وربما كان هذا عاملا من عوامل الاحترام الذى أبداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء . ولم يسمح البرلمان بجيش دائم — بل سمح بمليشيا فقط ؛ وكان هذا عاملا صغيراً فى ثراء انجلتره المتفوق فى وقت كانت فرنسا تنفق فيه على جيش دائم عدته ١٨٠,٠٠٠ مقاتل وبروسيا ١٩٠,٠٠٠ ، وروسيا ٢٢٤,٠٠٠ . على أنه فى زمن الحرب كانت القوات المسلحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه ، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة ، وألوان القسوة الموحشة فى حياة الجيش والبحرية ، أطيافاً قاتمة تلوث المسرح الانجليزى .

وفى رأى بلاكستون (حوالى ١٧٦٥) أن بناء انجلتره السياسى كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم فى تلك الحقبة . وقد استشهد بالرأى القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، وقد وجد هذه كلها « مجتمعة اجتماعاً حسناً وموفقاً » فى الدستور البريطانى . يقول :

« فبما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد ، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التى توجد فى أكثر الملكيات استبداداً ؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث ، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض ؛ أولا الملك ، ثانياً اللوردات الروحيين والزمنيين الذين

يؤلفون مجلساً أرستقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أو حكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم ؛ ثالثاً مجلس العموم الذى يختاره أفراد الشعب اختياراً حراً من بينهم ، مما يجعله نوعاً من الديمقراطية ؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التى تحركها مختلف الدوافع والتى تعنى بمختلف المصالح . . . لها التصرف الأعلى فى كل شىء ، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أى فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخران ؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفى لصد أى بدعة تراها غير لائقة أو خطرة . هنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطانى ، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع(١٢) .

وقد تبتسم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيه قانونى شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالى المريح ، ولكن أغاب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون فى المائة من الشعب الانجليزى أيام جورج الثالث .

٢ — أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حواهم التاريخ الانجليزى . فعلى القمة جورج الثالث الذى تربع على العرش طوال الأعوام المنحوسة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) التى مرت بانجلتره خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون . وكان أول الملوك الهانوفريين المولودين فى انجلتره ، أول من نظر إلى نفسه كرجل انجليزى ، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الانجليزية . وهو حفيد جورج الثانى ، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذى كان قد مات فى ١٧٥١ . وكان ملك المستقبل جورج الثالث آنئذ فى الثانية عشرة من عمره . وخافت عليه أمه ، أوجستا أميرة ساكسى — جوتا من « شباب الطبقة العليا الأراذل سيىء التربية » الذين كانت تلقاهم ، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات ، ونشأته — واحداً من ثمانية أطفال — فى عزلة مانعة عن الألعاب والأفراح والضجيج والتفكير فى أترابه وفى جيله . ومن ثم شب هياباً ، كسولا ، متديناً ، سيىء التعليم ، تعساً . وقد قال لأمه اللوامه « لو أننى رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما تجعليننى(١٤) » . وقد بثت فيه احتقارها لجده لأنه أطاق تسيد البرلمان ، وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة ، « كن ملكاً يا جورج ! » — وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد .

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها الشك تنسب إلى الفتى شرف التأثر بكتاب بولنجبروك « مفهوم الملك الوطني » (١٧٤٩) الذى حث الحكام على « أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكوا » وأن يسنوا القوانين لتحسين الحياة الانجليزية [١٥] (مع « السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التى يملكها » . وقد وصف اللورد وولد جريف جورج فى عام ١٧٥٨ ، وكان أحد معلميه ، بأنه « أمين غاية الأمانة ، ولكنه يفتقد ذلك السلوك الصريح المفتوح الذى يجعل الأمانة صفة محببة . . . وهو لا يفتقر إلى العزيمة ، ولكنها مشوبة بعناد شديد . . . وفى طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة . . . مما سيكون مصدراً لقلق دائم » [١٦] . وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية الحقبة التى كان عقله فيها سليماً .

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بجون ستيوورت ، ايرل بيوت ، أمين الأرواب فى البيت الأميرى . وكان بيوت فى الثامنة والثلاثين فى ١٧٥١ ، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً بمارى ورتلى مونتجيو ابنة الليدى مارى مونتجيو الشهيرة . وفى الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه . وكان معجباً بعلم هذا الاسكتلندى ونزاهته ، وتقبل مشورته شاكراً ، ولقى منه التشجيع على اعداد نفسه للقيادة العدوانية فى الحكم . وحين خطر للأمير الشاب أن يعرض الزواج على حسناء فى الخامسة عشرة تدعى الليدى ساره لينوكس ، أذعن فى حزن ولكن فى محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أميرة أجنبية تعينه على دعم تحالف سياسى نافع . وكتب إليه يقول « انى أسلم مستقبلى بين يديك ، وأمنه نفسى من التفكير حتى فى غرامى الحبيب ، وأجتر حزنى فى صمت ، دون أن أكدرك بعد اليوم اطلاقاً بهذه القصة التعسة ؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صديقى أو حبيبتى ، لضحيت بالأخيرة يقيناً ، لأننى أقدر صداقتك فوق أى متعة أرضية » [١٧] وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش .

وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به انجلتره فى تاريخها ، وعليه وقع جانب من التبعة . ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلا مسيحياً ،

وإنساناً مهذباً عادة ، قبل لاهوت الكنيسة الإنجلكانية ، وتمسك بطقوسها فى إخلاص وتواضع ، ووبخ واعظاً للبلاط امتدحه مرة فى عظة . وقد حاكى خصومه السياسيين فى استعمال الرشوة ، وبز معلميه فى هذا المضمار ، ولكنه كان مثالا فى الفضيلة فى حياته الخاصة . وفى جيله الذى اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى انجلتره قدوة فى الوفاء الزوجى كانت النقيض لخيانات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه . وكان آية فى اللطف والعطف فى كل شىء إلا الدين والسياسة ، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً فى العطاء . وقد منع القمار فى بلاطه ، وكد وكدح فى الحكم بعزيمة صادقة ، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، ويبعث بتعليماته لمساعديه ووزرائه مراراً كل يوم . ولم يكن بيورتانيا متزمتاً مكتئباً ، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص . ولم تعوزه الشجاعة : فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن ؛ وواجه جمهوراً عنيفاً من الرعاع ببسالة فى ١٧٨٠ ، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته . وقد أقر فى صراحة بعيوب تعليمه ، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة . وإذا كان ضعيف العقل بعض الشىء فلعل ذلك مرده التواء فى الجنينات أو إهمال فى معلميه ، كما كان مرده مئات الضغوط التى تكتنف الملك .

ومن مآخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم . فلم يستطع قط أن يغتفر لوليم بت الأول ما شعر به من تفوق فى الرؤية والفهم السياسيين ، وفى نفوذ الحكم ، وفى قوة الخطابة وبلاغتها . وقد سبق أن رأينا[١٨] سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (١٧٣٥) حتى انتصاره فى حرب السنين السبع . وكان فى استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً — أكثر كثيراً من جورج الثالث ؛ فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقى للإمبراطورية التى خلقت تحت قيادته ؛ فلما التقى الملكان — الملك الإسمى والملك الفعلى — تلا اللقاء صراع بينهما على العرش . وكان بت رجلا نزيهاً لم تلوثه الرشوة التى استشرت من حوله ، ولكنه لم يفكر فى السياسة إلا بلغة المنعة القومية ، ولم يسمح لأى عاطفة رحمة أن تثنى عزمه على احراز التفوق الأعظم لانجلتره . وقد لقب « العامى العظيم » لا لأنه فكر فى تحسين ظروف

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل فى مجلس العموم ؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الانجليز وكان كالملك يكره النقد « غير مبال للنسيان أو الصفح »[١٩] وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه ، وقد استقال من الوزارة (١٧٦١) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق انجلتره مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا . وإذا كان قد قهر فى النهاية فإن العدو الذي قهره لم يكن غير النقرس .

ويضارع تأثير بت فى السياسة الانجليزية تأثير إدموند بيرك فى الفكر الانجليزى . وقد اختفى بت من المسرح فى ١٧٧٨ ، وظهر عليه بيرك فى ١٧٦١ ، وظل يشد انتباه المثقفين من الانجليز فى فترات متقطعة حتى عام ١٧٩٤ ، وربما كان مولده فى دبلن (١٧٢٩) لأحد المحامين عقبة فى طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين ، فهو لم يكن انجليزياً إلا بالتبنى ، ولا عضواً فى أى أرستقراطية إلا أرستقراطية الذهن . ولا بد أن كثالكة أمه وأخته كان لها دخل فى عطفه طوال حياته على كاثوليك انجلتره وايرلنده ، وتأكيده الذى لا ينى على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة . وقد تلقى تعليمه المدرسى فى مدرسة للكويكر فى باليتور ، وفى كلية ترنتى بدبلن . وتعلم من اللاتينية ما يكفى للإعجاب بخطب شيشرون وجعلها الأساس لأسلوبه البلاغى .

وفى ١٧٥٠ انتقل إلى انجلتره ليدرس القانون فى « مدل تميل » . وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه (علم يعين على شحذ الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة» ولكنه ذهب إلى أنه « لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط ، اللهم إلا فى أشخاص محظوظى المولد »[٢٠] وحوالى ١٧٧٥ قبض أبوه عنه الراتب الذى يمده به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى . ويبدو أن ادموند كان قد هوى الأدب ، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية ، وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالممثلة الشهيرة بيج ووفنجتن . كتب إلى صديق

فى ١٧٥٧ يقول : « لقد كسرت كل قاعدة ، وأهملت كل لياقة » ، ووصف « أسلوب حياته » بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط ، فأنا فى لندن ، وأنا فى أنحاء نائية من الريف ، وأنا آخر فى فرنسا ، وعما قريب فى أمريكا أن استجاب لى الله » . وفيما خلا هذا لا نعرف عن بيرك شيئاً فى سنى الاختبار والتجريب تلك ، اللهم إلا أنه فى ١٧٥٦ ، فى تعاقب غير مؤكد ، نشر كتابين رائعين وتزوج .

وأحد الكتابين عنوانه « دفاع عن المجتمع الطبيعى ، أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التى يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعى ، خطاب إلى اللورد — بقلم كاتب نبيل متوفى » . والمقال الذى بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين ، هو فى عنوانه ادانة قوية لكل أنواع الحكم . فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما فى مقال روسو « الأصل فى عدم المساواة » الذى ظهر قبل ذلك بسنة فقط . وقد عرف بيرك المجتمع الطبيعى بأنه « مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أى نظام وضعى »[٢١] . « فتطور القوانين كان انحطاطا »[٢٢] ، وما التاريخ إلا سجلا للمجازر والغدر والحرب[٢٣] ، والمجتمع السياسى متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار »[٢٤] . وكل الحكومات تتبع المبادىء المكيافللية ، وترفض كل الضوابط الأخلاقية ، وتعطى المواطنين مثالا مفسداً للجشع والخديعة واللصوصية والقتل[٢٥] . والديمقراطية فى أثينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم ، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغلبيات الساذجة . أما القانون فهو الظلم مقنناً ، فهو يحمى الأغنياء المتبطلين من الفقراء المستغلين[٢٦] ، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً — هو المحامون[٢٧] « لقد أحال المجتمع السياسى الكثرة ملكاً للقلة » . فانظر إلى حال عمال المناجم فى انجلتره ، وفكر ملياً أكان من الممكن أن يوجد شقاء كشقائهم فى مجتمع طبيعى — أى قبل وضع القوانين — أفينبغى رغم ذلك أن نقبل الدولة ، كما نقبل الدين الذى يساندها ، على أنها قد استلزمتها طبيعة الإنسان ؟ كلا على الإطلاق .

« ان كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحريتنا للاغتصاب المدنى ، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هدوء للأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا ، واعتناق لاهوت السوقة وسياستهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية ، فإننا سننبذ أحلامهم عن المجتمع كما ننبذ رؤاهم عن الدين ، ونحرر أنفسنا حرية كاملة »[٢٩] .

وفى هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالى شاب ، فتى متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر ، شديد الإحساس بما رأى فى انجلترە من فقر وانحطاط ، وصاحب موهبة واعية بذاتها ولكنها لم تزل بغير مكان ولا مقام فى خضم العالم . وكل فتى يقظ يمر بهذا الطور فى طريقه إلى المنصب ، والثراء ثم النزعة المحافظة المرتاعة التى سنجدها فى كتاب بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » . ونلاحظ أن مؤلف « الدفاع » تخفى وراء اسم مجهول ، حتى إلى حد ادعاء الموت . وقد فهم كل القراء تقريباً ، بما فيهم وليم وربرتن وايرل تشسترفيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة[٣٠] ، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجبروك ، لأن عبارة « كاتب نبيل متوفى » تنطبق عليه إذ كان قد مات عام ١٧٥١ . وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب فى البرلمان . وخشى أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه ، فأعاد طبع المقال فى ١٧٦٥ بمقدمة جاء فى قسم منها « أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن . . . الأدوات (الأدبية) ذاتها التى استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة »[٣١] . وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص ، ونحن لانستطيع أن نوافقهم على رأيهم ، ولكنا نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسى لحماية نفسه من تحامل الشعب. فمن منا يكون له مستقبل لو عرف ماضيه ؟

ويعدل « الدفاع » بلاغة ويفوقه حذقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذى نشره فى ١٧٥٦ وعنوانه « تحقيق فلسفى فى أصل الجليل والجميل » ، وقد أضاف إليه فى طبعة ثانية « مقال فى الذوق » ولسنا نملك إلا الإعجاب

بشجاعة الشاب ذى السبعة والعشرين عاما الذى عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل « لاوكون » لسبنج بعقد كامل . ولعله استرشد باستهلال الجزء الثانى من كتاب لوكريتويس عن « الطبيعة » الذى نصه « يطيب لك حين تلطم الرياح الأمواج فى خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده إنسان آخر من عنت شديد ، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أى إنسان ، بل لأنه جميل أن ترى من أى الشرور أنت نفسك قد نجوت» . ومن ثم يكتب بيرك : « ان العواطف المشبوبة التى تنتمى لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر ؛ فهى ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فينا تأثيراً مباشراً ، وهى مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلا فى ظروف كهذه . . . وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلا» . ويلى ذلك أن « كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة . . وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة . . . لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها »[٣٢] . والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال ، ومن هنا حرص معمارى العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصفى بالتسلل إلى كتدرائياتهم . وقد أفاد القصص الروما نتيكى من هذه الأفكار كما نرى فى قصة هوراس ولبول « قلعة أوترانتو» (١٧٦٤) أو قصة آن رادكلف « خفايا أودلفو » (١٧٩٤) .

يقول بيرك « ان الجمال اسم سأطلقه على كل صفات فى الأشياء تثير فينا إحساساً بالمحبة والحنان ، أو أى عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما[٣٣] . وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتماثل ؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها . والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجليل) .

« لست أتذكر الآن شيئاً جميلا لا يتصف بالنعومة »[٣٤] ، فالسطح المكسر أو الخشن ، والزاوية الحادة أو النتوء الفجائى ، كلها تضايقنا وتحد من سرورنا حتى فى أشياء تكون جميلة لولا هذا « ومظهر الغلظ والقوة

مؤذ جداً للجمال . أما مظهر الرقة ، لا بل الهشاشة ، فيكاد يكون أساسياً للجمال »[٣٥] . واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً ، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً . . . ولم يسأل بيرك هل المرأة جميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة ، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة ، التي هي جميلة لأنها تشتهى .

على أية حال كانت جون نوجنت مشتهاة ، فتزوجها بيرك في سنة ١٧٥٦ المثمرة هذه . وكانت ابنة طبيب إرلندي . وكانت كاثوليكية ، ولكنها لم تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً . وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب .

وفتحت الأبواب أمام بيرك بفضل تأثير أسلوب « الدفاع » و « التحقيق » ان لم يكن تأثير حججهما . فعينه مركيز روكنجهام سكرتيراً له ، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلا ان بيرك إرلندي متوحش ، وستيوارتي ، وبابوي ويسوعي مستخف[٣٦] . وفي أواخر عام ١٧٦٥ أنتخب بيرك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرني ، « الذي كان يمتلكها »[٣٧] . وفي مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وان لم يكن مقنعاً . كان صوته أجش ، ولهجته هيبرنية (أي إرلندية) ، وإيماءاته تعوزها الرشاقة ، ونكته سوقية أحياناً ، واتهاماته حارة مشبوبة في غير موجب . ولم يدرك الناس — إلا حين قرءوا له — انه انما يخلق أدباً وهو يتكلم — وذلك بفضل تمكنه من اللغة الانجليزية ، وأوصافه الناصعة ، وسعة معرفته وشروحه ، وقدرته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة . ولعل هذه المزايا كانت معوقات في مجلس العموم . ويروى لنا جولد سمث أن بعض سامريه «كانوا يحبون أن يروه يتسلل كالثعبان إلى موضوعه »[٣٨] ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بأسرافه في التفاصيل ، وباستطراداته النظرية ، وبخطبه المنمقة ، وبجمله المتكررة الضخمة ، وبتحليقاته في أجواء التأنق الأدبي ؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

والموضوعية المباشرة ؛ لقد امتدحوا بيانه ، ولكنهم تجاهلوا نصيحته . ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذى شبه بيرك بالصقر فيقول : « أجل يا سيدى ولكنه لا يصيد شيئاً »(٣٩) وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لا يسيغها الشعب ، ولا الوزارة ، ولا الملك . قال : « أنا عليم بأن الطريق الذى أسير فيه ليس طريق الترقى إلى المنصب الرفيع »(٤٠).

ويبدو أنه خلال سنوات تسلقه قرأ كثيراً وقرأ بفطانة وتمييز . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعى يفيد كل إنسان من ذخيرته العلمية . وقد أثنى عليه فوكس ثناء لا حد له إذ قال : « لو أنه (أى فوكس) وضع فى كفة كل المعلومات السياسية التى تعلمها من الكتب ، وكل ما اكتسبه من العلم ، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها ، ثم وضع فى الكفة الأخرى الفائدة التى اكتسبها من تعليم صديقه المبجل وحديثه ، لاختار أيهما يفضل »(٤١) أما جونسن — وهو الضنين بالمدح عادة — فقد اتفق مع فوكس فقال : « لن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت ظلة أثناء المطر ، ولكنه لابد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته فى حياتك »(٤٢) .

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن — رينولدز حوالى عام ١٧٥٨ . وندر أن التحم فى نقاش مع المناظر الذى لا يقهر ، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبع جونسن ؛ ولكنه حين فعل ، نكص « الخان الأكبر » (جونسن) على عقبيه . وحين مرض جونسن ، وذكر بعضهم بيرك ، صاح الدكتور « ان هذا الفتى يستنفر كل قواى ؛ ولو رأيت بيرك الآن لكان فى ذلك القضاء على »(٤٣) . ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية فى السياسة والأخلاق والدين . فقد قبلا حكم بريطانيا الأرستقراطى مع أن كليهما كان من العامة ؛ واحتقرا الديمقراطية لأنها تتويج للكفايات الهزيلة ؛ ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفهما معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما . ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية . وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (تورى) ، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحمقى ،

أما بيرك فزعم أنه حرى ، ودافع عن مبادىء المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل تبريراً من أى رجل فى التاريخ الانجليزى .

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة فقد عارض إحداث تغييرات فى قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين ؛ ورأى أن الدوائر الانتخابية « العفنة » أو دوائر « الجيب » (أى التى يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة (لا غبار عليها ما دامت ترسل رجالا أكفاء مثله إلى البرلمان . وبدلا من توسيع حق التصويت . رأى أنه « بخفض العدد سيزداد ثقل ياخبينا واستقلالهم »[٤٤] . ومع ذلك احتضن عشرات القضايا التحررية . ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سمث ، وهاجم النخاسة قبل ولبرفورس . ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على الكاثوليك ، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل حقوقهم المدنية . وحاول أن يلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية ويخفف من الأعباء التى تنوء بها حياة الجندى . ودافع عن حرية المطبوعات وان كتوى هو نفسه بنارها . ووقف يذود عن إيرلنده وأمريكا والهند فى وجه أغلبيات شوفينية . وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجرأة أفقدتاه كل أمل فى المنصب السياسى الرفيع . وقد تختلف معه فى آرائه ودوافعه ، ولكن لن نستطيع الشك فى شجاعته .

وقد كلفته آخر حرب شعواء شنها فى حياته العملية — وهى حرية على الثورة الفرنسية — صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه . وكان هذا الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بمثلها ويقاسمه أخطار المعركة فى كثير من القضايا ، ولكنه كان يختلف عنه فى كل صفة من صفات العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة . فبيرك إرلندى ، فقير ، محافظ ، متدين ، متمسك بالأخلاق ؛ وفوكس انجليزى ، غنى ، راديكالى ، لا يبقى من الدين إلا على القدر الذى يتفق والقمار والشراب والخليلات والثورة الفرنسية . كان ثالث أبناء هنرى فوكس ولكنه آثرهم عنده ، وقد ورث الأب ثروة ، وبددها ، ثم تزوج ثروة ثانية ، وجمع ثالثة وهو كبير

صيارفة القوات المسلحة ، وأعان بيوت على شراء بعض أعضاء مجلس العموم ، وأثيب بلقب البارون هولند ، وشهر به خصومه (مختلساً عاماً لملايين لاتفسير لضياعها »(٤٥) أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيدة تشارلز الثانى من لويز دكيرواى ، وهكذا جرى فى عروق تشارلز جيمس الدم المخفف للملك استيوارتى خليع وامرأة فرنسية ذات مبادىء أخلاقية متسامحة . وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارتية ، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفريين .

وحاولت الليدى هولند أن تنشىء أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية ، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز فى كل نزواته ، وقلب من أجله الحكم المأثورة رأساً على عقب : « لاتعمل اليوم أبدا ما تستطيع تأجيله إلى الغد ، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك » . وما كاد الصبى يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن فى رحلة أوربية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية ، ورتب له خمسة جنيهات انجليزية فى الليلة للعب القمار . وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين ، وواصل اللعب فى اكسفورد . وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والانجليزية على السواء ، ولكنه غادر اكسفورد بعد عامين لينفق عامين فى الرحلات وتعلم الفرنسية والطليانية ، وبدد ١٦,٠٠٠ جنيه فى نابلى ، وزار فولتير فى فرنيه ، وتلقى منه قائمة بكتب تنيره فى اللاهوت المسيحى(٤٧) . وفى ١٧٦٨ اشترى له أبوه دائرة انتخابية ، واتخذ تشارلز مقعداً فى البرلمان وهو فى التاسعة عشرة . وكان هذا مخالفاً كل المخالفة للقانون ، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصى وتراثه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أى احتجاج على عضويته . وبعد عامين ، وبفضل نفوذ أبيه ، عين وزيراً للبحرية فى وزارة اللورد نورث . وفى ١٧٧٤ مات الأب والأم وابن أكبر منه ، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد فى ثروة عريضة .

وقد شاب مظهره البدنى فى سنوات نضجه من التسيب ما شاب أخلاقه . فجواربه مرخاة الأربطة ، وسترته وصدرته مجعدتان ، وقميصه مفتوح عند

العنق ، ووجهه منتفخ محتقن بالإسراف فى الطعام والشراب ، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس . وحين نازل وليم آدم فى مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة ، إذ قال « انني غليظ فى ناحية غلظى فى الأخرى »[٤٨] ولم يحاول إخفاء عيوبه . وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محببة للنصابين والمحتالين من المقامرين . وذات مرة (فى رواية جبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة فى جلسة واحدة خسر فيها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات فى الحياة بعد الربح هى الخسارة [٤٩] . وكان يملك اسطبلا لخيول السباق ، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها ، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)[٥٠] .

وكان أحياناً متسيباً فى مبادئه السياسية تسيبه فى مبادئه الخلقية وهندامه ؛ فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه . وكان أميل إلى الكسل ، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما بيرك . وكان يملك فى ميدان الخطابة مزايا قليلة ، ولم يلتمس غيرها . وكثيراً ماكانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار ، صادمة للنجاة أحياناً . يقول عنه رتشرد بورسن «كان يقذف بنفسه فى معمعان جمله ويكل إليه تعالى مهمة اخراجه منها »[٥١] . ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش فى مجلس العموم . كتب هوراس ولبول « ان تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة »[٥٢] .

وكان معاصرو فوكس متسامحين فى أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها ، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله . فقد ظل معظم حياته بعد عام ١٧٧٤ أميناً للقضايا التحررية مضحياً فى سبيلها تضحيات تستهين بالترقى فى المنصب وبالشعبية . أما بيرك الذى كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً فى غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية . قال بيرك « أنه رجل خلق ليحب ، ذو طبع غاية فى البراءة والبساطة والصراحة وحب الخير ، نزيه فى اسراف ، له مزاج لطيف سمح إلى حد الإفراط ،

ليس فى كيانه بأسره ذرة حقد واحدة [٥٣] وقد اتفق معه جبون فقال « لعله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أو الكذب » [٥٤] . ولم يمتنع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطرى فى الرجل غير جورج الثالث .

وارتبط ببيرك وفوكس فى قيادة عنصر الهوجز التحررى إرلندى ثان هو رتشرد برنزلى شريدان . وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات عن اليونانية واللاتينية ، وكتاباً سماه « فن التورية » ، ربما سرت عدواه إلى حفيده . أما أبوه توماس شريدان الثانى فكان فى رأى البعض لايفوقه غير جاريك ممثلا ومديراً للمسرح . وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن ، وكانت كاتبة مسرحية وروائية ناجحة . ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد وكمبردج ، وحاضر فى كمبردج فى التعليم ؛ وكان الواسطة فى الحصول على معاش ملكى لجونسن ، وحصل على معاش لنفسه . وألف كتاباً مسلياً عن « حياة سويفت » وغامر بنشر « قاموس عام فى اللغة الانجليزية » (١٧٨٠) ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاما . وأعان ابنه على إدارة مسرح درورى لين ، وشهده يصعد فى دنيا الرومانس والأدب والبرلمان .

وهكذا أتيحت لرتشرد عناصر التفوق الفكرى والدراما فى بيئته ان لم يكن فى دمه . وقد ولد فى دبلن (١٧٥١) ، وحين بلغ الحادية عشرة أوفد إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً ؛ وحين بلغ العشرين ردد صدى جده بنشره مترجمات عن اليونانية . وفى عام ١٧٧١ ذاك بينما كان يعيش فى باث مع والديه ، هام حباً بوجه إلزابث آن لنلى الجميلة وصوتها ، وكانت فى السابعة عشرة ، تغنى فى الحفلات الموسيقية التى يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلى . والذين رأوا لوحة من اللوحات التى رسمها لها جينزبرو [٥٥] يدركون أنه لم يكن أمام رتشرد من سبيل إلا الهيام والانتشاء ، ولا أمامها هى أيضاً إذا صدقنا أخته ، إذ رأته فتى مليحاً محبباً على نحو لا يقاوم . « كان خداه يشرقان ببريق العافية ، وعيناه أبدع العيون

فى العالم . . . وله قلب رقيق محب . . . وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأبهجهم ما اتسمت به كتاباته فيما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذى . لقد أعجبت به ، بل أوشكت أن أعبده . وما كنت لأتردد فى أن أضحى بحياتى من أجله »(٥٦) .

وكان لألزابث آن خطاب كثيرون ، ومنهم تشارلز أخو رتشرد الأكبر ، وقد ضايقها أحدهم واسمه الميجر ماثيوز ، وكان غنياً ولكنه متزوج ، واشتدت مضايقته حتى أفضت بها إلى تعاطى الأفيون بغية قتل نفسها . ثم تماثلت للشفاء ، ولكنها فقدت كل رغبة فى الحياة حتى أنعش حب رتشرد روحها المعنوية من جديد . وهدد ماثيوز باغتصابها ، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً ، وتزوجته (١٧٧٢) ، ثم لجأت إلى دير قرب ليل فى حين عاد رتشرد إلى انجلتره ليسترضى أباه وأباها . ونازل ماثيوز فى مبارزتين ، وقد أبقى على حياة ماثيوز فى الأول بعد أن انتصر عليه ، أما فى الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملا بالخمر ، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمر والوحل . وتبرأ منه أبوه ، ولكن توماس لنلى أعاد الزابث آن من فرنسا وبارك زواجها (١٧٧٣) .

وشرع رتشرد وهو فى الثانية والعشرين فى جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كبرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور . وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته « المزاحمون » فى ١٧ يناير ١٧٧٥ فى كوفنت جاردن ، وكان حظها سيئاً تمثيلا واستقبالا ، ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسى ، وكان العرض الثانى (٢٨ يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التى حققت الشهرة والثراء لشريدان . وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث عن السير انتونى أبسوليوت ، والسير لوشس أوتريجر ، والآنسة ليديا لانجويش ، وتقلد خلط السيدة مالا بروب بين الألفاظ(٥٨) * .

* يستشهد المؤلفان بعبارات خلطت السيدة مالابروب بعض ألفاظها خلطا مضحكا ، فقالت illiterate بدلا من obliterate ، و Allegory بدلا من alligator . (المترجم)

وكان شريدان يملك معينا لاينضب من النكت فى رأسه ، ينثرها على كل صفحة ، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع ، ويجعل الحمقى يتكلمون كالفلاسفة . ولامه النقاد لأن شخوصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها ، ولأن النكت والدعابات التى تفرقع فى كل مشهد وتتدفق فى كل فم تقريباً قد أثلمت لذعها بالأفراط ؛ لا ضير ، فقد استطاب النظارة هذا المرح ، وهم يستطيبونه إلى يومنا هذا .

ثم أحرزت مسرحيته « القهرمانة » نجاحا أعظم حتى من نجاح « المزاحمين » ، فقد قدمت أول مرة فى ٢ نوفمبر ١٧٧٥ على مسرح كوفنت جاردن ، واستمر عرضها خمسا وسبعين ليلة فى موسمها الأول ، فحطمت بذلك الرقم القياسى الذى حققته « أوبرا الشحاذ » فى ١٧٢٨ ، وهو ثلاث وستون ليلة . وهالت هذه المنافسة المثيرة ديفد جاريك الذى كان يمثل على مسرح درورى لين ، ولكنه لم يستطع أن يجد رداً سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء « الاكتشاف » وهى تمثيلية من تأليف أم شريدان التى ماتت قبيل ذلك . وانتشى شريدان بخمرة النجاح ، فعرض على جاريك أن يشترى نصيب النصف الذى يملكه فى درورى لين ؛ وأحس جاريك بأنه يتقدم فى العمر ، فوافق نظير ٣٥,٠٠٠ جنيه ؛ وأقنع شريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ؛ أما هو فدفع ١,٣٠٠ جنيه نقداً ، ثم جمع الباقى بقرض (١٧٧٦) . وبعد عامين جمع ٣٥,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه ، ثم تولى إدارته .

وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد ، ولكن شريدان انتقل إلى نصر آخر حين أخرج (٨ مايو ١٧٧٧) « مدرسة الفضائح » وهى أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً . واصطلح أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيبته قبل خمس سنوات . وتلا هذه الانتصارات فترة توقف فى صعود نجم شريدان . ذلك أن العروض التى قدمت على درورى لين تبين أن الجمهور لايقبل عليها ، وروع الشركاء شبح الإفلاس . وأنقذ شريدان الموقف بمهزلة « فارص » سماها « الناقد » وهى هجاء للدرامات

الفاجعة ونقاد الدراما المقنطعين . على أن بطأه المألوف تدخل ، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين . واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة فى المسرح ، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً ، وأمروه بالفراغ من التمثيلية ، وحبسوه فى الحجرة ؛ فخرج ومعه النهاية المطلوبة ، فجربها الممثلون ووجدت وافية بالغرض ، وكان العرض الأول (٢٩ أكتوبر ١٧٧٩) ابتسامة أخرى جاد بها الحظ على الإرلندى المتحمس .

ثم تلفت من حواله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها ، وقرر أن يدخل البرلمان . ودفع لناخبي ستافورد خمسة جنيهات انجليزية لكل صوت ، وفى ١٧٨٠ اتخذ مكانه فى مجلس العموم لبراليا متحمساً . وشارك فوكس وبيرك فى اتهام وارن هيستنجز ، وفى يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً . وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة فى هناءة وبذخ ، مشهوراً بحديثه ، وظرفه وحيويته ، ولطفه ، وديونه . وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبة فقال « كل ما فعله شريدان ، أو يريد أن يفعله ، رائع ، والأفضل من نوعه دائماً . لقد كتب أفضل كوميديا ، وأفضل دراما . . . وأفضل فارص . . . وأفضل خطاب (مونولوج عن جاريك) ، وتتويجاً لهذا كله ، ألقى أفضل خطبة ... تصورها الناس أوسمعوها فى هذا البلد »(٥٩) . ثم إنه كان قد ظفر بحب أحب نساء انجلتره إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب .

كان شريدان كله الخيال والشعر ، ومن العسير أن نصوره فى عالم وليم بت الثانى وفى جيله نفسه ، ذلك الرجل الذى لم يعترف إلا بالواقع ، وسما فوق العاطفة وحكم بغير بلاغة . وقد ولد (١٧٥٩) فى أوج مجد أبيه ، وكانت أمه أخت جورج جرنفيل ، رئيس الوزراء ١٧٦٣ — ٦٥ ؛ رضع السياسة منذ حداثته ، وترعرع فى جو البرلمان . وإذ كان هشاً عليلا فى طفولته ، فقد أبعد عن ممارسات المدارس « الخاصة » الصارمة واتصالاتها المهيئة لحياة المجتمع ، فربى فى البيت بإشراف أبيه الدقيق ، الذى علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم . فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

كلاسيكياً ومؤلفاً لمأساة . ثم أرسل إلى كمبروج حين بلغ الرابعة عشرة ، فلم يلبث أن مرض ، فعاد إلى بيته ، وبعد عام ذهب ثانية ، وإذ كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً فى الآداب عام ١٧٧٦ دون امتحان . ثم درس القانون فى لنكولنز ان ، ومارس المحاماة برهة قصيرة ، ثم رشح للبرلمان فى الحادية والعشرين عن دائرة جيب يهيمن عليها السير جيمس لوذر . وكان خطابه الافتتاحى فى البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من اصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه « ليس شظية من الشجرة العجوز (أى سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها »[٦٠] .

وإذ كان الإبن الثانى لأبيه ، فإنه لم ينل غير ٣٠٠ جنيه راتباً سنوياً ، مع معونة بين الحين والحين من أمه وأخواله ؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة فى سلوكه وخلقه . فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بجملته للسعى إلى السلطان . ولم يلذه قمار ولا مسرح . ومع أنه فى مرحلة لاحقة أفرط فى الشراب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضجيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد ؛ وكان فى وسعه أن يشترى ، دون أن يكون فى وسع أحد أن يشتريه . وما سعى قط إلى الثراء ، وندر أن بذل تنازلات للصداقة ، ولم تكتشف غير قلة حميمة ، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره ، ما يخفى من مرح ودود ، بل من حنان ومحبة فى بعض الأحايين .

وفى مطامع عام ١٧٨٢ ، حين أوشكت وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن « الصبى » — كما لقب بعض النواب بت فى تعطف — أحد خطبه اعلاناً فيه شىء من الغرابة : « أما عن نفسى ، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً فى حكومة جديدة ، ولكن لوكانت هذه العضوية فى متناولى فإننى أراه لزاماً على أن أعلن أننى لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً »[٦١] ، أى أنه لن يقبل منصباً أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التى ألفت ما أصبح يسمى « مجلس الوزراء » . فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إرلنده بمرتب ٥,٠٠٠ جنيه فى العام رفض ، وواصل العيش على إيراده البالغ ٣٠٠ جنيه . وكان واثقاً من التقدم ، وأمل أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية ، فعكف على العمل بهمة ، وأصبح أكثر أعضاء مجلس

العموم اطلاعاً فى ميادين السياسة الداخلية ، والصناعة ، والمالية » وبعد عام من اعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو فى الحكومة بل ليرأسها . ولم يحظ رجل قط قبله برآسة الوزارة وهو فى الرابعة والعشرين ؛ وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الانجليزى بصمة أعمق مما ترك »

٣ ــ الملك ضــد البرلمــان

اختتم جورج الثانى ملكه الذى استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية « لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله ، وأتمنى من كل قلبي أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم ، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم ، وأن يأخذ الشيطان برلمانكم ، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها ، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر »[٦٢] . وقد ألفى راحته فى ٢٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، ودفن فى كنيسة وستمنستر .

ولقى ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسى من كل الانجليز تقريباً ما عدا قلة مازالت تواقة إلى أسرة ستيوارت . كان فى الثانية والعشرين ، فتى وسيماً ، مجتهداً ، متواضعاً . (كان أول ملك انجليزى منذ حكم هنرى السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا) . وفى خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذى أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد سلفه الهانوفرين يستطيع أن يفوه بها : « انني وقد ولدت وربيت فى هذا البلد لأفخر بأننى بريطانى » . كتب هوراس وليول يقول : ان الملك الشاب يبدو عليه كل مظهر الالطف . ففيه كثير من الكياسة الذى يخفف من الوقار الشديد ، وطيبة فائقة تتفجر فى جميع المناسبات »[٦٣] . وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذى أصدره فى ٣١ أكتوبر « لتشجيع التقوى والفضيلة ، ولمنع وعقاب الرذيلة ، والتبذل واللا أخلاقية » . وفى ١٧٦١ تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج — ستريلتس ، وقد ارتضى

خلوها من الجاذبية ، فأنجب منها خمسة عشر طفلا ، ولم يجد وقتاً لخيانتها . وكان هذا أمراً لا سابقة له فى الملوك الهانوفرين .

ولم يحب حرب السنين السبع ، يوم كان فى الرابعة من عمره ، وأحس أن فى الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا . ولكن وليم بت الأول ، وزير الدولة للإدارة الجنوبية ، والشخصية المسيطرة فى وزارة الدوق نيوكاسل ، أصر على مواصلة الحرب حتى توهن فرنسا وهنا أمل لها معه فى تحدى الامبراطورية التى خلقتها الانتصارات البريطانية فى كندا والهند ؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلا برضى فردريك الأكبر حليف انجلتره . وفى مارس ١٧٦١ عين الأيرل بيوت وزير دولة للإدارة الشمالية ، وشرع فى تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد . وعبثاً قاوم بت ، فاستقال فى ٥ أكتوبر . وطيب جورج خاطره بمعاش قدره ٣,٠٠٠ جنيه له ولوريثه ، ولقب الشرف لزوجته التى أصبحت الآن البارونة شاتام . وقد رفض بت (حتى عام ١٧٦٦) النبالة لنفسه لأنه لو حصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحببة وهى مجلس العموم . وإذ كان قد أبدى احتقاره للمعاشات ، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب ، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب ، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم كانوا يكسبون أقل منه كثيراً .

وفى ٢٦ مايو ١٧٦٢ اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً فى السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً . وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول . واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلا ودفعاً . فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما فى الشئون الخارجية . أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسر الغنية على الحكومة . وفى ١٧٦١ ، حث عضو قديم فى حزب الأحرار يدعى وليم بلتنى ، إيرل باث ، فى نبذة غفل عن اسم كاتبها ، الملك على ألا يقنع بـ « ظل الملكية » ، بل يستعمل « امتيازاته القانونية » فى كبح جماح « الدعاوى غير القانونية للأوليجركية المتحزبة »(٦٤) .

وكانت الأغلبية فى مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصبة الفائزة فى الانتخابات . وأصر جورج على حقه الشرعى فى اختيار وزرائه دون اعتبار للحزب ، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أمام الشعب . وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش انجلترة ، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتيين المنفيين . لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثانى فى اختيار وزرائهما على الأحرار ، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا فى ضياعهم . ولكنهم فى ١٧٦٠ قبلوا الأسرة المالكة الجديدة ، وأقبلوا فى نفر كبير ليقدموا ولاءهم للملك البريطانى المولد .

ورحب بهم جورج ، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعين الأحرار الأكفاء فى المناصب الوزارية . واحتج الأحرار بأنه لو كان الملك حراً فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مسئولا أمام البرلمان لكان هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر فى ١٦٨٩ ، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذى ادعاه تشارلز الأول ، ولبطل مفعول ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . ان للنظام الحزبى عيوبه ، ولكنه (فى رأى الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسئولة ، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها ، وتنتقدها ، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالا مهيأين لتغيير اتجاه السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة . وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى فى الحكم الجديد .

وتحمل بيوت وطأة المعركة . وكان أكثر النقد يعنى الملك ، ولكنه لم يعنى أمه ، فاتهمتها الأهاجى الخفيفة الساخرة بأنها خليلة بيوت ، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية . وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا ، ثم كف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فردريك على الإذعان ، فوصفه فردريك بالوغد الخسيس ، وواصل القتال . أما الشعب الانجليزى فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط فى اللين مع فرنسا المغلوبة ؛ وسخط بت عليه ، وتنبأ بأن فرنسا

التي خرجت من الحرب ببحريتها سليمة لم يمسها سوء ستستأنف الحرب على انجلتره عما قليل — وهو ما فعلته فى ١٧٧٨ . وصدق مجلس العموم على المعاهدة ، بأغلبية ٣١٩ ضد ٦٥ . واغتبطت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت « ان ابنى الآن ملك على انجلتره حقاً وفعلا »(٦٦) .

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالنزاهة . ولكنه حين رأى الأحرار يشترون الأصوات البرلمانية ، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته ، صمم على أن يبزهم فى هذا المضمار . فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها . ولعل بيوت كان يفكر فى أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك فى يوليو ١٧٦٢ بأن ينفح صموئيل جونسن بمعاش ، ولم يخب ظنه فى الكاتب . ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية ، أو هجائيات تشارلز تشرشل الضارية ، أو قدح « جونيوس » الغفل من التوقيع . « وظهرت الآن كل يوم ، نثراً وشعرا ، طعون فى البلاط فاقت فى جرأتها وغلها أى طعن نشر لسنوات كثيرة »(٦٧) .

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً ، ولكنه كره كبير وزرائه ، لأنه اسكتلندى لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب فى مجلس العموم . واشتد شعور الكراهية لاسكتلنده فى انجلتره التي لم تزل تذكر غزو ١٧٤٥ الاسكتلندى . ثم أن بيوت كان قد أغدق الغنائم السياسية على بنى جلدته : فعين روبرت آدم معمارياً للبلاط ، وآلن رمزى مصوراً للبلاط (متجاهلا رينولدز) ؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحى الاسكتلندى ، فى حين ضن على توماس جراى بكرسى الأستاذية . وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة jackboot أو احراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مركبة الوزير ، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختلف إلى المسرح . ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدر) ، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الانجليزى . فلما أن عجز عن التصدى لهذا السيل

الجارف ، وتحطم بدناً وروحاً ، وأدرك أنه لايصلح لمعارك السياسة ودسائسها ، استقال (٨ ابريل ١٧٦٣) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك .

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة : فقد هاجمه فى الصحف جون ولكس الذى لا يقهر (١٧٦٣ وما بعدها) ؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس ١٧٦٥) على قانون الدمغة الذى كان أول ما نفر المستعمرات الأمريكية ؛ وأصيب فى عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه . ذلك أن اخفاق بيوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته ، ولم يسبغ عليه زواجه أى سعادة ، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم ، لا بل يكاد يكون مسيطراً . ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل ، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفى لمقاومة أولجركية الأحرار التى هيمنت على معظم البرلمان والصحافة . فلجأ إلى حل وسط ، ودعا المركيز روكنجهام — وهو من الأحرار — لتأليف وزارة جديدة .

وشرع المركيز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة ، ربما عملا باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك . فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر) ، وألغيت ضريبة الدمغة ، وأعان التجارة بإبرام معاهدة مع روسيا ، وهدىء الهياج الذى نشب حول ولكس ؛ ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً . أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة ، والتنازلات التى قدمت لولكس ؛ وعليه ففى ١٢ يوليو ١٧٦٦ أقال وزارة روكنجهام ، وعرض النبالة على بت ، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم . ووافق بت .

غير أن « نائب العموم العظيم » كانت صحته قد تضعضعت ، وكذلك عقله . وضحى الآن بما بقى له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شاتام ، فتخلى بذلك عن مكانه فى مجلس العموم . وكان له فى هذا بعض العذر : فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتوترات مجلس العموم وصراعاته ، أما مجلس اللوردات فسيتاح له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل . واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكى ، وسمح لصديقه دوق جرافتن

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة ، وهو أبرز المناصب الوزارية اسمياً . على أن زملاء بت لاحظوا أنه يقرر السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم ، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى بات ملتمساً تهدئة آلام النقرس الذى يشكوه . وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشت عقله . فلما عاد إلى لندن لم يكن فى حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة . وفى أكتوبر ١٧٦٨ استقال ، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء .

فى فترة الفوضى السياسية هذه (١٧٦٦ — ٦٨) تكتل لفيف عرفوا بـ « أصدقاء الملك » ليدعموا أهداف الملك . فأرشدوا جورج فى توزيع الغنائم لقاء تأييد نائليها لسياسته ، واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء موالين للآراء الملكية . فلما تورط جرافتن فى مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من ارتباكه حتى استقال (٢٧ يناير ١٧٧٠) . وفى ١٠ فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سنى خدمته الاثنتى عشرة وزيراً للخزانة (وهو المعروف لنا باللورد نورث ، وإن لم يرث هذا اللقب إلا فى ١٧٩٠) .

كان نورث رجلا ضعيفاً وإن لم يكن شريراً . وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذى أبقاه فى منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم فى التاريخ . وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلفورد ، فحظى بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى ، وأصبح نائباً فى مجلس العموم ولما يجاوز الثانية والعشرين ، واحتفظ بمقعده فيه قرابة أربعين عاماً . واكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودماثته وظرفه * ولكنه اتبع الجانب المحافظ فى ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك . فقد أيد قانون الدمغة وطرد ولكس ، وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك فى حكمتها ، وعد نفسه عاملا للملك ،

---

* شكا خطيب من أن نورث ينام أثناء الخطبة ، فأجاب نورث بأن من الظلم أن يعاب عليه تناول دواء قدمه له السيد الموقر بنفسه . وطالب عضو غاضب برأسه فرد بأنه يسره أن يسلمه شريطة الايكره على أن يقبل بديلا رأس العضو(٦٨) .

لا عاملا للبرلمان فضلا عن أن يكون عاملا للشعب ؛ ويبدو أنه كان مخلصاً فى اعتقاده أن للملك الحق الشرعى فى اختيار وزرائه وتوجيه السياسة . وبفضل نورث ولباقته فى سياسة مجلس العموم — وبفضل استخدام الأموال التى أقرها البرلمان — حكم جورج الثالث انجلتره طوال عقد من ذلك القرن ، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات ، وباع المعاشات والمناصب ، وأعان الصحفيين بالمال ، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال . وأنه لحلك لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته تكتل جهود جون ولكس ، و « جونيوس » ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وفرانكلن ، وواشنطن ضده ليقهروه .

٤ — البرلمان ضد الشعب

نقرأ فى يومية جبون بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٧٦٢ : « تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا . . . ونادر أن التقيت فى حياتى برفيق خير منه . فقد أوتى حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا حد لهما ، وقدراً وافراً من المعرفة ، ولكنه كان ممعناً فى الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء : فخلقه معيب ، وحياته تلوثها كل الموبقات ، وحديثه طافح بالتجاديف والبذاءة ثم هو فخور معتز بهذه الأخلاق — لأن الخجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد . وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم فى فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً »[٦٩] .

هذا رأى محافظ كان يقترع فى صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التى كان فيها عضواً فى مجلس العموم ، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك ، فياض بالحيوية . . . على أن ولكس لوسئل لسلم بمعظم هذه التهم . ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها . واستمتع بالجهر بمذهبه فى اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يفزعون من صراحته .

كان جون ولكس ابنا لمقطر ملت فى كلاركنويل بشمالى لندن . تلقى تعليماً حسناً فى أكسفورد ولايدن ، كفى لإثارة دهشة جونسن من إلمامه بالآداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ « آداب السادة » (٧٠) فلما بلغ العشرين تزوج « سيدة تكبرنى مرة ونصفا » ، ولكنها « ذات ثراء عريض » (٧١) وكانت من جماعة المنشقين على الكنيسة الإنجلكانية ، تميل إلى التقوى المكتئبة ؛ فأقبل على الشراب والخليلات . وحوالى عام ١٧٥٧ انضم إلى السير فرانسيس داشوود ، وبب دودنجتن ، وجورج سلوين ، والشاعر تشارلز تشرشل ، وإيرل ساندوتش الرابع فى « ناد لنار الجحيم » يلتئم شمله فى دير مدمنهام البندكتى على ضفاف التيمز قرب مارلو . هناك راحوا وهم ينتحلون صفة « رهبان مدمنهام المجانين » يقلدون فى سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة « قداس أسود » للشيطان ، ويطلقون العنان لميولهم التجديفية الشهوانية (٧٢) .

وانتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة ايلزبرى (١٧٥٧) بفضل نفوذ رفاقه وبإنفاق ٧٠٠٠ جنيه . وانضم أولا لبت الأب ، ثم لخصوم بيوت بعد عام ١٧٦٠ . ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت « البريطانى » ، فقد بدأ ولكس ، مستعيناً بتشرشل ، فى يونيو ١٧٦٢ اصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها « بريطانى الشمال » اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته ، وضراوة هجماتها على الوزارة . وفى عدد منها نفى فى إسهاب — أى أنه أذاع — الشائعة التى أرجفت بأن بيوت خالل أم الملك . وفى العدد ٤٥ (٢٣ أبريل ١٧٦٣) ندد ببيوت لأنه خرق اتفاق انجلتره مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا ، وبادعائه ، فى « خطاب العرش » الذى ألقاه الوزير باسم الملك ، أن هذه المعاهدة باركها فردريك الأكبر .

« أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثالا على وقاحة الوزارة — هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسيباً واستهتاراً . . . على البشرية . ذلك أن « خطاب الوزير » الذى ألقاه الثلاثاء الماضى لانظير له فى سجلات تاريخ هذا البلد . ولست أدرى هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة . فكل صديق لهذا البلد لابد يحزن لأن ملكاً أوتى هذا العدد الكبير من الخلال

العظيمة المحببة . . . يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات ، وعلى أشد التصريحات العامة حيفا . . . وأنا واثق من أن جميع الأجانب ، لا سيما ملك بروسيا ، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز ، فقد جعل مليكنا يصرح بالآتى : « لقد تحققت كل توقعاتى تحققاً كاملا بفضل النتائج الطيبة التى جناها حلفاء تاجى المختلفون من المعاهدة النهائية وقد أقتنعت الدول المشتبكة فى حرب مع أخى الفاضل ملك بروسيا بالموافقة على شروط التسوية التى وافق عليها ذلك الملك العظيم » والمغالطة المخزية فى هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً ، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا . . . قد خذله رئيس وزراء انجلتره الاسكتلندى خذلاناً خسيساً . . . أما عن تصديق البرلمان « تصديقاً كلياً » الذى هو موضع فخر ينطوى على غرور شديد ، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه . والدين الكبير على « القائمة المدنية » . . . يعان بوضوح تام صفقات الشتاء»[٧٣] .

ومع أن ولكس كان قد فسر « خطاب الملك » على أنه فى الحقيقة خطاب بيوت ، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية ، وأمر اللوردين هاليفاكس واجرمونت ، وزيرى الدولة آنئذ – بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين فى نشر العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . فأصدرا أمراً عاماً بالاعتقال — أى أمراً لا يسمى الأشخاص الذين يعتقلون ، وبناء على عباراته الغامضة زج فى السجن تسعة وأربعون شخصياً منهم ولكس (٣٠ ابريل ١٧٦٣) ، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً فى البرلمان ، ووضع طابع المجلة واسمه وليمز فى المشهرة ، ولكن حشداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا مائتى جنيه لإعانته . وطلب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمراً قضائياً من أوامر « هابياس كوريس » ، وحصل عليه ، ودافع عن قضيته ، ونال من قاضى القضاه تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) ، أمراً بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان ، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وآخرين للقبض غير القانونى والأضرار بماله ، وحصل على تعويض قدره ٥٠٠٠ جنيه وأنهت إدانة برات

للتفويضات العامة ذلك الاستعمال السيء للسلطة الذى أبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة .

وشاء ولكس أن يعاند القدر ، فاشترك مع توماس بوتر (ابن رئيس أساقفة كنتربرى) فى تأليف « مقال عن المرأة » وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب « مقال عن الإنسان (الرجل) » . وكان خليطاً من البذاءة والتجديف ، مزوداً بحواش تنبئ بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته ، ونسب المقال إلى الأسقف وليم وربرتن ، الذى كان قد أضاف هوامش لقصيدة بوب . وطبع المقال الصغير فى مطبعة ولكس فى بيته ، لكنه لم ينشر ، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء ، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع ، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات ، ففعل الإيرل (١٥ نوفمبر) ، الأمر الذى أضحك الأشراف ، وكانوا عليمين بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتهتك . ويخبرنا وليول بأنهم « لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم » وساندوتش ماض فى القراءة ، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة « قذف فاضح بذىء فاسق » . وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف . وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شنقاً أو من مرض سرى ، أجاب « ذلك يامولاى اللورد رهن بمن أعانق — مبادئك أم خليلتك »(٧٥) .

وفى ذلك اليوم ذاته — يوم ١٥ نوفمبر — قام ولكس فى مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقه البرلمانى بالقبض عليه . ولكن المجلس صوت ضده . وأمر البرلمان الجلاد بأن يحرق علناً العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . وفى اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة ، وكان قد سبه فى ذلك العدد . فالتقيا فى هايد بارك ، وجرح ولكس جرحاً خطيراً ، وألزم الفراش شهراً . وأدان أهالى لندن مارتن باعتباره قاتلا مأجوراً ، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلاد أن يحرق العدد ٤٥ ، وأصبح الهتافان « ولكس والحرية » و « العدد الخامس والأربعون » شعارين على تمرد شعبى صاعد ضد الملك والبرلمان(٧٦) . ثم حاول اسكتلندى مسعور قتل ولكس ،

فرحل إلى فرنسا (٢٦ ديسمبر) . وفى ١٩ يناير ١٧٦٤ طرد رسمياً من البرلمان . وفى ٢١ فبراير صدر ضده حكم فى محكمة «كنجز بنش» بأنه مذنب بإعادة طبع العدد ٤٥ وبطبع «مقال عن المرأة» ، ودعى للمثول وتلقى الحكم عليه ، فلم يحضر ؛ وفى أول نوفمبر أعلن أنه خارج على القانون .

وظل ولكس أربع سنوات شريداً فى فرنسا وإيطاليا يخشى أن يسجن سجناً مؤبداً إن عاد إلى انجلتره . وفى روما التقى مراراً بفنكلمان ، وفى نابلى قابل بوزويل الذى وجده رفيقاً مسليا : «ان سخرياته المرحة الحية فى المواضيع الأخلاقية حركت روحى المعنوية حركة ليست غير سارة»[٧٧] . وفى طريقه عودا إلى باريس زار ولكس فولتير فى فرنيه ، وسحر أظرف رجل فى أوربا بظرفه وخفة روحه .

ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعامة وكنجهام وجرافتن لولكس باب الأمل فى العفو عنه . وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت . فعاد إلى انجلتره (١٧٦٨) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان . فلما أن خسر تلك المعركة ، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس ، وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة ؛ وكانت تلك المقاطعة التى تحول أكثرها حضراً (وهى تضم الآن شمال غربى لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة . وفى ٢٠ ابريل مثل ولكس أمام المحكمة متوقعاً إلغاء الحكم بخروجه على القانون ؛ وألغى الحكم ؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً . فأنقذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه فى موكب نصر طافوا به شوارع لندن . وبعد أن هرب من المعجبين ، سلم نفسه للسجن فى سانت جورجز فيلدز . وتجمع الغوغاء هناك فى ١٠ مايو وأرادوا اطلاق سراحه ثانية . فأطلق الجند النار على مثيرى الشغب ، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر .

وفى ٤ فبراير ١٧٦٩ طرده مجلس العموم ثانية ، فانتخبته دائرة مدلسكس ثانية (١٦ فبراير) ، وطرد من جديد ، فعادت مدلسكس وانتخبته

١٣ابريل) ، هذه المرة بأغلبية ١,١٤٣ صوتاً ضد٢٩٦لهنرى لوتريل ؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أن ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة فى دورة ذلك البرلمان . وهوجم لوتريل وهو يغادر مجلس العموم ؛ ولم يجرؤ على الظهور فى الشوارع(٧٨) . وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار فى اختيار ممثليهم فى مجلس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً . أما الملك الذى كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات ، وقال عضو يدعى الكولونيل اسحاق باريه فى البرلمان أن تجاهل الالتماسات « قد يعلم الشعب التفكير فى الاغتيال »(٧٩) * . وخلع جون هورن توك ، الذى أسلم إيمانه لسخر فولتير ، ثوبه الدينى وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصبغ رداءه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة .

وتزعم توك تنظيم « جماعة المؤيدين لملتمسى الحقوق ، (١٧٦٩) التى كان هدفها العاجل اطلاق سراح ولكس ، وأداء ديونه ، ورده إلى البرلمان ، ونشرت الجماعة الدعوة فى محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذى لا يرجى صلاحه ، ولعدم استجابته للإرادة العامة ؛ وطالبت ببرلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين ، وبمسئولية الوزارات أمام البرلمان فى سياستها ومصروفاتها(٨٠). ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بألا يقبل أى ضرب من ضروب الرشوة ، ولا أى وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج ، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناخبى دائرته ولو ناقضت آراءه ، وبضرورة رفع المظالم عن ايرلنده ، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبها(٨١) .

وفى يوليو ١٧٦٩ ، رفع وليم تكفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذى أعطى بموجبه بيت هانوفر عرش انجلتره . وفى ١٤ مايو ١٧٧٠ أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة : « ان أغلبية أعضاء مجلس العموم — الواقعين

* سميت مدينة ولكس — باريه فى بنسلفانيا باسم ولكس وباريه اللذين ناصرا قضية المستعمرات فى البرلمان بقوة د.

تحت التأثير الخفى والخبيث الذى أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة فى جميع الحكومات المتعاقبة — هؤلاء حرموا شعبكم من أعز حقوقهم . لقد اقترفوا عملا أفدح تدميراً فى عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن ، أو سلطة منح المعاشات التى ادعاها جيمس الثانى لنفسه »[٨٢] .

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد « الحكومة الدستورية . . . وأن تقصى أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد »[٨٣] وأن يحل البرلمان الحالى . أما الملك المحنق فقد صاح ويده على سيفه « دون ذلك سيفى هذا »[٨٤] . وبدت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة فى ١٧٧٠ .

فى هذه الدوامة الملتهبة من دوامات السياسة قذف « جونيوس » بأشد الرسائل إثارة للفتنة فى تاريخ انجلتره . وقد أفلح فى إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاءاً تاماً ، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو ، وان حزر معظمهم أنه السر فيليب فرانسيس ، الذى سنلتقى به الخصم اللدود لوارن هيستنجز . وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم « لوشس » ، وبعضها باسم « بروتس » ، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط « لوشس جونيوس بروتس ؛ الذى يقول ليڤى انه خلع ملكاً (حوالى ٥١٠ ق . م .) وأسس الجمهورية الرومانية . وتدل فحولة لغة هذه الرسائل على أن « جونيوس » أوتى تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم . والراجح أنه كان غنياً ، لأنه لم يتقاض أجراً على رسائله التى وسعت قوتها ونقدها اللاذع من توزيع صحيفة « المعلن العام » توسيعاً غل الربح الوفير ، وهى الصحيفة التى ظهرت فيها من ٢١ نوفمبر ١٧٦٨ إلى ٢١ يناير ١٧٧٢ .

وفى مقاله « إهداء للأمة الانجليزية » الذى صدر به المؤلف « رسائل جونيوس » (١٧٧٢) أعلن هدفه وهو « تأكيد حرية الانتخاب ، والدفاع عن حقكم أنتم دون غيركم فى اختيار ممثليكم » واتخذ نقطة انطلاقه اقصاء ولكس المتكرر ، واعتقال كل من له صلة بالعدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » بأمر اعتقال عام . « أن حرية الصحافة هى الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الانجليزى ، وحق المحلفين . . . جزء أساسى من

دستورنا » ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية : « ان سلطة الملك ، واللوردات ، ونواب العموم ، ليست سلطة تعسفية . فهم ليسوا إلا الأمناء على التركة لا مالكيها . والملكية المطلقة قائمة فينا نحن . . . وأنا موقن بأنكم لن تتركوا لمشيئة سبعمائة شخص ، أفسدهم التاج على نحو مفضوح ، الفصل فى مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم ، أيكونون أحراراً أم عبيداً »(٨٥) .

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (١٧٦٨ — ٧٠) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالانعامات والرشا . هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية .

« تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأى نفوذ زكى مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته ؟ وماذا كان ثمن الامتياز الذى اشتراه ؟ . . . انك تعرض نخبة الرعاية الملكية للمزاد . . . أو تظن أن فى الإمكان أن تفلت هذه الكبائر دون اتهام ؟ أنها حقاً مصلحتك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجلس العموم الحالى . فهم إذ باعوا الأمة جملة ، سيحمونك ولا ريب فى التجزئة . لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم »(٨٦) .

واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزمن طويل ، كما نقرأ فى الرسالة المؤرخة ٢٢ يونيو ١٧٧١ .

لست أستطيع بأى مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل فى المملكة . لا ياسيدى ، فلست أحسبك كذلك . فسيكون لك منافس خطر فى ذلك الضرب من الشهرة . . . مادام هناك رجل واحد حتى يحسبك جديراً بثقته ، صالحاً لأن يوكل إليك أى قسط فى حكومته .»

وبدا أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه « أخس رجل فى المملكة » وكان جونيوس قد عمد من قبل فى الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك « بإباء وحزم ، ولكن دون احترام » : « سيدى ، ان الحطب الذى

منيت به حياتك . . . أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها فى شكاوى شعبك . على أن الوقت لم يمت لتصحيح خطأ تعليمك » . ونصح جونيوس جورج بأن يقيل وزراءه المحافظين ، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذى أنتخب له . « أن على الملك ان كان يفتخر بسلامة حقه فى التاج أن يتذكر أنه اكتسب بثورة ، وأنه قد يضيع بأخرى»[٨٧] .

وقبض على هنرى وودفول الذى نشر هذه الرسالة فى صحيفة « المعلن العام » بتهمة القذف المحرض على الفتنة . ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى ، فأفرج عنه بعد دفع المصاريف . وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة تهوره وقوته . ولكن الملك صمد للهجوم ، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت الجأش . وواصل جونيوس رسائله حتى ١٧٧٢ ، ثم ترك ساحة القتال . ويلاحظ أنه فى ١٧٧٢ ترك السر فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التى كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشئونها) ورحل إلى الهند .

وتنتمى الرسائل إلى التاريخ الأدبى لانجلتره كما تنتمى إلى تاريخها السياسى ، ذلك أنها مثال حى على الأسلوب الذى كان فى قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتفعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التخفى وراء الأسماء المستعارة . فهنا انجليزية رفيعة اختلطت بالسب ، ولكن السب ذاته آية فى الطعن المرهف . أو الإجرام الحاد . ولست تجد هنا شفقة ، ولا سماحة ، ولا تفكيراً فى أن الحزب الذى ينتمى إليه رامى الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه . ونحن نتعاطف مع السر وليم دراير الذى كتب يقول رداً على رسالة جونيوس المؤرخة ٢١ يناير ١٧٦٩ « أن المملكة تشقى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذين يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد إنسان شريف واحد فى مأمن ، لاسيما لأن هؤلاء القتلة الحقراء الجبناء يطعنون فى الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة الحقودة »[٨٨] .

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاظمين بصراع آخر فى هذه السنوات . ذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالى ١٧٦٨ فى طبع تقارير عن الخطب الكبرى التى تلقى فى البرلمان . وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق ، وبعضها وهمياً ، وبعضها محشواً بالبذاءات . وفى فبراير ١٧٧١ شكا الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة « الوغد الحقير » و « ذلك الحشرة التافهة الخسيسة» فأمر المجلس فى ١٢ مارس بالقبض على الطابعين . فقاوموا ، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتوا بهم إلى عضوين فى البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروسبى عمدة لندن . وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسيم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة . فأمر البرلمان بسجن العمدة فى برج لندن ، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه ، وهاجموا مركبات النواب ، وهددوا الوزراء ، وصفروا للملك استهزاء ، ثم أغاروا على مجلس النواب . فأطلق سراح العمدة ، وهتف له جمع غفير . واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية . وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين . وفى ١٧٧٤ بدأ لوك هانسارد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم ، وواصل نشرها حتى وفاته فى ١٨٢٨ .

وقد أثر الانتصار التاريخى الذى أحرزته الصحافة البريطانية فى طابع المناقشات البرلمانية ، وأسهم فى جعل النصف الثانى من القرن الثامن عشر العصر الذهبى للبلاغة الانجليزية . وأصبح الخطباء أشد حذراً ، وربما أكثر رغبة فى الإثارة ، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم فى طول الجزر البريطانية وعرضها . وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين ، ووجدت طبقة رجال الأعمال ، والمجتمع المفكر ، والراديكاليون الصاعدون ، فى الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة ، حتى قهر الملكية ذاتها . واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أى حد أحسن نوابهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم فى وضع القوانين وإلغائها . لقد استمر الفساد ولكنه تقلص ، لأنه كان فى الإمكان فضحه بجهر أكثر . وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات فى الأمة أو فى الأحزاب فى البرلمان . وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعدل قوة الوزراء .

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسيء استعمالها مراراً ، فباتت أحياناً أداة تسخرها أهداف أشد أنانية وتحزباً ، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً ، من أي أهداف أو معارضة ظهرت من قبل في البرلمان ، عندها استحقت النعت الذي نعتها به شاتام — « الفاجرة المرخصة »[٨٩] وكان إلزاماً أن يؤديها هي الأخرى صوت رابع هو الرأي العام ، الذي كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره ، وفي حالات كثيرة مضللة ، وأحياناً صوته . وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بآرائهم في السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع ، وتجمعوا في محافل عامة . ونافست مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً في التاريخ . واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشرف الأصل سواء بسواء ، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين .

أفرج عن ولكس في ١٧ ابريل ١٧٧٠ ، فأضيئت بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد ، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة « الحرية » في حروف ارتفاعها ثلاث أقدام[٩٠] . ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً في البلدية ثم عمدة ، وفي ١٧٧٤ انتخبته مدلسكس مرة أخرى للبرلمان . ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده ، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى ١٧٩٠ . وتزعم لفيفاً صغيراً من « الراديكاليين » في البرلمان ، طالبوا بالإصلاح البرلماني وبإعطاء « الطبقات الدنيا » حق التصويت .

« ينبغي في رأيي أن يتاح لكل عامل حر في هذه المملكة حق تمثيله في البرلمان وينبغي بتر دوائر الحضر الحقيرة التافهة ، التي نصر على وصفها بأنها الجزء العفن في دستورنا ، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الآهلة بالسكان — مثل برمنجهام ومانشستر وشفيلد وليدز وغيرها — بإرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم . . . أريد ياسيدي برلماناً انجليزياً يعبر عن الإحساس الحر ، غير المتحيز ، لسواد الشعب الانجليزي »[٩١] .

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات .

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب في ١٧٩٠ ، ثم اعتزل الحياة العامة . ومات في ١٧٩٧ وقد بلغ السبعين ، فقيراً كما ولد ، لأنه كان شديد الأمانة في جميع مناصبه[٩٢] .

٥ ـ انجلترة ضد أمريكا

فى ١٧٥٠ بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية قرابة ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، أما سكان انجلترة وويلز فكانوا نحو ٦,١٤٠,٠٠٠ (٩٣) ولما كان معدل النمو فى المستعمرات أعلى بكثير منه فى الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الإبن على أبيه . وكان مونتسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث فى ١٧٣٠، بل إنه تنبأ بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيود المفروضة على التجارة الأمريكية . وحوالى ١٧٤٧ تنبأ المركيز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على انجلترة وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدول العظمى . وبعد أن انتزعت انجلتره كندا من فرنسا فى حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجال انجليزى : « ستندم انجلترا سريعا على أنها أزالت الكابح الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على خوف مستعمراتها . فهى لم تعد فى حاجة لحمايتها ، وستطالب انجلترة المستعمرات بالمساهمة فى الأعباء التى عملت على إثقالها بها، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لانجلتره » (٩٤) .

وكان التاج البريطانى يدعى سلطة نقض القوانين التى توافق عليها مجالس المستعمرات . ولم يلجأ التاج كثيرا لاستعمال تلك السلطة، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد ، « لشعوره بالخطر الاجتماعى والسياسى العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل فى المستعمرة » ألغى التاج القانون لأن « تجارة العبيد من أربح فروع التجارة الإنجليزية » (٩٥) أما فى الشئون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها، وكانت قوانينه عادة تحابى الوطن الأم على حساب المستعمرات . وكان هدفه جعل أمريكا مصدراً للسلع التى لا تنتج بسهولة فى انجلتره ، وسوقا للمصنوعات البريطانية (٩٦) . وقد ثبط نمو صناعات المستعمرات التى ستنافس صناعات انجلتره فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة ، والقبعات ، والبضائع الجلدية ، والمنتجات الحديدية (٩٧) . وهكذا أعلن ايرل شاتام ، الذى كان فيما خلا هذا كبير

الود للمستعمرات ، أنه لن يسمح بأن يضع مسمار واحد فى أمريكا دون إذن البرلمان [٩٨] . ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات .

وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يستطيعون شحن البضائع إلا فى السفن الإنجليزية ، ولا بيع التبغ والقطن والحرير والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية ، ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسى على ساحل انجلترة ، وبعد أن تدفع مكس الميناء ، ثم تنقل إلى سفن بريطانية . وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية ، حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التى أنتجتها [٩٩] . وفرض البرلمان ضريبة باهظة (١٧٣٣) على واردات أمريكا من السكر أو الدبس (المولاس) المجلوبة من أى مصدر غير المصادر البريطانية . وتفادى المستعمرون لا سيما فى مساتشوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب ، وببيع الغلات الأمريكية خفية للأمم الأجنبية ؛ وحتى للفرنسيين أثناء حرب السنين السبع . ولم يمتثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة فى المائة أو نحوه من كميات الشاى التى تستورد سنـــويا للمستعمرات الأمريكية ؛ وجملتها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ رطل . وكان قدر كبير من الوسكى الذى تنتجه معامل تقطير مساتشوستس فى ١٧٥٠ ، وعددها ثلاثة وستون ، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية [١٠١] .

وتبريرا لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوروبية الأخرى فرضت نظيرها على مستعمراتها ، حماية لأهلها أو مكافأة لهم ، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلى للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد ، وأن انجلترة جديرة ببعض العائد الاقتصادى نظير تكاليف الحماية التى وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات ، وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود فى أمريكا . وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم ، ومن ثم شعرت انجلترة أن لها

الحق فى أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ — البالغ ١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنية — الذى استدانته بريطانيا العظمى فى حرب السنين السبع . ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندى لتلك الحرب ، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا دينا بلغ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

على أية حال قررت انجلترا أن تفرض الضرائب على المستعمرين . فى مارس ١٧٦٣ اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمغة على جميع مايصدر فى المستعمرات من وثائق قانونية ، ومستندات ، ودبلومات ، وورق لعب ، وكمبيالات ، وعقود ، ورهون ، وبوالص تأمين ، وجرائد ، ويقتضى دفع رسم عن طابع الدمغة للحكومة البريطانية . وأشار باترك هنرى فى فرجينيا ، وصموئيل آدمز فى مساتشوستش ، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز بحكم تقاليدهم الموروثة — الماجنا كارتا ، والعصيان الكبير لتشارلز الأول ، و « ملتمس الحقوق — لا يحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين . فكيف يتأتى إذن أن تفرض على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون ؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين فى البرلمان أمرا غير ممكن عمليا ، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قرونا يقبلون فى ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت فى انتخابه ، وقد أحسوا بما ينبغى أن يحس به الأمريكيون — وهو أنهم ممثلون فعلا فى البرلمان ، لأن أعضاءه يعدون أنفسهم ممثلين للامبراطورية البريطانية كلها .

غير أن المستعمرين لم يقتنعوا . وإذا كان البرلمان قد احتفظ بسلطة فرض الضرائب مرتكزا للهيمنة على الملك ، فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها فى فرض الضرائب على ذواتها بديلا وحيدا للظلم المالى يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكى . وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدموغة ، ووضعت بعض الصحف صورة جمجمة ميت فى المكان الذى يفترض أن تظهر عليه الدمغة ، وبدأ الأمريكيون يقاطعون البضائع البريطانية ، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

البريطانية . ورفض بعضهم سداد ديونهم لانجلترة حتى يلغى قانون الدمغة[١٠٢] . وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بألا يقبلن خطابا لايندون بقانون الدمغة [١٠٣] . واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشغب فى عدة مدن ؛ ففى نيورك شنقت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك) ، وفى بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم ، توماس هتشنسن ، وأكره موزعو الدمغـــة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم . وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة ، فطالبوا بإلغاء القانون . وأرسلت الالتماسات إلى الحكومة من لندن وبرستل وافربول وغيرها من المدن ، مقررة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يلغ القانون ، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلا للافتقار إلى الطلبات من أمريكا . وربما كان من قبيل الإقرار بهذه الالتماسات أن يعود بت بعد مرض طويل إلى البرلمان عودة درامية ويصرح قائلا (١٤ يناير ١٧٦٦) « رأيى أن هذه المملكة لا حق لها فى فرض ضريبة على المستعمرات » . وقد سخر من « الفكرة التى تزعم أن المستعمرات ممثلة فعلا فى المجلس » فلما قاطعه جورج جرنفل زاعما أنه يلمح بتشجيع الفتنة رد بت فى تحد قائلا « إنى مغتبط لأن أمريكا قد قاومت » [١٠٤] .

وفى ١٨ مارس أقنع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة . ورغبة فى استرضاء « أصدقاء الملك » أضاف إلى الإلغاء « قانونا له صفـــة الإعلان » يؤكد من جديد سلطة الملك فى أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملزمة للمستعمرات ، وسلطة البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية . وقبل الأمريكيون الإلغاء ، وتجاهلوا قانون الإعلان . وأصبحت المصالحة الآن ممكنة . ولكن فى يوليو سقطت وزارة روكنجهام ، وفى وزارة جرافتن التى تلتها جدد تشارلز تاونسهند ، وزير الماليـــة ، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام فى داخلها أو الهجوم عليها من الخارج . ففى ١٣ مايو ١٧٦٧ اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاى ، الذى تستورده أمريكا ، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم فى دفع رواتب الحكام والقضاه الذين يعينهم لأمريكا ، فإذا كان هناك فائض وجه

للانفاق على الجنود البريطانيين هناك . ووافق البرلمان . ومات تاونسهند بعدها بشهور .

وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة . وكانوا يتحكمون فى جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير فى إعاشتهم على الأموال التى توافق عليها مجالس المستعمرات ، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسليم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية ، وأجمعت المجالس على الحض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد ، واقيت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة ، وحاول اللورد نورث حلا وسطا بإلغاء جميع الرسوم التى فرضها تاونسهند فيما عدا رسما على الشاى قدره ثلاثة بنسات على الرطل ، وأرخى المستعمرون مقاطعتهم ، ولكنهم صمموا على ألا يشربوا من الشاى إلا المهرب . فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ ٢٨٩ صندوقا من الشاى فى بوسطن ، صعد إلى السفن خمسون مستعمرا حانقا متنكرين فى زى هنود الموهوك ، وتغلبوا على مقاومة ملاحيها ، وأفرغوا شحنتها فى البحر (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) . وعطلت حوادث الشغب فى ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاى الشركة .

وبقية القصة أكثر يخص أمريكا ، ولكن الدور الذى لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطباؤها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوى فى تاريخ انجلتره . وكما أن أقلية كبيرة نشيطة فى أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم ولحكومته ، فإن أقلية فى انجلتره يمثلها فى البرلمان شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وهوراس ولبول ، وولكس ، ناضلت لإقرار سلام بشروط فى مصلحة أمريكا ، بينما كان الجمهور عموما يؤيد الإجراءات الحربية التى اتخذتها وزارة اللورد نورث . ورأى البعض فى انقسام الرأى العام الإنجليزى على هذا النحو إحياء للمعارضة التى قامت بين الملكيين والبرلمانيين فى ١٦٤٢ . وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة ، وكذلك المثوديون سيرا وراء زعيمهم ويسلى ، ولكن كثيرا من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدرت من جماعات منشقة . ووافق جبون جونسون على إدانة المستعمرات ، ولكن ديفد هيوم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضى الى كارثة[١٠٥] أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق . وقال بيرك فى حزن أن الحرب « قد أصبحت بديلا للتجارة حقا ... والطلبات الضخمة على الإمدادات والبضائع من كل نوع ... ترفع معنوية عالم التجارة ، وتغرى التجار بألا يروا فى الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هى مورد ثرائهم » [١٠٦] .

وخشى الأحرار أن تقوى الحرب المحافظين على حزبهم ، والملك على البرلمان ، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند فى الرحيل إلى فرنسا فرارا من الاستبداد الملكى[١٠٧] وكان فى مسلك جورج الثالث مايبرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير . فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة ، حتى بتفاصيلها الحربية ، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص فى حالات كثيرة ، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت انجلترا الثورة فى مستعمرات أخرى ، ولانحصرت آخر الأمر فى جزيرتها ، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن قمع أمريكا سيكون انتصارا لمبادىء تشارلز الأول وجيمس الثانى . وفى ٢٠ نوفمبر ١٧٧٧ ، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة فى أمريكا ، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال ، استمع شاتام وهو قادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى « خطاب العرش » الوزارى بضيق متعاظم ، وقام ليلقى خطابا يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب ، ففيه اجتمع التاريخ والأدب . قال :

« إننى يا سادتى اللوردات أقف لأعرب عن مشاعرى عن هذا الموضوع البالغ الجد والخطر .. فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعمى ذليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التى هالت فوقنا العار والخذلان — والتى جلبت الخراب إلى أبوابنا .. هذه أيها السادة لحظة خطرة هائلة !

ليس الوقت وقت تزلف .. فلطف التزلف لا يجدى الآن ... ومن الضرورى الآن إعلام العرش بلغة الصدق .. هذا أيها السادة واجبنا ، انه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل ، المعتمد فى انعقاده على سمعتنا بالأمانة والوفاء بالوعود فى هذا البرلمان ، وهو المجلس الوراثى للتاج . فمن هو الوزير — وأين هو الوزير — الذى جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة ، غير الدستورية التى ألقيت اليوم منه ؟ إن اللغة التى اعتدناها من العرش هى طلب المشورة من البرلمان ... أما اليوم ، وفى هذا الطارىء البالغ الخطورة ، فإنه لم توضع ثقـة فى مشورتنا الدستورية ، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة ، ولكن التاج ، من ذاته ووحده ، يعلن تصميما باتا على مواصلة إجراءات ... مملاة ومفروضة علينا ... جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التى كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط ، كان فى استطاعة انجلترة أن تثبت أمام العالم كله ، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الإحترام لها . . . »

« أيها السادة ، انكم لن تستطيعوا قهر أمريكا . . قد تزدادون غلوا فى بذل النفقة والجهد المفرطين ، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة ، وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك ألمانى حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح . . ، قد نفعلون هذا كله ، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجـزة — ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذى تعتمدون عليه ، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التى لا شفاء منها . ولو كنت أمريكيا ، كما أنا انجليزى ، ورأيت جنديا أجنبيا يرسى فى أرض وطنى ، لما وضعت سلاحى — أبداً = أبداً — أبداً — أبداً ! (١٠٨) .

أما بيرك فقد سخرّ كل ملكات جد له فى محاولة ثنى البرلمان والوزارة عن سياسة القوة ضد أمريكا . وقد مثل من ١٧٧٤ إلى ١٧٨٠ فى البرلمان مدينة برستل التى عارض تجارها الحـرب مع أمريكا أول الأمر (١٠٩) ، كذلك كان فى هذه الفترة وكيلا براتب لولاية نيويورك (١١٠) . ولم ينكر حق البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام ، ولم يؤيد

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية فى « الحق الطبيعى » . ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه : فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً ؟ وفى خطابه عن الضرائب الأمريكية (١٩ أبريل ١٧٧٤) لم يكتف بأدانة قوانين تاونسهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاى ، وحذر من أن إضافة ضرائب على القيود الصناعية والتجارية المفروضة فعلا على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضى فى ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان .

فلما هزم فى هذه القضية جدّد فى ٢٢ مارس١٧٧٥ طلب المصالحة . وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامى ١٧٠٤ و ١٧٧٢ (١١١) ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التضحية بها بالحرب ؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك انجلتره معرضه للهجوم من عدو أجنبي ، وهو ما حدث فى ١٧٧٨ . ووافق على أن تمثيل الأمريكيين فى البرلمان جعله البحر أمراً غير ممكن عمليا ، ولكنه أكتفى بأن يطالب بالا تعتمد انجلتره على الضرائب بل على المنح الاختياريه من مجالس المستعمرات ، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة (١١٢) .

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية ٢٧٠ ضد ٧٨ ، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحذق تشارلز جيمس فوكس ، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية وفصمتها الثورة الفرنسية . وقد وصف جيون خطاب فوكس الذى ألقاه فى ٣١ أكتوبر ١٧٧٦ بأنه أقدر ما ألقاه فى حياته من خطب ، وذهب هوراس ولبول إلى أنه « من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية » (١١٣) وقد وقف ولبول فى وصف دعاة المصالحة ، ورثى لانهيار الحنكة السياسية البريطانية فى ظل حكومة اللورد نورث ، وفى ١١ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى هوراس مان يقول :

« تقرر أن يجتمع البرلمان فى العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال ٢٦,٠٠٠ بحار . فياله من قرار دموى ! ليت شعرى بأى صنوف

العذاب لابد من صيانة الحرية فى أمريكا ! وفى انجلتره ما الذى يستطيع انقاذ الحريه ؟ إيه انجلتره المجنونه ، المجنونة ! أى جنون أن تنبذ كنوزها ، وتضيع ثروتها الطائلة ، وتضحى بحريتها ، ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحارى لانهاية لها فى أمريكا ؛ وجزيرة فى أوربا مفتقره إلى المال ، منزوحة السكان ، ومن ثم فاقدة الأهمية ! » (١١٤) .

على أن الذى أقنع الشعب الإنجليزى ، ثم حكومته ، بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس ، بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية . وكان استسلام بورجوين فى ساراتاجوا (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) نقطة التحول ، ولأول مرة قدرت إنجلتره تحذير شاتام « لن تستطيعوا قهر أمريكا » فلما اعترفت فرنسا بـ « ولايات أمريكا المتحدة » وانضمت إلى الحرب ضد إنجلتره (٦ فبراير ١٧٧٨) أيد رأى الساسة الفرنسيين رأى شاتام ، وأضف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية المجددة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل ، ورجا الأذن له بالإستقالة ، ولكن الملك الذى أغرقه بهباتة أمره بالبقاء فى منصبه .

وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع اقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الإتحاد مع انجلتره ثانية إلا حكومة يتزعمها ايرل شاتام . ولكن جورج أبى أن يستمع لهذا الرأى . فقد قال لنورث « أنى أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شىء يحملنى على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام » (١١٥) وجاءالأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة فى ٧ أبريل ١٧٧٨ مستنداً إلى عكازين وابنه وليم ، وقد اكفهر وجهه إيذانا بدنو منيته ، وضعف صوته حتى لم يكد يسمع . وعاد ينصح بالمصالحة ، ولكنه عارض « تقطيع أوصال هذه الملكية العريقة النبيلة جداً » بمنح الاستقلال لأمريكا(١١٦) ورد الدوق رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن عن حلفها مع فرنسا . وحاول شاتام أن ينهض ويتكلم ثانية ، ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج ، ومات فى ١١ مايو ١٧٧٨ وقرر البرلمان أن يشيع فى

جنازة عامة وأن يقام له قبر ونصب فى كنيسة وستمنستر . لقد كان بإجماع الناس أعظم الانجليز فى جيله .

وتلاحقت الأحداث لتكمل الكارثة التى تنبأ بهـا . ففى يونيو ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا فى الحرب ضد انجلتره ؛ وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشارك فى الهجوم على السفن البريطانية . وفى أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنـال الإنجليزى ؛ واتخذت إنجلتره أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو ، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست . وفى مارس ١٧٨٠ اتحدت روسيا والدنمرك والسويد فى اعلان بالحيـاد المسلح » أقسم على مقاومة ما درجت عليه انجلتره من اعتلاء ظهور السفن المحايده بحثا عن بضائع العدو ، ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان . واستمر تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية ، وقد وجد الدليل على اتفاقات سرية بين مدينة امستردام ومفاوض أمريكى . وطالبت إنجلتره بمعاقبة موظفى امستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت ، فأعلنت عليها إنجلتره الحـرب (ديسمبر ١٧٨٠) . وأصبحت الآن كل دول البلطى والاطلنطى تقريباً متحالفة على إنجلتره التى كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار .

وعكس مراج البرلمان تكاثر الكوارث . وتصاعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره فى إنهاء الحرب . ففى ٦ أبريل ١٧٨٠ كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحا يعلن « أن نفوذ التاج ازداد ، وهو فى ازدياد ، وينبغى الحد منه » ، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٢٣٣ صوتاً ضد ٢١٥ . وفى ٢٣ يناير ١٧٨١ اتخذ بت الإبن كرسيه فى المجلس ، وفى خطابه الثانى ندد بالحرب مع أمريكا ناعتا أياها بأنهـا « جد ملعونة ، شريرة ، همجية ، قاسية ، منافية للطبيعة ، ظالمة ، شيطانية » [١١٧] . ورحب فوكس مبتهجاً ببت فى صفوف المعارضة ، غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عما قليل أقوى أعدائه .

وفى ١٩ أكتوبر ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن فى يوركتاون.

وصاح اللورد نورث « رباه ، لقد انتهى كل شىء ! » ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب . وفى فبراير ومارس ١٧٨٢ جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة ، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية . وارتفعت الأصوات الغاضبة فى الاجتماعات العامة التى انعقدت فى طول إنجلتره وعرضها مطالبة بالسلام . وهبطت أغلبية نورث فى مجلس العموم إلى اثنين وعشرين ، ثم إلى تسعة عشر ، ثم إلى واحد — فى التصويت على اقتراح « بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته فى الوزراء الحاليين » (١٥ مارس ١٧٨٢) ، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان فى الالزام بتغيير الوزارة . وفى ١٨ مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها فى الواقع أن السياسة الملكية نحـــو أمريكا ، ومحاولة توطيد سيادة الملك على البرلمان ، كليهما قد فشل .

« إن جلالتكم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هـــذا البلد لا يستطيع إن كان حصيفا أن يعارض القرار المدروس الذى يستقر عليه مجلس العموم . . . لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم ، ومشاعرهم — صائبة كانت أم مخطئة — لابد فى النهاية أن تكون لها الغلبة . إن جلالتكم . لن تفقدوا أى كرامة لو سلمتم »(١١٨) .

وفى ٢٠ مارس ١٧٨٢ ، بعد اثنتى عشرة سنة من الخدمة الصابرة والخضوع ، استقال اللورد نورث . وكتب جورج الثالث الذى تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله . وقبل وزارة من الأحرار المنتصرين : روكنجهام ، وإيرل شلبيرن ، وتشارلز جيمس فوكس ، وبيرك ، وشريدان . ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبيرن وزيرا للخزانة . واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبيرن . وشرع شلبيرن فى الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس ، ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، باريس وفرساى ٢٠ يناير و ٣ سبتمبر ١٧٨٣) نزلت انجلتره بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا ، وعن السنغال لفرنسا ، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها فى جميع الأراضى الواقعة بين الأليجنى وفلوريدا والمسسبى والبحيرات العظمى .

وكان الشعب الإنجليزى تواقا للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثيرة للمستعمرات ، وبلغ النقد الموجه لشلبيرن من لمرارة حدا حمله على تقديم استقالته (٢٤ فبراير ١٧٨٣) ولما كان الشقاق بين شلبيرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة مايتيح لها الهيمنة على البرلمان ، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عدوه القديم اللورد نورث . وأصبح بيرك صيرفيا للقوات المسلحة ثانية . أما شريدان الذى لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيرا للخزانة . وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز فى الهند، واحتل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحا فى السياسة البريطانية .

٦ — انجلتره والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها فى ١٧٠٩ باسم الشركة المتحدة لتجار انجلترة المتجرة مع الهند الشرقية » . وقدخولها المرسوم الذى حصلت عليه مق الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند . وكان يدير شئونها رئيس وأربعة وعشرون مديرا ينتخبهم سنويا « مجلس الملاك » لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أوأكثر صوت واحد . وقد أصبحت الشركة فى الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية ، وقاتلت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من امبراطورية المغول المتهاوية ، وفى حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة ، حاكم البنغال ، على كلكتا من الشركة ، وحبس ١٤٦ أوربيا فى « جحر كلكتا الأسود » — وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدما ، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين ، ومات من السجناء ١٢٣ أثناء الليل (٢٠ — ٢١ يونيو ١٧٥٦) من الحر أو الاختناق .

وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك فى المؤامرة التى دبرها مير جعفر ، وهو نبيل فى بلاط سراج الدولة ، للاطاحة بهذا الحاكم ، ثم استطاع بتسعمائة أوربى و٣٠٠ر٢ جندى من الوطنيين أن يهزم خمسين ألف مقاتل فى بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧)

وأعدم سراج الدولة ، وعين مير جعفر مكانه حاكما على البنغال . ودخل كلايف العاصمة مرشداباب دخول الفاتحين ، وبدت له مدينة لا تقل عن لندن حجما وربما أكثر منها ثراء . ورأى فى خزانة الحاكم أكداسا لا تصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الذخائر . فلما طلب إليه أن يحدد مكافآته عن تنصيب جعفر حاكما ، طلب ١٦٠٫٠٠٠ جنيه لنفسه ، ٥٠٫٠٠٠ لجيشه وبحريته ، ٢٤٫٠٠٠ جنية لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة ، و١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه تعويضا عن الخسائر التى لحقت بأملاك الشركة فى كلكتا . وهذه هى المناسبة التى أشار اليها كلايت حين أنبأ مجلس العموم أنه يعجب من اعتداله[١١٩]. وقدتلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه [١٢٠] واعترف به حاكما بريطانيا للبنغال .

أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كلكتا مقدارها ٨٨٢ ميلا مربعا نظير دفع إيجار سنوى قدره ٢٧٫٠٠٠ جنيه لمير جعفر ، وفى ١٧٥٩ وافق مير جعفر على أن يحوّل لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذى قدمه له فى إخماد فتنة .

فلما أمنت الشركة شر المنافسة ، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها فى غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية . وإذ كان كبار موظفيها بمنأى عن إشراف الحكومة البريطانية ، وبمأمن حصين من الواصل العشر شرقى السويس فقد حققوا أرباحا ضخمة من التجارة ، وعادوا إلى انجلتره سراة فى وسع الرجل منهم أن يشترى « دائرة جيب » أو عضوا فى البرلمان دون أن تضار ثروته ضررا بالغا .

وعاد كلايف إلى انجلتره فى ١٧٦٠ وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقعا أن ينعم فيها بالشهرة والثراء « فاشترى من الدوائر الانتخابية مايكفى للسيطرة على جبهة فى مجلس العموم ، وانتخب هو نفسه نائبا عن شروزبرى . غير أن بعض مديرى شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ماتبرره سنه ، اتهموه باستخدام وثائق مزورة فى تعامله مع سراج الدولة ، ومير جعفر . غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية ، وفساد الموظفين

وارتشاءهم ، وعجز الإدارة — كلها تهدد مركز الشركة فى الهند ، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (١٧٦٥) حاكما للبنغال . وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه ، والتمرد بين جنده ، وانتفاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة . وفى ١٢ أغسطس ١٧٦٥ أقنع شاه علم المغولى بأن يعطى الشركة الإشراف المالى المطلق على ولايات البنغال ، وبهار ، وأوريساء التى تضم من السكان ثلاثين مليونا وتغل إيرادا سنويا قدره ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وهذا ، بالإضافة إلى انتصار كلايف فى بلاسى ، خلق الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين ، عاد إلى انجلترة فى يناير ١٧٦٧ . وتجدد هجوم بعض مديرى الشركة عليه ، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال . ثم شارك نبأ مجاعة كبرى فى الهند ، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة ، فى إحداث ذعر نفى من جرائه نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة . وفى ١٧٧٢ فحصت لجنتان برلمانيتان شئون الهند . فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هرراس ولبول يصيح : « لقد فقنا الأسبان فى بيرو ! لقد قتلنا ، وخلعنا الحكام ، ونهبنا ، واغتصبنا . . أجل ، فما قولكم فى مجاعة البنغال التى هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفى شركة الهند الشرقية للمؤن ؟ » [١٢١] وفى ١٧٧٣ طالبت إحدى لجنتى الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التى استخدمها والمكاسب التى حققها فى الهند . فسلم لهم بجميع الوقائع تقريبا ، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها ، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يحيثون ليدينوا شرفه ألا ينسوا شرفهم . وصوت المجلس بأغلبية ١٥٥ ضد ٩٥ بأنه تلقى ٢٣٤٫٠٠٠ جنيه خلال إدارته الأولى للبنغال ، ولكنه « فى الوقت نفسه أدى لوطنه فى الواقع خدمات جليلة جديرة بالثناء » [١٢٢] وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (٢٢ نوفمبر ١٧٧٤) :

وفى ١٧٧٣ استصدر اللورد نورث من البرلمان قانونا تنظيميا أقرض الشركة سلفة مقدارها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه لينقذها(هى ومساهميها من النواب)

من الإفلاس ، وأخضع جميع الأقاليم التى تحكمها الشركة فى الهند لرآسة البنغال على أن تكون هى بدورها مسئولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكما على البنغال .

وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة . فقد ماتت أمه وهى تلده، وانطلق أبوه إلى حياة المغامرة ثم الموت فى جزر الهند الغربية . وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنستر ، ولكن العم مات فى ١٧٤٩ ، وأبحر وارن وهو فى السابعة عشرة طلباً للثراء فى الهند . وتطوع فى الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف ، وشارك فى استرداد كلكتا ، وأبدى اجتهادا وكفاية فى الإدارة ، فعين فى المجلس الذى يدير شئون الشركة فى البنغال . وفى ١٧٦٤ عاد إلى انجلتره . وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالإنضمام إلى مجلس مدراس . وفى طريقه إلى الهند التقى بالبارون إيمهوف وزوجته ماريون التى أصبحت خليلة هيستنجز ثم زوجته . وقد أبلى فى مدراس ، وفى ١٧٧٤ بدأ حكمه المضطرب واليا على البنغال .

وعكف على عمله بهمة ، ولكن أساليبه كانت دكتاتورية ، وكان فى بعض تصرفاته ما أتاح للسر فليب فرانسس مادة لتوجيه الهجمات إليه فى مجلس البنغال، كما وجهها بيرك بعد ذلك فى البرلمان . ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا الشاه علم إلى عرش المغول فى دلهى فحول إليهم ملكية الأقاليم التى خصصها له كلايف من قبل فى كورا والله اباد ، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود ، لقاء خمسين لك من الروبيات (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم فى استعادة الإقليم . وسمح له بالاستعانة بجنود الشركة فى غزو وتملك إقليم روهلخند ، الذى كان حاكمه مدينا له (على حد قول هذا) ، وتسلمت الشركة مبلغا كبيرا لقاء استخدام هؤلاء الجنود . وكان فى تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديرى الشركة (١٢٣) ، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أى حاكم بمقدار المال الذى يبعث به إلى انجلتره .

واتهم موظف هندى يدعى ننكومار هيستنجز بقبوله الرشوة ، وصدق

فرانسس وغيره من أعضاء المجلس التهمة ، وادعوا أنه « ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه » [١٢٤] ؛

وقبض على ننكومار بتهمة تزوير ، وأدين ، وأعدم (١٧٧٥) . واشتبه فى أن هيستنجز قد استخدم نفوذه فى التأثير على قاضى القضاه السير ايليا ايمبى (وكان زميلا له فى الدراسة فى ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف . وفى ١٧٨٠ رقى هيستنجز ايمبى إلى وظيفة إضافية تغل له ٥٠٠ر٦ جنيه فى العام . وقد أفضى تراشق هيستنجز وفرانسس بالتهم إلى مبارزة جرح فيها فرانسس جرحا خطيرا .

ثم رأى حيدر على ، مهراجا ميسور ، فى الخلافات بين هيستنجز ومجلسه فرصة لطرد الشركة من الهند . فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين ، وأحرز بعض الانتصارات المنذرة بالخطر (١٧٨٠) . فأرسل هيستنجز الجند والمال من البنغال لمقاومته ، ومات حيدر على (١٧٨٢) ولكن ابنه تيبو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائيا فى ١٧٩٢ . ولعل رغبة هيستنجز فى تمويل هذه الحملات هى التى ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه .

ذلك أنه طالب شايت سنغ ، راجا بنارس ، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذى كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنويا . واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة . فقاد هيستنجز قوة صغيرة إلى بنارس (١٧٨١) ، وخلع سنغ واقتضى مثلى الدخل من خلفه . ثم إن حاكم أوده المتراخى فى سداد ما فرضته عليه الشركة ، أوضح أن فى استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إلزام أمه وجدته ، بيجومى (أميرتى) أوده ، بتسليمه بعض التركة التى خلفها لهما أبوه وقدرها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ جنيه . وكانت أمه قد سلمته من قبل مبلغا كبيرا بعد أن تعهد بألا يطلب المزيد ، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيستنجز . ونصح هيستنجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود الشركة إلى فيظباد ، وأكره خدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب والتجويع على تسليم الثروة (١٧٨١) ، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة . [١٢٥]

وعاد السر فيليب فرانسس أثناء ذلك إلى انجلتره بعـــد أن شفى من جراحه (١٧٨١) ، وشرح للمديرين ولأصدقائه فى البرلمان ما اعتبره الجرائم التى اقترفها هيستنجز . وفى ١٧٨٢ وجه مجلس العموم اللوم إلى هيستنجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم « فى حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغيضة مجافية لشرف الأمة وسياستها » ، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرون الأمر ، ولكن مجلس المؤسسين أبطله ، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستمرة .

وفى نوفمبر ١٧٨٣ قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان ، بوصفه وزير دولة للشئون الخارجية فى الوزارة الائتلافية ، « مشروع قانون لإصلاح الهند » او ووفق عليه لوضع شركة الهندالشرقية تحت هيمنة مندوبين تعينهم الوزارة . وعلت شكوى النقاد بانالقانون سيتيح للأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وبيرك معينا من الغنائم تأتيهم بها هذه الرعاية . ومر القانون من مجلس العموم، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعد أى رجل يصوت للمشروع عدوا له ، فصوتوا ضده بأغلبية ٩٥ إلى ٧٦. وأودع نواب العموم احتجاجا رسميا يقرر أن هذا التدخل الملكى فى التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان . وأقال الملك الوزارة الائتلافية (١٨ ديسمبر ١٧٨٣) مدعيا أنها فقدت ثقة البرلمان ، ودعا وليم بت ، الذى كان فى الرابعة والعشرين . لتأليف حكومة جديدة . وحل جورج الثالث البرلمان معتقدا أن فى استطاعته الفوز فى انتخاب قومى (٢٣ مارس ١٧٨٤) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمانا لعودة أغلبية محافظة . وجاء البرلمان الذى التأم شمله فى ١٨ مايو مؤيدا لبت والملك تأييدا ساحقا .

كان بت نابغة فى الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تفانيه البالغ فى أداء الواجب ، وإلمامه المفصل بدقائق الأمور ، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر، تفوقا سرعان ماسلم به كل زملائه الوزراء تقريبا . وأصبح لانجلتره الآن لأول مرة « رئيس » وزراء بعد روبرت

ولبول (الذى كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب فى ١٧٧٣) [١٢٦] ، لأن زملاء بت لم يكونوا يتخذون أى إجراء هام دون موافقته . والواقع أنه أنشا « حكومة مجلس الوزراء » — ومؤداها المداولة الجماعية والمسئولية الموحدة لكبار الوزراء تحت رياسة واحدة . ومع أن بت تقلد المنصب مؤيدا للسلطة الملكية ، إلا أن جده واجتهاده ، وسعة معلوماته رفعته شيئا فشيئا إلى مكان كان فيه مرشدا للملك أكثر منه تابعا . وبعد نوبة الجنون الثانية التى أصابت الملك (١٧٨٨) كان بت هو الذى حكم انجلتره فعلا .

وقد مكنه إلمامه غير العادى بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أنهكها خوض حربين ضروسين فى جيل واحد إنهاكا خطرا . وكان بت قد قرأ آدم سمث ، ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة ، فخفض الرسوم على الواردات ، وعقـــد بعد المفاوضة مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (١٧٨٦) ، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغى أن يكونوا عموما معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنبيذ والآجر والقرميد والورق والشبابيك ، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضا للضريبة [١٢٧]. فمـــا وافى عام ١٧٨٨ حتى ووزنت الميزانية ، ونجت انجلتره من الإفلاس الحكومى الذى كان مفضيا بفرنسا إلى الثورة .

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان « مشروع قانون الهند الأول » الذى هزم . فقدم الآن مشروعا ثانيا : خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية ، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك فى أيدى الشركة خاضعة لحق النقض الملكى . وأقر البرلمان المشروع (٩ أغسطس ١٧٨٤) وظل يهيمن على الشئون البريطانية — الهندية حتى ١٨٥٨ .

أما فوكس وبيرك فقد رأيا فى هـــذا الترتيب استسلاما مخزيا لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام . وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط . ذلك أن راعيه اللورد فرنى ، وأخاه رتشرد بيرك ، وقريبه وليم بيرك ،

كانوا من قبل مستثمرين فى شركة الهند الشرقية ، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها[١٢٨]. وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه ادموند لدى السر فيليب فرانسس قائلا أنه يحبه حبا جما . فعين وليم صرافا للرواتب ، وتبين أنه « لا يقل فسادا عن غيره »[١٢٩] .

وحين عاد فرانسس إلى انجلتره أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه فى إدارة هيستنجز ، وكان من المصادر الذى استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية . ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيستنجز كان بعض مادفعهم إليه الرغبة فى تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها[١٣٠] .

وفى يناير ١٧٨٥ استقال هيستنجز وعاد إلى انجلتره . وراوده الأمل فى أن تشفع له السنون الطويلة التى أنفقها فى الإدارة ، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها ، وإنقاذه للقوة البريطانية فى مدراس وبومباى ، فى معاش يثاب به ، إن لم يكن فى لقب نبالة يشرف به . وفى ربيع ١٧٨٦ طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيستنجز فى الهند . ورفض تقديم بعض هذه السجلات ، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر . وفى ابريل طرح أمام المجلس بيانا بالتهم الموجهة إلى حاكم البنغال السابق ، وقرأ هيستنجز على المجلس ردا مفصلا . وفى يونيو قدم بيرك تهماً تتصل بحرب روهلخند ، وطلب توجيه الاتهام إلى هيستنجز ، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة . وفى ١٣ يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ ، وطلب تقديم هيستنجز للمحاكمة . وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوته فى صف فوكس وبيرك ، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء فى حزبه ، ولعله رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيستنجز . ووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية ١١٩ إلى ٧٩ . وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى ، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم فى ٧ فبراير ١٧٨٧ ، يوم ألقى شريدان خطابا قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع فى مجلس العموم طوال تاريخه[١٣١] ، (عرض على شريدان ألف جنيه نظير نسخة مصححة من الخطاب ، ولكنه لم يجد قط وقتا للقيام بهذه المهمة ، ولا نعرف الخطاب الا من الخلاصات المخفضة)

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتى أوده ونهبهما بكل ما أوتى من فن رجل ولد للمسرح ، وبكل ماتضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة ؛ وبعد أن استغرق فى خطابه أكثر من خمس ساعات ، طالب بتوجيه الاتهام الى هيستنجز . وصوت بت ثانية فى صف المحاكمة ، وووفق على الاقتراح بأغلبية ١٧٥ الى ٦٨ . وفى ٨ فبراير عين المجلس لجنة من عشرين — على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان — لإعداد بنود الاتهام . وقدمت البنود ، وفى ٩ مايو أمر المجلس « المستر بيرك ، باسم مجلس العموم .. أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيستنجز . . . بالجرائم والانحرافات الجسيمة » . وقبض على هيستنجز وجيء به أمام اللوردات ، ولكن أطلق سراحه بكفالة .

ثم بدأت محاكمته ، بعد أن تعطلت طويلا ، فى ١٣ فبراير ١٧٨٨ فى قاعة وستمنستر . وكل عشاق الأدب سيتذكرون وصف ماكولى الرائع (١٣٢) للحشد التاريخى : اللوردات جلوسا وهم فى فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا للمملكة ، وأمامهم هيستنجز شاحب اللون مريضا ، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين ، وطوله خمسة أقدام وست بوصات ، ووزنه ١٢٢ رطلا ، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطى آذانهم ، والأسرة المالكة ، وأعضاء مجلس العموم ، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات ، ومسز سيدونز بجمالها المهيب ، والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم ، وفى جانب جلست اللجنة التى سميت الآن « المديرين » تتأهب لتقديم حجج الاتهام . ثم قرأ الكتبة بيان التهم وجواب هيستنجز ، وراح بيرك فى أقوى خطاب ألقاه فى حياته ، على مدى أربعة أيام ، يصب فوق رأس المتهم سيلا متدفقا من الاتهامات . وأخيرا ، فى ١٥ فبراير ، دوى فى القاعة التاريخية صوته مجلجلا يطالب فى حماسة بالاتهام :

إنى أتهم السيد وارين هيستنجز بجرائم وانحرافات جسيمة ،
إنى أتهمه باسم نواب بريطانيا العظمى ... الذين خان ثقتهم البرلمانية ..

إنى أتهمه باسم شعب الهند ، الذى هدم قوانينه وحقوقه وحرياته ، ودمر ثرواته ، وأقفر وطنه وخربه .

إنى أتهمه باسم قوانين العـــدل الأزلية التى انتهكها ، وبمقتضى هذه القوانين . . .

إنى اتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها ، والتى اعتدى عليها بقسوة ، وألحق بها الأذى وظلمها فى الجنسين جميعا ، وفى كل عمر للناس ، ومقام ، ومركز ، وحال من أحوال الحياة (١٣٣) .

ومضت المحاكمة تتخللها عشرات المقاطعات ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستنجز . فلما شاع أن شريدان سيقدم الدليل فى قضية بيجومى أوده ، ظهر ٣ يونيو ، غصت الشوارع المؤدية إلى قاعة وستمنستر من الثامنة صباحا بالناس ، وفيهم كثير من علية القوم ، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة . وباع البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين جنيها إنجليزيا (١,٥٠٠ دولار ؟) للتصريح . وفهم شريدان أن القوم يتوقعون منه أداء دراميا ، فأداه . وخطب فى أربع جلسات ، وفى آخر يوم (١٣ يونيو ١٧٨٨) ، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات ، وقع إعياء بين ذراعى بيرك الذى عانقه . أما جبون الذى كان فى الشرفة فقد وصف شريدان بأنه « ممثل قدير » ولاحظ أن الخطيب كانت تبدو عليه امارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح الغد (١٣٤) .

وكان ذلك الخطاب قمة المحاكمة . وكانت كل تهمـــة من قائمة التهم الطويلة تقتضى البحث والتحقيق ؛ ولم يتعجل اللوردات مهمتهم ، ولعلهم تباطأوا ليزيلوا الأثر الذى خلفته البلاغـــة ، ويدعوا الاهتمام بالقضية ينصرف إلى أحداث أخرى ، وجاءت الأحداث ، فقد جن الملك جورج فى أكتوبر ١٧٨٨ ، وجن على نحو خطير تماما ، إذ فدحه ضغط المحاكمة وسوء سلوك ولده . فقد كان جوورج أوغسطس فردريك ، أمير ويلز ، فتى بدينا ، طيب القلب ، سمح النفس ، متلافا ، عاشقا للنساء ، وكان

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخليلات ، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة . وفى ١٨٧٥ تزوج سراً بالسيدة ماريا آن فتز هربرت ، الكاثوليكية الرومانية التقية ، التى ترملت من قبل مرتين ، وكانت تكبر الأمير بست سنين . واقترح الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير ، الذى ظل ساهرا ليلتين فى انتظار اعلان بعدم أهلية الملك، ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه ، وكان خلالها يتحدث عن جاريك وجونسن ، ويغنى لقطات من هندل ، ويعزف على الناى . وفى مارس ١٧٨٩ شفى ، ونضا عنه سترته الضيقة ، وأستأنف مراسم الحكم .

وجاءت الثورة الفرنسية بمنصرف آخر عن المحاكمة . فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيستنجز وخف لنجدة مارى أنطوانيت . وأتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته ، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام . وكان أكثر الصحف يناوئه، وقد اتهمها بأن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه قد استخدمت فى شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيستنجز ؛ وما من شك فى أن شطرا كبيرا من ثروة هيستنجز قد أنفق فى هذا السبيل (١٣٥) ولابد أن بيرك لم يفاجأ حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيستنجز (١٧٩٥) فى نهاية المطاف ، بعد مضىّ سنوات ثمان على الاتهام . وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل : صحيح أن المتهم كان من نواحى كثيرة مذنبا ، ولكنه استنقذ الهند لانجلترا ، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله ، وخلفته ملوث السمعة مفلسا .

وعمر هيستنجز بعد موت جميع متهميه . وأنقذته شركة الهند الشرقية من الافلاس بالموافقة على اعطائه منحة قدرها ٩٠,٠٠٠ جنيه . فاسترد ضيعة أسرته الوراثية فى ديلز فورد ، وأصلحها ، وعاش فى بذخ شرقى. وفى ١٨١٣ طلب إليه الادلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم، فقوبل فيه بالتصفيق والاجلال ، ونوه بخدماته ، وحييت أوزاره مع الزمن . وبعد أربع سنوات رحل عن هذه الدنيا ، ولم يبق حيا من جيله الصخابَ غير فرد واحد — هو الملك الأعمى المعتوه .

٧ — انجلتره والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بيرك على استنفاد قوته فى الحرب ضد شركة الهند الشرقية ، ناصب الثورة الفرنسية العداء الشخصى ، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير فى الفلسفة السياسية .

وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاما ؛ « بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا ، وتفوق نفقتها مواردها فى كل ناحية ، بحيث لم يعد مناص لكل إنسان . . . نظر فى شئونها بأقل اهتمام أو علم ، من أن يترقب فى كل لحظة حدوث اضطراب هائل فى النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوربا جميعها » (١٣٦) . وفى ١٧٧٣ زار فرنسا ، وفى فرساى رأى مارى أنطوانيت وكانت آنئذ زوجة لولى العهد ، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال الغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة . وقد خلص إلى رأى طيب فى النبالة الفرنسية ، وأطيب منه فى الكهنوت الفرنسى . وصدمته دعوة جماعة الفلاسفة المناوئه للكثلكة ، بل المناوئة للدين فى حالات كثيرة ، وحين عاد إلى انجلتره حذر مواطنيه من الألحاد لأنه « أبشع وأقسى لطمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتمدن » (١٣٧) .

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفزعه ذلك التهليل الذى لقيته من صديقه فوكس ، الذى هتف لسقوط الباستيل باعتباره « أعظم حدث وقع فى العالم و... أفضله (١٣٨). وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التى شنها ولكس وجمعية مؤيدى ملتمس الحقوق قدانتشرت فى انجلتره ببطء . واقترح كاتب مغمور فى ١٧٦١ الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا تكاثر السكان الذى خشى أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر. (١٣٩) وتكونت فى١٧٨٨ جمعية لإحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨ ،وضمت بين أعضائها نفرا بارزا من رجال الدين والنبلاء . فلما إلتأم شملها فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، بلغ انفعالها و تأثرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حداً جعلها تبعث

برسالة تهنئة للجمعية الوطنية فى باريس ، معربة عن الأمل فى أن « المثل العظيم الذى ضربته فرنسا » قد « يشجع أمما أخرى على توكيد الحقوق الثابتة لبنى الإنسان» (١٤٠) ووقع الرسالة ايرل ستانهوب الثالث ، رئيس الجمعية ونسيب وليم بت .

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه.وكان ناهزالستين ووصل إلى حقه فى أن يكون محافظ النزعة . وكان رجلامتدينا يملك ضيعة كبيرة . لذلك لم ير فى الثورة الفرنسية « أدهش ثورة وقعت فى العالم إلى يومنا هذا »(١٤١) فحسب ، بل أعتى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفى ٩ فبراير ١٧٩٠ أخبر مجلس العموم أنه لو حدث أن أى صديق له وافق على أى إجراءات من شأنها أن تدخل إلىانجلتره دمقراطية كتلك التى تتشكل فى فرنسا ، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها . وهدأ فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له . وتأجلت القطيعة بينهما حينا .

وفى نوفمبر ١٧٩٠ نشر بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » على شكل رسالة (بلغ طولها ٣٦٥ صفحة) إلى « سيد فى باريس » وأصبح بيرك الان بطل انجلتره المحافظة ، وهو الذى كان قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية ؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم . وغدا الكتاب إنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى ، التى كانت يوما ما صديقة جماعة الفلاسفة وحبيبتهم ، تهنئها للرجل الذى كان قد نوى خلعهم عن عروشهم . (١٤٢) .

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة . ثم أسف أسفا شديدا علىدخول رجالالدين حلبة المناقشات السياسية ، وقال إن مهمتهم إرشادالنفوس إلىالمحبة المسيحية لا إلىالإصلاح السياسى . وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذى يدافع عنه برايس، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغيانا من الملوك ، وأن الدمقراطية ستنحط إلى حكم الغوغاء ، فالحكمة ليست فى الكثرة بل فى الخبرة . والطبيعة

لاتعرف شيئا عن المساواة ، وما المساواة السياسية إلا أكذوبة بشعة لا يسفر بثها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطلة فى رجال كتب عليهم السير فى المسالك المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تفاقم عدم المساواة الحقيقى ، الذى لن تقوى إطلاقا على إزالته » (١٤٣) . والأرستقراطية لا محيص عنها ، وكلما أعرقت أجادت أداء وظيفتها ، وهى أن توطد فى صمت ذلك النظام الاجتماعى الذى بدونه يستحيل الإستقرار والأمان والحرية (١٤٤) . والملكية الوراثية نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات المواطنين القانونية والإجتماعية فى سيل محموم مضطرب . والدين حسن لأنه يعين على كبح تلك الدوافع غير الإجتماعية التى تستعر كأنها النار من تحت سطح الحضارة ، والتى لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة والكنيسة ، وبين القانون والعقيدة ، وبين الخوف والإحترام . وأولئك الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الدينى بين صفوف شعبهم المتعلمة إنما يحطمون حماقة تلك اللجم التى حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشا .

وقد أسخط بيرك انتصار الغوغاء فى فرساى على « ملك معتدل شرعى » وعلى معاملته « بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أى شىء » ثار به شعب على أشد المغتصبين خروجاً على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء (١٤٥) . وهنا تقع الصفحة الشهيرة التى إنتشينا لها فى شبابنا :

« لقد مضت الآن ستة أو سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا فى فرساى وكانت يومها زوجة ولى العهد ، والحق أنه ما من منظر أبهج من هذا حط على هذا الكوكب الذى بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رفيقاً . لقد رأيتها فوق الأفق بقليل ، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التى همت بالتحرك فيها — ساطعة كنجمة الصبح ، فياضة بالحياة ، والبهاء ، والفرح . أية ثورة تلك ! وأى قلب يجب أن تضمه جوانحى حتى أتأمل دون إنفعال ذلك السمو وذلك السقوط ! (*) لم يخطر ببالى يوم كانت تجمع بين ألقاب التبجيل وألقاب

(*) يعنى إكراه الغوغاء فى فرساى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت على العودة معهم إلى باريس والسكنى فى قصر التويلرى تحت رقابة الشعب (٥ — ٦ أكتوبر ١٧٨٩) .

الحب المتحمس ، البعيد ، المشرب بالإحترام ، أنها ستضطر يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزى ، المخفى فى ذلك الصدر ، ولا خطر ببالى أننى سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها فى أمة من الرجال البواسل ، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة . كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لابد قافزة من أغمادها لتثأر حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة . ولكن عصر الفروسية ولى ، وخلفه عصر السوفسطائيين والإقتصاديين والحسابين ، وانطفأ مجد أوربا إلى الأبد » [١٤٦] .

وضحك السير فيليب فرانسس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسى ، وأكد لبيرك أن ملكة فرنسا إمرأة فاجرة لعوب [١٤٧]. وكذلك رآها كثير من الإنجليز الوطنيين ، على أن هوراس ولبول أكد أن بيرك صور مارى أنطوانيت « بالضبط كما بدت لى أول مرة رأيتها وهى ولية للعهد » [١٤٨].

فلما واصلت الثورة مسيرها واصل بيرك هجومه فنشر «رسالة لعضو فى الجمعية الوطنية » (يناير ١٧٩١) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوربا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلى سلطته التقليدية . وروع الاقتراح فوكس ، وفى ٦ مايو ، فى مجلس العموم ، انتهى الصديقان اللذان حاربا كتفا إلى كتف فى حملات كثيرة جدا بتفرق طريقهما تفرقا دراميا . فقد كرر فوكس ثناءه على الثورة . ولكن بيرك قام محتجا وقال « ليس من الحكمة فى أى وقت ، خصوصا فى سنى هذه ، أن أستفز الأعداء ، أو أعطى فرصة لأصدقائى ليتخلوا عنى ، ولكن إذا كان ولائى القوى الثابت للدستور البريطانى يضعنى فى هذه الورطة فإنى على استعداد لركوب هذه المغامرة . » فأكد له فوكس أن الخلافات فى الرأى بينهما لا تنطوى على فصم لأواصر الصداقة . وأجاب بيرك « كلا كلا ، إن فيها فقدا للأصدقاء . إنى أعرف ثمن سلوكى . . لقد انتهت صداقتنا . » [١٤٩] ولم يعد بعدها للكلام مع فوكس إلا رسميا فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف فى محاكمة هيستنجز .

وقد قدم بيرك فى كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة . وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أيا كان ذكاؤه إذا تعارض

مع تقاليد النوع الإنسانى . فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المحاذير والنواهى الأبوية ، فكذلك لا يستطيع الفرد ، وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع ، أن يفهم دائماً أسباب العادات والأعراف والقوانين التى تجسد تجربة أجيال كثيرة . والحضارة تستحيل « إذا إرتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية ، وأسس المجتمع ، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد » . [١٥١] لا بل حتى « الأحكام المسبقة » لها فائدتها ، فهى تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية .

فالعنصر الثانى من عناصر المحافظة إذن هو « حق التقادم » : فالتقليد أو المؤسسة يجب إحترامها إحتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلا أو مجسمة فى نظام المجتمع أو هيكل الحكومة . والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة فى الظاهر . فإنه ليبدو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة ، وأمعن فى اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخلفه الذين لم يحركوا أصبعاً فى كسبها ، ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس ، ولا للتحضير الشاق المكلف ، ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص ، لهم أن ينقلوها لغيرهم ، إلى حد كبير ، كما يشاءون . وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة .

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص فى مكان ما فى لحظة ما ، إنما هى تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل « إن المجتمع هو حقاً تعاقد ... شركة لا بين الأحياء فحسب ، بل بين الأحياء ، والأموات ، والذين سيولدون » [١٥١] . وذلك الإستمرار هو وطننا . فى هذا الكل الثلاثى قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضى الزمن ، ويجب على المشرع أن يراعى حقوق الماضى (خلال « حق التقادم ») وحقوق المستقبل ، رعايته لحقوق الحاضر الحى . والسياسة هى ، أو ينبغى أن تكون ، فن المواءمة بين أهداف الأقليات المتضاربة وصالح الجماعة المستمرة . يضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة ، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة ، وليس هناك إلا الرغبات ، والقوى ، والظروف ، و « الظروف تضفى على كل مبدأ سياسى لونه المميز

وأثره الفارق » (١٥٢) والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق « ينبغي أن تكيف السياسة لا وفق الحجج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية ، التي ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق (١٥٣) . « يجب أن ننتفع بما يوجد من مواد (١٥٤) » .

هذه الإعتبارات كلها يوضحها الدين . قد لا تكون عقائد دين من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الفردى الحاضر ، ولكن هذا ليس بذى بال إذا إتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلة . والتجربة قاطعة فى أن عواطف الناس المشبوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره « إذا نحن كشفنا عرينا [أطلقنا غرائزنا] بنبذ ذلك الدين المسيحى الذى كان ... مصدراً عظيما للمدنية بيننا .. فإننا نخشى (ليقيننا بان الفكر لا يطيق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء ، مؤذية ، محطة (١٥٥) » .

ورفض كثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تمجيداً للركود (١٥٦) ، ورد عليه توماس بين بقوة فى كتابه « حقوق الإنسان (١٧٩١ — ٩٢) . ولكن إنجلتره التى عاصرت شيخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف . فلما مضت الثورة الفرنسية فى طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر ، وإعدام الملكة والملك ، وحكم الإرهاب ، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر ، وتشبثت إنجلتره قرناً كاملا بدستورها ، دستور الملك ، والأرستقراطية ، والكنيسة الرسمية ، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية لا الحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الإنتخابية ، العفنة ووسعت حق التصويت . وبعد الثورة عادت فرنسا من روسو إلى مونتسكيو ، وصاغ جوزف دميستر آراك بيرك للفرنسيين التائبين صياغة جديدة .

وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة . واغتبط حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (١٧٩٣) . وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخلع

عليه لقب اللورد بكنزفيلد الذى شرفه دزرايلى فيما بعد . فرفض بيرك ، ولكنه قبل معاشاً قدره ٢,٥٠٠ جنيه (١٧٩٤) . فلما بدأ الحديث يتردد عن اجراء مفاوضات مع فرنسا ، أصدر « أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك » (١٧٩٧ وما بعدها) ، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب . ولم يطفىء لهيب ناره غير الموت (٨ يوليو ١٧٩٧) . واقترح فوكس أن يدفن فى كنيسة وستمنستر ، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع فى جنازة غير رسمية ويدفن فى كنيسة بكنزفيلد الصغيرة . وقد ذهب ماكولى إلى أنه أعظم انجليزى منذ ملتن — وهو رأى ربما تجاهل شاتام ؛ أما اللورد مورلى فقد وصفه فى حذر أكثر ، بأنه «أعظم أساتذة الحكمة المهذبة فى لغتنا» ،(١٥٧) وهو رأى لعله تجاهل لوك . على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل — رجلا استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التى دافع بها فولتير من قبل عن العقل .

٨ — الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيمس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة فى البرلمان وفى الوطن . وانحاز كثيرون من حلفائه إلى الرأى القائل بوجوب انضمام انجلترا إلى بروسيا والنمسا فى مقاتلة فرنسا . وبعد إعدام لويس السادس عشر وجد فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ، ولكنه ظل على معارضته الدخول فى الحرب . فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزى نفسه بالشراب ، وبقراءة الآداب القديمة ، وبالزواج (١٧٩٥) من السيدة اليزابث أرمستد ، خليلته السابقة (وخليلة اللورد كافندش ، واللورد دارلى ، واللورد كولموندلى) ، التى أدت عنه ديونه (١٥٨) . وقد رحب بصلح أميان (١٨٠٢) ، وقام برحلة فى فرنسا ، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية ، واستقبله نابليون مواطناً لحضارة . وفى ١٨٠٦ تقلد وزارة الخارجية فى « وزارة جميع المواهب » ، وقد جاهد ليحتفظ بالسلام مع فرنسا ، وأيد تأييداً قاطعاً حملة ولبرفورس على تجارة الرقيق . وحين تناهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

الامبراطور تحذيراً بطريق تاليران ، ولعل فوكس كان واجداً سبيلا للتوفيق بين طمع بونابرت وأمن انجلتره لولا انهيار صحته . ولكن فى يوليو ١٨٠٦ أعجزه داء الاستسقاء ، وأخفقت سلسلة من الجراحات المؤلمة فى وقف سير المرض ، فتصالح مع الكنيسة الرسمية ، وفى ١٣ سبتمبر مات مبكياً عليه من أصدقائه وأعدائه ، وحتى من الملك . لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من المحبين .

وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بت الإبن الذى شاخ قبل أوانه . فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تنسيه همومه من حين إلى حين . وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة ، فكل صراع خطير فى وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل باتزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً ، يطرد بت ويستدعى فوكس ليحل محله . وعليه فقد تخلى بت عن خططه فى الإصلاح السياسى ، وسحب معارضته لتجارة الرقيق ، حين وجد أن فى هاتين المسألتين ، كما فى كثير غيرهما من المسائل ، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضى . وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادى ، الذى خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة . ثم قاد انجلتره على كره شديد — فى حرب ضد من سماهم « أمة من الملحدين »[١٥٩] ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب . فحين خشى أن يغزو الفرنسيون أرلنده ، حاول تهدئة الأرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكى ، ولكن الملك تصلب ، واستقال بت (١٨٠١) . ثم عاد (١٨٠٤) ليرأس وزارته الثانية . ولم يكن كفؤاً لمقارعة نابليون ، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين فى أوسترلتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥) ذلك النصر الذى جعل نابليون سيد القارة ، انهار بت جسداً وروحاً . وحين وقع بصره على خريطة كبيرة لأوربا قال لصديق له « اطو هذه الخريطة ، فلن يكون هناك حاجة إليها هذه السنين العشر »[١٦٠] . ومات فى ٢٣ يناير ١٨٠٦ ، فقيراً فقراً مشرفاً ، غير متجاوز السادسة والأربعين .

ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضى على شريدان . وكان قد انضم إلى برك وفوكس فى الدفاع عن أمريكا وفى خوض معركة هيستنجز ، وأيد فوكس فى التصفيق للثورة الفرنسية . غير أن الزوجة التى كان سحرها ودماثة

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه ، والتي جعلت من جمالها منبر خطابة لتعينه على الظفر بكرسي في البرلمان ، هذه الزوجة ماتت بالسل وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها (١٧٩٢) . فانهار شريدان . وقال أحد معارفه عنه « رأيته الليلة بعد الليلة يبكي كأنه طفل »(١٦١) وقد وجد بعض العزاء في الفتاة التي أنجبتها له ، ولكنها ماتت في السنة ذاتها . وفي شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح دروري لين الذي لم يعد مأموناً لقدمه وتداعي مبانيه . ولكي يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة . وكان قد عود نفسه العيش المترف ، الذي عجز دخله عن الإنفاق عليه . لذلك استدان ليواصل أسلوب حياته . وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليطالبوه بديونهم كان يحتفي بهم كأنهم اللوردات ، ويقدم إليهم الشراب والتحية المهذبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم في حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه . وقد ظل نشيطاً في البرلمان حتى ١٨١٢ حين أخفق في إعادة انتخابه . وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً في مجلس العموم ، أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه ، واستولوا على كتبه ، وصوره ، ومجوهراته ، وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت في الطريق . ثم قضى نحبه في ٧ يوليو ١٨٠٦ وهو في الخامسة والستين . وقد عاوده الغنى في مأتمه ، لأن سبعة لوردات وأسقفا شيعوه إلى مقبرة وستمنستر .

أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين ، بل عمر حتى رأى انتصار انجلترة في واترلو وإن لم يعلم به . وقد أدرك بحاول عام ١٧٨٣ أنه أخفق في محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان . وأضنته صراعاته الطويلة التي لم يكن كفؤ لها مع مجلس العموم ، وأمريكا ، وفرنسا . وفي ١٨٠١ و ١٨٠٤ و ١٨١٠ انتكس إلى جنونه ، وظفر في النهاية بتلك الشعبية التي حرمها أيام كفاحه ، مشوبة بالشفقة على رجل رأى انجلترة تصاب بالهزائم الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها . وكان في موت ابنته أميليا (١٨١٠) الأثيرة لديه ما أكمل القطيعة بينه وبين دنيا الواقع . وفي ١٨١١ كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لاشفاء منه ، وظل معزولا تفرض عليه الحراسة حتى مات (٢٩ يناير ١٨٢٠) .

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الانجليزى

١٧٥٦ – ٨٩

١ – أساليب الحياة الانجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة ، فلننظر الآن فى أحوال الشعب . أولا تأمل أشكال بنيتهم . فما من شك فى أن رينولدز تسامى بها ، فأظهرنا غالباً على المحظوظين حملة ألقاب النبالة . وأضفى على أجسادهم البدنية بهاء من أرواب الشرف وشاراته . ولكن استمع إلى جوته يصف الانجليز الذين شاهدهم فى فايمار ! « يا لهم من قوم ملاح الوجوه رائعى السمت ! » – وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان ، المملوءون ثقة فى أنفسهم ، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً ، الفتيات الألمان عن الافتتان بالرجال الألمان[١] . وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى تقدم بهم العمر ، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخدودهم حين خلفوا ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة ، وتفتحوا كأنهم الورود الحمراء القانية ، وكافحوا فى هدأة الليل ذلك النقرس الذى غذوه أثناء النهار المرح . وقد ضاع شىء من الخشونة الاليزابيثية فى القصف الذى رافق عودة الملكية . أما النساء الانجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن فى أى وقت مضى ، على لوحات الرسامين على الأقل : قسمات دقيقة ، وشعر تجمله الأزهار والأشرطة ، وأسرار غامضة يغلفها الحرير ، وقصائد من الشعر كلها رشاقة وجلال .

وكانت فوارق الزى الطبقية فى طريقها إلى الزوال بفضل ما جد من وفرة فى الثياب القطنية التى تنتجها المصانع المتكاثرة . ولكنها ظلت على

حالها فى المناسبات الرسمية . وقد ركب اللورد ديرونتووتر إلى موضع إعدامه فى سترة قرمزية وصدرية موشاة بالذهب[٢] . أما البواريك فكانت دولتها تدول ، ثم اختفت حين فرض بت الثانى الضرائب على المسحوق الذى يزيل رائحتها الكريهة ، ولكنها عمرت على رءوس الأطباء ، والقضاة ، والمحامين ، وعلى رأس صموئيل جونسن ؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعى يلمونه على أقفيتهم فى ضفيره معقودة بشريط . وحوالى ١٧٨٥ أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ربلة الساق ؛ وفى ١٧٩٣ تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان — كيلوط الفرنسيين الظافرين ، وهكذا ولد الرجل العصرى . أما النساء فظللن يغطين صدورهن بالمخرمات حتى يشرفن على الاختناق ، ولكن التنورة المطوقة أخذت تفقد ذيوعها وعرضها ، وبدأت الفساتين تتخذ تلك الخطوط الانسيابية التى استهوتنا أيام الشباب .

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر ، لأن الماء كان ترفا . فالأنهار جميلة ولكنها عادة ملوثة ، وكان التيمز أشبه بالمصرف[٣] . وكان الماء يفرغ فى مواسير ببيوت لندن ثلاث مرات فى الأسبوع نظير ثلاثة شلنات للكوارتر[٤] ، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية ، وقليل منها كان له حمامات بماء جار . وكان معظم المراحيض (التى درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار ، مبنية فوق حفر مكشوفة ترسل نزها خلال التربة إلى آبار يأتى منها قدر كبير من ماء الشرب[٥] . على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن ، والمستشفيات تكثر ، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين فى كل مائة مولود عام ١٧٤٩ إلى واحد وأربعين عام ١٨٠٩[٦] .

ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً . وكانت الجعة تعد طعاماً ، لا غنى عنه لأى عمل شاق ، أما النبيذ فدواء مفضل ، وأما الوسكى فموقد متنقل ، وأما السكر فخطيئة عرضية ، ان لم تكن جزءاً ضرورياً لمسايرة المجتمع . قال الدكتور جونسن « أذكر الأيام التى كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

يسكرون كل ليلة ، ولم يسؤ رأى الناس فيهم لسكرهم هذا »[٧] .
وكان بت الثانى يحضر إلى مجلس العموم مخموراً ، واللورد كورنواليس يذهب إلى الأوبراء ثملا[٨] . وكان بعض سائقى عربات الأجرة يزيدون دخولهم بطواف الشوارع فى جوف الليل والتقاط السادة « المبسوطين » وتوصيلهم لبيوتهم . ثم تناقص السكر بتقدم القرن ، واضطلع الشاى ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة . وزادت واردات الشاى من مائة رطل عام ١٦٦٨ إلى أربعة عشر مليون رطل عام ١٧٨٦[٩] . وكانت مشارب القهوة الآن تقدم الشاى أكثر من القهوة .

أما وجبات الطعام فكانت شهية ، دامية ، هائلة الحجم . وكان الغداء يقدم حوالى الساعة الرابعة عصراً لعاية القوم ، ثم أخر شيئاً فشيئاً إلى السادسة باقتراب القرن من نهايته . وقد يهدىء رجل مستعجل جوعه بشطيرة (ساندوتش) . وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع الذى ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء . أما الخضروات فتؤكل على مضض . وقد قال جونسن لبوزويل فى ١٧٧٣ « ان التدخين انتهت موضته » ، ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً . وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً .

وكان فى وسع الرجل الانجليزى وهو على المائدة أن يشرب حتى ينطلق لسانه ، وعندها قد يضارع الحديث نظيره فى صالونات باريس ظرفاً ويبزه جوهراً . وذات يوم (٩ ابريل ١٧٧٨) اجتمع فيه جونسن ، وجبون ، وبوزويل ، وآلن رمزى ، وغيرهم من الأصدقاء ، فى بيت السر جوشوا رينولدز ، قال الدكتور (جونسن) ملاحظاً « أشك فى إمكان جمع شمل لفيف كهذا الذى يجلس حول هذه المائدة فى باريس فى أقل من نصف سنة »[١٠] . وكانت المحافل الارستقراطية تؤثر الحديث الظريف على حديث العلماء ، وتفضل سلوين على جونسن . وكان جورج سلوين أوسكار وايلد القرن الثامن عشر . وقد طرد من أكسفورد (١٧٤٥) لأنه « زعم فى زندقته أنه يتقمص شخصية المخلص المبارك ، ولأنه سخر من سر التناول المقدس»[١١] ،

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية فى الإدارة الحكومية ، أو الجلوس والنوم فى مجلس العموم من ١٧٤٧ إلى ١٧٨٠ . وكان له العديد من الأصدقاء ، ولكنه لم يتزوج قط . وكان ولوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام ، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سميا لتشارلز جيمس فوكس ، عدوه السياسى الذى كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة — قال « انى حريص على ألا أحضر « البروفات » أبدا »[١٢] . وقد ظل هو وهوارس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكدر صفو صداقتهما سحابة أو امرأة .

أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان فى وسعهم أن يتخيروا ما طاب لهم من بين عشرات الملاهى الأخرى ، من لعبة الورق المسماه « هويست » أو مشاهدة قتال الطيور ، إلى سباقات الحفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة . وكان الكريكت الآن اللعبة القومية . وكان الفقراء يبددون أجورهم فى الحانات ، والأغنياء يقامرون بثرواتهم فى الأندية أو البيوت الخاصة . ويقول ولبول عن جلسة قمار فى بيت الليدى هرتفورد « إننى خسرت ستة وخمسين جنيهاً فى لحظات »[١٣] . وقد أطلق جيمس جلراى ، فى رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات « بنات فرعون »[١٤] * وكان تقبل الخسائر فى هدوء أول الصفات المطلوبة فى الرجل الانجليزى المهذب ، حتى ولو انتهى به الأمر إلى اطلاق الرصاص على رأسه .

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل ، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً . فكان الرجال يستمتعون بمعظم لذاتهم الاجتماعية مع غيرهم من الرجال ، ولم ينظم ناد لعضوية الجنسين حتى عام ١٧٧٠ . وكان الرجال يثبطون الثقافة والفكر فى النساء ، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف . ومع ذلك وفقت بعض النساء فى تثقيف عقولهن . فتعلمت السيدة اليزابث كارتر التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، ودرست العبرية والبرتغالية

---

* هناك تورية فى كلمة Faro التى قد تعنى فرعون Pharaoh أو لعبة من ألعاب الورق (الفرعونية) : المترجم .

والعربية ، وترجمت ابكتيتس بدراية باليونانية ظفرت بثناء جونسن . وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء ، وكانت إحدى السيدات اللائى جعلن « ذوات الجوارب الزرقاء » (أى النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن .

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المختلطة فى بيت السيدة اليزابث فزى بشارع هرتفورد بحى مايفير . فى هذه اللقاءات المسائية حظر لعب الورق وشجع النقاش فى الأدب . والتقت السيدة فزى ذات يوم ببنيامين ستيلنجفليت ، الذى اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتى وفيلسوف ، فدعته إلى حفل استقبالها القادم ، فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة . وكان يرتدى جورباً أزرق . فقالت له « لا تهتم باللباس ، تعال لابسا جواربك الزرقاء » . وذهب . ويروى بوزويل « ان حديثه كان غاية فى الروعة حتى . . . ألف القوم أن يقولوا . . « لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء » ، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً »[١٥] ، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزى « جماعة الجوارب الزرقاء » Bas Bleu Society . وكان يختلف إليهم جاريك وولبول ، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة .

أما « ملكة الزرق » كما لقبها جونسن فهى إليزابث روبنسن مونتاجيو . وكانت زوجة إدورد مونتاجيو ، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدورد ورتلى مونتاجيو ، زوج السيدة مارى الهوائية التى نوهنا بها فى صفحات سالفة[١٦] . وكانت اليزابث مفكرة ، ودارسة ، ومؤلفة ، وقد دافع مقالها « كتابات شيكسبير وعبقريته » (١٧٦٩) فى سخط عن الشاعر القومى ضد نقد فولتير القاسى . وكانت غنية فى وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع . وقد جعلت من الحجرة الصينية التى فى بيتها الواقع فى ميدان باركلى الملتقى المحبب لمفكرى لندن وحسانها ، فأم الندوة رينولدز وجونسن وبيرك وجولدسمث وجاريك وهوراس ولبول وفانى برنى وهانا مور ؛ وهناك التقى الفنون بالمحامين ، والأساقفة بالفلاسفة ، والشعراء بالسفراء . وكان « الطاهى البارع » الذى استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

ما يشرح صدورهم جميعاً ، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر ، وكان السكر محظوراً . وكانت تلعب دور الراعية لبراعم المؤلفين ، وتنثر هباتها يمنة ويسرة . وفتح غيرها من سيدات لندن — كالسيدة ثريل ، والسيدة بوسكاوين ، والسيدة مونكتون — بيوتهن للموهبة والجمال . وغدا المجتمع اللندنى مزدوج الجنس ، وبدأ ينافس باريس فى شهرة صالوناته وعبقريتها .

٢ — الأخلاق الأنجليزية

يقول آدم سمث «فى كل مجتمع رسخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً ، كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان فى وقت معاً ، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المتزمت ، والآخر المتحرر ، أو ان شئت المتحلل . أما الأول فتعجب به وتبجله عامة الشعب بوجه عام ، وأما الثانى . . . فيلقى تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصرى »[١٧] وقد وصف جون وسلى ، الذى كان ينتمى للطبقة المتزمتة ، الأخلاق الانجليزية فى ١٧٥٧ بأنها خليط من التهريب ، والإيمان الكاذبة ، والفساد السياسى ، والسكر ، والقمار ، والغش فى المعاملات ، والخداع والتحايل فى المحاكم ، والخنوع فى رجال الدين ، ومحبة العالم بين الكويكرز ، واختلاس أموال البر سراً[١٨] . وتلك شنشنة نعرفها منذ القدم .

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً . فحاول بعض النساء أن يكن رجالا ، وكدن ينجحن فى هذه المحاولة ؛ ونسمع عن حالات تنكر فيها النسوة فى هيئة الرجال واحتفظن بهذا المظهر الخداع حتى مماتهن ؛ والتحق بعضهن بالجيش أو البحرية بوصفهن رجالا ، وكن يسكرن ويدخن ويشتمن كالرجال ، ويقاتلن فى المعارك ، ويحتملن الجلد بشجاعة الرجال[١٩] . وحوالى ١٧٧٢ انتشر الغنادير Macaronis فى شوارع لندن . وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم فى خصلات معقوصة طويلة ، يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و « يعاشرون البغايا بغير حرارة » ، وقد وصفهم ساوين بأنهم « ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى ، ولكنه جنس بين بين »[٢٠] وكان للواط مواخيره ، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام ان اكتشفت وثبت ارتكابها .

وقد زكا المعيار الأخلاقى المزدوج . فكانت مئات المواخير ترفه عن الرجال المتفحخين ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة فى المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت . فانظر إلى جولد سمث الرقيق يقول : « إذا تدنت امرأة جميلة إلى اتيان الحماقة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال خوافون — فأى تميمة تستطيع أن تهدىء اكتئابها ، وأى حيلة يمكن أن تمحو ذنبها ؟ لا حيلة تجدى لإخفاء ذنبها ، ولمواراة عارها عن أعين الناظرين ، ولإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجيعة — لا حيلة إلا الموت »(٢١) .

وقد نصحوا بالزواج الباكر واقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات فى الثانية عشرة ، والصبيان فى الرابعة عشرة . وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغاراً وأجلن انحرافاتهن ، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماحهن . استمع إلى جونسن يقول فى الزنا (١٧٦٨) : « ان اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة ، فالمرأة التى تحنث بعهود الزواج أشد اجراماً من الرجل الحانث بعهوده . حقاً ان الرجل مجرم أمام الله ، ولكنه لا يؤذى امرأته أذى بالغاً جداً ان لم يهنها ، أى إذا تسلل مثلا إلى مخدعها لفرط فى شهوته . على الزوجة يا سيدى ألا يسوءها هذا كثيراً . ولن أستقبل فى بيتى ابنة لى هربت من زوجها لهذا السبب . وينبغى للزوجة أن تحاول اصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام بإرضائه ؛ سيدى ، ان الرجل لن يترك زوجته حتى فى حالة واحدة من مائة حالة ، ويذهب إلى مومس ، ما لم تهمل زوجته فى امتاعه »(٢٢) .

وكانت الفكرة المسلم بأنها شىء عادى تماماً فى حلقة بوزويل وأصحابه هى أن يختلف الرجال إلى المومسات بين الحين والحين . وكان الزنا فى الطبقة الارستقراطية — وحتى فى الأسرة المالكة — واسع الانتشار . فكان الدوق

جرافتن يعاشر نانسى بارسونز علانية وهو كبير الوزراء ، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة[٢٣] . أما الطلاق فنادر ، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلمانى ، ولما كان هذا يكلف « عدة آلاف من الجنيهات » فإنه كان ترف الأغنياء ، ولم يسجل فى الفترة من ١٦٧٠ إلى ١٨٠٠ غير ١٣٢ إذن بالطلاق[٢٤] . وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم ، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (١٧٧٨) : « لا يقل الزنا والخيانة الزوجية بين الزراع عنهما بين النبلاء » و « على قدر ما لاحظت ، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء ، كن أفضل تهذيباً وأكثر عفة »[٢٥] . وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح ، كما نرى فى فيلدنج وبيرنز ، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً فى الحفلات الصاخبة ويسرف فى الشراب ، وينفق نصف أجره فى الحانات ، وبعضه على المومسات . لقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها .

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبابيت ، والأغنياء بالطبنجات والسيوف . وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف فى طبقة النبلاء . فقد بارز فوكس آدم ، وشلبيرن فولرتن ، وبت الثانى تيرنى ؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل . وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم فى هذه اللقاءات . وقد أكد اللورد شلبيرن لشاهديه اللذين ساورهما القلق حين أصابه جرح فى أصل فخذه « لست أظن أن الليدى شلبيرن سيزيدها هذا الجرح سوءا »[٢٦] .

وشر من تحلل الأخلاق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعى : ذلك الاستهلاك القاسى للحياة الإنسانية فى سبيل التكالب على الأرباح ؛ واستخدام الأطفال فى سن السادسة فى المصانع أو تطهير المداخن ؛ وافقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً يكرههم على بيع أنفسهم إلى عبودية لا أجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا ؛ والحماية الحكومية لتجارة الرقيق باعتبارها مصدراً غالباً من مصادر ثروة انجلتره .

وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من لفربول وبرستل ولندن — كما

يبحر غيرهم من هولنده وفرنسا — فيشترون الزنوج ويقتنصونهم ، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية ، ويبيعونهم هناك ، ثم يعودون إلى أوربا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم . وبحلول عام ١٧٧٦ كان التجار الانجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد ، يضاف إليهم ٢٥٠,٠٠٠ ماتوا فى الرحلة وقذف بهم فى البحر . وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه للشركة الأفريقية وخليفتها « الشركة المنظمة » لدعم قلاعهما ومحطاتهما فى أفريقيا ، بحجة أنهما « أنفع ماكونه تجارنا من شركات لهذه الجزيرة »[٢٧] . وحظر جورج الثالث (١٧٧٠) على حاكم فرجينيا « أن يوافق على أى قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أى وجه »[٢٨] . وفى ١٧٧١ كان فى انجلتره نحو أربعة عشر ألف زنجى جلبهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم ، وقد استخدم بعضهم خدماً فى البيوت دون أن يكون لهم حق فى تقاضى الأجور[٢٩] ، وبيع البعض فى مزادات علنية ، كما حدث فى لفربول عام ١٧٦٦[٣٠] . على أن محكمة انجليزية قضت فى ١٧٧٢ بأن العبد يصبح حراً تلقائياً فى اللحظة التى يطأ فيها أرض انجلتره[٣١] .

ثم تنبه ضمير انجلتره ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق . فندد بها ألمع العقول فى بريطانيا : جورج فوكس ، ودانيال ديفو ، وجيمس طومسن ، ورتشرد ستيل ، والكسندر بوب ، ووليم بالى ، وجون وسلى ، ووليم كوبر ، وفرنسيس هتشسن ، ووليم روبرتسن ، وآدم سمث ، وجوسيا ودجوود ، وهوراس ولبول ، وصموئيل جونسن ، وادموند بيرك ، وتشارلز جيمس فوكس . أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكرز فى انجلتره وأمريكا ؛ ففى ١٧٦١ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة ، وفى ١٧٨٣ كونوا جمعية « لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج فى جزر الهند الغربية ، ولتثبيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا »[٣٢] . وفى ١٧٨٣ ألف جرانفل شارب لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق ؛ وفى ١٧٨٩ بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة فى مجلس العموم لإنهاء التجارة الانجليزية فى العبيد . وقد أقنع

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه ، ولم يصدر المجلس القانون الذى حرم على أى سفينة أن تحمل عبيداً من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧ ، أو لأى مستعمرة بريطانيه بعد أول مارس ١٨٠٨ ، إلا عام ١٨٠٧ .

أما فى ميدان الأخلاق السياسية فإن انجلترا كانت الآن فى الحضيض . فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة ؛ وعرض الدهاقنة من ولاة الهند السابقين لها أثماناً باهظة . وقد أسف فرانكلن أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب : « لم لم يتركونى أمضى فى طريقى ؟ لو أنهم (أى المستعمرين) أعطونى ربع المال الذى أنفقوه على الحرب ، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم . كنت أشترى البرلمان كله ، وحكومة بريطانيا بأسرها »[٣٤] . واستشرى الفساد فى الكنيسة ، والجامعات ، والقضاء ، والوظائف المدنية ، والجيش والبحرية ، ومجالس الملك . وكان النظام العسكرى أشد صرامة منه فى أى بلد أوربى آخر[٣٥] ربما باستثناء بروسيا ، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أى اجراء لتيسير انتقالهم إلى حياة نافعة ملتزمة بالقانون .

أما الأخلاق الاجتماعية فقد تأرجحت بين الطيبة الأصيلة فى الفرد الانجليزى ووحشية الغوغاء المستهترة . وقد وقعت فى الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ تسع فتن كبرى ، وكلها تقريباً فى لندن ، وسنرى مثلا منها بعد قليل . وكانت الحشود تهرول للفرجة على مشهد الشنق كأنهم فى يوم عيد ، وقد يرشون الجلاد ليعنف فى جلد سجين[٣٦] . وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة فى أوربا . أما اللغة فى جميع الطبقات تقريباً فكانت تنحو إلى العنف والسوقية . واشتبكت الصحف فى معارك رهيبة من القدح والافتراء . وكان الكل تقريباً يقامرون ، ولو فى اليانصيب القومى ، والكل تقريباً يشربون حتى يثملوا .

واتحدت عيوب الخلق الانجليزى مع صفته الأساسية — وهى النشاط الشديد والعافية العارمة . وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع فى العمل الشاق ،

وأبدتها الأمة فى كل أزمة إلا واحدة . فمن هذه العافية انبثقت الشهية المفرطة ، وروح المرح ، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات فى الحانات والمبارزات فى الميادين ، وعنف المناقشات البرلمانية ، والقدرة على المعاناة فى صمت ، ومفاخرة كل انجليزى بأنه بيته قلعته التى لايسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون . وحين هزمت انجلترة فى هذا العصر ، كان الذى هزمها هم الانجليز الذين ازدرعوا فى أمريكا ذلك الولع الانجليزى بالحرية . وقد لاحظت مدام دوفان وضوح الفروق بين الأفراد فى الانجليز الذين التقت بهم ، والذين لم تبصر معظمهم قط . قالت «كلهم نسيج وحده ، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة . أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً ، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل »[٣٧] . وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال «من المؤكد أنه ما من بلد آخر ينجب كما تنجب انجلترة هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة »[٣٨] ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز : فهم لاينفقون إلا فى الاعتزاز بوطنهم وطبقتهم ، وفى تورد وجوههم ، وفى تصديهم الجسور للعالم . لقد كانت سلالتهم سلالة قوية حقاً .

٣ — الإيمان والشك

ظلت الجماهير الانجليزية وفية لعقيدتها المسيحية فى مختلف صورها . وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس «الأعياد والأصوام» تصنيف نلسن . وهو دليل للسنة الكنسية[٣٩] . وقد طبع كتاب جونسن «صلوات وتأملات» الذى نشر بعد وفاته أربع طبعات فى أربع سنين . وكان الدين فى الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه وظيفة اجتماعية ، ومعواناً على الأخلاق ، وذراعاً للحكومة ، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له فى دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة . وكان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم . وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته إلى حد مكن بيرك من أن يتساءل فى ١٧٩٠ «من ممن ولدوا فى السنين الأربعين الأخيرة

قرأ كلمة واحدة مماكتبه كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟ » [٤٠] .

ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فربما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة ، وأن المتعملين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت . وقد وصف بوزويل جيله فى ١٧٦٥ (ناسياً عامة الشعب) بأنه « عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا »[٤١] . وقد رأينا سلوين يسخر من الدين فى أكسفورد ، وولكس فى مدمنام آبى . وقد روت الليدى هستر ستانهوب أن بت الإبن « لم يذهب إلى الكنيسة قط فى حياته »[٤٢] . ولن يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ . كتب بوزويل فى ١٧٦٣ يقول « بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسى فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرتهم إلى أى وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد »[٤٣] . يقول جبون « ان اقرارات العقيدة القويمة ، ومواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة »[٤٤] .

وقد أتاحت الأندية الخاصة تخفيفاً من الامتثال العلنى لعقيدة الكنيسة . فانضم كثيرون من الطبقة الارستقراطية لمحفل أو آخر من محافل الماسون الأحرار . وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه ، واشترطت فى أعضائها إيماناً بالله ، ولكنها غرست فيهم التسامح فى الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين[٤٥] . وفى جمعية برمنجهام القمرية كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا ودجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلى وإرازمس داروين[٤٦] . على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت ، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لايتدخلون بمقتضاها فى الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضى شيئاً ما عن الإثم . وتجنبت الطبقات العليا الإنجليزية — بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال — ذلك التطرف المستهتر الذى اندفعت إليه حركة التنوير الفرنسية ، فقد أدركت

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة ، وأوتيت من القصد ما عصمها من إحلال نظام بوليسى لا آخر له محل أخلاقية غيبية ؛

وإذ كان الأساقفة الانجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك ، فقد رأوا أن لهم الحق فى قسط من متع الدنيا . وقد هجا كوبر فى أبيات لاذعة(٤٧) رجال الدين الذين كانوا يتهافتون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم ؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادىء على واجباتهم ، وعديدون كانوا المدافعين الأكفاء المتبحرين عن الإيمان . وقد كشف كتاب بالى « مبادىء الفلسفة الأخلاقية والسياسية » (١٧٨٥) عن روح سمحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدى ، وعرض كتابه « البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) عرضاً مقنعا البرهان القائم على القصد فى الكون . وقد لقى الترحيب فى صفوف الأكليروس رجال ذوو ميول للتحرر الفكرى ما داموا يعظون بجوهر الدين ويكونون القدوة الأخلاقية فى مجتمعاتهم(٤٨) .

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليكانية — من معمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) — فقد تمتعوا بالتسامح الدينى ماداموا متمسكين بمسيحية التثليث ؛ ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية ، أو الالتحاق بجامعة أكسفورد أو كمبردج ، على من لا يعترف بالكنيسة الإنجليكانية وموادها التسع والثلاثين . واستمر انتشار المثودية بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٨٤ فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية . ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت « الحركة الإنجيلية » فى قلة من رجال الدين الانجليكان ، الذين أعجبوا بزعيمها وسلى ، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغى أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا فى العهد الجديد ، دون تنازلات للنقد العقلانى أو النصى .

وظل تذكر إنجلترا لمؤامرة البارود والثورة الكبرى ، وحكم جيمس الثانى ، يبقى فى سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التى شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية . ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق ، ولكن

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك . فهم مثلا لايستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانونى ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم . وقد حظر عليهم الخدمة فى الجيش والبحرية ، واحتراف المحاماه ، والتصويت أوالترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية . ومع ذلك كان عددهم فى ازدياد . وفى ١٧٨٦ كان منهم سبعة من كبار النبلاء ، واثنان وعشرون بارونيتاً و ١٥٠ « جنتلماناً » . وكان يحتفل بترتيل القداس فى البيوت الخاصة ، ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التى حكمها جورج الثالث .

وفى ١٧٧٨ قدم السر جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه « التخفيف عن الكاثوليك » فهو يبيح شراء الكاثوليك الأرض ووراثتهم لها ، والتطوع فى القوات المسلحة دون التخلى عن مذهبهم . وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان فى مجلس اللوردات . ولم يكن ينطبق إلا على انجلتره ، ولكن فى ١٧٧٩ — اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده . فلما بلغ نبأ هذا الاقتراح اقليم السهول الاسكتلندية ، اندلعت الفتن فى إدنبره وجلاسجو (يناير ١٧٧٩) ، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض ، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستنت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك — مثل المؤرخ روبرتسن — ولم تخمد أوار الفتنة إلا حين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على اسكتلنده .

ثم تبنى عضو اسكتلندى فى البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية « لابابوية فى انجلتره » ففى ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً لـ « جمعية البروتستنت » التى خططت لمسيرة جماهيرية لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر فى ١٧٧٨ . وفى ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم فى طريقهم إلى المبنى ، وحطمت مركبات اللوردات ما نسفيلد وثيرلو ، وستورمونت ، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

شعثاً يرتعدون خوفاً[٤٩] . ودخل جوردن وثمانية من أتباعه مجلس العموم ، وقدموا ملتمساً ، قيل إنه يحمل ١٢٠,٠٠٠ توقيع ، يدعو لإلغاء القانون ، ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس . فقاوم الأعضاء ، وأرسلوا فى طلب الجند لكبح جماح الغوغاء ، وغلقوا جميع الأبواب ، وأعلن قريب لجوردن أنه قاتله فى اللحظة التى يقتحم فيها القاعة دخيل ، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى ٦ يونيو . ووصل الجند وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم . وأتلفت محتويات كنيستين كاثوليكيتين تخصان قساوسة سردينيين وباقاريين ، وكوم أثاثهما فى نار أشعلت فى الشوارع . ثم تفرق الجمع ، ولكن فى ٥ يونيو نهب القائمون بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة .

وفى ٦ يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت ، وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم مسلحون مخترقين شوارع العاصمة . وتحصن النبلاء بمتاريس فى بيوتهم . وهنا هوراس ولبول نفسه على حمايته دوقة فى « قلعته » بميدان باركلى[٥٠] . وفى ٧ يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت ، واقتحم الرعاع معامل تقطير الخمور ، وأطفأوا ظمأهم بغير قيود ، واحترق نفر منهم وهم رقود سكارى فى الأبنية المحترقة . ورفض قضاة لندن المخول لهم وحدهم السلطة القانونية على الحرس البلدى أن يأمروهم بإطلاق النار على الجمع . واستنفر جورج الثالث ميليشيا المواطنين ، وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعاع العنف أو هددوا باستعماله . وظفر عضو البلدية جون ولكس بالعفو من الملك ، وفقد شعبيته لدى الجماهير ، إذ امتطى جواداً وانضم إلى المليشا فى محاولة تفريق الجمع . فلما هاجم المشاغبون المليشيا أطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم اثنين وعشرين ، ولاذ الباقون بالفرار .

وفى ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحرقت — سواء الكاثوليكية أو البروتستنتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران[٥١] . وأخمد الجند الفتنة بعد أن قتل فيها ٢٨٥ رجلا وجرح ١٧٣ ؛ وقبض على

١٣٥ من المشاغبين ، وشنق واحد وعشرون . وقبض على جوردن وهو يفر إلى اسكتلنده ، وأثبت أنه لم يكن له ضلع فى حوادث الشغب . فأفرج عنه ، وحصل بيرك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك فى انجلتره . ووسع قانون صدر فى ١٧٩١ التسامح الشرعى فى شئون العبادة والتعليم الكاثوليكيين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظر عليها أن يكون لها برج أو جرس [٥٢] .

٤ — بلاكستون وبنتام والقانون

زعم فقيه ضليع أن « نشر كتاب بلاكستون « التعليقات » يعد من بعض الوجوه أبرز حدث فى تاريخ القانون »[٥٣] وهذا رأى فيه تحيز للوطن ، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية ، حتى عصرنا هذا ، يتناولون بهما كتاب « تعليقات على قوانين انجلتره » الذى نشره وليم بلاكستون فى أربعة مجلدات وألفى صفحة فى ١٧٦٥ — ٦٩ . وقد اثنى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه ، أثراً جليلا من آثار العلم والحكمة ، فكان كل لورد يقتنيه فى مكتبته ، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك .

أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندنى أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه فى اكسفورد ثم يرسله إلى « المدل تمبل » ليمارس المحاماه — وقد ردت محاضراته فى اكسفورد (١٧٥٣ — ٦٣) تناقضات القوانين وسخافاتها إلى شىء من النظام والمنطق ، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق . وفى ١٧٦١ أنتخب عضواً فى البرلمان ، وفى ١٧٦٣ عين محامياً عاماً للملكة شارلوت ، وفى ١٧٧٠ بدأ خدمته قاضياً فى محكمة الدعاوى العامة . وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة ، فقد أصابه تحلل هادىء تدريجى ولكنه سابق لأوانه ، ومات فى ١٧٨٠ بالغا السابعة والخمسين .

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته : الترتيب المنطقى ، والعرض الناصع ، والأسلوب الرشيق . وقد امتدحه خصمه اللدود جريمى بنتام ،

لأنه الرجل الذى « علم القضاء أن يتكلم لغة الدارس والجنتلمان ، وهذب ذلك العلم العصى ، ونفض عنه غبار المنصب ونسيج المناكب»[٥٤] . وقد عرف بلاكستون القانون بأنه « قاعدة للعمل يمليها كائن أعلى »[٥٥] ، وكان يدين بتصور مثالى مستقر للقانون ، يراه مؤدياً فى مجتمع ما الوظيفة التى تؤديها قوانين الطبيعة فى العالم ؛ وكان ميالا إلى التفكير فى قوانين انجلتره على أنها تضارع قوانين الجاذبية فى جلالها وخلودها .

وقد أحب انجلتره والمسيحية على الصورة التى وجدهما عليها ، وما كان ليسلم بأى عيب فى واحدة منهما . وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن ، وأكثر ملكية من جورج الثالث . « ليس ملك انجلتره أكبر قاض للأمة فحسب ، بل هو بالضبط القاضى الوحيد لها ، الذى له أن يرفض أى مشروعات قوانين ، ويبرم أى معاهدات ، . . . . ويعفو عن أى جرائم شاء ، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما »[٥٦] ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون . فليس الملك « غير قادر على ارتكاب الخطأ فحسب ، بل حتى على التفكير الخطأ » — وهى عبارة عنى بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك يمكن أن يدان به الملك . ولكنه أبهج كبرياء انجلتره بأسرها حين عرف « الحقوق المطلقة لكل انجليزى : حق الأمن الشخصى ، وحق الحرية الشخصية ، وحق الملكية الشخصية »[٥٧] .

وقد سر جيل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الانجليزى نظاماً صالحاً على الدوام لأنه فى النهاية مبنى على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله ، ولكن هذا التصور ثبط تطوير القضاء الانجليزى وإصلاح قانون العقوبات والسجون ؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التى بذلها لتحسين الأحوال فى السجون البريطانية[٥٨] .

وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانونى بل نداء للقلب . ذلك أن الأحوال فى السجن المحلى أفزعته حين عين مأموراً فى بدفورد (١٧٧٣) فالمأمور ومساعدوه لا رواتب لهم ، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

من رسوم ؛ فكان السجين إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه ، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تدين المحكمة براءتهم . وقد وجد هوارد فى رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ . فكان المدينون الذين يقصرون فى الوفاء بدينهم ، والمذنبون لأول مرة ، يلقون معاً فى مكان واحد مع مدمنى الجريمة . وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التى تثقل أو تخف حسب الرسم الذى يدفعونه. وكانت جراية السجين فى اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان ، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء . أما الماء فجرايته للسجين ثلاثة بنسات فى اليوم للشرب والاغتسال . ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة فى الشتاء ، أما فى الصيف فتهوية لاتذكر . وكان النتن الذى يفوح من هذه الزنزانات من الشدة بحيث ظل لاصقاً بثياب هوارد بعد خروجه منها بزمان . وكانت « حمى السجون » وغيرها من الأمراض تفتك بالكثير من السجناء ، وكان البعض يموت بالجوع البطىء[٥٩] . وفى سجن نيوجيت بلندن كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجرة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً .

وفى ١٧٧٤ قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجناً زارها ، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية فى السجون ، وتوفير الرواتب للسجانين ، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم تجد هيئة المحلفين الكبرى شكاوى مقدمة للمحكمة ضدهم . وفى ١٧٧٥ — ٧٦ زار هوارد سجون القارة ، فوجد سجون هولنده خيرها تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء ، ومن أسوئها سجون هانوفر التى يحكمها جورج الثالث . وقد أيقظ ضمير الأمة من سباته نشر كتاب هوارد « حالة السجون فى انجلتره وويلز . . . ووصف لبعض السجون الأجنبية » (١٧٧٧) . فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ « مؤسستين إصلاحيتين » تبذل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة ، والتعليم الدينى . واستأنف هوارد رحلاته ، وروى نتائجها فى طبعات جديدة من كتابه . وفى ١٧٨٩ جاب أنحاء روسيا ، وفى خرسون أصيب بحمى المعسكرات

ومات (١٧٩٠) . ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة . فقانون ١٧٧٤ أهمله معظم السجانين والقضاة . ولم تظهر أوصاف سجون لندن فى ١٨٠٤ و ١٨١٧ أى تحسين منذ عصر هوارد ، « لعل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن »[٦٠] ، وكان على الإصلاح أن ينتظر . ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا فى قصته « دوريت الصغيرة » (١٨٥٥ .

أما جريمى بنتام فإن جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة ، ولكن كتيبه « مقال صغير عن الحكومة » (١٧٧٦) مكانه هنا ، لأنه فى المقام الأول نقد لبلاكستون . فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة ، وذكر أن « مارسخ الآن كاى يوماً بدعة »[٦١] ، ونزعة المحافظة الحاضرة إنما هى تبجيل للراديكالية الماضية ؛ إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لايقلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقاً لفكرة التغيير . « فى ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح ؟ أن يطيع فى دقة وأن ينقد فى حرية »[٦٢] . وقد رفض بنتام رأى بلاكستون فى السيادة الملكية ؛ فالحكومة الصالحة توزع السلطات ، وتشجع كلا منها على كبح شطط غيرها ، وتسمح بحرية الصحافة ، والتجمع والمعارضة السلميتين . والثورة فى نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للطغيان[٦٣] . وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكى للاستقلال .

وقد شرح بنتام فى هذا المقال ذاته « مبدأ السعادة الأعظم » الذى أطلق عليه جون ستيوارت مل فى ١٨٦٣ اسم « مذهب المنفعة » . « أن أعظم سعادة لأكبر عدد هو مقياس الحق والباطل »[٦٤] ، وينبغى الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى « مبدأ المنفعة » هذا ، لأن « وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع »[٦٥] . وقد اقتبس بنتام « مبدأ السعادة » هذا من هلفتيوس ، وهيوم ، وبريستلى ، وبكاريا ،[٦٦] وتكونت وجهة نظره العامة من قراءته لجماعة الفلاسفة[٦٧] .

وفى ١٧٨٠ ألف كتاب « مقدمة لمبادىء الأخلاق والتشريع » الذى نشره فى ١٧٨٩ ، وضمنه عرضاً لأفكاره أكثر تفصيلا وفلسفة . وقد رد

كل فعل واع إلى الرغبة فى اللذة أو الخوف من الألم ، وعرف السعادة بأنها « الاستمتاع باللذة ، والأمان من الألم »[٦٨]. ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة ، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول . فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له ؟ فى رأيه أن الفرد فى المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوخيه الإنصاف مع اخوانه البشر .

وقد مارس بنتام ما بشر به ، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح : التصويت العام للذكور البالغين المتعلمين ، والاقتراع السرى ، والبرلمانات السنوية ، وحرية التجارة ، والنظافة الصحية العامة ، وتحسين أحوال السجون ، وتطهير القضاء ، وإلغاء مجلس اللوردات ، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه فى لغة مفهومة لغير القانونيين ، وتوسيع القانون الدولى (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح)[٦٩] . وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات فى القرن التاسع عشر ، وأكثر الفضل فى ذلك لمجهود « اتباع مذهب المنفعة » و « الراديكاليين الفلاسفة » من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل ، وديفد ريكاردو ، وجورج جروت .

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير ، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر . ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به ، وظل عزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وألطفهم . وحين مات (٦ يونيو ١٨٣٢) وهو فى الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جثته فى حضرة أصدقائه . فشرحت ، ومازال هيكله محفوظاً فى الكلية الجامعية بلندن ، مرتدياً ثياب بنتام المألوفة[٧٠]. وغداة موته وقع الملك « قانون الإصلاح » التاريخى الذى جسد الكثير من مقترحاته .

٥ — المسرح

(١) التمثيل

كان هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر غنياً فى المسرح فقيراً فى الدراما . فقد شهد لفيفاً من أروع الممثلين فى التاريخ ، ولكنه لم ينجب غير

كاتبين مسرحيين اثنين أفلتت أعمالهما من منجل الحاصد : شريدان الذى ودعناه منذ هنيهة ، وجولد سمث الذى سيختص بركن تحت سماء الأدب . وربما كان هذا القحط فى التمثيليات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذى استمر حتى نهاية القرن .

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أذواق النظارة . فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيليين ، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفيين . وكان أجر المؤلف ، وهو فى الغالب مكافأته المادية الوحيدة ، حصيلة الحفلة الثالثة ، وإن كان هناك حفلة ثالثة . على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة . وكان فى استطاعة الهتافين المأجورين أن يقضوا على أى مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية ، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تنجح نجاحاً مثيراً . ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة فى موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً . وكانت الحفلات تبدأ فى السادسة أو السادسة والنصف ، وتحتوى عادة على مسرحية من ثلاث ساعات ، وتمثيلية هزلية ساخرة « فارص » أو إيمائية « بانتومايم » . أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة ، ولا حجز إلا بإرسال خادم يشترى التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة . وكانت كل المقاعد بنوكا بغير ظهور[٧١] ، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جاريك هذا العبث المنكر (١٧٦٤) . أما الإضاءة فكلها بالشموع فى ثريات « تظل مضاءة طوال البرنامج . وكانت الملابس قبل عام ١٧٨٢ هى ملابس القرن الثامن عشر الانجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها . فكان كاتو ، وقيصر ، ولير ، يبدون فى سراويل للركبة وشعور مستعارة .

وازدهر المسرح ، سواء فى لندن أو فى « الأقاليم » ، رغم معارضة رجال الدين ومنافسة الأوبرا والسرك . وكانت بات وبرستل ولفربول ونتنجهام ومانشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبره ودبلن تملك مسارح جيدة ؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة ، وإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد ، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد . وقد أثارت لندن المنافسة الحادة بين مسرحين رئيسيين . ففى ١٧٥٠ مثل : كلاهما « روميو وجوليت » كل

ليلة فى ذات الأسبوعين ، وأدى الأدوار الرئيسية سبرانجو بارى وسوزانا كبر فى مسرح كوفنت جاردن ، وجاريك ومس بيلامى فى مسرح دوررى لين . ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير فى هاماركت ، حيث تخصص فى التقليد الهجاء ، وكانت تقليداته لجاريك شقاء طال أمده فى حياة ديفد .

ولم تشهد خشبة المسرح الانجليزى قط من قبل هذا العدد الغفير من الممثلين الأفذاذ . وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد فى ١٧٤١ بإخراجه تمثيليات شيكسبير ؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وغداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشيء من العطف حتى جاء هنرى إرفنج) . ثم اختتم جون فليب كمبل هذا الإحياء الشكسبيرى الذى استغرق قرناً كاملا . وكانت أعظم ساعات تجليه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح درورى لين فى ١٧٨٥ .

وازدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر . منهن بج وفنتن التى وهبت الجمال المثير فى قوامها وطلعتها ، ولكنها عاشت عيشة منحلة ، وأصابتها النقطة فى منتصف التمثيلية (١٧٥٧) وماتت قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (١٧٦٠) . ثم كتى كلايف التى ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة ، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التى كانت مضرب المثل ، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (١٧٦٩) عاشت ست عشرة سنة فى بيت أعطاها إياه هوراس ولبول فى تويكنام . أما مسز هانا برتشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تبزها مسز سيدونز فى أداء دور الليدى مكبث ؛ وقد أفنت عمرها فى التمثيل ، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى) ؛ وقد وصفها جونسن بأنها « بلهاء ملهمة » [٧٢] ، ولكنها عمرت بعد الكثيرات من الحسان ، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور . وتألقت مسز فرانسس آبنجتن فى أدوار بياتريس وبورشيا ، وأوفيليا ، وديدمونه ، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدى تيزل فى مسرحية « مدرسة الفضائح » ، وقد اكتسبت مارى روبنسن اسمها الشعبي « برديتا » بفضل اجادتها تمثيل ذلك الدور فى « قصة الشتاء » ؛

وكانت خليلة لأمير ويلز وغيره من العشاق الأقل شأناً ، وصورها رينولدز وجينزبرو ورومني .

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت ساره كمبل سيدونز . ولدت لممثل جوال في خان بويلز (١٧٥٥) ، وتزوجت في الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز ، ثم لمعت وهي في التاسعة عشرة في مسرحية أوتواى « فينيسيا المصونة » . ثم استخدمها جاريك بعد سنة ، ولكن النقاد حكموا بأن « قدراتها لاترقى إلى مستوى المسرح اللندني» . ونصحها هنري وودوارد الذي كان يمثل الأدوار الهزلية لجاريك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة . ففعلت ، وظلت ست سنوات تمثل في البنادر . فلما أن دعيت ثانية إلى درورى لين عام ١٧٨٢ ، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة . وكانت البادئة بارتداء زى العهد الذى تمثله في أدوارها . ولم يلبث جاريك أن فضلها في تمثيل الأدوار الشكسبيرية ، وبهتت لندن من الجلال والأسى اللذين سمت بهما بدور الليدى مكبث . وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصداقة كبار معاصريها ، وكتب جونسن اسمه على هدب ثوبها في اللوحة التي صورها فيها رينولدز ربة للمأساة ، وقد وقع من نفسه « بالغ تواضعها وكياستها » حين زارته(٧٣) . وواصل اخوان وأخت لها واثنتان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل في المسرح حتى ١٨٩٣ . وبفضلها وبفضل جاريك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعي ، حتى في بلد كانجلترة جعل من الفوارق الطبقية روح الحكومة وأداتها .

(ب) جاريك

كل الذين عرفوا أخبار جونسن يذكرون أن ديفد جاريك ولد في لتشفيلد (١٧١٧) ، والتحق بمدرسة جونسن في ايدبال (١٧٣٦) ، ورافقه في هجرتهما التاريخية إلى لندن (١٧٣٧) . وإذ كان يصغر جونسن بسبع سنين ، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسن الكاملة ، لأن أكبر الرجلين سناً لم يستطع أن يغفر لديفد كونه ممثلا وغنياً .

فلما بلغ جاريك لندن انضم إلى أخيه فى استيراد النبيذ وبيعه . واقتضاه هذا زيارات متكررة للحانات ، وهناك التقى بالممثلين ، فاستهواه حديثهم ؛ وتبع بعضهم إلى ابسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة . وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسى فى « رتشرد الثالث » فى مسرح غير مرخص بجودمانز فيلدز بالطرف الشرقى للندن . وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب ، ولأنه استمتع بالموت على خشبة المسرح وقد لقى أداؤه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمور ، الأمر الذى أخزى أقاربه فى لتشفيلد وأحزنهم . ولكن وليم بت الأب ذهب وراء الكواليس ليهنئه . أما الكسندر بوب ، الذى كان صاحب عاهة مثل رتشرد ، فقد قال لمشاهد آخر ، « إن هذا الفتى لم يكن له نظير قط ، ولن يكون له منافس أبدا »[٧٤]. فهنا ممثل سكب كل جسمه وروحه فى الدور الذى يؤديه ؛ ممثل تقمص رتشرد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة ؛ ممثل لايكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون ، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح . وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن ، فذهب علية القوم لمشاهدته ، وتعشى معه اللوردات ، وكتب توماس جراى يقول « فى جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقاً كل ليلة »[٧٥] وأعلن آل جاريك بلتشفيلد فى زهو قرابة ديفد لهم .

ثم جرب بعد هذا دور لير (١١ مارس ١٧٤٢) ، ففشل ؛ فلقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ فى الثمانين ، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك . على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له . فأقلع عن لعب الدور حينا ، ودرس المسرحية ، ودرب نفسه على تعبيرات سحنة لير التعس ، ومشيته الهزيلة ، وبصره المضعضع ، ونبراته الحادة الباكية . وفى ابريل عاود التجربة . ورأى النظارة أنه تغير تماماً ، فبكوا وهتفوا ، ذلك أن جاريك خلق دوراً آخر من الأدوار التى ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان . وصفق الناس جميعاً إلا جونسن الذى انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد بانتومايم ، وهوراس ولبول الذى زعم أن فى تعبيرية جاريك غلوا ،

وجراى الذى أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكى إلى الانفعالية والعاطفية الرومانتيكيتين . وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة ، أحياناً بقلم جاريك نفسه ؛ فنصف أبيات رتشرد الثالث كما مثلها كتبه كولى كبر [٧٦] ، وآخر فصل فى « هاملت » كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدم خاتمة رقيقة للمأساة .

فى ذلك الموسم (١٧٤١ — ٤٢) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً — وهو عمل جبار يدل على ملكات خارقة فى التذكر والتركيز . وكان إذا مثل امتلأ المسرح برواده ؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه . وعانت المسارح المرخصة من تناقص روادها . وأكره مسرح جودمانز فيلدز بتدابير من وراء الستار على أن يغلق أبوابه . فوقع جاريك لموسم ١٧٤٢ — ٤٣ عقداً مع مسرح درورى لين حين أسقط فى يده بدون خشبة المسرح ، نظير ٥٠٠ جنيه — وكان راتباً قياسياً لممثل . ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك لموسم الربيع . وكان هندل قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو « المسيا » (١٣ ابريل ١٧٤٢) ؛ فغزاها الآن جاريك وبج وافنجتن بشكسبير . فلما عادا إلى لندن أقاما فى معيشة واحدة ، واشترى جاريك خاتم الخطبة . ولكن غاظها منه شحه ، وغاظه منها إسرافها . فبدأ يسائل نفسه أى زوجة تراها منبعثة من ماضى بج المخلط . واحتفظ بالخاتم ، ثم افترقا (١٧٤٤) .

ولقد كان تمثيله فى درورى لين استهلالا لعهد جديد فى الفن . كان يبذل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور ، ولقد بث الحيوية كلها فى رعب مكبث وفزعه ، حتى ظل هذا الدور ، أكثر من أى من أدواره الأخرى ، باقياً فى ذاكرة الشعب . وأحل محل الأسلوب الخطابى الذى جرى عليه قدامى التراجيديين كلاماً أكثر طبيعية . وقد أحرز حساسية فى تعبير الشخصية كانت تتغير مع أيسر تغيير فى التفكير أو المزاج فى النص . قال جونسن ملاحظاً بعد سنوات ، « إن ديفد يبدو أكثر سناً مما هو بكثير ، لأن وجهه كانت مهنته ضعف مهنة أى رجل آخر ، فهو

لا يستقر أبداً »[٧٧] . ثم هناك تعدد قدراته ، فقد لعب الأدوار الكوميدية تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلهما فى لعب دور مكبث أو هملت أولير .

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلا وقع (٩ ابريل ١٧٤٧) عقداً يقسم إدارة دروري لين بينه وبين جيمس ليسى : فيضطلع ليسى بالأعمال الإدارية ، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البروفات . وخلال فترة إدارته التى امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة ، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان) ، وراجع أربعاوعشرين تمثيلية لشكسبير ، وألف عدداً كبيراً من المقدمات ، والخواتيم ، والفارصات ، وكتب للصحف مقالات غفلا من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به . وكان يقدر المال ، وكيف اختياره للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح . وقد أحب التصفيق كما لابد أن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره . وكان رأى ممثليه أنه مستبد بخيل ، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو يثرى . ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط فى الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها . وكانوا يتذمرون ، ولكن أبهجهم أن يبقوا معه ، لأنه ما من فرقة أخرى أبلت هذا البلاء الحسن فى التصدى لرياح الحظ وتقلبات الذوق .

وفى ١٧٤٩ تزوج جاريك إيفا ماريا فايجل ، وهى راقصة من فيينا قدمت إلى انجلتره باسم « الآنسة فيوليت » وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها فى باليهات الأوبرا . وكانت كاثوليكية تقية ، وظلت كذلك ، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء[٧٨] . ولكنه احترم إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاقى . ولقد فعلت الكثير بمحبتها ووفائها لتخفيف التوتر الذى تنطوى عليه حياة الممثل المدير . فأغدق ثراءه عليها ، واصطحبها فى سياحات بالقاهرة ، وابتاع لها بيتاً غالياً فى قرية هامتن . وهناك ، وفى بيته اللندنى على أدلفى تراس ، كان يستضيف زائريه فى بذخ ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه . وهناك كان يقصف ويمرح مع فانى بيرنى ، وآوى هانا مور .

وفى ١٧٦٣ اعتزل التمثيل إلا فى المناسبات الخاصة . قال « الآن سأقعد وأقرأ شكسبير »[٧٩] . وفى ١٧٦٨ اقترح وخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير فى ستراتفورد — أن — ايفن . وواصل إدارته لدروري لين ، ولكنه وجد غضبات الممثلين ومشاجراتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة . وعليه ففى مطلع عام ١٧٧٦ باع نصيبه فى الشركة لرتشرد برنسلى شريدان ، وفى ٧ مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل . وظل ثلاثة أشهر بعد هذاالإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلا آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ . وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث فى لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا . وفى ١٠يونيو ١٧٧٦ اختتم حياته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة .

ومد له فى الأجل ثلاث سنين أخر . ثم مات فى ٢٠ يناير ١٧٧٩ بالغا الثانية والستين . وفى أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنتسر على أكتاف أفراد من أرفع نبلاء بريطانيا ، ووورى ركن الشعراء عند قدمى تمثال شكسبير .

٦ — لنـــدن

بدت لندن أول مرة لجونسن (١٧٣٧) فى صورة ملؤها الاشمئزاز الشديد الغيور على الفضيلة .

« الحقد هنا يأتمر مع السلب وسوء الحظ ، ويثور رعاع أحياناً ، ويشب حريق أحياناً ، وطغام أوباش يختبئون هنا .

ويجوس محام يلتمس فريسة ، وبيوت هاوية ترعد من فوقك ، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يزهق روحك[٨٠] .

(*) الليدى مارى ورتلى مونتجيو ؟

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذى لم يجد له مكاناً بعد .

ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب ، ولكنها تعج بأكوام القذارة التى لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة »(٨١) . ذلك أن السلطات البلدية فى ذلك الحين كانت تترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن ، الذى أوصى بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف — أو التراب — أمام منزله . وفى ١٧٦٢ رتبت قوانين وستمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع ، وجمع القمامة ، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها ، وإنشاء نظام للمجارى تحت الأرض . وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج . فكانت الطرقات المرتفعة تحمى المشاة ، والبالوعات تصرف مياه الشوارع . وشقت الشوارع الجديدة فى خطوط مستقيمة ، وبنيت البيوت بناء أصلب وأمتن ، وأطلقت العاصمة الوقور رائحة ألطف .

وخلت المدينة من مصلحة عامة للحريق ، ولكن شركات التأمين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخراطيم ، للحد من خسائرها . وكان تراب الفحم والضباب أحياناً يتضافران ليلبدا المدينة بغطاء قاتم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه . فإذا انجابت السماء أشرقت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية . وفى حى الستراند كانت أكبر وأغنى المتاجر فى أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم . وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التى تشغى بعشرات الحرف ، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة . وأسهمت ضوضاء الصناع والتجار ، والعربات والجياد ، والباعة الجائلين والمغنين فى الطرقات ، فى ضجيج الحياة وفى الإحساس بها . فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى ففى وسعه أن يمشى الهوينا فى حديقة سانت جيمس ، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفضفاضة ذات اليمين وذات الشمال ويعرضن أحذيتهن الحريرية فى البلمل . وفى الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحلبن الأبقار على عشب الحديقة . وفى المساء قد

يجوس كبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذى يستر كثرة من الأوزار . وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة فى هايد بارك . ثم هناك منتجات اللهو الكبرى . فوكسهول بحشودها الزاهية ، وأفدنة حدائقها وممشاها المشجرة ، ورانلاج بقاعتها الفسيحة المدرجة ، حيث عزف موتسارت وهو طفل فى الثامنة .

وكان للفقراء مشارب للجعة ، وللطبقتين الوسطى والعليا أندية ، وللجميع حانات . فكان هناك حانة « البورز هد » و « المايتر » حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسن) . وحانة الجلوب الحبيبة إلى قلب جولدسمث ، وحانة الشيطان التى رفهت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسن إلى (صموئيل) جونسن . وكان هناك مكانان باسم « تيركس هد » (رأس التركى) أحدهما حانوت قهوة فى الستراند ، والآخر حانة فى شارع جرارد ، أصبحت مقراً لـ « النادى » . وكانت النساء يختلفن إلى الحانات كالرجال ، وبعضهن معروضات للبيع . وفى أندية كنادى هوايت أو نادى ألماك (الذى أصبح نادى بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار فى خلوة مع نفر مختار . ثم هناك المسارح بكل ما تتيحه منافساتها من إثارة ويبعثه نجومها من تألق وبهاء .

وقامت المواخير على مقربة من المسارح . فشكا الوعاظ من أنه « إلى التمثيليات والفواصل الموسيقية المذكورة تختلف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم ، وبعد أن ينتهى التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة »[٨٢] . وكانت أكثر الطبقات التى فى طاقتها الاختلاف إلى المومسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين ، وتجمع على الأغضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها فى الحالة الراهنة لتطور الذكور . وكان هناك بعض الغوانى الملونات اللاتى اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء . ويصف بوزويل اللورد بمبروك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضاها فى ماخور للسود[٨٣] .

واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدحمة ، ولم يكن أمراً غير عادى أن تعيش أسرة من أسر الطبقات الدنيا فى حجرة واحدة من حجرات المبنى .

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة ، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها ؛ والبعض ينامون على أسرة فى الجدران وفى مداخل البيوت أو تحت السقائف . قال جونسن للآنسة رينولدز إنه « وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالا فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنسات فى أيديهم ليشتروا بها فطورهم »[٨٤] . وأخبر قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً فى الأسبوع يموتون جوعاً[٨٥] . وكانت الأوبئة تتفشى فى المدينة بين آن وآن . ومع ذلك ازداد سكانها من ٦٧٤,٠٠٠ عام ١٧٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠[٨٦] ، ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، وبسبب نمو التجارة والصناعة .

وغص التيمز وأرصفته بالسفن التجارية وشحناتها . كتب معاصر يقول « إن سطح التيمز بأكمله يغص بصغار السفن ، والصنادل ، والزوارق ، والمراكب الخفيفة ، الغادية الرائحة ، وتحت الكبارى الثلاثة غابة من الصوارى تمتد أميالا بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا »[٨٧] . وقد أضيف كبريان جديدان فى هذه الفترة : بلاكفرايرز وباترسى . وقد رسم المصور كاناليتو الذى قدم إلى لندن من البندقية (١٧٤٧ و ١٧٥١) مناظر بهية للمدينة وللنهر ؛ وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوربيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التى أصبحت أهم ثغر فى العالم المسيحى .

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعقد (باستثناء القسطنطينية) . ففى قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتاهما ، والبلاط ومراسمه ؛ وفى الكنائس الأساقفة السمان يتمتمون بعبارات منومة ، والمصلون المتضعون يسترىحون من عناء الواقع ويطلبون العون الإلهى . وفى البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة ويباذقهم أرواح البشر ؛ وفى قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو البزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير ، ويتساءلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالى ؛ وفى الثكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء ؛ وفى الحوانيت

الخياطون يقوسون ظهورهم ، والسباكون يستنشقون الرصاص ، والصاغة والساعاتيون والأساكفة والحلاقون والخمارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة ؛ وفى جراب ستريت أو فليت ستريت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم ، ويستعطون الوزارات ، ويتحدون الملك ؛ وفى السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكرا ؛ وفى المبانى الحقيرة والأقباء قوم جياع عاثرو الحظ مهزومون يستكثرون من أشباههم فى شوق وبغير توقف .

ورغم هذا كله أحب جونسن وكاتب سيرته لندن . فقد أعجب بوزويل بـ « الحرية والنزوات . . . والشخصيات العجيبة ، وبما فى دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب ، وبالعدد الغفير من الملاهى العامة ، والكنائس الرفيعة والأبنية الباذخة ، ورضى المرء وهو ينفذ ما يحلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد »[٨٨] — هذا الانغمار فى الزحام انغماراً حامياً حانياً للشخصية المجهولة . أما جونسن الذى استطاب وعمق « التدفق الشديد لحديث لندن » فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة فى بابه « إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة »[٨٩] .

* * *

الفصل الثلاثون

عصر رينولـــدز

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الموسيقيون

أولعت انجلتره بالموسيقى الرائعة ، ولكنها عجزت عن إنجابها .

لقد تكاثر تذوقها . ففى اللوحة التى رسمها زوفانى « أسرتا كوبر وجور » نرى الدور الذى لعبته الموسيقى فى البيوت الراقية . ونسمع عن مئات المغنين والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل فى ١٧٨٤ . وقد أعلنت « المورننج كرونكل » فى عدد ٣٠ ديسمبر ١٧٩٠ اعلاناً للشهور التالية عن سلسلة من « حفلات موسيقية يؤديها المحترفون » ، وسلسلة أخرى من « حفلات للموسيقى القديمة » ، و « حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات » فى أمسيات الآحاد ، وعن أوراتوريوات مرتين فى الأسبوع . وست حفلات حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه — جوزف هايدن[١] . وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم . وكما أن البندقية ألفت من اليتامى فرقاً للإنشاد ، فكذلك كان « أطفال المبرة » فى كتدرائية القديس بولس يحيون حفلات موسيقية سنوية كتب هايدن عنها يقول :

« لم تؤثر فى أى موسيقى أخرى فى حياتى هذا التأثير الشديد »[٢] ، وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم فى قاعة رانيلاج وفى حدائق ما ريلبون . وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات عامة . وذاع حب الانجليز للموسيقى ذيوعاً اجتذب الكثير من العازفين

والمؤلفين إلى الجزيرة — جيمنياني ، وموتسارت ، وهايدن . ويوهان كرستيان باخ ، ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها .

وفتر الميل إلى الأوبرا الجادة فى انجلتره بعد أن أتخمها هندل . ثم عاد شىء من التحمس لها حين استهل جوفانى مانتزولى موسم ١٧٦٤ بأوبرا « اتسيو » . وقد وصف بيرنى صوته بأنه « أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فارينللى »(٣) وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية فى انجلتره فى ذلك القرن . فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية فى لندن (١٧٨٩) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبدا (٤) .

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهما فى ذات السنة (١٧٧٦) « سنة العجائب » التى ظهر فيها كتاب « اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » و « ثروة الأمم » . فضلا عن الإعلان الأمريكى للاستقلال . فكتاب السر جون هوكنز ذو الأجزاء الخمسة « التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته » عمل ينبىء عن دراسة مدققة . ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً عاماً ثم قاضياً) فإن معاييره ثبتت وسط تقلبات الرأى الناقد . أما المؤرخ الثانى « تشارلز بيرنى » فكان عازف أرغن فى كتدرائية القديس بولس وأكثر معلمى الموسيقى زبائن فى انجلتره . وقد أكسبته طلعته الوسمية وشخصيته المحبوبة فضلا عن ثقافته المتعددة صداقة جونسن وجاريك وبيرك وشريدان وجبون ورينولدز — الذى رسم له لوحة جذابة دون أن يتقاضى عنها أجراً(٥) . وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه « التاريخ العام للموسيقى » . وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة . وحوالى ١٧٨٠ قال ان « شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم ، وشبابهم يشكو من جفاف الشيوخ وخشونتهم »(٦) .

٢ — المعماريون

اشتبك البناءون الانجليز الآن فى منافسة ساخنة بين الإحياء القوطى والإحياء

الكلاسيكى . ذلك أن بهاء الكتدرائيات القديمة ، وفخامة الزجاج الملون الآثارية ، والأطلال المكسوة باللبلاب والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط فى بريطانيا ، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى فى صورة الكمال ، وتوافق مع الانتقاض الرومانتيكى المتزايد على طراز الثنائيات الكلاسيكية ، والأعمدة الجامدة ، والقواصر الثقيلة . فاستخدم هوراس ولبول سلسلة من معمارى المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته « ستروبرى هل » فى توبكنام بطراز وحلية قوطيين (١٧٤٨ — ٧٣) ، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوى . وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى اكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداها — وهى « قاعة الفنون » التى ضمت مجموعات تحفه — خمساً وستين قدماً . وغلب عليه استعمال الشرائح الخشبية المكسوة بالجص بدلا من الحجر . ويتضح لنا — حتى من أول نظرة — ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر فى الحلية الداخلية ولكنها لا تغتفر فى البناء الخارجى . وقد وصف سلوين قصر ستروبرى هل هذا بأنه « قوطى هش مثل كعكة الزنجبيل »(٧) ، وقدر ظريف آخر أن ولبول عمر بعد تهدم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التى(٨) اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة .

على أن بلاديو وفتروفيوس ظلا رغم هذه التجارب الربين الحارسين للعمارة الانجليزية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما كانا فى نصفه الأول . وقد تدعمت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبى ، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التى عثر عليها فى أثينا وتدمر وبعلبك . ودافع السر وليم تشيمبرز عن الرأى البلاديوى فى كتابه « بحث فى العمارة المدنية » (١٧٥٩) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد « سومرست هاوس » (١٧٧٦ — ٨٦) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية المعمدة .

ثم وفدت من اسكتلنده أسرة لامعة من اخوة أربعة هم جاك وروبرت وجيمس ووليم آدم ليهيمنوا على العمارة الانجليزية فى نصف القرن الذى نحن بصدده . وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله . فقد أنهى دراسته

فى جامعة إدنبره ، ثم أنفق ثلاث سنين فى إيطاليا حيث التقى ببيرانيزى وفنكلمان . وقد لاحظ أن القصور الخاصة التى امتدحها فتروفيوس قد اختفت من روما ، وانتهى إليه أن واحداً منها مازال سليماً نسبياً ، وهو قصر دقلديانوس فى سبالاتو (وهى الآن سبليت فى يوغوسلافيا) فاتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدلماشية العتيقة ، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم ، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس ، ثم أفرج عنه ، وألف كتاباً عن أبحاثه ، وقفل إلى انجلتره وقد عقد العزم على استعمال الطرز الرومانية فى العمارة البريطانية . ففى ١٧٦٨ استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين الستراند والتمز لتسعة وتسعين عاماً ، وشيدوا فوقها « أدلفى تراس » الشهير — وهو حى من شوارع بديعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعمه البواكى والعقود الرومانية الضخمة ؛ هنا عاش بعض الدراميين الكبار ، من جاريك إلى برنارد شو . كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة ، مثل قصر « بيوت » المسمى لوتن هو (أى بيت لوتن ، على ثلاثين ميلا شمالى لندن) . قال جونسن « هذا أحد الأماكن التى لا أندم على أننى جئت لأشهدها[٩] » ، ومعروف أنه كان رجلا عسير الإرضاء .

وقد انتصرت الطرز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطى ، وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى ، مثل كارلتن هاوس بلندن ، وهيروود هاوس بيوركشير ، بالطراز الكلاسيكى الحديث . ولم يعمر ولبول ليشهد عودة الطراز القوطى مكللا بالنصر والبهاء فى دارى البرلمان (١٨٤٠ — ٦٠) .

٣ — ودجوود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المبانى وما احتوته فى داخلها ، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر . غير أن ألمع الأسماء فى هذا المضمار هو اسم توماس تشبنديل ، الذى نشر فى ١٧٥٤ وهو فى السادسة والثلاثين كتاب « مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث» ، الذى كان لفن صناعة الأثاث ما كانه

كتاب رينولدز « أحاديث » لفن التصوير . وكانت المنتجات التى تفرد بها هى المقاعد ذات « الظهور الشريطية » الرقيقة والقوائم الجذابة . ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات فى عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن ، والمكاتب ، والمناضد ، ودواليب الكتب ، والمرايا ، والموائد ، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة — وكلها أنيق ، وأكثرها مبتكر ، هش رقيق عموماً .

وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت ، وخلفهما توماس شيراتون . ويبدو أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التى زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً ، فى الفن كما هو فى الحياة . أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة ، وتخصص فى الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التجزع . وكان يصقلها فى أناة ، ويلونها فى رقة ، ويكفتها أحياناً بزخارف معدنية . وقد أورد فى « قاموس الأثاث » (١٨٠٢) قائمة حوت ٢٥٢ من « كبار صناع الأثاث » يشتغلون فى لندن أوقربها . ونافست الطبقات العليا فى انجلتره الآن نظائرها الفرنسية فى صقل أثاثها وتجهيزاتها الداخلية .

وكانوا أسبق من الفرنسيين فى تصميم الحدائق والبساتين . وقد لقب لانسلوت براون « Capability » (أى القدرة) لأنه كان يفطن بسرعة كبيرة للقدرات التى تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغريبة — والغالية ؛ وبهذه الروح صمم الحدائق فى بلنهيم وكيو . واتجهت موضة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل ، أو غير المتوقع ، أو البهى المنظر . واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية ؛ وأدخل السروليم تشيمبرز فى زخرفة حدائق كيو (١٧٥٧ — ٦٢) الهياكل القوطية ، والجوامع المغربية ، والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار) . وكانت الجرار الجنائزية حليات محببة للحدائق ، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا .

أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً . فكانت انجلتره تنتج زجاجاً لا يقل جمالا عن أى زجاج مصنوع فى أوربا[١١] . وكانت مصانع الخزف فى تشلسى وداربى تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان ، بطراز سيفر عادة . ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت « المدن الخمس »

فى ستافورد شير — لا سيما بير سليم وستوك — أن — ترنت . وقبل مجىء جوسيا ودجوود كانت هذه البضاعة فقيرة فى طرائقها ومكاسبها ؛ وكان الخزافون اجلافاً جهلة ، قذفوا وسلى بالوحل حين وعظهم أول مرة ، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقات لا سبيل إلى اختراقها . وفى ١٧٥٥ اكتشفت فى كورنوول رواسب غنية من الكاولين — وهو طفل أبيض قاس كالذى يستعمله الصينيون ؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتى ميل عن المدن الخمس .

وقد بدأ ودجوود وهو فى التاسعة من عمره (١٧٣٩) العمل على دولاب الخزاف . ولم يتلق من التعليم إلا القليل ، ولكنه قرأ كثيراً . وألهمته دراسته لكتاب «كايلوس» «مختارات من الآثار المصرية والأترورية واليونانية والرومانية والغالية» (١٧٥٢ — ٦٧) الطموح إلى تقليد الأشكال الخزفية الكلاسيكية ومنافستها . وفى ١٧٥٣ بدأ العمل بمصنعه الخاص فى «أيفى هاوس» ، وبنى حوله قرب بيرسليم مدينة أطلق عليها اسم إتروريا . وبهمة المحارب وبصيرة رجل الدولة شن حرباً على الظروف التى عوقت هذه الصناعة . ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنوول إلى مصانعه ، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات ، وأسهم فى دفع نفقاتها ، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم . وكانت سوق الخزف الجميل الانجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف مايسن وديلفت وسيفر ، فاستولى ودجوود على السوق المحلية ، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية ، وما وافى عام ١٧٦٣ حتى كانت مصانع خزفه تصدر كل عام ٥٥٠,٠٠٠ قطعة لأوربا وأمريكا الشمالية . وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة .

وبحلول عام ١٧٨٥ كانت مصانع خزف ستافورد شير تشغل ١٥,٠٠٠ عامل . وأدخل ودجوود تخصص العمل ،وأرسى الانضباط فى المصنع ، ودفع أجوراً حسنة ، وبنى المدارس والمكتبات . وكان يصر على جودة الصناعة ، وقد وصفه كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يدب فى أرجاء ورشته عه ساقه الخشبية ، ويحطم بيده كل إناء يظهر به أى عيب صغير ؛ وفى مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

التحذير « هذا لايرضى جوسيا ودجوود »[11] وابتكر العدد الدقيقة ، وجلب الآلات البخارية لتحريك مكناته . ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجارى ، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر فى انجلترة . وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجارى لندن ، وأبدع وأدق الأوانى للملكة شارلوت . وكان يقسم أوانيه المعروضة للبيع إلى « النافع » و « الزخرفى » ولصنع الخزف الزخرفى كان يقلد النماذج الكلاسيكية فى غير مواربة ، كما يرى فى فازاته العقيقية الفاخرة ، ولكنه طور أيضاً أشكالا من بنات أفكاره ، خصوصاً خزف اليشب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء .

وقد جاوز اهتمامه وحماسته الخزف بكثير . فهدته تجاربه التى أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له ، وعلى طرائق أفضل للحريق ، إلى اختراع « البيرومتر » لقياس درجات الحرارة المرتفعة . وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (١٧٨٣) وكان عضواً سباقاً فى جمعية إلغاء الرق ، وقد صمم ختمها وصنعه . وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور وللإصلاح البرلمانى ، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها . ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالا وأعظم رخاء .

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة لخزفه ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأسخيلوس ودانتى برسوم قائمة على أساس من فن رسامى الفازات اليونان . وهى رائعة فى خطوطها ، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لاتزيد فى جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم . وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان ، كما نرى فى تمثاله لنلسن فى كتدرائية القديس بولس ، ولكنه فى تمثال « كيوبيد وما ربيسا »[12] الرخامى حقق أشكالا نابضة بالحياة فى عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية . ثم أصبحت التماثيل الجنائزية

مجال تخصصه . فأقامها لتشاترتن فى برستل ، ولرينولدز فى كتدرائية القديس بولس ، ولباولى فى كنيسة وستمنستر . وقام فى انجلتره بالدور الذى قام به كانوفا فى إيطاليا — وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة لالتقاط رشاقة براكستيليس الناعمة الشهوانية من جديد .

وهناك جمال أقل ، وحياة أكثر ، فى التماثيل النصفية التى نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز . وقد ولد فى لندن لأبوين فلمنكيين ، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ثم قصد روما ، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة(١٣) . فلما عاد إلى انجلتره ، نحت تمثالا نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه . فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبت الثانى ، كذلك جلس إليه جونسن ، وكان فى ذلك ما أسفوا عليه أحياناً ، لأن نولكنز لم يجامل أحداً فى نحت تمثاله . وقد سخط جونسن قائلا ان المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلا(١٤) .

كان العصر عصر حفارين شعبيين ، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التى وطئت مسرح السياسة وغيره من المسارح ، وقد نثرت فى طول انجلتره وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالهم ووجوههم وكادت رسوم جيمس جلرى الكاريكاتورية تبلغ فى أذاها مبلغ رسائل جونيوس ؛ وقد اعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به « أذى أكثر من المناقشات فى البرلمان »(١٥) . وصور توماس رولاندسن الرجال وحوشاً ، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة ، وأضحك أجيالا عديدة بكتابه « سياحات الدكتور سنتاكس » . أما بول ساندبای وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة فى الصقل .

وكان البريطانيون العائدون من سياحتهم الكبرى (فى أوربا) يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها وغيرها من التحف ؛ وانتشر تذوق الفن ، وتكاثر الفنانون ، ورفعوا هاماتهم ، وأجورهم ، ومكانتهم فى المجتمع ، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية . ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (١٧٥٤) المبالغ الطيبة

جوائزة للفنانين الوطنيين ، ونظمت المعارض . وعرض المتحف البريطانى مجموعاته فى ١٧٥٩ . وفى ١٧٦١ أفتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية . وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين . فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و ٥,٠٠٠ جنيه من جورج الثالث . وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً . وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الانجليزى .

٤ — جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هورتشرد ولسن ، الذى ولد لقسيس ويلزى ؛ وقدم إلى لندن فى الخامسة عشرة من عمره ، وكسب قوته برسم الأشخاص . وفى ١٧٤٩ قصد إيطاليا ، وفيها وفى فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران ، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص . فلما عاد إلى انجلتره رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والربات وغيرها من الأطلال الكلاسيكية . وتميزت بالجمال صورة « نهر التمز فى تويكنام »(١٦) التى تلتقط روح نهار صيف انجليزى — المستحمون يسترخون ، والأشجار والزوارق الشراعية لايكاد يحركها النسيم المترقرق . غير أن الانجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية ؛ فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم فى عنفوانهم . ولكن ولسن أصر على رأيه ، وعاش فقيراً فى حجرة نصف مؤثثة فى توتنام كورت رود ، وخفف مرارته بالشراب . وفى ١٧٧٦ أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها . وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة فى ويلز ، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (١٧٨٢).

وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز فى فنه مهرجاناً موصولا من أسباب التشريف والثراء . فقد أسعده الحظ بمولده (١٧٢٣) لقسيس ديفونشيرى يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التى عثر بينها على « مقال فى فن فنون التصوير» (١٧١٩) من تأليف جوناثان رتشردسن . وقد ألهبه الكتاب رغبة فى أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطوفان على اختياره ارضاء

له ، فأوفداه إلى لندن ليتتلمذ على توماس هدسن ، وهو رجل ديفونى تزوج بابنة رتشردسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص فى انجلتره . وفى ١٧٤٦ مات أبوه ، وأقام الفنان الشاب مع أختيه فى بلدة هى اليوم بليمث . فى ذلك الثغر الشهير التقى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالية . فلما كلف الكبتن أوجستس كيبل بحمل الهدايا إلى داى الجزائر ، عرض على جوشوا أن ينقله مجاناً إلى مينورقة ، لأنه علم أن الشاب يتوق للدرس فى إيطاليا . ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (١٧٥٠) .

وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور . وجهد ليكتشف الطرق التى استعملها ميكلانجو ورفائيل فى حذقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج . وقد دفع الثمن ، فبينما كان ينسخ رفائيل فى بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية . ثم انتقل إلى البندقية ، حيث درس تتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، وتعلم كيف يضفى وقار الأذواج البنادقة على أى إنسان يصوره . وفى طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً فى باريس ، ولكنه وجد فى فن التصوير الفرنسى المعاصر من الأنوثة ما لا يسيغه ذوقه . وبعد أن قضى شهراً فى ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس فى لندن (١٧٥٣) ، وهناك أقام ما بقى من عمره .

وللتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكبتن كبيـــل[١٧] — وسيماً متحمساً ، آمراً ناهياً ، هنا أعيد التقليد الفانديكى حتى تصبح اللوحات صوراً متألقة للارستقراطية . ولم يمضى عامان حتى بلغ عدد زبائنه ١٢٠ زبوناً ، واعترف به القوم أبرع مصور فى انجلتره . وكان عيبه التيسير . فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية . وقد أجاد رسم بعضها ، مثل « الأسرة المقدسة » و « ربات الحسن الثلاث »[١٨] ولكن الهامة لم يكن فيها . كذلك لم يكن بزبائنه حاجة إلى هذه الصور ، فقد كانوا كلهم تقريباً بروتستنتا يستنكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون ، وقد أحبوا الطبيعة ، ولكنهم أحبوها ذيلا تلحق به أشخاصهم

أو رحلات صيدهم ، وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمى الشباب على جدرانهم ، مخلفين انطباعاً قوياً على ذراريهم . ومن ثم أقبلوا على رينولدز ، ألفان منهم عدداً ، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم ، وأحياناً كلابهم . ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزيناً ، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة .

ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملا كذلك الذى تراه فى لوحات رينولدز الباقية وعددها ٦٣٠ « فهنا رجال الدولة الذين عاشوا فى ذلك العصر المفعم حيوية : هنا بيوت فى مهرجان من اللون[١٩] ، وبيرك فى اكتئاب عاجله وهو بعد فى الثامنة والثلاثين ، وفوكس مستكرشاً ، حزيناً ، هماماً فى الرابعة والأربعين . . . وهنا الكتاب : ولبول ، وستيرن ، وجولد سمث[٢٠] وهو يبدو حقيقة مثل « بل المسكين» ، وجبون بوجنتيه الممتلئتين اللتين حسبتهما المركيزة دودفان — التى لم تبصر إلا بيديها — مقعدة طفل »[٢١] وبوزويل[٢٢] فخوراً كأنه خلق جونسن ، ثم جونسن نفسه ، مصوراً فى حب خمس مرات ، وجالساً فى ١٧٧٢ إلى رينولدز ليرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال[٢٣] . وهنا أعلام المسرح : جاريك « نهبا بين ربتى التراجيديا والكوميديا المتنافستين» ، ومارى روبنسن فى دور برديتا ، والسيدة آبنتن فى دور ربة الكوميديا ، وساره سيدونز فى دور ربة التراجيديا[٢٤] ، وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعمائة جنيه (١٨،٢٠٠ دولار ؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة .

ويغلب على هذا المتحف الذى لاضريب له كثرة عدد النبلاء — أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية ، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية ، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر فى صباهم الحلو . كصورة توماس استر ذى الاثنى عشر ربيعاً — هذه الصورة التى رسمها رينولدز واسمها « الصبى الأسمر » تتحدى صورة « الصبى الأزرق » التى رسمها جنيزبرو . ثم ورمت خصور الكثيرين منهم بعد أن ولت أيام الشباب الخطرة ، مثل أوجسطس كبيل ذاته الذى كان رائع السمت وهو كبتن فى ١٧٥٣ ، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال فى ١٧٨٠ . وقد وفق

رينولدز برغم هذه البدانات ، وبرغم الحرير والمخرمات التى اكتسوا بها ، فى تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط . خذ مثلا جسم اللورد هينفيلد المتين وشخصيته القوية ، يبدو جسوراً فى اللون الأحمر البريطانى ، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذى دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذى امتد أربعة أعوام .

وهكذا تنتهى بنا المسيرة إلى أولئك الربات بين النساء « الديات جينايكون » اللائى وجدهن رينولدز فى زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم . وإذ كان عزباً فقد كان حراً فى أن يجبهن جميعاً بعينيه وفرشاته ، ويقوم اعوجاج أنوفهن ، ويهذب قسماتهن ، ويرتب شعورهن الهائشة ، ويخلع عليهن بهاء وجلالا بلباس فضفاض رقيق فى خفة الزغب ، خليق بأن يجعل فينوس تواقة إلى كساء عريها . فانظر إلى الليدى اليزابث كيبل ، مركيزة تافيستوك ، وقد ارتدت ثياب القصور التى لبستها قبل سنين يوم كانت إشبينة للعروس الملكة شارلوت ، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساقى زانتيب (زوجة سقراط) ؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهى فى ثياب بسيطة ؛ فصور مارى بروس دوقة رتشموند فى عباءة عادية تخيط رسماً فى وسادة[٢٥] ؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف . وفى ما يقرب من هذه البساطة فى الملبس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفرى تصغى إلى السيدة كريوى[٢٦] . وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا فى وجه إيما جلبرت ، كونتيسة مونت ادجكوم ، الهادىء الرقيق[٢٧] ، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو فى الحرب العالمية الثانية .

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال ، لأنه كان جزءاً من التزام الارستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية فى استمرار لاتنفصم عراه . وهكذا صور رينولدز الليدى اليزابث سبنسر ، كونتسيه بمبروك ، مع ابنها ذى السنين الست ، وهو الذى سيصبح فيما بعد اللورد هربرت[٢٨] ؛ وصور السيدة إدورد بوفرى مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث[٢٩] ؛ وصور هذه الأبنه ، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسناء المرحة التى اشترت

بالقبلات أصوات الناخبين لفوكس فى حملته لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث ، وهى جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل[٣٠] .

وأخيراً ، وربما أكثرهن جميعاً جاذبية ، الأطفال أنفسهم ، متحف كامل منهم ، وكلهم تقريباً رسمه متفرداً كروح لاتكرار لها ، وفهمه بتعاطف فى تساؤل الصبى وعدم اطمئنانه . ويعرف العالم رائعة رينولدز فى هذا القطاع ، وهى « عصر البراءة »[٣١] ، التى رسمها فى ١٧٨٨ ، فى آخر سنى إبصاره ؛ بيد أن السرعة التى بلغ بها تفهمه للطفولة حدساً يكاد يكون صوفياً يمكن رؤيتها فى لوحه بجل جمالها عن الوصف رسمها فى ١٧٥٨ للورد روبرت سبنسر وهو فى الحادية عشرة[٣٢] . وبعدها راح يرسم الأطفال فى كل عمر : فى سنها الأولى الأميرة صوفيا ما تيلده ؛ وفى سنته الثانية الغلام وين مع حمله ؛ وفى الثالثة الآنسة باولز مع كلبها ؛ وفى الرابعة الغلام كريوى فى تقليد كامل لهنرى الثامن ؛ وفى نحو هذه السن « الفتاة بائعة الفراولة »[٣٣] ؛ وفى الخامسة ولدا بروميل ، وليم وجورج (الذى أصبح فيما بعد يلقب « بو بروميل ») ؛ وفى السادسة الأمير وليم فردريك ؛ وفى السابعة اللورد جورج كونواى ؛ وفى الثامنة الليدى كارولين هوارد ؛ وفى التاسعة فردريك ، ايرل كارليل ؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب .

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوى الألقاب ، « ان التدرج البطىء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهذيب آخر آثار الغنى والسلطة »[٣٤] ولا قبل إلا للأغنياء بدفع الجنيهات الثلاثمائة التى يطلبها أجراً عن « لوحة كاملة الطول مع طفلين »[٣٥] . أيا كان الأمر ، فإنه كان قد وقع على منجم ذهب ، وما لبث دخله أن ارتفع إلى ١٦,٠٠٠ جنيه فى العام . وفى ١٧٦٠ اشترى بيتاً فى رقم ١٧ بميدان لستر ، وكان يومها أرقى أحياء لندن ، فأثثه تأثيثاً فاخراً ، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين ، واتخذ مرسماً له قاعة فى سعة صالة الرقص . وكان للى مركبته الخاصة ، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة ، وطلب إلى أخته أن تركبها طائفة بالمدينة ، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتى بالمزيد[٣٦] .

وفى ١٧٦١ منح لقب الفروسية . وكان يلقى الترحيب فى كل مكان يحل به ضيفاً ، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبل ؛ وكان يلتقى على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أى رجل آخر فى انجلتره[٣٧] . وقد أهداه جولد سمث قصيدته « القرية المهجررة » وأهداه بوزويل « حياة صموئيل جونسن » . ورينولدز هو الذى أسس فى ١٧٦٤ « النادى » ليتيح لجونسن منبراً من نظرائه .

ولا بد أنه أحب جونسن ، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً . ورسم لنفسه أكثر . غير أنه لم يوهب وسامة الطلعة ، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدرى أصابه فى طفولته ؛ وكانت ملامحه جافية ، وشفته العليا شوهتها كبوة فى مينورقة . وفى الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينية ويحاول اختراق تيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجه[٣٨] . ثم صور نفسه فى الخمسين وهو فى رداء الدكتوراه ، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحته لتوها الدكتوراه فى القانون المدنى . وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة فى قاعة الصور القومية ، والتى رسمها حوالى ١٧٧٥ ، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهذيباً ، ولكن شعره خطه الشيب ، ويده مضمومة إلى أذنة ، لأنه كان فى طريقه إلى الصمم .

وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية فى ١٧٦٨ أنتخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع . وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب . وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا فى الصف الأمامى فى حديثه الأول (٢ يناير ١٧٦٩) . وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية ، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسن كتبها له ، ولكن السر جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته ، وأنشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين . وبالطبع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً ، واستنكر الفكرة التى تزعم أن العبقرية قد تغنى صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق ، وازدرى « شبح الإلهام هذا » ، وأصر على أن « الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة »[٤٠] . ثم انه « ينبغى اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأى السوقى الباطل — وهو

أن القواعد اغلال تقيد العبقرية »[٤١] ويجب أن يمر التطور الطبيعى للفنان بمراحل ثلاث :

أولا : مرحلة الوصاية — تعلم القواعد ، والرسم ، والتلوين ، والتشكيل؛ ثانيا : دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طول الزمن ، وبطريق هذه الدراسات « تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف الفنانين فى فكرة عامة واحدة تقضى إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله ، والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لأى سلطان إلا ما يرى بنفسه أن العقل يؤيده [٤٢] . وعندها فقط ينبغى له أن يجدد ويبدع ، « فإذا أحسن إرساء حكمه وإثراء ذاكرته ، استطاع أن يجرب قوة خياله دون أن يعروه خوف . والعقل الذى درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع رغبته فى الحماسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الإغراب الشديد»[٤٣] .

وكان هوجارث قد رفض « قدامى الأساتذة » ولقبهم « الأساتذة السود » ، وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً . أما رينولدز فذهب إلى أن هذه الخطوة ينبغى أن تكون مجرد إعداد لفن أكثر مثالية . « ان الطبيعة نفسها يجب عدم الغلو فى نقلها . . ومطمح المصور الأصيل لابد أن يكون أوسع من هذا . فبدلا من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليداته ، عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره . . . وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة بأسره للخيال »[٤٤] . ان كل شىء فى الطبيعة ناقص قاصر عن ادراك الجمال ، وفى صميمه عيب أو نقص ما ، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب من ابداعاته ، وهو يجمع فى مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال الناقصة ؛ « انه يصحح الطبيعة بذاتها ، وحالتها الناقصة بحالتها الأكثر كمالا . . وهذه الفكرة ، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة ، التى يسميها الفنان « الجمال المثالى » هى المبدأ الرئيسى العظيم الذى تؤدى الأعمال العبقرية طبقاً له . ولكى يميز الفنان الناقص من الكامل ، والرفيع من الخسيس ، ولكى يدرب الخيال ويهذبه ويرفعه ، يجب أن يثرى نفسه بالأدب والفلسفة ، وبـ « حديث الرجال المثقفين والمبدعين»[٤٥] . وكذلك فعل رينولدز .

وفى ١٧٨٢ أصيب بالنقطة ، ثم شفى شفاء جزئياً من إصابته . وواصل التصوير سبع سنين أخرى . ثم غامت عينه اليسرى ، وسرعان ما فقدت البصر . وفى ١٧٨٩ بدأت اليمنى فى الضعف ، فوضع فرشاته ، وقد ملأه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذى ألجأه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق للأذن . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٠ ألقى آخر أحاديثه . وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادىء الأكاديمية والمحافظة التى نادى بها فى أحاديثه الأقدم عهداً ، وجدد نصيحته بدرس الخط قبل اللون ، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد . ثم اختتم بالثناء الحار على ميكلانجلو :

« لو أتيح لى الآن أن أبدأ الحياة من جديد ، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم ، فلثم هدب ثوبه ، والتقاط الطفيف من مواطن كماله ، فيه فخر وامتياز كافيان لرجل طموح . . . ويخيل إلى ، فى شعور لايخلو من الغرور ، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابى بهذا الرجل الملهم حقاً ، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها فى هذه الأكاديمية ومن هـــذا المكان ، هى اسم ميكلانجلوا »[٤٦] .

وتوفى المصور الآسف فى ٢٣ فبراير ١٧٩٢ ، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كتدارائية القديس بولس .

٥ — توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا ، لايتردد فى تقديم فروض الاحترام التى يقتضيها قبوله فى المجتمع ، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة ، تسخطه التضحيات التى تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح . وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية ، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى . وتروى القصص عن هروبه من المدرسة فى مسقط رأسه صدبرى ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للشجر والسماء ، وللماشية ترعى فى الحقول أو تشرب عند بركة . فلما فرغ من رسم جميع الأشجار فى منطقته وهو بعد فى الرابعة عشرة ، حصل على إذن من أبيه

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن . وهناك درس نساء المدينة ، كما نستنتج من نصيحته التي بذلها في تاريخ لاحق لممثل شاب : « لا تسرح في شوارع لندن ، متوهماً أنك تلتقط لمحات من « الطبيعة » على حساب بدنك . تلك كانت أول مدرسة لي ، وأنا عميق الخبرة بالنساء ، فاسمح لي إذن أن أحذرك »[٤٧] .

وفجأة ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة ، ألفى نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية في السادسة عشرة تدعى مارجريت بور . وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية لأحد الأدواق ، ولكنها كانت تملك دخلاً قدره مائتا جنيه في السنة[٤٨] . وفي ١٧٤٨ استقر بهما المقام في ابسوتش . وهناك التحق بناد موسيقى لأنه كان مولعاً بالموسيقى ؛ وكان يعزف على عدة آلات — « انني أرسم لوحات الأشخاص لأكسب قوتي ، ولمشاهد الطبيعة لأنني أحبها ، وأعزف الموسيقى لأنني لا أملك منع نفسي من العزف »[٤٩] وقد وجد في مصوري « اللاند سكيب » (المناظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة . وكافه فليب تكنيس ، حاكم قلعة لاند جارد القريبة منه ، بأن يصور القلعة ، والتلال المجاورة لها ؛ وهاروتش ، ثم نصحه بأن يلتمس عملاء أغنى وأكثر في مدينة بات .

فلما أن بلغها جينزبرو (١٧٥٩) بحث عن الموسيقيين لا المصورين ، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ في عداد أصدقائه . ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته ، وتراه في لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء للون ورشاقة الخط . وكان في بات بعض مجموعات الصور جيدة ، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التي رسمها كلود لوران وجسبار بوسان ، ولوحات الأشخاص التي رسمها فانديك ، وأصبح الوريث وأسلوب فانديك الانجليزي — لوحات أشخاص تضيف رهافة بالغة في الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملبس .

وفي بات أنتج بعضاً من أفضل فنه . وكان آل شريدان يسكنونها ، فرسم جينزبرو زوجة رتشرد الشابة الفاتنة[٥٠] ثم أفاض كل صنعته الآخذة في النضج على لوحه « النبيلة مسز جراهام »[٥١] التي أتاح له رداؤها الأحمر

بثناياه وطياته أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل . وحين عرضت هذه اللوحة فى الأكاديمية الملكية بلندن (١٧٧٧) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبز أى لوحة رسمها رينولدز . وحوالى عام ١٧٧٠ أضفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال ، وهو ابن تاجر حديد ، فغيره إلى «الصبى الأزرق» — وهى لوحة دفع فيها متحف صور هنتنجتن ٥٠٠,٠٠٠ دولار . وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لا يمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق ، وقبل غريمه الصاعد التحدى وانتصر ؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلا فى التصوير الانجليزى .

ورغب كل وجوه باث الآن فى أن يصورهم جينزبرو . ولكنه . كما قال لصديق ، «لقد مللت تصوير الأشخاص ، وبى رغبة شديدة فى أن آخذ كمانى وأنطلق إلى قرية جميلة ، حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمرى فى هدوء ودعة»[٥٢] . ولكنه عوضاً عن هذا نزح إلى لندن (١٧٧٤) واستأجر مسكناً فاخراً فى شومبيرج هاوس ، بشارع بل مل ، ودفع فيه ٣٠٠ جنيه فى السنة ، فهو لا يرضى بأن يتفوق عليه رينولدز فى مظهره . وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صوره ، وظل أربع سنين (١٧٧٣ — ٧٧) رافضاً عرض لوحاته فيها ؛ وبعد عام ١٧٨٣ لم يتيسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا فى الافتتاح السنوى لمرسمه . وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو . وكان رينولدز عموماً يفضل عليه . ولكن الأسرة المالكة آثرت جينزبرو ، فصور أفرادها جميعاً . ولم يلبث نصف الانجليز الذين يجرى فى عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومبرج هاوس طلباً للخلود القلق فى الصور . ورسم جينزبرو الآن شريدان ، وبيرك ، وجونسن ، وفرانكلن ، وبلاكستون ، وبت الثانى ، وكلايف . . . ولكى يوطد مكانته ، ويدفع إيجاره ، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص .

وقد وجده زبائنه رجلا صعب الإرضاء . من ذلك أن أحد اللوردات غالى فى خيلائه بينما كان جالساً إلى جينزبرو ، فصرفه دون أن يرسمه ، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلا)

بحيث لم يستطع المصور أن يجد تعبيراً يطول فترة تكفى للكشف عن الرجل ، ولقى هذا العنت فى تصوير صموئيل فوت ، منافس جاريك . وصاح جينزبرو تباً لهما من وغدين ! إن لها وجه كل إنسان إلا وجههما »(٥٣) ثم وجد صعوبة مختلفة فى تصوير السيدة سيدونز « لعن أنفك ياسيدتى ! أنه بلا نهاية »(٥٤) وكان يصفو مزاجه مع النساء ، فهو شديد الإحساس بجاذبيتهن الجنسية ، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحالمة .

فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التى كان الطلب على لوحاتها قليلا . وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس . — أو الوقوف — ومن خلفهم منظر ريفى ، كما نرى فى لوحته « روبرت أندروز وزوجته » (التى بيعت بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠ دولار فى مزاد عام ١٩٦٠). وإذ منعته زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم فى مواجهة الطبيعة الحية ، فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات : ثم نظمها فى لوحه (٥٥) — مع دمى ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس ، ومن هذه الأشياء ؛ ومن ذكرياته ، ومن خياله ، رسم المناظر الطبيعية . وكان فيها نوع من الافتعال ، وشكلية وانتظام ندر أن يوجدا فى الطبيعة ، ومع ذلك فالنتيجة أوحت بجو من شذى الريف وسكينته ، وفى أخريات عمره رسم بعض « الصور الغريبة » التى لم يدع أنه توخى فيها الواقعية ، ولكنه أطلق العنان لمزاجه الرومانتيكى ؛ وفى إحداها ، وهى « فتاة الكوخ ومعها كلب وابريق « كل العاطفة التى تجيش بها لوحة جروز « الإبريق المكسور» وكلتا الصورتين رسمت فى ١٧٨٥ (٥٦) .

ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حق قدره غير فنان . كان فى أيامه يعد أقل قدراً من رينولدز ، ويعاب على رسمه أنه مهمل ، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة ، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع ؛ ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذى اتسم به تلوين مزاحمه . وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه فى حرارة ، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة ، وتفوق على منافسه فى رسم الرجال ؛ أما جينزبرو فكان روحاً أكثر رومانسية ، آثر تصوير النساء

والصبيان . لقد فاته التدريب الكلاسيكى الذى تلقاه رينولدز فى إيطاليا ، وافتقد الاتصالات المنبهة التى أثرت عقل رينولدز وفنه . وكان جينزبرو مقلا فى قراءته ، قليل الاهتمامات الفكرية ، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التفوا حول جونسن . وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد ، وما كان يمكن قط أن يستمع فى صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسن . ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية .

فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب ، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدينة . وفى كثير من لوحات الطبيعة التى رسمها جينزبرو تقحم شجرة ميتة نفسها « تذكرة موت » وسط الورق الغض والعشب الوافر . ولعله ظن أن السرطان يخترمه ، وأحسن بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد . وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره . وجاء رينولدز ، وتبادل الرجلان الحديث الودى وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع نزاعات بين رجال أقل منهم شأناً . وحين افترقا قال جينزبرو « وداعاً حتى نلتقى فى الآخرة ، وفى صحبتنا فانديك »[٥٧] ومات فى ٢ أغسطس ١٧٨٨ بالغا الحادية والستين .

وشارك رينولدز شريدان فى حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو . وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز فى حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً . وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات فى فن جينزبرو ، ولكنه أضاف « لو أتيح لهذه الأمة أن تنجب من العباقرة عدداً يكفى لإكسابنا الامتياز الرفيع ، امتياز « مدرسة انجليزية » ، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة ، فى تاريخ الفن ، فناناً من الرعيل الأول فى تلك المدرسة الصاعدة »[٥٨]

أما جورج رومنى فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو ، ولكن عيوب تعليمه وصحته وخلقه ألزمته مكاناً أكثر تواضعاً . وقد افتقد التعليم المدرسى بعد الثانية عشرة ، فاشتغل فى ورشة نجارة أبيه بلانكاشير حتى بلغ التاسعة عشرة . وقد أكسبته رسومه المال الذى تلقى به دروساً فى التصوير

من فنان متبطل فى بلدته . فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً ، فلما شفى تزوج ممرضته ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها ، فهجرها بحثاً عن رزقه ، ولم يرها سوى مرتين فى الأعوام السبعة والثلاثين التالية ، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه . وقد كسب ما يكفى لزيارة باريس وروما ، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة . فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية وعاة الفن بقدرته على الباس زبائنه فى رشاقة أو وقار . وكان منهم إيما ليون ، التى أصبحت فيما بعد الليدى هاملتن ، وقد بلغ من افتتان رومنى بجمالها انه صورها فى صورة إلاهة ، وكاساندرا ، وسورسى ، والمجدلية ، وجان دارك ، والقديسة . وفى ١٧٨٢ رسم صورة لليدى سذرلاند ، نقد عنها ١٨ جنيهاً ؛ وقد بيعت مؤخراً بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار . وفى ١٧٩٩ عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل ، فعاودت تمريضه كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة . وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشلل ، ثم مات فى ١٨٠٢ . وبفضله وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت انجلترا الآن ، فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، فى التصوير كما انطلقت فى السياسة والأدب ، فى تيار الحضارة الأوربية المتدفق .

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

جيران إنجلترة

١٧٥٦ – ٨٩

١ – إرلندة جراتان

شرح رحالة انجليزى زار إرلنده فى ١٧٦٤ أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال : « أى خوف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح إرلندى يتردى فى حال من التعاسة والفقر المدقع ، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملا ودياً جديراً بالثناء ؛ ... واحتمال الكثيرين منهم ... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدى على ما فى طبعهم من لطف فطرى »[1] .

ولم يكن ملاك الأرض – ومعظمهم من البروتستنت – هم الظلمة المباشرين للفلاحين – ومعظمهم كاثوليك – ولا أشدهم ضراوة ، فالملاك كانو يعيشون عادة فى انجلتره لا يرون الدم الذى لطخ الإيجارات التى يبتزها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم ؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين ، حتى اضطر هؤلاء إلى أن يكتفوا فى غذائهم بالبطاطس وفى لباسهم بالأسمال .

وفى ١٧٥٨ ، سمح لإرلنده خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية فى انجلتره . فتحولت أفدنة كثيرة فى ارلنده – بما فيها الأرض المشاع التى كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل – من الزراعة إلى رعى الأغنام أو الماشية ، فازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر – « عند أول ميسرة » كما

قال السير وليم بتى[٢] ، ولعل الأمل راودهم فى أن أطفالهم لن يلبثوا أن يغطوا نفقاتهم ثم يعينوهم على دفع الإيجار . وهكذا ، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات ، زاد سكان ايرلنده من ٣,١٩١,٠٠٠ عام ١٧٥٤ إلى ٤,٧٥٣,٠٠٠ عام ١٧٩١[٣] .

أما صورة الصناعة فأخذت فى الإشراق . ذلك أن الكثير من البروتستنت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيال أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج . وفى الربع الأخير من القرن ، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الارلنديين وعلى التجارة الارلندية ، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافى . وغدت دبلن من أمهات المراكز فى التعليم والموسيقى والدراما والعمارة فى الجزر البريطانية . وكانت كلية ترنتى بسبيلها إلى أن تصبح جامعة ، تملك فعلا قائمة طويلة من الخريجين الممتازين . ولو أن ارلنده احتفظت بنجومها الساطعة فى أرض الوطن — بيرك ، وجولد سمث ، وشريدان ، وسويفت ، وباركلى — لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم فى ذلك العهد . وبعد عام ١٧٦١ جعل نائب الملك دبلن مقره الدائم بدلا من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام . وقامت الآن الصروح العامة الشامخة والقصور الأنيقة . ونافست مسارح دبلن مسارح لندن فى تفوق إخراجها ، وهنا رتلت « مسيا » هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (١٧٤٢) ، وأخرج شريدان التمثيليات الناجحة الكثيرة التى ألفت زوجته بعضها .

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية فى ارلنده ، وقد حرم المنشقون — أعنى المشيخيين ، والمستقلين (البيورتان) ، والمعمدانين — من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار ، الذى اشترط فى الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الانجليكانى . أما قانون التسامح الصادر فى ١٦٨٩ فلم يطبق على ارلنده . وعبثاً احتج مشيخيو ألستر على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص فى صفوف جيوش الثوار .

وكان ثمانون فى المائة من سكان ارلنده كاثوليكا ، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكى لعضوية البرلمان . ولم يملك أرضاً من الكاثوليك إلا قلة . وكان المستأجرون البروتستنت يعطون إيجارات مدى الحياه ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثى أرباحهم إيجار(٤) . ولم يسمح بالمدارس الكاثوليكية ، ولكن المسئولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الإرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم . وقبل بعض الطلاب الكاثوليك فى كلية ترنتى ، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية . وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، ولكن لم يكن هنالك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك ؛ على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكليات اللاهوتية فى القارة . وقد اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت فى فرنسا وإيطاليا من دماثة طبع وتحرر آراء ، فلما عادوا إلى ارلنده قسساً لقوا الترحيب على موائد البروتستنت المتعلمين ، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين . فلما أن دخل هنرى جراتان البرلمان الإرلندى (١٧٧٥) كانت حركة التحرير الكاثوليكى قد اكتسبت تأييد الألوف من البروتستنت سواء فى انجلتره أو فى ارلنده .

وفى ١٧٦٠ كان يحكم ارلنده نائب عن الملك يعينه ملك انجلتره وهو مسئول أمامه ، وبرلمان يسوده الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات ويسوده فى مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الانجليكان . وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر « العفنة » أو دوائر « الجيب » ذاته المتبع فى انجلتره . وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم « المتعهدين » تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها(٥) .

وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الانجليزى متفرقة عديمة الفاعلية . ففى ١٧٦٣ راحت عصابات من الكاثوليك سموا « الصبيان البيض » — نسبة للقمصان البيضاء التى كانوا يرتدونها فوق ملابسهم — تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضى المسوره ، وتعجز الماشية ، وتهاجم جباة الضرائب أو العشور ؛ ولكن قبض على زعمائهم وشنقوا ، وفشل التمرد . وكانت حركة التحرير « القومى » أحسن حظاً . ففى ١٧٧٦ أخذ أكثر الجنود

البريطانيين من ارلنده ليحاربوا فى أمريكا ، وفى الوقت ذاته اعترى الاقتصاد الإرلندى الكساد لانقطاع التجارة مع أمريكا . واتقاء للثورة من الداخل أو الغزو من الخارج جند بروتستنت ارلنده جيشاً سموه « المتطوعين » . وازداد هؤلاء عدداً وسطوة حتى باتوا فى ١٧١٠ قوة رهيبة . وبفضل تأييد هؤلاء المسلحين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنرى فلود وهنرى جراتان بانتصاراتهما التشريعية .

وكان كلاهما ضابطاً فى جيش المتطوعين ، وخطيباً مفوهاً من أعظم الخطباء فى بلد استطاع أن يبعث ببيرك وريتشرد شريدان إلى انجلتره ويبقى فيه رغم ذلك معين لاينضب من البلاغة . ودخل فلود البرلمان الإرلندى فى ١٧٥٩ . وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد فى مجلس كان نصف أعضائه مدينين بالفضل للحكومة . ولكن الرشوة الشاملة هزمته ، فاستسلم (١٧٧٥) بقبول وظيفة نائب الخازن نظير راتب قدره ٣,٥٠٠ جنيه .

فى ذلك العام أنتخبت دائرة فى دبلن هنرى جراتان لعضوية البرلمان . وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة . وقد أذاع برنامجاً طموحاً ، قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإرلنديين وتحرير « المنشقين» من ربقة قانون الاختيار ، وإنهاء القيود الانجليزية على التجارة الإرلندية ، وتوطيد استقلال البرلمان الإرلندى . وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح. مما جعله معبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستنت . وفى ١٧٧٨ حصل على الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إجارات مدتها تسع وتسعون سنة ، ومن وراثة الأرض بالشروط التى يرثها البروتستنت . وبعد عام ، وبناء على إلحاحه ، ألغى قانون الاختبار ، وأمن للمنشقين كامل الحقوق المدنية . وقد أقنع هو وفلود البرلمان الإرلندى ونائب الملك بأن استمرار المعوقات البريطانية للتجارة الإرلندية من شأنه أن يؤدى إلى العنف الثورى . وكان اللورد نورث ، رئيس الحكومة البريطانية آنئذ ، يحبذ إلغاء هذه القيود ، ولكن رجال الصناعة الانجليز انهالوا عليه بوابل من الالتماسات ضد الإلغاء ، فأذعن لهم . وبدأ الإرلنديون يقاطعون البضائع البريطانية ، وتجمع « المتطوعون » أمام مبنى البرلمان الإرلندى وفى أيديهم

السلاح ، وعلى مدافعهم عبارة تقول « حرية التجارة أو هذا » . وسحب رجال الصناعة الانجليز معارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة ، وأصدر قانون حرية التجارة (١٧٧٩) .

ثم ألح جراتان بعد هذا فى طلب الاستقلال للبرلمان الإرلندى . ففى مطالع عام ١٧٨٠ اقترح أن يكون الملك انجلتره وحده ، بموافقة برلمان ارلنده ، الحق فى التشريع لإرلنده ، وأن بريطانيا العظمى وإرلنده لا يوحدهما سوى رباط ملكهما المشترك ، ولكن اقتراحه هزم . فأعلن المتطوعون الذين اجتمع منهم فى دنجانون ٢٥,٠٠٠ مقاتل (فبراير ١٧٨٢) انه لا ولاء لانجلتره إلا إذا منحت إرلنده الاستقلال التشريعى . وفى مارس سقطت وزارة اللورد نورث التى شاخت وخلفه فى الوزارة روكنجهام وفوكس . وكان المركيز كورنو اليس قد استسلم أثناء ذلك فى يوركتون (١٧٨١) ، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا فى الحرب ضد انجلتره . ولم يكن فى وسع بريطانيا أن تواجه ثورة ارلندية فى هذا الوقت . وعليه فى ٦ ابريل ١٧٨٢ أعلن البرلمان الإرلندى بزعامة جراتان استقلاله التشريعى ، وبعد شهر وافقت انجلتره على هذا التنازل . وقرر البرلمان الإرلندى منحة لجراتان قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكان رجلا فقيراً نسبياً ، فقبل نصفها .

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستنت إرلنده لا لكاثوليكها . فلما شرع جراتان — بتأييد قوى من الأسقف الانجليكانى فردريك هرفى — فى حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون « برلمان جراتان) هو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (١٧٩٢) ، فحصلت هذه القلة على حق التصويت دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم فى الوظائف البلدية أو القضائية . وذهب جراتان إلى انجلتره ، وحصل على انتخابه عضواً فى البرلمان البريطانى ، وهناك واصل حملته . ومات عام ١٨٢٠ ، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام ، وهو القانون الذى سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإرلندى ، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط ؛ إنها أيضاً عرجاء .

٢ — الخلفية الاسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام ١٧٠٧ اسكتلنده مع انجلتره بواسطة برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكتة أن الحوت قد ابتلع يونان (يونس) ؛ وعندما أدخل بيوت (١٧٦٢ وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين فى الحكومة البريطانية تذمر الظرفاء لأن يونان أخذ فى ابتلاع الحوت [٦] ، أما من الناحية السياسية فإن الحوت انتصر . فقد ضاع النبلاء الاسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط ١٠٨ نبيلا و ٥١٣ نائباً انجليزياً . وأسلمت اسكتلنده سياستها الخارجية ، وإلى حد كبير اقتصادها ، إلى تشريع يسوده المال الانجليزى والعقول الانجليزية . ولم ينس البلدان عداءهما السابق . فالاسكتلنديون يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والحوت ، وصموئيل جونسن ينوب عن الحوت فى عضة يونان بإصرار شوفينى .

وكانت اسكتلنده تضم فى عام ١٧٦٠ من السكان نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة . وكانت نسبة المواليد عالية ، ولكن نسبة الوفيات لحقت بها . وقد كتب آدم سمث حوالى ١٧٧٠ يقول : « قيل لى إنه ليس من غير المألوف فى إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلا ألا يبقى اثنان منهم أحياء» [٧]. وكان رءوساء القبائل فى الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن ، ويتركون الزراع فقراء فقراً بدائياً على تربة صخرية تبتلى بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبثلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو . وقد زيدت الإيجارات مراراً — فرفعت فى إحدى المزارع من خمسة جنيهات إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً [٨] . وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر فى وطنهم ، وهكذا « يستطيع زعيم القبيلة الجشع أن يحيل صنيعته برية فقراء » على حد قول جونسن : [٩] وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار . وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا فى مناجم الفحم والملح ، حيث كان العمال حتى عام ١٧٧٥ يربطون بأعمالهم حتى يموتوا [١٠] .

أما فى مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة وسطى متسعة ومغامرة . وانتشرت فى جنوب غربى اسكتلنده مصانع النسيج الكثيرة . وبفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو من ١٢,٥٠٠ فى عام ١٧٠٧ إلى ثمانين ألفاً فى عام ١٨٠٠ ؛ وكانت تضم ضواحى غنية ، ومبانى ذات شقق فى أحياء فقيرة مزدحمة ، وجامعة ؛ وفى ١٧٦٨ — ٩٠ شقت قناة ربطت نهرى كلايد وفورث ، فأنشأت بذلك طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربى الصناعى والجنوب الشرقى السياسى . وكانت ادنبره — التى ناهز سكانها خمسين ألفاً فى ١٧٤٠ — قلب حكومة اسكتلنده وثقافتها وموضاتها . وكانت كل أسرة اسكتلندية ميسورة الحال تتطلع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها ؛ وإليها أتى بوزويل وبيرنز ، وفيها عاش هيوم وروبرتسن وريبورن ، وهنا ظهر محامون ذائعو الصيت مثل ايرسكينز ، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة ، وجمعية ادنبره الملكية . وهنا كان المقر الرئيسى للمسيحية الاسكتلندية .

وكان الكاثوليك الرومان قلة ، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً لإحداث الزعر فى بلد مازال يتجاوب بإصداء دعوة يوحنا فوكس . وكان للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة الإنجليكان وطقوس التناول الانجليكانية . غير أن ولاء السواد الأعظم كان لكنيسة اسكتلنده ، « الكيرك البرزبتيريه » (المشيخية) التى رفضت نظام الأساقفة ، واختزلت الطقوس إلى أدنى حد ، ولم تقبل فى الدين والأخلاق حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها ، وشيوخ أقسامها ، ومجامع أقاليمها ، وجمعيتها العامة . ولعله لم يوجد بلد آخر فى أوربا — باستثناء أسبانيا — تشرب شعبه اللاهوت بمثل هذا العمق . وكان فى استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين المهرطقين ، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلنى أثناء الخدمة الدينية ، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين آرمر مثل هذا العقاب فى جلسة للكنيسة فى ٦ أغسطس ١٧٨٦ . وسيطر الإيمان بالأخرويات الكلفنية على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد ؛ غير

أن لفيفاً من القساوسة « المعتدلين» يتزعمهم روبرت ولسن وآدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية .

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدى لعربدة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يثمل ، ويعانى من قسوة الفقر ما يجعل لذته الوحيدة فى الجرى وراء الجنس . وسيرة بيرنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة ، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات . وقد طرأ على القوم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ فى الإيمان وفى التمسك بالفضائل التقليدية . ولاحظ وليم كريتش وهو مصور إدنبرى ، أن يوم الأحد فى سنة ١٧٦٣ كان يوم تعبد دينى ، ولكن فى ١٧٨٣ « لقى الحضور إلى الكنيسة إهمالا شديداً ، خصوصاً من الرجال » ، وكانت الشوارع فى الليل تضج بالشباب المنحل المشاغب « فى سنة ١٧٦٣ هناك خمسة مواخير أو ستة . . . وفى ١٧٨٣ ازداد عدد المواخير عشرين ضعفا ، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف . وابتلى كل حى فى المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتى استسلمن للرذيلة » (١١) . وكانت لعبة الجولف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى اللقاءات أيام الأحاد ، أما فى باقى أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة) ، ويذهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة) ، و يختلفون إلى سباقات الخيل ، ويقامرون فى الحانات والأندية .

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديمقراطية والتعليم . فكان شعبها يختار شيوخها ، وكان ينتظر من القسيس (الذى يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة فى كل أبرشيه . وكان الجوع للتعليم شديداً . وكانت جامعة سانت أندروز ، من بين الجامعات الأربع ، قد اضمحلت ، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة فى بريطانيا . وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة فى ١٧٧٣ . أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائى ، وتوماس ريد الفيلسوف ، وآدم سمث الاقتصادى ، فضلا عن إيوائها لجيمس وات . وأحدث الجامعات الأربع هى جامعة إدنبره ، ولكنها كانت تضطرب بما أتت به حركة التنوير الاسكتلندى من إثارة .

٣ — التنوير الاسكتلندى

لا يمكن أن يعلل تفجر العبقرية الذى أضاء اسكتلنده بين مبحث هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) وكتاب بوزويل « حياة جونسن » (١٧٩١) ألا بنمو تجارتها مع انجلترة والعالم وتقدم الصناعة فى إقليم السهول . ففى الفلسفة نبغ فرانسيس هتشيسن ، وديفد هيوم ، وآدم فيرجسن ؛ وفى الاقتصاد آدم سمث ؛ وفى الأدب جون هيوم [١٢] ، وهنرى هيوم (اللورد كيمس) ، ووليم روبرتسن ، وجيمس مكفرسن ، وروبرت بيرنز ، وجيمس بوزويل ؛ وفى العلوم جوزف بلاك ، وجيمس وات ، ونيفل ما سكالين ، وجيمس هاتن ، واللورد مونبودو [١٣] ؛ وفى الطب جون ووليم هنتر : [١٤] هؤلاء كوكبة تضارع النجوم التى سطعت فى انجلترة حول « الدب الأكبر » (جونسن) ! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما فى إدنبره « جمعية من الصفوة » للمناقشات الأسبوعية فى الأفكار . واتصل هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسى لا الإنجليزى ، من جهة لأن فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة باسكتلنده ، ومن جهة أخرى لأن الخصومة المستطيلة بين الانجليز والاسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين . وكان هيوم سيىء الظن بالفكر الانجليزى فى جيله ، إلى أن صدر كتاب « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » فى عام موته فرحب بصدوره شاكراً .

ولقد وفينا من قبل ديننا لهتشسن وهيوم [١٥] . فلنلق الآن نظرة على عدو هيوم الكريم النفس ، توماس ريد ، الذى كافح ليرد الفلسفة من الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعى . وقد ألف وهو يدرس فى أبردين وجلاسجو كتابه « بحث فى العقل البشرى حول مبادىء الفطرة السليمة » (١٧٦٤) ، وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشفوعة بخطاب مهذب يحمل تحياته ، ويشرح أسفه على اضطراره لمعارضة شكوكية صاحبه الأكبر سناً . ورد عليه هيوم بلطفه المعهود ، وطلب إليه أن ينشر الكتاب دون خوف من ملامة [١٦] .

وكان ريد قد سلم من قبل برأى باركلى القائل بأننا نعرف الأفكار فقط ،

ولا نعرف الأشياء أبداً . ولما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط ، دون أن نعرف مطلقاً « عقلا » ملحقاً بها ، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثقل بالتفاصيل غير الهامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب ، وبين الحق والباطل ، وكل إيمان بالله أو الخلود . وذهب إلى أنه اضطر لتنفيذ آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة ، ولكي يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلى .

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا ، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة وللتو ، و « من الإسراف فى الرهافة » فقط أن نخلل تجربتنا مع وردة مثلا ، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار ، والحزمة حقيقية ، ولكن الوردة أيضاً حقيقية ، وهى تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف إحساساتنا بها . والصفات الأولية — كالحجم والشكل والصلابة والنسيج والثقل والحركة والعدد — تنتمى بالطبع إلى العالم الموضوعى ، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية ، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعى بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية فى الشىء أو البيئة — الرائحة ، أو الطعم أو الدفء ، أو اللمعان ، أو اللون ، أو الصوت[١٧] .

والإدراك الفطرى السليم ينبئنا بهذا ، غير أن « مبادىء الإدراك الفطرى السليم ليست أهواء الجماهير الجاهلة ، إنما هى المبادىء الغريزية » التى يرشدنا تكوين طبيعتنا (أى الإدراك الذى نشترك فيه كلنا) إلى الإيمان بها ، والتى يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها فى الشئون المشتركة للحياة[١٨] ، وبالقياس إلى هذا الإحساس العام الذى يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة ، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء فى وحدته التى يهرب فيها من العالم ؛ بل إن هيوم نفسه ، باعترافه ، كان يلقى عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه[١٩] . ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك يرد الواقع إلى العقل : فليست الأفكار وحدها هى الموجودة ، فهناك كائن حى ، وعقل ، وذات ، لها الأفكار . واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام : فلكل لغة ضمير مفرد للمتكلم ، فـ « أنا » هو الذى يشعر ، ويتذكر ،

ويفكر ، ويحب . « لقد بدا أن من الطبيعي جداً التفكير فى أن « البحث فى الطبيعة البشرية » احتاج إلى مؤلف يكتبه ، ومؤلف فى غاية الذكاء والبراعة ، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة »[٢٠] .

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود ، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية ، ولكنه احترم مزاجه المسيحى ، ولعله أحس بالراحة فى دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجى موجود على كل حال ، برغم باركلى ، وأن هيوم موجود برغم هيوم . كذلك استشعر الجمهور القارىء أيضاً الراحة ، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد « البحث» قبل موته . وكان بوزويل من بين سرى عنهم ، فهو ينبئنا بأن كتاب ريد « هدأ عقلى الذى انتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدى الشكوكى»[٢١] .

وأضاف الفن اللون إلى عصر النور الاسكتلندى . فالأخوة « آدم » الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الانجليزية ، كانوا استكلنديين . وقد هاجر ألن رمزى (بن الشاعر ألن رمزى) إلى لندن (١٧٥٢) بعد أن أخفق فى نيل التقدير فى وطنه ادنبره ، وبعد سنوات من الكدح عين « مصوراً عادياً » للملك ، مما أثار حفيظة الفنانين الانجلبز . وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث[٢٢] ، وأحسن منها لزوجته هو[٢٣] . غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للتصوير .

أما السر هنرى ريبورن فكان رينولدز اسكتلنده . وكان ابنا لرجل صناعة فى ادنبره ، علم نفسه التصوير بالزيت ، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضائها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها . وبعد أن درس عامين فى إيطاليا عاد إلى ادنبره (١٧٨٧)، وسرعان ما تكاثر زبائنه فضاق وقته عن رسمهم ؛ رسم روبرتسن ، وجون هيوم ، ودوجالد ستيوارت ، وولتر سكوت ، وأفضل صوره صورة اللورد نيوتن — جسد هائل ، ورأس ضخم ، وشخصية من حديد امتزج بالباسان . وعلى النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذى وجده ريبورن فى زوجته[٢٤] . وكان أحياناً ينافس رينولدز

فى تصوير الأطفال ، كما نرى فى لوحته « أطفال دراموند » المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون . وقد أنعم على ريبورن بلقب الفروسية فى ١٨٢٢ ، ولكنه مات بعد عام بالغا السابعة والستين .

ثم تفوق التنوير الاسكتلندى فى مؤرخيه . فقد شارك آدم فيرجسن فى تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابه « مقال فى تاريخ المجتمع المدنى » (١٧٦٧) الذى طبع سبع مرات فى حياته . والتاريخ — فى رأيه — لا يعرف الإنسان إلا عائشاً فى جماعات ، فإن شئنا فهم هذا الإنسان وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس — مركب من عادات اجتماعية ورغبات فردانية . وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعى كلاهما يحدده تفاعل هاتين النزعتين المتعارضتين ، وندر أن تتأثر ا بأفكار الفلاسفة . والمنافسة الاقتصادية ، والخصومات السياسية ، وألوان التفرقة الاجتماعية ، والحرب ذاتها — كل أولئك مركب فى طبيعة البشر ، وسيظل كذلك أبد ، وهو يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنسانى .

وكان فيرجسن فى زمانه لا يقل شهرة عن آدم سمث ، ولكن صديقهما وليم روبرتسن فاقهما شهرة . ونحن يذكر أمنية فيلاند التى تمناها لشيلر مؤرخاً ، بأن « يرقى إلى مستوى هيوم ، وروبرتسن ، وجبون » [٢٥] . وقد تساءل هوراس ولبول فى ١٧٥٦ : « أيمكن أن يخطر لنا أننا نفتقد مؤلفين فى التاريخ مادام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء ؟ . . ان كتابة روبرتسن تمتاز بأصفى ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة » [٢٦] . وكتب جبون فى « مذكراته » يقول : « ان إنشاء الدكتور روبرتسن الذى بلغ الكمال ، ولغته المشبوبة ، ووقفاته المحكمة ، أثرت فى إلى حد التطلع الطموح إلى تأثر خطواته يوماً ما » [٢٧] ، وقال « ان الطرب يهزنى كلما وجدت نفسى معدوداً ضمن ثالوث المؤرخين البريطانيين » مع هيوم وروبرتسن [٢٨] . وقد عد هذين المؤرخين مع جويكاردينى ومكيافللى أعظم المؤرخين المحدثين ، ثم وصف روبرتسن فى تاريخ لاحق بأنه « أول مؤرخى العصر الحاضر » [٢٩] .

كان روبرتسن ، مثل ريد ، قسيساً وابن قسيس . عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو فى الثانية والعشرين (١٧٤٣) ثم أنتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية . وأصبح فيها قائد المعتدلين ، وقد حمى المهرطقين أمثال هيوم . وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدءوب للوثائق والمراجع ، أصدر عام ١٧٥٩ « تاريخاً لاسكتلنده فى عهد الملكة مارى وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش انجلتره » ، واختتم فى تواضع حيث بدأ هيوم كتابه « تاريخ انجلتره » . وقد أبهج الكتاب اسكتلنده لتجنبه عبادة مارى ملكة الاسكتلنديين ، وأبهج الانجليز بأسلوبه — رغم أن جونسن أضحكه أن يجد فيه بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع . وقد طبع الكتاب تسع طبعات فى ثلاثة وخمسين عاما .

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) ذا المجلدات الثلاثة . وفى وسعنا الحكم على مدى السمعة التى حظى بها من الثمن الذى نقده عليه الناشرون وهو ٤,٥٠٠ جنيه بالقياس إلى ٦٠٠ جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ اسكتلنده . وقد أثنت أوربا على الكتاب الجديد فى ترجماته المختلفة . وكانت كاترين الكبرى تحمله معها فى رحلاتها الطويلة ، وقد قالت « إننى لا أكف عن قراءته أبدا ، خصوصاً المجلد الأول منه » [٣٠] ، وقد أبهجها كما يبهجنا كلنا ذلك التمهيد الطويل الذى استعرض التطورات الوسيطة التى انتهت بمجىء شارل الخامس . والكتاب تقادم نتيجة الأبحاث اللاحقة ، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً . ومن دواعى السرور أن نلاحظ أن الثناء الذى ظفر به الكتاب ، والذى كان أعظم كثيراً من التفريط الذى ناله « تاريخ » هيوم ، لم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود .

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن ، الذى سوى جوته بينه وبين هومر ، ورفعه نابليون فوق هومر [٣١] فى ١٧٦٠ أعلن مكفرسن الذى كان آنئذ فى عامه الرابع والعشرين أن ملحمة على شىء من الطول والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال . وجمع المال فيرجسن وهيوبلير (وهو قسيس مشيخى مفوه

من ادنبره) . وجاب مكفرسن واثنان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الاسكتلندية وجزر الهبريد ، وجمعوا المخطوطات القديمة ، وفى ١٧٦٢ نشر مكفرسن كتابه « فنجال ، ملحمة قديمة فى ستة أجزاء . . . ألفها أوسيان ، بن فنجال ، وترجمت عن اللغة الغيلية » . وبعد عام نشر ملحمة أخرى ، اسمها « تيمورا » زغم أنها من تأليف أوسيان ، وفى ١٧٦٥ نشر الملحمتين بعنوان « أعمال أوسيان » .

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإرلندية والأسكتلندية) الإبن الشاعر للمحارب فن ماكومهيل (٣٢) ، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة ، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية للاهوت الجديد المجلوب إلى إرلنده على يد القديس باتريك . وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها فى ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر ، خصوصاً فى «كتاب لزمور» الذى جمعه جيمس ماكريجور فى ١٥١٢ ؛ وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات (٣٣) . وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب ، بعد أن هزم غزاة ارلنده الأسكتلنديين ، هؤلاء الغزاه إلى مأدبة ونشيد سلام ، والقصة مروية رواية تنبض بالحياة ، يدفئها تغزل الاسكتلنديين فى الفتيات الإرلنديات . يقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك ما أشبهك بالثلج فوق المرج . ان شعرك كضباب كروملا حين يتجعد فوق الربى ، حين يتألق لشعاع الغرب ! ونهداك صخرتان ناعمتان تريان من « برانو » ذى الجداول ، وذراعاك كعمودين ناصعى البياض فى أبهاء فنجال العظيم » (٣٤) . ثم نلتقى بنهود أخرى ، أقل تحجراً : « نهد أبيض » و «نهد نافر» و «نهد ممتلىء » (٣٥) ، وهى تلهى القارىء قليلا ، ولكن القصة لاتلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب .

وأثار « أوسيان » مكفرسن ضجة فى اسكتلنده ، وانجلتره ، وفرنسا ، وألمانيا . فرحب به الاسكتلنديون صفحة من ماضيهم الوسيط البطولى ، وكانت انجلتره مهيأة لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهى التى كانت فى ١٧٦٥ ترحب بكتاب يرسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » . أما جوته فقد أرانا فى ختام «آلام فرتر» (١٧٧٤) بطله يقرأ للوتى ست

صفحات من أوسيان . وكانت تحوى قصة دورا العذراء الرقيقة يرويها أبوها أومين : كيف أغرتها « الأرض » الشريرة واقتادتها إلى صخرة فى البحر بوعدها بأن حبيبها أرمار سيلقاها هناك ، وكيف تركتها الأرض على الصخرة ، وما من حبيب أتى . « فرفعت صوتها ، ونادت على أخيها وأبيها : ارندال ! أرمين ! » وجدف ارندال لينقذها ، ولكن سهما أطلقه عدو مختبىء فتاك به ، وجاء حبيبها أرمار إلى الشاطىء ، وحاول أن يسبح إلى دورا ، « ولكن ريحاً عاصفة من التل طغت فجأة على الأمواج ، فغاص فى اليم ، ولم يطف بعدها » . أما الأب الذى كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً :

« على الصخرة التى يلطمها اليم سمعنا ابنتى تستغيث وهى وحيدة . وكانت صرخاتها مترددة عالية فما الذى فى وسع أبيها أن يفعله ؟ لقد وقفت على الشاطىء الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل . . . وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلا على التل . وقبل أن ينبلج الصبح كان صوتها قد خفت ، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور . لقد قضت كمداً وحزنا .

« لقد ضاعت قوتى فى الحرب ، وسقطت كبريائى بين النساء ، وحين تهب العواصف العاتية ، وحين ترفع ريح الشمال الموج عالياً أجلس إلى الشاطىء الصاخب وأنظر إلى الصخرة القاتلة . وكثيراً ما أرى أشباح أطفالى على ضوء القمر الغارب . . . أما تتكلم أحدكم رحمة بى ! » (٣٦) .

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة : فهل « أوسيان » حقاً ترجمة عن الملاحم الغيلية العتيقة ، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعش قط ؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هردر وجوته فى ألمانيا ، وديدور فى فرنسا ، وهيوبلير ولورد كيمز فى اسكتلنده . ولكن فى ١٧٧٥ أعلن صموئيل جونسن فى كتابه « رحلة إلى جزائر اسكتلنده الغربية » بعد تحقيقات فى الهبريد (١٧٧٣) رأيه فى القصائد الأوسيانية : « أعتقد أنها لم توجد قط فى أى صورة إلا الصورة التى رأيناها عليها . فلم

يستطع المحرر ، أو المؤلف ، إبراز الأصل قط ، وان يستطيع ذلك غيره كائناً من كان » (٣٧) . وكتب مفكرسن لجونسن يقول إن شيخوخة الرجل الانجليزى وحدها هى التى تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه « علقه » . ورد جونسن « أرجو ألا توقفنى أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف . . . لقد كان رأيى فى كتابك أنه منقول ، ومازال رأيى فيه كذلك . . أما غضبك فإنى أتحداه » (٣٨) . وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه . ولما طلب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التى زعم أنه ترجمها تباطأ ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية ، استعمل بعضها فى وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها . وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء ، ولكن الملحمتين كانتا من إنشائه .

على أن الغش لم يكن بالشدة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن : فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً . والملحمتان الشعريتان النثريتان ، إذا أخذناهما فى ذاتهما ، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب . فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها ، وعن ضراوة الحقد ، وعن لذة الحرب . وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة فى الرقة ، ولكنهما جمعتا إليها بعض السمو الذى أوحى به السر توماس ما لورى قبل ذلك فى قصيدته « موت آرثر » (١٤٧٠) . وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التى غمرت حركة التنوير .

٥ — آدم سمث

كان آدم سمث بعد هيوم أعظم شخصية فى التنوير الاسكتلندى . وقد مات أبوه قبل مولده (١٧٢٣) بشهور ، وكان مراقباً للجمارك فى كركلدى . وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً فى حياة رجل الاقتصاد يوم خطفه الغجر وهو طفل فى الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طوردوا . وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسى فى كركلدى ، واختلف إلى محاضرات هتشسن فى جلاسجو ، ذهب إلى أكسفورد (١٧٤٠) حيث وجد المدرسين كسالى تافهين كما سيصفهم جبون فى ١٧٥٢ . وعلم سمث نفسه بالاطلاع ، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التى اقتناها من مبحث هيوم فى الطبيعة

البشرية بحجة أن الكتاب لايصلح اطلاقاً لشاب مسيحى . وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكلية ؛ وكان أكثر حباً لأمه ، فعاد إلى كركالدى ، وواصل استغراقه فى القراءة . وفى ١٧٤٨ انتقل إلى ادنبره ، حيث حاضر مستقلا فى الأدب والبيان . وقد أعجبت محاضراته بعض ذوى النفوذ ، فعين فى كرسى المنطق بجامعة جلاسجو (١٧٥١) ، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية — التى شملت الأخلاق ، والقانون ، والاقتصاد السياسى . وفى ١٧٥٩ نشر استنتاجاته الأخلاقية فى كتابه « نظرية العواطف الأخلاقية » ، الذى حكم الكل بأنه « أهم كتاب كتب فى هذا الموضوع الشائق » (٤٠) متجاهلا فى هذا الحكم أرسطو وسبينوزا .

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائى لتخيل أنفسنا فى موقف الغير ؛ فنحن بهذا نردد أصداء عواطفهم ، وبهذا التعاطف ، أو المشاركة الوجدانية ، نحمل على الاستحسان أو الاستهجان (٤١) . والحس الأخلاقى متأصل فى غرائزنا الاجتماعية ، أو فى العادات العقلية التى نتخذها بوصفنا أفراداً فى مجتمع ، ولكنه لايتعارض مع محبة الذات . وقمة التطور الأخلاقى للإنسان يبلغها حين يتعلم أن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين ، « وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادىء الموضوعية — مبادىء الإنصاف ، والقانون الطبيعى ، والحكمة ، والعدالة » (٤٢) . والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية ، ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعاث الناموس الأخلاقى من إله فى يده الثواب والعقاب (٤٣) .

وفى ١٧٦٤ عين سمث — الذى بلغ الآن الحادية والأربعين — معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتمش البالغ ثمانية عشر ربيعاً فى سياحة فى أوربا . وقد أتاح له الأجر الذى كان يتقاضاه فى هذه المهمة — وهو ٣٠٠ جنيه فى العام — الاطمئنان والفراغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التى بدأ كتابتها خلال إقامته فى تولوز ثمانية عشر شهراً . وقد زار فولتير فى فرنيه ، والتقى فى باريس بهلفتيوس ودالامبير وكرتيه وطورجو . فلما عاد إلى اسكتلنده عام ١٧٦٦ عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه فى كركلدى عاكفاً

على تأليف كتابه . وظهر الكتاب واسمه « بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها » عام ١٧٧٦ ، وقد رحب به هيوم فى رسالة بعث بها إلى سمث ومات بعدها بقليل .

وكان هيوم نفسه فى مقالاته قد أعان على تشكيل آراء آدم سمث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً . فقد سخر من « المذهب المركنتلى » الذى حبذ التعريفات الجمركية الحامية ، والاحتكارات التجارية ، وغيرها من الإجراءات الحكومية التى يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات ، والاستكثار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية للأمة . وقال هيوم ان هذه السياسة أشبه بالجهاد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعى ، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من « المعوقات التى لاتحصى عددها . . . والرسوم التى فرضها على التجارة جميع أمم أوربا وفاقتها كلها انجلتره فى هذا المضمار » (٤٤) . وكان سمث بالطبع على بينة من الحملة التى شنها كرتيه وغيره من الفزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتى فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات ، ومطالبتهم بسياسة من عدم التدخل تترك الطبيعة تجرى مجراها ، وتجد فيها جميع الأسعار والأجور مستواها فى منافسة حرة . وكانت الثورة الوليدة آنئذ فى أمريكا على القيود التى فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سمث . ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التى أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابه « إعلان الاستقلال » الأمريكى .

وكان لسمث آراء فى النزاع بين بريطانيا وأمريكا . فعنده أن الاحتكار الانجليزى لتجارة المستعمرات « من الذرائع الخبيثة التى يستخدمها النظام المركنتلى » (٤٥) . وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع مادام المستعمرون يرفضون أن تجبى منهم الضرائب لدعم نفقات الامبراطورية البريطانية « وبهذا الفراق ، فراق الأصدقاء المتفاهمين ، لن تلبث المودة الطبيعية التى بين المستعمرين ووطنهم الأم . أن تنتعش بسرعة ، وقد تحملهم . على إيثارنا فى الحرب كما يؤثروننا فى التجارة ، وبدلا من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى . . . وأكرم حلفاء لنا » (٤٦) . ثم أضاف

« لقد بلغ التقدم السريع الذى أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين ، بحيث قد لا ينقضى أكثر من قرن إلا قليلا حتى يزيد ما تغله أمريكا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية . وعندها ينقل مقر الامبراطورية — بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الامبراطورية الذى ساهم بأكبر نصيب فى الدفاع عن الكل وفى دعمه » (٤٧) .

وقد عرف سمث ثروة أمة من الأمم لا بأنها مقدار الذهب أو الفضة الذى تمتلكه ، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها ، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية ، وهذا مع بعض الاستثناءات . وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس ، ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوى بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أى نظام آخر عرفه التاريخ ، (وهذه الفكرة هى فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل (٤٨) . فى شرح تفصيلى) وقد آمن سمث بأن قوانين السوق — خصوصاً قانون العرض والطلب — ستنسق بين حرية المنتج ومصلحة المستهلك ؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه ، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح فى نطاق حدود معقولة . ثم ان المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية . ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقرر إلى حد كبير أى السلع تنتج ، وأى الخدمات تقدم وبأى مقدار وثمن ، بدلا من أن تملى الحكومة كل هذه الأمور .

واتباعاً للفزيوقراطيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كناتج الأرض) دعا سمث لإنهاء الرسوم الإقطاعية ، والقيود النقابية ، واللوائح الاقتصادية الحكومية ، والاحتكارات الصناعية أو التجارية ، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التى تتيح التحرك بعجلات الإنتاج والتوزيع ، بسماحها للفرد بأن يعمل ، وينفق ، ويوفر ، ويشترى ، ويبيع كما يشاء . وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها ، وأن تترك الطبيعة — أى نوازع الناس الفطرية — تعمل طليقة ، وأن تسمح

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه ، وأن يجد عن طريق التجربة والخطأ العمل الذى يستطيع أداءه ، والمكان الذى يستطيع شغله ، فى الحياة الاقتصادية ، وأن تدعه يغرق أو يعوم .

« إننا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا ، لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها » . . . أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى ؛ وثانيها واجب حماية أى عضو فى المجتمع ، بجهد الاستطاعة ، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه ، أى واجب إرساء إدارة صارمة للعدالة ؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التى لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أى فرد ، أو أى نفر قليل من الأفراد ، القيام بها أو الإنفاق عليها (٤٩) .

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية ، والهيكل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وتترعرع جداً .

على أن الصيغة كانت تنطوى على ثغرة . فما الرأى إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكرين أو الأقوياء للسذج أو الضعفاء استخداما غير إنسانى ؟ وقد أجاب سمث : أن ظلماً كهذا لا ينجم إلا عن الاحتكارات المقيدة للمنافسة أو التجارة ، وقد عدت مبادئه لإلغاء الاحتكارات . ويجب أن نعتمد فى تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال ، وتنافس العمال على الأعمال ؛ وكل المحاولات التى تبذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلا أو آجلا . ومع أن العمل (لا الأرض كما أعتقد الفزيوقراطيون) هو المصدر الوحيد للثروة (٥٠) ، إلا أنه سلعة ، شأنه شأن رأس المال ، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب . « كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال ، كان التنظيم دائماً بخفض هذه الأجور لا رفعها » (٥١) ، وذلك لأنه « كلما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم ، كان مستشاروها دائماً هم السادة » (٥٢) . وهذا الكلام كتب فى وقت كان فيه القانون الانجليزى يجيز لأرباب العمل ، ويحرم على العمال ، تنظيم أنفسهم حماية لمصالحهم الاقتصادية . وقد ندد سمث بهذا التحيز من جانب القانون ،

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومى بل بالتنظيم العمالى[٥٣] .

وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الإنحياز إلى العمال ضد أصحاب الأعمال . فحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة الحكومة :

« ان مصلحة التجار . . . فى أى فرع من فروع التجارة أو الصناعات هو دائماً مختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور . . . واقتراح أى قانون جديد ، أو أى تنظيم للتجارة ، يصدر عن هذه الطبقة ينبغى دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر . . . فهو صادر عن طبقة من الناس . . . لهم بوجه عام مصلحة فى أن يخدعوا الجمهور بل أن يبغوا عليه ، وهم . . . فى مناسبات كثيرة خدعوه وبغوا عليه أيضاً »[٥٤] .

أهذا آدم سمث أم كارل ماركس ؟ غير أن سمث دافع عن الملكية الخاصة لأنها حافز لا غنى عنه للجرأة والمغامرة ، وآمن بأن عدد الأعمال المتاحة ، والأجور المدفوعة ، سيتوقف أولا وقبل كل شيء على تجميع رأس المال واستخدامه[٥٥] . ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء[٥٦] ، وألح على إلغاء الرق على أساس أن « العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من ذلك الذى يؤديه العبيد »[٥٧] .

وحين ننظر إلى سمث ذاته ، فى مظهره ، وعاداته ، وخلقه ، نعجب كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة والتجارة فى هذه الموضوعات المعقدة المتخصصة بمثل هذه الواقعية والبصيرة والجرأة . لقد كان شارد الذهن كنيوتن ، قليل الأعتداد بالعرف والتقاليد ، ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً ، فقد كان فى وسعه أن يقابل جلافة صموئيل جونسن برد سريع من كلمات أربع تتشكك فى شرعية نسب « الخان الأكبر » . وبعد نشر كتابه « ثروة الأمم » قضى عامين فى لندن حيث استمتع بالتعرف إلى جبون ورينولدز وبيرك » وفى ١٧٧٨ عين — رسول حرية التجارة هذا —

رئيساً للجمارك المتحصلة من استكلنده . وبعدها عاش فى ادنبره مع أمه ، وظل عزباً إلى النهاية . وقد ماتت أمه فى ١٧٨٤ ، ولحق بها فى ١٧٩٠ بالغا السابعة والستين .

وسر إنجازه الكبير ليس فى أصالة تفكيره بقدر ما هو فى التمكن من بياناته والتنسيق بينها ، وفى غنى مادته التوضيحية ، وفى التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية ، وفى أسلوبه البسيط الواضح المقنع ، وفى نظرته العريضة التى رفعت الاقتصاد من مرتبة « العلم الكئيب » إلى مستوى الفلسفة . وكان كتابه علامة عصر لأنه محص وفسر — ولم ينتج بالطبع — الحقائق والقوى التى أخذت تحول الاقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة . وحين خفض بت الثانى الضريبة المفروضة على الشاى من ١١٩٪ إلى ١٢ ½٪ وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر ، اعترف بدينه لكتاب « ثروة الأمم » . ويخبرنا اللورد روزبرى فى حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت ، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقوفاً حين دخل سمث وقال بت « سنظل واقفين حتى تجلس ، لأننا جميعاً تلامذتك »(٥٨) . وقد تنبأ السر جيمس مرى — بلتنى بأن كتاب سمث « سيقنع الجيل الحاضر ويحكم الجيل القادم » (٥٩) .

٥ — روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء اسكتلنده « إن دمى القديم الخسيس قد اندس إلى من أوغاد عاشوا منذ الطوفان » (٦٠) ولكننا لن نتقصى نسبه لأبعد من وليم بيرنز ، الذى لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد. وفى ١٧٥٧ تزوج آجنس براون ، التى أهدته روبرت فى ١٧٥٩ . وبعد ست سنوات استأجر وليم مزرعة مساحتها سبعون فداناً فى ماوت أوليفانت ، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقتير فى بيت منعزل . وتلقى روبرت تعليمه فى البيت واختلف إلى مدرسة الأبرشيه ، ولكنه اشتغل فى المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة . فلما ناهز الرابعة عشرة « أدخلتنى صبية جميلة ، لطيفة مرحة ، فى عاطفة حارة لذيذة أراها برغم خيبة الأمل المرة ، والحكمة

الثقيلة ، والفلسفة الغارقة فى الدرس ، أروع المباهج البشرية»[٦١] . وفى الخامسة عشرة التقى بـ « ملاك » ثان وسهر الليالى المحمومة مفكراً فيها . . وقد استحضر أخوه إلى الذهن أن « تعلق روبرت بالنساء اشتد كثيراً ، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه » [٦٢] .

وفى ١٧٧٧ وفى نوبة من الشجاعة المستهترة ، استأجر وليم بيرنز مزرعة لوخلى ، ومساحتها ١٣٠ فداناً ، فى تاربولتن ، التى تعاقد على أن يدفع فيها ١٣٠ جنيها فى العام . وأصبح روبرت الذى بلغ الآن الثامنة عشرة ، والذى كان أكبر أبناء سبعة ، العامل الأول فى المزرعة لأن وليم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذى لا غناء فيه . وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول فى البيورتانية ، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب . وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له . قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة « ومن مثل التمرد ذاك شعر بضرب من الكراهية لى ، وكان هذا فى اعتقادى من أسباب ذلك الفسق الذى اتسمت به سنواتى المستقبلة » [٦٣] : وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسونى . وفى ١٧٨٣ صودرت المزرعة للتخلف فى دفع الإيجار . وكتل روبرت وأخوه جلبرت مواردهما الضئيلة ليستأجرا مزرعة مساحتها ١١٨ فداناً نظير تسعين جنيهاً فى العام ، وراحا يكدحان فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيهات لكل منهما فى العام لنفقاتهما الشخصية ، وهناك عالا أبويهما وشقيقاتهما وأشقاءهما . ثم مات الأب بالسل فى ١٧٨٤ .

وقرأ روبرت فى ليالى الشتاء الطويلة الكثير من الكتب ، ومنها تواريخ روبرتسن ، وفلسفة هيوم ، والفردوس المفقود . « اعطنى روحاً كروح بطلى المفضل ، شيطان ملتن » [٦٤] . فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفى بإيمان غامض بالله والخلود . وقد سخر من أولئك « السنيين ، الذين يؤمنون بيوحنا فوكس ، « وناصره الذان بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الآحاد يأثمون خفية كما يأثم [٦٥] . وقد وصف فى قصيدة « المهرجان المقدس » (التى تدور حول اجتماع للإنعاش الدينى (سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

بالجحيم ، بينما تنتظر المومسات فى ثقة خارج الاجتماع زبائنهن من جمهور المصلين .

واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه ويغرمه عقاباً على معاشرته لبتى باتن دون أن يكون زوجاً لها . ثم استحال البغض غضباً حين وبخ مجلس كنيسة موكلين (١٧٨٥) مالك أرضه اللطيف ، جافن هاملتن ، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة . وكتب الشاعر الآن أقذع أهاجيه «صلاة القديس ولى» التى سخرت من فضيلة وليم فشر المرائية ، وكان من شيوخ كنيسة موكلين . فصوره بيرنز يخاطب الله قائلا :

إنى أبارك وأحمد قدرتك التى لاضريب لها ،
إذ تركت الألوف فى الليل ،
لتأتى إلى هنا وأنا أمام ناظريك
طالباً عطاياك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً
لهذا البيت كله . . .
رباه إنك عليم بأننى كنت البارحة مع مج . . .
لذلك أطلب عفوك مخلصاً . . .
أواه ! لا تكن هذه الفعلة لطخة دائمة
تلوث شرفى ،
ولن أرفع ساقاً خاطئة
فوقها مرة أخرى .
ثم لابد أن أعترف
بأننى كنت مع ابنة ليزى ثلاث مرات ،
ولكنى كنت ياربى مخموراً فى يوم الجمعة ذاك
حين دنوت منها ،

وإلا فما كان عبدك
ليجرؤ على اغوائها قط . . .
ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن يهجر الكنيسة ،
ويسكر ويحلف ويلعب الورق
ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة
للناس كبيرهم وصغيرهم ،
وهو يسرق قلوب الناس
من القس الذى اصطفاه الله . . .
رب أدنه فى يوم انتقامك ،
رب ابتل من استخدموه
ولا تغض عنهم فى مراحمك
ولا تستمتع إلى صلاتهم !
ولكن لأجل شعبك أهلكهم
ولا تبق منهم أحداً .
ولكن إذكرنى يارب وكل ما أملك
بمراحم أرضية وسماوية ،
حتى أضىء بالنعمة والثراء
ولا يبزنى فى ذلك أحد ،
وليكن لك كل المجد
آمين ، آمين !

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بثلاث سنين .

وكان فى غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريعه ، فقد

لقب نفسه « زانياً محترفاً » (٦٦) . وكانت كل عذراء جديدة تثير عاطفته : «كلاو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية » ، وجين آرمر ، وماری کامبل الهايلاندية ، وبجي تشالمرز ، و«كلارندا » ، وجنى كروكشانك ، وجنى الدالريه « مقبلة خلال الجاودار » و« الصغيرة الحلوه » دبورا ديفز ، وآجنس فلمنج ، وجنى جافری ، وبجی کنلدی الساکنة « نهير دون الجميل » ، وجسى ليوارز ، وجين لوريمر (كلوريس) ، ومارى موريسن ، وآنا بارك ، وآنا ويلى ستيوارت ، وبجي طومسن — وغيرهن (٦٧). ولم يعوضه عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرقة الضاحكه ، وأيديهن الناعمة وصدورهن الناصعة مثل « الثلج المتساقط » . وقد اعتذر عن تقلبه الجنسى بأن كل الأشياء فى الطبيعة تتغير ، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة ؟ (٦٨) ولكنه حذر النساء من الثقة بوعود الرجل (٦٩) . ونحن نعلم أنه أنجب خمسة أطفال من زواجه ، وتسعة بغير زواج . قال « إن لى عبقرية فى الأبوة » وخيل إليه أنه لا شفاء له إلا أن يخصى (٧٠) . أما عن توبيخات القساوسة وقوانين اسكتلنده :

فلتتضافر الكنيسة والدولة لتنهيانى
عن فعل ما لا ينبغى أن أفعل .
فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم
أما أنا فذاهب إلى حبيبتى آنا (٧١) .

فلما ولدت له بتى باتن طفلا (٢٢ مايو ١٧٨٥) عرض أن يتزوجها ، ولكن أبويها رفضا العرض . فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاها تعهداً كتابياً بالزواج ، ولم تلبث أن حملت . وفى ٢٥ يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة وأعترف بمسئوليته . وقال إنه كان يعد نفسه متزوجاً من جين ، وأنه موف بعهده ؛ ولكن أباها رفض أن يزوجها لفلاح فى السابعة عشرة مثقل بطفل غير شرعى . وفى ٩ يوليو تلقى بيرنز من مقعده فى الكنيسة التوبيخ العلنى فى اتضاع . وفى ٣ أغسطس ولدت جين توأمين . وفى ٦ أغسطس قبل هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و « أحلا من الفضيحة » وأقسم الأب ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز ؛ فاختبأ الشاعر وخطط أن يركب البحر

إلى جميكا ، ولم ينفذ أمر القبض ، وعاد روبرت إلى مزرعته. فى ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج مارى كامبل وأن يصطحبها إلى أمريكا ؛ ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة ؛ وقد أحيا بيرنز ذكراها فى قصيدتيه « مارى الهايلاندية » و « إلى مارى التى فى السماء » (٧٢) .

فى ذلك العام الحافل بالإنتاج (١٧٨٦) نشر فى كلمارنوك أول دواوين شعره بالإكتتاب . وحذف من الديوان القصائد التى قد تسيء إلى الكنيسة او أخلاقيات الشعب ، وأبهج قراءه بلهجته الأسكتلنديه وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة ؛ وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم . ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التى تشارك فى أعباء يوم الفلاح ، أو « الخروف الأبله » الحائر وسط الثلج المنهمر ، أو الفأر الذى أزاحه عن جحره الحراث القادم .

ولكنك يا جرذى لست الوحيد
الذى يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلا ،
فكثيراً ما تخطىء أشد خطط الفيران والناس احكاما .

ويكاد يبلغ مبلغ هذه الأبيات فى جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التى تختم قصيدته المسماه « إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبعة سيدة فى الكنيسة » :

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن
نرى أنفسنا كما يرانا الغير (٧٣) .

ولكى يضمن بيرنز الترحيب بديوانة الصغير توجه بقصيدة سماها « ليلة سبت الفلاح » : قصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد ؛ وزوجته وأطفاله يلتفون به كل يحكى قصة من قصص نهاره ؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الخطيب الخجول فى تردد واحجام ؛ ثم المشاركة السعيدة فى الطعام البسيط ؛ والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته ؛ ثم الصلاة الجماعية ؛ وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناجاة وطنية لـ « اسكتلنده ، أرضى ووطنى الحبيب ! » وبيع كل المطبوع من النسخ إلا ثلاثا وعددها ٦١٢ فى

أربعة أسابيع ، وبلغ صافى حصيلة بيرنز منها عشرين جنيها .

وكان قد فكر فى أن يستخدم هذه الحصيلة فى دفع أجر الرحلة إلى أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها فى أدنبره . فلما بلغها على جواد استعاره فى نوفمبر ١٧٨٦ اقتسم حجرة وسريرا مع فتى ريفى آخر . وكان يشغل الطابق الذى يعلوهما بعض المومسات الصاخبات . وفتح له الأبواب نقاد أدنبره الأدبيون ، فكان معبود المجتمع المهذب طوال موسم . ووصفه السير ولتر سكوت بهذه العبارات :

« كنت صبيا فى الخامسة عشرة عام ١٧٨٦ — ٨٧ حين وفد بيرنز أول مرة على أدنبره . . . ورأيته يوما فى بيت الأستاذ فيرجسون المحترم ، حيث التقى نفر من السادة ذوى الشهرة الأدبية . . وكان شخصه قويا عفيا ، فيه جهامة ريفية بغير جلافة ، عليه سيماء البساطة والصراحة والوقورين . وجهه ضخم والعين واسعة سوداء اللون ، تتألق . . . إذا تكلم . . . وكان فى مجلسه من هؤلاء الرجال ، وهم صفوة المثقفين فى جيلهم ووطنهم ، يعبر عن رأيه فى قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف » (٧٥) .

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده . ولكى يضيف إلى ديوانه الجديد مزيدا من المادة اعتزم أن يضمنه قصيدة من مطولاته اسمها «الشحاذون المرحون» لم يجرؤ من قبل على طبعها فى ديوان كلمارنوك وقد وصفت القصيدة تجمعا للمتشردين ؛ والصعاليك ، والمجرمين ، والشعراء ، والعابثين ، والبغايا ، والعجزة ، والجنود المنبوذين ، فى خمارة نانسى جبسن بمدينة موكلين . ثم وضع بيرنز فى أفواههم أصرح السير الذاتية وأمعنها فى الخطيئة ، واختتم هذا الخليط بكورس مخمور :

« ما أتفه الذين يحميهم القانون !
إن الحرية مأدبة فاخرة !
وقصور الملوك لم تبن إلا للجبناء .
وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعاتها (٧٦) »

وهالت الدارس والواعظ هيو بلير فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

فأذعن بيرنز ، وسبى بعد ذلك به نظم هذه القصيدة ، (٧٧) وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور فى ١٧٩٩ .

وباع المشرف الأدنبرى على النشر نحو ثلاثة آلاف نسخة ، خلص منها لبيرنز ٤٥٠ جنيها . فاشترى فرسا ركبها فى رحلة إلى إقليم المرتفعات (٥ مايو ١٧٨٧) ثم عبر نهر تويد ليرى طرفا من انجلترة . وفى ٩ يونيو زار أقاربه فى موسجيل ، وألم بجين آرمر ، فرحبت بمقدمه ، وحبلت مرة أخرى . فلما عاد إلى أدنبره التقى بمسز أجنيس ملهيوز . وكانت قد تزوجت جراحا من جلاسجو وهى فى السابعة عشرة ، ثم تركته فى الحادية والعشرين (١٧٨٠) مصطحبة أطفالها واستقرت فى العاصمة فى عيشة كريمة مدبرة . فدعت بيرنز إلى بيتها ، ووقع فى غرامها دون إبطاء ، ويبدو أنها لم تسلمه نفسها ، لأنه ظل مقيما على حبها ، وتبادلا الرسائل وقصائد الشعر ؛ وكان توقيعه عليها باسم « سيلفاندر » وتوقيعها « كلاريندا » . وفى ١٧٩١ قررت أن ترحل وتلحق بزوجها فى جميكا . وبعث إليها بيرنز أبياتا رقيقة على سبيل الوداع .

قبلة حارة واحدة ثم نفترق ،
وداع واحد ، ثم لا لقاء بعده !
لو لم نحب هذا الحب الرقيق ،
ولو لم نحب هذا الحب الأعمى ،
ولو لم نلتق ولو لم نفترق ،
لما تحطم قلبانا قط (٧٨) .

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية ، فعادت إلى أدنبره .

أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها ، فقد التمس الصحبة والقصف فى ناد محلى يسمى « المدافعين عن كروكلان » — رجال تعاهدوا على الدفاع عن مدينتهم . هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة » ، والفسق السيد المتسلط . وقد جمع بيرنز لأجابهم الأغانى الأسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده ؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سرا وغفلا عن اسم الشاعر عام ١٨٠٠ بعنوان « عرائس شعر كلدونيا المرحات » . وقد قضى على ترحيب

مجتمع أدنبره الراقى ببيرنز سريعا انتماؤه إلى هذا النادى ، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقية (٧٩) ، وإعرابه الصريح عن الآراء المتطرفة فى الدين والسياسة .

ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب . فلما صد عنها غير مرة ، راض نفسه على مغامرة جديدة فى الفلاحة . ففى فبراير سنة ١٧٨٨ استأجر مزرعة إليسلاند ، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز ، واثنى عشر من كريجنيتوك مدينة كارليل . وأقرض مالك المزرعة الشاعر ٣٠٠ جنيه ليبنى بيتا فى المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة فى غير مواربة بأنها « فى أسوأ حالات الإنهاك » (٨٠). واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيها كل عام على امتداد ثلاث سنين ، ثم سبعين . وولدت جين آرمز أثناء ذلك توأمين (٣ مارس سنة ١٧٨٨) لم يلبثا أن ماتا . وتزوجها بيرنز قبل ٢٨ ابريل بقليل ، وأقبلت بطفلها الوحيد الذى بقى لها من أطفالها الأربعة الذين ولدتهم له لتخدمه زوجة ومديرة لبيته فى اليسلاند . وأنجبت له طفلا آخر سماه بيرنز « رائعتى فى ذلك النوع من الصناعة ، لأنى أرجو أن يكون « فام أو شانتر » إنجازى القياسى فى الميدان السياسى » (٨١) وفى سنة ١٧٩٠ توثقت علاقته بآنا بارك ، الساقية فى حانة دمفريز ، وفى مارس سنة ١٧٩١ ولدت له طفلا أخذته جين وربته مع أطفالها . (٨٢)

وكانت الحياة شاقة فى إليسلاند ، ولكنه واصل قرض الشعر الرائع . وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها «الأيام الخوالى» وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل . واغتبط حين عين (١٤ يوليو سنة ١٧٨٨) مفتش إنتاج ، يجوب البلاد ليعاير البراميل ، ويفتش على أصحاب المطاعم ، والشماعين ، ويقدم تقاريره لمجلس إنتاج أدنبره . ويبدو أنه أرضى المجلس رغم كثرة شجاره مع جون باركيكورن . وفى نوفمبر سنة ١٧٩١ باع مزرعته بربح ، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت فى دمفريز .

وقد آذى شعور أهل المدينة الوقورين بترد ده على الحانات ، وعودته مرارا إلى جين الصابرة وهو ثمل بالخمر . (٨٣) على أنه ظل شاعرا فحلا ،

فى تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد : يا ضفاف نهر دون الجميل ومروجه » و « إلى الأسكتلنديين الذين أريقت دماؤهم مع ولاس » و « حبيبتى أشبه بوردة حمراء حمراء » . وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسس دنلوب ، التى كان يزورها أحيانا وكان فى عروقها أثارة من دم ولاس ، لأنه افتقد فى زوجته الرفيق الفكرى . وقد جاهدت هذه الشيدة لترويض أخلاق برنز ولغته ، ولم يكن ذلك دائما لفائدة شعره . وكان أكثر تقديرا لأوراق البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة ، التى كانت توافيه بها بين الحين والحين .(٨٤)

وقد عرض وظيفته فى تفتيش الإنتاج للخطر بآرائه االتطرفة . فأشار على جورج الثالث فى خمسة عشر مقطعا رائعا أن يتخلص من وزرائه الفاسدين ، ونصح أمير ويلز (ولى العهد) بأن يكف عن فجوره ، وعن إسرافه فى لعب القمار مع تشارلى (فوكس) « إن شاء أن يرث العرش(٨٥) . وفى خطاب أرسله لصحيفة أدنبره « كورانت » صفق لإعلان الاستقلال الأمريكى . وفى سنة ١٧٨٩ كان « نصيرا متحمسا » للثورة الفرنسية . وفى سنة ١٧٩٥ فجر لغما على فوارق المراتب .

أبسبب الفقر الشريف
ينكس الفقير رأسه ويخزى ؟
إنا لنمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به ،
وإنا نجوؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله ! .
ورغم أن كونا وكدحنا مجهولان مغموران .
أن المراتب ليست سوى خاتم الجنيه ،
أما الإنسان فهو الذهب رغم هذا كله .

* * *

إن الرجل الشريف ، وان اشتد فقره
أمير القوم رغم هذا كله .

* * *

أترى ذلك الرجل الذى يلقبونه لوردا
والذى يختال فى مشيته ويحدق فى الناس ،
إنه ليس إلا غبيا أحمق رغم هذا
وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

* * *

إذن لنصل ليأتى ذاك اليوم ،
وهو آت لاريب فيه رغم هذا كله ،
يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار فى كل الأرض قاطبة
إنه آت رغم هذا كله ،
يوم يقف الرجل أمام الرجل
إخوانا فى بقاع الأرض .

وتوالت الشكاوى على مجالس الانتاج تقول أن رجلا متطرفا كهذا ليس بالرجل الذى يصلح للتفتيش على الشماعين ومعايرة براميل الخمر ، ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لحبه لاسكتلنده واشادته بها . وكانت الجنيهات التسعون التى أتته بها وظيفتـه لا تكاد تتيح له الخبز والكأس ، وواصل تشرده الجنسى ، وفى ١٧٩٣ ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل التى اعترفت بـ « قوة جاذبيتى التى لا تقاوم » وأضعف إدمانه الخمر عقله وكبرياءه آخر الأمر . فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل موتسارت فى هذا العقد ذاته .[٨٦] ورددت الشائعات أنه مصاب بالزهرى ، وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد فى يناير ١٧٩٦ ملقى وسط الثلوج وهو سكران .[٨٧] وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لا سند لها ، ويشخص الأطباء الاسكتلنديون مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية آذت قلبه .[٨٨] وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول « أرجوك بالله أن ترسل السيدة آرمرالينا فوراً ، فزوجتى تتوقع كل ساعة أن تلزم الفراش . رباه ! أى موقف يمكن أن تقفه المرأة المسكينة وهى بغير صديق ! .[٨٩] ثم لزم فراشه ومات فى ٢١ يوليو ١٧٩٦ . وبينما كانوا

يوارونه التراب ولدت زوجته إبنا . وجمع أصدقاؤه بعض المال للعناية بها ، وقد عمرت إلى عام ١٨٣٤ لأنها كانت صلبة العود قوية القلب .

٦ – جيمس بوزويل (*)

١ – الشبـــل

كان يجرى فى عروقه الدم الملكى . فأبوه الكسند بوزويل ، سيد ضيعة أوخنلك فى ايرشير والقاضى بمحكمة اسكتلنده المدنية العليا ، سليل لأيرل أران ، وهو جد بعيد لجيمس الثانى ملك اسكتلنده . أما أمه فتحدرت من إيرل افوكس الثالث ، وكان جد اللورد دارنلى ، الذى كان أبا جيمس السادس . وقد ولد جيمس بوزويل بأدنبره فى ٢٩ أكتوبر ١٧٤٠ . وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الوريث لضيعة أوخنلك المتواضعة (وكان ينطقها آفليك) ، ولكن بما أن أباه عمر حتى ١٧٨٢ ، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجريه عليه اللورد من دخل . وأصيب أخوه جون فى ١٧٦٢ بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها فى غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء . وقد علمته أمة العقيدة

(*) كان اكتشاف يوميات بوزويل من أشد الأحداث إثارة فى تاريخ عصرنا الأدبى . وكان قد أوصى بأوراقه لورثته الذين رأوا فيها من الفضائح ما لا يسيغ نشرها . وقد عثر على رزمه منها تحتوى « يومية لندن » فى فتركيرن هاوس ، قرب أبردين ، عام ١٩٣٠ . واستكشف كنز أكبر من صناديق وخزانات قلعة مالاهايد قرب ديلن ، فى ١٩٢٥ – ٤٠ . واشترى الكولونل رالف ايشام معظم الأوراق ، ثم اشترتها منه جامعة ييل . وقد حققها الأستاذ فردريك أ . بوتل لشركة ماكجرو – هل للنشر ، وهى صاحبة الحق الوحيدة فى نشرها . . ونحن شاكرون للمحقق وللناشر الاذن لنا بنقل بعض الفقرات من اليومية . وقد ظهر كتاب الأستاذ بوتل « جيمس بوزويل : السنوات الأولى » بعد كتابة هذا الفصل . .

الكلفينة المشيخية التي كانت تنبض بدفء تفردت به . كتب في تاريخ لاحق يقول « لن أنسى ما حييت ساعات الخوف التعسة التي تحملتها في صباي نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين ، بينما كان عقلي يمزقه رعب جهنمي »(٩٠) . وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك ، وبين التقوى والإنغماس في لذة الجنس . ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقتي أو اطمئنان عابر .

وبعد أن تلقى الدروس في البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبره ، ثم إلى جلاسجو ، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سمث ودرس القانون . وفي جلاسجو التقى بالممثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكياً . وبدا له أن مذهبهم أكثر من الكلفنية توافقاً مع الحياة المرحة ، وأعجبته بوجه خاص عقيدة المطهر التي تسمح للخاطيء بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق . فركب جيمس فجأة واندلق إلى لندن (مارس ١٧٦٠) وانضم إلى كنيسة روما .

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلنتن يناشده أن يرعى جيمس ، وكان الرجل جاراً من جيرانه في إيرشير يسكن لندن . وقال الايرل للشاب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة ، أو يدخل البرلمان ، أو يرث أوخنلك . فنقل جيمس إلى اسكتلنده وكنيستها ، وعاش تحت سقف أبيه وبصره ، ولكن لما كان القاضي مشغولا ، فقد أفلح إبنه في أن يلتقط عدوى مرض سرى «(٩١) وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السري . وخاف الأب أن يبدد الفتى الطائش ميراث أوخنلك على اللهو والعربدة حين يرثها ، فأقنعه لقاء راتب سنوي قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة يكل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلا لأوصياء يعينهم بوزويل الأب .

وفي ٢٩ أكتوبر ١٧٦١ بلغ جيمس سن الرشد ، فضوعف راتبه السنوي . وفي مارس التالي حبلت منه جي دويج ، وفي يوليو جاز امتحان المحاماه . وفي أول نوفمبر ١٧٦٢ انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبجي عشرة جنيهات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام ، ولكن بوزويل لم يره قط) .

وإتخذ له فى لندن غرفة مريحة فى داوننج ستريت . ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه « تعس حقاً لافتقاره إلى النساء » [٩٢]، ولكنه تذكر مرضه المعدى ، ثم إن « أتعاب الجراحين فى هذه المدينة باهظة » [٩٣]. وعلى ذلك تجلد لحياة العفة « حتى أعثر على فتاة مأمونة ، أو تحبنى امرأة من نساء المجتمع العصرى » [٩٤]. وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغوانى ، « من السيدة الفخمة التى تتقاضى خمسين جنيهاً فى الليلة إلى الحورية اللطيفة . . . . التى تسلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد » [٩٥]. واتصل بـ « ممثلة مليحة » تدعى لويزة ، بدا له أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية . وأخيراً أغراها ، وحقق نشوة مخمسة ، « وقد صرحت بأننى أعجوبة » [٩٦]. وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسيلان . وفى ٢٧ فبراير شعر أنه شفى ، وفى ٢٥ مارس التقط مومساً من عرض الطريق و « باشرها وهو مدرع » (بكيس واق) . وفى ٢٧ مارس « سمعت صلاة فى كنيسة سانت ونستن » وفى ٣١ مارس « تمشيت فى هايدپارك وأخذت أول بغى لقيتها » [٩٧] وتسجل « يومية لندن » التى خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية — فى جسر وستمنستر ، وفى حانة « هد تافرن » التى كان يرتادها شكسبير ، وفى هايد بارك ، وفى حانة على الستراند ، وفى محاكم التمبل ، وفى بيت الفتاة .

وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً فى صورة رجل ، وحشد هذه الأحداث المتفرقة فى فقرة واحدة يعطى انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه . أما الجانب الآخر فهو « حبه الحار لعظماء الرجال » [٩٨]. وأول صيد له فى هذا كان جاريك ، الذى استطاب مدائح بوزويل وأحبه لتوه ، ولكن جيمس كان يتطلع إلى الذرى الشامخة . وكان قد سمع فى إدنبره توماس شريدان يصف لوذعية صموئيل جونسن وحديثه الدسم . فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة فى حياة لندن الأدبية سيكون « ضرباً من المجد » .

وأعانته الصدفة على ما ينشد . ففى ١٦ مايو ١٧٦٣ كان بوزويل يشرب

الشاى فى مكتبة الكتبى توماس ديفز بشارع رسل ، وإذا « رجل ذو مظهر رهيب جداً » يدخل المكتبة . وتبين بوزويل شخصه من لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن . فرجا ديفز ألا يبوح بأن وطنه اسكتلنده ، ولكن ديفز باح بالسر « فى خبث » للفور . ولم يفت جونسن أن يلاحظ أن اسكتلنده بلد طيب يقدم منه الإنسان . وجفل بوزويل . ثم شكا جونسن من أن جاريك ضن عليه بتذكرة مجانية للآنسة وليمز لتحضر تمثيلية معروضة ، وتجاسر بوزويل على أن يقول « سيدى ، لست أستطيع الإعتقاد بأن مستر جاريك يضن عليك بمثل هذا الشيء التافه . » وهنا انقض جونسن عليه بقوله « سيدى ، لقد عرفت ديفد جاريك زمناً أطول مما عرفته ، ولست أرى لك حقاً فى أن تكلمنى فى هذا الأمر » . ولم يكن فى هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة . و « صعق » بوزويل و « أحس بالخزى » ، ولكن بعد مزيد من الحديث « اقتنعت بانه وإن كان فى مسالكه خشونة ، إلا أنه ليس فى طبعه لؤم » (٩٩) .

وبعد ثمانية أيام ، وبتشجيع من ديفز وبدعم من جرأته الصفيقة ، قدم بوزويل نفسه لجونسن فى شقته بالأنر تميل ، فاستقبله فى تلطف أن لم يكن فى ظرف كثير . وفى ٢٥ يونيو تعشى الدب والشبل معاً بحانة الميتر فى فليت ستريت «كنت فخوراً جداً بفكرة وجودى معه » وفى ٢٢ يوليو « خصصت لنا — أنا ومستر جونسن — غرفة فى مشرب تيركس هد » ثم كتب بوزويل فى يوميته « بعد هذا سأكتفى بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن ، والجديرة بالتسجيل ، كلما طفت فى ذاكرتى » (١٠٠) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة .

ولما رحل بوزويل إلى هولنده (٦ أغسطس ١٧٦٣) ليدرس القانون استجابة لألحاح أبيه ، كان إنسجام الأستاذ وتلميذه عظيما حتى لقد رافق جونسن ذو الثلاثة والخمسين بوزويل ذا الإثنين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله .

ب – بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام فى أترخت ، حيث درس القانون ، وتعلم الهولندية والفرنسية ، وقرأ كل كتاب فولتير « فى الأعراف » (كما يقول) . وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية ، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً ، وفكر فى الإنتحار . وألقى اللوم فى فجوره الأخير على فقده إيمانه الدينى . «كنت مرة كافراً » ، وسلكت مسلك الكافرين ؛ أما الآن فأنا جنتلمان مسيحى » (١٠١).ووضع لنفسه « خطة محكمة » لأصلاح ذاته : فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الإسكتلندى » وعلى أن « يكون وفياً لكنيسة انجلتره » ، وأن يلتزم بالقانون الأخلاقى المسيحى « حذار من أن تتحدث عن نفسك » بل « إحترم نفسك . . . وستكون على العموم شخصية ممتازة » (١٠٢) .

ثم استعاد إهتمامه بالحياة حين وجد قبولا فى بيوت سراة الهولنديين . فكان فى زيه الآن « القرمز والذهب ، . . . والجوارب الحريرية البيضاء ، والخفان الجميلان . . . ومناديل برشلونى ، وعلبة أنيقة لخلة الأسنان »(١٠٣) وعلق قلبه بإيزابيللا فان تويل ، التى كان المعجبون بها يلقبونها « حسناء زويان » و« زليدة » أيضاً ، وقد نوهنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات فى هولنده ذلك الجيل . ولكنها عزفت عن الزواج ، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها . ثم جرب حظه مع مدام جيلفنك ، الأرملة الحسناء ، ولكنه ألفاها « المدينة حصناء »(١٠٤). وأخيراً « صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاه » . فلما أن بلغها « ذهبت إلى ماخور . . . وآذى شعورى أن أجدنى فى مهاوى الفجور الوضيع » وفى الغد « ذهبت إلى كنيسة واستمعت إلى عظة حسنة . . . ثم تجولت مخترقاً المواخير الحقيرة فى أزقة قذرة »(١٠٥). واستعاد «كرامة الطبيعة الإنسانية» حين تسلم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير .

وكان قد وفى بوعده لأبيه بأنه سيدرس بجد فى أوترخت ؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التى يتوج بها الجنتلمان الانجليزى

الشاب تعليمه . فودع زليدة ، وبالطبع كان فى عينها دموع الحب ، وفى ١٨ يونيو ١٧٦٤ عبر الحدود إلى ألمانيا . ظل قرابة عامين بعدها يراسلها ويبادلها الثناء والنقد . وكتب من برلين فى ٩ يوليو يقول :

« بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليده ، فيجب على أن أقول لك ان فى قدراً من الغرور . . . يكفى لتخيلى أنك كنت حقاً تحبيننى . . . وان فى من الأريحيه ما يسمح لى بتجنب خديعتك . . . فلست أود الزواج منك لأكون مالكاً . . . فلا بد لزوجتى من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيزتى زليده ، إلا فى الحب ، والأمانة ، ولطف الطبع »[١٠٦] .

ولم تجب . فعاود الكتابة فى ١ أكتوبر ، مؤكداً لها أنها تحبه ؛ ولم تجب ، فعاود الكتابة مرة أخرى فى ٢٥ ديسمبر .

« أيتها الآنسة ، إننى رجل متكبر ، وسأظل كذلك أبدا . وينبغى أن تفخرى بتعلقى بك . ولست أعلم إن كان ينبغى أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بى . ان الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولا مثلى نادرون ، أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة . . . وقد تستطيعين أن توافينى بتفسير لمسلكك معى » [١٠٧] .

أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان فى تاريخ المرأة . قالت :

« تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان . . . وكل تعبيرات الصداقة تلك ، وكل تلك الوعود بالود الأبدى وبالذكرى الرقيقة أبدا ، والتى خلصت إليها (من كلامها السابق له) ، يعترف بها قلبى ويجددها فى هذه اللحظة . . . وقد واصلت تكرار القول . . . بأننى كنت عاشقة لك . . . وأنت تصر على أن أعترف بهذا . وقد صممت على أن تسمعنى أقوله وأردده . وأنى لأجد هذا نزوة فى غاية الغرابة من رجل لا يحبنى ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لى هذا بأصرح العبارات وأقواها . . . وقد صدمنى وأحزننى أن أجد ، فى صديق كنت أتصوره رجلا صغير السن موفور التمييز ، الغرور المراهق الذى يتصف به أحمق مأفون .

« يا عزيزى بوزويل ، لست مسئولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث فى أى لحظة أن اضطرم فى صدرك حديثى أو لهجتى أو نظرتى . فإذا كان هذا قد حدث ، فانسه . . . ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التى تبادلناها حين كان كلانا خلى البال كصاحبه : فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهمى فى غرور أنك متعلق بى ، وكنت أنت سعيداً بالمثل بأن تعدنى صديقة — وكأن المرأة الكثيرة المواهب شىء نادر . . أقول احتفظ بهذه الذكرى ، وثق بأن لك حنانى ، وتقديرى . بل أقول واحترامى . على الدوام » (١٠٨) .

وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً ، فلزم الصمت عاماً . ثم كتب (١٦ يناير ١٧٦٦) من مارس إلى والد زليدة يطلب يدها « ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا ؟ » (١٠٩) . ورد الوالد بأن زليدة تنظر فى عرض آخر . وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً . فأجابت ، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور ، وبابتسامة . حسناً ، إذن فقد أحببتنى مرة » (١١٠) — ثم رفضت عرضه .

وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء . ففى برلين شهد فردريك على ساحة العرض ، ولكنه لم يره أقرب من ذلك . وصحب إلى فراشه بائعة شوكولاته حبلى بدت له مرفأ سليماً . وفى ليبزج التقى بجيابرت وجوتشيد ، وفى درسدن زار « قاعة الصور الفخمة التى قيل لى إنها ارفع مثيلاتها فى أوربا » (١١١) . ثم هبط إلى سويسره بطريق فرانكفورت وماينز وكارلسروهى وستراسبورج . وقد رافقناه من قبل فى زيارته لروسو وفولتير . فى تلك الأيام المجيدة أخمدت هالة العبقرية وحمى الشهرة شهوة الشباب .

وفى أول يناير ١٧٦٥ غادر جنيف ليعبر الألب . وأنفق تسعة شهور مبهجة فى إيطاليا ، ورأى كل مدينة كبيرة ، وذاق طعم الأنثى فى كل وقفه ، وفى روما سعى للقاء فنكلمان ، ولثم قدم البابا فى خفها ، وصلى فى كتدرائية القديس بطرس ، والتقط عدوى مرضه المعضل من جديد . وارتقى فيزوف مع جون ولكس . وفى البندقية قاسم اللورد مونتستيوارت (بن ابرل بيوت)

محظيته ؛ وجدد إصابته بمرضه القديم . وخلال شهر قضاه فى سيينا تودد إلى بورتسيا سانسدونى ، خليلة صديقه مونتستيورات ، وحثها على ألا تسمح لأى عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها ، لأن « سيدى اللورد فى فطرته مالا يجعل الوفاء خلة يقدر على التحلى بها أو يتوقعها منك » (١١٢) .

على أن جانبه الأنبل تجلى فى مأثرته التالية . فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (١١ أكتوبر ١٧٦٥) . وكان باولى قد حرر الجزيرة من سلطان جنوه فى ١٧٥٧ وله ثمانى سنوات فى حكم الدولة الجديدة . والتقى به بوزويل فى سوالاكارو ، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو . وقد ظن به التجسس أول الأمر « ولكنى سمحت لنفسى بأن أطلعه على مذكرة كتبتها فى المزايا التى تحققها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا » ، وبعدها كان يتغذى بانتظام مع الجنرال (١١٣) . وقد دون الكثير من الملاحظات التى أفادته بعد ذلك فى كتابه « وصف كورسيكا» (١٧٦٨) . وغادر الجزيرة فى ٢٠ نوفمبر ، وسافر فى محاذاة الرفيرا إلى مارسليا ، وهناك وافاه « قواد طويل القامة مهذب» بفتاة « أمينة ، مأمونة ، نزيهة » (١١٤) .

وفى اكس — أن — بروفانس بدأ يوافى « اللندن كرونكل » بفقرات أنباء تنشر فى طبعات متلاحقة ابتداء من ٧ يناير ١٧٦٦ ، أعلمت الجمهور البريطانى بأن جيمس بوزويل يمد انجلتره بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (١٢ يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت . وقد تكفل بمصاحبة صديقة روسو ، تريز لفاسير ، إلى لندن ؛ وقد أسلمت نفسها له فى الطريق ان كان لنا أن نصدق روايته . وتلبث فى لندن ثلاثة أسابيع . ورأى جونسن فى مناسبات عدة ؛ وأخيراً مثل أمام أبيه فى ادنبره (٧ مارس ١٧٦٦) . وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التى قضاها فى الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه . صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره ، ولكنها وسعت معارفه وأفقه ، وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين ، وأصبح الآن يلقب « بوزويل الكورسيكى » ، رجلا تغدى مع باولى ، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بانجلتره إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً فى بحر استراتيجى ،

٣ — بوزويل فى وطنه

فى ٢٩ يوليو ١٧٦٦ رخص له بالاشتغال بالمحاماة فى اسكتلنده ، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية فى ادنبره ، وتخلل ذلك غزوات كثيرة للندن ، وواحدة لدبلن . وربما أعانه منصب أبيه قاضياً ، ولكن اعانته أيضاً سرعة بديهته فى النقاش ، فكثر زبائنه ، و « ربح خمسة وتسعين جنيهاً » فى أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم (١١٥) . وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه ، فكان يدافع عن أفقر المجرمين ، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص إجرامهم واضح ، ويخسر معظم قضاياه ، وينفق كل أتعابه على الشراب ، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التى قضاها فى إيطاليا أحس بشتاء اسكتلنده يفرى عظمه ، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول .

ثم إنه واصل تشرده الجنسى . فاتخذ له خليلة تدعى المسز دورز ، واستكمالا لخدماتها « كنت أنام الليل كله مع . . . فتاة من عرض الطريق » وسرعان ما « اكتشفت أنى ابتليت بعدوى المرض » (١١٦) وبعد ثلاثة أشهر ، وفى دوار الخمر ، « ذهبت إلى ماخور ، وأنفقت ليلة كاملة بين ذراعى بغى . . . وكانت فتاة رائعة ، قوية ، مرحة ، بغياً جديرة ببوزويل ، ان كان لابد لبوزويل من بغى » (١١٧) وأصابته عدوى أخرى . وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحد لإنقاذه من التدهور البدنى والأخلاقى . فتودد إلى كاترين بلير ، ولكنها رفضته . ثم وقع فى غرام مارى آن بويد ، وكانت صبية إرلندية لها جسم إغريقى وأب غنى . وتبعها إلى دبلن (مارس ١٧٦٩) ، وفقد غرامه فى الطريق ، وسكر ، وألم ببغى ارلندية ، وأصيب مرة أخرى بمرض سرى (١١٨) .

وفى فبراير ١٧٦٨ دفع إلى المطبعة بمخطوط « تاريخ لكورسيكا ، يوميات رحلة إلى تلك الجزيرة ، ومذكرات باسكال باولى » ، وأثارت خيال إنجلترة،مناشدته بريطانيا المدية المعونة لباولى،وأعدت الرأى العام للموافقة على الإجراء الذى اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السلاح والمؤن سراً إلى الكورسيكيين . وبيع من الكتاب عشرة آلاف نسخة فى انجلترة ، وترجم

إلى أربع لغات ، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع فى القارة ما لم يظفر به جونسن . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٩ ظهر المؤلف فى مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زى زعيم قبيلة كورسيكى ، وعلى قبعته كتبت عبارة « بوزويل الكورسيكى » ، وكان هذا لحفلة رقص تنكرية ، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقى من هزء وسخرية .

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومرى قد صحبته إلى ارلنده ، واحتملت فى وداعة مغازلاته وعربدته الإرلندية . وكانت تكبره بسنتين ، ولم يكن فى مهرها البالغ ١٠٠٠ جنيه ما يجعلها زوجة كفؤاً لوريث أوخنلك (كما أكد بوزويل الأب) ، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة صالحة ستكون زوجة صالحة ، ثم ان اشتهاره بالفسق والسكر حد مجال اختياره . وكان القاضى نفسه يفكر فى الزواج ، مما يضع زوجة أب بين الوالد والولد ، وقد يبدد شطراً من التركة . والتمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج ، ولكن الأب أصر ، فتشاجرا ، وفكر بوزويل فى الذهاب إلى أمريكا ، وفى ٢٠ يوليو ١٧٦٩ كتب إلى « بجى » مونجومرى يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاته المائة فى العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف . وأنذرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب . وردها (٢٢ يوليو) جدير بالتنويه :

« أنعمت التفكير ، كما أردت ، وأنا . . . أقبل شروطك . . . أن ج . ب . بجنيهاته المائة فى العام هو فى نظرى غالى القيمة تماماً كما لوكنت أملك ضيعة أوخنلك . . . ولما كنت خلواً من الطمع ، فإنني أوثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم . . . فثق يا عزيزى جيمى أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شىء فى سبيلك ، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتمنحها للرجل الذى ملك قلبها » (١١٩) .

وفى ١٩ نوفمبر تزوج الأب ، وفى ٢٥ نوفمبر تزوج الإبن . وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما ، وفى ١٧٧١ استأجرا شقة من ديفد هيوم . وكافح جيمس للإقلاع عن السكر ، وجد فى عمله محامياً ، وسعد بالأطفال

الذين ولدتهم له زوجته . ويبدو أنها صدت تودده الزوجي خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر . ففي ٢٧ أكتوبر ١٧٧٢ ذهب إلى موسى بعد أن « أفرط في شرب النبيذ » [١٢٠] . وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسري أجازته التوراة . ثم عاد إلى الشراب ، وأضاف إليه القمار . جاء في يومياته بتاريخ ٥ أكتوبر ١٧٧٤ « شربت حتى ثملت » وفي ٣ نوفمبر « شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلا » وفي ٤ نوفمبر « ثملت جداً . . . وقعت على الأرض بعد عنف كثير » وفي ٨ نوفمبر « سكران مرة أخرى » وفي ٩ نوفمبر «كنت مريضاً جداً ، ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً » وفي ٢٤ ديسمبر : «كنت سكران جداً . . . مكثت أكثر من ساعة مع مومسين في مسكنها على سلم قذر ضيق في حي البو . ووجدت طريقي إلى بيتي حوالي الثانية عشرة . لقد سقطت » [١٢١] . وغفرت له زوجته ، وبذلت له العناية في أمراضه .

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة : كثرة قضاياه الخاسرة في المحاماة ، والعنت الذي لقيه في علاقته بأبيه ، وخزيه من خيانته الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام غروره ، واشمئزازه من الحياة في اسكتلنده . وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً ، من جهة ليترافع في قضايا له هناك ، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن ، ورينولدز ، وجاريك ، وبيرك . وفي ١٧٧٣ سمح له بالانضمام إلى « النادي » . وفي خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبره في فخر وإلى جواره الدكتور جونسن ، توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد .

وظل في رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفياً لزوجته ، وكان يكتب إليها في شغف ، ولكن ما وافى عام ١٧٧٥ حتى كان قد استأنف إيثاره للعربدة الجنسية . وقد اشتد انشغاله بها حوالي نهاية مارس ١٧٧٦ يقول « فلما نزلت إلى الشارع ركبتني شهوة الفسق ، ففكرت في أن أخصص لها ليلة » . ولكن التخصيص امتد عدة ليال . « فكرت في زوجتي الغالية بأعظم احترام وأحر محبة ، ولكن ساورتني فكرة مشوشة بأن اتصالي الجسدي بالعاهرات لا يمس حتى لها بسوء » [١٢٢] . ورده إلى رشده مرض سرى جديد ،

وقد جرت عليه هذه المغامرات ، وتبعيته لجونسن ، تعليقات ملؤها الازدراء من رجال كهوراس ولبول ، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من ماكولى [١٢٣] ، ولكنها لم تتركه بغير صديق . « ان اتصافى بالكفاءة وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتى » [١٢٤] وكان أكثر اللندنيين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق فى رجل بأكمله . وإذا كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبوه ، وإذا كانت بيوت لندنية كثيرة قد فتحت له أبوابها ، فلا بد أنه كان يملك الكثير من السجايا المحببة . وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان يتنقل من امرأة لأخرى ، ومن فكرة لفكرة ، تنقل المسافر المستعجل ، يخدش سطوحاً كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء ، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة وراء لحم الضحية . وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال « ان لى فى الحق عقلا صغيراً مع كل كبريائى ، وما أشبه ألمعيتى بالوشى على الشاش » [١٢٥] . « ان فى أفكارى كلها نقصاً ، وسطحية . ولست أفهم شيئاً بوضوح ، وإلى القاع . فأنا ألتقط الشظايا ، ولكنى لست أملك فى ذاكرتى كتلة كاملة ذات كبر أيا كان » [١٢٦] .

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة ، هى التى كفرت عنه ، فقد عوض عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق ، الذى لم يستطع تحقيقه لنفسه ، فى الآخرين ؛ بملازمتهم فى تواضع ، يتذكر كلماتهم وأفعالهم ، وأخيراً ، وببراعة عظيمة ، بوصفها فى ترتيب وفى ضوء ألفا صورة لاتبارى لرجل ولعصر . « ليت القناع لا يمزق عنا إبدا — عن أجسادنا وعقولنا ، عن شهواتنا الدفينة وغرورنا الذى لا يبلى — مثل ما أمعن هذا الرجل ، نصف التابع الخانع ، نصف العبقرى ، فى الكشف عن نفسه للأجيال القادمة .

● ● ●

الفصل الثاني والثلاثون

المسرح الأدبي

١٧٥٦ – ٨٩

١ – الصحافة

كان فى الخلفية جرائد ، ومجلات ، وناشرون ، ومكتبات متنقلة ، ومسارح ، كلها تتكاثر فى اندفاع ، وتنقل صراعات الأحزاب والمواهب إلى جمهور لا يفتأ يتعاظم . وقد ولدت الآن عدة مجلات : « المجلة الأدبية » ، و « مجلة النقد » فى ١٧٥٦ ، و « الدفتر العام » فى ١٧٦٠ . وبدأت صحيفة جونسن « الرامبلر » (الجوال) فى ١٧٥٠ ، وكانت « مجلة الجنتلمان » التى أطعمت جونسن فى سنوات كفاحه قد بدأت فى ١٧٣١ ، وقدر لها أن تعمر حتى ١٩٢٢ . وضاعفت جرائد لندن عددها ومجموع توزيعها فى هذه الفترة. وبدأت « المونيتر (المرشد) فى ١٧٥٥ ، و « النورث بريتن » فى ١٧٦١ ، والمورننج كرونكل فى ١٧٦٩ ، والمورننج هرلد فى ١٧٨٠ ، والديلى يونفبرسل رجستر فى ١٧٨٥ ، التى أصبحت التيمز فى ١٧٨٨ . ووقعت صحيفة « البيلك أدفرتايزر » على منجم ذهب بنشرها رسائل جونيوس « فارتفع توزيعها من ٤٧,٥٠٠ إلى ٨٤,٠٠٠ . وكانت معظم الصحف اليومية الأخرى تعيش على عدد ضئيل من القراء ؛ من ذلك أن توزيع التيمز فى ١٧٩٥ لم يزد على ٤,٨٠٠ . وكانت أكثر تواضعاً فى الحجم منها فى الكلام . فهى تصدر عادة فى أربع صفحات ، تفرد إحداها للإعلانات . وقد ظن جونسن فى ١٧٥٩ أن الإعلان فى الصحف قد بلغ حده النهائى .

« لقد زادت الإعلانات الآن زيادة جعلتها تقرأ باهمال شديد ، فأصبح من الضروري لفت النظر بالوعود البراقة ، وبالبلاغة التي تكون أحياناً رائعة وأحياناً مثيرة للشفقة . فتاجر سائل التجميل مثلا يبيع غسولا يزعم أنه يمنع البثور ، ويزيل النمش ، ويطرى الجلد ، ويربل اللحم . . . وقد بلغت حرفة الإعلان الآن من الكمال ما لا يسهل معه اقتراح أي تحسين عليها ، ولكن بما أن كل فن ينبغي أن يمارس بالخضوع الواجب للصالح العام ، فلست أملك إلا أن أطرح الأمر على هؤلاء المتحكمين في سمع الشعب بوصفه سؤالا أخلاقياً ، وهو : ألا يتلاعبون أحياناً بعواطفنا تلاعباً فيه الكثير من العبث والاستهتار ؟[1] .

وظل الطباعون والكتبيون والناشرون مختلطين اختلاطاً كبيراً في حرفة واحدة . من ذلك أن روبرت ددسلي كان قد نشر أعمال بوب وتشسترفيلد ، فطبع الآن لوالبول وجولدسمث . وكان لتوماس ديفز مكتبة يقبل المشترون عليها ، ويسمح فيها لهم بالتنقيب على مهل ، وقد ألف جونسن وغيره الاختلاف إليها لتصفح الكتب و « البصبصة » لزوجة الرجل الجميلة « وظفر وليم ستراهان بالشهرة بنشره قاموس جونسن ، وكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، وكتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » . وقد نشر الكتابان الأخيران في « سنة العجائب» ١٧٧٦ . وأسست أكسفورد مطبعة كلارندن في ١٧٨٠ . وكان الكتبيون ينقدون المؤلفين أجوراً طيبة عن الكتب الجيدة ، ولكن كان في استطاعتهم استخدام الكتاب المأجورين لإعداد المقالات والمصنفات لقاء أجور حقيرة . يقول كتبي في قصة هنري بروك « الأحمق الوجيه » (١٧٦٦) « في استطاعتي تكاليف أحد هؤلاء السادة . . . الذين أنفق على تعليم الواحد منهم من المال أكثر . . . مما يعزل أسرة كريمة إلى آخر الدهر — أستطيع تكاليف أحدهم بالكد كأنه حصان جر من الصباح إلى المساء لقاء أجر أقل مما استأجر به . . . حمالا أو ماسح أحذية ثلاث ساعات »[2] . وتكاثر المؤلفون حتى تشبعت بهم السوق ، واقتتلوا باستماتة في سبيل أجر ضئيل هزيل ، وتهاجوا بأقلام تنفث السم الزعاف . وأضافت النساء إلى المنافسة : المسز آنا باربولد ، وساره

فيلدنج ، والمسز أميليا أوباى ، والمسز اليزابث انتشبولد ، والمسز اليزابث مونتجيو ، وفانى بيرنى ، وهانا مور . ودخل قسيس ريفى فى المباراه وخرج منها بقصب السبق .

٢ — لورنس ستيرن

ولم يكن بالقسيس المطبوع ، فأبوه جندى ، وقد ظل عشر سنين يجر من وظيفة إلى أخرى ، وخلال هذه الفترة وبعدها التقط من العلم بالشئون العسكرية ماكنه من أن يجعل « العم طوبى» يتكلم على الحصارات والحصون كلام قائد محنك . أما أمه فقد وصفها بعد ذلك بأنها « ابنة بدال فقير يتبع المعسكر فى فلندر »[٣] . على أن جده الأعلى كان رئيس أساقفة يورك ، وقد وفقت أسرة ستيرن فى الحصول على منحة دراسية للورنس ألحقته بكمبردج . وهناك نال درجته الجامعية فى ١٧٣٧ ، ولكن نزيفاً رئوياً أصابه فى ١٧٣٦ أنذر بكفاح يخوضه مدى الحياه مع داء السل . ورسم قسيساً انجليكانياً (١٧٣٨) ، وعين فى ابرشية متواضعة فى ساتون — ان — ذ فورست ، قرب يورك . وفى ١٧٤١ تزوج اليزابث لملى ، وأخذها لتعيش معه فى بيته الحرب . وقد عهدت إليه بإيرادها السنوى البالغ أربعين جنيهاً . فاستثمر بعضه فى أرض ، ونما الإيراد .

وكانا فيما عدا هذا بائسين . فكلاهما مصاب بالسل ، وكلاهما خلق من أعصاب . وسرعان ما خلصت المسز ستيرن إلى أن « أوسع بيت فى انجلتره لا يمكن أن يضمهما معاً لكثرة هياجهما ونزاعهما »[٤] . وقد وصفتها ابنة عمها المثقفة اليزابث مونتجيو بأنها قنفذ نكد شكس « لا يستطيع المرء أن يتفادى الشجار معها إلا بالابتعاد عنها »[٥] ثم رزقا طفلين ، مات أحدهما ، أما الطفلة الثانية وهى ليديا فقد تعلقت بأمها تعلقاً واضحاً . وزادت تعاستهما حين جاءت إلى يورك أم ستيرن وأخته . وكانتا تعيشان فى فقر فى ارلنده ، والتمستا منه أن يعينهما بثمانية جنيهات فى العام من دخل زوجته . ولم تثر الفكرة أى حماسة . وأعطى ستيرن أمه بعض المال ورجاها أن تعود إلى ارلنده ، ولكنها ظلت فى يورك ، فلما قبض عليها بتهمة التشرد رفض ستيرن أن يدفع كفالة للإفراج عنها .

وبعد ثمانية عشر عاماً من الزواج المضنى أحس القسيس أن أى إنسان مسيحى حقاً سيسمح له بشىء من الزنا . وقد وقع فى غرام كاترين فورمانتيل، وأقسم لها قائلا « أحبك حب الجنون ، وسأظل أحبك إلى الأبد »(٦) . واتهمته زوجته بالخيانة ، فأنكر التهمة ، وأشرفت هى على الجنون حتى عهد بها وبابيديا إلى رعاية « طبيب للمجانين » ، وواصل علاقته الغرامية .

وفى غمرة هذه الضجة كتب واحداً من أشهر الكتب فى الأدب الانجليزى . وقد رجاه أصدقاؤه الذين قرءوا طرفاً من مخطوطة الكتاب أن يحذف منه « التوريات النابية التى قد تكون مؤذية بحق ، خصوصاً لصدورها من قسيس» فحذف نحو ١٥٠ صفحة وهو آسف . ثم أرسل الباقى إلى المطبعة غفلا من اسمه ، ونشر الكتاب فى يناير ١٧٦٠ بهذا العنوان ، « حياة السيد ترسترام شاندى وآراؤه » . وقد بقى فى المجلدين من الفضائح والفكاهة الغريبة الطريفة ما جعلها الحدث الأدبى الهام لذلك العام فى لندن . وتردد صدى هذه الضجة فى فرنيه النائية ، فقال فولتير «كتاب مستهتر جداً ، وكتاب أصيل ، إنهم مجنونون به فى انجلتره »(٧) . وقال فيه هيوم « أنه خير ما كتب بقلم أى انجليزى فى هذه السنين الثلاثين رغم ما فيه من سوء »(٨) . وبيع مائتا نسخة من الكتاب فى بحر يومين فى يورك ، حيث كان اسم المؤلف الحقيقى سراً مذاعاً وحيث تبين القراء الكثير من الأشخاص المحليين فى شخوص القصة الكبار .

ومن العسير أن نصف الكتاب ، إذ ليس له شكل أو موضوع ، ولا رأس ولا ذيل . وعنوانه خدعة ، لأن « السيد » الذى يروى القصة ، والذى أزمعت أن تعرض « حياته وآراءه » لا يولد إلا فى صفحة ٢٠٩ من المجلد الرابع (من الطبعة الأصلية ذات المجلدات التسعة) . ومادة القصة هى ما حدث ، أو ما قيل ، بينما كان يحبل به ، وبينما كان ينمو على مهل فى بطن أمه . والصفحة الأولى هى خير الصفحات .

« وددت لو أن أبى أو أمى ، أو كليهما حقاً ، إذ أنهما كانا معاً ملزمين بالأمر الواجب على السواء ، أقول وددت لو أنهما فكرا فيما هما فاعلان حين أنجبانى ، فهل نظرا كما ينبغى أن ينظرا كم من الأمور يتوقف على

ما هما صانعان ، وأن المسألة لا تتصل بإنجاب كائن عاقل فحسب ، بل ربما اتخذ التكوين السليم لبدنه ، ومزاج هذا البدن ، ونبوغه وطبيعة ذهنه ذاتها ، ربما اتخذت هذه كلها طابعها من الأمزجة والميول الغالبة عليهما آنذاك ، — ولو أنهما وزنا هذا كله وفكرا فيه كما ينبغي ، ثم تصرفا طبقاً لهذا ، لكنت يقيناً قد انبعثت إلى العالم شخصاً مختلفاً كل الاختلاف . قالت أمي « من فضلك يا عزيزي ، ألم تنس أن تملأ المنبه ؟ » — وصاح أبي . . . « رباه ! أهناك امرأة منذ خلق الله الدنيا تقاطع رجلا بسؤال غبي كهذا ؟ » .

ومن ذلك الحادث فصاعدا يتألف الكتاب من الاستطرادات . ذلك أن ستيرن لم يكن لديه حكاية يرويها ، ومن باب أولى حكاية الغرام التي هي مدار أكثر القصص ، إنما كانت رغبته أن يسلي نفسه وقراءه بالحديث الهوائي عن كل شيء ، ولكن دون نظام ؛ فكان يثب حول مشكلات الحياة جليلها وحقيرها وثب جواد مرح لعوب في حقل . وبعد أن كتب أربعة وستين فصلا خطر له أنه لم يكتب لكتابه مقدمة ، فأدخل المقدمة عند تلك النقطة ، وأتاح له هذا أن يسخر من نقاده . ووصف منهجه بأنه « أكثر المناهج تقوى ، لأنني أبدأ بكتابة الجملة الأولى ، ثم أتكل في مجيء الثانية على الإله القدير »(٩) وعلى التداعي الطليق في الباقي . ومن قبله صنع رابليه ما يشبه هذا ، وترك سرفانتس روزنانتي يقوده من حادث إلى حادث ، وجاب روبرث بيرتن العالم قبل تشريحه للاكتئاب ، أما ستيرن فقد رفع توافه الأمور إلى مقام المنهج ، وحرر جميع الروائيين من الحاجة إلى موضوع أو خطة .

ولقد أبهج طبقات بريطانيا ذات الفراغ أن ترى مقدار الضجة التي يمكن إثارتها حول لاشيء ، وكيف أن في الإمكان تأليف كتاب بالإنجليزية الأنجلوا — سكسونية في عصر جونسن . أما البريطانيون الأشداء فقد رحبوا بالطرافة المرحة التي وجدوها في قسيس يتحدث عن الجنس والانتفاخ البطني ، والشق الذي في سروال العم طوبي . وفي مارس ١٧٦٠ ذهب ستيرن إلى لندن ليرشف رحيق نجاحه ، وأسعده أن يجد أن المجادلين قد نفدا ، أخذ

٦٣٠ جنيهاً نظيرهما ونظير مجلدين آخرين قادمين . لا بل ان « مواعظ مستر يوريك » التي نشرت بعد « تراسترام » بأربعة أشهر حظيت ببيع سريع حين عرف أن يوريك هو ستيرن . وأقبلت الدعوات على المؤلف من تشستر فيلد ، ورينولدز ، وروكنجهام ، لا بل من الأسقف واربرتن ، الذي فاجأه بخمسين جنيهاً انجليزياً ، ربما تفادياً من أن يزين الأسقف صفحة لاذعة الهجاء في مجلدات قادمة . واشترى ستيرن عربة وزوجين من الخيل ، وركبها في انتصار مرح عائداً إلى يورك ، حيث وعظ في كنيستها الكبرى ، ثم رقي إلى قسوسية أكثر ثراء في كوكسولد ، على خمسة عشر ميلا من يورك ، فأخذ زوجته وابنته لتعيشا معه هناك ، وهناك كتب المجلدين الثالث والرابع من « ترتسترام » في يسر غير معقول .

وفي ديسمبر من ذلك العام ١٧٦٠ ذهب إلى لندن ليتابع طبع المجلدين . ووصل ترسترام الآن إلى رحلة الولادة بالجفت ، الأمر الذي شوه أنفه ، وعليه انطلق المؤلف في حديث مستفيض عن فلسفة الأنوف بأسلوب أكثر العلماء تفقهاً . فقال أحد الثقات إن أنف الطفل تحدده نعومة الثدي الذي يرضعه أو صلابته : « فالأنف حين يغوص فيه . . . كما يغوص في قطعة زبد كبيرة يرتاح ويتغذى ويسمن وينتعش ويحيا »(١٠) .

وبعد قضاء نصف عام في لندن عاد ستيرن إلى زوجته التي أخبرته أنها كانت أسعد حالا بدونه . فانطوى على مخطوطته ، وكتب المجلدين الخامس والسادس ، وفي هذين كاد ترسترام ينسى ، وشغل المسرح العم طوبي والجاويش تريم بذكرياتهما عن الحرب وقلاعهما اللعب . وفي نوفمبر ١٧٦١ انطلق القسيس مرة أخرى إلى لندن ، في آخر يوم من العام شهد صدور المجلدين الخامس والسادس . وقد حظيا باستقبال حسن . وراح يغازل المسز الزابث فيزي ، إحدى النساء المثقفات ، وأقسم ليضحين بآخر مزقة من قسوسيته لقاء لمسة من يدها الملائكية !(١١) ثم أصيب بنزف رئوي ، وهرب إلى جنوبي فرنسا . وتلبث في باريس زمناً كفي لحضوره بعض حفلات العشاء في « مجمع الملحدين » الذي تزعمه دولباخ ، حيث استهوى ديدرو استهواء لم يفارقه . ولما سمع ستيرن أن زوجته مريضة ، وأن ليديا مصابة

بالربو ، دعاهما للحاق به فى فرنسا . واستقر ثلاثتهما قرب تولوز (يوليو ١٧٦٢) .

وفى مارس ١٧٦٤ ترك زوجته وابنته بموافقتهما وعاد إلى باريس ولندن وكوكسولد . وكتب الجزئين السابع والثامن من « ترسترام » ، وتسلم مقدما أتعابهما ، وأرسل جزءاً من الحصيلة لمسز ستيرن . وصدر الجزءان الجديدان فى يوليو ١٧٦٥ ، فلم يظفرا إلا بثناء متضائل ، ذلك أن النغمة الشانديه — الطربية أخذت تضعف . وفى أكتوبر بدأ ستيرن رحلة فى إيطاليا وفرنسا استغرقت ثمانية أشهر . وفى عودته للشمال انضم إلى أسرته فى برجنديه ، وطلبت الأسرة البقاء فى فرنسا ، فدفع نفقاتها وقفل إلى كوكسولد (يوليو ١٧٦٦) . وكتب الجزء التاسع فيما بين نوبات نزيفه ، وذهب إلى لندن ليشهد مولده (يناير ١٧٦٧) ، واستمتع بالضجة التى أثارها طوافه حول حافة الجنس فى وصفه تودد العم طوبى لمسز ودمن . وكتب القراء المروعون إلى الصحف وإلى رئيس أساقفة يورك يطالبون بشلح هذا القسيس الفاجر وطرده ، ولكنه رفض أن يفعل . وجمع ستيرن خلال ذلك اكتتابات بلغت جملتها ١,٠٥٠ جنيهاً فى كتاب موعود سماه « رحلة عاطفية » وأرسل مزيداً من المال لزوجته وتودد إلى اليزابث درايبر .

وكانت زوجة موظف فى شركة الهند الشرقية آنئذ (مارس ١٧٦٧) معين فى الهند . تزوجته وهى فى الرابعة عشرة ، وهو فى الرابعة والثلاثين . وأرسل إليها ستيرن كتبه ، واعتزم أن يتبعها بيده وقلبه . وظلا فترة يلتقيان كل يوم ، ويتبادلان الرسائل الرقيقة . والرسائل العشر المسماه « رسائل إلى إليز » تفضح عن الغرام الحزين الأخير يضطرب فى جوانح رجل يموت بالسل . « صحيح أننى فى الخامسة والتسعين بنية » ، وأنت لا تتجاوزين الخامسة والعشرين ، . . . ولكن ما أفتقده صبى سأعوضه فكاهة ومرحا . فما أحب سويفت حبيبته ستيلا ، ولا سكارون حبيبته مانتنون ، ولا وولر حبيبته ساكاريسا ، كما سأحبك وأتغنى بك ، يازوجتى المختارة ! » — ذلك أن « زوجتى لا يمكن أن تعيش طويلا »[١٢] . وبعد عشر دقائق من إرسال هذا الخطاب أصابه نزف شديد ، وظل ينزف الدم حتى الرابعة صباحاً .

وفى ابريل ١٧٦٧ أبحرت المسز درابر إلى الهند استجابة لدعوة زوجها . وظل ستيرن من ١٣ ابريل إلى ٤ أغسطس يدون « يومية لاليزا » وهى « مذكرات يومية بالمشاعر التعسة التى يحس بها شخص افترق عن سيدة يذوب شوقاً إلى لقائها » . « إنى أقبلك على أى شروط تعرضينها يا اليزا ! سوف أكون . . . منصفاً جداً ، وعطوفاً جداً نحوك ، ولن أكون بعد اليوم مستأهلا للتعاسة »[١٣] . وفى يومية ٢١ ابريل : « نزفت اثنتى عشرة أوقية من الدم » . وأخبره طبيب أنه مصاب بالزهرى ، فاعترض قائلا ان هذا « محال . . . ، لأننى لم أباشر الجنس أيا كان اطلاقه — حتى مع زوجتى ، . . . طوال هذه السنين الخمس عشرة » . « وقال الطبيب : لن نتجادل فى الأمر ، ولكن لابد لك من أخذ علاج بالزئبق »[١٤]. وأيد أطباء آخرون هذا التشخيص ، وأكد له أحدهم أن « لوثات الدم تظل كامنة عشرين عاماً » . فأذعن مؤكداً عفته .

وما وافى شهر يونيو حتى تماثل للشفاء وعاد إلى كوكسولد . وبينما كان يكتب « الرحلة العاطفية » أصيب بمزيد من نوبات النزف ، وأدرك أنه لن يمهل فى الأجل طويلا . فذهب إلى لندن ، وشهد صدور كتيبه (فبراير ١٧٦٨) ، واستمتع لآخر مرة بمحبة أصدقائه التى لم تفتر . وكما أن « ترسترام » ذكر القراء برابليه ، فكذلك عكس الكتاب الجديد التأثير المتصاعد لرتشردسن وروسو . غير أن فضيلة ستيرن كانت أقل مناعة من فضيلة رتشردسن ، ودموعه أقل حرارة وإخلاصاً من دموع روسو . ولعل هذا الكتاب ، وكتاب مكنزى « رجل الوجدان » (١٧٧١) ، هما اللذان أذاعا كلمتى « عاطفة Sentiment » و « عاطفى Sentimental » فى المجتمع الانجليزى . وقال بايرون ان ستيرن « يؤثر البكاء على حمار ميت على التخفيف عن أم حية »[١٥].

وبينما كان ستيرن يستمتع بانتصاره الأخير فى لندن أصيب بنزلة برد تفاقمت حتى أصبحت التهاباً بليورياً . فكتب إلى سيدة تدعى المسز جيمس رسالة محزنة يطلب إليها أن ترعى ليديا ان توفيت زوجته . ووافته المنية فى ١٨ مارس ١٧٦٨ ، فى فندق بأولد بوند ستريت دون أن يكون إلى جواره صديق ، غير متجاوز الثانية والأربعين . وكان فيه إثارة من المشعوذ ، وقد

جعل من نفسه « مهرجاً للناظرين » ، ولكن فى استطاعتنا أن نفهم حساسيته للنساء ، والتوتر الذى فرضه زواج تعس على رجل أوتى هذه الأحاسيس المرهفة والصنعة الرقيقة . لقد قاسى كثيراً ، وأعطى كثيراً ، وكتب كتاباً من أغرب الكتب فى تاريخ الأدب قاطبة .

٣ — فانى بيرنى

وقد نافست امرأة النجاح الذى أحرزه فى ميدان القصص منافسة قصيرة الأمد . ولدت فى ١٧٥٢ لأب يدعى تشارلز بيرنى أصبح فيما بعد مؤرخاً للموسيقى . وقد ربيت على الموسيقى أكثر من الأدب ، فكانت لا تعرف القراءة حتى بلغت الثامنة(١٦) ، وما كان لأحد أن يحلم بأنها ستصبح كاتبة . وماتت أم فرانسس وهى فى التاسعة . ولما كان أغلب الموسيقيين الذين يعزفون فى لندن يختلفون إلى بيت أبيها ويجتذبون إليه شطراً كبيراً من صفوة المثقفين ، فإن فانى اكتسبت تعليمها بالاستماع إلى الكلام والموسيقى . واكتمل نضجها ببطء ، وكانت خجولا يعوزها الجمال ، واستغرقت أربعين سنة لتعثر على زوج ؛ وحين نشرت روايتها الشهيرة (يناير ١٧٧٨) كانت فى الخامسة والعشرين ، وبلغ من خشيتها أن تغضب الرواية أباها أنها أخفت نسبتها لها . وأحدثت الرواية ضجة ، واسمها « إفلينا ، أو دخول شابة إلى العالم » وأثار اغفال اسم المؤلف فضول الناس ، وأذاعت الشائعات أن كاتبتها فتاة فى السابعة عشرة . أما جونسن الذى أثنت عليه المقدمة فقد امتدح الرواية وزكاها للدكتور بيرنى . وشكت المسز تريل من فرط قصر الرواية . فلما علمت بالسر ذاع فى طول لندن وعرضها ، وأصبحت فانى شخصية بارزة فى المجتمع ، وقرأ الجميع كتابها ، وكان « أبى العطوف الصادق المحبة سعيداً جداً بسعادتى »(١٧) .

وسر فيها هذا الوصف — الذى أعانته ذاكرة متلبثة وخيال حى — للصورة التى تراءى بها المجتمع اللندنى لفتاة يتيمة فى السابعة عشرة رباها قسيس ريفى لا يمت بشبه قريب ولا بعيد للورنس ستيرن . وما من شك فى أن فانى هى أيضاً قد إنتشت بتمثيل جاريك ، وشعرت كما كتبت افلينا للوصى

عليها » يا له من أداء طبيعي ! وما أشد حيوية أسلوبه ! وأرشق حركاته ! وما أعجب ما تضطرم به عيناه من نار ومعنى ! . . . وحين رقص ، أواه لكم حسدت كلارندا ! كدت أتمنى أن أثب إلى خشبة المسرح وأشاركهما الرقص [١٨] . أما لندن التي سئمت رذائلها فأحست أنها تتطهر بتلك الريح القوية التي تهب عليها من هذه الصفحات الشابة .

وقد ماتت تلك القصة التي حظيت بصيت ذائع يوماً ما ، ولكن اليومية التي دونتها فانى مازالت جزءاً حياً من الأدب والتاريخ الانجليزيين ، لأنها تتيح لنا نظرة عن كثب لمشاهير القوم من جونسون وجورج الثالث إلى هيرشل ونابليون . وقد عينت الملكة شارلوت الآنسة بيرنى أمينة على ملابسها (١٧٨٦) ، وكانت فانى تلبس جلالتها وتخلع عنها ملابسها طوال السنوات الخمس التالية . ولكن الحياة المتكلفة الضيقة التي عاشتها المؤلفة كادت تخنقها ، وأخيراً أنقذها أصدقاؤها ، ففي ١٧٩٣ ، بعد أن ذوى شبابها ، تزوجت مهاجراً فرنسياً مفلساً هو الجنرال داربليه . وقد عالته بمؤلفاتها ودخلها ، وظلت عشر سنين تعيش معه في فرنسا بعيدة عن الأضواء يعزلها عن المجتمع عنف حروب الثورة وحروب نابليون . وفي ١٨١٤ سمح لها بأن تعود إلى انجلترة وتنال بركة أبيها لآخر مرة قبل موته في الثامنة والثمانين . وقد عمرت هي نفسها لهذه السن ، حتى أدركت عالماً مختلفاً كل الاختلاف ، عالماً لم يدرك أن جين أوستن الذائعة الصيت (التي ماتت ١٨١٧) إنما استلهمت الروايات المنسية التي ألفتها سيدة منسية ظلت حية ترزق حتى سنة ١٨٤٠ .

٤ — هوراس ولبول

قال « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون »[١٩] لذلك تعلم أن يبتسم للحياة ، بل أن يداعب نقرسه . وقد أرخ لجيله ، ولكنه غسل يديه منه : كان ابنا لرئيس وزارة ، ولكن السياسة لم تلذه . وكان يعشق النساء ، من فانى بيرنى إلى أرقى الغراندوقات ، ولكنه أبى أن يكون له زوجة منهن ، ولا خليلة (على قدر علمنا) . درس الفلسفة ولكن كان رأيه

فى الفلاسفة أنهم لعنة القرن ومصدر ازعاجه . كاتبة وحيدة فقط أعجب بها إعجاباً بغير تحفظ لسلوكها المهذب وفنها الذى لا تكلف فيه — وتلك هى مدام دسفينييه ، وهى وحدها التى حاول محاكاتها ؛ وإذا كانت رسائله لم تظفر بفتنتها ورشاقتها ومرحها ، فإنها غدت أكثر كثيراً من رسائلها تاريخاً يوميا حياً للعصر الذى كتبت فيه ؛ ومع أنه سماها حوليات مستشفى المجاذيب[٢٠] ، فإنه كتبها بعناية ، أملا فى أن يمنحه بعضها ركناً فى ذاكرة الناس ؛ ولا غرو ، فحتى الفليسوف الذى راض نفسه على الفناء يشق عليه الرضى بالنسيان .

وكان هوراشيو (وهو اسمه الذى عمد به فى ١٧١٧) أصغر أبناء خمسة ولدوا للسر روبرت ولبول ، رئيس الوزارة الشجاع الذى ضحى بسمعته لأنه آثر السلام على الحرب ، ولكنه لم يكد يؤذيها بإيثاره الزنا على الاكتفاء بزوجة واحدة[٢١] . ولعل المتقولين نسبوا هوراس حيناً لأب آخر انتقاماً لزوجته الأولى ، وهو كار ، لورد هرفى ، أخو الرجل المخنث جون ، لورد هرفى الإكورثى — الذى اتهم السر روبرت بمحاولة اغواء الليدى هرفى[٢٢] . وفى هذه المسائل من التعقيد مالا يسمح بإصدار الحكم عليها فى الحاضر ، وحسبنا أن نقول ان هوراس نشىء دون أن يرميه أقاربه بنسب منحرف . وقد عامله رئيس الوزراء بما يعامل به الرجل المشغول ولده من عدم المبالاه ، أما أمه فقد « دللته » (كما يروى) بـ « ولع شديد »[٢٣] وكان صبياً رائع الحسن ، يلبس لباس الأمراء ، ولكنه كان هشاً خجولا ، حساساً كأنه بنت . وحين ماتت أمه (١٧٣٧) خشى كثيرون أن يموت الفتى ذوالعشرين ربيعاً حزناً عليها . وسرى عنه السر روبرت بوظائف حكومية شرفية تفى بنفقات ولده على الثياب الفاخرة ، والعيش الأنيق ، ومجموعة التحف الغالية وأضمر هوراس الخصومة لأبيه إلى آخر حياته ، ولكنه كان يدافع عن سياسته دائماً .

وحين بلغ العاشرة أرسل إلى إيتن حيث تعلم اللاتينية والفرنسية وصادق الشاعر جراى . وفى السابعة عشرة التحق بكنجز كولدج بكمبردج ، وهناك تعلم الإيطالية وتشرب الربوبية من كونيرز مدلتن . وفى الثانية والعشرين

انطلق مع جراى فى رحلة يجوبان فيها إيطاليا وفرنسا دون أن ينال درجة جامعية. وبعد أن طوفا قليلا استقرا خمسة عشر شهراً فى فيلا بفلورنسه ضيفين على القائم بالأعمال البريطانى السر هوراس مان. ولم يلتق ولبول ومان بعدها قط، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال الخمس والأربعين السنة التالية (١٧٤١ — ٨٥). وفى ريدجو اميليا تشاجر جراى وولبول، لأن هوراس كان قد دفع كل نفقات إقامتهما، ولم يستطع الشاعر أن يغتفر مظاهر الاحترام الشديد التى كان يختص بها ابن الرجل الذى يحكم انجلتره. ولام هوراس نفسه على هذا الوضع وهو يستحضر تلك الفترة «كنت صغيراً جداً، شديد الولع بملاهىّ... شديد الانتشاء بالتدليل، والغرور، وغطرسة منصبى.. بحيث تعذر على الاهتمام والإحساس بمشاعر شخص حسبته أدنى منى مقاما، شخص يخجلنى أن أقول إننى كنت أعرف أنه مدين لى بالفضل»[٢٤]. وافترقا، وكاد ولبول يموت من الندم أو من التهاب اللوزتين المتيقح، ورتب رحلة العودة لجراى. ثم تصالحا فى ١٧٤٥، وطبعت معظم قصائد جراى فى مطبعة ولبول بستروزى هل. وجلس ولبول فى هذه الفترة إلى الرسامة روزالبا كاريرا لتصوره فى لوحة جميلة بالباستل.

وقبل أن يصل ولبون إلى انجلتره (١٢ سبتمبر ١٧٤١) كان قد أنتخب عضواً فى البرلمان، وهناك ألقى خطاباً متواضعاً لم يجد فتيلا ضد المعارضة التى كانت جادة فى إنهاء عهد وزارة أبيه الطويل الرخى. وظل يعاد إنتخابه بانتظام حتى ١٧٦٧ حين انسحب مختاراً من ميدان السياسة النشيطة. وكان بوجه عام يؤيد برنامج الهوجز التحررى: يقاوم توسيع السلطة الملكية، ويوصى بحل وسط مع ولكس، ويندد بالرق (١٧٥٠) قبل أن يولد ولبرفورس بتسع سنين. وقد عارض فى تحرير الكاثوليك الانجليز سياسياً بحجة أن «البابويين والحرية نقيضان»[٢٥]. ورفض حجة الأمريكيين ضد قانون الدمغة[٢٦]، ولكنه دافع عن مطالبة المستعمرات الأمريكية بالحرية، وتنبأ بأن أوج الحضارة القادم سيكون فى أمريكا[٢٧]. وكتب (١٧٨٦) يقول «من غير ميكيافللى يستطيع الزعم بأن لنا ظل حق فى شبر من الأرض فى الهند ؟»[٢٨] وقد أبغض الحرب، فلما أفلح الإخوان مونجولفييه فى

الطيران بالبللون لأول مرة (١٧٨٣) تنبأ فى فزع بانتشار الحرب إلى الجو وكتب يقول «أرجو ألا تكون هذه الشهب الميكانيكية غير لعب للعلماء أو العاطلين ، وألا تحول إلى آلات تدمير للنوع الإنسانى ، كما هى الحال فى كثير من الأحيان فى تحسينات العلم أو كشوفه»[٢٩] .

ثم قرر أن ينفق أكثر وقته فى الريف حين وجد نفسه فى الأغلب الأعم يقف مع الجانب الخاسر ، وعليه ففى ١٧٤٧ استأجر خمسة أفدنة وبيتاً صغيراً قرب تويكنام . وبعد عامين اشترى هذا الملك ، وحول البناء إلى الطراز القوطى الحديث — كما رأينا . فى هذه القلعة التى طبعها بطابع القصر الوسيط جمع شتى التحف المتفردة فناً أو تاريخاً ، وما لبث أن استحال بيته متحفاً يحتاج إلى قائمة بمحتوياته . ووضع فى حجرة مطبعة ، طبع فيها أربعة وثلاثين كتاباً بما فيها كتبه طباعة أنيقة . وقد طلع على القراء — من ستروبرى فى أكثر الأحايين — بخطاباته الباقية إلى اليوم وعددها ٣,٦٠١ وكان له مائة صديق ، تشاجر معهم كلهم تقريباً ، ثم تصالح ، وكان لطيفاً بقدر ما سمح به مزاجه العصبى المرهف . وكان يخرج الخبز واللبن كل يوم للسناجيب التى تتودد إليه . وكان يرعى وظائفه الشرفية ويسعى للمزيد منها ، ولكن حين فصل ابن خاله هنرى كونواى من وظيفته اقترح ولبول أن يقتسم دخله معه .

وكان فيه ألف عيب ، حشدها ماكولى بتفصيل كثير فى مقال ذكى جائر : لقد كان ولبول مغروراً ، نيقاً ، كتوماً ، هوائياً ، فخوراً بأجداده ، مشمئزاً من أقاربه . وكانت فكاهته تنحو إلى الهجاء المقذع . وقد حمل إلى قبره ، وفى التواريخ التى كتبها ، احتقاره لكل الذين شاركوا فى خلع أبيه . وكثيراً ما عنف فى تحامله ، كما نرى فى أوصافه لليدى بومفريت[٣٠] أو الليدى مارى ورتلى منتجيو[٣١] . وقد نحا به جسده الهش إلى طبيعة تشبه طبيعة الهاوى السطحى . وإذا كان ديدرو ، فى عبارة سانت بوف المنيرة ، أكثر الفرنسيين جميعاً ألمانية ، فان ولبول كان أكثر الانجليز جميعاً فرنسية .

وكان صريحاً شجاعاً فى الإعراب عن ميوله وآرائه غير المألوفة ؛ ففرجل فى رأيه مضجر ، ومن باب أولى رتشردسن وستيرن . وقال عن

دائنى انه « مثودى فى مستشفى المجاذيب »[٣٢] وتظاهر بأنه يحتقر كل المؤلفين ، وأصر كما أصر كنجريف على أنه يكتب كما يكتب جنتلمان لمزاجه ، لا كأديب أجير يعتمد على تسويق كلامه . ومن ثم نراه يكتب لهيوم قائلا : « أنت تعلم أننا فى انجلتره نقرأ كتب المؤلفين ولكن ندر أن نعبأ بهم أو لعلنا لا نعبأ بهم اطلاقاً . ونحن نراهم قد نالوا جزاء كافياً إذا راجت كتبهم ، ثم نتركهم بالطبع لكلياتهم وانغمارهم ، وبهذه الطريقة لا يزعجنا غرورهم وسلاطتهم . . . وإننى ، وأنا أحد المؤلفين ، يجب أن أعترف بأن هذا المسلك معقول جداً ، لأننا فى الحق قبيل لا نفع فيه إطلاقاً »[٣٣] .

ولكنه هو أيضاً . باعترافه — كان مؤلفاً ، مغروراً مفرط الإنتاج . وإذ أحس الضجر فى قلعته ، فقد راح ينقب فى الماضى كأنه يبغى الخوص بجذور عقله فى أغنى طبقات تربته . فوضع «كتالوجاً بمؤلفى انجلترا الملكيين والنبلاء » (١٧٥٨) — فنبلهم يغتفر لهم اشتغالهم بالتأليف ، ورجال من الطراز الأول مثل بيكن وكلارندن يمكن أن يكونوا أهلا لأن يسلكوا فى هذه الطائفة . وطبع ثلاثمائة نسخة وزع معظمها هدايا ، وغامر درسلى بطبعة من ألفى نسخة ، فبيعت بسرعة ، وجاءت لولبول بشهرة لابد أنها جعلته ينكس رأسه خجلا . ثم ضاعف خزيه بخمسة مجلدات عن « نوادر عن التصوير فى انجلتره (١٧٦٢ — ٧١) وهى تصنيف شائق ظفر بتقريظ من جبون .

ثم ألف رواية غرامية تحت للعصر الوسيط كأنه يتخفف من هذه التآليف العلمية المجهدة ، واسم الرواية « قلعة أوترانتو » (١٧٦٤) ، وقد أصبحت أما لألف قصة تروى عجائب وأحوالا خارقة . وقد جمع بين الأسرار الغامضة والتاريخ فى « الشكوك التاريخية حول حياة الملك رتشرد الثالث وملكه » فذهب كما ذهب آخرون بعده إلى أن رتشرد قد افترت عليه الرواية المتواتره وشيكسبير ؛ وقد وصف هيوم وجبون حججه بأنها غير مقنعة ، ولكن ولبول راح يرددها حتى مماته . ثم تحول إلى أحداث عرفها

معرفة خبير ، فكتب مذكرات عن حكمى جورج الثانى وجورج الثالث ، وهى مذكرات منيرة ولكنها متحيزة ، نظر فيها إلى جيله بمنظار أسود لأنه كان حبيس تغرضاته : « وزراء غادرون ، وأدعياء للوطنية ، وبرلمانات مسايرة ، وملوك غير معصومين »(٣٤) . « أننى أرى وطنى يسير إلى الخراب ، وما من إنسان فيه من العقل ما يحمله على إنقاذه »(٣٥) وقد كتب هذا الكلام عام ١٧٦٨ ، حين كان شاتام قد خلق لتوه الامبراطورية البريطانية . وبعد أربعة عشر عاماً ، حين بدا أن الملك واللورد نورث سيدمرانها ، خلص ولبول إلى هذه النتيجة « أننا منحطون انحطاطاً تاماً فى كل ناحية ، وهذا فى ظنى حال كل الدول المتهاوية »(٣٦) وبعد جيل هزمت الجزيرة الصغيرة نابليون . وقد بدا النوع الإنسانى كله لولبول معرض وحوش « فيه حيوانات قميئة ، قصيرة الأجل . . . مضحكة »(٣٧) ولم يجد فى الدين أى عزاء . وقد أيد الكنيسة الرسمية لأنها تساند الحكومة التى تدفع له رواتبه الشرفية. ولكنه لم يخف أنه ملحد(٣٨) « بدأت أرى أن الحماقة مادة ، ولا يمكن تدميرها . فإذا قضيت على شكلها ، اتخذت شكلا آخر »(٣٩) .

وظن حيناً أن فى استطاعته العثور على شىء يحفزه فى فرنسا (سبتمبر ١٧٦٥) . وفتحت له كل الأبواب ، فرحبت به مدام دودفان بديلا عن دالامبير . وكانت فى الثامنة والستين ، وولبول فى الثامنة والأربعين ، ولكن فارق السن اختفى حين التقت روحاهما المتقاربتان فى تبادل رقيق لليأس . وسرها أن تجد ولبول موافقاً على معظم ما قاله فولتير ، ولكنه يود لو أحرق حياً ليمنعه من قوله ، لأنه كان يرتعد فرقاً حين يفكر فيما يحيق بحكومات أوربا إذا انهارت المسيحية . وقد انتقص من قدر فولتير ، ولكنه سخر من روسو . وهذه الرحلة إلى باريس هى التى كتب فيها الخطاب الذى زعم أن كاتبه هو فردريك الأكبر ، يدعو روسو للذهاب إلى برلين والاستمتاع بالمزيد من الاضطهادات . « لقد انتشرت النسخ كأنها الحريق ، وهأنذا أصبحت موضة سرت فى المجتمع »(٤٠) وقد خلف هيوم شخصية تتهافت عليها الصالونات . وتعلم أن يحب إثارة باريس المرحة القاسية ، ولكن كان عزاء له أن يجد « الفرنسيين أحقر منا نحن (الانجليز) عشر مرات »(٤١) .

وبعد أن عاد إلى وطنه (فى ابريل ١٧٦٦) بدأ تراسله الطويل مع مدام دودفان . وسنرى فيما بعد كيف أقلقه الخوف من أن تجعله محبتها له هزؤاً، ومع ذلك فأغلب الظن أن رغبته فى أن يراها من جديد هى التى حملته على العودة إلى باريس فى ١٧٦٧ و ١٧٦٩ و ١٧٧١ و ١٧٧٥ . وقد أنساه حبها عمره ، غير أن موت جراى (٣٠ يوليو ١٧٧١) ذكره بفنائه هو . ولكنه أدهش نفسه بأن عمر حتى ١٧٩٧ . ولم تكن له هموم مالية ، فدخله فى ١٧٨٤ كان ٨,٠٠٠ جنيه (٢٠٠,٠٠٠ دولار ؟) فى السنة[٤٢] ، وفى ١٧٩٦ ورث لقب اللورد أكسفورد . ولكن النقرس الذى ابتلى به منذ كان فى الخامسة والعشرين ظل ينغص عليه عيشه إلى النهاية . ونقرأ أن كتلا متجمعة من « الطباشير » كانت أحياناً تتفجر من أصابعه[٤٣] . وبات هزيلا معوق الحركة فى سنواته الأخيرة ، وأقتضت حالته أن يحمله الخدم أحياناً من حجرة إلى حجرة ، ولكنه واصل العمل والكتابة ، وكان الزوار إذا ألموا به يعجبون لبريق الاهتمام فى عينيه ، وليقظة مجاملاته ، ومرح حديثه ، ونشاط ذهنه وصفائه . وكان كبار القوم يلمون به كل يوم تقريباً ليروا بيته المشهور ومجموعة تحفه المتنوعة ، ومنهم هانا مور فى ١٧٨٦ ، والملكة شارلوت فى ١٧٩٥ .

ولكن رحيله عن هذه الدنيا لم يكن فى ستروبرى هل ، بل فى بيته اللندنى بميدان باركلى ، وكان ذلك فى ٢ مارس ١٧٩٧ فى عامه الثمانين . ويبدو أنه كان نادماً على احتواء مذكراته ورسائله الكثير من الفقرات اللاذعة ، لذلك أمر بأن تحبس مخطوطاته فى صندوق لا يفتح « حتى يطالب بفتحه ايرل والدجريف الأول عند بلوغه الخامسة والثلاثين »[٤٤] وعليه لاتنشر المذكرات إلا فى عام ١٨٢٢ أو بعده ، حين يكون كل الذين قد يتأذون منها قد فارقوا هذه الحياة . وقد نشرت بعض الرسائل فى ١٧٧٨ ، ومزيد منها فى ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٤٠ و ١٨٥٧ . . . وفى العالم القارىء للانجليزية طولا وعرضا رجال ونساء قرأوا كل كلمة وردت فى تلك الرسائل ، وهم يقدرونها فيما يقدرون من أبهج ما خلفه القرن المنير من تراث .

٥ — إدورد جبون

كتب ولبول لأحد كبار المؤرخين ، وهو روبرتسن ، يقول « ان المؤرخين المجيدين أندر الكتاب أجمعين ، ولا غرابة فى هذا ! فالأسلوب الجيد ليس بالأمر الشائع جداً ، وأندر منه الإحاطة الدقيقة الشاملة بالحقائق ، فإذا اجتمع هذان ، فيا لها من صدفة ان أضيفت إليهما النزاهة والحياد ! »[٤٥] ولم يتوفر فى جبون الشرط الأخير تماماً ، ولكن هذا يقال أيضاً عن تاسيتوس ، وهو وحده الذى يمكن أن يقف معه على قدم المساواة بين أساطين المؤرخين .

أ — اعداده

كتب جبون ، أو بدأ كتابه ، ست سير ذاتيه ، أدمجها منفذ وصيته الأدبى ، وهو ايرل شفيلد الأول ، فى « مذكرات . (١٧٩٦) جيدة الحبك ، منقاة دون موجب ، وتعرف أحياناً باسم « السيرة الذاتية » . كذلك كان جبون يدون يومية ، بدأها فى ١٧٦١ وواصل تدوينها تحت عناوين مختلفة حتى ١٨ يناير ١٧٦٣ . وقد حكم العارفون على هذه المصادر الأولى [لنشأته بأنها صحيحة إلى حد معقول ، إلا فيما يتصل بنسبه .

وقد أنفق ثمانى صفحات يفصل القول فى كرم محتده ، وقد أخذه عنه النسابون القساة[٤٦] . فجده إدورد جبون الأول كان أحد مديرى شركة البحار الجنوبية الذين قبض عليهم بتهمة الانحراف بعد أن تفجرت تلك « الفقاعة » (١٧٢١) . وصودرت كل ثروته التى قدرها بمبلغ ١٠٦,٥٤٣ جنيه ، فيما عدا ١٠,٠٠٠ جنيه . ويروى لنا المؤرخ أن على هذه البقية الباقية « بنى صرح ثروة جديدة . . . لا تقل كثيراً عن الأولى »[٤٧] ولم يكن موافقاً على زواج ابنه ادورد الثانى ، ومن ثم أوصى بمعظم ثروته لبنتيه كاترين وهستر وتزوجت بنت كاترين بإدورد اليوت ، الذى اشترى فيما بعد كرسياً فى البرلمان لإدورد جبون الثالث ، أما هستر فأصبحت تابعة غنية من أتباع وليم لو[٤٨] ، وغاظت ابن أخيها ردحاً طويلا بموتها البطىء . وقد تعلم ادورد الثانى على يد لو ، وأكمل تعليمه فى مدرسة ونشستر وفى كمبردج ، وتزوج

جوديت بورتن ، ورزق منها سبعة أطفال ، لم يجز سن الطفولة منهم غير إدورد الثالث .

وقد ولد فى بتن بإقليم صرى فى ٨ مايو ١٧٣٧ . وماتت أمه فى ١٧٤٧ بسبب حملها السابع ، فانتقل الأب إلى ضيعة فى الريف ببيتوريتن فى هامبشير ، على ثمانية وخمسين ميلا من لندن ، تاركاً الصبى فى رعاية خاله ببيت جده فى بتنى . هناك أكثر دارس المستقبل الانتفاع بالمكتبة الحافلة بالكتب . وقد قطعت أمراضه المتكررة تقدمه فى مدرسة ونشستر ، ولكنه كان يشغل أيام نقاهته بالقراءة النهمة وأكثرها فى التاريخ ، خصوصاً تاريخ الشرق الأدنى « ولم يلبث محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون أن استرعوا انتباهى ، وأسلمنى كتاب إلى كتاب حتى طفت بكل تاريخ المشرق . وقبل أن أبلغ السادسة عشرة كنت قد أتيت على كل ماكتب بالإنجليزية عن العرب والفرس ، والتتار والترك »[٤٩] . ومن هنا هذه الفصول الرائعة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين ، والاستيلاء على القسطنطينية .

يروى أنه حين أرسل إلى كلية مجدلين بأكسفورد وهو فى الخامسة عشرة « وصلت إليها بذخيرة من المعرفة الواسعة قد تحير فقيهاً ، وبدرجة من الجهل يندى لها جبين تلميذ » وكان فيه من الهزال ما يمنعه من الانخراط فى الألعاب الرياضية ، ومن الحياء ما يصده عن الاختلاط الطبيعى بغيره من الطلاب . وكان من الجائز أن يكون تلميذاً نابغة لوقيض له معلم كفء : ولكنه على ماكان به من شغف بالتعليم افتقد الأستاذ الشغوف بالتعليم . وكان أكثر المعلمين يسمحون لتلاميذهم بحضور المحاضرات أو التخلف عنها ، وبإنفاق نصف وقتهم فى « اغراءات البطالة »[٥٠] ومن ثم أغضوا عن « انحرافاته السلوكية ، والمعاشرات الردئية ، والسهر ، والإنفاق الطائش » ، وحتى الرحلات الترفيهية إلى باث أولندن . على أنه « كان فى سن الحداثة والحياء ما يمنعنى من الاستمتاع بحانات كوفنت جاردن ومواخيرها كما يستمتع بها الكثير من طلاب اكسفورد حين يلمون بلندن »[٥١] .

وكان أساتذة الكلية كلهم من رجال الدين ، يعلمون ويسلمون بمواد

الكنيسة الانجلكانية التسع والثلاثين . وكان جبون ذا نزعة قتالية ، كثير السؤال لمعلميه . ولاح له أن الكتاب المقدس والتاريخ يبرران الكنيسة الكاثوليكية فى دعواها بالأصل الإلهى . وحصل له أحد معارفه على بعض الكتب المقاقة ، وأهمها كتاب بوسويه « عرض للعقيدة الكاثوليكية وتاريخ المذاهب البروتستنتية » ، هذه « حققت هدايتى ، ولا شك أننى وقعت فى يد نبيلة »[٥٢] . وباندفاع الشباب اعترف على كاهن كاثوليكى ، وقبل عضواً فى كنيسة روما (٨ يونيو ١٧٥٣) .

وأحاط أباه علماً بالأمر ، ولم يدهشه أنه دعى للعودة إلى وطنه ، لأن أكسفورد لم تكن تقبل الطلاب الكاثوليك ، وكان دخول بروتستنتى فى المذهب الكاثوليكى الرومانى — طبقاً لما يقول بلاكستون بعد « خيانة عظمى » . وما أسرع ما نفى الأب المروع الفتى إلى لوزان ، ورتب أن يقيم مع راع كلفنى . هناك عاش إدورد أولا فى حالة من العناد المتجهم . ولكن المسيو بافيار كان رجلا عطوفاً وأن أعوزه التسامح الدينى ، فاستشعر الصبى المحبة له فى بطء . ثم ان الراعى كان دارساً كلاسيكياً قديراً . وتعلم جبون أن يقرأ الفرنسية ويكتبها بطلاقة كالإنجليزية ، واكتسب معرفة طيبة باللاتينية . ولم يلبث أن استقبلته الأسر المثقفة التى كانت طباعها وحديثها تعليماً يفضل ما لقنته أكسفورد من قبل .

فلما تحسنت فرنسيته أحس نسائم العقلانية الفرنسية تهب على اوزان . واختلف بابتهاج إلى التمثيليات التى قدمها فولتير فى مونريون القريبة منه وهو بعد فى العشرين (١٧٥٧) . « وكنت أحياناً أتعشى مع الممثلين »[٥٣] . والتقى بفولتير ، وبدأ يقرأ فولتير ، وقرأ كتاب فولتير الحديث « مقال فى التاريخ العام » (مقال فى الأعراف) . وأكب على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) وأصبح كتاب « تأملات فى أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » (١٧٣٤) نقطة الانطلاق لكتاب جبون « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » . أيا كان الأمر ، فإن تأثير الفلاسفة الفرنسيين ، فضلا عن قراءته لهيوم والربوبيين الانجليز ، قوضاً مسيحية جبون وكاثوليكيته

على السواء ، وأبطل قبول جبون للتنوير سراً الإنتصار الذى أحرزه بافيار للإصلاح البروتستنتى .

ولابد أن روحه انتشت حين التقى فى العام نفسه (١٧٥٧) بكل من فولتير وسوزان كورشو ، وكانت فى العشرين ، شقراء ، حسناء ، مرحة ، تعيش مع أبويها البروتستنتيين فى كراسى ، على أربعة أميال من لوزان ، وكانت الروح القائدة فى « جماعة الربيع » — وهى لفيف من خمس عشرة شابة أو عشرين يلتقين فى بيوت بعضهن البعض ، ويغنين ، ويرقصن ، و يمثلن الكوميديات ، ويغازلن الشباب فى حكمة وتعقل . ويؤكد لنا جبون أن « عفتهن لم تلوثها قط همسة فضيحة أو شبهة » . ولبندعه يروى القصة : « فى زياراتها القصيرة لبعض أقربائها فى لوزان كان ظرف الآنسة كورشو ، وجمالها ، وسعة علمها ، محل إعجاب الجميع . وقد أثار فضولى نبأ هذه العجيبة . فرأيت ، وأحببت . وجدتها مثقفة دون تنطع ، مرحة فى حديثها ، نقية فى عاطفتها ، وشيقة فى طباعها . . . وكانت ثروتها متواضعة ، ولكن أسرتها محترمة . . . وقد أذنت لى بأن أزورها مرتين أو ثلاثاً فى بيت أبيها . وأنفقت أياماً سعيدة هناك . . . وقد شجع والدها هذه الصلة تشجيعاً كريماً فأشبعت حلمى بالسعادة العظمى »[٥٤] .

ويبدو أن خطبتهما عقدت رسمياً فى نوفمبر ١٧٥٧[٥٥] ، ولكن موافقة سوزان كانت مشروطة بوعد جبون بالعيش فى سويسره[٥٦] . وفى غضون هذا أمره أبوه — الواثق بأن ابنه قد غدا الآن بروتستنتياً صالحاً — بأن يعود إلى وطنه ويستمع إلى الخطط التى وضعت له . ولم يكن جبون حريصاً على العودة ، لأن أباه كان قد اتخذ زوجة ثانية ، ولكنه أطاع ، ووصل لندن فى ٥ مايو ١٧٥٨ . « وسرعان ما تبينت أن أبى يرفض هذا الزواج الغريب ، وأننى سأكون مملقاً عاجزاً إذا أبى الموافقة . وبعد كفاح أليم أذعنت لإرادة أبى : تنهدت كعاشق وأطعت كابن »[٥٧] . ثم نقل تنهده إلى سوزان برسالة كتبها فى ٢٤ أغسطس . ورتب له أبوه راتباً سنوياً قدره ٣٠٠ جنيه . وكسبت زوج أمه عرفانه بصنيعها لأنها لم تنجب ، ولم يلبث أن نمت فى

قلبه محبتها . وأنفق شطراً كبيراً من دخله على الكتب ، و «كونت بالتدريج مكتبة كبيرة منتقاة ، هي ركيزة مؤلفاتي ، وخير عزاء لي في الحياة »[٥٨] .

وكان قد بدأ مقالا في لوزان وأتمه في بوريتون (حيث كان ينفق الصيف) وعنوان المقال « في دراسة الأدب» : ، وقد نشر بلندن في ١٧٦١ وبجنيف في ١٧٦٢ . وإذ كان مكتوباً بالفرنسية ، يتناول أول ما يتناول الأدب والفلسفة الفرنسية ، فإنه لم يثر ضجة في انجلتره ، ولكنه استقبل في القارة استقبال إنجاز ممتاز لفتى في الثانية والعشرين . وقد احتوى بعض الأفكار ذات الدلالة في كتابة التاريخ . « ان تاريخ الامبراطوريات هو تاريخ شقاء الإنسان ، وتاريخ المعرفة هو تاريخ عظمته وسعادته . . . والاعتبارات الكثيرة تجعل هذا النوع الثاني من الدراسة غالياً في عيني الفيلسوف»[٥٩] . ومن ثم « إذا لم يكن الفلاسفة دائماً مؤرخين ، فمن المرغوب فيه على الأقل أن يكون المؤرخون فلاسفة »[٦٠] . وقد أضاف جبون في « مذكراته » هذه العبارة « منذ شبابي الباكر تاقت نفسي إلى أن أكون مؤرخاً »[٦١] . وراح يفتش عن موضوع يلائم الفلسفة والأدب كما يلائم التاريخ . أما التاريخ في القرن الثامن عشر فلم يدع أنه علم من العلوم ، لا بل انه تاق إلى أن يكون فناً . أما جبون فأحسن بأنه يريد أن يكتب التاريخ بوصه فيلسوفاً وفناناً : يعالج موضوعات واسعة في منظور واسع ، ويسبغ على فوضى المواد دلالة فلسفية وشكلا فنياً .

غير أنه دعي فجأة من الدراسة إلى العمل . ذلك أن انجلتره تعرضت غير مرة خلال حرب السنين السبع لخطر الغزو من فرنسا . واستعداداً لهذا الطارىء كون أعيان الانجليز مليشيا تذود عن البلاد خطر الغزو أو التمرد . ولم يسمح إلا لذوى الأملاك بأن يكونوا ضباطاً . وعين جبون الأب ضابطاً كبيراً والإبن ضابطاً صغيراً في يونيو ١٧٥٩ . والتحق ادورد الثالث بفرقته في يونيو ١٧٦٠ ، وبقي معها حتى ديسمبر ١٧٦٢ فترات منقطعة ، يتنقل من معسكر إلى معسكر . ولم يكن بالرجل الصالح للحياة العسكرية ، وأصابه « الملل من رفاق لم يؤتوا معرفة الدارسين ولا طباع السادة المهذبين»[٦٢] .

وفى حياته العسكرية وجد صفنه يتمدد بما فيه من سائل . « اضطررت اليوم (٦ سبتمبر ١٧٦٢) لاستشارة الجراح المستر أندروز فى أمر علة أهملتها بعض الوقت ، وهى ورم فى خصيتى اليسرى يخشى أن تكون خطيرة »[٦٣] . ففصد وأعطى مسهلا ، ولم يسفر هذا العلاج إلا عن تخفيف مؤقت . وقد قدر لهذه « العلة » أن تعذبه حتى كانت القاضية عليه .

وفى ٢٥ يناير ١٧٦٣ انطلق فى رحلة إلى القارة . وتوقف برهة فى باريس حيث التقى بدلامبير ، وديدرو ، ورينال ، وغيرهم من نجوم حركة التنوير . «كان لى مكان خلال أربعة أيام فى الأسبوع . . . على الموائد المضيافة للسيدتين جوفران وبوكاج ، وهلفتوس الذائع الصيت ، والبارون دولباخ . . . ومرقت أربعة عشر أسبوعاً دون أن أحس بها ، ولكن لو كنت غنياً غير معتمد على أبى لأطلت المكث فى باريس وربما جعلتها مستقرى»[٦٤] .

وفى مايو ١٧٦٣ وصل إلى لوزان حيث أقام قرابة عام . ورأى الآنسة كورشو ، ولكن حين وجدها موفقة فى خطبتها ، لم يحاول أن يجدد صداقته بها . ويعترف فى هذه الزورة الثانية لسويسره قائلا « ان عادات المليشيا وتمثلى بمواطنى أفضيا بى إلى شىء من الإفراط الصاخب فى الشراب ، وقبل أن أرحل كنت قد فقدت عن جدارة رأى الناس الطيب فى ، وهو الرأى الذى ظفرت به فى أيام سلوكى الأفضل »[٦٥] . وقد خسر مبالغ كبيرة فى القمار ، ولكنه واصل دراساته اعداداً لإيطاليا ، مكباً على القديم من المداليات ، والعملات ، وأدلة السياح ، والخرائط .

وفى ابريل ١٧٦٤ عبر جبال الألب . وأنفق ثلاثة أشهر فى فلورنسة ، ثم مضى إلى روما . وأرشده مغترب استكلندى بين أطلال العصر الكلاسيكى القديم « فى جهد يومى امتد ثمانية عشر أسبوعاً » . يقول « فى روما ، وفى الخامس عشر من أكتوبر ١٧٦٤ ، بينما أنا جالس مستغرقاً فى تأملاتى وسط خرائب الكابتول ، وبينما الرهبان الحفاة يرتلون صلوات العشاء فى معبد جوبتر ، خطرت لى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة لا الامبراطورية »[٦٦] . وانتهى به التفكير إلى أن يرى فى ذلك التفسخ المدمر

« أعظم بل ربما أرهب مشهد فى تاريخ الإنسان »[٦٧] . وبعد أن ألم بنابلى ، وبادوا ، والبندقية ، وفتشنتسا ، وفيرونا ، عاد إلى لندن بطريق تورين وليون وباريس (« أسبوعان سعيدان آخران ») (٢٥ يوليو ١٧٦٥) .

وكان يقضى معظم وقته الآن فى بوريتون ، لذلك سمح لنفسه بأن يتلهى بالبدء فى كتابة تاريخ لسويسره بالفرنسية : فلما رأى هيوم المخطوطة فى لندن ، كتب إلى جبون (٢٤ أكتوبر ١٧٦٧) يرجوه أن يستعمل الانجليزية ويتنبأ بأن الانجليزية ستبز عما قريب الفرنسية انتشاراً ونفوذاً ، ثم نبه جبون إلى أن استعماله للفرنسية أسلمه « إلى أسلوب فيه من الشاعرية والمجاز والإسراف فى التلوين أكثر مما تسمح به لغتنا فى المؤلفات التاريخية »[٦٨] . وقد اعترف جبون بعد ذلك قائلا « ان عاداتى القديمة . . . شجعتنى على أن أكتب بالفرنسية لقارة أوربا ، ولكننى أنا نفسى كنت شاعراً بأن أسلوبى ، الذى كان يعلو على النثر ويدنو عن الشعر ، قد انحدر إلى أسلوب خطابى طنان شديد الاطناب »[٦٩] .

وخلف له موت أبيه (١٠ نوفمبر ١٧٧٠) ثروة وفيرة . وفى أكتوبر ١٧٧٢ اتخذ مقامه الدائم فى لندن . « وما ان استقر بى المقام فى بيتى ومكتبى حتى اضطلعت بتأليف المجلد الأول من تاريخى »[٧٠] .

وقد سمح لنفسه بألوان كثيرة من الترفيه — أمسيات فى بيت هوايت ، واختلاف إلى « نادى » جونسن ، ورحلات إلى برايتن ، وباث ، وباريس . وفى ١٧٧٤ أنتخب عضواً فى البرلمان عن « دائرة جيب » يتحكم فيها قريب له ، وقد لزم الصمت وسط المناقشات التى دارت فى مجلس العموم . وكتب (٢٥ فبراير ١٧٧٥) يقول « مازلت صامتاً . أن الأمر أرهب مما تصورت ، وفحول الخطابة يملأوننى يأساً ، وضعافهم يملأننى رعباً »[٧١] . غير أن « الدورات الست التى قضيتها فى البرلمان كانت لى مدرسة علمتنى الحكمة المهذبة ، وهى أولى فضائل المؤرخ وألزمها »[٧٢] وحين اكتنفه الجدل حول أمريكا ، صوت بانتظام فى جانب سياسة الحكومة ، ووجه للأمة الفرنسية « مذكرة تبريرية » (١٧٧٩) بسط فيها حجج انجلتره ضد مستعمراتها

الثائرة . وقد أجيز بمقعد فى مجلس التجارة والمزارع ، أتاه بسبعمائة وخمسين جنيهاً فى السنة . واتهمه فوكس بالتكسب من ذلك الفساد السياسى الذى أوضح أنه من أسباب اضمحلال روما(٧٣) . وقال الظرفاء ان جورج الثالث اشترى جبون مخافة أن يسجل اضمحلال وسقوط الامبراطورية البريطانية (٧٤) .

ب — الكتاب

كان شغل جبون الشاغل بعد عام ١٧٧٢ كتابه فى التاريخ ، وقد وجد من العسير عليه أن يفكر جدياً فى أى شىء سواه . « لقد بذلت محاولات كثيرة قبل أن أستقر على أسلوب وسط بين سجل الأخبار الممل والعرض الخطابى البليغ . وكتبت الفصل الأول ثلاث مرات ، والثانى والثالث مرتين ، قبل أن أرضى رضاء معقولا عن وقعها »(٧٥) . لقد عقد العزم على أن يجعل كتابه التاريخى أثراً أدبياً .

وفى ١٧٧٥ عرض جبون مخطوطة الفصول الستة عشر الأول على ناشر رفضها لأنها تكلفه ثمناً غالياً يحول دون النشر . واشترك كتبيان آخران هما توماس كولدويل ووليم ستراهان فى مغامرة طبع المجلد الأول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (١٧ فبراير ١٧٧٦) . وبيعت النسخ الألف بحلول ٢٦ مارس رغم أن الكتاب سعر بجنيه انجليزى (٢٦ دولاراً) . ونفدت طبعة ثانية من ألف وخمسمائة نسخة صدرت فى ٣ يونيو بعد صدورها بثلاثة أيام . «كان كتابى على كل خوان ، وعلى كل تسريحة تقريباً»(٧٦) . وأجمعت دنيا الأدب على الثناء عليه وهى على ما عهد فيها من تحاسد وتنابذ يمزقها . وبعث وليم روبرتسن إلى المؤلف بعبارات التحية السخية ، أما هيوم فقد كتب فى هذا العام الذى مات فيه إلى المؤلف رسالة يقول جبون إنها (أجزلت له المكافأة على جهد سنين عشر(٧٧) . وصرح هوراس ولبول غداة نشر الكتاب لوليم ميسن : « ها قد صدر للتو والساعة أثر من عيون الأدب حقاً » .

وقد استهل الكتاب استهلالا منطقياً وجريئاً بثلاثة فصول عميقة فصلت

الامتداد الجغرافى والتنظيم العسكرى والبناء الاجتماعى والتكوين القانونى للامبراطورية الرومانية عند موت مرقص أوريليوس (١٨٠ م .) وفى رأى جبون أن السنين الأربع والثمانين السابقة لهذا التاريخ قد شهدت الإمبراطورية فى أوج كفاية موظفيها ورضى شعوبها .

« لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فترة فى تاريخ العالم كانت فيها حال النوع الإنسانى غاية فى السعادة والرخاء ، لاختار دون تردد الفترة التى امتدت من وفاة دوميشيان (٩٦) إلى تولى كومودس (١٨٠) . فقد كان ملك الامبراطورية الرومانية الشاسع محكوماً بسلطة مطلقة ، وبهدى من الفضيلة والحكمة . وكانت الجيوش تضبطها يد أربعة أباطرة متعاقبين ، جمعت بين الحزم والرفق ، وهم حكام فرضت شخصياتهم وسلطتهم الاحترام التلقائى . وصان أشكال الإدارة المدنية فى عناية ودقة الأباطرة نيرفا ، وتراجان ، وهادريان ، والانطونيان ، هؤلاء الذين كانت صورة الحرية مبعث ابتهاج لهم ، وسرهم أن يروا أنفسهم خدام القوانين والمسئولين . . . ولقيت جهود هؤلاء الملوك خير جزاء فى فخر الفضيلة الحق ، والبهجة العميقة ، يستشعرونها حين يرون السعادة العميقة التى كانوا صناعها »[٧٨] .

غير أن جبون أدرك « تزعزع السعادة التى تعتمد بالضرورة على خلق رجل واحد . ولعل اللحظة القاضية كانت وشيكة ، حين يسىء فتى اباحى أو طاغية حسود . . استعمال السلطة المطلقة »[٧٩] . لقد كان « الأباطرة الصالحون » تنتخبهم ملكية متبنية — فكل حاكم يورث سلطانه لعضو مختار ومدرب من حاشيته . وقد سمح مرقص أوريليوس بأن يرث السلطة الإمبراطورية ابنه الحقير كومودس ، وأرخ جبون اضمحلال الإمبراطورية منذ توليه العرش .

ثم ذهب جبون إلى أن ظهور المسيحية أعان على ذلك الاضمحلال . وهنا تخلى عن اتباع رأى مونتسكيو الذى لم يقل شيئاً كهذا فى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » ، إنما اتبع فولتير ، وكان موقفه عقلانياً خالصاً ، فقد تجرد من أى ميل للنشوة الصوفية أو الإيمان المملوء بالرجاء ،

وأعرب عن رأيه فى فقرة تشم فيها نكهة فولتيرية . قال : « ان شتى أساليب العبادة السائدة فى العالم الرومانى كانت كلها فى نظر الشعب سواء فى الصدق وفى نظر الفيلسوف سواء فى الكذب ، وفى نظر الحاكم سواء فى النفع . وهكذا أثمر التسامح انسجاماً دينياً »[٨٠] ، وكان جبون يتجنب عادة أى تعبير مباشر بعدائه للمسيحية ، فقد كانت لا تزال هناك قوانين فى سجلات انجلترا التشريعية تعد هذا التعبير جريمة خطيرة . مثال ذلك « إذا أنكر شخص نشىء على الديانة المسيحية ، كتابة » ، . . . صدق المسيحية ، كان عقابه إذا عاد . . . السجن ثلاث سنوات دون قبول كفالة عنه »[٨١] . ودرءا لهذا العناء اتخذ جبون الألماع الخفى والتهكم الشفاف عنصرين من عناصر أسلوبه . ونوه فى حرص إلى أنه لن يناقش مصادر المسيحية الأولية وفوق الطبيعية ، بل سيكتفى بمناقشة العوامل الثانوية والطبيعية فى أصل المسيحية ونموها . وأدرج فى هذه العوامل الثانوية « أخلاقيات المسيحيين الطاهرة الصارمة » فى القرن المسيحى الأول ، ولكنه أضاف عاملا آخر « غيرة المسيحيين غيرة لا مرونة فيها (ولا تسامح ان جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير) »[٨٢] ومع أنه امتدح « وحدة الجمهورية المسيحية وانضباطها » ، فإنه لاحظ أنها « شيئاً فشيئاً كونت دولة مستقلة متعاظمة فى قلب الإمبراطورية الرومانية »[٨٣] ، وقد رد بوجه عام تقدم المسيحية فى أول عهدها إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة ، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ .

ولكن كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما ؟ أولا بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمى ، وبذلك قوضت أساس الدولة التى سندها ذلك الدين وقدسها . (وهذا بالطبع كان بالضبط حجة اللاهوتيين على جماعة الفلاسفة) . وارتابت الحكومة الرومانية فى المسيحيين بحجة أنهم يؤلفون جماعة سرية معادية للخدمة العسكرية ، ويصرفون الناس عن الأعمال النافعة إلى التركيز على الخلاص السماوى . (فالرهبان فى رأى جبون كانوا رجالا متبطلين استسهلوا التسول والصلاة عن العمل) . أما الملل الأخرى فكان فى الاستطاعة التسامح معها لأنها كانت متسامحة ولأنها لم تعرض وحدة الأمة للخطر ، وكان المسيحيون هم الملة الجديدة الوحيدة التى نددت بسواها

من الملل وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة ، وتنبأت صراحة بسقوط « بابل » — أى روما(٨٤) . وقد عزا جبون قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل المسيحية اليهودية ، وذهب مذهب تاسيتوس فى التنديد باليهود فى نقاط شتى فى روايته . وحاول أن يفسر اضطهاد نيرون للمسيحيين على أنه فى حقيقته اضطهاد لليهود(٨٥) ، وليس لهذه النظرية اليوم مؤيد . وكان أكثر توفيقاً فى اتباع رأى فولتير فى انقاص عدد المسيحيين الذين استشهدوا على يد الحكومة الرومانية ، فلم يزيدوا فى تقديره على الألفين على الأكثر ، ووافق فولتير على أن « المسيحيين ، على مدى خلافاتهم الداخلية (منذ قسطنطين) أوقعوا بعضهم ببعض من أعمال القسوة ما هو أفدح بكثير مما لا قوة من تعصب الكفار » ، وأن « كنيسة روما دافعت بالعنف عن الإمبراطورية التى اكتسبتها بالحيلة »(٨٦) .

وقد أثار هذان الفصلان الختاميان (١٥ — ١٦) ردوداً كثيرة اتهمت جبون بعدم الدقة ، أو التحريف ، أو عدم الإخلاص . أما جبون فنى تجاهل مؤقت لنقاده سمح لنفسه بالاستمتاع بأجازة طويلة فى باريس (مايو إلى نوفمبر ١٧٧٧) . ودعته سوزان كورشو التى أصبحت زوجة جاك نكير المصرفى ووزير المالية إلى بيتهم . وكانت الآن فى وضع مريح جداً بحيث لم يسؤها ما سبق من أنه « تنهد تنهد العاشق ، وأطاع طاعة الإبن » . أما المسيو نكير ، الذى لم تخالجه الغيرة قط ، فكثيراً ما كان يترك العاشقين السابقين وحيدين ويمضى إلى عمله أو فراشه . وشكا جبون قائلا « أيمكن أن يهينانى إهانة أقسى من هذه ؟ يا لها من طمأنينة وقحة ! » أما جرمين ، ابنة سوزان ، (وهى التى أصبحت فيما بعد مدام دستال (فقد طابت لها صحبته حتى لقد جربت ألاعيبها المنفتحة عليه (وهى بعد فى الحادية عشرة) وعرضت أن تتزوجه حتى تحتفظ به فى الأسرة(٨٧) . وفى بيت نكير التقى بالإمبراطور يوزف الثانى ، وفى فرساى قدم إلى لويس السادس عشر ، الذى قيل إنه شارك فى ترجمة المجلد الأول إلى الفرنسية . واحتفى به القوم فى الصالونات لا سيما صالون المركيزة دودفان ، التى وجدته « لطيفاً مؤدباً . . . أرقى من جميع الأشخاص الذين أعيش معهم تقريباً » ، ولكنها

حكمت على أسلوبه بأنه « منمق ؛ خطابى » ، وأنه « يجرى على طريقة أدبائنا المعترف بهم »[٨٨] . وقد رفض دعوة من بنيامين فرانكلين ، ببطاقة ذكر فيها أنه مع احترامه للمبعوث الأمريكى رجلا وفيلسوفاً ، إلا أنه لايستطيع أن يراه أمراً ينسجم مع واجبه قبل مليكه أن يدخل فى أى حديث مع رجل من الرعايا الثائرين . ورد فرانكلين بأنه يكن من الاحترام الشديد للمؤرخ ما يجعله سعيداً — أن خطر لجبون يوماً أن يتخذ من اضمحلال الإمبراطورية البريطانية وسقوطها موضوعاً للتأليف — بأن يزوده ببعض المواد المتصلة بالموضوع »[٨٩] .

فلما عاد جبون إلى لندن ، أعد رداً على نقاده — « دفاع عن بعض فقرات وردت فى الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٩) وقد تناول خصومه اللاهوتيين فى إيجاز ورفق ، ولكنه احتد قليلا فى رده على هنرى ديفز ، وهو فتى فى الحادية والعشرين كان قد اتهم جبون فى كتاب من ٢٨٤ صفحة بأخطاء سببها عدم الدقة . وقد اعترف المؤرخ ببعض الأخطاء ولكنه أنكر « تعمد التحريف ، والأخطاء الجسيمة ، والانتحالات الذليلة »[٩٠] . واستقبل هذا « الدفاع » عموماً على أنه رد موفق . وبعدها لم يرد جبون على النقد إلا عرضاً فى « المذكرات » ، ولكنه وجد مكاناً لبعض المديح الذى أسبغه على المسيحية على سبيل المصالحة فى أجزاء الكتاب التالية .

وقد ازداد تأليفه سرعة بفقده كرسيه فى البرلمان (أول سبتمبر ١٧٨٠) ، فصدر المجلدان الثانى والثالث من « التاريخ » فى أول مارس ١٧٨١ وقد استقبلا استقبالا هادئاً . ذلك أن غزوات القبائل الهمجية كانت قصة قديمة ، أما المناقشات الطويلة المتخصصة للهرطقات التى أثارت الكنيسة المسيحية فى القرنين الرابع والخامس فلم يكن فيها ما يشوق جيلا من الشكاك الدنيويين . وكان جبون قد أرسل سلفاً نسخة من المجلد الثانى إلى هوراس ولبول ، فزار الآن ولبول فى ميدان باركلى ، وأحزنه أن يقال له « إن فى الكتاب إسهاباً كثيراً عن الأريوسيين والأونوميين وأشباه البلاجيين . . . بحيث أننى أخشى

أن القليلين سيصبرون على قراءة القصة رغم أنك كتبتها كأفضل ما يمكن كتابتها » . وكتب ولبول يقول « من تلك الساعة إلى الآن لم أره قط ، مع أنه اعتاد أن يزورنى مرة أو مرتين كل أسبوع »[٩١] . وقد وافق جبون فيما بعد على رأى ولبول[٩٢] .

واستعاد المجلد الثانى الحياة حين تصدره قسطنطين . وقد فسر جبون دخوله الشهير فى المسيحية على أنه عمل من أعمال الحنكة فى فن الحكم . ذلك أن الامبراطور كان قد أدرك أن تنفيذ أحكم القوانين أمر قاصر وغير مأمون ، وأنها قلما تلهم بالفضيلة ، وليس فى قدرتها دائماً أن تكبح جماح الرذيلة » . وفى وسط فوضى الأخلاق والاقتصاد والحكم فى الإمبراطورية الممزقة ، « قد يلحظ حاكم حصيف فى سرور تقدم دين يبث بين الناس نسقاً من المبادىء الخلقية نقياً خيراً شاملا للجميع ، مكيفاً لكل واجب وكل ظرف من واجبات الحياة وظروفها ، مزكى باعتباره إرادة الإله الأعلى وفكره ، منفذاً بتكريس من الثواب أو العقاب الأبديين »[٩٣] . أى أن قسطنطين أدرك أن العون المستمد من دين فوقطبيعى هو عون عظيم القيمة للأخلاق والنظام الاجتماعى والحكومة . ثم جرى قلم جبون بمائة وخمسين صفحة بليغة محايدة عن يوليان المرتد .

وقد ختم الفصل الثامن والثلاثين والمجلد الثالث بهامش امتدح ما تحلى به جورج الثالث من « حب خالص كريم للعلم وللبشر» . وفى يونيو ١٧٨١ ، وبمساعدة اللورد نورث ، أعيد انتخاب جبون للبرلمان ، حيث استأنف تأييده للوزارة . على أن سقوط اللورد نورث (١٧٨٢) أنهى حياة مجالس التجارة وأطاح بوظيفة جبون فيه ؛ « لقد جردت من راتب مريح مقداره ٧٥٠ جنيهاً فى العام »[٩٤] . فلما شغل نورث مكاناً فى وزارة ائتلاف(١٧٨٣) ، تقدم جبون بطلب وظيفة شرفية أخرى . ولكنه لم ينلها « ماكنت لأستطيع بغير دخل إضافى أن أحتفظ طويلا أو بحكمة وتدبر بأساوب الإنفاق الذى ألفته »[٩٥] . وقدر أن فى استطاعته الاحتفاظ بذلك الأساوب فى اوزان ، حيث كان لجنيهاته الاسترلينية ضعف قوتها الشرائية فى لندن . وعليه فقد

استقال من البرلمان ، وباع كل ممتلكاته المنقولة غير الشخصية ، فيما خلا مكتبته ، وفى ١٥ سبتمبر ١٧٨٣ رحل عن لندن « بدخانها وثرائها وضوضائها» قاصداً لوزان . وهناك قاسم صديقه القديم جورج ديفردان قصراً مريحاً . وأنا أشرف على منظر مترام يجمع بين الوادى والجبل والماء ، بدلا من الإطلال على حوش مبلط مساحته اثنا عشر قدماً مربعاً »(٩٦) . ووصلته كتبه الألفان بعد أن تأخرت قليلا ، فشرع فى تأليف المجلد الرابع .

وكان قد خطط أول الأمر أن ينهى « الاضمحلال والسقوط» بفتح روما عام ٤٧٦ . ولكنه بعد أن نشر المجلد الثالث « بدأت أتوق إلى الواجب اليومى ، إلى البحث النشيط الذى يسبغ على كل كتاب قيمة ، وعلى كل تحقيق هدفاً »(٩٧) . ومن ثم استقر رأيه على أن يفسر عبارة « الإمبراطورية الرومانية » على أنها تنتظم الإمبراطورية الشرقية كما تنتظم الغربية ، وأن يواصل قصته حتى يبلغ بها تدمير الحكم البيزنطى بفتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ . وهكذا أضاف ألف سنة إلى مجال دراسته ، واضطلع بمئات المواضيع الجديدة التى تتطلب البحث الشاق المضنى .

وقد احتوى المجلد الرابع على فصول رائعة عن جستنيان وبلساريوس ، وفصل عن القانون الرومانى ظفر بمديح عظيم من فقهاء القانون ، وفصل ممل عن مزيد من الحروب التى استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين . كتب ولبول يقول : « ليت المستر جبون لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطره أو أى من هؤلاء الحمقى ! »(٩٨) . وقد تحول جبون فى المجلد الخامس فى تخفيف واضح إلى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وأغدق على النبي والخلفاء الحربيين كل التفهم المحايد الذى خانة فى حديثه عن المسيحية . وأعطته الحروب الصليبية موضوعاً مثيراً آخر فى المجلد السادس ، وكان استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية الذروة لمؤلفه والتاج الذى تكلل عمله .

وقد لخص جهوده فى الفصل الأخير فى جملة مشهورة : « لقد وصفت

انتصار الهمجية والدين »[٩٩] . ولم ير فى العصور الوسطى غير الفجاجة والخرافة وهو ما رآه فيها فولتير ، أستاذه الذى لم يقر بفضاه . وقد صور حالة الخراب التى آلت إليها روما فى ١٤٣٠ واستشهد برثاء بودجو لها إذ قال « ليت شعرى أى خطب دهى بهاء الدنيا هذا ! اشد ما انهار ، وتغير ، وشاه منظرا ! » — رأى خراب الآثار والفن الكلاسيكيين أو تهدمهما ، وساحة روما وقد حجبها نمو الحشائش واحتلتها الماشية والخنازير . واختتم جبون فى حزن بهذه العبارة « وسط خرائب الكابتول خطر لى لأول مرة خاطر القيام بهذا العمل الذى أبهج ودرب عشرين سنة من حياتى تقريباً ، عمل أسلمه فى النهاية إلى فضول جمهور القراء وصراحتهم أيا كان قصوره عن أن يدرك مرامى» . وقد استحضر فى « مذكراته » تلك الساعة ، ساعة الخلاص المفعمة بالمشاعر المتناقضة :

« فى عشية السابع والعشرين من يونيو ١٧٨٧ ، بين الحادية والثانية عشرة ، كتبت آخر السطور فى آخر صفحة ، فى ظلة صيفية فى حديقتى ، وبعد أن وضعت قلمى تجولت مرات . . . فى ممشى مغطى من أشجار السنط ، يشرف على مشهد يجمع بين الريف ، والبحيرة ، والجبال . . . ولست أريد إخفاء مشاعر الفرح التى غمرتنى لاستعادتى حريتى ، وربما لتوطيد شهرتى . ولكن سرعان ما أذلت كبريائى وأشاعت فى عقلى اكتئاباً هادئاً ، فكرة فراقى فراق الأبد لرفيق قديم أنيس ، وأنه أيا كان مصير كتابى مستقبلا ، فإن حياة المؤرخ لا محالة قصيرة مزعزعة »[١٠٠] .

جـ — الرجل

وصف المسيو بافيار جبون وهو فى السادسة عشرة بأنه « جسد قصير نحيل يعلوه رأس كبير »[١٠١] . وإذ كان يكره الرياضة ويحب الطعام[١٠٢] ، فإنه سرعان ما اكتسب استدارة فى الجسم والوجه ، وأصبح له كرش محترم يعتمد على ساقين نحيلتين ، أضف إلى ذلك شعراً أحمر جعده من الجنب وعقصه من الخلف ، وقسمات ملائكية لطيفة ، وأنفاً دقيقاً ، وخدين منتفخين ، وذقناً ملغدا ، وأهم من ذلك كله جبين عريض عال يعد بـ « الانجازات

عظيمة القدر والخطر» والجلال واتساع المرمى . وكان قريباً لجونسن فى شهيته ولولبول فى نقرسه . وقد تضخم صفنه بشكل مؤلم عاماً بعد عام حتى أبرزته سراويله الضيقة بروزاً مزعجاً . ولكنه رغم معايبه كان مغروراً بمظهره ولباسه ، وصدر المجلد الثانى من كتابه بصورته التى رسمها له رينولدز . وكان يحمل علبة نشوق فى خاصرته ، وينقر عليها نقراً خفيفاً إذا احتد أو أراد أن يصغى إليه سامعه . وكان أنانياً شأن أى رجل له هدف يستغرقه . ولكنه كان صادقاً « لقد وهبت مزاجاً بشوشاً ، وحساسية معتدلة (ولكن دون اسراف فى العاطفة) وميلا فطرياً للاسترخاء »[١٠٣].

وفى ١٧٧٥ أنتخب عضواً فى « النادى » . وكان كثير التردد عليه نادر الكلام فيه ، يبغض فكرة جونسن عن الحديث . وكان جونسن يعلق على « دمامة » جبون على نحو مسموع أكثر مما ينبغى[١٠٤] ، أما جبون فكان يصف هذا « الدب الأكبر » بأنه « علام حكيم » وأنه « عدولا يغفر » ، و « عقل متعصب تعصباً أعمى وإن كان قوياً ، يتلقف أى عذر ليبغض من يخالفون عقيدته ويضطهدهم »[١٠٥] . وأما بوزويل ، الذى لم يكن يشعر بشفقة على غير المؤمنين ، فقد وصف المؤرخ بأنه « إنسان دميم مغرور مقزز» ينغص على « منتدانا الأدبى » . ومع ذلك فلا بد أن جبون كان له أصدقاء كثيرون ، لأنه وهو فى لندن كان يتناول العشاء خارج بيته كل ليلة تقريباً .

وقد قدم من لوزان إلى لندن فى أغسطس ١٧٨٧ ليشرف على طبع المجلدات الرابع والخامس والسادس ، والتى صدرت فى عيد ميلاده الحادى والخمسين فى ٨ مايو ١٧٨٨ ، وأتته بأربعة آلاف من الجنيهات ، ويعد هذا من أعلى الأتعاب المدفوعة لمؤلف فى القرن الثامن عشر . يقول « ان خاتمة مؤلفى عمت قراءتها واختلف الحكم عليها . . . ومع ذلك يبدو على الجملة أن « تاريخ الاضمحلال والسقوط قد أصل جذوره سواء فى أرض الوطن أو خارجه ، ولعل ذمه سيستمر ربما بعد مائة عام »[١٠٦] . وكان آدم سمث قد وضعه فعلا « على رأس معشر الأدباء قاطبة ، الموجودين الآن فى

أوربا »[١٠٧] . وفى ١٣ يونيو ١٧٨٨ ، خلال محاكمة هيستنجز فى وستمنستر هول ، طاب لجبون أن يسمع من شرفة الزوار شريدان يشير فى خطاب من أروع خطبه إلى « صفحات جبون الوضاءة » (Luminous) [١٠٨] . وفى رواية غير محتملة التصديق أن شريدان زعم فيما بعد أنه قال (Voluminous) أى الغزيرة الإنتاج[١٠٩] ، ولكنها صفة لا يمكن أن تنعت بها الصفحات ، والصفة الأولى هى ولا ريب اللفظ االمطابق لمقتضى الحال .

وفى يوليه ١٧٨٨ قفل جبون إلى لوزان . وبعد عام مات ديفردان مخلفاً بيته لجبون ما بقى من عمر المؤرخ . هنالك عاش جبون فى رغد ، يقوم على خدمته عدة خدم ويأتيه دخل قدره ١,٢٠٠ جنيه فى العام ، وشرب النبيذ الكثير ، وزاد نقرسه ومحيط خصره ، « من ٩ فبراير إلى أول يوليو ١٧٩٠ عجزت عن التحرك من بيتى أو مقعدى »[١١٠] . وإلى هذه الحقبة تنتمى الأسطورة التى زعمت أنه جثا عند قدمى مدام كروزاز يبوح لها بحبه ، وأنها طلبت إليه أن ينهض ، وأنه لم يستطع لثقل جسمه[١١١] . والمصدر الوحيد للقصة هو مدام جفليس التى وصفها سانت — بوف بأنها « امرأة خبيثة اللسان »[١١٢] ؛ وقد رفضت ابنتها القصة وقالت أن سببها هو الخلط بين الأشخاص »[١١٣] .

ثم قطعت الثورة الفرنسية على جبون هدوءه . وترددت المشاعر الثورية فى الأقاليم السويسرية ، وجاءت الأنباء بهياج مماثل فى انجلتره . وكان لجبون كل العذر فى خوفه من أن تسقط الملكية الفرنسية ، لأنه كان يستثمر ١,٣٠٠ جنيه فى قرض للحكومة الفرنسية[١١٤] . وكان قد كتب عام ١٧٨٨ ، فى نبوءة لم يوفق فيها ، أن الملكية الفرنسية « تقف ، كما يبدو ، على أساس من صخر الزمن ، والقوة ، والرأى ، تساندها أرستقراطية ثلاثية من الكنيسة والنبلاء والبرلمانات »[١١٥] ، وقد اغتبط حين أصدر بيرك كتابه « تأملات فى الثورة فى فرنسا » (١٧٩٠) ، وكتب إلى االورد شفيلد محذراً من أى اصلاح فى النظام السياسى البريطانى ، « لو سمحتم بأدنى تغيير وأكثره تمويهاً فى نظامنا البرلمانى لقضى عليكم »[١١٦] . وراح الآن

يتحسر على نجاح جماعة الفلاسفة فى حربهم التى شنوها على الدين ، « لقد خطر لى أحياناً أن أكتب حواراً بين الموتى ، يتبادل فيه لوسيان وارزم وفولتير الاعتراف بخطر تعريض خرافة قديمة لاحتقار الجماهير العمياء المتعصبة »[١١٧] . وحث بعض زعماء البرتغاليين على ألا يتخلوا عن ديوان التفتيش خلال هذه الأزمة التى هددت كل العروش[١١٨] .

ورحل جبون عن لوزان (٩ مايو ١٧٩٣) وأسرع بالعودة إلى انجلتره ، من جهة هرباً من جيش الثورة الفرنسى المقترب من لوزان ، ومن جهة أخرى التماساً للجراحة الانجليزية ، ولسبب قريب هو تعزية اللورد شفيلد فى وفاة زوجته ، فوجد شفيلد فى شغل بالسياسة عجل بسلواه . كتب جبون يقول « شفى المريض قبل وصول الطبيب »[١١٩] . وأذعن المؤرخ نفسه الآن لأوامر الأطباء ، لأن قيلته كانت قد بلغت من التضخم « حجم طفل صغير تقريباً . . . إننى أزحف زحفاً بشىء من الجهد وكثير من عدم اللياقة »[١٢٠] وقد صرفت إحدى الجراجات جالوناً من « السائل المائى الشفاف » من الخصية المريضة . ولكن السائل تجمع ثانية ، وأخرج بزل ثان ثلاثة أرباع الجالون ، واستشعر جبون الراحة مؤقتاً ، واستأنف الخروج للعشاء . ولكن القيلة تكونت من جديد ، وباتت الآن عفنه . وفى ١٣ يناير بزلت للمرة الثالثة . وبدا أن جبون يتماثل للشفاء سريعاً ، وسمح له الطبيب بأكل اللحم ، وأكل جبون بعض الدجاج وشرب ثلاث أكواب من النبيذ . فأصابته آلام معوية شديدة حاول كما حاول فولتير تخفيفها بتعاطى الأفيون . ولكن فى ١٦ يناير مات بالغاً السادسة والخمسين .

د — المؤرخ

لم يكن جبون ملهماً فى مرآه ولا فى خلقه ولا فى سيرته ، فعظمته كلها انسكبت فى كتابه ، فى فخامة فكرته وشجاعتها ، فى الصبر على تأليفه والتفنن فيه ، وفى الجلال الوضاء الذى كلله كله .

أجل ، لقد صدق شريدان فيما قال . فأساوب جبون وضاء بالقدر الذى يسمح به التهكم ، وقد ألقى الضوء أينما اتجه ، اللهم إلا حيث يحجب الهوى

الهوى رؤيته . وقد شكلت أسلوبه دراساته اللاتينية والفرنسية ، فرأى الألفاظ الأنجلو — سكسونية البسيطة لاتناسب وقار مذهبه فى الكتابة ، وكثيراً ماكتب كأنه خطيب يخطب ، وما أشبهه فى هذا بليني يشحذه هجاء تاسيتوس ، وبيبرك تجلوه فكاهة بسكال الذكية . كان يوازن بين جمله بمهارة المشعوذ وجذله ، ولكنه أسرف فى تكرار لعبته هذه حتى قاربت الرتابة المملة أحياناً . وإذا كان أسلوبه يبدو فخماً طناناً ، فإنه الأسلوب اللائق بترامى موضوعه وبهائه — وهو تفتت أعظم امبراطورية شهدها العالم على مدى ألف عام . ومآخذ أسلوبه العرضية تتوه وسط زحف الرواية وقوة الأحداث ، والصور والأوصاف الكاشفة ، والتلخيصات الباتة التى تجمل قرناً بأسره فى فقره ، وتزاوج بين الفلسفة والتاريخ .

ولقد شعر جبون بعد أن اضطلع بهذا المبحث المترامى أن له الحق فى تضييق حدوده ويقول « إن الحروب ، وإدارة الأمور العامة ، هما موضوعا التاريخ الرئيسيان »[١٢١] ، ومن ثم أغفل تاريخ الفن والعلم والأدب ، فلم يكن لديه ما يقوله عن الكتدرائيات القوطية أو المساجد الإسلامية ، ولا عن العلم أو الفلسفة العربيين ، وقد توج بترارك ، ولكنه مر بدانتى مرور الكرام . ولم يكد يلقى بالا إلى حال الطبقات الدنيا ، أو قيام الصناعة فى القسطنطينية أو فلورنسه فى العصر الوسيط . وفقد اهتمامه بالتاريخ البيزنطى التالى لموت هرقل (٦٤١) . وفى رأى بيورى « أن جبون أخفق فى إبراز حقيقة خطيرة ، هى أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت حتى القرن الثانى عشر حصن أوربا الحصين فى وجه الشرق ، كذلك لم يقدر أهميتها فى الحفاظ على تراث المدينة الإغريقية »[١٢٢] ، غير أن جبون فى نطاق الحدود التى رسمها لنفسه بلغ العظمة بربطه النتاج بالأسباب الطبيعية ، وبتحويله ضخامة مواده إلى ترتيب مفهوم ورؤية هادية للصورة بأكملها .

لقد كان علمه واسعاً كثير التفاصيل . فحواشيه ذخيرة من المعرفة تلطفها الفكاهة الذكية ، وقد درس أعوص جوانب العالم القديم ، بما فيه من طرق وعملات وموازين ومقاييس وقوانين ، ووقع فى أخطاء صححها

المتخصصون ، ولكن بيورى هذا الذى بين مآخذه أضاف : « لو أخذنا فى الاعتبار المدى الشاسع لمؤلفه لأدهشتنا دقته »[١٢٣] ولم يستطع أن ينقب فى المصادر الأصلية غير المنشورة (كما يفعل محترفو المؤرخين ممن يقتصرون على رقعة صغيرة من الموضوع والزمان والمكان) ، ولكى يتم عمله اقتصر على المادة المطبوعة ، واعتمد بصراحة على مراجع ثانوية مثل كتاب أوكلى « تاريخ المسلمين » أو كتابى تلمون « تاريخ الأباطرة » و « التاريخ الكنسى » ؛ وبعض المراجع التى اعتمد عليها مرفوضة الآن لأنها غير موثوق بها[١٢٤] ، وقد أفصح عن مصادره فى تفصيل أمين وشكر مؤلفيها ؛ من ذلك أنه قال فى هامش حين جاوز الفترة التى تناولها تلمون : « هنا علىّ أن أستأذن إلى الأبد من ذلك المرشد الذى لايبارى »[١٢٥] .

ترى ما النتائج التى خلص إليها جبون من دراسته للتاريخ؟ إنا نراه أحياناً يتبع جماعة الفلاسفة الفرنسيين فى قبول حقيقة التقدم : « يجوز لنا أن نرتضى النتيجة السارة التى تذهب إلى أن كل عصر فى العالم زاد ومازال يزيد من ثروة النوع الإنسانى الحقيقية ، وسعادته ، ومعارفه ، وربما فضائله »[١٢٦] ، ولكنه فى لحظات أقل اشراقاً — وربما لأنه قد اتخذ الحرب والسياسة (واللاهوت) مادة للتاريخ — حكم على التاريخ بأنه « فى الحق لايعدو كثيراً أن يكون سجلا لجرائم الإنسان وحماقاته ونكباته » * [١٢٧] ولم ير فى التاريخ قصداً مرسوماً ؛ فالأحداث ثمرة أسباب لا موجه لها ، فهى متوازى أضلاع من قوى ذات أصل مختلف ونتيجة مركبة . وفى كل هذه المشاكل من الأحداث يبدو أن الطبيعة البشرية تظل دون تغيير . ولقد ابتلى النوع الإنسانى دائماً وسيظل دائماً مبتلى ، بالقسوة والمعاناه والظلم ، لأنها هذه كلها مركبة فى طبيعة البشر» ، ان الإنسان خليق بأن يخشى من ثورات إخوانه من البشر أكثر كثيراً مما يخشى اضطرابات الطبيعة العنيفة [١٢٩] .

(*) قارن فولتير «كل التاريخ ، باختصار ؛ ليس إلا . . . مجموعة جرائم وحماقات ونكبات . . . (١٢٨) .

لقد تاقت نفس جبون وهو ربيب التنوير إلى أن يكون فيلسوفاً ، أو على الأقل أن يفلسف التاريخ . « ان العصر المستنير يطالب المؤرخ بمسحة من الفلسفة والنقد » [١٣٠] . وكان يحب أن يقطع روايته بتعليقات فلسفية . ولكنه لم يزعم أنه يرد التاريخ إلى قوانين أو يصيغ « فلسفة للتاريخ » . على أنه اتخذ له موقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى اتخذ له موقفاً فى بعض المسائل الأساسية : فقد قصر تأثير المناخ على العصور الأولى من المدنية ، ورفض أن يكون العرق عاملا حاسماً [١٣١] ؛ وأقر ، فى حدود بتأثير الأفذاذ من الرجال . « أن أهم المشاهد فى الحياة البشرية تتوقف على أخلاق ممثل فرد . فقد يحتد عرق فى رجل واحد فيغير مصير أمم » [١٣٢] . وحين كان فى استطاعة قريش أن تغتال محمدا (صلى الله عليه وسلم (« كان من الجائز أن يغير رمح عربى تاريخ العالم » [١٣٣] . ولو لم يهزم شارل مارتل المغاربة فى تور (٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوربا بأسرها ، « ولكان تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أكسفورد ، ولكان تلاميذها يفسرون لشعب من المختونين قدسية الوحى الذى نزل على النبى وصدقه » [١٣٤] . على أنه لابد للفرد الفذ من أن يرتكز على سند واسع إن أراد أن يحرز أقصى نفوذ على عصره . « إن النتائج التى يحققها الإقدام الشخصى ضئيلة جداً ، إلا فى الشعر أو الرومانس ، بحيث يجب أن . . . يعتمد النصر على درجة المهارة التى يستعان بها لتجميع عواطف الجماهير المشبوبة وتوجيهها لخدمة رجل فرد » [١٣٥] .

صفوة القول أن « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » يمكن على الجملة أن يعد الكتاب الأعظم للقرن الثامن عشر ، وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » أقرب منافس له . صحيح أنه لم يكن أكثر الكتب تأثيراً ، ولم يكن يكن فى تأثيره على التاريخ قريباً لكتاب روسو « العقد الاجتماعى » أو لكتاب آدم سمث « ثروة الأمم » ، أو لكتاب كانط « نقد العقل الخالص » . ولكنا إذا نظرنا إليه بوصفه أثراً أدبياً وجدناه لا يبارى فى جيله أو نوعه . فإذا سألنا كيف أتيح لجبون أن ينتج هذه الرائعة أدركنا أن السر كان فى

ذلك الارتباط الذى تصادف أن ربط بين الطموح والمال والفراغ والكفاية ؛ ولا ندرى متى يمكن أن نتوقع تكرار هذا الارتباط ثانية . لقد قال مؤرخ آخر لروما هو بارتولد نيبور « أن كتاب جبون لن يبزه كتاب أبدا »(١٣٦) .

— ٦ — تشاترتن وكوبر

من يظن الآن أن أحب الشعراء الانجليز الأحياء إلى قلوب الناس فى عام ١٧٦٠ هو تشارلز تشرشل ؟ كان ابنا لقسيس ، وقد رسم هو نفسه قسيساً أنجليكانياً ، غير أنه هوى مباهج لندن ، وصرف زوجته ، وغرق فى الديون ، ونظم قصيدة حظيت بالشهرة يوماً ما ، هى « الروسكياده » (١٧٦١) وأتاحت له الوفاء بديونه ، وتقرير معاش لزوجته ، و « أن يطلع على الناس فى زى لا دينى على نحو صارخ كفتى من فتيان لندن العصريين »(١٣٧) . وقد اتخذ قصيدته اسمها من كوينتس روسكيوس الذى سيطر على المسرح الرومانى أيام يوليوس قيصر ؛ وهجت القصيدة كبار ممثلى لندن ، وجعلت جاريك يجفل ؛ وذكر عن أحد ضحاياها أنه « كان يجرى فى شوارع المدينة كأنه ظبى جريح »(١٣٨) . وقد انضم تشرشل إلى ولكس فى شعائر « مدمنهام آبى » الفاجرة ، وأعانه على تحرير صحيفة « النورث بريتون » ، وذهب إلى فرنسا ليقاسم والكس منفاه ، ولكنه مات فى بولون (١٧٦٤) إثر سكرة فاجرة ، و بـ « لامبالاة أبيقورية »(١٣٩) .

وهناك قسيس آخر يدعى توماس بيرسى عاش حياة تليق بردائه الكهنوتى ، وأصبح أسقفاً على درومور فى ارلنده ، وترك بصمته على الأدب الأوربى حين استنقذ مخطوطاً قديماً من يد خادم كانت على وشك احراقه ، وقد أمده المخطوط بأحد المصادر لكتابه « آثار من الشعر القديم » (١٧٦٥) وراقت هذه القصائد القصصية الشعبية التى تنتمى لبريطانيا فى العصر الوسيط المخضرمين من القراء ، وشجعت الروح الرومانتيكية — التى طالما كبتتها النزعة العقلية والمزاج الكلاسيكى — على الأعراب عن نفسها شعراً وقصصاً وفناً . وقد أرخ ورد زورث من هذه الآثار ظهور الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى . وكانت أشعار مكفرسن « أوسيان » ،

وقصائد تشاترتن ، وقصائد ولبول « قلعة أوترنتو » و « ستروبرى هل » ، وقصيدتا بكفورد « فاذك » و « فونتل آبى » — هذه كلها كانت أصواتاً شتى فى صيحة تدعو للوجدان والغموض والرومانس ، وتملكت العصور الوسطى الروح العصرية برهة .

وقد بدأ توماس تشاترتن محاولته لتشرب العصر الوسيط بإطالة النظر فى رقاق عتيقة عثر عليها عمه فى كنيسة بيرستل . وقد شب هذا الغلام الحساس الخصب الخيال — الذى ولد ببرستل (١٧٥٢) عقب موت أبيه — فى عالم من صنع خيالاته التاريخية . وقد درس قاموساً للألفاظ الأنجلو — سكسونية ، ونظم فى لغة خالها لغة القرن الخامس عشر قصائد ادعى أنه عثر عليها فى كنيسة سانت مارى راد كليف ، ونسبها إلى توماس راولى ، وهو راهب وهمى من رهبان القرن الخامس عشر . وفى ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة عشرة ، أرسل بعض « قصائد راولى » هذه إلى هوراس ولبول — الذى كان هو ذاته قد نشر « أوترانتو » زاعماً أنها من شعر العصر الوسيط الأصيل قبل ذلك بخمس سنوات . وأطرى ولبول القصائد ودعا لإرسال المزيد منها ، فأرسل تشاترتن المزيد ، وطلب العون على إيجاد ناشر ينشرها ، ووظيفة مجزية فى لندن . وعرض ولبول القصائد على توماس جراى ، ووليم ميسن ، فحكم كلاهما عليها بأنها مزيفة . وكتب ولبول إلى تشاترتن أن هذين الأديبين « غير مقتنعين إطلاقاً بصحة مخطوطه المزعوم » ونصحه بأن يطرح الشعر جانباً حتى يستطيع كسب قوته . ثم رحل ولبول إلى باريس ونسى أن يرد القصائد لصاحبها . وكتب تشاترتن فى طلبها ثلاث مرات ، وانقضت ثلاثة أشهر قبل أن تصله[١٤٠] .

وذهب الشاعر إلى لندن (ابريل ١٧٧٠) وسكن علية فى شارع بروك بهوبورن . وأرسل إلى دوريات شتى مقالات منحازة لواكس ، وبعض قصائد راولى ، ولكن حصيلة الأجر الذى تلقاه عنها (ثمانية عشر بنساً للقصيدة) كانت أقل من أن تقيم أوده ، فحاول الحصول على وظيفة مساعد جراح على باخرة تجارية أفريقية ولكنه أخفق — وفى ٢٧ أغسطس نظم وداعاً مراً للعالم :

وداعاً يا أكوام الآجر القذرة فى برستوليا ،
يا عشاق المال ، وعباد الخديعة والختل !
لقد ازدريتم الفتى الذى أعطاكم الأغانى القديمة ،
وأثبتم المعرفة بالمديح الفارغ .
وداعاً أيها الحمقى من الرؤساء السكارى ،
الذين هيأتكم الطبيعة مطية للفساد !
وداعاً أمى ! وكفى أنت يا روحى المضناة ،
ولا تدعى أمواج الحيرة والذهول تطغى على !
رحماك أيتها السماء إن أنا كففت عن العيش هنا ،
واغفرى لى هذه الفعلة الأخيرة من أفعال الشقاء .

ثم انتحر بشرب الزرنيخ بالغاً من العمر سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر . ودفن فى قبر من قبور الفقراء المعدمين .

وقصائده تملأ اليوم مجلدين . ولو كان قد وصفها بأنها تقليد لا أصل فلربما اعترف له بأنه شاعر أصيل ، لأن بعض قصائد راولى لا تقل جودة عن معظم القصائد الأصلية من هذا النوع ذاته . وكان حين يكتب شعراً باسمه يستطيع نظم شعر هجائى يكاد يضارع شعر بوب ، كما نرى فى قصيدته « المشودى »[١٤١] ، أو فى سبعة عشر بيتاً — هى أهجى شعره كله — يسوط فيها ولبول متملقاً ذليلا غليظ القلب[١٤٢] . فلما أن نشرت مخطوطاته المتخلفة (١٧٧٧) اتهم المشرف على نشرها ولبول بأن عليه تقع بعض التبعة فى موت الشاعر ، ودافع ولبول عن نفسه بأنه لم يشعر بأى التزام بمساعدة مزيف مصر على التزييف[١٤٣] . وأصر بعض ذوى القلوب الرحيمة كجولد سمث على أن القصائد أصيلة لا مزيفة ، وضحك جونسن من صديقه ، ولكنه قال : « هذا أعجب شاب عرفته . غريب كيف كتب الجرو كلاماً كهذا »[١٤٤] . أما شلى فقد خلد ذكرى الفتى تخليداً موجزاً فى قصيدته « أدونيس »[١٤٥] ، وأما كيتس فقد نظم قصيدته « انديميون » فى ذكراه .

لقد هرب تشاترتن من واقع برستل ولندن والكئيب عن طريق أساطير العصر الوسيط والزرنيخ . أما وليم كوبر فقد هرب من لندن التى عشقها جونسن إلى البساطة الريفية ، والإيمان الدينى ، والجنون الدورى . وقد رىء جده من تهمة القتل وأصبح قاضياً ، وكان أبوه قسيساً انجليكانيا . وأمه تنتسب إلى الأسرة التى أنجبت جون دن . وقد ماتت وهو فى السادسة ، مخلفة له ذكريات حزينة لحد بها وحبها ، وحين أرسل له ابن عم له بعد ثلاثة وخمسين عاماً صورة قديمة لأمه استعاد فى قصيدة رقيقة(١٤٦) تلك الجهود التى كثيراً ما بذلتها لتهدىء المخاوف التى أظلمت ليالى طفولته .

وقد انتقل من هاتين اليدين الرقيقتين فى عامه السابع إلى مدرسة داخلية أصبح فيها المسخر الجبان لطالب متنمر أرهقه بكل ثقيل مذل من الواجبات . وأصيب بالتهاب فى عينيه ، فاضطر أن يظل أعواماً تحت رعاية رمدى . وفى ١٧٤١ ، حين بلغ العاشرة ، بعث إلى مدرسة وستمنستر فى لندن . وبدأ فى السابعة عشرة الاشتغال ثلاثة أعوام كاتباً فى مكتب محام بهوبورن . واكتمل الآن نضجه للرومانس ، وكانت ابنة عمه تيودورا كوبر تعيش بقربه ، فغدت معبودة أحلام يقظته . وحين بلغ الحادية والعشرين اتخذ له مسكناً فى « المدل تمبل » ، وفى الثالثة والعشرين سمح له بالاشتغال بالمحاماة . وإذ كان كارهاً للقانون ، شديد الاحجام أمام المحاكم ، فقد ابتلى بحالة من الوهم المرضى ، ازدادت عمقاً حين نهى تيودورا أبوها عن أى اتصال بابن عمها . ولم يرها كوبر بعدها قط ، ولم ينسها قط ، ولم يتزوج قط .

وفى ١٧٦٣ ، حين واجه ضرورة المثول أمام مجلس العموم ، انهارت أعصابه ، واختلط عقله ، وحاول الانتحار . وأرسله بعض أصحابه إلى مستشفى للأمراض العقلية فى سانت أولبنز . وأفرج عنه بعد ثمانية عشر شهراً ، وإثر العيش فى هنتنجدن قرب كمبردج معتزلا الناس تقريباً . وقال إنه الآن « لا يرغب فى أى صحبة إلا صحبة الله والمسيح »(١٤٧) . وقد قبل العقيدة الكلفينية بحذافيرها ، وأطال التفكير فى الخلاص والهلاك الأبدى . وألقت به الصدفة السعيدة بين يدى أسرة محلية كان إيمانها مجلبة للسلام والرحمة لا للخوف ، وأفرادها هم القس مورلى أنوين ، وزوجته مأرى ،

وابنه وليم ، وابنته سوزانا . وقد شبه كوبر أب هذه الأسرة بالقس أدمز فى قصة فيلدنج «جوزف أندروز» ، ووجد أما ثانية له فى السيدة أنوين التى كانت تكبره بسبع سنين ، وقد عاملته هى وابنتها معاملة الإبن والأخ ، وأسبغتا عليه من عطف المرأة الرقيق ما كاد يجيب إليه الحياة من جديد . ودعته الأسرة للعيش معها ، ففعل (١٧٦٥) ووجد الشفاء فى حياتها البسيطة .

ولكن هذا النعيم زال فجأة حين قتل الأب إثر سقطه من فوق جواده . وانتقلت الأرملة والإبنة إلى أولنى فى بكنجهامشير واصطحبتا معهما كوبر ، ليكونوا كلهم قريبين من الواعظ الإنجيلى الشهير جون نيوتن . وقد أقنع كوبر أن ينضم إليه فى افتقاد المرضى وتأليف الترانيم . واحتوت إحدى «ترانيم أولنى» هذه أبياتاً مشهورة :

إن الله يتحرك بطريقة خفية
ليصنع عجائبه ،
انه يزرع خطاه فى البحر
ويركب فوق العاصفة[١٤٨] .

على أن مواعظ نيوتن المنذرة بنار الجحيم ، والتى «هزت توازن الكثيرين من أعضاء كنيسته» لم تهدىء من مخاوف الشاعر اللاهوتية بل زادتها حدة[١٤٩] . يقول كوبر «إن الله يبدو لى دائماً رهيباً إلا حين أراه تعالى وقد تجرد من شوكته لأنه أغمدها فى جسد المسيح»[١٥٠] وعرض الزواج على السيدة أنوين ، ولكن نوبة ثانية من نوبات الجنون (١٧٧٣) حالت دون زواجهما ، ثم تماثل للشفاء بعد ثلاث سنين من العناية المشربة بالمحبة . وفى ١٧٧٩ رحل نيوتن عن أولنى ، واتخذت تقوى كوبر مظهراً أكثر اعتدالا .

وأعانت نساء أخريات مارى أنوين على إبقاء الشاعر على صلة بالأرضيات . فتركت الليدى أوستن ، الأرملة المرحة ، بيتها اللندنى وقصدت أولنى ، واتصلت بآل أنوين ، وجلبت المرح والحبور إلى بيت طال تركيزه على المآسى العارضة للحياة . وهذه السيدة هى التى روت لكوبر القصة التى

أحالها إلى « تاريخ جون جلبن المسلى »[١٥١] ، ورحلته الوعرة التى أكره عليها ، وأرسل صديق الأسرة هذه القصة الشعرية المرحة لاحدى الصحف ، وألقاها ممثل كان قد خلف جاريك على مسرح دروري لين هناك ؛ فغدت حديث لندن السائر ، وذاق كوبر طعم الشهرة لأول مرة . ولم يكن قد أخذ شاعريته من قبل مأخذ الجد ، ولكن الليدى أوستن حثته الآن على أن ينظم شعراً ذا قيمة . ولكن فى أى موضوع ينظمه ؟ أجابت فى أى شىء ، وأشارت إلى أريكة ، ثم فرضت عليه واجب إذاعة شهرتها فى شعره . وقد سره أن تأمره امرأة فاتنة ، فنظم قصيدة « الواجب » . وحين نشرت القصيدة عام ١٧٨٥ استقبلها الناس بالترحيب بعد أن ملوا الحرب والسياسة وصراع المدينة .

وكتابة أو قراءة ستة « كتب » عن أريكه واجب ثقيل حقاً ما لم يؤت المرء خلق « كريبيون » الإبن[١٥٢] ؛ ولكن كوبر كان لديه من الفطنة ما يكفى لاستخدامها نقطة انطلاق لا أكثر . فبعد أن جعل منها القمة فى قصة فكهة عن المقاعد ، تسلل إلى موضوعه المفضل الذى يمكن اجماله فى بيت القصيد الذى يقول « لقد صنع الله الريف ، أما الإنسان فصنع المدينة »[١٥٣] . وقد اعترف الشاعر بأن الفن والبلاغة مزدهران فى لندن ، وأثنى على رينولدز وشاتام ، وتعجب من العلم الذى « يقيس الذرة ويطوق العالم الآن »[١٥٤] . ولكنه وبخ « ملكة المدائن على عقابها بالموت بعض السرقات التافهة » ، على حين تغدق أسباب التشريف على « مختلسى المال العام » . يقول :

من لى بكوخ فى برية شاسعة
يكتنفه ظل مترام لا حدود له ،
حيث لا تقرع سمعى بعدها
أنباء الظلم والخداع ،
ولا أخبار الحرب الخاسرة أو الظافرة ،
إن أذنى لتتأذى ، ونفسى لتشمئز ،
بما يأتى به كل يوم من أنباء

العدوان والمظالم التى تمتلىء بها الأرض[١٥٥] .

وقد روعه الاتجار بالرقيق ، وكان صوته أحد الأصوات الانجليزية الأولى التى نددت بالرجل الذى :

يرى أخاه مذنباً بجريرة جلد
لونه غير لون جلده ؛ وإذ كان له
من القوة ما يمكنه من إنقاذ الباطل . .
فهو يدينه ويتملكه فريسة حلالا . . .
فما الإنسان إذن ؟ وأى إنسان له مشاعر البشر
يرى هذا ولا يحمر وجهه خجلا ،
ولا ينكس رأسه خزياً من مجرد الفكرة بأنه إنسان ؟[١٥٦]

ومع ذلك يختم بهذه العبارة « انى مازلت أحبك رغم كل أخطائك يا انجلتره »[١٥٧] .

وقد أحس أن هذه الاخطاء تخف ان ثابت انجلتره إلى الدين وحياة الريف . « كنت ظبيا جريحاً ترك القطيع » أى أنه ترك لندن حيث « تدفعنا العاهرات بالمرافق »، ووجد شفاءه فى الأيمان والطبيعة . تعال إلى الريف ! وتأمل نهر أوز « يحتوى مخترقاً سهلا مستوياً » ، ثم هاتيك الماشية المطمئنة وكوخ الفلاح وساكنية الأشداء ، وبرج القرية يرمز للحزن والرجاء ! واستمع إلى رشاش مساقط المياه، وزقزة الطيور فى الصباح . إن لكل فصل أفراحه فى الريف ، فأمطار الربيع بركة ، وثلوج الشتاء نقية . وما أبهج السير الثقيل وسط الثلوج ثم التجمع حول نار المدفأة فى المساء ! » .

ولم يكتب كوبر شيئاً ذا بال بعد « الواجب» . وفى ١٧٨٦ انتقل ثانية إلى وستن أندروود القريبة ، وهناك كابد نصف عام آخر من الجنون . وفى ١٧٩٢ أصيبت السيدة أنوين بالفالج ، وظلت ثلاث سنين عليلة عاجزة ؛ فمرضها كوبر كما مرضته من قبل ، وفى آخر شهر فى حياتها كتب أبياته التى عنونها « إلى مارى أنوين » :

ان خصلك الفضية التى كانت يوماً ما حمراء مشرقة
ما زالت فى ناظرى أحب إلى

من أشعة الصبح الذهبية
يا عزيزتى مارى! (١٥٨)

وفى ١٧٩٤ ، حين أثقلته الهموم ، وأرهقه جهده فى ترجمة غير موفقة لهومر ، التاث عقله مرة أخرى ، فحاول الانتحار : ثم شفى ، وأعفاه من عيشة الضنك معاش حكومى قدره ٣٠٠ جنيه . ولكن مارى أنوين ماتت فى ١٧ ديسمبر ١٧٩٦ ، وشعر كوبر أنه ضائع مهجور رغم أنه وجد صديقة جديدة فى أخت تيودورا ، وهى الليدى هاريت كوبر هسكث . ولازمته المخاوف الدينية فى أيامه الأخيرة ، ثم قضى نحبه فى ٢٥ ابريل ١٨٠٠ بالغا الثامنة والستين .

وكان فى عالم الأدب ينتمى إلى الحركة الرومانتيكية وفى عالم الدين إلى الحركة الإنجيلية . وقد اختتم عصر سيادة بوب على الشعر ومهد لوردزورث ، وأدخل فى الشعر طبيعية فى الشكل وصدقاً فى المشاعر أوقف سيل الثنائيات المفتعلة الذى أطلقه « العصر الأوغسطى » على انجلترا . وكان دينه لعنة عليه لأنه صور له إلهاً منتقماً وجحيماً لاغفران فيه ، ومع ذلك فلعل الدين هو الذى دفع أولئك النسوة الرحيمات ، كما دفعتهن غرائز . الأمومة ، إلى الحدب على هذا « الظبى الجريح » فى كل أحزانه وأفكاره السوداء .

٧ — أولفر جولدسمث

وكان لـ « بل المسكين» هو أيضاً مآسيه ، غير أنها لم تعمقها عقيدة سادية ، وخففت منها انتصارات فى النثر والشعر وعلى خشبة المسرح .

كان أبوه خوريا انجليكانياً متواضعاً فى قرية إرلندية ، يكسب أربعين جنيهاً فى العام بإضافة الفلاحة إلى اللاهوت . فلما أن بلغ أولفر الثانية من عمره (١٧٣٠) رقى الخورى قسيساً لكيلكيني وست ، وانتقلت الأسرة إلى بيت يقع على طريق رئيسى قرب ليسوى ، التى غيرت فى تاريخ لاحق اسمها فى ضمير الشاعر إلى « أوبرن » حين نظم قصيدته « القرية المهجورة » .

والتحق جولدسمث بالمدرسة الأولية تلو المدرسة ، وكان أنصع ذكريات أيامه المدرسية تلك ذكرى أمين امدادات سابق فى الجيش تحول معلماً ، ولم يستطع قط أن ينسى حروبه ، ولكنه كان إلى ذلك يروى لتلاميذه القصص الساحرة عن الجان وأرواح المنذرات بالموت والعفاريت . وحين بلغ

الصبي التاسعة أشرف على الموت من الجدري ، وزاد هذا المرض على ذلك تشويهاً ابتلى به وجه من أقل الوجوه حظاً من الوسامة وهب لروح لطيفة محببة . وفي الخامسة عشرة التحق بكلية ترنتي في دبلن طالباً معانا ، يرتدي ثوباً يميزه ، ويؤدي خدمات حقيرة ، ويلاحقه معلم مستبد بمضايقاته . فهرب إلى كورك ، مزمعاً أن يحاول الرحلة إلى أمريكا ، غير أن أخاه الأكبر منه « هنري » أدركه ولاطفه فاقتنع بالعودة إلى الكلية . وتفوق أولفر في الدراسات الكلاسيكية ، غير أن دراسة العلوم استعصت عليه ، ولكنه على أي حال أفلح في نيل درجة البكالوريوس .

ثم تقدم بطلب لوظيفة كنسية صغيرة ، ولكنه أدهش الأسقف بما ارتداه من سراويل قرمزية واشتغل معلماً خاصاً بعد أن رفض طلبه ، وتشاجر مع تلميذه ، ويمم ثانية شطر كورك وأمريكا . فتدخل في الأمر عم له أقرضه خمسين جنيهاً ليذهب إلى لندن ، وخسر أولفر المبلغ كله في بيت للقمار . وقد أفزع أقرباءه لما لحظوا فيه من عجز وقلة حيلة ، ولكن سحرهم مرحه ونايه وأغانيه . وجمع له بعض المال للإنفاق على دراسته الطب في إدنبره ثم في ليدن . وقد حقق بعض التقدم ، ويقص علينا أنه كان في باريس يختلف إلى محاضرات روويل في الكيمياء . ثم انطلق على مهل (١٧٥٥) يتجول في أنحاء فرنسا ، وألمانيا ، وسويسره ، وشمالي إيطاليا ، يعزف على نايه في المراقص الريفية ، ويظفر بوجبات طعام كيفما اتفق له ، ويتلقى الصدقات على أبواب الأديرة(١٥٩) . ثم عاد إلى انجلتره في يناير ١٧٥٦ ومارس الطب في لندن ، وصحح تجارب الطبع لصموئيل رتشردسن ، واشتغل معلماً بمدرسة في صري ، ثم استقر في لندن كاتباً مأجوراً يقوم بأشتات من الأعمال الأدبية غير المنتظمة ويكتب المقالات للمجلات . وقد كتب في أربعة أسابيع « حياة فولتير » . وفي ١٧٥٩ أقنع ددسلي بأن ينشر كتاباً سطحياً اسمه « تحقيق في أحوال الثقافة الراقية في أوربا » . وقد أساءت تعليقات التحقيق حول مديري المسارح إلى جاريك إساءة لم ينسها قط . وزعم هذا التحقيق أن عصور الأدب الخلاق تنحو إلى أن تتلوها عصور نقد ، وتستنبط قواعد من أعمال المبدعين ، وتنزع إلى تقييد أسلوب الشعراء الجدد وتعويق خيالهم . وقد رأى جولدسمث أن أوربا كانت تمر بهذه الحال في ١٧٥٩ .

وبعد عام كتب لصحيفة نيوبرى « ببلك لدجر » بعض « الرسائل الصينية » التى أعيد نشرها فى ١٧٦٢ بعنوان « مواطن العالم » . أما خطتها فقديمة : فهى تصور رحالة شرقياً يروى أساليب عيش الأوربيين فى ضحك واشمئزاز شديد ، فنرى « لاين تشى ألتانجى » يصف فى رسائله إلى صديق له فى وطنه ، أوربا مسرحاً فوضوياً للجشع والطمع والدسائس . وقد نشر جولدسمث الكتاب غفلا من اسمه ، غير أن أهل فليت ستريت (شارع الصحافة) تبينوا أسلوبه فى اللغة البسيطة ، والأوصاف النابضة بالحياة ، والنبرة اللطيفة المحببة ، فلما أحس بشهرته انتقل إلى مسكن أفضل فى رقم ٦ بشارع واين أوفس كورت . وكان قد أطرى جونسن فى « الرسائل الصينية » فجرؤ الآن على دعوة واضع المعجم إلى العشاء (وكان يسكن على جانب الطريق المقابل) . وحضر جونسن ، وبدأت من يومها صداقتهما المديدة (٣١ مايو ١٧٦١) .

وحدث فى يوم من أيام أكتوبر ١٧٦٢ أن تلقى جونسن رسالة عاجلة من جولدسمث يطلب فيها العون . فأرسل إليه جنيهاً ، وحضر بعد قليل ، فوجد أن جولدسمث يوشك أن يقبض عليه لعدم دفعه أجرة مسكنه : وسأل جونسن صديقه إن كان لديه شىء ذو قيمة يرهنه أو يبيعه . فأعطاه جولدسمث مخطوطاً عنوانه « قسيس ويكفيلد » . ويقول جونسن [١٦١] . إنه طلب إلى صاحبة الدار أن تنتظر ، وقدم القصة إلى الكتبى جون نيوبرى ، وباعها له بستين جنيهاً . ثم دفع بالنقود إلى جولدسمث ، فسدد هذا الإيجار واحتفل بهذه المناسبة بزجاجة من النبيذ . واحتفظ الكتبى بالمخطوط أربع سنين دون أن ينشره .

وفى ديسمبر ١٧٦٤ طلع جولدسمث بأول قصائده الكبرى « الرحالة أو إطلالة على المجتمع » وقد استعاد فيها جولاته فى القارة ، ووصف ما فى كل قطر من نقائص وفضائل ، ولاحظ أن كل بلد يحب نفسه خير بلاد الله . وفاخر بقوة انجلتره (التى كانت لتوها قد انتصرت فى حرب السنين السبع) . ووصف أعضاء البرلمان بهذين البيتين :

انى أشهد سادة الجنس البشرى يمرون
وفى مشيتهم شموخ ، وفى عيونهم تحد ؛

ولكنه أنذر بأن الجشع يلوث الحكم البريطانى ، وأن الحظائر المسيجة ، المنبثة بأنانية الأغنياء ، تفقر طبقة الفلاحين وتدفع أبناء انجلتره الشداد للهجرة إلى أمريكا . وكان قد أطلع جونسن على المخطوط ، فأضاف أبياتاً ستة معظمها قرب الخاتمة ، استخف فيها بتأثير السياسة على سعادة الفرد ، وأطرى المباهج البيتية البسيطة .

وقد أدهش نجاح القصيدة جميع الناس عدا جونسن الذى أعانها بتقريظ أذاعه وقال فيه « انه لم ننشر قط قصيدة بهذا الجمال منذ أيام بوب »[١٦١] وهو قول تجاهل الشاعر جراى . وجنى الناشر ربحاً طيباً من الطبقات المعادة ، ولكنه لم ينقد الشاعر غير عشرين جنيهاً . وانتقل جولدسمث إلى مسكن أفضل فى « التمبل » ، واشترى ثياباً جديدة ظهر فيها بسراويل أرجوانية ، ومعطف قرمزى ، وشعر مستعار ، وعصا ، ثم استأنف فى مظهره الوقور هذا مهنة التطبيب . غير أن التجربة لم يحالفها التوفيق ، ثم رده نجاح « قسيس ويكفيلد » إلى حظيرة الأدب ثانية .

ذلك أن الكتبى الذى كان قد اشترى المخلوط من جونسن أحس أن شهرة جولدسمث الجديدة ستكون معواناً على تقبل القراء لهذه القصة الغريبة . وقد صدرت فى طبعة صغيرة فى ٢٧ مارس ١٧٦٦ ، فبيعت الطبعة فى شهرين ، وبيعت طبعة ثانية فى ثلاثة أشهر أخرى ، ولكن المبيع من القصة لم يغط نفقات الناشر إلا عام ١٧٧٤ . وفى تاريخ مبكر (١٧٧٠) زكاها هردرلجوته ، الذى رأى فيها « قصة من أفضل ماكتب من قصص إلى الآن »[١٦٢] . وأمن ولتر سكوت على هذا الرأى[١٦٣] . أما واشنطن ايرفنج فقد تعجب من أن عزبا حرم الحياة الأسرية منذ طفولته استطاع أن يرسم « ألطف وأحب صورة للفضيلة الأسرية وكل ما يحبب الناس فى الحياة الزوجية »[١٦٤] . ولعل حرمان جولدسمث من الحياة الأسرية هو الذى حداه إلى أن يضفى على البيت هذه الصفات المثالية ، ولعل حياة العزوبة التى كان يحياها على مضض هى التى جعلته يتسامى بصفات الشباب من النساء ، ولعل غرامياته المجهولة هى التى دفعته إلى الإعلاء من قدر عفة المرأة لأنها أثمن من الحياة . وقد أمدته ذكرياته الحبيبة عن أبيه وأخيه

بصورة الدكتور برمروز ، الذى كان بوصفه « قسيساً ، ومزارعاً ، ورب أسرة . . . يجمع فى ذاته أعظم ثلاث شخصيات على هذه الأرض»[١٦٥] . وقد عادت جولاته هو تظهر فى شخص الإبن جورج ، الذى ختم رحلاته كما ختم جولدسمث نفسه كاتباً مأجوراً فى لندن . ان القصة بعيدة التصديق ، ولكنها ساحرة .

وسرعان ما نفدت حصيلة « الرحالة » و « قسيس ويكفيلد » ، ولاغرو فقد كان جولدسمث متلافاً لا يستقر المال فى يده لحظة ، يعيش دائماً فى المستقبل . وقد تطلع بعين الحسد إلى الشهرة والمال اللذين قد تأتى بهما مسرحية ناجحة فرصد قلمه لاقتحام هذا الميدان العسير من ميادين الأدب ، وسمى ثمرة جهده « الرجل الطيب» وعرضه على جاريك . وحاول جاريك أن ينسى التعليقات المهينة التى كتبها جولدسمث عنه من قبل ، ووافق على أن يخرج المسرحية . ولكنها كانت تسخر من الكوميديات العاطفية ، وهذه الكوميديات هى التى درت على جاريك الربح الوفير . فاقترح إدخال بعض التغييرات على المسرحية ، ولكن جولدسمث رفضها . ونقد جاريك المؤلف مقدماً أربعين جنيهاً ، ولكنه تباطأ تباطؤاً شديداً حمل المؤلف المتهور على عرض المخطوط على منافس لجاريك هو جورج كولمان الذى كان يدير مسرح الكوفنت جاردن . وانتقص ممثلو كولمان من قدرالمسرحية ، ولكن جونسن أيدها تأييداً قوياً ، وحضر بروفاتها ، وكتب المقدمة التى تلقى قبيل العرض . وعرضت أول مرة فى ٢٩ يناير ١٧٦٨ ، واستمر عرضها عشر ليال ، ثم سحبت باعتبارها ناجحة نجاحاً متوسطاً ، ومع ذلك بلغ صافى ما حصله المؤلف منها ٥٠٠ جنيه .

فلما أن جرى المال فى يد جولدسمث عاماً انتقل إلى شقة جميلة فى بريك كورت مخالفاً نصيحة جونسن ، وأثثها تأثيثاً ممتازاً اضطره إلى العودة للكتابة المأجورة ليغطى نفقاته . وأخرج الآن كتباً شعبية فى التاريخ — تاريخ روما ، واليونان ، وانجلتره . و « تاريخاً للطبيعة الحية » — وكلها فقير فى الدرس أثراه النثر الرشيق . وحين سأله بعضهم لم كتب كتباً كهذه أجاب

بأنها أعانته على قوته ، بينما أفضى به الشعر إلى التضور جوعاً . ومع ذلك ففى ٢٦ مايو ١٧٧٠ طلع على القراء برائعته « القرية المهجورة » التى نقد عنها مائة جنيه — وهو ثمن طيب فى ذلك العهد لقصيدة لا تجاوز سبع عشرة صفحة طولا . وقد نفدت منها أربع طبعات فى ثلاثة أشهر .

أما موضوعها فهجر الزراع للريف بعد أن أفقدتهم الحظائر المسيجة أرضهم . وقد رسمت صورة لقريته :

أى أوبرن الحلوه ! يا أجمل قرى السهل ،
حيث يقر الفلاح الكادح عينا بالعافية والخير الوفير

وخلعت القصيدة كل الألوان الوردية التى حلم بها خيال جولدسمث الحضرى على رخاء الفلاح الذى زعم أنه سبق هذه الحظائر المسيجة . وصف المناظر الريفية ، والأزهار المختلفة ، « والكوخ الظليل ، والمزرعة المحروثة » ورياضات القرية ومراقصها ، و « العذراء الخجول » والصبى المغمز ، والأسر السعيدة التى تسودها التقوى والفضيلة . ثم عاد يرى أباه يعظ كنيسة كيلكينى وست :

كان رجلا عزيزاً على الناحية كلها
يعيش فى رغد بأربعين جنيهاً فى العام —
وهو مبلغ كفاه لأن يطعم الشريد ،
وينقذ المتلاف ، ويؤوى الجندى المحطم ،
ويفتقد المرضى ، ويواسى المحتضرين .
كانت نظراته فى الكنيسة تجمل المكان الوقور
وهو يلقيها فى لطف ورقة دون افتعال ؛
ويخرج الحق من شفتيه قوياً جباراً ،
فيمكث الجهال ليصلوا بعد أن جاءوا ليستهزئوا ! .

أما معلم المدرسة الذى أدب الشاعر فى طفولته فقد تحول فى ذكرياته إلى مدرس « صارم الطلعة » .

ومع ذلك كان رحيماً ، فإذا عنف فى شىء

فلأن المحبة التي يكنها للعلم كانت خاطئة
ثم كان بارعاً في الجدل باعتراف القسيس ،
فهو يواصله ولو كان مغلوباً
وكان بألفاظه الطويلة البليغة المرعدة
يبهر الريفيين الملتفين حوله محدقين
وتحديقهم يطول ، وعجبهم يشتد ،
لأن رأساً واحداً صغيراً حوى كل علمه .

وخيل لجولدسمث أن هذا الفردوس دمرته الحظائر المسيجة ، فاستحالت مزرعة الفلاح إلى أرض للرعى ،وفرت أسر الفلاحين إلى المدن أو المستعمرات ، وأخذ يجف ذلك النبع الريفي الذي تنبثق منه الفضيلة الصادقة .

الويل لبلد يتكدس فيه المال ويفسد الرجال ،
فهو فريسة لشرور وآفات لن تمهله طويلا

أما وقد كتب جولدسمث خير قصيدة جاد بها جيله ، فقد عاد الآن إلى الدراما . وفي ١٧٧١ عرض كولمان كوميديا جديدة سماها « تمسكنت فتمكنت» وتباطأ كولمان كما تباطأ جاريك من قبل ، حتى تدخل جونسن في الأمر وأمر المدير تقريباً بإخراج التمثيلية . وكتب جاريك مقدمتها بعد أن تصالح مع جولدسمث . وبعد شدائد وضيقات كادت تحطم روح المؤلف ، أخرجت المسرحية في ١٥ مارس ١٧٧٣ . وحضر جونسن ورينولدز وغيرهما من الأصدقاء حفلة الافتتاح وكانوا أول المصفقين . أما جولدسمث نفسه فكان أثناء ذلك يتجول في حديقة سانت جيمس على غير هدى ، إلى أن عثر عليه بعضهم وأكد له أن مسرحيته لقيت نجاحاً عظيماً . وقد طال عرضها ، وجاءته الحفلات التي خصصت حصيلتها له بعام من الرخاء .

وكان قد ارتقى الآن بنفسه إلى مكانة لا يعلو عليه فيها سوى جونسن بين كتاب العصر الانجليزي ، بل لقد حقق الشهرة خارج وطنه . وكان شخصية قائده في « النادي » ، وجرؤ على مخالفة جونسن مراراً . وذات مرة والحديث يدور حول قصص الحيوان الخرافية ، لاحظ أن من العسير

جداً أن تجعل السمك يتكلم كالسمك ، ثم قال لجونسن « وليس هذا بالأمر اليسير كما تحسبه ، لأنك لو شئت أن تجرى الكلام على ألسنة السمك الصغير لتكلم كله كما تتكلم الحيتان »[١٦٦] . وكان « الدب الأكبر » يخمشه ببراثنه أحياناً فى قسوة ، ولكنه أحبه رغم ذلك ، وقد رد جولدسمث المحبة بمثلها رغم حسده جونسن على تفوقه فى فنون الحديث . ولم يكن جولدسمث قد نظم معارفه ورتبها قط ، ولم يكن فى استطاعته الرجوع إليها بسرعة أو ذكاء ، قال جاريك « كان يكتب كما يكتب الملاك ، ويتحدث كما يتحدث بل المسكين »[١٦٧] . أما بوزويل فكان ينزع إلى الغض من قدر جولدسمث ، ولكن كثيراً من معاصريه — كرينولدز ، وبيرك ، وولكس ، وبرسى — احتجوا على هذا الغض لما فيه من ظلم[١٦٨] . وقد لوحظ أن جولدسمث كثيراً ما كان يحسن الحديث فى الاجتماعات التى يغيب عنها جونسن[١٦٩] .

وكانت لهجته فى الحديث ، وعاداته ، ومظهره — كلها تعاكسه . فهو لم ينس قط لهجته الأرلندية . وكان شديد الأهمال لهندامه ، يلهو أحياناً يلبس الملابس الزاهية المتعددة الألوان المتناقضة المظهر . وكان مغروراً مزهواً بما حصل من ألوان الثقافة ، ولم يعترف بتفوق جونسن عليه كاتباً ، وكان طوله خمسة أقدام وخمس بوصات ، وقد غاظه طول جونسن وضخامته ، وكانت طبيعته الطيبة تشرق من خلال وجهه القبيح . والصورة التى رسمها له رينولدز لم تخلع عليه جمالا ، فهنا شفتان غليظتان ، وجبين متراجع ، وأنف ناتىء ، وعينان قلقتان . وقد زاد الرسامون الكاريكاتوريون أمثال هنرى بنبرى فم أولفر اتساعاً وأنفه طولا ، ووصفته صحيفة « اللندن باكت» بأنه أورانجوتان[١٧٠] ، وسرت فى المدينة عشرات القصص عن أخطائه الفاضحة فى حديثه وسلوكه ، وعن حبه المستور للحسناء مارى هورنك .

أما أصدقاؤه فكانوا عليمين بأن عيوبه سطحية ، تخفى روحاً من الود ، والمحبة ، والكرم الذى كاد يدمر صاحبه ، وحتى بوزويل وصفه بأنه « أعظم من وجد من الرجال سماحة قلب ، أما وقد أتيح له الآن قدر كبير من الذهب مما غلته مسرحياته الفكاهية ، فإن جميع المعوزين يعتمدون عليه »[١٧١] . فإذا لم يعد لديه من المال ما يعطيه اقترض ليسد مطالب الفقراء

الذين التمسوا العون منه[١٧٢] . وقد رجا جاريك (الذى لم يكن قد استرد منه جنيهاته الأربعين) أن يقرضه ستين جنيهاً على ذمة مسرحية أخرى ، فوافاه بالمبلغ . وبلغت ديون جولدسمث عند موته ٢٠٠٠ جنيه . وتساءل جونسن « هل وجد قط فقير أولاه الناس هذه الثقة من قبل ؟ »[١٧٣] .

وفى ١٧٧٤ ، بينما كان على وشك الذهاب إلى أحد الأندية العديدة التى انتمى إليها ، أصابته الحمى . فأصر على أن يصف لنفسه الدواء ، ناسياً نصيحة بوكليرك بأنه ينبغى ألا يصف الدواء إلا لأعدائه ، وتناول عقاراً مسجلا ، فساءت حاله . ودعى طبيب لعيادته ، ولكن وقت إنقاذه كان قد فات . وقضى نحبه فى ٤ ابريل غير متجاوز الخامسة والأربعين . والتف حول جثمانه حشد من الباكين ، وكانوا رجالا ونساء بسطاء يكادون يعتمدون فى قوتهم على صدقاته . ودفن فى فناء كنيسة « التمبل » ولكن أصحابه أصروا على أن يقام له نصب تذكارى فى وستمنستر آبى . ونحت نولكنز التذكار وكتب جونسن القبرية . وكان خيراً منها السطور التى كتبها الشاعر فى مسرحية « الرجل الطيب » إذ يقول « ما أشبه الحياة فى أعظم حالاتها وأفضلها بطفل شقى لابد من ملاطفته ومسايرته قليلا حتى ينام ، ثم ينتهى كل الهم والقلق »[١٧٦]

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

صموئيل جونسن

١٧٠٩ — ٨٤

---

١ — النشأة المشوهة

١٧٠٩ — ٤٦

لقد كان نسيج وحده ، ومع ذلك كان نموذجياً ؛ فهو يختلف عن أي انجليزي في زمانه ، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً ، يبزه معاصروه في جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلا بأسره ، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته .

ولنلم الآن إلمامة سريعة بالضربات التي طرقته لتشكل طابعه الفريد . فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسن ، الكتبي ، والطباع ، وتاجر الأدوات الكتابية في لتشفيلد ، على ١١٨ ميلا من لندن . أما أمه فترقى أرومتها إلى قوم بهم أثارة من نبالة . وكانت تبلغ السابعة والثلاثين حين تزوجت في ١٧٠٦ ما يكل البالغ من العمر خمسين عاما .

وكان صموئيل غلاماً عليلا ، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدي — ان مات بغير عماد — في الأعراف ، بمدخل الجحيم الكئيب . وسرعان ما بدت عليه إمارات « داء الملك » (الخنازيري) . فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل في ولدها الثاني في الرحلة الطويلة إلى لندن لكي « تلمسه الملكة ليبرأ من الخنازيري» وصنعت الملكة قصاراها ولكن المرض كلف جونسن الاكتفاء بعين واحده وأذن واحدة ، وشارك غيره من البلايا في تشويه وجهه[1] . على أنه اشتد رغم ذلك عضلا

وهيكلا . ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التى أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكا جولدسمث . وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه « ذلك المزاج السوداوى الكريه الذى جعلنى مجنوناً طوال حياتى ، أو على الأقل غير متزن »[٢] . ولعل لوهمه المرضى أساساً دينياً لا بدنياً فقط ، كما كان الشأن مع كوبر ، فلقد كانت أم جونسن كلفنية راسخة تؤمن بأن الهلاك الأبدى قاب قوسين منها . وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته .

وعن أبيه أخذ مبادىء المحافظين ، والميول الاستيوارتية ، والشغف بالكتب . فكان يقرأ بعضهم فى مكتبة أبيه ، وقد قال لبوزويل فيما بعد ، « كنت فى الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن »[٣] . وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولى انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية ، وكان فى ناظرها « من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته »[٤] . على أنه حين سئل فى كبره كيف أتيح له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب « كان معلمى يحسن ضربى بالسوط . ولولا ذلك يا سيدى لما أفلحت فى شىء »[٥] . وقد أعرب فى شيخوخته عن أسفه لإهمال العصا . « فى مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم فى الماضى ، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل ، فهم يخسرون فى طرف ما حصلوه فى الطرف الآخر »[٦] .

وفى ١٧٢٨ أتيح لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى اكسفورد ، وهناك راح يلتهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانه وتمرده . وفى ديسمبر ١٧٢٩ عجل بالعودة إلى لتشفيلد ، ربما لنفاد مال أبويه ، أو لأن وهمه المرضى قد قارب الجنون قربا أحوجه إلى العلاج الطبى . وعولج فى برمنجهام ؛ ثم ساعد أباه فى متجره بدلا من العودة إلى أكسفورد . فلما أن مات الأب (ديسمبر ١٧٣١) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً فى مدرسة بماركيت بوزوبرث . وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل ، فانتقل إلى برمنجهام . وسكن مع كتبى . وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

عن الحبشة ، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته « راسيلاس » . وفى ١٧٣٤ قفل إلى لتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل فى المتجر . وفى ٩ يوليو ١٧٣٥ ، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين ، تزوج إلزابث بورتر ، وكانت أرملة فى الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك ٧٠٠ جنيه . وبمالها هذا افتتح مدرسة داخلية فى إديال القريبة منه . وكان من تلاميذه ديفد جاريك ، أحد صبية لتشفيلد ، ولكن لم يكن هناك ما يكفى لاستمالته إلى مهنة التعليم ، وكان التأليف يختمر فى باطنه . فكتب مسرحية سماها « أيرينى » ، وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر « مجلة الجنتلمان » يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة . وفى ٢ مارس ١٧٣٧ انطلق إلى لندن مع ديفد جاريك وجواد واحد ، ليبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً فى العالم القاسى .

على أن مظهره كان يعاكسه . كان نحيلا طويلا ، ولكن كان له هيكل ناتىء العظام جعله كتلة من الزوايا . وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الخنازيرى تهيجه مراراً انقباضة تشنجيه ، وكان جسمه عرضة لانتفاضات مزعجة ، وحديثه تؤكده حركات وإيماءات غريبة . وقد نصحه كتبى طلب عنده عملا بأن « يحصل على أنشوطة حمال ويحمل الحقائب »[٧] . والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف ، لأنه فى يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجته إلى لندن .

ولم يكن خاوياً من المكر . فحين هوجم كيف فى الصحف نظم جونسن قصيدة فى الدفاع عنه وأرسلها إليه ، فنشرها كيف ، وكلفه بمهام أدبية ، وانضم إلى ددسلى فى نشر قصيدة جونسن « لندن » (مايو ١٧٣٨) التى نقداه عشرة جنيهات ثمناً لها . وقد قلدت القصيدة فى غير مواريه « الهجائية الثالثة » لجوفنال ، ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التى سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها . كذلك كانت هجوما على حكومة روبرت ولبول ، الذى وصفه جونسن فيما بعد بأنه « خير وزير عرفته البلاد »[٨] . وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً فى لندن . ومن هنا بيته المشهور « ان الكفاية تصعد ببطء لأن الفقر يوهنها »[٩] .

فى أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه فى كل لون من ألوان الأدب. كتب « سير العظماء » (١٧٤٠) ، ودبج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان ، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية . وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً حتى ذلك التاريخ ، فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات فى « مجلس شيوخ مجنا لليبوتيا » . وفى ١٧٤١ اضطلع جونسن بهذه المهمة . ومن المعلومات العامة التى اجتمعت له عن سير النقاش فى البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين فى مجلس العموم[١٠] . وكان فى هذه التقارير من مظهر الصدق ما أوقع فى روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية ، واضطر جونسن إلى أن ينبه سموليت (الذى كان يكتب تاريخاً لانجلتره) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية . وذات مرة عاق جونسن عن اطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتام بقوله « هذه الخطبة كتبتها فى عليه بأكستر ستريت »[١١] . فلما أثنى بعضهم على حياد تقاريره اعترف قائلا « لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول ، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزين »[١٢] .

ترى كم كان أجره على عمله هذا ؟ لقد وصف كيف مرة بأنه « صراف بخيل » ، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه . وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين ٢ أغسطس ١٧٣٨ و ٢١ ابريل ١٧٣٩ ، وفى ١٧٤٤ قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً فى العام « يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة »[١٣] . غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش فى تلك السنين فى فقر مدقع فى لندن . وقد اعتقد بوزويل أن « جونسن وسفدج بلغ بهما الأملاق أحياناً مبلغاً أعجزهما عن دفع إيجار مسكن ، فكانا يجوبان الشوارع ليالى بأكملها »[١٤] . وزعم ماكولى أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قذارة الهندام و « شدة الشره » للطعام[١٥] .

وقد ادعى رتشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلات ، دون أن تقنع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلا لا يصلح لشىء حين لقيه جونسن فى ١٧٣٧ . وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الحانات أكثر مما أحبا مسكنيهما . ويذكر بوزويل « بكل ما يمكن من احترام ولياقة . » .

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن ، ومعاشرته لسفدج وغيره ، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة ، في إحدى النواحي ، كما كان وهو أصغر سناً . وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادي . واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات ، ويستمع إليهن وهن يروين سيرتهن . وباختصار يجب ألا نخفي أن جونسن ، كغيره من الرجال الطيبين الأتقياء الكثيرين (أكان بوزويل ذاكراً بنفسه وهو يقول هذا ؟) . . . لم يكن خلواً من النوازع التي كانت على الدوام « تشن حرباً على ناموس عقله » — وأنه في معاركه معها كان يهزم أحياناً »[١٦] .

وقد رحل سفدج عن لندن في يوليو ١٧٣٩ ومات في سجن للمدنيين عام ١٧٤٣ . وبعد ذلك بعام أصدر جونسن « سيرة رتشرد سفدج » ، وهو كتاب وصفه هنري فيلدنج بأنه « قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أي قطعة قرأتها من نوعها »[١٧] . وكانت هذه السيرة إرهاصاً بكتاب جونسن « سير الشعراء » (وقد ضمنت فيه) . ونشرت السيرة غفلا من اسم الكاتب ، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها . وبدأ الكتبيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس للغة الانجليزية .

٢ — القاموس : ١٧٤٦ — ٥٥

كتب هيوم قبل ذلك في ١٧٤١ يقول « إنا لا نملك قاموساً للغتنا ، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة »[١٨] . وكان في هذا مخطئاً ، لأن نثانائيل بيلي كان قد أصدر في ١٧٢١ « قاموساً انجليزياً ايتمولوجيا جامعاً » ، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم . ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلي في حضور جونسن ، الذي قال أعتقد أنني لن أضطلع به »[١٩] . ولكن حين انضم كتبيون آخرون إلى ددسلي وعرضوا ١,٥٧٥ جنيهاً على جونسن ان التزم بالمهمة ، وقع العقد في ١٨ يونيو ١٧٤٦ .

وبعد إطالة الفكر وضع في أربع وثلاثين صحيفة « خطة لقاموس للغة

الانجليزية » وطبعها . ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشستر فيلد ، الذى كان يومها وزيراً للدولة ، ومعها ثناء مشرب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل فى الانجليزية وغيرها من ضروب المعرفة . ودعاه تشستر فيلد للحضور ، فذهب جونسن ، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع . ثم قصده جونسن ثانية بعد حين ، فأبقاه منتظراً ساعة ، غادر بعدها المكان غاضباً ، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشستر فيلد .

وشرع فى مهمته على هون ، ثم ازداد همة ونشاطاً ، لأنه كان ينقد أجره منجماً . وحين وصل إلى كلمة Lexicographer (المعجمى) عرفها بهذه العبارة «كاتب للقواميس . كادح لا يؤذى أحداً» وكان الرجاء يحدوه بإنجاز العمل فى ثلاث سنوات . فاستغرق منه تسعا . وفى ١٧٤٩ انتقل إلى جف سكوير ، المقابل لفليت ستريت ، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم ، وأقامهم بالعمل فى غرفة بالطابق الثالث . وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامى ١٥٥٨ و ١٦٦٠ — ابتداء من ارتقاء إليزابث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثانى ، فقد كان يعتقد أن اللغة الانجليزية بلغت فى تلك الحقبة أبعد شأوها ، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الأليزابيثى — الاستيوارتى معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة . وكان يضع خطاً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما ، ودون فى الهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها . وأصدر تعليماته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزازة منفصلة ، ويدخلوا هذه فى مكانها الأبجدى من قاموس بيلى ، الذى استعان به منطلقاً ومرشداً .

وخلال هذه السنين التسع اقتنص أجازات كثيرة من تعاريف قاموسه ، وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ . ففى ٩ يناير ١٧٤٩ نشر قصيدة من اثنتى عشرة صفحة عنوانها « بطلان الرغبات البشرية » ، وكانت كسابقتها « لندن » التى نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل ، ولكنها عبرت بقوة هى قوته هو دون غيره . وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشستر فيلد له :

فانظر أى شرور تعدو على حياة الأديب

الكدح ، والحسد ، والفقر ، والراعى المتفضل ، والسجن .
ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب !
تأمل تشارلز الثانى عشر ملك السويد :
ترك الاسم ، الذى كان يصفر لذكره وجه الدنيا ،
ليدل الناس على عبرة أو ليجمل قصة [٢٠] .

إذن فما أغبى الأمل فى طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها وآلامها : كالعقل يشرد فى حكايات مكررة ، والحظ يهتز مع أحداث كل يوم ، والأبناء يتآمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت ، بينما « تغير أوصاب لا حصر لها على المفاصل ، وتضرب نطاقاً على الحياة ، وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب »[٢١] . وما من سبيل للفرار من الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة : هى الصلاة ، والإيمان بإله عنده الخلاص والثواب .

ومع ذلك كان لهذا المتشائم لحظات استمتع فيها بالسعادة . فنى ٦ فبراير ١٧٤٩ أخرج جاريك مسرحيته « أيرينى » . وكان حدثاً خطيراً فى نظر جونسن ، فاغتسل ، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات ذهبية ، وأزدهى بقبعة لها ذات الحلية ، وراح يرقب صديقه وهو يلعب دور محمد الثانى أمام السيدة كيبر التى لعبت دور أيرينى ، واستمر عرض المأساة تسع ليال ، وأتت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه ، ولم تبعث بعدها قط ، ولكن ددسلى نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف . وحقق الآن (١٧٤٩) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد ، ليس هو « النادى » (Club) « الذى جاء بعدخمسة عشر عاماً ، بل « نادى آيفى لين» ، وهو اسم منقول عن الشارع الذى اعتاد فيه جونسن أن يلتقى فى حانة كنجز هد بهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون الآراء المتحيزة . يقول جونسن « إلى هناك كنت أختلف دائماً »[٢٢] .

وكان فى كل ثلاثاء وجمعة ، من ٢١ مارس ١٧٥٠ إلى ١٤ مارس ١٧٥٢ ، يكتب مقالا صغيراً ينشره كيف تحت عنوان « الجوال » (رامبلر) ،

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان المبيع من المقالات يقل عن خمسمائة نسخة ، وخسر كيف فى هذه المغامرة ، ولكنها حين جمعت فى كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن . فهل نعترف بأننا لم نجد طرافة إلا فى عددين هما ١٧٠ و ١٧١[٢٣] ، وفيهما جعل جونسن مومساً تدل الناس على عبرة وتجمل قصة ؟ وقد شكا النقاد من إسراف الأسلوب والألفاظ فى الطول على الطريقة اللاتينية ، ولكن بوزويل ، فيما بين أوزاره ، وجد عزاء وراحة فى حض جونسن قراءه على التقوى[٢٤] .

وكان جونسن يعانى توتراً غير عادى فى تلك السنوات ، لأن ذهنه أرهقته التعاريف ، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته . ذلك أن « تتى » راحت تهدىء آلام الشيخوخة والوحدة بالخمر والأفيون . وكثيراً ماكانت تقصى جونسن عن فراشها)[٢٥] . ونادراً ماكان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار . يقول الدكتور تيلر ، وكان يعرفهما معرفة وثيقة ، إنها « كانت البلاء الذى نكبت به حياة جونسن ، وكانت ثملة إلى درجة بشعة ، حقيرة من جميع الوجوه ، وكان جونسن يشكو مراراً . . . من وضعه مع زوجة كهذه »[٢٦] ، غير أن موتها (٢٨ مارس ١٧٥٢) أنساه عيوبها ، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنة أضحكت أصحابه . وأطرى فضائلها ، ورثى لوحدته ، ورجا أن تتشفع له عند المسيح[٢٧] . يقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة « لقد أخبرنى أنه كان عادة يخرج من داره فى الرابعة مساء ، وقل أن يعود إلا فى الثانية صباحاً . . . وكان منتجعه هو حانة ميتر بفليت ستريت ، حيث كان يحب أن يطيل السهر »[٢٨] .

على أن جونسن كان يرهب الوحدة . ومن ثم فقد أتى بآنا وليمز إلى بيته فى جف سكوير (١٧٥٢) ، وكانت شاعرة وازية تكاد تفقد بصرها . ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها ، فكف بصرها تماماً . وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها (١٧٨٣) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة ، تشرف على إدارة البيت والمطبخ ، وتقطع شرائح الشواء — وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها . أما احتياجات جونسن الأخص فقد اتخذ لقضائها (١٧٥٣) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر ، ظل يلازمه

تسعة وعشرين عاما . وقد أدخله جونسن المدرسة ، وجهد ليجعلة يتعلم اللاتينية واليونانية ، وخلف له تركة لايستهان بها . واستكمالا لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منبوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه (١٧٦٠) . وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار ، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبتهم .

وفى يناير ١٧٥٥ دفع بآخر فروخ « القاموس » إلى الطابع ، الذى حمدالله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل . ونمى إلى تشسترفيلد نبأ القاموس الوشيك الظهور ، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء اه . وحاول أن يكفر عن قصر نظره فى الماضى بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالأثر الأدبى المرتقب ، ويطرى جونسن أديباً يسره أن يرتضيه حكماً لايرد فى استعمال الانجليزية الفصحى . غير أن المؤلف المعتز بكرامته أرسل إلى الأيرل (٧ فبراير ١٧٥٥) رسالة وصفها كارليل بأنها « نفخة بوق الحشر الذائعة الصيت التى أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة » :

سيدى اللورد :

أبلغنى صاحب مجلة « ورلد » مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسى لجمهور القراء . . . وإن تنويهكم بفضلى لشرف لا أدرى كيف أستقبله أو بأى عبارات أعرب عن اعترافى به لقلة تعودى على أفضال العظماء .

سيدى اللورد ، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت فى حجرتك الخارجية أو رددت عن بابك ، ورحت خلال هذه الحقبة أدفع عملى خلال مصاعب من العبث أن أشكو منها ، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر ، دون أن تسدى إلى يد واحدة ، أو كلمة تشجيع واحدة ، أو ابتسامة عطف واحدة . ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها ، لأنه لم يكن لى راع بتاتاً قبل ذلك .

أليس راعى الأدب يا سيدى اللورد ذلك الذى ينظر فى غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة فى الماء ، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته ؟

إن الاهتمام الذى طاب لك أن تبديه نحو جهودى كان كريماً لو أنه جاء مبكراً ، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له ، عاجزاً عن الاستمتاع به ، وحتى بت وحيداً لا أستطيع اشراك غيرى فيه ، معروفاً لا حاجة لى إليه . وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعترف بأفضال لم أتلق منها نفعاً ، أو أن أكره أن يعدنى الجمهور مديناً لراع بما مكنتنى العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسى .

وإننى إذ مضيت بعملى هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأى راع للأدب ، فلن يفت فى عضدى أن أنهى العمل بقدر أضأل إن كان هذا القدر متاحاً ، ذلك أننى أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذى كنت يوماً ما أعتز به فى اغتباط شديد .

وإننى يا سيدى اللورد

خادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن [٢٩] .

أما تعليق تشسترفيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها «كتبت كتابة جيدة جداً» . وهى فى الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر ، بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التى كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وتثقله . ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها ، لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة [٣٠] ، ولم تنشر الرسالة فى لا بعد موت جونسن . ولعل غيظه شوه حكمه على «رسائل تشسترفيلد لولده» بأنها — «تعلم أخلاقيات بغى ، وعادات معلم رقص» [٣١] .

وذهب جونسن إلى أكسفورد فى مطالع ١٧٥٥ ، من جهة ليرجع إلى المكتبات ، ومن جهة أخرى ليقترح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطيع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه . ودبر وارتن الأمر ، وفى مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخرية . وهكذا صدر القاموس آخر الأمر ، فى مجلدين من القطع الكبيرة بلغتا قرابة ٢,٣٠٠ صفحة ، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات . وفى ختام المقدمة أعلن جونسن أن .

« القاموس الانجليزى ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين ، ودون أى رعاية من العظماء ، ولم يؤلف فى هدوء العزلة الناعم ، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفه ، بل فى غمار العناء والحيرة ، وفى جو المرض والحزن ، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الانجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل ، فعذرى أننى إنما فشلت فى محاولة لم تنجزها كمدرات البشر إلى الآن . . . لقد أطلت عملى حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغى إدخال السرور إلى أفئدتهم ، وبات النجاح والإخفاق أصواتاً فارغة ، ومن ثم فإنى أطلقه فى هدوء لا يبالى ، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح » .

وما كان فى الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قمة ، وخطاً فاصلا فى أدب القرن الثامن عشر الإنجليزى ، كما عينت موسوعة ديدرود الأمبير (١٧٥١ — ٧٢) قمة ونقطة تحول فى أدب فرنسا . ولقد كان هناك ضحك كثير على عيوب عارضة فى عمل جونسن . فبين المواد التى بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل gentilitious و sygilates (وهما لفظان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام) . وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة « معاش » pension « مكافأة تمنح لإنسان بدون مقابل . والكلمة فى انجلتره تفهم عموماً على أنها تعنى راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » . أو كلمة excise (ضريبة الإنتاج) « ضريبة بغيضة على السلع » . ثم هناك نكت شخصية كما فى تعريف كلمة oats (الشوفان) « غلة تطعم بها الخيل فى انجلتره عادة ، ولكنها فى اسكتلنده يقتات بها الآدميون » — وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه . وسأل بوزويل جونسن ان كانت المدنية civilization كلمة : فقال لا ، ولكن civility (الكياسة) [٣٢] . كلمة . . وكثير من « اتمولوجيات » جونسن (تتبع أصول الكلمات وتاريخها) يرفض اليوم . فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة ، وقد اعترف صراحة أن « الاتمولوجيا » نقطة الضعف فيه[٣٣] . وقد عرف كلمة Pastern بأنها « ركبة الحصان » (وصحتها جزء من قدم الحصان) . وحين سألته سيدة كيف

حدث أنه وقع فى خطأ كهذا ؟ أجاب « الجهل يا سيدتى ، الجهل المطبق »[٣٤] .
ولم يكن فى استطاعته تجنب العثرات فى قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل .

ولقد لقى إنجاز جونسن العظيم التقدير خارج وطنه . فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها ، وأهدته أكاديمية ديللاكروسكا الفلورنسية قاموسها[٣٥] . وراج القاموس رواجاً أرضى الكتبيين ، فنقدوا جونسن أجر تجهيز طبعة مختصرة . وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله « نوح ويستر » فى ١٨٢٨ . وقد وضع القاموس جونسن فى قمة المؤلفين الإنجليز فى عصره ؛ والواقع أن جونسن اكتسب سلطان الحكم الذى لا يرد له حكم فى الأدب الإنجليزى ، إذا استثنينا أدباء أرستقراطيين مثل هوراس ولبول . وهكذا بدأ حكم « خان الأدب الأكبر » *

٣ — الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين . ذلك أنه أنفق أجره الذى تقاضاه عن القاموس بالسرعة التى أتاه بها . ففى ١٦ مارس ١٧٥٦ كتب إلى صموئيل رتشرد سن يقول : « سيدى ، انى مضطر إلى طلب معونتك . فأنا الآن مقبوض على لأننى مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً . . . فإذا تفضلت بموافاتى بهذا المبلغ رددته لك شاكراً ، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة »[٣٦] . وأرسل إليه رتشرد سن ستة جنيهات . وكان يكسب قوته فى تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات ، وبتأليف المواعظ بجنيهين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان ، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها ، وبكتابة مقال أسبوعى لليونفرسل كرونكل (١٥ ابريل ١٧٥٨ إلى ٥ ابريل ١٧٦٠ (باسم « العاطل » وكانت هذه المقالات أخف روحاً من « الرمبلر » ، ولكنها مع ذلك أشد جداً وثقلا مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجرى فى القراءة . وقد ندد مقال

(*) Cham, The Great Cham معناها خان ويبدو أن العبارة استعملها سمولت أولا ، فى رسالة إلى ويلكس مؤرخة ١٦ مارس ١٧٥٩ .

منها بتشريح الحيوان الحى ، وشهر آخر بسجون المدينين . ورثى المقال رقم ٥ لانفصال الجند عن زوجاتهم ، واقترح تأليف فرق من « الفارسات الخفاف» يقمن بأعمال التموين والتمريض ، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا » .

وفى يناير ١٧٥٩ بلغه أن أمه ذات التسعين ، التى لم يرها منذ اثنين وعشرين عاما ، مشرفة على الموت . فاقترض نقوداً من طابع ، وبعث إليها بستة جنيهات فى رسالة رقيقة . ووافاها الأجل فى ٢٣ يناير . ولكى يغطى نفقات جنازتها وديونها كتب فى أمسيات أسبوع واحد (فى رواية رينولدز) « تاريخ راسيلاس أمير الحبشة » وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً ، ونقد عنه مائة جنيه . فلما نشر فى ابريل رحب به النقاد أثراً من عيون الأدب ، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير «كانديد » التى صدرت فى الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها : أيمكن أن تأتى الحياة بالسعادة ؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب ، « يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم ، وتتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب ، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم . انتبهوا لتاريخ راسيلاس »[٣٧] .

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً حتى يأتى الوقت لاعتلائه العرش . وكان يزود بكل شيء : بقصر ، وطعام طيب ، وحيوانات مدللة ، ورفاق أذكياء . ولكن راسيلاس يزهد فى هذه المباهج حين يبلغ السادسة والعشرين . فهو لايفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً . « سأكون سعيداً لو كان أمامى هدف أسعى نحوه » . فيطيل الفكر فى كيفية الهروب من هذا الوادى المطمئن ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجدونها .

ويقترح ميكانيكى حاذق أن يبنى آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيطة إلى الحرية . ويشرح فكرته هكذا :

« ان الذى يستطيع السباحة يجب ألا ييأس من إمكان الطيران . فالسباحة طيران فى سائل أكثف ، والطيران سباحة فى عنصر أخف . وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التى نخترقها . فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أى دفع يدفعه بأسرع مما

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط . . وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً . . ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء دون أى ميل للسقوط» .

ويشجع راسيلاس الميكانيكى ، فيوافق على صنع طائرة ، «ولكن بشرط ، وهو ألا يفشى سر هذه الصنعة ، وألا تلزمنى بأن أصنع أجنحة لسوانا» . ويسأله الأمير «ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى ؟» ويجيب الميكانيكى «لوكان الناس كلهم فضلاء لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا . ولكن أى ضمان للأخيار إذا كان فى استطاعة الأشرار إن شاءوا أن يغزوهم من الجو ؟» ثم يصنع طائرة ، ويحاول الطيران ، فيسقط فى بحيرة ينقذه منها الأمير(٣٨) .

ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إملاك ، الذى شهد كثيراً من الأقطار والناس . ويجدان كهفاً يفضى إلى ممر يؤدى إلى العالم الخارجى ، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخادمتها . ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلى عملة عالمية ، ويشاركون فى ملاهيها ثم يملونها ، ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات ، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت ابنته . وإذ كانوا قد قرءوا الشعر الرعوى فقد افترضوا أن رعاة الغنم لا بد سعداء ، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال «تقرحت سخطاً» و «حقداً وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة»(٣٩) . ثم يقعون على ناسك ، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى مباهج المدينة . ويستفسرون عن سعادة الحياة البيتية ، فيجدون كل بيت قد خيم عليه ظلام الشقاق و «الصدام القاسى بين الرغبات المتعارضة»(٤٠) . ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة . ويسمعون عن الحياة السعيدة التى يحياها الدارسون والعلماء ، فيلتقون بفلكى مشهور ، يخبرهم أن «الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى ، والمعرفة بغير الأمانة خطرة رهيبة»(٤١) ، ولكن الفلكى يجن . وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يفضى إلى السعادة ، ثم يعزيهم إملاك بحديث عن خلود النفس ، ويعتزمون

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة فى هدوء تحدوهم الثقة فى قيامة سعيدة .

وهى قصة قديمة تجسدت فى صورة من أبدع صورها . ويدهشنا ذلك التدفق الجميل والوضوح الذى يتميز به الأسلوب ، الذى يعد كل البعد عن الألفاظ الثقيلة التى نجدها فى مقالات جونسن بل حتى فى حديثه . وبدا مستحيلا أن يكون المعجمى المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة ، وأنه مما لايصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التى بلغت ١٤١ فى سبعة أيام .

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيبل إن (٢٣ مارس ١٧٥٩) ؛ وستراه بعد قليل وقد انتقل إلى جرييز إن ، ثم إلى الأنر تمبل لين . والراجح أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد فى النفقة . ولكن فى يوليو ١٧٦٢ رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبى بفضل معاش سنوى قدره ٣٠٠ جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد بيوت . أما السبب فى أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد عارض الأسرة الهانوفريه فى إصرر ، وسخر من الإسكتلنديين فى كل مناسبة ، ووصف المعاش بأنه « أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » ، — هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار . فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر المال على المبدأ ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس وتشرشل ، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم . وزعم جونسن أنه قبل المعاش على أساس صريح أكده بيوت مرتين ، هو ألا يطلب إليه أن يؤيد الحكومة بقلمه[٤٢] . وقد أسر إلى بوزويل بأن « لذة لعن بيت هانوفر ، وشرب نخب الملك جيمس ، ترجحها المئات الثلاث من الجنيهات فى العام رجحاناً كبيراً »[٤٣] . على أى حال فقد استحق المعاش أضعافاً مضاعفة ، لا عن الكراسات السياسية التى كتبها فى السنين اللاحقة ، بقدر استحقاقه إياه عن إثرائه الأدب الانجليزى بالقلم والحديث وبالحكمة والنكتة المطهرة .

وكان له من الأصدقاء عدد يكفى لتشتيت الأعداء . يقول « ان الصداقة هى الشراب المنعش الذى يعين المرء على ابتلاع جرعة الحياة المقززة »[٤٤] . وكان فى كل محفل تقريباً من المحافل التى يختلف إليها يصبح محور الحديث ، لا لأنه شق طريقه بالقوة إليه ، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية متفردة فى حلقات لندن الأدبية . وكان فى استطاعة سامعيه أن يثقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم . ورينولدز هو الذى اقترح تأليف « النادى » الذى سماه بوزويل فيما بعد « النادى الأدبى » ، وأيد جونسن الاقتراح ، وفى ١٦ أبريل ١٧٦٤ بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها فى أمسيات الإثنين بحانة « تيركس هد » فى شارع جرارد بحى سوهو . أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز ، وجونسن ، وبيرك ، وجولدسمث ، وكرستوفر نجنت ، وتوبهام بوكلرك ، وبنيت لانجتن ، وأنتونى كامين ، والسرجون هوكنز . وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء : جبون ، وجاريك ، وشريدان ، وفوكس ، وآدم سمث ، ودكتور بيرنى . . .

ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا فى ١٧٧٣ ، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماما . ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين ، بين التقائه بجونسن ووفاة جونسن ، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده . وكان فى حرارة إعجابه التى لم يخفها ، وفى علم جونسن بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته ، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أبداه الاسكتلندى من مسلك يقرب من العبادة المتملقة . والمتكلم المجيد للكلام ، والمستمع المجيد للاستماع ، يؤلفان صاحبين سعيدين . ولم يكن جونسن شديد الاحترام لعقلية بوزويل . فحين قال « بوزى » ، كما كان يلقبه ، أن النبيذ الذى شربه أثناء منادمتهما أصابه بصداع ، قال جونسن مصححاً : لا يا سيدى ، ليس النبيذ هو الذى صدع رأسك ، بل المعنى الذى وضعته أنا فيه » . وقال بوزويل متعجباً « ماذا يا سيدى ! وهل يصدع المعنى الرأس ؟ » « نعم يا سيدى ، إذا لم يكن معتاداً عليه »[٤٥] . (وفى « السيرة » فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولا عن كلام جونسن) . وفى معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين (الدنسياده) لاحظ جونسن أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً ، ثم واصل نكتته : « لقد كانت

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام . . آه ، ياسيدى ، لو إنك عشت فى تلك الأيام ! »[٤٦] . ولكن الدب الشائخ لم يلبث أن تعلم أن يحب شبله . فقال له فى ١٧٦٣[٤٧] « قليل من الناس من آنس إليه أنسى إليك » ، وقال « ان بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة فى عودته »[٤٨] . وفى ١٧٧٥ أعطى بوزويل حجرة فى مسكن جونسن لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل[٤٩] .

وفى ٣١ مارس ١٧٧٢ كتب فى يوميته : « إنى مصمم على كتابة سيرة المستر جونسن . وأنا لم أخبره بنيتى بعد ، ولا أدرى إن كان من واجبى أن أفعل » . ولكن جونسن علم بالأمر فى ابريل ١٧٧٣ إن لم يكن قبله[٥٠] . وعلم غيره به . وغاظتهم طريقة بوزويل فى إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بدرة جديدة للسيرة ، وافتخر الاسكتلندى الفضولى بأن « النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنبوره »[٥١] ولعل جونسن الذى نعرفه ونستطيبه ماكان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفرطة ومطاردته التى لايعتريها الكلل . وشتان بين جونسن هذا وجونسن الذى نجده فى « السيرة » التى ألفها هوكنز ، أو حتى فى « النوادر » الرشيقة التى كتبتها مسز ثريل ! .

ويناير ١٧٦٥ هو تاريخ بداية صلة جونسن بأسرة ثريل ، وهى صلة لعبت فى حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل . وكان هنرى ثريل صانع جعة ، وإبناً لصانع جعة ، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار ، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعى بانتخابه عضواً فى البرلمان . وفى ١٧٦٣ تزوج هستر لنسن سولزبرى ، وكانت فتاة ولزية لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنها مرحة ذكية . واستغرق هنرى فى عمله وهو يكبرها بإثنى عشر عاماً ، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين ١٧٦٤ و ١٧٧٨ ، ولنقل عدوى مرضه السرى إليها[٥٢] . وولدت له اثنى عشر طفلا مات منهم ثمانية فى طفولتهم وراحت تسرى عن نفسها بالأدب ، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسن الذائع الصيت ، سخرت كل فنون الأنثى وملاطفاتها لتربطه بالأسرة . وسرعان ما اعتاد أن

يتعشى مع آل ثريل كل خميس فى منزلهما بسوثوارك ، وكان منذ ١٧٦٦ ينفق معهما الصيف عادة فى فلتهم الريفية فى ستريتهام بمقاطعة صرى . وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان قطبه جونسن ، ورواده رينولدز وجولدسمث وجاريك وبيرك ، وآل بيرنى ، وأخيراً — بوزويل — مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه . وهكذا قدر لـ « السيرة » أن يكون لها منافس .

٤ — الدب الأكبر

كيف كان « الدب الأكبر » يبدو ؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) يقول : « ان مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية . . . رجل كبير الحجم جداً ، يشكو التهاب العينين ، والشلل الارتجافى (تقلص عصبى لا إرادى) والداء الخنازيرى وهو رث الهندام جداً ، ويتحدث بصوت غاية فى الخشونة »[٥٣] . ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت : « كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ ، وأطرافه غاية فى الكبر . . أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً ، ووجهه مضرس جداً . . وكان فى إبصاره قصر ، وفيه غير ذلك قصور ، ومع ذلك كانت عيناه شديدتى الجموح ، والنفوذ ، والضراوة أحياناً ، حتى أن الخوف منه كان فى اعتقادى أول انفعال يبدو فى عيون ناظريه »[٥٤] .

وكان جونسن يأسف على الساعات التى يجلس فيها إلى مصور يصوره باعتبارها « وقتاً مضيعاً » ، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز ، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالا نصفياً . وفى ١٧٥٦ أبرزه السر جوشوا بديناً ثقيل الحركة[٥٥] ، وفى ١٧٧٠ رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسمث[٥٦] . وفى ١٧٧٢ أسلمته أشهر صوره للأجيال اللاحقة رجلا ضخماً صعب المراس ، له شعر مستعار هائل ، ووجه ممتلىء كبير . وحاجبان هابطان فوق عينين حائرتين ، وأنف ضخم وشفتان غليظتان ، وذقن ملغد . . وكان شعره المستعار تزيحه غير مرة الحركات التشنجية التى تند عن رأسه وكتفيه ويديه[٥٧] . وكان مهمل الهندام .

وقد قال لبوزويل « إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص فى غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسها »[٥٨] . ولم يكن يعبأ كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل .

وكان يأكل بشراهة ليملأ فراغ جوفه الكبير . وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع . قال بوزويل :

« لم أعرف قط رجلا أكثر منه تلذذاً بالأكل الطيب . كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً ، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه . وما كان ليفوه بكلمة واحدة ، ولا ليبدى أقل انتباه لما يقوله غيره — إلا أن يكون فى صحبة قوم رفيعى المقام جداً — حتى يشبع شهيته التى كانت شديدة الضراوة حتى . . . لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويتفصد عرقاً غزيراً ملحوظاً للناظرين [٥٩] .

وكان يأكل السمك بأصابعه ، « لأننى أشكو قصر النظر ، وأخشى شوك السمك »[٦٠] . ولم يكن يطيق منظر الخضر . وكان فى الأيام التى تتعاظم فيها شهيته للطعام « يحب أن ينعش نفسه بالخمر ، ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة »[٦١] . وحين نددت المسز وليمز بالسكر قائلة « إنى لأعجب أى لذة يمكن أن يحس بها الرجال فى أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات ؟» أجاب على الفور « إنى لأعجب يا سيدتى أنك لاتملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوى لهذا الإفراط فى الشراب ، لأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذى يصيبه من كونه إنساناً »[٦٢] . ولكن السكر فى رأيه « لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس ، فهو يغير العقل حتى ليسر المخمور بأى حديث»[٦٣] . ثم تجنب كل ألوان المسكر فى أخريات حياته ، وقنع بالكاكاو ، وعصير الليمون ، وأقداح الشاى التى لا حصر لها . ولم يدخن قط ، « إنه لأمر رهيب أن ننفث الدخان من أفواهنا فى أفواه غيرنا من الناس وفى عيونهم وأنوفهم ، وأن يفعل الناس بنا هذا الشىء ذاته » . وعلل عادة التدخين بأنها « تحفظ العقل من الخواء التام »[٦٤] .

وكانت عاداته الفظة من جهة أثراً خلفته الأيام والليالى التى قضاها فى قاع المجتمع ، ومن جهة نتيجة للمثيرات البدنية والمخاوف العقلية . لقد كان

قوياً ، فخوراً بقوته ، استطاع أن يصرع كتبياً دون أن يخشى رده للثأر لنفسه ، وأن ينتزع من مكانه رجلا جرؤ على احتلال كرسى أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانباً ؛ وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل فى رحلة صيد للثعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلا . ولكنه وجد مشقة فى حمل بدنه الثقيل . « حين كان يسير فى الشوارع ، كان يبدو الدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلا عن قدميه»(٦٥). فإذا ركب « لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء ، بل كان يحمل وكأنه فى بلون »(٦٦) .

وبعد ١٧٧٦ كان يعانى من الربو والنقرس والاستسقاء . ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوى حدة ، وكان أحيانا يصيبه بغم شديد حتى « أننى لأرضى بأن يبتر منى عضو استرد بعدها مرحى »(٦٧) ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً ، ومرة قال عن رجل زعم انه سعيد « هذا كله هراء ، ان الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت »(٦٨) .

وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضى يفضى أحياناً إلى الجنون ، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما (٦٩) . وقد أجرى هذه العبارة على لسان إملاك فى قصة « راسيلاس » ، « أن أبشع الشكوك وأكثرها إزعاجاً فى حالتنا الراهنة هو الشك فى احتفاظنا بسلامة عقولنا »(٧٠) .

وإذا كان يشكو قصراً فى بصره فإنه لم يجد اللذة تذكر فى تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن (٧١) . وكان رأيه فى النحت أن الناس غالوا فى تقديره ، « ان قيمة النحت ترجع إلى صعوبته . فأنت لا تقدر أبدع رأس نحت فوق جزره .»(٧٢) . وقد حاول أن يتعلم العزف « ولكننى لم أفلح قط فى اخراج نغمة » . وسأل مرة « قل لى بربك ياسيدى من يكون باخ هذا ؟ أزمار هو؟ »(٧٣) — مشيراً إلى يوهان كرستيان باخ ، وكان يومها (١٧٧١) أشهر عازف على البيان فى انجلتره . وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع . ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

القطع التى عزفها عسيرة جداً ، فقال مندهشاً « عسيرة — ليتها كانت مستحيلة »[٧٤] .

ولابد أن رجلا أوتى هذه القوة والعافية لقى عنتاً فى التعامل مع أحلام الجنس التى تهيج حتى العقل السوى . وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية « أيرينى » وقاده جاريك إلى « الحجرة الخضراء » التى ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد ، رفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة . « لا يا ديفد ، لن أعود للمكان أبدا . لأن ثياب ممثلاتك البيضاء وجواربهن الحريرية تثير أعضائى التناسلية »[٧٥] . وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو فى جزائر الهبريد «كثيراً ما خطر لى أنه لو كنت أقتنى حريماً . . . » [٧٦] .

ويمكن القول عموماً أن نقائصه كانت أظهر من فضائله ، التى كانت لاتقل عن النقائص وجوداً حقيقياً . وفى وسعنا أن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذى قال « مع أنه كان طيب الطبع فى أعماقه فإنه كان سىء الطبع جداً فى قمته »[٧٧] . وقد أعرب جولدسمث عن هذا المعنى ذاته بعبارات ألطف : « إن فى سلوك جونسن خشونة ، ولكن ليس هناك إنسان حى له قلب أرق . فليس فيه من الدب إلا جلده »[٧٨]. فهذا الرجل الذى كان رث الهندام ، بايداً ، مؤمناً بالخرافة ، فظاً ، مستبد الرأى ، متكبراً ، كان أيضاً رحيماً ، عطوفاً ، كريماً ، يبادر بطلب الصفح وبالنسيان . وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل ٢٠٠ جنيه من معاشه البالغ ٣٠٠ جنيه [٧٩] ، وأضافت : « كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس فى بيته . . . وكان وهو ينفق نصف الأسبوع فى بيتنا عادة ، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد فى فليت ستريت مخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة ، ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته ، قبل أن يعود إلينا فى ليلة الإثنين — باذلا لهم ذات الحفاوة والمجاملة التى كان يبذلها لمثالهم من أفراد المجتمع الراقى أو ربما أكثر منها »[٨٠] .

وكان يكتب للغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية ، مجاناً فى حالات كثيرة . وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة . وحين رأى مومساً راقدة فى الطريق (وكان فى

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره ، وحملها إلى مسكنه ، واعتنى بها حتى استعادت صحتها ، ثم « حاول أن يعينها على كسب رزق حلال »[٨١].
وقد قال جورج ستيفنز الذى تعاون معه فى التعليق على مسرحيات شكسبير « لو أن الحسنات الكثيرة التى أخفاها عمداً ، والأفعال الإنسانية التى أسداها سراً ، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته) ، لتاهت عيوبه فى وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل »[٨٢].

ولم يؤلف خلال الأعوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو « سيرة الشعراء » ، وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه . وقد وصف نفسه بأنه « رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه »[٨٣] . ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام ، لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية . وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر ، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة فى مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفف منها . ومع ذلك فقلما كان البادىء بأى نقاش جاد ، وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً . وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأى غيره ، وكان على استعداد للدفاع عن أى قضية أو عكسها ، يلتذ الجدل لعلمه بأنه لايقهر ، ويصمم على أن تكون حجته هى الغالبة حتى ولو ماتت الحقيقة تحت ضرباته . وكان على علم بأن هذا لم يكن أرقى ضروب الحديث ، ولكنه كان واثقاً أنه ألذها . وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لايعرف المجاملة . يقول بوزويل « لم يكن يرحم أحداً منا . مرة قال لأحد مجادليه : لقد عثرت لك على حجة ، ولكنى لست ملزماً بالعثور لك على فهم[٨٥] . يقول جولدسمث « لاسبيل للجدل مع جونسن ، فهو ان أخطأك رصاص طبنجته صرعك بمقبضها »[٨٦] ويروى بوزويل هذه القصة عنه ، « حين ألممت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية فى البارحة . فقد قال : حسناً ، لقد استمتعنا بحديث طيب » . بوزويل « أجل ياسيدى ، لقد قذفت بالكثيرين وأثخنتهم بالجراح »[٨٧] . وقد وصفه توماس شريدان بأنه « بلطجى »[٨٨] . وجبون بأنه متعصب تعصباً

أعمى[٨٩] . وقال عنه اللورد مونبودو أنه «أشر وأخبث رجل عرفته فى حياتى ، لا يثنى على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره (ولكنه أثنى على قصة فانى بيرنى «افلينا») . . . ولا طاقة له على سماع أى شخص غيره يشد انتباه الجماعة ، ولو لوقت قصير جداً»[٩٠] أما هوراس ولبول ، الآمن فى وظائفه الشرفية ، فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباله ، وقد أجمل وصفه على النحو الذى يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار .

«كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريهة خسيسة . فهو من حيث المبدأ استيوارتى ، مزهو ، مكتف بذاته ، متغطرس . . . ولقد ابتذل قلمه وسخره للحزبية حتى فى معجمه ، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه . وكانت عاداته قذرة متعالية وحشية ، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك ، وباختصار كان فيه رغم كل حذلقته وتنطعه تلك التفاهة الهائلة التى تجدها فى المعلم الريفى . . فليت شعرى ماذا يحسبنا الخلف حين يقرءون أى صنم عبدنا ؟ »[٩١] .

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذى يجرى فى جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون ، أو كما أعرب جونسن فى فاصل لطيف : «أن خير الحديث ما خلا من المنافسة أو الغرور ، وكان تبادلا هادئاً مطمئناً للعواطف»[٩٢] ، ولكن متى كانت له هذه التجربة ؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان : «إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها»[٩٣] ، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نغتفر له كل تلك اللطمات والإهانات والأحكام المتحيفة لأن ذكاءه وفكاهته ونظره الثاقب ، وإيثاره الحقائق الواقعية على الادعاءات الكاذبة ، والصراحة على الرياء ، وقدرته على حشد الحكمة فى عبارة ، — كل هذا يجعله شخصية من أشد الشخصيات سيطرة فى التاريخ الانجليزى .

٥ — الفكر المحافظ

أترانا نستمع إليه يتكلم ؟ لقد كان لديه الطريف الذى يقوله فى كل شىء تقريباً تحت الشمس . لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان فى تكراره ،

أكثر الناس « يطيقونه بصبر نافد ويرحلون عنه كارهين »[٩٤] . وحين سألته الليدى مكليود « أليس هناك إنسان صالح بطبعه ؟ » أجاب « بلى يا سيدتى ، ليس أكثر صلاحاً من الذئب »[٩٥] . « واضح أن الناس . . . فاسدون فساداً لا تكفى معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم . . .[٩٦] والناس يكرهون بأقوى مما يحبون ، وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً مرة ، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة »[٩٧] .

وقلما كان يناقش الاقتصاد . وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات[٩٨] ، وأدان الرق بشدة ؛ ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب فى صحة « ثورة الزنوج فى جزر الهند الغربية »[٩٩] . ولكنه ذهب إلى أن « زيادة أجور العمال اليوميين خطأ ، لأنها لاتعينهم على عيش أفضل . إنما (فى رأى « المتبطل ») تجعلهم أكثر كسلا ، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية »[١٠٠] . وكان كبلاكستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية ، وكنقيضه فولتير يدافع عن الترف لأنه يتيح عملا للفقراء بدلا من إفسادهم بالصدقات[١٠١] . وقد سبق آدم سمث فى الدعوة للمشروعات الحرة[١٠٢] ، ولكن تكاثر التجار كان يثيره . « أخشى ألا تتيح زيادة التجارة ، والصراع المتصل على الثروة الذى تثيره التجارة ، أى أمل فى نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش . . . ان العنف يخلى مكانه للمكر »[١٠٣] . ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن عانى من الفاقة ، وقال « إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال ، اللهم إلا إذا كان أحمق »[١٠٤] — وفى هذا الرأى بخس لغرور الإنسان .

وقد أحس أننا نغالى فى أهمية السياسة (ولنذكر الأبيات التى أضافها لقصيدة جولدسمث « الرحالة » (لست أبالى مثقال ذرة أن أعيش فى ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة »[١٠٥] . وإذن « فمعظم خطط الإصلاح السياسى أشياء مضحكة جداً »[١٠٦] ، ومع ذلك سخط على « كلاب الهويجز » ، واقتضى رضاه عن الهانوفريين منحه معاشاً . ووصف الوطنية بأنها « آخر ملاذ يحتمى به الأوغاد »[١٠٧] . ولكنه دافع بحرارة الوطنيين الغيورين عن حق بريطانيا فى جزر فوكلند (١٧٧١) . وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين والفرنسيين يكاد يكون شوفينيا .

وكان السباق ، فى ١٧٦٣ ، فى الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بيرك « أن التجربة البشرية ، التى تناقض النظرية باستمرار ، هى المحك الأعظم للحقيقة . وإن نظاماً قام على كشوف عدد كبير من العقول لهو دائماً أقوى مما يتمحض عنه تفكير عقل واحد »[١٠٨] . وبعد عام ١٧٦٢ كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن ، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها « أدنى إلى الكمال من أى شىء عرفناه بالتجربة أو وعاه التاريخ »[١٠٩]. وأعجب بالارستقراطية والفوارق والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعى والتشريع الحصيف [١١٠] . « إننى صديق للطاعة ، فهى جد مفضية إلى سعادة المجتمع . . . والخضوع واجب الجهال . والقناعة فضيلة الفقراء »[١١١] . وأحزنه كما يحزن كل جيل :

« ان الطاعة إنهارت بشكل مؤسف فى هذا العصر . فما من رجل له اليوم السلطة التى كانت لأبيه — إلا السجان . وما من سيد يملكها على خدمه ؛ وقد تقلصت فى كلياتنا . أجل ، بل فى مدارسنا الثانوية . ولهذا أسباب كثيرة ، أهمها فى رأيى تكاثر المال تكاثراً شديداً . . فالذهب والفضة يدمران الطاعة الإقطاعية . ولكن هناك إلى هذا تراخ عام فى الإحترام . فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى . . . وأملى أن يتمخض هذا التراخى الشديد عن إحكام للزمام كما تتمخض الفوضى عن الطغيان » [١١٢] .

وحكم جونسن من واقع تأمله لجماهير لندن بأن الديمقراطية ستكون وبالا . وسخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية[١١٣] . « ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة ، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر »[١١٤] . وفى ١٧٧٠ كتب كراسة عنوانها « الإنذار الكاذب » ، أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان .

وفى كراسة أخرى عنوانها « الوطنى » (١٧٧٤) جدد جونسن هجومه على ولكس ، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه « محاولة لفرض التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا فى أمريكا »[١١٥] . وكان جونسن قد

تحدث فى كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بحياد عرضى ، فرأى أنها « اختطفت دون استناد إلى مبادىء سياسية عادلة جداً » ، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولا أوربية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط[١١٦] ، ولأن انجلتره أرادت حماية نفسها من بلدين — فرنسا وأسبانيا — أصبحا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التهامهما لأمريكا . وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم الهنود معاملة رحيمة وعلى التزاوج منهم ، وأدان المستعمرين البريطانيين لغشهم للهنود وظلمهم للزنوج[١١٧]. ولكن حين راح المستعمرون يتحدثون عن الحرية ، والعدالة ، والحقوق الطبيعية ، احتقر جونسن دعاواهم لأنها رياء خداع ، وتساءل «ما بالنا نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلابى العبيد الزنوج ؟ »[١١٨] . ثم بسط الرأى المعارض لتحرير المستعمرات فى كراسة قوية عنوانها « فرض الضرائب ليس طغياناً » (١٧٧٥) ، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة ، لأن جونسن اشتكى (فيما يروى بوزويل) من أن معاشه منح له « بوصفه شخصية أدبية » ، وها هو الآن « تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية »[١١٩] .

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين بقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقروا ضمناً بحق الحكومة البريطانية فى فرض الضرائب عليهم . وفرض الضرائب ، إذا توخينا الإنصاف ، لا يقتضى تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم الضرائب تمثيلا مباشراً فى الحكومة ؛ ونصف سكان انجلتره لا ممثلون لهم فى البرلمان ، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابلا عادلا لما توفره الحكومة من نظام اجتماعى وحماية قانونية . وقد ذهب هوكنز — وهو الذى أمد جونسن بحججه[١٢٠] — إلى أن هذه الكراسة « فرض الضرائب ليس طغياناً » « لم تتلق رداً قط »[١٢١] . أما بوزويل ، الذى تذكر كورسيكا ، فقد انحاز إلى صف الأمريكيين ، وأسف على ما فى قلم جونسن من « عنف بالغ » ، وقال « لست أشك فى أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم ، والحق أنه اعترف لى بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها »[١٢٢] . وقد تنبأت فقرة حذفتها الوزارة بأن

الأمريكان « سوف يكونون بعد قرن وربع أكثر من أنداد لسكان أوربا (الغربية) »[١٢٣] .

وكان فى فلسفته السياسية بعض العناصر اللبرالية . وقد آثر فوكس على بت الثانى ، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس ، الذى تغلب على مبادىء جونسن السياسية بإعطائه قدراً من لحم العجل اللذيذ[١٢٤] . وداعب المحافظ العجوز الثورة فى إحدى فقراته فقال :

« إذا تأملنا بالنظرة المجردة التوزيع غير المتكافىء لمباهج الحياة . . . وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة ، وأكثر منهم ما تتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة ، ورأينا الكسالى يعيشون فى رغد على متاعب الكادحين ، والمترفين ينعمون بأطايب لايذوقها من يوفرونها ، وإذا كان السواد الأعظم لابد مفتقر دائماً إلى ما تستمتع به القلة وتبدده دون نفع ، بدا لنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده ، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يترك إنسان طويلا وفى حوزته مباهج فائضة عن حاجته بينما يفتقر هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية »[١٢٥] .

على أن نزعته المحافظة كانت ترتد بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين . فبعد أن أنفق سنة من التشكك فى شبابه[١٢٦] ، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايد الحرارة ؛ وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية : فقد أعجبته فكرة المطهر ، وحين سمع أن قسيساً انجليكانياً تحول إلى كنيسة روما قال « ليباركه الله »[١٢٧] . ويقول بوزويل إنه « دافع عن ديوان التفتيش ، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها ، وأن على السلطة المدنية أن تتحد مع الكنيسة فى عقاب من يجرءون على مهاجمة الدين المقرر ، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم »[١٢٨] . وكان يكره المنشقين على الكنيسة الانجليكانيه ، ورحب بطرد المشوديين من أكسفورد[١٢٩] . وقد رفض أن يتحدث إلى سيدة هجرت الكنيسة الرسمية للتنضم إلى طائفة الكويكر[١٣٠] . ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لهيوم « الملحد » . وحين أخبره آدم سمث أن هيوم يحيا حياة يضرب بها المثل ، صاح به جونسن « أنت تكذب : » ورد

عليه سمث فوراً « أنت ابن قحبة »[١٣٢] . وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعى والأخلاق ، وأن الرجاء المنعقد على خلود سعيد هو وحده الذى يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدائد الحياة الدنيوية . وقد آمن بالملائكة والشياطين ، وذهب إلى « أننا جميعاً كتب لنا أن نسكن فى الآخرة اما فى مواطن الهول أو السعادة »[١٣٢] . ثم قبل الوجود الحقيقى للساحرات والعفاريت ، وأعتقد أن زوجته المتوفاه قد ظهرت له فى المنام[١٣٣] .

ولم يكن يهتم بالعلم ، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان[١٣٤] . وكان يستفظع تشريح الحيوان الحى . ولم يثر الارتياد الجغرافى اهتمامه ، فاكتشاف الأراضى المجهولة لن يفضى إلا إلى الغزو واللصوصية »[١٣٥] . وذهب إلى أن الفلسفة متاهة عقلية تؤدى إما إلى الشك الدينى أو إلى الهراء الميتافيزيقى . ومن ثم فند مثالية باركلى برفس حجر ، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل « نحن عليمون بأن إرادتنا حرة ، وهذا يكفى لإنهاء المسألة . . . ان النظرية كلها ضد حرية الإرادة ، والتجربة كلها معها »[١٣٦] .

وقد رفض باشمئزاز فلسفته التنوير الفرنسى بأسرها . وأنكر حق العقل المفرد مهما عظم ذكاؤه فى أن ينصب نفسه حكماً على أنظمة أنشأتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التى خاضها النوع الإنسانى حماية للنظام الاجتماعى من دوافع البشر غير الاجتماعية . وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل مآخذها تؤدى وظيفة حيوية فى صيانة الحضارة الفرنسية ، وحكم بالغفلة والضحل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاق . وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء : ففولتير مغفل عقلى ، ورسو مغفل عاطفى ، غير أن الفرق بينهما من الضآلة بحيث « يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما »[١٣٧] . وقد وبخ بوزويل على تودده لروسو فى سويسره ، وأسف لكرم الضيافة الذى بذلته انجلتره

« إميل » (١٧٦٦) . « إن روسو يا سيدى رجل شرير جداً . وإنى ان أتردد فى أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أى جان أدانته

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة . أجل يا سيدى ، أود لو أكره على الشغل فى المزارع الكبيرة »[١٣٨] .

على أن جونسن لم يكن محافظاً فى حياته بقدر ما كان فى آرائه . فكان يخرج فى مرح على عشرات التقاليد فى السلوك ، والحديث ، واللباس . ولم يكن متزمتاً ؛ ضحك على البيورتان ، وحبذ الرقص ، ولعب الورق ، والمسرح . ولكنه أدان قصة فيلدنج « توم جونسن » ، وصدمه أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها[١٣٩] . وكان يخشى النزعة الحسية فى الأدب لأنه وجد مشقة فى كبت خياله ودوافعه الحسية . وربما كان يخيل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة . ولكن فى استطاعتنا أن نرى فى بوزويل أنه استمتع بـ « ملء الوجود البشرى » . لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة ، ولكنه كمعظمنا طاولها ما استطاع . وواجه سنيه الأخيرة فى كره غاضب .

٦ — الخريف

فى عام ١٧٦٥ انتقل من الأنر تمبل إلى بيت ذى طوابق ثلاثة فى رقم ٧ بجونسنز كورت بفليت ستريت ، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله . هناك وجده بوزويل بعد أن عاد من أوربا . وفى يوليو منحته جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون ، فأصبح الآن لأول مرة « الدكتور جونسن » ، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط[١٤٠] .

وفى أكتوبر ١٧٦٥ أصدر ، فى مجلدات ثمانية ، مسرحيات شكسبير التى تحمل تحقيقاته وتعليقاته ، بعد أن انقضت ثمانية أعوام على الموعد الذى وعد به المكتتبين فيها . وقد جرؤ على بيان ما فى مسرحيات الشاعر من أخطاء وسخافات وآراء طنانة صبيانية ، ولامه لافتقاره إلى الهدف الأخلاقى ، وذهب إلى أن شكسبير « ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف كاتب معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها »[١٤١] . ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه فى عنصر الحب المشوق فى الدرامات الكبرى ، وعلى جعله كبار شخوصه ناساً لا أبطالا ، ودافع فى قوة عن إهمال شكسبير لوحدتى الزمان والمكان ، ذلك الإهمال الذى أخذه

فولتير على شكسبير[١٤٢] . وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته ، وحل محل هذه الطبعة طبعة أصدرها إدموند مالون فى ١٧٩٠ ؛ ولكن مالون إعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن ، وغالى فى تقدير مقدمة جونسن فقال إنها « ربما كانت أروع التآليف فى لغتنا »[١٤٣] .

وفى ١٧٦٧ ، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام ، التقى مصادفة بجورج الثالث ، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة . ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة ، فقبل جونسن فى ١٧٧٣ دعوة الرجل المعجب ليصحبه فى رحلة إلى جزر الهبريد . وكانت مغامرة شجاعة لرجل فى الرابعة والستين . وبدأت بسفرة طويلة شاقة فى مركبة بريد من لندن إلى إدنبره . وهناك التقى بروبرتسن ، ولكنه أبى أن يقابل هيوم . . وفى ١٨ أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالا فى مركبة أجرة على الساحل الشرقى إلى أبردين ، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس ، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بآنوخ إلى جلينيلج على الساحل الغربى . وهناك استقلا قارباً إلى جزيرة سكاى ، التى جابا أرجاءها كلها تقريباً من ٢ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر . وقد كابدا مشاق كثيرة تقبلها جونسن فى شجاعة صارمة ، فنام فوق الدريس فى الأجران ، ودب عنه الهوام ، وتسلق فوق الصخور ، وركب فى وقار قلق أفراساً لا تكاد تفوقه حجماً . وفى إحدى وقفاتهما جلست سيدة من قبيلة مكدونلد على ركبته وقبلته فقال لها « أعيدى ، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر »[١٤٤] . وفى ٣ أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلا إلى جزيرة كول ، ومنها إلى جزيرة مل . ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم فى ٢٢ أكتوبر ، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دمبرتن وجلاسجو إلى أوخنلك (٢ نوفمبر) . هناك التقى جونسن بوالد بوزويل ، الذى احتفى به احتفاء كبيراً ، وإن أسف لانحيازه على الاسكتلنديين ، وخاضا فى جدل بلغ من العنف حدا رفض معه بوزويل أن يسجله . وبعدها لقب بوزويل الأب جونسن « الدب الأكبر » وهو لقب فسره الإبن فى لباقة بأنه لايعنى

الدب الأكبر بل « برجاً للعبقرية والعلم » (١٤٥) . ووصـــل المسافران إلى إدنبره فى ٩ نوفمبر ، بعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً . فلما تذاكرا المشاق التى لقياها ، « ضحكا من قلبيهما على هذيان أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا اقناعنا بما تتيحه الحالة الطبيعية من منافع خداعة ». « وغادر جونسن إدنبره فى ٢٢ نوفمبر ، فبلغ لندن فى السادس والعشرين . وفى ١٧٧٥ نشر كتاب « رحلة إلى جزر اسكتلانده الغربية » ، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة ، حتى إذا قورن بالوصف المهذب ، الذى أصدره بوزويل فى ١٧٨٥ بعنوان « يوميات جولة فى الهيبريد مع صموئيل جونسن » ، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة ، ولكن فى بعض الفقرات (١٤٦) جمالا هادئاً يبدى لنا جونسن مرة أخرى ربا للنثر الانجليزى .

وفى ابريل ١٧٧٥ اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى . وفى مارس ١٧٧٦ غير مسكنه لآخر مرة ، فانتقل إلى المنزل رقم ٨ ببولت كورت مصطحباً معه أسرته المختلطة . ثم كتب إلى كبير أمناء الملك (١١ ابريل ١٧٧٦) فى حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة فى قصر هامتن كورت فقال « أرجو ألا يكون الاعتكاف فى أحد بيوت جلالته تجاوزاً فى غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته » (١٤٧) . ورد كبير الأمناء آسفاً لكثرة عدد الطلاب .

وبقى إنجاز أخير للأديب . ذلك أن أربعين كتبياً لندنياً اشتركوا فى اعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الانجليز ، وطلبوا إلى جونسن أن يقـــدم لكل شاعر بترجمة له . وتركوا له تحديد شروطه ، فطلب مائتى جنيه . قال مالون « لو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفا وخمسمائة من الجنيهات ، لما تردد الكتبيون فى العطاء وهم العليمون بقيمة اسمه » (١٤٨) . وكان جونسن قد فكر فى كتابه « سير قصيرة » ، وفاته أن من أصول الكتبه أن القلم الجارى ، كالمادة فى قانون نيوتن الأول ، يواصل جريانه ما لم تكرهه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج . ولقد كتب عن صغار الشعراء بإيجاز

محمود . أما عن ملتن ، وأديسن ، وبوب ، فقد أطلق لقلمه العنان ، وأنشأ مقالات — من ستين صفحة واثنتين وأربعين ومائة واثنتين — تعد من أروع نماذج النقد الأدبي في الانجليزية .

وقد تلون حكمه على ملتن بكراهيته للبيورتان وسياستهم وقتلهم للملك . وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره ، ووصفه بأنه « جمهوري قاس فظ »(١٤٩) . أما مقاله عن بوب (الذي بلغ في الطبعة الأصلية ٣٧٣ صفحة) فكان آخر ، ضربة في الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكي في الشعر الانجليزي يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب في النثر الانجليزي . لقد رأى ، وهو المالك لناصية اليونانية أن ترجمة بوب للألياذة تفضل هومر . وامتدح مرثية جراي ، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتظاظها في غير نظام بالأرباب الأسطوريين . وحين نشرت المجلدات العشر من « حياة الشعراء » (١٧٧٩ — ٨١) ، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التي كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة ، وعدم إحساسه بلطائف الشعر الرهيفة ، وميله لتقدير الشعراء أو الحط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقي الذي تنحو إليه قصائدهم وحياتهم . وقد صرح ولبول بأن « الدكتور جونسن لا يملك ولا ريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية »(١٥٠) . وسخر من « هذا الهيكل الثقيل القائم على طوالتين » ، والذي يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع(١٥١) . فلم إذن فاقت هذه « السير » في ذيوعها وشغف القراء بها أي ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن ؟ ربما بسبب تلك الميول المغرضة والصراحة في الإعراب عنها . فلقد جعل النقد الأدبي قوة نابضة بالحياة ، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية .

٧ — الإفراج : ١٧٨١ - ٨٤

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين تمتد بنا العمر بعد موت معاصرينا ، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة . وهكذا كان موت هنري ثريل (٤ ابريل ١٧٨١) البداية لنهاية جونسن . وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة . ولكن زياراته لأسرة ثريل قامت بعد ذلك .

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغوط التي تفرضها عليها حاجة جونسن للرعاية والآذان الصاغية . وكان ثريل قد أفلح في جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول ، ولكن (وهذه شكوى الأرملة) « إذا لم يوجد من يردعه (أي جونسن) عن التمادي في إبداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار . . . وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً ، فاضطررت . . . إلى الاعتكاف في باث ، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعني »[١٥٢] .

وزادت صحيفة المورنيج بوست الطين بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمسز ثريل « جاهزة »[١٥٣]. وكتب بوزويل نشيداً هزلياً (برلساك) عنوانه « نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم »[١٥٤] . ولكن في ١٧٨٢ كان جونسن في الثالثة والسبعين والمسز ثريل في الحادية والأربعين . ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هي ، وكثيراً ما كان يهملها ، ولم تتعلم قط أن تحبه . ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها في أن تحب وأن تحب ، وفي أن تجد زوجاً في نصف عمرها الأخير . وكانت في تلك السن التي يشتد فيها شوق المرأة لنوع من الصحبة البدنية المتفهمة . وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابرييل بيوتزي الذي كان يعطي بناتها دروساً في الموسيقى ؛ وكان وهو الإيطالي مولداً قد اتخذ انجلترا له مقاماً في ١٧٧٦ ، وناهز الآن الثانية والأربعين . ويوم لقيته أول مرة في حفلة أقامها الدكتور بيرني ، راحت تقلد لازماته تقليداً ساخراً وهو يعزف على البيان . بيد أن سلوكه الأنيق ، وطبعه اللطيف ، ومهاراته الموسيقية ، جعلت منه نقيضاً مريحاً للدكتور جونسن . وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت . واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها في الزواج . فهالهن النبأ ، ذلك أن هذا الزواج الثاني سيؤثر في مستقبلهن المالي ، والزواج من موسيقي — وأسوأ من ذلك كاثوليكي روماني — سينال من مكانتهن في المجتمع . لذلك توسلن إلى أمهن أن تتروى في الأمر ، فحاولت ولكنها فشلت . وسلك بيوتزي مسلك الرجل المهذب ، فرحل إلى إيطاليا

(ابريل ١٧٨٣) وغاب قرابة عام . فلما عاد (مارس ١٧٨٤) ووجد أن المسز ثريل مازالت تواقة للزواج منه استسلم للأمر . ورفض البنات الموافقة ، وانتقلن إلى برايتن .

وفى ٣٠ يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً ينبئه بأنها وبيوتزى قررا الزواج . فأرسل إليها هذا الرد (٢ يوليو ١٧٨٤) .

سيدتى :

لو أننى أصبت فى تفسير رسالتك لقلت إنك تتزوجين زواجاً شائناً ، فإذا كان لم يعقد بعد ، فدعينا نقلب الأمر معاً مرة أخرى . ولو كنت قد تخليت عن بناتك وعن دينك ، فليغفر الله لك شرك ؛ ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك ، فأرجو ألا تأتى حماقتك مزيداً من الشر . وإذا كنت لم تتخذى بعد آخر خطوة ، فإننى — أنا الذى أحببتك ، وقدرتك ، واحترمتك ، وخدمتك ، أنا الذى طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء — أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه .

لقد كنت ، ذات مرة يا سيدتى ، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن[١٥٥]

وساءت المسز ثريل كلمة « شائن » لأنها رأتها وصمة لخطيبها ، فردت على جونسن فى ٤ يوليو تقول : « لنكف عن التحادث حتى تغير رأيك فى مستر بيوتزى » ثم تزوجت بيوتزى فى ٢٣ يوليو . ووافقت لندن كلها جونسن على إدانتها . وفى ١١ نوفمبر قال جونسن لفانى بيرنى ، « إننى لا أتحدث عنها أبدا ، ولا رغبة لى مطلقاً فى سماع المزيد عنها »[١٥٦] .

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافته . فاشتد أرقه ، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدىء أعصابه . وفى ١٦ يناير ١٧٨٢ مات طبيبه روبرت ليفت . وتساءل جونسن : على من يكون الدور بعده ؟ لقد كان يرهب الموت دائماً ، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالجحيم سنيه الأخيرة خليطاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية . وقال للدكتور وليم آدمز عميد كلية بمبروك « أخاف أن أكون واحداً من

الهالكين» . فلما سأله آدمز ماذا يعنى بكلمة « الهالكين» صاح « الذين مآلهم إلى النار والعقاب الأبدى يا سيدى »[١٥٧]. ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكينة التى كان هيوم الملحد قد دنا بها من منيته[١٥٨] .

وفى ١٧ يونيو ١٧٨٣ أصيب جونسن بنقطة خفيفة « تشوش وخلط فى رأسى أظنه دام نصف دقيقة . . وقد احتبس لسانى . ولم أشعر بألم »[١٥٩]. وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلا أتاح له تناول العشاء فى النادى ، وفى يوليو أذهل أخصاءه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسلزبرى . قال لهوكنز « أى رجل أنا ، رجل قهر ثلاثة أمراض — الشلل ، والنقرس ، والربو — ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء ! »[١٦٠] ولكن فى ٦ سبتمبر ماتت مسز وليمز ، وباتت وحدته لا تطاق . فلما وجد « النادى » غير كاف — لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسمث ، وجاريك ، وبوكلارك) ماتوا ، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كريهين فى نظره ، أنشأ (ديسمبر ١٧٨٣) ، « نادى المساء » الذى كان يعقـــد اجتماعاته فى مشرب للجعة بشارع اسكس . هناك كان فى وسع أى شخص مهذب ، إذا دفع ثلاثة بنسات ، أن يدخل ويستمع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع . ودعا رينولدز للانضمام ، ولكن السر جوشوا رفض . ورأى هوكنز وغيره فى النادى الجديد « تدهوراً فى تلك القدرات التى كانت تبهج « أشخاصاً أكثر مهابة »[١٦١] .

وفى ٣ يونيو ١٧٨٤ كان فى عافية أتاحت له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد . فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته . وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه . ولكن وزير الخزانة رفض . وفى ٢ يوليو رحل بوزويل إلى اسكتلنده . ولم ير جونسن بعدها قط .

ذلك أن الربو الذى كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء . كتب إلى بوزويل فى نوفمبر ١٧٨٤ « إن نفسى قصير جداً ، والماء يتزايد

الآن على »[١٦٢] . وتوافد عليه رينولدز ، وبيرك ، ولانجتن ، وفانى بيرنى وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة . ثم كتب وصيته ، وقد خلف ٢,٠٠٠ جنيه ، أوصى منها بمبلغ ١,٥٠٠ لخادمه الزنجى[١٦٣] . وعالجه عدة أطباء ، ورفضوا تقاضى أى أجر . وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق ، فأبوا ، فلما انصرفوا دفع مبضعاً أو مقصاً فى عمق ربلتيه أملا فى فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم ، وانطلق بعض الماء ، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم ، فى تلك الليلة ، ليلة ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ ، قضى نحبه . وبعد أسبوع دفن فى كنيسة وستمنستر .

لقد كان أغرب شخصية فى تاريخ الأدب ، أغرب حتى من سكارون أو بوب . ومن العسير أن نحبه لأول وهلة ، فقد ستر رقته خلف ستار من الوحشية ، ونافست خشونة عاداته لياقة كتبه . ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين . ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة فى كلامه . وقد أحاط حكمته بالتفاهات ، ولكنه رفع هذه التفاهات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه . ولنا أن نشبهه بسقراط ، الذى كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز ، والذى يذكره الناس بكلامه المنطوق . وكان كلاهما أشبه بذباب الخيل المنبه ، ولكن سقراط كان يلقى أسئلة ولا يعطى جواباً ، أما جونسن فلم يلق سؤالا وقد أجاب عن كل الأسئلة . ولم يكن سقراط على يقين من شىء ، أما جونسن فكان على يقين من كل شىء . وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان . وواجه سقراط الموت مواجهة فيلسوف وبابتسامة ، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة .

وإن تجد اليوم إنساناً يراه فى صورة الكمال . وفى وسعنا أن نعرف لم تجنبته الطبقة الاستقراطية الانجليزية وتجاهلت إمارته — خلا لانجتن وبوكلارك . ونحن ندرك أى « جون بول » كان يمكن أن يكون لو جال فى « متحف خزف » النبلاء ، أو وسط تحف قصر « ستروبرى هل » النفسية ، إنه لم يخلق للجمال ، ولكنه أدى مهمة ، هى تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمبالغة فى إظهار العاطفة ، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية . ولا بد إن كان هناك شيء محبب فى رجل استطاع رينولدز وبيرك وجولدسمث الاستماع إليه ألف ليلة وليلة ، شيء ساحر فى إنسان استطاع أن يوحى بكتابة سيرة عظمة ، وبملأ صفحاتها الألف والمائتين بحياة لايبليها الزمن .

٨ — بوزويل فى أيامه الأخيرة

لما مات الدب الأكبر حام حوله قطيع الأدباء ليلتقطوا من جثمانه بعض قوتهم . أما بوزويل نفسه فلم يتعجل ، فقد عكف على « السيرة » سبعة أعوام ، ولكنه أصدر فى ١٧٨٥ « يومية جولة فى جزر الهبريد مع صموئيل جونسن » ، وقد طبعت ثلاث طبعات فى سنة واحدة . وكانت هستر ثريل بيوتزى قد جمعت مادة عن أحاديث جونسن وعاداته ، فصنفت الآن من هذه « الثريليات » « نوادر عن المرحوم الدكتور صموئيل جونسن ، خلال سنيه العشرين الأخيرة (١٧٨٦) . وقد عرض الكتيب صورة لضيفها أقل اشراقاً مما سجلته من قبل فى يوميتها يوماً بيوم ، ولاريب فى أن رسائل جونسن الأخيرة لها قد خلفت فيها جرحاً لايندمل .

ويلى ذلك فى الحلبة — إذا خلينا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن — « سيرة صموئيل جونسن » التى نشرها فى خمسة مجلدات فاخرة السرجون هوكنز عام ١٧٨٧ . وكان هوكنز قد لقى من التوفيق فى عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية (١٧٧٢) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد فى « تاريخ الموسيقى » (١٧٧٦) . وقد شارك جونسن فى تنظيم نادى « آيفى لين» (١٧٤٩) ، وكان أحد الأعضاء الأصليين فى « النادى » . ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسن بـ « الرجل الذى لايصلح للأندية » . ولكن جونسن ظل صديقه ، وكثيراً ما التمس مشورته ، وقد عينه واحداً من منفذى وصيته . وبعد وفاة جونسن بقليل طلب جماعة من الكتبية إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة الأديب . وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسن فى غير رحمة ، وتشكك بوزويل فى دقتها فيما بعد . ولكن

« التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها فى تحقيق منصف »[١٦٤]. ومعظم العيوب التى أخذها هوكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه .

ثم عادت المسز بيوزى إلى المأدبه بكتاب عنوانه « رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن » (١٧٨٨) ، وكلها ساحر ، لأن رسائل جونسن (فيما خلا الأخيرة التى كتبها لسيدته الضالة) كانت تفوق حديثه كثيراً فى إنسانيتها . وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصبر فيما بين قضاياه ومجالس خمره على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها . وكان قد بدد فى تسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) ، ثم خطط للسيرة فى تاريخ مبكر (١٧٧٢) . غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية فى الطول والمشقة . ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره ، ولم يكن يعرف الاختزال ، ولكنه اتخذ مبدأ هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرته ما يذكره عما حدث أو قيل . وبدأ كتابة « سيرة صموئيل جونسن » بلندن فى ٩ يوليو ١٧٨٦ وتنقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقى على قيد الحياة من أصحاب جونسن . وأعانه إدموند مالون ، الأديب المتخصص فى شكسبير ، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات ، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدا أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هده الفجور والحزن وموت زوجته . كتب بوزويل فى ١٧٨٩ — « لن تستطيع أن تتصور أى عناء ، وأى حيرة ، وأى غيظ تحملته فى ترتيب عدد هائل من المواد ، وفى ملء الفراغات ، وفى البحث عن أوراق مدفونة بين أشتات من الأكداس ، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهذيب . وكثيراً ما فكرت فى التخلى عن هذه المهمة »[١٦٥]. وقد اقتبس من كتاب وليم ميسن « سيرة جراى ورسائله » (١٧٧٤) فكرة بث رسائل بطله فى ثنايا القصة . وقد كدس التفاصيل عمداً ، لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية . ثم نسجت من هذه الأشتات رواية مسلسلة التواريخ وكل متكامل .

فهل كان دقيقاً ؟ هذا ما زعمه . « لقد توخيت الدقة البالغة فى التسجيل

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة »[١٦٦] . وأينما استطعنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدا أنها صحيحة من حيث الوقائع ، وان لم تكن كذلك من حيث حرفيتها . والمقارنة بين كتابى بوزويل « المذكرات» و « السيرة » تدل على أنه حول تلخيصه لأحاديث جونسن إلى اقتبـــاسات مباشرة ، قد يطيلها أحيـــاناً ، أو يقصرها ، أو يحسنها[١٦٧] ، أو ينقيها ، مع تمديد الألفاظ الصغيرة (الرباعية الحروف) إلى أطوال محترمة ، وكان أحياناً يحذف الوقائع التى لاتخدم مصلحته[١٦٨] . ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن[١٦٩] ، ولكن حين توسلت إليه حنه مور « ان يلطف من بعض خشونة جونسن وغلظته »، رد بأنه « لن يقلم أظافر جونسن ، أو يحيل الببرقطا ليسر أى إنسان »[١٧٠] . والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كشفاً كاملا كما فعل غيره ، ولكن فى منظور أوسع خفف من بروزها . وقد حاول أن يظهر من الرجل فى صورته الكاملة ذلك القدر الذى تسمح به المحبة واللياقة . قال « إننى على يقين تام أن النهج الذى انتهجته فى كتابة السيرة ، والذى لايكتفى بسرد تاريخ لـ « مسيرة » جونسن فى الحياة ، ولمؤلفاته ، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل فى رسائله وأحاديثه ، هذا المنهج هو أكمل منهج يمكن تصوره ، وسيكون أقرب إلى تصوير « حياة » جونسن من أى كتاب ظهر إلى الآن »[١٧١] .

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور فى مجلدين كبيرين فى مايو ١٧٩١ ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً فى بابه . وساء كثيرين أن يقص بوزويل أحاديثهم الخاصة ، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب ، فقد كان فى وسع الليدى ديانا بوكلارك مثلا أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر ، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط فى الشراب ، وعرف بيرك أن جونسن يتشكك فى نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض الطريق ، وجفلت المسز بيوتزى والمسز اليزابث مونتجيو مما قرأتا . وكتب هوراس ولبول يقول « ان الدكتور بلاجدن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف ، تستطيع به أن تسب أى إنسان

بقولك ان ميتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حى »(١٧٢) . ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة ، وأن كثيراً من الرسائل تافهة ، وأن بعض الصفحات مملة . ولم تدرك انجلترا إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع ، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو .

وكان أبوه قد مات فى ١٧٨٢ مخلفاً إياه سيداً على أوخنلك بدخل بلغ ١,٦٠٠ جنيه فى العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد ، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر إلفا حال إطالته المكث فى أوخنلك . وفى ١٧٨٦ صرح له باحتراف المحاماه فى انجلتره ، وبعدها أنفق معظم وقته فى لندن . وقد صوره رينولدز فى ذلك العام — رجلا واثقاً من نفسه ، متغطرساً ، له أنف كفيل بأن يستل أى سر من صاحبه . وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن ، ولكنها كانت تقيم فى أوخنلك عادة . وفيها ماتت عام ١٧٨٩ بالغة الحادية والخمسين ، بعد أن أضنتها العناية التى بذلتها لبوزويل وأبنائه . وقد عمر بعدها ست سنين — كانت سنى انحلال متعاظم . فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق . ومات بلندن فى ١٩ مايو ١٧٩٥ ، بالغا السادسة والخمسين ، ونقل جثمانه إلى أوخنلك ليدفن فيها . وأوزاره ماثلة اليوم فى أذهان جماهير الناس . ولكنا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التى هى أعظم السير طرا .

هذا ولو رجعنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر فى الأدب الانجليزى ، لأدركنا أنه كان قبل كل شىء قرن النثر ، من أديسن ، وسويفت ، وديفو ، إلى ستيرن ، وجبون ، وجونسن ، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر ، من « هاملت » ودن إلى درايدن والفردوس المفقود . وكان صعود العلم والفلسفة ، وهبوط الدين والغيبيات ، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية ، كل هذا برد من حرارة الخيال والآمال ، وعطل من تدفقهما ، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر ، فى فرنسا وفى انجلتره على حد سواء . بيد أن ما اتسم به أدب انجلتره النثرى فى القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التى سادت شعره . وبفضل

رتشردسن وفيلدنج أصبحت الرواية ، التى كانت قبلهما سلسلة إبيزودية من مغامرات المتشردين والشطار ، وصفاً للحياة ونقداً لها ، ودراسة للعادات ، والأخلاق ، والشخصيات ، هى أكثر إثارة من سجلات المؤرخين ، الذين تاه منهم الناس وسط الدولة . ثم أى تأثير أدبى يمكن أن يضارع فى ذلك العصر تأثير رتشردسن على بريفو ، وروسو ، وديدرو ، وجوته ؟

وإذا كان أدب انجلتره فى القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر ، أو منافسة الخيال الأليزابيثى المحلق ، فإن حياة انجلتره بجملتها استعادت حركتها صعدا بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين فى عهد عودة الملكية . فلم تشعر انجلتره منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق فى المغامرة والسياسة ، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وموت ابنه الثورة الصناعية تحل انجلتره مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها فى روح الابتكار والقوة الاقتصاديين ، وشهدت البرلمان الانجليزى يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جماح ملوكه . فالآن بدت الامبراطورية البريطانية المترامية ، والآن تجاوبت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التى لم تسمعها أوربا منذ أيام شيشرون . وبينما كانت فرنسا تنزح خزائنها لتحرر أمريكا ، وتضرب عنقها لتحقق أحلامها ، شحذت انجلتره كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة ، ولتلج أبواب القرن التاسع عشر فى الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوئة أسمى مكان .

* * *

الكتاب السابع

انهيار فرنسا الإقطاعية

١٧٧٤ – ٨٩

الفصل الرابع والثلاثون

البهاء الأخير

١٧٧٤ – ٨٣

١ – ورثة العرش : ١٧٥٤ – ٧٤

كان لويس السادس عشر الابن الثالث للدوفن لوى دفرانس ، الذى كان الإبن الشرعى الوحيد للويس الخامس عشر . وقد لقب الدوفن بلويس البدين لأنه كان أكولا . وقد حاول التغلب على سمنته بالصيد، والسباحة، وقطع الأشجار ، ونشر الخشب ، واشتغال بالحرف اليدوية[1]. واحتفظ طول حياته باحترامه للكنيسة ، وكان أعز أصدقائه هم القساوسة ، وكان شديد الخجل من فسق أبيه . وقد أدمن القراءة ، وقرأ فيما قرأ مونتسكيو وروسو ، وآمن بالرأى القائل « إن الملك ليس إلا الوكيل على موارد الدولة »[2]. وضن على نفسه برحلة خلال فرنسا، لأن « شخص بجملته لايساوى ما تكلفه الرحلة للشعب الفقير »[3]. ومما يجدر بالملاحظة أن الكثير من خلقه وعاداته وأفكاره تحدر إلى ولده لويس السادس عشر .

أما زوجته ، مارى – جوزيف السكسونية ، المرأة الفاضلة الخلق ، القوية البدن ، فقد ولدت له ثمانية أطفال ، ومنهم لوى – جوزيف ، دوق برجنديه ، الذى قتل فى حادث عام ١٧٦١ ، ولوى – أوجست ، دوق بيرى ، المولود فى ٢٣ أغسطس ١٧٥٤ ، والذى سيصبح لويس السادس عشر ، ولوى – ستانسلاس ، كونت بروفانس ، المولود فى ١٧٥٥ ، والذى سيصبح لويس الثامن عشر ، ثم شارل – فليب ، كونت دارتوا ، المولود فى ١٧٥٧ ، والذى سيصبح شارل العاشر . فلما مات أبوهم عام ١٧٦٥ أصبح لوى – أوجست ، البالغ أحد عشر عاماً ، وارثاً للعرش .

وكان غلاماً عليلا ، جباناً خجولا ، ولكنه اكتسب الصحة والعافية بفضل سنوات الحياة الريفية والطعام البسيط . وكان كأبيه فيه من الطيبة أكثر مما فيه من الذكاء . وكان يحسد أخوته على ذكائهم المتفوق ، وكانوا يتجاهلون تماماً كبر سنه . وإذ كان فيه من الحياء ما يمنعه من الرد على الهجوم فقد أغرق نفسه في الرياضة والحرف . فتعلم الرماية بمنتهى الدقة ، ومنافسة الصناع في استعمال يديه وأدواته . وقد أعجب بمهارات الصناع الذين يخدمون القصر ، وأحب التحدث إليهم والعمل معهم ، واتخذ شيئاً من طباعهم وحديثهم . ولكنه أحب الكتب أيضاً . واستهواه فنيلون بنوع خاص ؛ وحين بلغ الثانية عشرة ركب مطبعة في قصر فرساي ، وبمساعدة أخويه (وكانا في التاسعة والحادية عشرة) جمع حروف مجلد صغير نشره في ١٧٦٦ بعنوان « حكم أخلاقية وسياسية مستقاه من تليماك » ولم يحب جده لويس الخامس عشر هذه الحكم وقال « انظر إلى ذلك الولد الكبير ، سوف يكون القاضي على فرنسا وعلى نفسه ، ولكنى على أية حال لن أعيش حتى أرى ذلك »(٤) .

فكيف السبيل إلى تحويل هذا الأمير الصانع ملكاً ؟ أيمكن العثور على زوجة منبهة له تهبه الشجاعة والأباء ، وتلد له ملوكاً من البوربون للمستقبل ؟ وأما الحاكم الحالى فكان في شغل عن هذا بمدام دوباري ، ولكن شوازيل وزير الخارجية تذكر أيامه التي قضاها في بلاط فيينا ، وتذكر أرشيدوقة مرحة تدعى ماريا أنطونيا يوزيفا ، كانت آنئذ (١٧٥٨) في الثالثة من عمرها ، فلعل زواجها من لوى – أوجست ينفخ روحاً جديدة في ذلك الحلف النمسوى الذى أضعفه الصلح المفرد المبرم بين فرنسا وانجلترة (١٧٦٢) ، وكان الأمير فون كاونتز قد أسر بمثل هذه الأفكار للكونت فلوربمنا مرسى دارجنتو ، وهو نبيل من لييج ذو ثراء عريض وقلب طيب ، وكان سفيراً للنمسا في فرساى . واستمع لويس الخامس عشر للنصيحة التي أجمعا عليها ، وأرسل (١٧٦٩) رسمياً إلى ماريا تريزا يطلب يد ماريا أنطونيا للوى – أوجست وأسعد الإمبراطورة أن تبارك اتحاداً كانت هي نفسها قد خططت له منذ أمد بعيد . وأما الدوفن الذى لم يؤخذ رأيه في الأمر ، فقد

قبل طائعاً هذا الاختيار الذى رتب له . وحين أنبىء بأن خطيبته أميرة حسناء ، قال فى هدوء « ليتها حسنة الخلال »(٥) .

ولدت بفيينا فى ٢ نوفمبر ١٧٥٥ . ولم تكن بالطفلة الوسيمة . فجبينها مفرط الارتفاع ، وأنفها مسرف فى الطول والتدبب ، وأسنانها غير منتظمة ، وشفتها السفلى غليظة . ولكن سرعان ما عرفت أن دمها أزرق ، فتعملت أن تمشى مشية من ولدت لكى تكون ملكة ، وأعادت الطبيعة بأكسير الشباب العجيب حين أدركت سن البلوغ لف جسمها لفاً ساحراً ، حتى غدت بشعرها الأشقر الحريرى ، وبشرتها الزنبقية الوردية ، وعينيها الزرقاوين العابثتين المتألقتين ، و « عنقها الإغريقى » على الأقل لقمة لذيذة لولى عهد ، ان لم تكن طبقاً شهياً لملك . وكان ثلاث من شقيقاتها الخمس اللاتى يكبرنها قد هيأت لهن الامبراطورة بدهائها زيجات لينة : فماريا كرستينا تزوجت الأمير ألبرت السكسونى ، الذى أصبح دوق ساكسى — تيشن ، وتزوجت ماريا أماليا فرديناند دوق بارما ، وأصبحت ماريا كارولينا ملكة على نابلى . أما أخوهن يوزف فكان شريكاً فى حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان أخوهن ليوبولد غراندوقا لتسكانيا . فلم يبق لماريا أنطونيا غير أن تصبح ملكة على فرنسا .

ولقد أهملت بعض الشيء بوصفها أصغر أطفال ماريا تريزا الأحياء ، فلما بلغت الثالثة عشرة تعلمت بعض الإيطاليا ، ولكنها لم تكن تحسن كتابة الألمانية ولا الفرنسية . أما التاريخ فلم تعرف منه شيئاً تقريباً ، ولم تحرز فى الموسيقى غير تقدم متواضع مع أن جلوك كان معلمها . وحين قرر لويس الخامس عشر قبولها زوجة لحفيده أصر على أن تطعم ضد الجدرى ؛ وبعث بالأب فرمون ليعجل بتعليمها . وكان تقرير فرمون عنها أن « خلقها وقلبها ممتازان » وأنها « أذكى مما كان يظن عموماً » ولكنها « على شيء من الكسل ، طائشة للغاية ، عسيرة التعليم . . . فهى لا ترغب فى التعليم إلا إذا سليت »(٧) ولكنها أحبت الرقص ، والعدو مع كلابها فى الغابات .

وكانت الإمبراطورة التى أضنتها الهموم عليمة بأنها تكل مصير الخاف لأيد أوهن من أن تضطلع بتبعة كهذه . وظلت طوال شهرين قبل ابرام الزواج المرتقب تأتى بماريا أنطونيا لتنام معها فى حجرتها . حتى تبث فى ابنتها فى جو أمسياتهما الحميم شيئاً من حكمة الحياة وفن الملك . وقد وضعت لها قائمة قواعد لتهدى سلوكها فى الأخلاق والسياسة . وكتبت للويس الخامس عشر ترجوه أن يغضى عن مآخذ العروس العزيزة التى ستبعث بها لحفيده . أما ولى العهد فقد وجهت إليه رسالة تفيض باهتمام الأم المفرط ومخاوفها :

« انى لآمل أن تكون مبعث سعادة لك كما كانت مبعث بهجة لى . لقد نشأتها لهذا . لأننى توقعت منذ أمد بعيد أنها ستشاركك حظك فى الحياة . لقد بثثت فيها حباً لواجباتها نحوك . . ومودة رقيقة . وقدرة على أن تعرف وتمارس وسائل إدخال السرور على قلبك . إن ابنتى ستحبك . وأنا واثقة من هذا . لأننى أعرفها . . وداعاً يا دوفينى العزيز . كن سعيداً . وأسعدها . . . أن الدموع تفيض منى . . . أمك الحنون »[٨] .

وفى ١٩ ابريل ١٧٧٠ . فى كنيسة الأوغسطينين بفيينا . عقد بالوكالة قران الفتاة المتألقة الحسن . الخلية البال . البالغة أربعة عشر عاماً . على لوى — أوجست ولى عهد فرنسا . واتخذ أخوها فرديناند مكان الدوفن .

وبعد يومين قادت قافلة من سبع وخمسين مركبة و ٣٦٦ جواداً ولية العهد مروراً بقصر شونبرون . وودعتها الإمبراطورة الوداع الأخير . هامسة لها أن « تكونى كريمة جداً مع الفرنسيين حتى يستطيعوا القول بأننى أرسلت لهم ملاكاً »[٩] . وضم الموكب ١٣٢ شخصاً — وصيفات ومصففات للشعر ، وخياطات . وأتباعاً ، وكهنة للقصر ، وجراحين ، وصيادلة ، وطباخين ، وخدماً ، وخمسة وثلاثين رجلا ليعنوا بالخيل التى كانت تبدل أربع مرات أو خمساً فى اليوم خلال الرحلة الطويلة إلى فرنسا . وبعد ستة عشر يوماً وصل الموكب إلى كيل على الرين قبالة ستراسبورج . وعلى جزيرة فى النهر استبدلت ماريا بثيابها النمساوية ثياباً فرنسية ، وتركها أتباعها النمسويون قافلين إلى فيينا ، وحل محلهم حاشية من السيدات والخدم الفرنسيين ، وأصبحت ماريا

أنطونيا منذ الآن ماري أنطوانيت . وبعد الكثير من المراسم أدخلت ختراسبورج بين قصف المدافع ورنين أجراس الكنائس وهتاف الشعب وبكت وابتسمت واحتملت المراسم الطويلة في صبر ، فلما بدأ العمدة خطاباً بالألمانية قاطعته قائلة : « لا تتكلموا بالألمانية أيها السادة ، فمنذ الآن لا أفهم لغة غير الفرنسية » وبعد أن سمح لها الموكب بالراحة يوماً بدأ رحلته عبر فرنسا .

وكان الترتيب أن يذهب الملك وولى العهد مع كثير من الحاشية إلى كومبيين على اثنين وخمسين ميلا شمال شرقي باريس ليقابلوا موكب ولية العهد . ووصل الموكب في ١٤ مايو . وقفزت العروس من مركبتها ، وجرت نحو لويس الخامس عشر ، وانحنت إلى الأرض ، وظلت كذلك حتى أقامها الملك وهدأها وطمأنها بعبارة كريمة « لقد أصبحت عضواً في الأسرة يا سيدتي ، لأن لوالدتك روح لويس الرابع عشر »[١٠]. وبعد أن قبلها على وجنتيها قدمها إلى ولى العهد، الذى قبلها بالمثل ولكن ربما بلذة أقل . وفي ١٥ مايو بدأ الموكبان المجتمعان الرحلة إلى فرساى . وهناك ، في ١٦ مايو ، أكد زفاف رسمي ذلك الزفاف بالوكالة الذى عقد قبل شهر . في تلك الليلة أقيمت مأدبة عظيمة في دار الأوبرا الجديدة ، ونبه الملك ولى العهد إلى أنه يفرط في الأكل . فأجاب « إنني دائماً يحسن نومي بعد عشاء طيب» . وهذا ما حدث إذ أنه استغرق في النوم بمجرد دخوله فراش الزوجية .

وقد نام بهذه السرعة في ليال متعاقبة ، وفي أصباح متعاقبة كان يستيقظ مبكراً لينطلق إلى صيده . وألمع مرسى دارجنتو إلى النمو السريع الحديث الذى طرأ على لوى — أوجست قد أخر تطوره الجنسي ، وأنه لا حيلة في الأمر إلا الانتظار . وكتبت ماريا تريزا إلى ابنتها بعد أن أنبئت بالموقف تقول « كلاكما صغير جداً ! أما أثر هذا على صحتكما فكاه يعمل للخير . وسيكسبكما مزيداً من القوة »[١١] . وزاد بعض أطباء ولى العهد الطين بلة بأنبائه بأن الرياضة والطعام الطيب سيحفزان نمره الجنسي ، ولكن حدث العكس ، فقد جعلاه أكثر بدانة وميلا للنعاس . وأخيراً ، وفي أواخر عام

١٧٧٠ ، حاول ولى العهد أن يحقق اكتمال الزواج بالدخول على زوجته ، ولكنه فشل ، وكانت النتيجة الوحيدة للمحاولة ألماً مخيباً للآمال . وأبلغ كونت أراندا ، السفير الإسبانى ، ملكه بالآتى « يقولون إن عائقاً تحت القلفة يجعل محاولة الجماع مؤلمة جداً » أو « أن القلفة سميكة جداً بحيث لاتستطيع التمدد بالمرونة اللازمة للانتصاب »[١٢] . واقترح الجراحون إزالة العائق بجراحة شبيهة بالختان ، ولكن ولى العهد رفض[١٣] وكرر محاولاته ، دون أن يبلغ من ورائها إلا الإثارة والإذلال له ولزوجته . وظل الموقف على الحال . وعمق إحساس ولى العهد بقصوره الزوجى شعوره بالنقص ، ولعل هذا الشعور شارك فى جعله ملكاً كثير التردد عديم الثقة بنفسه .

وأغلب الظن أن سنى الإحباط الزوجى السبع هذه أثرت فى خلق مارى أنطوانيت وسلوكها . وذلك أنها كانت عليمة بأن رجال البلاط ونساءه يسخرون من سوء طالعها ، وأن أكثر فرنسا ترميها بالعقم وهى تجهل السبب . ومن ثم فقد آست نفسها بزيارات للأوبرا أو المسرح فى باريس ، وأسرفت فى لبس الثياب الفاخرة الغالية ، وتمردت على الاختلاط الكثير بالبلاط بكل مراسمه وبروتوكوله ، وآثرت الصداقات الحميمة مع نفوس متعاطفة مثل الأميرة لامبال . وظلت طويلا تأبى الحديث إلى مدام دبارى ، إما لاشمئزازها من أخلاقها وإما بدافع الحسد لأن امرأة أخرى تظفر بالحب هذا الظفر الكبير ويكون لها هذا النفوذ القوى على الملك .

وفى ١٠ مايو ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر . واندفعت الحاشية إلى مسكن ولى العهد . فوجدوه هو وولية العهد راكعين وهما يبكيان ويصليان . وقال الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً وهو يبكى « اللهم احمنا ! فنحن أضغر من أن نحكم ! » وقال لصديق ، « يا له من عبء ! إننى لم أتعلم شيئاً ، وإنى لأشعر كأن الكون سيسقط فوق »[١٤] . وفى جميع أرجاء فرساى وباريس ، ثم إلى أبعد ماسرى النبأ فى فرنسا ، هتف الرجال والنساء « مات الملك ، يحيى الملك ! » وكتب باريسى متفائل على تمثال لهنرى الرابع هذه الكلمة « قام »[١٥] ، لقد قام الملك العظيم من بين الأموات لينقذ فرنسا مرة أخرى من الفوضى والفساد والإفلاس والهزيمة .

٢ — الحكومة

ترى ماذا كان خطب الحكومة ؟ إنها لم تبلغ فى إستبدادها مابلغته حكومة بروسيا ، ولا فى فسادها ما بلغته حكومة انجلتره ، وكان جهازها البيرقراطى وإدارتها الإقليمية يضمان نفراً من الرجال الأفاضل وكثيراً من الرجال الأكفاء . ومع ذلك أخفقت ملكية البوربون فى أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادى والفكرى . ونشبت الثورة فى فرنسا بأسرع مما نشبت فى غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأواً من الذكاء أبعد مما بلغته فى أى أمة معاصرة أخرى ، وفرض فكر مواطنيها اليقظ المتنبه مطالب على الدولة أكثر حدة مما كان على أى حكومة فى ذلك العصر أن تلبيه .

وكان فردريك الثانى ويوزف الثانى ، وكلاهما نصير متحمس للفلسفة والملكية المطلقة ، قد أدخلا فى الإدارة السياسية لبروسيا والنمسا قدراً من النظام والكفاية لم يكن وقتها متوافراً فى بلد كفرنسا يحب الاسترخاء واليسر اللاتينيين . « واستشرى الاضطراب والفوضى فى كل مكان »(١٦) ، ففى فرساى تنازع مجلس الملك فى اختصاصه مع الوزراء ، الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت ولأنهم تنافسوا على الأموال العامة ذاتها ، ولأنه لم تفرض عليهم من فوق سلطة توفق بين سياساتهم . وانقسمت الأمة فى ناحية إلى دوائر Bailliages أو Senechaussees فى مجال القضاء ، وفى أخرى إلى أقسام مالية (geanéralités) فى المالية ، وفى ناحية ثالثة إلى إدارات (gouvernements) فى الجيش ، وفى رابعة إلى أبرشياتparoisses وأقاليم provinces فى الكنيسة . وفى كل قسم مالى كان الناظر الملكى يصطدم بالحاكم و « البرلمان » الإقليمى . وفى جميع أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع مع الفقراء ، والنبلاء مع البورجوازيين ، والبرلمانات مع الملك ، ومست الحاجة إلى قضية موحدة للصفوف وإرادة آمرة ، ولم تتوفر القضية إلا فى ١٧٩٢ ، ولا الإرادة إلا فى ١٧٩٩ .

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ، ومع ذلك كان القضاة من أفضلها . واتبع جنوب فرنسا القانون الرومانى ، وشمالها القانون العام والإقطاعى . يقول دتوكفيل « إن العدالة كانت معقدة ، مكلفة ، بطيئة »[١٨] — رغم أن هذه شكوى عامة فى جميع البلاد . وكانت السجون قذرة ، والعقوبات وحشـية ، والتعذيب القضائى ظل مسموحاً به فى ١٧٧٤ . وكان القضاة غير قابلين للعزل ، منصفين غير قابلين للرشوة عادة . وقد ذهب السر هنرى مين إلى أن رجال القضاء فى فرنسا « من حيث جميع الصفات المطلوبة فى المحامى ، والقاضى ، والمشرع ، يبزون كثيراً نظراءهم فى طول أوربا وعرضها »[١٩]. وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة ، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء . ووجد أكفأهم طريقه إلى البرلمانات الإقليمية ، واختير أغناهم وأعظمهم نفوذاً أعضاء فى برلمان باريس . وما وافى عام ١٧٧٤ حتى كانت طبقة « نبلاء الرداء القضائى » — أى القضاه الوراثيون قد انتهت إلى اعتبار نفسها مساوية إلا أقل قليلا لطبقة « نبلاء السيف » فى الكرامة والاستحقاق . ولم تسمح بعضوية البرلمانات إلا لمن ولدوا فى إحدى الطبقتين الاستقراطيتين.

كان من رأى مونتسكيو أن « الهيئات الوسيطة » بين الملك والشعب هى كوابح مفيدة على السلطة الأوتقراطية ، وحدد قوتين من هذه الهيئات هما النبلاء ملاك الأراضى والقضاه ولكى تقوم البرلمانات بهذه الوظيفة الكابحة طالبت بسلطة التصديق (أو التسجيل) على أى مرسوم ملكى ، أو رفضه حسبما يتفق فى رأيها أو يتعارض مع القوانين والحقوق الراسخة . وأعربت عدة برلمانات إقليمية ، خصوصاً برلمانات جرينوبل ، وروان ، ورين ، عن مبادىء شبه ديمقراطية ، أحياناً بعبارات مقتبسة من روسو عن « الإرادة العامة » و « الموافقة الحرة للأمة » ، من ذلك أن برلمان رين أعلن فى ١٧٨٨ « أن الإنسان ولد حراً ، وأن الناس فى الأصل متساوون ؛ و « أن هذه الحقائق ليست فى حاجة إلى إثبات »[٢٠]. على أن البرلمانات كانت بوجه عام المدافع القوى عن فوارق الطبقات وامتيازاتها . وقد شاركت نزاعاتها مع السلطة الملكية فى الإعداد للثورة ، ولكن حين اقتربت الثورة انحازت إلى النظام القديم ، وسقطت بسقوطه .

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة . فالملك وفقاً للتقليد البوربوني هو المشرع الأوحد ، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية ، وهو المحكمة العليا ، فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أن شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته ، وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة هذه . وكان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة ، تعد نفسها هيئة لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها . ففى ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسرة المالكة و ٨٨٦ نبيلا ، هم ونساؤهم وأبناؤهم ، يضاف إليهم ٢٩٥ طاهياً ، و ٥٦ صياداً ، و ٤٧ موسيقياً وثمانية معماريين ، وأشتات من السكرتيرين ، وكهنة القصر ، والأطباء والسعاة والحراس . . . ، يبلغون فى مجموعهم ستة آلاف شخص ، مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب . وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطه أو بلاطها الخاص ، وكذلك كان لبعض النبلاء الممتازين ، أمثال أمير كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بوربون . واحتفظ الملك بعدة قصور — فى فرساى ، ومارلى ، ولا مويت ، وموردون ، وشوازى ، وسان — أوبير ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وكومبيين ، ورامبوييه . وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر ، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام ، وفى ١٧٨٠ بلغت نفقات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ جنيهاً [٢١] .

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة ، ولكن المنح والعلاوات كانت مطاطه ؛ من ذلك أن المسيو أوجار — وكان سكرتيراً فى إحدى الوزارات — لم يجاوز راتبه تسعمائة جنيه فى العام ، ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة . وغلت عشرات الوظائف الشرفية المال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرءوسوهم ، مثال ذلك أن مسيو ماشو كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع بإسمه مرتين فى العام[٢٢] . وأجريت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم[٢٣] . وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقرير المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقع منه

أن يعين الأسر النبيلة القديمة التي أعسرت ، وأن يقدم المهو لبنات النبلاء عند زواجهن . وكان كل من أبناء لويس الخامس عشر الأحياء يتلقى ما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام . وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه في العام ، إذ كان المفروض فيه أن يفتح باب الضيافة على مصراعيه . كل هذا السفه في الإنفاق ، وكل هذه المعاشات ، والهبات ، والرواتب ، والمناصب الشرفية ، كانت تدفع من إيرادات تؤخذ من حياة الأمة الاقتصادية . وقد كلف البلاط فرنسا مبلغاً جملته خمسون مليون جنيه في العام — وهو عشر مجموع إيراد الحكومة (٢٤) .

٣ — الملكة العذراء

وكانت ماري انطوانيت أكثر أعضاء البلاط إسرافاً . ذلك أنها وقد ارتبطت بزوج عنين ، وحرمت الرومانس ، ولم تشغلها علاقات غرامية ، راحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالي من الثياب ، والجواهر ، والقصور ، والأوبرات ، والمسرحيات ، والمراقص . وكانت تخسر الثروات في القمار ، وتهب الثروات للمحاسيب في كرم متهور . وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها في عام واحد (١٧٨٣)(٢٥) ، وأتاها مصممو الأزياء بالغريب الطريف من الأثواب المسماة « المباهج الطائشة » أو « العلامات المكبوته » أو « الرغبات المقنعة »(٢٦) . وكان مصففات الشعر يعكفن الساعات فوق رأسها يصعدن شعرها حتى يبلغ ارتفاعات يبدو ذقنها فيها وقد توسط قامتها ، وقد قررت هذه « التسريحة العالية » ، كما قررت معظم الأشياء التي ابتدعتها ، زي نبيلات البلاط ، فزي باريس ، فزي عواصم الأقاليم .

أما شغفها بالحلي والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوساً . ففي ١٧٧٤ ابتاعت من بومر ، وهو الجواهري الرسمي للتاج ، أحجاراً كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه(٢٧) . وأهداها لويس السادس عشر طقماً من العقيق ، والماس والأساور ، ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيه (٢٨) . وفي ١٧٧٦ كتب مرسي دارجنتو إلى ماريا تريزا يقول : « مع أن الملك أعطى الملكة في شتى المناسبات ما يساوي أكثر من ١٠٠,٠٠٠ « ايكو» من الماس ، ومع أن جلالتها تملك

الآن مجموعة هائلة ، إلا أنها مصممة على شراء حلق على شكل الثريا من بومر . ولم أخف عن جلالتها أنه كان أحكم فى الظروف الاقتصادية الراهنة لو تجنبت هذا الإنفاق الباهظ ، ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها — وإن أجرت الصفقة فى حذر مخفية أمرها عن الملك»(٢٩) .

وبعث ماريا تريزا إلى ابنتها بتوبيخ صارم ، واكتفت الملكة بالتزين بحليها فى المناسبات الرسمية فقط ، ولكن الشعب لم يغتفر لها قط هذا التبذير المفرط فى ضرائبه ، وبعد حين سيصدق أنها وافقت على شراء القلادة الماسية الشهيرة .

أما الملك فقد أغضى عن مواطن الضعف فى زوجته لأنه كان يعجب بها ويحبها ، ولأنه كان شاكراً لها صبرها على عجزه الجنسى . فدفع لها ديون القمار التى استدانتها من جيبه الخاص وشجع زياراتها لأوبرا باريس ، وإن علم أن مرحها المعلن على الملأ يزعج شعباً ألف فى ملوكه الوقار والحشمة ، ودفعت الحكومة نفقات ثلاث حفلات مسرحية ، وحفلتى رقص ، وعشائين رسميين فى البلاط مرتين كل أسبوع تقريباً ، يضاف إلى هذا أن الملكة كانت تحضر المراقص المقنعة فى باريس أو فى البيوت الخاصة ، لقد كانت هذه السنوات ١٧٧٤— ٧٧ فترة تبديد وإسراف على حد قول أمها بصراحة . وإذ كانت الملكة لاتجنى من وراء مغازلات زوجها فى الليل سوى الرغبة توقظ دون إشباع ، فقد شجعته على النوم مبكراً (مقدمة ساعة الحائط أحياناً لتعجل ذهابه للفراش) حتى تستطيع مشاركة الأصحاب ألعاباً قد تمتد الليل بطوله . وكانت زاهدة فى الأدب ، واهتمامها بالفن قليل ، وأكثر منه اهتمامها بالدراما والموسيقى ، وكانت تجيد الغناء والتمثيل وتعزف على الهارب ، وتؤدى بعض صوناتات موتسارت على الكلافيكورد (٣٠) .

وبين هذه العيوب جميعها كان واحد فقط عيباً جوهرياً — ذلك هو التبذير الطائش نتيجة للسأم والإحباط ، ولطفولة وصبى ألفا الترف وجهلا الفقر . وقد زعم الأمير لين (الذى ربما كان فيه من صفات الجنتلمان أكثر

مما فيه من صفات المؤرخ) أنها ما لبثت أن تخلصت من شغفها بالثياب الغالية ، وأن خسائرها فى القمار بولغ فيها ، وأن ديونها ترجع إلى سخائها غير الحكيم بقدر ما ترجع إلى إنفاقها الطائش[٣١]. وناصبها البلاط والصالونات العداء لأنها نمساوية ، ولم يكن الحلف مع النمسا من قبل محبوباً على الإطلاق . وكانت مارى أنطوانيت ، التى لقبت بـ « النمساوية » تجسيداً للملك الحلف ، وقد اشتبه الفرنسيون ، ولهم بعض الحق ، فى أنها تخدم المصالح النمساوية ، على حساب فرنسا أحياناً . ولكن حتى مع هذا ، فإن حيويتها الشابة ، ومرحها ورقة قلبها ، كلها كسبت قلوباً كثيرة . حدث مرة أن جاءت مدام فيجيه — لبرون ، الحبلى منذ شهور كثيرة ، لتصورها (١٧٧٩) ، وبينما كانت المصورة كاكفة على رسمها أسقطت بعض أنابيب الألوان ، وللتو قالت لها الملكة ألا تنحنى ، « لأنك بعيدة جداً عنها » ثم التقطت بنفسها الأنابيب[٣٢]. وكانت أنطوانيت ترعى مشاعر غيرها عادة . ولكنها أحياناً ، فى مرحها الطائش كانت تضحك من لازمات غيرها أو عيوبهم . وكانت تستجيب بغاية السرعة لكل رجاء ، « أنها لم تعرف بعد خطر الاستسلام لكل دافع كريم »[٣٣] .

مثل هذه المخلوقة المفعمة حيوية ، والتى كانت الحياة والحركة عندها مرادفين ، لم تخلق لخطو مراسم البلاط ، ذلك الخطو البطىء الحذر . وسرعان ما تمردت عليه ، والتمست البساطة واليسر فى المبنى تريانون وحوله ، وكان على ميل من قصر فرساى . وفى ١٧٧٨ أهدى لويس السادس عشر الملكة هذا الملتقى ملكاً خالصاً لها ، تستطيع أن تخلو فيه مع أخصائها ، ووعد لويس أنه لن يتطفل عليهم إلا إذا دعى . ولما لم يكن فى المبنى غير غرف ثمان ، فقد أمرت الملكة ببناء بعض الأكواخ بقربه لأصحابها وخططت لها الحدائق المحيطة به على النمط « الطبيعى » — ممرات ملتفة ، وأشجار منوعة ، ومخابىء ، وجدول حمل إليه الماء فى أنابيب من مارلى بتكاليف غالية . ولاستكمال حلم روسو فى العودة إلى الطبيعة أمرت بإقامة ثمانى مزارع صغيرة فى الحديقة الملاصقة ، لكل منها كوخها الريفى ، وأسرتها الفلاحة ، وكوم سباخها ، وأبقارها . هنالك كانت تقلد راعيات الغنم فتلبس عباءة بيضاء ،

ومنديلا من الشاش ، وقبعة من الخوص ، وكانت تحب أن ترى اللبن يحلب بالملاطفة من خير الضروع فى آنية من برسلان سيفر . وكانت هى وأصدقاؤها يعزفون أو يلعبون ألعاباً داخل البيتى تريانون ، وعلى الخمائل يولمون الولائم للملك أو لكبار الزوار . وهناك وفى القصر الملكى أيضاً . كانت الملكة تخرج المسرحيات التى تلعب أدواراً هامة فى بعضها — كدور سوزان فى « زواج فيجارو » ، ودور كوليت فى « عراف القرية » فتبهج الملك بتنوع مواهبها وجاذبيتها .

فلما خشيت تقول المتقولين إن هى أسرفت فى حرية الاختلاط بالرجال ، كونت مع بعض النساء صداقات حميمة بلغت من الوثاقة ما وجه النميمة وجهة أخرى . فجاءت أولا مارى — تريز وسافوا — كارنيان ، أميرة لامبال ، الرقيقة ، الحزينة ، الهشة . وكان قد انقضى عليها سنتان فى ترملها مع أنها لم تجاوز الحادية والعشرين . وكان زوجها — وهو ابن دوق بنتييفر حفيد لويس الرابع عشر — يعاشر الخليلات ويختلف إلى المومسات بعد زواجه بقليل ، فأصيب بالزهرى ومات به بعد أن اعترف بآثامه لزوجته فى تفصيل مقزز . ولم تفق قط من المحنة الطويلة التى ابتلاها بها ذلك الزواج ، وظلت تعانى من التقلصات العصبية ونوبات الإغماء حتى مزقها اربا جمهور من غوغاء الثورة فى ١٧٩٢ — وانعطفت مارى أنطوانيت نحوها بدافع الشفقة أول الأمر ، ثم تعلمت أن تحبها حباً حاراً ، فتلقاكما كل يوم ، وتكتب لها رسائل الإعزاز مرتين فى اليوم أحياناً . وفى أكتوبر ١٧٧٥ عينت الأميرة مشرفة على بيت الملكة ، وأقنعت الملك رغم اعتراضات طورجو بأن يقرر لها راتباً سنوياً قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه . ثم كان للأميرة أقرباء وأصدقاء ، التمسوا منها أن تستخدم نفوذها لدى الملكة ، وعن طريقها لدى الملك ، لنيل المناصب أو الهبات . وبعد عام تركت أنطوانيت محبتها لها تذبل واتخذت صديقة أخرى .

وكانت هذه الصديقة الجديدة ، واسمها يولاند دبولا سترون زوجة الكونت جول دبولينياك ، عريقة المنبت رقيقة الحال ؛ كانت حلوة ، صغيرة الجسم ، طبيعية . وما كان أحد ليخامره الظن إذا رآها بأن فيها هذا الشره

للمال الذى أيأس طورجو من موازنة الميزانية ما دامت الملكة تجد متعة فى صحبتها الظريفة . فلما قاربت الكونتيسة موعد الوضع أقنعتها الملكة بأن تنتقل إلى لاموييت ، وهى فيلا ملكية بقرب قصر فرساى ، وهناك كانت تزورها كل يوم حاملة إليها الهدايا دائماً تقريباً . فلما أصبحت الكونتيسة أما لم تضن عليها الملكة بشىء ، : ٤٠٠,٠٠٠ جنيه لتسوية ديونها ، ومهر لابنتها قدره ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، وسفارة لأبيها ، ومال ، وحلى ، وفراء ، وتحف فنية لشخصها ، وأخيراً (١٧٨٠) دوقية وضيعة بيتش ، لأن الكونت كان تواقاً لأن يصبح دوقاً . وقال مرسى دارجنتو للملكة آخر الأمر أنها تستغل ، وأن الدوقة الجديدة لاتبادلها محبتها ، واقترح على الملكة ، التى وافقت على اقتراحه ، أن تطلب إلى مدام دبولنياك على سبيل الامتحان أن تطرد من بطانتها الكونت دفودروى الذى كانت انطوانيت تمقته ، فأبت المدام ، وانصرفت أنطوانيت عنها إلى صداقات أخرى . وهكذا انضم آل بولنياك إلى صفوف أعدائها ، وأصبحوا مصدراً للافتراءات التى لوثت بها الحاشية وكتاب الكراريس اسم الملكة .

وكان كل شىء تقريباً تأتيه يخلق لها الأعداء . فأفراد الحاشية يتحسرون على الهبات التى تغدقها على محاسيبها ، لأن هذا معناه أن يقل عطاؤهم ، وشكوا من أنها أكثرت الغياب عن مهامها فى البلاط حتى فقدت هذه المهام بهاءها وقل الإقبال على حضورها . ولامها الآن كثيرون ممن عابوا من قبل غرامها القديم بالثياب الغالية ، لأنها قررت زياً جديداً تميز ببساطة الملبس . وقالوا أن هذا نذير بإفلاس تجار الحرير فى ليون وخياطى باريس[٣٤] . وكانت قد أقنعت الملك بإقالة الدوق دجيون (١٧٧٥) الذى تزعم أنصار مدام دوبارى ، وكان للدوق متعاطفون كثيرون ، كونوا نواة أخرى من الأعداء . وبعد عام ١٧٧٦ شن كتاب الكراريس الباريسيون على الملكة حملة قدح قاس لا هوادة فيه[٣٥] — وكان كثير منهم يتلقون المعلومات والمال من بعض الحاشية[٣٦] ، فوصفها بعض الكتاب بأنها الخليلة ، فى وقت أو آخر ، لكل ذكر موجود فى فرساى[٣٧] . وقد تساءلت كراسة عنوانها « تأنيب للملكة » . كم مرة تركت فراش الزوجية وقبلات زوجك لتسلمى نفسك للباخوسيات أو السواطير ولتندمجى معهم فى متعهم الوحشية ؟ »[٣٨] .

وصورت كراسة أخرى تبذيرها بوصف حائط فى البتى تريانون زعمته مكسوا بالماس[٣٩] . واتهمتها الشائعات بأنها قالت خلال حوادث الشغب التى وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨ « إذا لم يكن لديهم خبز فليأكلوا كعكاً » ، ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية[٤٠] ، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب . وأشد وأنكى حتى من هذا كله ما شاع وذاع بين الجماهير من أنها عاقر . تقول مدام كمبان الوصيفة الأولى لمخدع الملكة :

« حين ولد ابن للكونت دارتوا عام ١٧٧٧ ، تبع نساء السوق وبائعات السمك الملكة حتى باب مسكنها ذاته ، مؤكدات حقهن فى الدخول إلى القصر الملكى فى مناسبات الولادات الملكية ، وطفقن يصحن بأشد العبارات غلظة وسوقية قائلات أن من واجبها هى ، لا سلفتها ، أن تأتى بورثة للتاج الفرنسى . وعجلت الملكة بإغلاق بابها دون هؤلاء العجائز الشكسات الوقحات . واعتكفت فى حجرتها معى تندب حظها التعس »[٤١] .

فأنى لها أن تشرح للشعب أن الملك عنين ؟

وانتظرت فرنسا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليأتى ويزيل هذه العقدة . وفى ابريل ١٧٧٧ وصل يوزف الثانى فرساى متخفياً تحت اسم الكونت فون فالكنشتين . ووقع فى غرام الملكة ، وقال لها « لو لم تكونى أختى لما ترددت فى أن أتزوج ثانية ليكون لى رفيق ساحر مثلك »[٤٢] ، ثم كتب لشقيقهما ليوبولد يقول :

« لقد أنفقت معها الساعة تلو الساعة ، دون أن ألحظ مرور الزمن . . . أنها امرأة ساحرة نبيلة ، مازالت صغيرة بعض الشىء ، طائشة قليلا ، ولكنها فى صميمها كيسة فاضلة . . كذلك فيها جرأة ورهافة أدهشتانى ، واستجابتها الأولى صائبة دائماً ، ولو أنها أطاعتها . . . واهتمت اهتماماً أقل بالقيل والقال . . . لبلغت مرتبة الكمال . ولها رغبة قوية فى متع الحياة ، ولما كانت ميولها معروفة ، فإن ضعفها يستغل . .

« ولكنها لاتفكر إلا فى متعتها ، ولا تحب الملك ، وقد ثملت بإسراف

هذا البلد . . . وهى تسوق الملك بالقوة لأشياء لا يريد فعلها . . . فهى باختصار لاتؤدى واجبات الزوجة أو الملكة »[٤٣] .

وقد أوضحت السبب فى أنها والملك ينامان فى حجرتين منفصلتين ، فهو يحب النوم مبكراً ، وقد وجد كلاهما من الحكمة تجنب الإثارة الجنسية . وزار يوزف الملك وأحبه كثيراً . وكتب لليوبولد يقول « هذا الرجل فيه ضعف ولكنه ليس أبله . فله أفكار وحكم سديد ، ولكن عقله وجسمه فاتران . وهو يتحدث بشكل معقول ، ولكن ليس بهرغبة فى التعلم ولا حب للاستطلاع . والواقع أن لحظة « انطلاق النور » لم تأت بعد ، والأمر لا زال مفتقراً إلى الشكل »[٤٤] . وتحدث الإمبراطور إلى لويس حديثاً لم يجرؤ أحد من قبل على مصارحته به ، فأشار إلى أن العائق فى قلفة الملك يمكن إزالته بجراحة بسيطة وإن كانت مؤلمة ، وأن على الملك لوطنه ديناً هو أن ينجب أبناء ، ووعد لويس بأن يستسلم لمبضع الجراح .

وقبل أن يغادر يوزف فرساى كتب ورقة « تعليمات» للملكة . وهى وثيقة جديرة بالتنويه .

« إنك تكبرين ، ولم يعد لك عذر من صغر السن . فما مصيرك إذا أخرت (صلاح أمرك) أكثر من هذا ؟ . فحين يعانقك الملك ، وحين يتحدث إليك ، ألا تبدين الضيق ، بل حتى النفور ؟ هل خطر ببالك يوماً أى أثر لا بد أن تخلفه فى الشعب . . . علاقاتك الحميمة وصداقاتك ؟ . . . هل وزنت النتائج الرهيبة لألعاب الحظ ، وما تجمع من أصحاب وما يضربونه من مثل ؟ . . . » .

وقال عن ولعها بالمراقص التنكرية فى باريس :

لم الاختلاط بحشد من الفاسقين ، والمومسات ، والأغراب ، تستمعين إلى ملاحظاتهم ، وربما تبدين مثلها ؟ يا له من تبذل ؟ . . . إنك تتركين الملك وحيداً الليل كله فى فرساى بينما تندمجين فى المجتمع وتخالطين أوشاب الباريسيين؟ إننى فى الحق أرتعد خوفاً على سعادتك ، لأن هذا لا يمكن أن

يؤول إلى خيرك فى المدى الطويل ، وستنشب ثورة قاسية ما لم تتخذى الخطوات لتجنبها »[٤٥] .

وتأثرت الملكة من لومه . فكتبت إلى أمها بعد رحيله : « لقد ترك رحيل الإمبراطور فراغاً لا أستطيع ملأه ، ولقد كنت سعيدة جداً خلال تلك الفترة القصيرة حتى ليبدو الأمر كله وكأنه حلم من الأحلام . ولكن الشيء الذى لن يكون حلماً عندى هو كل النصيحة الحكيمة . . . التى بذلها لى ، والتى نقشت على صفحة قلبي إلى الأبد »[٤٦]. على أن الذى أصلحها حقاً لم تكن النصيحة بل الأمومة . ذلك أن لويس استسلم فى ذلك الصيف من عام ١٧٧٧ ، ودون مخدر من أى نوع فيما يبدو ، لجراحة نجحت نجاحاً تاماً . واحتفل بعيد ميلاده الثالث والعشرين (٢٣ أغسطس ١٧٧٧) باستكمال علاقته الزوجية فى النهاية . وكان فخوراً سعيداً . وأسر لعمة عذراء قائلا « أننى أستمتع كثيراً بهذه اللذة ويؤسفنى حرمانى منها هذا الزمن الطويل »[٤٧]. على أن الملكة لم تحبل إلا فى ابريل ١٧٧٨ . وأنهت النبأ إلى الملك بطريقتها المرحة : « مولاى ، لقد جئت أشكو إليك أحد رعاياك الذى بلغت به الجرأة أن يرفسنى فى بطنى »[٤٨] . فلما أدرك لويس المعنى الذى ترمى إليه ضمها بين ذراعيه . وراح الآن أكثر من أى وقت مضى يستجيب لنزواتها ويمنحها كل سؤل لها . وكان يزور مسكنها عشر مرات فى اليوم ليطلع على آخر بلاغ عن سير الوريث المرتقب . وقالت مارى أنطوانيت للملك وقد طرأ عليها تحول جسدى ونفسى غامض « منذ الآن أريد أن أعيش حياة غير التى عشتها من قبل . أريد أن أحيا حياة أم ، وأرضع طفلى ، وأكرس نفسى لتربيته »[٤٩] .

وبعد معاناة شديدة ، زادتها شدة قابلة تفتقر إلى المهارة ، وضعت الملكة فى ١٩ ديسمبر ١٧٧٨ وأسف الوالدان على أن الوليد بنت ؛ ولكن أسعد الملك أن مغاليق الحياة فتحت ، وكان على ثقة من أن الإبن قادم فى الوقت المناسب . أما الأم الشابة فقد اغتبطت لأنها حققت ذاتها فى نهاية المطاف . وكتبت لماريا تريزا فى ١٧٧٩ (وكانت الأم فى بداية عامها الأخير) تقول : « لماما العزيزة أن ترضى كل الرضى عن سلوكى . وإذا

كنت ملومة فى الماضى ، فالسبب أننى كنت غرة طائشة . أما الآن فإننى أكثر تعقلا ، وأنا شديدة الوعى بواجبى »[٥١]. ولم يصدق البلاط ولا الشعب ، ولكن — كما كتب الكونت سيجور « من الحقائق المسلم بها أنها بعد مولد طفلها الأول بدأت شيئاً فشيئاً تعيش حياة أكثر انتظاماً ، وتشغل نفسها على نحو جاد . وهى أشد حرصاً على تجنب أى شىء من شأنه أن يثير القيل والقال . . . وحفلاتها المرحة أقل عدداً ، وأقل صخباً . . . والإسراف يخلى مكانه للبساطة ، والأرواب الفاخرة تحل محلها الفساتين التيلية الصغيرة »[٥٢] . ولقد كان جزءاً من العقاب الطويل الذى عوقبت به مارى أنطوانيت أن شعب فرنسا أبى أن يدرك أن الفتاة المدللة المستهترة قد غدت أما حنوناً حية الضمير . فلا شىء يضيع هباء ، ولكن كل شىء لابد أن يدفع ثمنه .

وكانت عليمة بأن القانون الفرنسى يحرم النساء من العرش . لذلك رحبت بالحمل الثانى ، وتمنت على الله ولداً . ولكنها عانت من سقط بلغ من شدته أنه أفقدها معظم شعرها[٥٣] . ولكنها كررت المحاولة ، وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٨١ ولدت غلاماً سمى لوى — جوزف — زافير . وتشكك الساخرون فى نسب الطفل ، ولكن الملك السعيد ضرب عنهم صفحاً وصاح « ولدى الدوفن ! ولدى ! » .

٤ — الملك الطيب (٥٤)

كان لويس النقيض لزوجته فى كل شىء إلا السن . كانت رشيقة ، سريعة الخاطر ، خفيفة الحركة ، لعوبا ، مندفعة ، جياشه ، طائشة ، مسرفة ، مؤكدة لذاتها ، متكبرة ، ملكة دائماً ؛ وكان بطىء الحركة ، بليداً ، متردداً ، رزيناً ، هادئاً ، كادحاً ، مقتصداً ، متواضعاً ، عديم الثقة بنفسه ، كل ما فيه ينطق بأنه ليس ملكاً . كان يحب النهار ، وعمله ، وصيده ، وكانت تهوى الليل ، ومائدة القمار ، والمرقص . ومع ذلك لم يكن زواجهما بالزواج التعس بعد سنوات التجربة الأولى تلك ، فقد كانت الملكة وفية لزوجها ، والملك شغوفاً بزوجته ، وحين جاء الحزن أحكم الجمع بينهما فى شخص واحد .

كانت قسماته سوية ، ولعله كان يكتسب الوسامة لو حد من وزنه . وكان طويل القامة ، خليقاً بأن يكون له سمت الملوك لولا أن شاب مشيته كتفان متأرجحتان وخطوة ثقيلة . وكان يشكو ضعفاً فى بصره زاده ارتباكاً وثقل حركة ، وندر أن كان شعره منتظماً . ذكرت مدام كمبان أن « شخصه كان مهملا جداً »[٥٤] وكان مفتول العضـــل قوى البدن ، وقد رفع مرة أحد أتباعه بذراع واحدة . وكان نهما ، معتدلا فى شرابه ، ولكنه كان أحياناً يشمل بالطعام ، فيقتضى الأمر إعانته على الذهاب إلى فراشـــه[٥٥] . وكان له هوايات قليلة ، ونشوات طرب قليلة ، وساعات ألم مفرط قليلة .

ولم يكن شعوره شعور الراحة واليسر مع الفرنسيين المحيطين به ، الذين دربوا على يقظة الذهن وسرعة البديهة فى الحديث ؛ على أنه فى أحاديثه الخاصة وقع موقعاً طيباً من رجال كيوزف الثانى بفضل سعة معرفته وسداد حكمه ؛ استمع إلى الأمير هنرى البروسى ، شقيق فردريك الأكبر يقول :

« إن الملك أدهشنى . . . فلقد أنبئت أن تعليمه قد أهمل ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأنه قليل الذكاء . ولكنى ذهلت أن أرى وأنا أتحدث معه أنه يعرف الجغرافيا معرفة جيدة جداً ، وان له أفكاراً صائبة فى السياسة ، وأن سعادة شعبه كانت دائماً ماثلة فى فكره ، وأنه يفيض بالإدراك السليم الذى هو فى الملك أعظم قيمة من الذكاء اللامع . ولكنه كان مسرفاً فى عدم الثقة بنفسه »[٥٦] .

وكان لويس يقتنى مكتبة حسنة أفاد منها ، فقرأ وترجم جزءاً من كتاب جبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »[٥٧] ، ولكنه نحاه عنه حين تبين نزعته المعارضة للمسيحية . وقرأ وأعاد قراءة كتاب كلارندون « تاريخ التمرد » كأنه يحس فى دخيلة نفسه بأنه سيكرر مصير تشارلز الأول ، قال « لو كنت فى مكانه لما امتشقت الحسام قط فى وجه شعبى »[٥٨] . ولكى يرشد رحلة بيروز الباسفيكية (١٧٨٥) كتب تعليمات مفصلة نسبها وزراؤه إلى علماء أكاديمية العلوم[٥٩] . وكان على صلة وثيقة بمختلف وزرائه

لا سيما فى الشئون الخارجية . وأعجب واشنطن وفرانكلن بسداد حكمه[٦٠] . وكانت نواحى ضعفه فى الإرادة فى الفكر ، ولعلها ارتبطت بثقل غذائه ووزنه . ومن أهم صفاته عجزه عن مقاومة الإلحاح أو الخلوص من التفكير إلى التنفيذ . وكان هو نفسه يمارس الاقتصاد ، ولكن كان فيه من اللطف ما منعه من فرضه على الآخرين ، وكان يوقع بالموافقة على صرف مئات الألوف من الفرنكات استجابة لأمر زوجته .

على أن الفضائل لم تعوزه . فهو لم يتخذ خليلة ، وكان فيه وفاء لأصدقائه ربما باستثناء طورجو « أغلب الظن أنه لم يفقه غير طورجو من رجال جيله فى حب الشعب أعظم الحب »[٦١] . ففى يوم اعتلائه العرش أمر المراقب العام للمالية بتوزيع ٢٠٠,٠٠٠ فرنك على الفقراء ، وأضاف « ان وجدت هذا أكثر مما تسمح به حاجات الدولة فخذه من راتبى »[٦٢]. وقد منع جمع « ضريبة التتويج » التى كانت تجعل من استهلال حكم الملك عبئاً جديداً على الأمة . وفى ١٧٨٤ حين كانت باريس تعانى من الفيضانات والأوبئة ، خصص ثلاثة ملايين من الفرنكات لإعانة الشعب . وخلال شتاء قارس البرد سمح للفقراء يوماً بعد يوم بأن يغيروا على مطبخه ويصيبوا منه طعاماً. وكان مسيحياً لقباً ، وواقعاً ، والتزاماً بالشعائر ، فكان يتبع كل طقوس الكنيسة وقواعدها بحذافيرها ، ويصوم الصيام الكبير كله رغم ولعه بالطعام . وكان متديناً دون تعصب أو إعلان عن النفس ، فهو الذى منح الحقوق المدنية لبروتستنت فرنسا رغم سنيته وتدينه . وقد حاول التوفيق بين المسيحية والحكم . وذلك أمر ليس فى الدنيا أصعب منه .

وكان عليه أن يعيش عيشة الملك مظهراً رغم حبه للبساطة ، فيجوز مراسم استيقاظ الملك levée ويدع الاتباع والحاشية يلبسونه ثيابه ، ويتلو صلوات الصباح فى حضرتهم ، ويستقبل الناس ، ويرأس المجلس الملكى ، ويصدر المراسيم ، ويحضر حفلات الغداء أو العشاء ، والاستقبال ، والرقص — مع أنه لم يكن يرقص . ولكنه عاش كأى مواطن صالح على قدر ما سمح به منصبه وشهيته . وقد وافق روسو على أن من واجب كل إنسان أن يتعلم حرفة يدوية . فتعلم عدة حرف ، من صناعة الأقفال إلى البناء . وتخبرنا

مدام كمبان أنه « سمح لصانع أقفال من عامة الشعب بدخول مسكنه الخاص ، وكان يصنع معه المفاتيح والأقفال ، وكثيراً ما كانت يداه اللتان اسودتا من هذا الضرب من العمل مثار لوم بل توبيخ حاد من الملكة فى حضرتى »(٦٣). وكان يستهويه كل شيء يتصل بالبناء ، فيعين عمال القصر على نقل المواد ، والعوارض ، وبلاط الرصف . وكان يحب أن يقوم بترميم ما يحتاج إلى ترميم فى مسكنه بيديه هو ، وكان زوجاً صالحاً كأزواج أوساط الناس . وقد احتوت إحدى حجراته على أدوات الجغرافيا ، والكرات الأرضية ، والخرائط الجغرافية — التى رسم بعضها بنفسه ؛ واحتوت حجرة أخرى أدوات للشغل فى الخشب ، وجهزت ثالثة بكير وسندان ، وأشتات كثيرة من الأدوات الحديدية . وقد عكف شهوراً على صنع ساعة حائط ضخمة تسجل الشهور وأوجه القمر والفصول والسنين . وشغلت مكتبته عدة حجرات .

وقد أحبته فرنسا ، حتى إلى موته وبعد موته ، لأن الذى أعدمه بالجليوتين فى ١٧٩٣ لم تكن فرنسا بل باريس . فى تلك السنين الأولى كان الترحيب به عاماً تقريباً . كتب فردريك الأكبر لدالامبير « أن لديكم ملكاً دليباً جداً ، وأنا أهنئكم عليه من كل قلبى . فالملك الحكيم الفاضل خليق بأن يخشاه منافسوه أكثر من ملك لا يملك من الفضائل غير الشجاعة » . وأجاب دالامبير « انه يحب طيبة القلب ، والإنصاف ، والاقتصاد ، والسلام . . . انه بالضبط ما كان ينبغى أن نصبو إليه فى ملكنا لو لم يمنحنا إياه قدر كريم »(٦٤) . ووافق فولتير على هذا الرأى : « كل ما صنعه لويس منذ توليه العرش حببه لفرنسا »(٦٥) . وقد استعاد جوته فى شيخوخته ذكر هذا الاستهلال الميمون : « فى فرنسا أبدى ملك جديد خيرّ أحسن النوايا . لتكريس نفسه للقضاء على مفاسد كثيرة ، ولتحقيق أنبل الأهداف ، وهى إدخال أسلوب فى الاقتصاد السياسى منتظم وكفء ، والاستغناء عن كل سلطة تعسفية ، والحكم بالقانون والعدالة وحدهما . وقد عمت الدنيا أبهج الآمال ، ووعد الشباب الواثق نفسه والنوع الإنسانى كله بمستقبل زاهر مشرق »(٦٦) .

٥ — وزارة طورجو : ١٧٧٤ — ٧٦

كان أول هم للويس السادس عشر أن يعثر على وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التى استشرت فى الإدارة والمالية . وكان الشعب يطالب فى إلحاح بعودة « البرلمانات » التى أقصيت ، فأعادها ، وأقال موبيو الذى حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى ، ورد إلى فرساى لرآسة وزارته جان — فردريك فلبو ، كونت موريبا ، الذى كان وزيراً للدولة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٩ ، وأقيل لأنه عرض فى أهجوة ساخرة بمدام دبومبادور ، فعاد الآن إلى السلطة بعد أن بلغ الثالثة والسبعين . وكان اختياراً كريماً ولكنه غير موفق ، لأن موريبا بعد أن عاش عقداً على ضيعته الريفية ، كان قد فقد صلته بتطور فرنسا فى اقتصادها وفكرها ، وكان فيه من الظرف أكثر مما فيه من الحكمة . أما للشئون الخارجية فقد اختار الملك ذو العشرين شارل جرافييه ، كونت دفيرجين ، ولوزارة الحربية الكونت كلود — لوى دسان — جرمان ، ولوزارة البحرية آن — روبير — جاك طورجو ، بارون دلوان .

وقد رأيناه فى صفحات سابقة لاهوتياً ، ومحاضراً فى المسيحية والتقدم ، وصديقاً للفزيوقراطيين وجماعة الفلاسفة الفرنسيين ، وناظراً ملكياً مقداماً خيراً فى ليموج . وقد حذر أتقياء القصر لويس من استخدام طورجو لأنه كافر سبق أن شارك فى « الموسوعة » بمقالاته(٦٧) . ومع ذلك فى ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ رفعه الملك إلى أدق مناصب الحكومة — وهو منصب المراقب العام للمالية وحل محل طورجو فى البحرية جابرييل دسارتين ، الذى أنفق فى خفة على بناء أساطيل ستساعد على تحرير أمريكا ، والذى أعتمد على طورجو فى تدبير المال اللازم لبنائها .

وكان طورجو رجلا فرنسياً من معدن شبيه بالذى وجده لويس الرابع عشر فى كولبير ، كرس نفسه لخدمة وطنه ، واتسم ببعد النظر ، والعكوف على العمل بغير ملل ، ونقاء اليد وطهارتها . وكان فارع الطول حسن الصورة ، ولكن أعوزته رقة آداب الرجال الذين صقلتهم الصالونات — وإن رحبت

به الآنسة لسبيناس ترحيباً حاراً . وكان قد ضحى بصحته فى سبيل عمله ، وفى كثير من الوقت الذى كان عاكفاً فيه على إعادة صنع اقتصاد فرنسا كان يلزم مسكنه بسبب النقرس . وقد حاول أن يضغط ربع قرن من الإصلاحات فى وزارة واحدة قصيرة الأجل لأنه أحس بأن استيزاره قلق مزعزع . وكان فى السابعة والأربعين حين تقلد وزارته ، وفى التاسعة والأربعين حين فقدها ، وفى الرابعة والخمسين حين ودع الحياة .

وقد آمن مع الفزيوقراطيين بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى ، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة ، وبأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة . ثم أنه أخذ عن جماعة الفلاسفة تشككهم الدينى وتسامحهم ، وثقتهم فى العقل والتقدم ، وأملهم فى إصلاح الأمور عن طريق ملك متنور . فإذا كان الملك صاحب ذكاء وإرادة صالحة ، يقبل الفلسفة مرشداً وهادياً له ، كان هذا ثورة سلمية ، تفضل كثيراً الثورة العنيفة الفوضوية التى لا تكتفى بالقضاء على المفاسد بل تطيح بالنظام الاجتماعى ذاته . فالآن إذن حان وقت وضع نظرية فولتير ، « النظرية الملكية » هــذه موضــع الاختبار . ومن ثم نرى جماعة الفلاسفة يشاركون الفزيوقراطين ابتهاجهم بتقــلد طورجو زمام الأمر .

وذهب طورجو إلى كومبين فى ٢٤ أغسطس ١٧٧٤ ليشكر لويس السادس عشر على تعيينه وزيراً للمالية . وقال له « إننى لا أبذل نفسى للملك بل للرجل الأمين » . وأجاب لويس وهو يأخذ يدى طورجو فى يديه « لن يخيب ظنك »(٦٨). فى مساء ذلك اليوم بعث الوزير إلى الملك رسالة بينت النقاط الأساسية فى برنامجه قال :

« لا إفلاس ، معلناً كان أو مقنعاً .

لا زيادة فى الضرائب ، والسبب حالة شعبك . . .

لا قروض ، . . . لأن كل قرض يقتضى فى نهاية أجل مسمى إما الإفلاس وإما زيادة الضرائب . . . »

ولتلبية هذه النقاط الثلاث لا يوجد غير سبيل واحد وهو خفض الإنفاق عن الإيراد ، وخفضه بقدر يكفى ضمان وفر فى كل عام مقداره عشرون مليوناً تخصص لاستهلاك الديون القديمة . وبغير هذا ستدفع أول طلقة نار بالدولة إلى هاوية الإفلاس (٦٩) .

(وقد التجأ نكير فيما بعد إلى القروض ، وأفضت حرب ١٧٧٨ بفرنسا إلى الإفلاس) .

وبعد أن تبين طورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، أمر بشتى ضروب الوفر ، وأصدر تعليمات بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته ، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات ، والإنتاج ، والتجارة ، خطوة خطوة . وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة . وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنباً لتذمر أهل المدن ، فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة ، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة ، وحددت سعر الخبز . ولكن انخفاض الأسعار التى دفعت للفلاح ثبطت همته عن زرع المزيد من الغلال ، وثنت غيره عن الاشتغال بالزراعة ، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة للزراعة دون زرع ، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند منبعها . وبدا إصلاح الزراعة فى نظر طورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا . ذلك أن اطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى ، ويزيد قوته الشرائية ، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لا برويير فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى (٧٠) .

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر طورجو من المجلس الملكى مرسوماً أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل أهل المدينة سيكون محرجاً . وكان ديون دنمور قد قدم للمرسوم بديباجة

تشرح الهدف منه ، وهو « تنشيط وتوسيع زراعة الأرض ، التي تعد غلتها أكثر ثروات الدولة حقيقة وضماناً ، والاحتفاظ بوفرة فى الغلال عن طريق مخازنها واستيراد الغلال من الخارج . . . والقضاء على الاحتكار . . . وإيثاراً للمنافسة الحرة » وهذه المقدمة التفسيرية كانت هى ذاتها تجديداً يعكس ظهور الرأى العام كقوة سياسية . ورحب فولتير بالمرسوم فاتحة لعصر اقتصادى جديد ، وتنبأ بأنه سيزيد بعد قليل من رخاء الأمة [٧١] . ثم أرسل مذكرة إلى طورجو قال فيها : « ان عليل فرنيه العجوز يشكر الطبيعة لأنها مدت فى أجله حتى يرى مرسوم ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ . وهو يقدم احترامه لواضعه ، ويرجو له التوفيق »[٧٢] .

على أن هذا الترحيب خرج عليه رأى معارض ينذر بالسوء . ففى ربيع ١٧٧٥ جاء مصرفى سويسرى يعيش فى باريس ويدعى جاك نكير إلى طورجو يحمل مخطوطاً « عن قانون الغلال وتجارتها » ، وسأل ان كان من الممكن نشره دون اضرار بالحكومة . وقد زعم نكير فى كراسته أن قدراً من الإشراف الحكومى على الاقتصاد لابد منه أن أريد ألا يفضى حذق القلة الفائق إلى تركيز الثروة فى طرف وتكثيف الفقر فى الطرف الآخر ، واقترح أن تستأنف الحكومة الإشراف والتنظيم إذا رفعت حرية التجارة من سعر الخبز فوق رقم معان . أما طورجو ، الواثق من نظرياته ، والمحبذ لحرية النشر ، فقد أخبر نكير بأن ينشر المخطوط ويدع الشعب يحكم [٧٣] . فنشره نكير .

ولم تقرأه جماهير المدن ولكنها اتفقت معه فى الرأى . فحين ارتفع سعر الخبز فى ربيع ١٧٧٥ اندلعت حوادث الشغب فى عدة مدن . ففى الأقاليم المحيطة بباريس ، والتى تتحكم فى انسياب الغلال إلى العاصمة ، راح بعض الرجال يتنقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد . وأحرقت العصابات المسلحة مزارع المزارعين والتجار وقذفت بالمخزون من الغلال فى نهر السين ، ثم حاولت منع الغلال المستوردة من إكمال طريقها من الهافر إلى باريس ، وفى ٢ مايو قادت جمعاً محتشداً إلى أبواب القصر فى فرساى .

وأعتقد طورجو أن هذه العصابات يستخدمها الموظفون البلديون أو الإقليميون الذين فقدوا وظائفهم بانتهاء الإشراف الحكومى والذين كان هدفهم أن يخلقوا فى باريس أزمة غلال ترفع سعر الخبز وتكره الحكومة على العودة إلى التجارة الخاضعة لهيمنتها(٧٤) . وظهر الملك على شرفة من شرفات القصر وحاول الكلام ، ولكن ضجة الجمع طغت على كلامه . على أنه منع جنوده من إطلاق النار على الشعب ، وأمر بخفض سعر الخبز .

ولكن طورجو أكد أن هذا التدخل فى قوانين العرض والطلب سيفسد محاولة اختبارها ؛ وكان واثقاً من أنه إذا تركت لها حرية العمل فإن المنافسة بين التجار وأصحاب المخابز ستهبط بأسعار الخبز عما قليل . وألغى الملك أمره بخفض السعر . وفى ٣ مايو تجمعت حشود غاضبة فى باريس وبدأت تنهب المخابز . وأمر طورجو مليشيا باريس بحماية المخابز ومخازن الغلال ، وبإطلاق النار على أى شخص يحاول القيام بأعمال عنف . ثم حرص فى الوقت نفسه على وصول الغلال الأجنبية إلى باريس والأسواق . وأكرهت هذه المنافسة المستوردة المحتكرين الذين حبسوا غلالهم توقعاً لارتفاع الأسعار على الإفراج عن مخزونهم . فانخفض سعر الخبز . وهدأ التمرد . وقبض على نفر من زعمائه ، وشنق اثنان منهم بأمر البوليس . وخرج طورجو ظافراً من « حرب الدقيق » هذه . ولكن إيمان الملك بمبدأ عدم التدخل اهتز ، وأحزنه شنق هذين الشخصين فى ميدان جريف .

ولكن سرته الإصلاحات التى يجريها طورجو فى مالية الحكومة . فلم يمض يوم على مرسوم الغلال حتى بدأ الوزير العجول إصدار الأوامر للوفر فى مصروفات الدولة ، ولتحصيل الضرائب تحصيلا أكثر كفاءة ، وللإشراف إشرافاً أدق على الملتزمين العموميين . ثم بنقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة ، ومركبات البريد ، وصنع البارود ، إلى الدولة . واقترح ، ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء « بنك للخصم » وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية ، وتلقى الودائع ، وإعطاء القروض ، وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند ابرازه . وقد اتخذ هذا البنك نموذجاً لبنك فرنسا الذى نظمه نابليون فى ١٨٠٠ . فلم تحل نهاية عام ١٧٧٥

حتى كان طورجو قد خفض المصروفات ٦٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأنقص الفائدة على الدين الأهلي من ٨,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة ، ويسدد بهذه الطريقة ديوناً كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى اثنتي عشرة فى المائة . وأوشك أن يوازن الميزانية ، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد ، والإسراف ، وعدم الكفاءة ، وكثرة الفاقد .

فى هذه الإصلاحات وغيرها لم يلق طورجو كبير عون من موريبا ، ولكنه لقى العون الكثير من كرتيان وماليرب ، الذى التقينا به من قبل حامياً للموسوعة ولروسو . فقد أرسل ، بوصفه الآن رئيساً لمحكمة المعونات (التى تختص بالضرائب غير المباشرة) ، إلى لويس السادس عشر (٦ مايو ١٧٧٥) ، مذكرة تشرح المظالم التى ينطوى عليها جمع الضرائب بواسطة الملتزمين العموميين ، وتحذر الملك من الكراهية التى يولدها استخدامهم . وأشار بتبسيط القوانين وتوضيحها ، وقال « ليس هناك قوانين حسنة غير القوانين البسيطة » وتعلق قلب الملك بماليرب ، فعينه وزيراً لبيت الملك (يوليو ١٧٧٥) وحث هذا اللبرالى المسن لويس على تأييد طورجو ، ولكنه نصح طورجو بألا يحاول الإسراف فى إصلاحاته فى وقت واحد ، لأن كل إصلاح سيخلق له أعداء جدداً . وأجاب مراقب المالية العام . وماذا تريدنى أن أفعل؟ أن حاجات الشعب هائلة ، ونحن فى أسرتى نموت بالنقرس فى الخمسين» [٧٥] .

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ طورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك ، قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال باريس ، وألغى العدو الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة ، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه . وألغى مرسومان أو عدلا الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم ، فاغتبط الفلاحون . وألغى الرابع السخرة — وهى أيام اثنا عشر أوخمسة عشر يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين كل عام

لصيانة الكبارى ، والقنوات ، والطرق ؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجراً عن هذا العمل من حصيلة ضريبة تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية ؛ واغتبط الفلاحون ، وشكا النبلاء . وأثار طورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك .

« إننا لو استثنينا عدداً قليلا من الأقاليم . . . لوجدنا آن كل طرق المملكة تقريباً شقت بتسخير أفقر شطر من رعايانا . فالعبء كله وقع إذن على أولئك الذين لا يملكون غير أيديهم ولا تهمهم هذه الطرق إلا بدرجة ثانوية جداً . أما الذين يهتمون بها حقاً فهم ملاك الأرض . وكلهم تقريباً أشخاص يتمتعون بامتيازات ، وأملاكهم تزداد قيمتها بشق الطرق . فإذا أكره الفقير دون سواه على صيانة هذه الطرق ، وإذا أكره على بذل وقته وجهده دون أجر ، كان ذلك معناه أن عدته الوحيدة ضد الفقر والجوع انتزعت منه لإلزامه بالعمل لمنفعة الأغنياء »(٧٦) .

فلما أوضح برلمان باريس أنه سيرفض تسجيل هذا المرسوم ، كاد طورجو يعلن الحرب الطبقية » .

« إننى رغم عدائى للاستبدادية الآن كما كنت دائماً ، فانى لن أنى عن أن أقول للملك ، وللبرلمان ، وللأمة بأسرها إن لزم الأمر ، أن هذا أمر من تلك الأمور التى يجب أن تقررها إرادة الملك المطلقة ، ولهذا السبب : وهو ان هذه القضية هى فى صميمها قضية بين الأغنياء والفقراء . والآن ممن يتألف البرلمان ؟ من رجال أغنياء إذا قورنوا بالسواد الأعظم من الشعب ، وكلهم نبلاء لأن مناصبهم تحمل النبالة . ثم البلاط ، الذى يشتد فى احتجاجه — ممن يتألف ؟ من كبار النبلاء ، الذين يملك أغلبهم ضياعاً ستخضع للضريبة . . . ونتيجة لذلك فلا اعتراض البرلمان . . . ولا حتى تذمر الحاشية يجب أن ينال من القضية على أى وجه . . . ومادام الشعب لا صوت له فى البرلمانات ، فإنه لا بد أن يرى الملك فى القضية رأيه هو بعد الاستماع إلى هذه البرلمانات ، ولا بد أن يحكم لصالح الشعب ، لأن هذه الطبقة أتعس طبقاته »(٧٧) .

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية . وكانت قد أصبحت

أرستقراطية عمالة ، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريباً ، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ، ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى الحرف . وقد عطلت الاختراع ، وعرقلت التجارة بالمكوس أو بحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها . وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة — وهم رجال يوفرون المبادأة ، ورأس المال ، والتنظيم ، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل ، سواء من المنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم ، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم — هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها احتكارات تقيد التجارة . أما طورجو ، التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع ، والمشروعات ، والتجارة ، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية . وقد جاء فى ديباجة هذا المرسوم :

«كانت ممارسة الحرف والصنائع فى جميع المدن تقريباً مركزة فى أيدى عدد قليل من المعلمين المتحدين فى نقابات ، والذين كان لهم وحدهم حرية صنع وبيع سلع الصناعة الخاصة التى ينفردون دون غيرهم بامتيازها . فالذى كرس نفسه لأى صناعة أو حرفة لم يكن فى استطاعته ممارستها بحرية إلا بعد وصوله إلى مرتبة معلم الحرفة ، التى لاسبيل له إليها إلا بعد الخضوع لواجبات طويلة مملة لا حاجة إليها ، وبعد أداء ابتزازات متكاثرة تحرمه من جزء من رأس المال الضرورى لإنشاء تجارة أو تجهيز ورشة . أما العاجزون عن توفير هذه النفقات فمصيرهم العيش القلق تحت سلطان المعلمين ، ولا خيار أمامهم إلا الحياة فى ضنك . . . أو نقل صناعة قد تكون ذات نفع لوطنهم إلى بلد لأجنبى »[٧٨] .

وكان لهذه التهم الموجهة إلى النقابات الحرفية ما يبررها على قدر عام منا . ولكن طورجو استرسل فى إجراءاته فحظر على جميع معلمى الحرف وعمال المياومة والتلاميذ الصناعيين تكوين أى اتحاد أو جمعية[٧٩] . لقد آمن إيماناً مطلقاً بحرية المشروعات والتجارة ، ولم يتوقع أن يكون حق التنظيم هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الصناع أن يجمعوا ضعفهم كأفراد فى قوة جماعية للمساومة مع أصحاب العمل المنظمين . وقد أحس أن كل الطبقات

ستفيد فى المدى الطويل بتحرير رجال الأعمال من القيود الإقطاعية والنقابية والحكومية المفروضة على المشروعات . وأعلن أن جميع الأشخاص فى فرنسا — حتى الأجانب — أحرار فى الاشتغال بأى صناعة أو تجارة .

وفى ٩ فبراير ١٧٧٦ رفعت المراسيم الستة إلى برلمان باريس . فلم يوافق إلا على واحد منها ألغى المناصب الصغيرة ، ورفض الموافقة على تسجيل الباقى . وخص بمعارضته إنهاء السخرة باعتباره افتئاتاً على الحقوق الإقطاعية[٨٠] . وبهذا القرار الذى اتخذ بالتصويت جهر البرلمان بأنه حليف طبقة النبلاء والصوت المعبر عنهم . وهو الذى زعم من قبل أنه حامى الشعب من الملك . ودخل فولتير المعمعة بكراسة هاجمت السخرة والبرلمان وأيدت طورجو ، فأمر البرلمان بمصادرة الكراسة . ودافع بعض وزراء الملك عن البرلمان ، فوبخهم لويس فى لحظة ثبات وجلد قائلا « أرى جيداً أنه ليس هنا من يحب الشعب غيرى وغير مسيو طورجو »[٨١]. وفى ١٢ مارس دعا البرلمان إلى « سرير عدالة » (وهو المجلس القضائى العالى (فى فرساى ، وأمره بتسجيل المراسيم . واحتفلت مواكب من العمال بانتصار طورجو .

وأبطأ المراقب العام خطو ثورته بعد أن أرهقته الأزمات المتكررة . فلما طبق حرية التجارة الداخلية على صناعة النبيذ (ابريل ١٧٧٦) لم يشك غير المحتكرين . ثم حث الملك على إرساء دعائم الحرية الدينية . وأصدر تعليماته إلى ديون دنيمور بأن يضع خطة لتكوين مجالس انتخابية فى كل أبرشية ، يختارها كل من ملك أرضاً قيمتها ستمائة جنيه أو يزيد ، وهذه المجالس المحلية تنتخب ممثلين فى مجلس كنتونى ، تنتخب ممثلين فى مجلس إقليمى ، ينتخب نواباً فى مجلس الأمة . وكان طورجو مؤمناً بأن فرنسا ليست على استعداد للديمقراطية ، فاقترح ألا تعطى هذه المجالس إلا وظائف استشارية وإدارية ، أما السلطة التشريعية فتظل فى يد الملك وحده ، ولكن عن طريق هذه المجالس يحاط الملك علماً بحال المملكة وحاجاتها . كذلك قدم طورجو للملك تخطيطاً للتعليم العام بصفته المدخل الذى لابد منه للمواطنة المستنيرة . وقال : « مولاى ، إننى أجرؤ على التأكيد بأنه لن تمضى سنتان حتى تتبدل أمتك فلا تتعرف عليها الأمم ، وبفضل التنوير والأخلاق الطيبة...

ستسمو فوق جميع الدول الأخرى »[٨٢] ولكن الوزير أعوزه الوقت ، والملك أعوزه المال ، لإخراج هذه الأفكار إلى حيز الوجود .

وكانت مراسيم طورجو — وديباجاتها — قد ألهبت غضب جميع الطبقات ذات النفوذ عليه خلا التجار ورجال الصناعة ، الذين زكوا فى ظل الحرية الجديدة . والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال ، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية . ومع ذلك عارضه بعض التجار سراً لأنه تدخل فى احتكاراتهم . وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض ، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء . وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قرارات نقضه . ولم يثق به رجال الدين زاعمين كافراً يندر أن يختلف إلى القداس ، ويدافع عن الحرية الدينية . وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة . وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ . وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم ، ومعاشاتهم ، ووظائفهم الفخرية . أما موريبا ، وهو الأعلى منه منصباً فى الوزارة ، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين . وكتب السفير السويدى يقول « إن طورجو يجد نفسه الهدف لحاف رهيب جداً »[٨٣] .

أما مارى أنطوانيت فقد رضيت عن طورجو أول الأمر ، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته . ولكن سرعان ما استأنفت (حتى ١٧٧٧) اسرافها فى الثياب والعطايا . ولم يخف طورجو فزعه من مطالبها من الخزانة ، وكانت الملكة إرضاء لآل بولنياك قد حصلت على تعيين صديقهم الكونت دجين سفيراً لفرنسا فى لندن ؛ وهناك دخل فى معاملات مالية مشبوهة . وانضم طورجو إلى فرجين فى الإشارة على الملك باستدعائه ؛ وأقسمت الملكة لتنتقمن منه .

وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى. ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة ، وطبقة النبلاء ، وحتى البرلمانات ،

وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد وتقدست بمرور الزمن ، فإقلاقها معناه خلخلة ركائز الدولة ؛ ولكن طورجو كان قد أقصاها كلها . فهل تراه على حق وكل هؤلاء على ضلال ؟ وشكا لويس سراً من وزيره : « إن أصدقاءه فقط هم الأكفاء ، وأفكاره فقط هى الصائبة »(٨٤) . وفى كل يوم تقريباً كانت الملكة أو أحد أفراد الحاشية يحاول إثارته على المراقب العام . فلما رجاه طورجو أن يقاوم هذه الضغوط ولم يجب لويس ، عاد إلى منزله وكتب إلى الملك (٣٠ ابريل ١٧٧٦) رسالة كانت الفاصلة فى مصيره :

« مولاى : ان أخفى عنكم أن قلبى مجروح جرحاً عميقاً بسبب صمت جلالتكم يوم الأحد الماضى . . . ذلك أننى ماكنت لاستصعب أمراً من الأمور مادمت أؤمل الاحتفاظ بتقدير جلالتكم لصواب ما أفعل . واليوم أى جزاء ألقى ؟ أن جلالتكم ترون كم يستحيل على المضى فى طريقى قدماً ضد من يؤذوننى بالشر الذى يصنعونه بى ، وبالخير الذى يمنعوننى من فعله بتعطيل جميع إجراءاتى ، ومع ذلك فإن جلالتكم لاتمنحوننى عوناً ولا عزاء ، وأنا أجرؤ يا مولاى على القول بأننى لا أستحق هذا الجزاء . . .

« إن جلالتكم . . . قد دفعتم بافتقاركم إلى الخبرة . وأنا عليم بأنكم وأنتم فى الثانية والعشرين ، وفى منصبكم هذا ، لا تملكون المرانة على الحكم على الرجال ، وهى مرانة يحصل عليها الأفراد العاديون بفضل الاختلاط المعتاد مع نظرائهم ؛ ولكن هل سيتاح لكم مزيد من الخبرة بعد أسبوع ، بعد شهر ؟ وألا يمكن أن تتخذوا القرار الحاسم حتى تتوافر لكم هذه الخبرة البطيئة ؟ .

« مولاى ، إننى مدين لمسيو موريبا بالمنصب الذى قلدتمونى إياه ، ولن أنسى له هذه اليد ماحييت ، ولن أقصر أبداً فى الاحترام الواجب له . ولكن أتعلمون يا مولاى مبلغ ضعف شخصية المسيو دموريبا ؟ — وكم تسيطر عليه أفكار من يلتفون حوله . إن الناس كلهم يعرفون أن مدام دموريبا ، بتفكيرها الأضعف كثيراً من شخصيتها ، توحى إليه دائماً

بإرادتها . . . وهذا الضعف هو الذى يدفعه إلى الموافقة دون تردد على سخط الحاشية على ، والذى يجردنى من كل سلطة تقريباً فى إدارتى . . .

« مولاى ، لاتنس أن الضعف هو الذى أطاح برأس تشارلز الأول على المقصلة . . . والذى جعل من لويس الثالث عشر عبداً متوجاً ، . . . والذى جر على الحكم السالف كل ويلاته . . مولاى ، إنهم يعدونك ضعيفاً ، وقد أتى وقت خشيت فيه أن يكون فى خلقك هذا العيب ، ومع ذلك رأيتك فى مناسبات أكثر من هذه عسراً تبدى شجاعة أصيلة . . . ان جلالتكم لن تستطيع الاستسلام إرضاء لمسيو دموريا دون أن تكون غير صادق مع نفسك . . . » [٨٥] .

ولم يرد الملك على هذه الرسالة . فقد أحس أن عليه الآن أن يختار بين موريبا وطورجو ، وأن طورجو يطلب خضوع الحكومة التام تقريباً لإرادته . وعليه ففى ١٢ مايو ١٧٧٦ أرسل إلى طورجو أمراً بأن يستقيل . وفى اليوم ذاته ، وخضوعاً لإرادة الملكة وآل بولنياك ، رفع الكونت دجين إلى مرتبة الدوقية . فلما سمع ماليرب بإقالة طورجو قدم استقالته . وقال له لويس « إنك رجل محظوظ . ليتنى أنا أيضاً أستطيع ترك منصبى »[٨٦] . وما لبث معظم من عينهم طورجو أن طردوا من مناصبهم . وصعقت ماريا تريزا لهذه التطورات ، ووافقت فردريك وفولتير على أن سقوط طورجو نذير بانهيار فرنسا[٨٧] ، وقد أحزنها الدور الذى لعبته ابنتها فى الأمر ، وأبت أن تصدق تنصل الملكة من التبعة ، وكتب فولتير إلى لاهارب يقول : « لم يبق لى إلا أن أموت بعد أن ذهب مسيو طورجو »[٨٨] .

أما طورجو فقد عاش بعد إقالته عيشة هادئة فى باريس ، يدرس الرياضة ، والفزياء ، والكيمياء ، والتشريح . وكان يلتقى كثيراً بفرانكلن ، وقد كتب له « مذكرة فى الرسوم » ثم اشتدت عليه وطأة النقرس حتى أكرهه بعد ١٧٧٨ على الاستعانة بعكازين فى مشيه . ومات فى ١٨ مارس ١٧٨١ بعد سنوات حفلت بالألم وخيبة الأمل . ولم يدر بخلده أن القرن التاسع عشر سيقبل معظم أفكاره ويطبقها . وقد أجمل ماليرب وصفه فى حب فقال : « كان له رأس فرانسيس بيكن ، وقلب لوبيتال »[٨٩] .

٦ — وزارة نكير الأولى : ١٧٧٦ — ٨١

خلف طورجو فى رقابة المالية كلونى دنوى ، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية ، ولم ينفذ مراسيم الغلال . . وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليوناً من الجنيهات بسعر أربعة فى المائة ، ولم يكتشف الوزير الجديد طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيراً من إنشاء يا نصيب قومى (٣٠ يونيو ١٧٧٦) . فلما مات كلونى (أكتوبر) ، أقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفاء نقاد طورجو .

كان جاك نكير بروتستنتيا ، ولد فى جنيف عام ١٧٣٢ وأرسله أبوه — وكان أستاذاً للقانون فى أكاديمية جنيف — إلى باريس ليعمل كاتباً فى مصرف اسحاق فرنيه . فلما تقاعد فرنيه أقرض نكير بعض المال ليفتتح مصرفاً خاصاً به . وضم نكير ماله إلى مال رجل سويسرى آخر ، فأصابا نجاحاً بتقديم القروض للحكومة والمضاربة فى الغلال . وحين ناهز نكير الثلاثين كان غنياً ، محترماً ، عزباً . ولم يتمن الآن مزيداً من الثراء بل منصباً رفيعاً ، وفرصة للخدمة الممتازة والشهرة القومية ، وهذا يقتضيه زوجة وبيتاً يكون نقطة ارتكاز ، أو قاعدة عمليات . ومن ثم تودد إلى المركيزة فرمنو الأرملة ، فرفضته ، ولكنها جاءت من جنيف بسوزان كورشوا الجميلة الموهوبة التى كانت قبيل ذلك قد أفلتت من الزواج بأدورد جبون . ووقع نكير فى غرام سوزان ، وتزوجها فى ١٧٦٤ . ويعد وفاؤهما المتبادل طوال حياة حافلة بالأحداث من ألمع الأضواء فى مشكال ذلك العصر المضطرب . وأقاما بيتاً فوق مصرفه . وهناك افتتحت صالوناً (١٧٦٥) دعت إليه الكتاب ورجال الأعمال ، أملا فى أن تعبد هذه الصداقات طريق زوجها وتنيره .

وكان نكير نفسه يتحرق شوقاً للتأليف ، فبدأ فى ١٧٧٣ بكتابة « مديح لكولبير » الذى توجته الأكاديمية الفرنسية . واعتزل الآن عمله ودخل المعترك السياسى بذلك المقال « فى قانون الغلال » الذى عارض سياسة طورجو فى

عدم التدخل الحكومى . وظفر الكتيب بثناء ديدرو ، الذى لعله استمتع بفقرة تكلم فيها المؤلف كما يتكلم الاشتراكيون ، وكان قد قرأ روسو . وقد هاجم نكير :

« قوة الطبقة المالكة التى تمكنها من أن تدفع نظير جهد العامل أبخس أجر لايكاد يكفى لغير الحاجات الماسة . . . إن كل المؤسسات المدنية تقريباً أقامها الملاك . ولنا أن نقول إن قلة من الناس — بعد أن قسموا الأرض فيما بينهم — شرعوا القوانين تكتلا وضماناً لهم ضد الكثرة . . . ولهؤلاء أن يتساءلوا . « أى معنى تعنيه لنا قوانين الملكية التى شرعتموها ؟ — فنحن لانملك أملاكاً ؛ أو قوانينكم فى العدالة ؟ — فنحن لا نملك شيئاً ندافع عنه . أو قوانينكم فى الحرية ؟ — فإننا سنموت جوعاً إن لم نعمل غداً »[٩٠] .

وفى ٢٢ أكتوبر ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكير « مديراً للخزانة الملكية » بناء على تزكية موريبا . وكان تعييناً يشوبه الاعتذار . فقد احتج بعض الأساقفة على السماح لبروتستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة ، فأجاب موريبا ، « فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة »[٩١] . وستراً لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقباً عاماً للمالية له الرآسة الإسمية على نكير . وتضاءلت معارضه الاكليروس حين جعل نكير تدينه واضحاً جلياً . وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو ، وعين نكير مديراً عاماً للمالية . وقد رفض أن يتقاضى راتباً ، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص[٩٢] . ولكنه ظل محروماً من لقب الوزير ، ولم يسمح له بعضوية المجلس الملكى .

وقد وفق فى حدود خلقه وسلطته . ذلك أنه درب على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة ، وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال . وقد أرسى فى الإدارة المالية نظاماً وحسابات ووفراً أفضل ، وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة . وإذ كان حائزاً على ثقة المجتمع المالى ، فقد استطاع طرح أسهم بقروض أكسبت

الخزانة ١٤٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عام واحد . ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة ، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب ، وحسن المستشفيات ، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء المال بفائدة منخفضة ، وواصل جهود طورجو للحد من نفقات البلاط ، والبيت الملكى ، والملكة . ورد إلى الملتزمين العموميين جمع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) ، غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق . وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى ، وجرينوبل ، ومونتوبان ، ووضع سابقة هامة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنتظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوين لممثلى النبلاء والاكليروس مجتمعين . على أن الملك كان يختار أعضاء هذه المجالس ، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية . وقد ظفر نكير بنصر هام حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية ، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه . فلما رفضوا أشار نكير عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا ، مع دفع التعويضات للسادة ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغاً يعسر معه إلغاؤه بمرسوم [٩٣] . وفى ١٧٨٠ ، وتحت إلحاح نكير أيضاً ، أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى ، وإلغاء السجون السفلية ، وفصل السجناء الذين جرموا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد ، وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين . هذه وغيرها من انجازات وزارة نكير الأولى تستحق عرفاناً أكثر مما ناله عموماً . فإذا سألنا لم لم يعمل مبضعه بأعمق وأسرع مما أعمله ، وجب أن نتذكر أن طورجو قد لقى اللوم على تعجله والاستكثار من الأعداء فى وقت واحد . وقد انتقد نكير على طرحه القروض بدلا من جمع الضرائب ، ولكنه أحس بأن الشعب قد فرض عليه من الضرائب ما يكفى .

وقد أحسنت مدام كمبان تلخيص موقف الملك من وزرائه ، وهى اللصيقة دائماً بهذه الدراما المتطورة « لقـــد حكم طورجو ، ومالبرب ، ونكير، بأن هذا الملك المتواضع البسيط فى عاداته ، لن يتردد فى التضحية بحقه الملكى فى سبيل عظمة شعبه الحقيقية ؛ لقد كان قلبه ينعطف به نحو

الإصلاح ، ولكن تحيزاته ومخاوفه ، ومطالب الأشخاص الأتقياء وأصحاب الامتيازات الملحة جعلته جباناً ، وأكرهته على التخلى عن خطط أوحى بها إليه حبه للشعب»[٩٤] . ومع ذلك فقد جرؤ على أن يقول فى إعلان عام (١٧٨٠) لعل نكير كان قد أعده له ، إن « الضرائب المفروضة على أفقر شطر من رعايانا . . وقد زادت بنسبة تفوق كثيراً سائر الرعايا الباقين . « وأعرب عن آماله فى ألا يحسب الأغنياء أنفسهم مظلومين إذا وجب عليهم ، بعد أن يردوا إلى المستوى العام (للضرائب) ، أن يؤدوا الفروض التى كان لابد أن يشاركوا فيها غيرهم منذ زمان بقدر أكبر من المساواة »[٩٥] . وكان يرتعد إذا خطر بباله فولتير ، ولكن روحه التحررية شكلها على غير وعى منه ذلك العمل الذى قام به فولتير ، وروسو ، وجماعة الفلاسفة بوجه عام لفضح المفاسد القديمة وابعث الحياة الجديدة فى المشاعر الإنسانية التى ارتبطت من قبل بالمسيحية . فى هذا النصف الأول من حكمه بدأ لويس السادس عشر اصلاحات كان خليقاً بها لو اتصلت واتسعت شيئاً فشيئاً أن تتفادى الثورة . ثم إنه فى عهد هذا الملك الضعيف نرى فرنسا التى سلبتها انجلتره ممتلكاتها وأذلتها فى عهد أسلافه — تكيل الضربات بجرأة وبنجاح لبريطانيا الفخور ، وتعين بعملها هذا على تحرير أمريكا .

٧ — فرنسا وأمريكا

اتفقت الفلسفة هذه المرة مع الدبلوماسية . فمؤلفات فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ورينال ، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسى لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصر التحرير الفكرى ، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين — كواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن — أبناء للتنوير الفرنسى . ومن ثم فحين قدم سيلاس دين إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦) ملتمساً قرضاً للمستعمرات الثائرة ، كان الرأى العام الفرنسى شديد التعاطف معه ، وراح بومارشيه فى تحمسه يرسل المذكرة تلو المذكرة إلى فرجين يحثه فيها على مديد المعونة لأمريكا .

وكان فرجين نبيلا يؤمن بالملكية والاستقراطية ، ليس بينه وبين

الجمهوريات أو الثورات ود ، ولكنه كان تواقاً للثأر من انجلتره لفرنسا ، غير أنه لم يرض بالموافقة على أى معونة سافرة لأمريكا ، لأن البحرية البريطانية كانت لاتزال أقوى من الفرنسية رغم ما أنفقة عليها سارتين ، وكان فى مقدورها تدمير السفن الفرنسية إذا كانت الحرب سافرة إلا أنه أشار على الملك بالإذن ببعض المعونة السرية ، وحجته أن بريطانيا لو سحقت الثورة لخلص لها فى أمريكا أو قربها أسطول قادر على الاستيلاء متى شاء على الممتلكات الفرنسية والإسبانية فى البحر الكاريبى . أما إذا أمكن المطاولة فى الثورة ، فإن فرنسا ستقوى ، وانجلتره تضعف ، وتستطيع البحرية الفرنسية استكمال تجديدها . أما لويس فكان يرتعد فرقاً لفكرة تقديم المعونة لثورة ما ، وحذر فرجين من أى عمل سافر قد يفضى إلى حرب مع انجلتره[٩٦] .

وفى ابريل كتب فرجين إلى بومارشيه يقول :

« سنعطيك سراً مليوناً من الجنيهات ، وسنحاول الحصول على مبلغ مماثل من أسبانيا . (وقد حصلوا على هذا المبلغ) وبهذين المليونين عليك أن تؤلف شركة تجارية ، وتزود الأمريكيين على مسئوليتك بالسلاح والذخيرة والأجهزة ، وسائر الأشياء التى يحتاجون إليها لمواصلة الحرب . وستسلمك ترسانتنا السلاح والذخيرة ، ولكنك ستعوضها أو تدفع ثمنها . وإياك أن تطلب مالا من الأمريكيين ، لأنهم لايملكون المال ، ولكن أطلب مقابلا غلات أرضهم ، التى سنساعدك على بيعها فى هذا البلد »[٩٧] .

وبهذا المال اشترى بومارشيه المدافع والبنادق والبارود والثياب والأجهزة اللازمة لخمسة وعشرين ألف رجل ، ثم أرسل هذه البضائع إلى ميناء كان دين قد جمع فيه عدة قراصنة أمريكيين وأعاد تجهيزهم . وقد شجع وصول هذه المعونة أو الوعد الوثيق بها المستعمرين على إصدار إعلان الاستقلال (٤ يوليو ١٧٧٦) . فلما ترجم الإعلان إلى الفرنسية ، وتداوله الناس بموافقة الحكومة الفرنسية الضمنية ، استقبلته جماعة الفلاسفة بحماسة وفرح ، وكذلك تلاميذ روسو الذين تبينوا فيه أصداء من « العقد الاجتماعى » .

وفى سبتمبر عين الكونجرس الأمريكى . بنيامين فرانكلين وآرثر لى — ليمضيا إلى فرنسا مندوبين ، وينضما إلى دين ، ويلتمسا لا المزيد من الإمداد فحسب ، بل التحالف السافر ان أمكن .

ولم تكن هذه أول مرة ظهر فيها فرانكلين فى أوربا . ذلك أنه فى ١٧٧٤ ذهب إلى انجلتره ولم يكن قد بلغ التاسعة عشرة ، وقد اشتغل طباعاً ، ونشر دفاعاً عن الألحاد (٩٨) ، وعاد إلى فيلادلفيا والربوبية ، وتزوج ، وانضم إلى جماعة الماسون ، وظفر بشهرة دولية بوصفه مخترعاً وعالماً . وفى ١٧٥٧ أوفد إلى انجلتره ممثلا لمجلس بنسلفانيا فى نزاع ضرائبى . ومكث فى انجلتره خمس سنين ، والتقى بجونسن وغيره من وجوه القوم ، وزار أسكتلنده ، والتقى بهيوم وروبرتسن ، ونال درجة من جامعة سانت أندروز ، وأصبح منذ الآن الدكتور فرانكلن . ثم عاد إلى انجلتره من ١٧٦٦ إلى ١٧٧٥ ، وخطب فى مجلس العموم معارضاً ضريبة الدمغة ، وحاول المصالحة ، ثم عاد إلى أمريكا حين رأى أن الحرب واقعة . وقد شارك فى صياغة إعلان الاستقلال .

وصل فرانكلين إلى فرنسا فى ديسمبر ١٧٧٦ ومعه حفيدان له ، وكان الآن فى السبعين ، يبدو وكأنه الحكمة ذاتها مجسمة ، والعالم كله يعرف ذلك الرأس الضخم والشعر المشتعل الخفيف ، والوجه الشبيه بالبدر عند بزوغه المشرق . وأهال عليه العلماء أسباب التكريم ، وادعى الفلاسفة والفزيوقراطيون أنه واحد منهم ، ورأى المعجبون بروما القديمة فيه سنسناتوس ، وسكبيو الأفريقى ، والكاتوين ، وقد بعثوا من مراقدهم ، وصففت نبيلات باريس شعورهن فى لمة مجعدة تقليداً لقبعته المصنوعة من فرو القندس ؛ ولا ريب أنهن سمعن بغرامياته الكثيرة . وأذهلت الحاشية بساطة عاداته ، ولباسه ، وحديثه ، ولكن بدلا من أن يبدو مضحكاً فى زيه القريب من زى الريفيين ، كان اختيالهم فى المخمل والحرير والمخرم هو الذى تبدى الآن كأنه محاولة فاشلة لإخفاء الواقع وراء مظهر كاذب . ومع ذلك قبلوه هم أيضاً ، لأنه لم يستعرض أحلاماً لحكومات مثالية ، بل تكلم بتعقل وإدراك سليم ، وأظهر

الوعى الكامل بالمصاعب والحقائق . وكان يدرك أنه بروتستنتى ، ربوبى ، جمهورى ، يطلب العون من بلد كاثوليكى وملك تقى .

وقد باشر مهمته فى حذر وحيطة . فلم يغضب أحداً ، وأبهج كل إنسان . وقدم فروض الاحترام لا لفرجين فقط بل لميرابو الأب ولمدام دودفان ، ولمع رأسه الأصلع فى الصالونات وفى أكاديمية العلوم . وشرف نبيلا شاباً هو الدوق دلاروشفوكو أن يكون سكرتيره . وكانت الجموع تجرى وراءه حين يظهر فى الشوارع . ولقيت كتبه ترحيباً واسعاً حين ترجمت ونشرت « أعماله الكاملة » وطبع من كتاب واحد « تقويم وتشرد المسكين » ثمانى طبعات فى ثلاثة أعوام . واختلف فرانكلين إلى محفل « النوف سير » الماسونى ومنح العضوية الفخرية ، وإعانة الرجال الذين التقى بهم هناك على كسب فرنسا فى حلف مع أمريكا . ولكنه لم يستطع أن يطلب للتو المعونة السافرة من الحكومة . وكان جيش واشنطن يتقهقر أمام السر وليم هاو ، وبدا أن معنوية الجيش تحطمت . وبينما كان فرانكلن ينتظر أحداثاً أكثر يمناً أقام فى باسى ، وهى إحدى ضواحى باريس اللطيفة ، وراح يدرس ، ويفاوض ، ويكتب نشرات الدعاية تحت أسماء مستعارة ، ويستضيف طورجو ، ولافوازييه ، وموريلليه ، وكابانى ، ويغازل مدام دودتو فى سانوا ومدام هلفتيوس فى أوتوى ، ولا عجب فقد كان فى هاتين المرأتين فتنة جعلتهما جذابتين بغض النظر عن تقدمهما فى العمر .

وكان بومارشيه وغيره أثناء ذلك يرسلون الإمداد إلى المستعمرات ، وضباط الجيش الفرنسيون يتطوعون للقتال تحت إمرة واشنطن . كتب سيلاس دين فى ١٧٧٦ « تتكاثر على تكاثراً رهيباً طلبات الضباط الراغبين فى الذهاب إلى أمريكا . . . ولو كان لدى عشر سفن هنا لملأتها كلها بركاب لأمريكا »(٩٩). والعالم كله يعرف كيف ترك المركيز لافاييت ، البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، زوجة مخلصة حبلى ليرحل (ابريل ١٧٧٧) ويقاتل بلا راتب فى جيش المستعمرات . وقد اعترف لواشنطن قائلا « إن الشيء الوحيد الذى أتعطش إليه هو المجد »(١٠٠)، وفى سبيل المجد أقتحم كثيراً من المخاطر وألواناً من الهوان ، وجرح فى براند يواين ، وشارك فى أهوال فالى فورج . وظفر بالمحبة الحارة من واشنطن رغم تحفظه المعهود .

وفى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ هزم جيش للمستعمرين عدته عشرون ألف مقاتل قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندى بريطانى وثلاثة آلاف مرتزق ألمانى قادمين من كندا فى ساراتوجا وأكرهها على الاستسلام . فلما بلغ نبأ هذا الانتصار الأمريكى فرنسا وجدت مطالبة فرانكلين ، ودين ، ولى ، بابرام حلف قبولا أكثر بين مشيرى الملك . غير أن نكير عارض إذ كره أن يرى ميزانيته التى قاربت التوازن تقلبها نفقات الحرب رأساً على عقب . إلا أن فرجين وموريبا ظفرا بموافقة لويس السادس عشر التى بذلها على مضض حين حذراه من أن انجلتره — التى كانت عليمة منذ زمن طويل بالعون الفرنسى لأمريكا ومستاءة منه — قد تبرم صلحاً مع مستعمراتها وتوجه كامل قوتها الحربية ضد فرنسا . وعليه ففى ٦ فبراير ١٧٧٨ وقعت الحكومة الفرنسية معاهدتين مع « ولايات أمريكا المتحدة » أرست إحداهما علاقات التجارة ، والمعونة ، واشترطت الأخرى سراً أن ينضم الموقعان فى الدفاع عن فرنسا إذا أعلنت عليها انجلتره الحرب ، ولا يبرم طرف صلحاً دون موافقة الآخر ، ويواصل كلاهما قتال انجلتره حتى يتحقق استقلال أمريكا .

وفى ٢٠ مارس استقبل لويس المبعوثين الأمريكيين ، ولبس فرانكلن جوارب حريرية طويلة لهذه المناسبة . وفى ابريل وصل جون آدمز ليحل محل دين ، وأقام مع فرانكلن فى باسى ، ولكنه وجد الفيلسوف العجوز فى شغل بالنساء عن مهامه الرسمية . فتشاجر معه ، وحاول العمل على استدعائه لأمريكا ، ففشل ، وعاد إلى أمريكا . وعين فرانكلين وزيراً مفوضاً لدى فرنسا (سبتمبر ١٧٧٩) . وفى ١٧٨٠ ، حين كان يبلغ الرابعة والسبعين ، عرض الزواج دون جدوى على مدام هلفتيوس البالغة إحدى وستين سنة .

وأحب الفرنسيون كلهم تقريباً هذه الحرب عدا نكير . فقد كان عليه أن يجمع الأموال الطائلة التى أقرضتها فرنسا لأمريكا : مليون جنيه فى ١٧٧٦ ، وثلاثة ملايين أخرى فى ١٧٧٨ ، ومليوناً آخر فى ١٧٧٩ ، وأربعة فى ١٧٨٠ ، وأربعة فى ١٧٨١ ، وستة فى ١٧٨٢[101]. وبدأ مفاوضات

سرية مع اللورد نورث (أول ديسمبر ١٧٧٩) أملا فى العثور على صيغة للصلح[١٠٢] . وكان عليـــه بالإضافة إلى هذه القروض أن يجمع المال لتمويل حكومة فرنسا وجيشها ، وبحريتها ، وبلاطها . وبلغت جملة ما اقترضه من المصرفيين والشعب ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[١٠٣]. وقد لاطف الأكليروس حتى أقرضوه أربعة عشر مليوناً ، ترد أقساطاً قيمتها مليون جنيه كل عام . وظل يرفض فرض ضرائب ، مع أن ثراء الطبقات العليا كان يمكن أن أن يجعل هذا الإجراء غير مؤلم نسبياً ، وسيشكو من خلفوه فى منصبه من أنه ألقى على عاتقهم هذه الضرورة التى لامحيص عنها . وقد حاباه الماليون لأنه منحهم على قروضهم معدلات الفائدة العالية التى طالبوا بها بحجة أنهم إنما يغامرون بأخطار متزايدة ، أخطار عدم استرداد قروضهم على الإطلاق . ورغبة فى تنمية الثقة فى المجتمع المالى ، نشر نكير بموافقة الملك فى يناير ١٧٨١ « تقريراً مقدماً للملك » هدفه إطلاع الملك والأمة على إيرادات الحكومة ومصروفاتها ، وقد أضفى على الصورة إشراقاً بإسقاطه النفقات الحربية وغيرها من المصروفات « غير العادية » ، وإغفاله الدين القومى . وأقبل الجمهور على شراء « التقرير » بمعدل ثلاثين ألف نسخة فى إثنى عشر شهراً . وحيا الناس نكير ساحراً للمالية أنقذ الحكومة من الإفلاس . وطلبت كاترين الكبرى من جريم أن يؤكد لنكير « إعجابها الذى لاحد له بكتابه وبمواهبه »[١٠٤] . غير أن البلاط غضب لأن « التقرير المقدم للملك » فضح الكثير جداً من مفاسد الماضى المالية ، وكشف عن الكثير جداً من المعاشات التى تدفعها الخزانة . وهاجم بعضهم الوثيقة زاعماً أنها ليست إلا مدحاً للوزير بقلمه ، وغار موريبا من نكير غيرته من طورجو من قبل وانضم إلى غيره فى التوصية بإقالته . أما الملكة فدافعت عنه وان ساءتها إجراءات الوفر التى اتخذها ، ولكن فرجين سماه ثائراً[١٠٥] . واشـــترك النظار الملكيون فى اتهام نكير ومحاولة إسقاطه مخافة أن يحفظ التقويض سلطتهم بإنشاء المزيد من المجالس الإقليمية . وعمل نكير ذاته على سقوطه بتصريحه بأنه سيستقيل ما لم يمنح لقب الوزير وسلطته كاملين مع كرسى فى المجلس الملكى ، وقال موريبا للملك أنه لو أجيب نكير إلى طلبه هذا

لتخلى جميع الوزراء الآخرين عن مناصبهم . واستسلم لويس ، وأخلى سبيل نكير (١٩ مايو ١٧٨١) وحزنت باريس كلها لسقوطه إلا البلاط . وبعث يوزف الثانى بعزائه ، ودعته كاترين الثانية للحضور وإدارة مالية روسيا(١٠٦).

وفى ١٢ أكتوبر ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا ضد انجلترة . وأوشك الأسطولان الفرنسى والإسبانى المجتمعان ، ببوارج مجموعها ١٤٠ ، أن يعدلا بوارج البحرية البريطانية وعددها ١٥٠(١٠٧) ، وقطعاً على بريطانيا سطوتها على البحار . وقد أثر هذا التغيير فى ميزان القوة البحرية تأثيراً حيوياً فى الحرب الأمريكية . ذلك أن الجيش البريطانى الرئيسى فى أمريكا ، وعدته سبعة آلاف مقاتل يقودهم اللورد كورنواليس ، احتل موقعاً حصيناً فى يوركتون على نهر يورك قرب خليج تشيزابيك . وكان لافاييت برجاله الخمسة آلاف وواشنطن برجاله الأحد عشر ألفا (بما فيهم ثلاثة آلاف فرنسى تحت إمرة الكونت روشامبو) قد التقيا عند يوركتون واستوليا على كل المداخل البرية الميسورة . وفى ٥ سبتمبر ١٧٨١ هزم أسطول فرنسى بقيادة الكونت دجراس أسطولا انجليزياً صغيراً فى الخليج . ثم أغلق كل مهرب مائى على قوة كورنواليس الأقل عدداً . فلما استنفد كورنواليس ذخيرته استسلم هو وجميع رجاله (١٩ أكتوبر ١٧٨١) . واستطاعت فرنسا أن تزعم أن دجراس ، ولافاييت ، ورشامبو قد لعبوا أدواراً كبرى فى ذلك الحدث الذى تبين أنه الفاصل فى الحرب .

وطلبت انجلترة الصلح . وأوفد شلبيرن بعثتين منفصلتين إلى الحكومة الفرنسية والمبعوثين الأمريكان فى فرنسا ، آملا أن يثير أحد الحليفين على الآخر . وكان فرجين (١٧٨١) قد فكر من قبل فى الصلح مع انجلترة على أساس اقتسام معظم أمريكا الشمالية بين انجلترة وفرنسا وأسبانيا(١٠٨) ، وبدأ تفاهماً مع أسبانيا ليبقى وادى المسيسبى تحت السيطرة الأوربية(١٠٩) . وفى نوفمبر ١٧٨٢ اقترح تأييد الانجليز فى سعيهم لأقصاء الولايات الأمريكية من مصايد الأسماك النيوفوندلندية(١١٠) . وكانت هذه المفاوضات متفقة تماماً مع السوابق الدبلوماسية ، ولكن المبعوثين الأمريكيين أحسوا حين

علموا بها أن الوضع يبرر عملهم بمثل هذه السرية . واتفق فرجين وفرانكلن على أن لكل حلف أن يتعامل مع انجلتره مستقلا عن الآخر ، على ألا يوقع طرف أى معاهدة صلح دون موافقة الطرف الآخر[١١١] .

أما المفاوضون الأمريكان — خصوصاً جون جاى وفرانكلن — فقد لعبوا اللعبة الدبلوماسية بمهارة فائقة ، فلم يكسبا للولايات المتحدة الاستقلال فحسب ، بل حق استعمال المصايد النيوفوندلندية ، ونصف البحيرات العظمى ، وكل المنطقة الشاسعة الغنية الواقعة بين جبال الليجانى والمسسبى ، وكانت هذه الشروط أفضل كثيراً مما توقع الكونجرس الأمريكى الحصول عليه . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ وقع جاى ، وفرانكلن ، وآدمز ، معاهدة تمهيدية مع انجلتره ، كانت من الناحية الرسمية انتهاكاً للاتفاق المبرم مع فرجين ، ولكنها اشترطت ألا يكون لها صلاحية حتى تبرم انجلتره الصلح مع فرنسا . وشكا فرجين ، ثم قبل الوضع . وفى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ وقعت المعاهدة النهائية « باسم الثالثوث الأقدس غير المنقسم »[١١٢] — بين انجلتره وأمريكا فى باريس ، وبين انجلتره وفرنسا وأسبانيا فى فرساى . وبقى فرانكلن فى فرنسا سفيراً للولايات المتحدة حتى ١٧٨٥ . فلما قضى نحبه فى فيلادلفيا (١٧ ابريل ١٧٩٠) لبست الجمعية التأسيسية الفرنسية الحداد عليه ثلاثة أيام .

وقد أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة . فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات ، وكانت الفائدة على الدين القومى تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد . على أن ذلك الدين كان مشكلة بين الحكومة والأغنياء لا تكاد تؤثر فى الشعب ، الذى أثرى كثير من أفراده بفضل تنشيط الصناعة . وقد أوذيت الملكية — لا الأمة — أذى بليغاً ، وإلا فكيف يستطيع التاريخ تعليل النجاح الذى ثبت به اقتصاد فرنسا الثائرة وجيوشها لنصف أوربا من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ ؟

لاريب فى أن روح فرنسا قد رفعت . فقد رأى رجال الدولة فى صلح

١٧٨٣ بعثاً ظافراً أقامها من كبوتها عام ١٧٦٣ . أما جماعة الفلاسفة فقد هللوا للنتيجة ورأوها انتصاراً لآرائهم ، والحق ، كما قال توكفيل « ان الأمريكيين بدوا كأنهم نفذوا ما حلم به كتابنا »(١١٣) . ورأى الكثير من الفرنسيين فى الإنجاز الذى حققته المستعمرات إرهاصاً يبشر بانتشار الديمقراطية فى أوربا كلها . وسرت الأفكار الديمقراطية حتى إلى الطبقة الأرستقراطية والبرلمانات . وأصبح إعلان الحقوق الذى أصدره مؤتمر فرجينيا الدستورى فى ١٢ يونيو ١٧٧٦ ، وقانون الحقوق الذى ألحق بالدستور الأمريكى ، من بعض الوجوه نموذجين حذا حذوهما إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الجمعية التاسيسية الفرنسية فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ .

ولقد كان البهاء الأخير لفرنسا الإقطاعية ، وأوج فروسيتها ، أن تموت وهى تعين على إرساء دعائم الديمقراطية فى أمريكا . صحيح أن معظم رجال الدولة الفرنسيين كانوا يفكرون بلغة بعث قوة فرنسا وحيويتها . غير أن حماسة النبلاء من أمثال لافاييت وروكامبو كانت حقيقية لأمراء فيها . فلقد خاطروا بحياتهم غير مرة فى سبيل الدولة الوليدة . كتب الكونت سيجور الشاب يقول « لم أكن قط الوحيد الذى خفق قلبه لصوت استيقاظ الحرية وهى تكافح للتخلص من السلطة الاستبدادية »(١١٤) . ونزول النبلاء الشهير عن حقوقهم الإقطاعية فى الجمعية التأسيسية (٤ أغسطس ١٧٨٩) صور ومهد له هنا سلفاً . لقد كان ضرباً باسلا من الهارا — كيرى ، بذلت فيه فرنسا المال والدم لأمريكا ، ونالت لقاء ذلك دفعة جديدة قوية للحرية .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

الموت والفلاسفة

١٧٧٤ – ١٨٠٧

---

١ – نهاية فولتير

أ – الشفق فى فرنيه

كان يناهز الثمانين فى ١٧٧٤ ، وكانت تغشاه نوبات إغماء فى هذه السنين ونحن نسميها حالات بسيطة من النقطة ، وقد سماها هو إنذارات صغيرة ولم يعبأ بها ، لأنه وطن نفسه على الموت منذ أمد بعيد ، ولكنه عمر واستمتع بإعجاب الملوك والملكات . فقد وصفته كاترين الكبرى بأنه « أشهر رجال عصرنا »[١]. وكتب فردريك الأكبر فى ١٧٧٥ « ان الناس يتزاحمون ويتجاذبون على شراء تماثيل فولتير النصفية بمصنع البرسلان » فى برلين « حيث لاينتجون التماثيل بسرعة تكفى لتلبية الطلب عليها »[٢]. وكانت فرنيه قد أصبحت منذ زمان كعبة يحج إليها المثقفون الأوربيون ، أما الآن فكانت مزاراً دينياً تقريباً ، فاستمع إلى مدام سوار عقب زيارتها لها فى ١٧٧٥ تقول : « لقد رأيت مسيو فولتير ، ان نشوات القديسة تريزا لم تفق قط تلك التى استشعرتها وأنا أرى هذا الرجل العظيم . فقد بدا لى أننى فى حضرة إله ، إله محبوب معبود ، استطعت فى خاتمة المطاف أن أعرب له عن كل عرفانى وكل احترامى »[٣] . وحين مر بجنيف عام ١٧٧٦ كاد يخنقه الجمع المتحمس الذى التف حوله[٤] .

وقد واصل اهتمامه بالسياسة والأدب حتى فى ثمانيناته . فحيا ارتقاء

لويس السادس العرش بمديح تاريخي للعقل ، اقترح فيه بأسلوب التنبؤ — بعض الإصلاحات التي تحبب الأجيال القادمة في الحاكم الجديد :

« سوف توحد القوانين . . . وستلغى الوظائف المتعددة (التي يجمع بينها كنسي واحد) والإنفاق الذي لاحاجة إليه . . . وسيعطى للفقراء الكادحين تلك الثروة الضخمة التي يمتلكها فريق من الكسالى كانوا قد نذروا حياة الفقر من قبل . ولن تعد الزيجات التي تبرمها مائة ألف من الأسر (البروتستنتية) النافعة للدولة نوعاً من التسرى ، ولا أطفالها أبناء غير شرعيين . . ولن تعاقب الذنوب الصغيرة على أنها جرائم جسيمة . . ولن يستخدم التعذيب . . . ولن يكون هناك بعد سلطتان (الدولة والكنيسة) ، لأنه لا يمكن أن يكون غير واحدة — وهي سلطة قانون الملك في الملكية ، وسلطة الأمة في الجمهورية . . . وأخيراً ، سنجرؤ على أن نفوه بكلمة التسامح »(٥) .

وقد أنجز لويس الكثير من هذه الإصلاحات ، فيما عدا الكنسية منها . وكان لتقواه الصادقه ، ولاقتناعه بأن ولاء الكنيسة سند لا غنى عنه لعرشه ، يأسف على تأثير فولتير . ففي يوليو ١٧٧٤ أصدر حكومته تعليماتها لناظر برجنديه الملكي بمراقبة المهرطق العجوز مراقبة يقظة ، ومصادرة أوراقه جميعها فور وفاته ، وكانت ماري أنطوانيت تتعاطف مع فولتير ، وقد بكت حين شهدت تمثيل مسرحية « تانكريد » ، وقالت أنها تود أن « تعانق مؤلفها »(٦) ، فأرسل لها أبياتاً لطيفة .

وقد غمرته نوبة من التفاؤل يوم عين صديقه طورجو مراقباً عاماً للمالية ، ولكن حين أقيل طورجو أصابه تشاؤم بسكالى قاتم حول أحوال البشر ، ثم استعاد السعادة بتبنيه ابنة ، هي رين فليبرت دفاريكور التي قدموها إليه في ١٧٧٥ على أنها فتاة تنوى أسرتها إدخالها أحد الأديرة لأنها تشكو فقراً يمنعها من تدبير مهر لها . وقد أدفأ جمالها البرىء عظام الشيخ ، فأخذها في بيته ، وسماها « جميلة وطيبة » ووجد لها زوجاً — هو المركيز دفليت الشاب الموسر . وتزوجا في ١٧٧٧ ، وقضيا شهر العسل في فرنيه . كتب

يقول « ان العاشقين الشابين بهجة للناظرين ، وهما يعكفان على العمل ليل نهار ليصنعا فيلسوفاً صغيراً لى »(٧) ، ذلك أن الثمانين الأبتر اغتبط لفكرة الأبوة ولو بالأنابة .

وكتب أثناء ذلك آخر دراماته « ايرين » ودفعها إلى الكوميدى — فرانسيز . وقد أحدث قبولها (يناير ١٧٧٨) مشكلة . ذلك أن الفرقة درجت على أن تقدم كل مسرحية حسب تاريخ قبولها ، وكانت الفرقة قد تلقت مسرحيتين أخريين ووافقت عليهما قبل مسرحية فولتير — احداهما بقلم جان فونسوا دلاهارب ، والأخرى بقلم نيقولا بارت . وتنازل المؤلفان كلاهما للتو عن حقيهما المقدمين فى التمثيل . وكتب بارت إلى الفرقة يقول :

« لقد قرئت عليكم تمثيلية جديدة بقلم مسيو فولتير وكنتم على وشك النظر فى تمثيل مسرحيتى « الرجل ذاته » . « وليس أمامكم الآن غير شىء واحد ، هو ألا تفكروا فى مسرحيتى أكثر من ذلك . وأنا عليم بالإجراء المتبع فى هذه الأحوال ، ولكن أى كاتب يجرؤ على المطالبة بالتزام القاعدة فى حالة كهذه ؟ أن مسيو فولتير يقف فوق القانون كأنه ملك . وإذا لم يكن فى الإمكان أن أتشرف بتقديم إسهامى فى امتاع الجمهور ، فلا أقل من التنحى عن طريق إبهاج الجمهور بمسرحية جديدة من القلم الذى أنشأ « زائير » و « ميروب » . انى لأرجو أن تعرضوا هذه المسرحية بأسرع ما تستطيعون وأتمنى لو واصل مؤلفها ، مثل سوفوكليس ، تأليف التراجيديات حتى يبلغ المائة سنا ، ثم يموت كما تحيون أيها السادة — مكللا بفيض غامر من التصفيق »(٨) .

فلما بلغ النبأ فولتير داعب فى حب فكرة الذهاب إلى باريس ليشرف على إخراج مسرحيته . ذلك أنه لم يكن هناك على أية حال حظر رسمى أو صريح على دخوله باريس . وأى بأس فى أن يهاجمه رجال الدين من فوق منابرهم ؟ انه ألف ذلك . وماذا لو أقنعوا الملك بزجه فى الباستيل ؟ حسنا ، انه ألف ذلك أيضاً . فيالها من فرحة أن يرى المدينة الكبرى مرة أخرى بعد أن غدت قصبة التنوير ! لكم تغيرت طبعاً منذ فراره الأخير منها قبل

ثمانية وعشرين عاماً ! ثم أن مدام دنى ، التى مات فرنيه منذ زمن طويل ، كثيراً ما توسلت إليه أن يعود بها إلى باريس . وعرض المركيز د فيليت أن يهيىء له أسباب الإقامة المريحة فى قصره فى شارع بون . وأقبلت الرسائل تترى من باريس صائحة : تعال !

فقرر أن يذهب . فإذا أجهزت عليه الرحلة فإنها لن تفعل أكثر من تقديم نهاية ما لا مفر منها زماناً يسيراً ، فالآن حان وقت الموت . واعترض على الكفرة وحزن خدام بيته ، ومشرفو مزرعته ، وفلاحو أرضه ، والعمال فى مستعمرته الصناعية ، فوعدهم بأن يعود بعد ستة أسابيع ، ولكنهم كانوا واثقين فى حزن أنهم لن يروه بعدها أبدا . وأى خاف له سيعطف عليهم عطفه ؟ فلما غادرت القافلة فرنيه (٥ فبراير ١٧٧٨) التف أتباعه من حوله ، وبكى الكثير منهم ، ولم يستطع هو ذاته أن يملك دموعه . وبعد خمسة أيام ، ورحلة ثلاثمائة ميل ، وقع بصره على باريس .

ب — تمجيد فولتير

حين بلغت المركبة أبواب باريس فتشها الموظفون بحثاً عن الممنوعات. وقال لهم فولتير مؤكداً « وديني أيها السادة انني أعتقد أن ليس هنا من ممنوع غير شخصى »(٩) . ويؤكد لنا سكرتيره فانيير أن سيده « تمتع طوال الرحلة بصحبة سابغة . فلم أره قط أروق مزاجاً ، وكان مرحه مبهجاً »(١٠) للنظارين .

وأعد له جناح فى بيت مسيو د فليت فى زاوية شارع بون والكى دى تياتر على الضفة اليسرى لنهر السين . وفور ترجله من مركبته سار على الرصيف قاصداً بيت صديقه دارجنتال القريب ، وكان قد ناهز الثامنة والسبعين . ولم يكن الكونت فى بيته . ولكن سرعان ما ظهر فى قصر فيليت . وقال فولتير « توقفت عن الموت لآتى وأراك » . وبعثت إليه صديقة قديمة أخرى بكلمات ترحيب . فرد عليها بتأنقه المألوف فى نعى نفسه « لقد وصلت ميتاً ، ولا أريد أن أبعث حياً إلا لأرتمى تحت قدمى المركيزة دودفان »(١١) . وأبلغه المركيز جوكور أن لويس السادس عشر ثائر لمجيئه إلى باريس ، ولكن

مدام دبولنياك جاءت لتؤكد له أن مارى أنطوانيت ستحميه[١٢] . ورغب الأكليروس فى طرده ، ولكن لم يوجد فى السجلات أى حظر رسمى يحرم زيارة فولتير لباريس ، واكتفى لويس برفض رجاء الملكة السماح للكاتب الذى طبقت شهرته الآفاق بالمثول فى البلاط[١٣] .

وحين ذاع فى باريس نبأ خروج الرجل الذى حدد الطابع الفكرى للقرن الثامن عشر من منفاه الطويل الأمد ، تحولت قاعة الأوتيل فيليت إلى بلاط وعرض حقيقيين . وقد قيل إنه فى ١١ فبراير زاره ثلاثمائة شخص ، منهم جلوك ، وبلتينى ، وطورجو ، وتالبران ، ومارمونتيل ، والسيدات نكير ، ودوبارى ، ودود فان . وأتى فرانكلن فى صحبة حفيد له فى السابعة عشرة ، طالباً بركة الشيخ الجليل عليه ، ورفع فولتير يديه فوق رأس الصبى ، وقال بالإنجليزية « يابنى ، الله والحرية ، تذكر هاتين الكلمتين »[١٤] . فلما استمر سيل الزوار يتدفق يوماً بعد يوم كتب الدكتور ترونشان إلى المركيز د فيليت يقول : « ان فولتير يعيش الآن على رأسماله لا على الفائدة ، وان تلبث عافيته أن تتبدد من جراء أسلوب عيشه هذا . ونشرت هذه الرسالة القصيرة فى « الجورنال دبارى » فى ١٩ فبراير ، لمنع الفضوليين فيما يبدو من الزيارة »[١٥] . أما فولتير نفسه فكان قد تنبأ فى فرنيه بما سيكلفه انتصاره : « سأموت بعد أربعة أيام ان كان على أن أحيا حياة أهل الدنيا »[١٦] .

وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو أصلحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية . وكان نصف راغب فى هذا الصلح ، لأنه كان عليماً بأن الذين ماتوا فى أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم فى أرض مقدسة ، وكل المقابر فى فرنسا كانت أرضها مقدسة . ومن ثم فقد رحب بخطاب ورد له فى ٢٠ فبراير من الأبيه جولتييه يطلب مقابلته . وجاء الأبيه فى اليوم الواحد والعشرين ، وتحدثا برهة ، دون نتيجة لاهوتيه معروفة . ثم رجت مدام دنى الأبيه أن ينصرف ، وقال له فولتير أن له أن يحضر ثانية . وفى اليوم الخامس والعشرين أصيب فولتير بنزيف شديد ،

فنفث الدم من فمه وأنفه حين سعل . وأمر سكرتيره بأن يستدعى جولتييه . ويقول فاجنيير معترفاً : « لقد أمسكت رسالتى لأننى كرهت أن يقال أن مسيو فولتير قد تخاذل ، فأكدت له أن الأبيه لم يمكن العثور عليه »[١٧] . وكان فاجنيير عليماً بأن الشكاك فى باريس يعللون أنفسهم بالأمل بأن فولتير لن يستسلم للكنيسة فى اللحظة الأخيرة ، ولعله سمع بنبوءة فردريك الأكبر ، « انه سيخزينا جميعاً »[١٨] .

وعاده ترونشان وأوقف النزيف ، ولكن فولتير ظل يبصق الدم فى الأيام الاثنين والعشرين التالية . وفى اليوم السادس عشر كتب إلى جولتييه يقول : « أرجو أن توافينى بأسرع ما تستطيع »[١٩] . وجاء جولتييه فى صباح الغد فوجد فولتير نائماً ، فانصرف . وفى اليوم الثامن والعشرين سلم فولتير فاجنيير اعترافاً بالإيمان نصه : « انى أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائى ، ولا أبغض أعدائى ، وأكره الاضطهاد »[٢٠]. وعاد جولتييه فى ٢ مارس ، وطلب فولتير الاعتراف على يديه ، وأجاب الأبيه بأن جان دترساك كاهن سان — سولبيس اشترط عليه أن يحصل على عدول عن آرائه قبل أن يستمع إلى الاعتراف . واعترض فاجنيير . وطلب فولتير قلماً وورقاً ، وكتب بخطه :

« أنا الموقع أدناه ، نظراً إلى إصابتى فى الشهور الأربعة الماضية بتقيؤ الدم ، ولما كنت عاجزاً وأنا فى الرابعة والثمانين عن جر نفسى إلى الكنيسة ، ولما كان كاهن سان سولبيس يريد أن يضيف إلى حسناته حسنة بإيفاد الأبيه جولتيير إلى ، فقد اعترفت على يديه ، (وأعلن) أنه إذا قبضنى الله إليه ، فإنى أموت على الدين الكاثوليكى الذى ولدت فيه ، مؤملا فى رحمة الله أن تغفر لى كل أخطائى ، وإذا كنت قد صدمت الكنيسة فى يوم ما ، فإنى أطلب المغفرة من الله ومنها . التوقيع ، فولتير ، فى الثانى من مارس ١٧٧٨ ، فى بيت المركيز فيليت[٢١] .

ووقع المسيو فييلفيل والأبيه منيو (ابن أخت لفولتير) الإقرار بوصفهما شاهدين . وحمله جولتييه إلى رئيس الأساقفة فى ضاحية كونفلانس وإلى

كاهن سان — سولبيس ، فأعلن كلاهما أنه غير كاف[٢٢] . ومع ذلك استعد جولتييه لمناولة القربان لفولتير ، ولكن فولتير اقترح تأجيل المناولة قائلا « أنني أبصق الدم فى سعالى باستمرار ، ويجب أن نحذر من اختلاط دمى بدم الآله الصالح »[٢٣] . ولسنا ندرى بأى روح قال هذه الكلمات — أبروح التقوى الصادقة أم بروح النزوة العارضة .

وفى ٣ مارس حضر ديدرو ، ودالامبير ، ومارمونتيل ، ليعودوا المريض . فلما جاءه جولتييه فى ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعتراف « أقل لبسا وأكثر تفصيلا » قيل له أن فولتير ليس فى حال تسمح له باستقباله . وعاد جولتييه عدة مرات ، ولكنه فى كل مرة كان يصرفه الحارس السويسرى الواقف بالباب . وفى ٤ مارس كتب فولتير إلى كاهن سان — سولبيس يعتذر لتعامله مع مرءوس له . وفى ١٣ مارس استقبل الكاهن ، ولكن يبدو أن الزيارة لم تسفر إلا عن تبادل المجاملات[٢٤] . ثم توقفت نوبات النزيف أثناء ذلك . . فشعر فولتير بأنه يستعيد عافيته ، وفترت تقواه .

وفى ١٦ مارس مثلت « ايرين » على مسرح التياتر — فرانسيه . وحضر الحفلة كل البلاط تقريباً بما فيهم الملكة . ولم تكن المسرحية مما يرقى إلى مستوى فولتير العادى ، ولكنها ظفرت مع ذلك بالثناء باعتبارها إنتاجاً رائعاً لرجل فى الرابعة والثمانين . أما فولتير الذى حالت شدة المرض بينه وبين حضور الحفلة فقد كان يحاط علماً باستجابة النظارة فصلا فصلا ، وفى اليوم السابع عشر جاءه وفد من الأكاديمية الفرنسية يحمل إليه تهنئتها . وفى ٢١ مارس شعر بأن فيه من العافية ما يسمح له بالخروج راكباً عربته ، فزار سوزان دلفرى ، مركيزة جوفرتيه ، التى كانت خليلته . قبل ثلاثة وستين عاما . وفى الثامن والعشرين زار طورجو .

وكان يوم ٣٠ مارس يومه الأغر . فقد ذهب بعد ظهره إلى اللوفر ليحضر اجتماعاً للأكاديمية . قال دنى فون فيزن ، وهو كاتب روسى كان يومها فى باريس « حين خرج راكباً عربته من بيته رافقها حتى الأكاديمية

حشد لا آخر له من الناس الذين لم يكفوا عن التصفيق . وخرج بجميع الأكاديميين للقائه »[٢٥] . ورحب دالامبير بمقـدمة بخطاب اغرورقت له عينا الشيخ . وأجلس فولتير فى كرسى الرياسة ، وانتخب وسط التصفيق رئيساً لمدورة أبريل الربعية . فلما انتهت الجلسة ودعوه حتى مركبته ، التى سارت من هناك بمشقة إلى التياتر — فرانسيه مخترقة حشداً ضخماً يردد الهتاف « يحيى فولتير » .

فلما دخل المسرح قام النظارة والممثلون جميعاً لتحيته . وشق طريقه إلى المقصورة التى كانت تنتظره فيها مدام دنى والمركيزة دفيايت . فجلس خلفهما ، ورجاه النظارة أن ييسر لهم رؤيته ، فاتخذ مقعداً بين السيدتين . وجاء ممثل إلى المقصورة ووضع إكليلا من الغار على هامة فولتير ، فرفعه ووضعه على رأس المركيزه ، ولكنها أصرت على أن يقبله . وارتفعت أصوات بين النظارة تهتف « مرحباً بفولتير ! » « مرحباً بسوفوكليس ! » « الأجلال للفيلسوف الذى يعلم الناس أن يفكروا ! » « المجد للمدافع عن كالاس ! »[٢٦] قال جريم ، وكان شاهد عيان ، « استمرت هذه الحماسة ، هذا الهذيان الشامل ، أكثر من عشرين دقيقة »[٢٧] . ثم عرضت « أيرين » للمرة السادسة . وفى ختام الحفلة طالب النظارة بكلمة من المؤلف ، فاستجاب فولتير . ورفع الستار ثانية ، وكان الممثلون قد أخذوا تمثالا نصفياً لفولتير من البهو ووضعوه على خشبة المسرح ، فكللوه الآن بالغار ، وقرأت مدام فستريس التى لعبت دور أيرين على فولتير أبياتاً فى مديحه :

أمام عيون باريس المفتونة بك
تقبل اليوم تحية إجلال
سوف تؤكدها الأجيال الصارمة
من عصر إلى عصر .
كلا ، فما من حاجة بك
إلى بلوغ الشاطىء المظلم

لتحظى بشرف الخلود .
فتقبل يافولتير التاج
الذى قدم إليك ،
فما أجمل أن تكون جديراً به
حين تكون فرنسا هى التى تقدمه[٢٨] .

وطلب النظارة إعادة الأبيات ، فأعيدت . وخلال التصفيق غادر فولتير كرسيه ، وأفسح له الجمع الطريق ، وقادوه إلى مركبته وسط جمهور يفيض حماسة . وجىء بالمشاعل ، وأقنعوا السائق بأن يبطىء السير بالمركبة ، وصاحبها جمع حتى الأوتيــل دفيليت[٢٩] . ان تاريخ الأدب الفرنسى بأسره لم يحوقط فيما نعلم مشهداً كهذا .

كتبت مدام فيجيه - لبرون التى شهدت هذا كله تقول : «كان الشيخ الذائع الصيت قد شف وهزل حتى لقد خشيت أن تؤذيه هذه العواطف الجياشة أذى مميتاً »[٣٠] .

ونصحه ترونشان بالعودة إلى فرنيه بأسرع ما يستطيع ، ولكن مدام دنى رجت خالها أن يجعل فى باريس مقامه الدائم . فوافقها بعد أن أسكرته حرارة استقباله . وامتدح شعب باريس لأنهم أكثر شعوب الأرض مرحاً ، وأدباً ، واستنارة ، وتسامحاً ، ولأن لهم أرفع الأذواق ؛ والملاهى ، والفنون[٣١] ، ونسى « الرعاع » لحظة ، وراح يجوب باريس فى مركبته باحثاً عن بيت يسكنه ، وفى ٢٧ أبريل اشترى بيتاً . واستشاط ترونشان غيظاً وقال « لقد رأيت حمقى كثيرين فى حياتى ، ولكن لم أر قط أكثر منه جنوناً . فهو يحسب أنه سيعمر مائة عام »[٣٢] .

وفى ٧ أبريل أخذ فولتير إلى محفل « الأخوات التسع » الماسونى فقبل عضواً دون أن يلزم باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة . وكلل رأسه بأكليل من الغار ، وألقى رئيس المحفل خطاباً قال فيه : « إننا نقسم بأن نساعد اخوتنا ، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحساناتك . . . لقد

كنت أيها الأخ المحبوب جداً ماسونيا قبل أن تنال الرتبة ، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها »[٣٣] . وفى اليوم الحادى عشر رد زيارة مدام دودفان فذهب لبراها فى شقتها بدير سان — جوزيف ، وتحسست وجهه بيديها المبصرتين . فلم تجد غير العظام ، ولكنها كتبت فى اليوم الثانى عشر إلى هوراس ولبول تقول : « انه يفيض حيوية كالعهد به دائماً . وهو فى الرابعة والثمانين ، والحق أننى أحسبه لن يموت أبدا . وهو يستمتع بجميع حواسه ، ولم تضعف منها واحدة . أنه مخلوق فذ ، وأسمى فى الحقيقة بكثير من سائر الخلق »[٣٤] . فلما سمع الراهبات بزيارته نددن بالمركيزة لتدنيسها ديرهن بحضور رجل أدانته الكنيسة والدولة جميعاً[٣٥] .

وفى ٢٧ أبريل ذهب إلى الأكاديمية مرة أخرى . ودارت المناقشة حول ترجمة الأبيه دليل لكتاب بوب « رسالة إلى الدكتور أريثنوت » ، وكان فولتير قد قرأ الأصل ، فهنأ الأبيه على ترجمته ، واغتنم الفرصة ليقترح مراجعة « قاموس » الأكاديمية اثراء للغة المعتمدة بمئات الألفاظ الجديدة التى شقت طريقها إلى الاستعمال المهذب . وفى ٧ مايو عاد إلى الأكاديمية بخطة للقاموس الجديد . وتطوع بأن يضطلع بجميع الألفاظ المبتدئة بالحرف أ ، واقترح أن يتكفل كل عضو بحرف ، وعند رفع الجلسة شكرهم « باسم الأبجدية » ، ورد المركيز رشاستلوكس « ونحن نشكرك باسم الآداب »[٣٦] . فى ذلك المساء حضر متنكراً حفلة تمثيل لمسرحيته « الزير » . وفى ختام الفصل الرابع صفق النظارة للممثل لاريف ، وشارك فولتير فى الأعراب عن استحسانه « آه ما أروع هذا الأداء ! » وتعرف عليه الجمهور ، فتجددت مظاهر الحماسة العارمة التى شهدها ٣٠ مارس مرة أخرى .

ولعله خيراً فعل بالاستمتاع بتلك الأسابيع الأخيرة من حياته على حساب صحته ، بدلا من الانزواء فى عقر داره وحيداً ليضيف إلى عمره بضعة أيام مؤلمة . وقد عكف بهمة عظيمة على خطته التى اقترحها لوضع قاموس جديد ، وأسرف فى تعاطى القهوة — فقد بلغ ما شربه من أقداحها فى اليوم أحياناً خمسة وعشرين — حتى لقد جفاه النوم ليلا . وساء حصره أثناء ذلك ، وبات التبول أشد إيلاماً وقصوراً ، وسرت إلى دمه العناصر السامة التى

كان يجب التخلص منها ، فأحدثت بولينا فى الدم . وأرسل له الدوق رشليو محلولاً من الأفيون أوصى به مسكناً ولكن فولتير أساء فهم الإرشادات فشرب قنينة كاملة منه مرة واحدة (١١ مايو) ، فأصابه هذيان دام ثمانى وأربعين ساعة ، وشوه الألم وجهه . واستدعى ترونشان ، فأعطاه ما خفف عنه بعض الشيء ، ولكن فولتير ظل عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يمسك طعاماً . والتمس أن يعيدوه إلى فرنيه ، ولكن أوان ذلك كان قد فات .

وفى ٣٠ مايو قدم الأبيه جولتييه وكاهن سان — سولبيس ، مستعدين لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان إيمانه بالاهوت المسيح . وزعمت قصة لم يؤيدها مصدر آخر ، وقد رواها كوندورسيه(٣٧) ، أن فولتير صاح « بالله لاتكلمونى عن ذلك الإنسان ! »

أما لا هارب فروى أن جواب فولتير كان « دعونى أمت فى سلام » . أما دنواريستير فقد قبل الرواية العادية : وهى أن الكاهنين وجدا فولتير محموماً يهذى . فانصرفا دون أن يناولاه القربان (٣٨) . وزعم ترونشان أن ساعات احتضار الفيلسوف اتسمت بالعذاب الشديد وبصيحات الغضب الشديد(٣٩) . ثم هدأت نأمته أخيراً فى الحادية عشرة من تلك الليلة .

ووضع الأبيه منيو جثمان خاله قائماً فى مركبة ، وكان قد توقع أن دفنه فى مقبرة باريسية سيرفض ، وانطلق بها ١١٠ ميلا إلى دير سكلير فى قرية رومييى — على — السين هناك قام كاهن محلى بمراسم الصلاة التقليدية على الجثمان ورتل قداساً مطولا فوقه ، وسمح بدفنه فى قبو الكنيسة .

وحظر أمر من لويس السادس عشر على الصحف نشر نبأ موت فولتير (٤٠) ، وطلبت الأكاديمية الفرنسية إلى الرهبان الفرنسسكان إقامة قداس على روح الميت ، ولكن لم يمكن الحصول على إذن بذلك . ورتب فردريك الأكبر ، تحية من شاك إلى شاك ، أن يقام قداس على روح فولتير فى كنيسة كاثوليكية ببرلين . ونظم تأبيناً حاراً لصديقه وعدوه ، قرىء على أكاديمية برلين فى ٢٦ نوفمبر ١٧٧٨ . وكتبت كاترين الكبرى لجريم تقول :

« فقدت رجلين لم أرهما قط ، أحبانى ، وبجملتهما — فولتير والاورد شاتام . وسيظل القوم زمناً طويلا جداً ، وربما إلى الأبد ، يفتقدون من يعدلانهما ، ولن يجدوا أبداً من يفوقانهما — خصوصاً أول الرجلين . منذ أسابيع كرم فولتير علانية ، والآن لا يجرءون على دفنه . يا له من رجل ! أعظم رجل فى أمته ، لم لم تأخذ جثمانه باسمى ؟ كان ينبغى أن ترساه إلى محنطاً . . . وكان سيحظى بأفخم مثوى . . . اشترى مكتبته وأوراقه بما فيها رسائله إن أمكن . وسأدفع لورثته ثمناً مجزياً »(٤١) .

وتلقت مدام دنى ١٣٥,٠٠٠ جنيه نظير المكتبة التى نقلت إلى أرميتاج سانت بطرسبرج .

وفى يوليو ١٧٩١ ، وبأمر الجمعية التأسيسية للثورة ، نقل رفات فولتير من دير سكلييير إلى باريس ، وطافوا به المدينة فى موكب نصر ، ثم وورى فى كنيسة سانت جنفييف (التى ستسمى بعد قليل بالبانثيون) . فى ذلك العام أطلق على الكى دى تياتان رسمياً اسم جديد هو الكى د فولتير . وفى مايو ١٨١٤ خلال عودة الملكية البوربونية ، نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات فولتير وروسو من البانثيون خفية ، وأودعته غرارة ودفنته فى مقلب بأطراف باريس . ولم يعثر للرفات بعد ذلك على أثر .

جـ — تأثير فولتير

انه يبدأ بلحظات العداء للاكليروس فى « أوديب » (١٧١٨) ، وهو تأثير فعال اليوم على نطاق عالمى تقريباً . وقد رأينا هذا التأثير يحرك الملوك : فردريك الثانى ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى ، وجوستاف الثالث ، وبدرجة أقل شارل الثالث ملك أسبانيا من خلال أراندا ، وجوزف الثانى ملك البرتغال من خلال بومبال . ولم يعد له فى العالم الفكرى فى المائتى السنة الأخيرة غير تأثير روسو وداروين .

وبينا كان تأثير روسو الأخلاقى ينحو إلى الحنان ، والعاطفة ، وإعادة الحياة الأسرية والوفاء الزوجى ، كان تأثير فولتير الأخلاقى ينحو إلى

الإنسانية والعدالة ، وإلى تطهير القانون والعادات الفرنسية من المفاسد القانونية وألوان القسوة البربرية ، فلقد حفز فولتير أكثر من أى فرد آخر تلك الحركة الإنسانية التى أصبحت من مفاخر القرن التاسع عشر . ولا حاجة بنا أن أردنا الإحساس بتأثير فولتير فى الأدب إلا لتذكر فيلاند ، وكلجرين ، وجوته ، وبايرون ، وشلى ، وهينى ، وجوتييه ، ورينان ، وأناطول فرانس . ولولا فولتير لاستحال ظهور جبون ؛ ويعترف المؤرخون بقيادته وإلهامه فى التقليل من التركيز على جرائم الناس والحكومات وزيادة الاهتمام بتنميته المعرفة ، والأخلاق ، والسلوك ، والأدب ، والفن .

وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الارستقراطية بحقوقها الإقطاعية . ولكن تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ طغى عليه تأثير روسو . فقد بدا فولتير شديد المحافظة ، شديد الازدراء لجماهير الشعب ، شديد الاتسام بطابع السادة الإقطاعيين ؛ وقد رفضه روبسبير ، وظل « العقد الاجتماعى » سنتين انجيلا للثورة . أما بونابرت فأحس التأثيرين فى تعاقبهما العادى . قال متذكراً تلك الحقبة «كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعاً عن روسو ، أما اليوم فقد انعكس موقفى . . فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفاً به . فهو رجل معقول دائماً ، لا بالمهرج ولا بالمتعصب أبداً »[٤٢]. وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد . وقد صدرت بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٩ أثنتا عشرة طبعة من مجموعة أعماله . فى تلك السنوات الإثنتى عشرة بيع من كتب فولتير نيف وثلاثة ملايين مجلد[٤٣] . ثم أسلمت الحرب الشيوعية التى تزعمها ماركس وانجلتره القيادة مرة أخرى لروسو . ويمكن القول بوجه عام أن الحركات الثورية منذ ١٨٤٨ تبعت روسو أكثر من فولتير فى السياسة ، وتبعت فولتير أكثر من روسو فى الدين .

وكان أعمق تأثير لفولتير وأبقاه على الزمن تأثيره على الإيمان الدينى . فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى ،

وانتقلت رأساً من النهضة إلى التنوير ، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التي رافق التغيير ، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستينية . وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة التنوير فى جملتها كانت إصلاحاً أعمق من ذلك الذى أحدثه لوثر وكلفن ، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط ، بل تحدت صميم أسس المسيحية ، لا بل كل العقائدفوق الطبيعية . وقد جمع فولتير فى صوت واحد كل ضروب الفكر المناهض للكاثوليكية ، وأضفى عليها مزيداً من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفة الروح ، حتى لقد بدا حيناً كأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه . وقد حركت جماعة الفلاسفة الطبقات المفكرة فى العالم المسيحى كله صوب ربوبية مهذبة أو إلحادمستتر . وتأثير جيل جوته من الشباب فى ألمانيا بفولتير تأثراً عميقاً وذهب جوته إلى أن « فولتير سيعد دائماً أعظم رجل فى أدب العصور الجديد، بل ربما جميع العصور »(٤٤) . وفى انجلتره أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير — جودوين ، وبين ، وماري وولستونكرافت ، وبنتام ، وبايرون ، وشلى ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن الربوبية الانجليزية سبقته فقللت من حدة تأثيره ، ثم إن السادة الانجليز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين يهب مثل هذا العزاء المهدىء للطبقات الأضعف والجنس الأضعف . أما فى أمريكا فإن الآباء المؤسسين كانوا كلهم تقريباً تلاميذ لفولتير . وهنالك وفى انجلتره غطى تأثير داروين والبيولوجيا الحديثة على تأثير فولتير فى إضعاف الإيمان الدينى ؛ وفى عصرنا هذا يعانى اللاهوت المسيحى أكثر ما يعانى من وحشية حروبنا التى لانظير لها ، واقتحامات العلوم الظافرة التى تغزو تلك السماوات التى كانت يوماً ما مسكن الآلهة والقديسين .

ونحن مدينون لفولتير أكثر من أى إنسان آخر بذلك التسامح الدينى الذى يسود الآن أوربا وأمريكا الشمالية سيادة فلقة . ولقد رأى فيه أهل باريس لا مؤلف الكتب الفاصلة بين جيلين ، بل المدافع عن كالاس وسرفان . ولم تجرؤ محكمة فى أوربا بعده على تحطيم جسد رجل على دولاب التعذيب لتهم وأدلة كتلك التى أدانت جان كالاس . صحيح أن كتباً مثل

« أميل » ظلت تحظر وتحرق ، ولكن رمادها أعان على بث أفكارها ، وتقلصت الرقابة الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الإقرار بالهزيمة فى صمت . وإذا اضطر أبناؤنا يوماً ما إلى خوض معركة تحرير الفكر من جديد ، وهو أمر يبدو جائزاً ، فليلتمسوا الإلهام والتشجيع فى كتب فولتير التسعة والتسعين . ولن يجدوا فيها صفحة واحدة تبعث على الملل .

٢ — خاتمة روسو : ١٧٦٧ — ٧٨

أ — الروح المعذب

حين وصل روسو إلى فرنسا فى ٢٢ مايو ١٧٦٧ بعد مقامه التعس فى انجلترة ، وبعد أن أشرف على الجنون ، وجد بعض العزاء فى الترحيب الذى لقيه من المدن التى اجتاز بها هو وتريز . ومع أنه سافر متخفياً تحت اسم جان — جوزف رينو ، وكان لا يزال من الناحية القانونية خاضعاً للحظر الذى صدر ضده فى ١٧٦٢ ، إلا أن القوم تبينوه وكرموه ، واستقبلته أميان استقبال الظافرين ، وأرسلت له مدن أخرى « نبيذ المدينة » .

وعرض عليه كثير من الفرنسيين — وكلهم من النبلاء — بيتاً يقيم فيه . أولهم ميرابو الأب ، الذى خيره بين عشرين ضيعة ، فاختار روسو فلورى — سو — مودون ، القريبة من باريس . ولكن المركيز ألح عليه إلحاحاً مزعجاً ليقرأ كتبه ، فهرب روسو ، ولجأ إلى لوى — فرانسوا البوربونى ، أمير كونتى ، فى ترييه — لو — شاتو ، القريبة من جيزور (٢١ يونيو ١٧٦٧) . ووضع الأمير القلعة بأسرها تحت تصرف جان — جاك ، بل إنه أوفد الموسيقيين ليشنفوا أذنيه بالموسيقى الهادئة ؛ وفسر روسو هذا بأنه اتهام له بالجنون ، وخامره الظن بأن شوازيل والكونتيسة بوفليه (خليلة الأمير) انضما إلى فولتير ، وديدرو ، وجريم ، فى التآمر عليه ؛ والواقع أن فولتير كان قد اتهمه بإشعال النار فى المسرح بجنيف ، الذى احترق وأصبح أنقاضاً فى ٢٩ يناير ١٧٦٨[٤٥] . واعتقد روسو أن كل من فى جيزور ينظر إليه كأنه مجرم . وتاق إلى العودة لجنيف ، وكتب إلى شوازيل يرجوه إقناع مجلس جنيف بأن يكفر لروسو عن الإساءات الماضية التى ألحقها به[٤٦] .

وأرسل إليه شوازيل تصريحاً رسمياً بالسفر إلى أى بقعة يريدها فى فرنسا ، وبأن يبرحها ويعود إليها متى شاء[٤٧] . وخطر لروسو الآن أن يعود إلى انجلتره ، فكتب إلى ديفنبورت يسأله أن كان يسمح له بأن يشغل ثانية بيت ووتن ، وأجاب ديفنبورت بأنه يسمح بكل تأكيد .

ثم هرب روسو من ترى فى يونيو ١٧٦٨ خوفاً على حياته فيها . وترك تريز فى القصر الريفى ضماناً لسلامتها . واستقل مركبة عامة إلى ليون ، وأقام حينا مع أقرباء دانيل روجن الذى كان قد وفر له الملجأ فى ١٧٦٢ فى سويسرة . على أنه ما لبث أن اعتزل فى فندق الجولدن فونتن فى بورجوان — أن — دوفينه . وعلى باب حجرته كتب قائمة بالأشخاص الذين يعتقد أنهم يأتمرون به . ثم أرسل فى طلب تريز ، واستقبلها بالفرح والدموع ، وقرر آخر الأمر أن يتزوجها . وقد تم هذا القران فى حفل مدنى بالفندق فى ٣٠ أغسطس ١٧٦٨ .

وفى يناير ١٧٦٩ انتقلا إلى بيت بمزرعة فى موكان ، قرب جربنوبل . وهناك كتب آخر صفحات ، « الاعترافات » ، وهى صفحات نصف مجنونة ، وراح يهدىء أعصابه بدراسة علم النبات . ووجدت تريز أن طبعه يزداد حدة ، وكانت هى ذاتها تعانى من الروماتزم والأوصاب الغامضة التى تصاحب أحياناً « تغيير المعيشة » . وتشاجر الزوجان الحديثان مشاجرة بلغ من شدتها أن حملت روسو على الرحيل فى رحلة طويلة لجمع النبات ودراسته بعد أن ترك لها خطاباً ينصحها بدخول الدير (١٢ أغسطس ١٧٦٩)[٤٨]. فلما عاد ووجدها تنتظره تجدد حبهما . وندم الآن على أنه تخلص من أطفالها . وأحس « أن الرجل الذى يستطيع تربية أولاده تحت بصره رجل سعيد جـداً[٤٩] » . وكتب إلى أم شابة يقول : إن أجمل أسلوب فى الحياة يمكن أن يوجد هو أسلوب الأسرة . . فما من شىء يندمج معنا بأشد وأثبت من أسرتنا وأبنائنا . . . ولكن أنا الذى يتكلم على الأسرة والأبناء — . . . سيدتى ، ارثى لأولئك الذين يحرمهم قدرهم القاسى من هذه السعادة ، ارثى لهم إن كانوا عاثرى الحظ فقط ، ومزيداً من الرثاء لهم إن كانوا مذنبين ! »[٥١] .

وكان الشتاء الذى قضته الأسرة فى موكان شاقاً فى بيت ريفى يقع فى مهب الرياح كلها . والتمست تريز منه الرحيل إلى باريس . وهكذا استأنف الزوجان أسفارهما الطويلة فى ١٠ أبريل ١٧٧٠ وأنفقنا شهراً لطيفاً فى ليون ، حيث مثلت أوبريت روسو عراف القرية ، جزءا من احتفال أقيم تكريماً له . ثم سافرا فى مراحل بطيئة مخترقين ديجون ، ومونبار ، وأوجزيز ثم بلغا باريس فى خاتمة المطاف فى ٢٤ يونيو ١٧٧٠ . وأقاما فى الطابق الرابع من نزله القديم فى الأوتيل سانت اسبرى ، بشارع بلاتريير — واسمه الآن شارع جان — جاك روسو فى حى من أشد أحياء المدينة ضجيجاً .

وعاش عيشة متواضعة هادئة ، يتكسب بنسخ الموسيقى ويدرس علم النبات . وكتب الآن (٢١ سبتمبر ١٧٧١) إلى لينايوس رسالة يعرب فيها عن إجلاله[٥١] . فلما ذاع أنه يقيم فى باريس خف لزيارته قدامى الأصدقاء ومريدوه الجدد : الأمير لين (الذى عرض عليه بيتاً فى ضيعته قرب بروكسل) ، وجريترى ، وجلوك (الذى جاء ليناقش الموسيقى معه) . والمسرح جولدونى ، والمغنية صوفى أرنو ، وجوستاف ولى عهد السويد ، وشباب المؤلفين أمثال جان — جوزف دوزو ، وجاك — هنرى برناردان دسان — بيير . وفى ١٧٧٧ نال ما اشتهاه فولتير ولم ينله — وهو زيارة من الإمبراطور يوزف الثانى[٥٢] . ورد إليه تصريح الدخول إلى دار الأوبرا مجاناً ، فكان يختلف إليها من حين لحين ، ليسمع جلوك على الأخص . ووصفه برناردان دسان — بيير فى هذه الحقبة (وكان الآن فى الستين) بأنه رقيق البدن ، متناسب الأعضاء ، وله « جبين عال ، وعينان متقدتان . وفى غضون الجبين حزن عميق ، ومرح حاد بل كاو »[٥٣] .

وقد استفزه للعودة إلى القلم — رغم وعده عام ١٧٦٢ بالكف عن التأليف — اتصال هجوم أعدائه عليه . وكان فى سبيل الرد عليهم ، وعلى كل ما دار حوله من شائعات معادية فى باريس وجنيف ، قد اضطلع بكتابه « الاعترافات » (١٧٦٥) ومن ثم أتم الكتاب الآن (نوفمبر ١٧٧٠) ، ومع أن روسو كان حتى ذلك الحين عازفاً عن نشره كاملا ، إلا أنه صمم على أن تطلع باريس على أجزائه المتصلة بهذه الهجمات . وهكذا قرأ فى

ديسمبر على مسامع دوزو وغيره ، فى حجرته ، فقرات طويلة من أعظم كتاب ألفه ، واستمرت القراءة سبع عشرة ساعة قطعتها وجبتان خفيفتان عاجلتان(٥٤) . وفى مايو ١٧٧١ قام بتلاوة أخرى أمام الكونت والكونتيسه أجمون ، والأمير بيناتللى أجمون ، والمركيزه دهيم ، والمركيز جوينيه . واختتم بتحد من نار :

« لقد كتبت الحقيقة . فإذا سمع أى شخص أشياء مناقضة لما قررته الآن ، حتى إذا أثبتت ألف مرة ، فهو لم يسمع سوى تشهير وافتراء ، وإذا رفض بتاتاً أن يمحصها ويراجعها معى وأنا حى فهو ليس صديقاً للعدالة أو الحق . أما عن نفسى فإنى أعلنها صريحة دون أدنى خوف أن كل من دقق النظر فى بعينيه — طبعى ، وخلقى ، وسلوكى ، وميولى ، ولذاتى ، وعاداتى — حتى بغير قراءة كتبى ، ثم حكم على بأننى رجل غير شريف إنما يستحق أن يشنق »(٥٥).

والذين استمعوا إليه استنتجوا من شدة انفعاله أن عقله يوشك أن يختلط . وقال دوزو أن شكوك روسو واتهاماته لاتليق « بجان جاك الرجل السمح الفاضل » ، فكان هذا النقد نهاية صداقتهما(٥٦) . وحمل غيره من المستمعين أصداء هذه القراءات إلى صالونات باريس ، وأحس بعض ذوى النفوس الحساسة أن روسو قد افترى عليهم . وكتبت مدام ديبنيه إلى مفتش عام الشرطة تقول :

« يجب أن أحيطك علماً مرة أخرى بأن الشخص الذى حدثتك عنه صباح أمس قد قرأ كتابه على السادة دورا ، ويبزيه ، ودوزو . ومادام يستخدم هؤلاء الرجال ليأتمنهم على القذف والتشهير فإن لك الحق فى أن تحيطه برأيك فى هذا الأمر . ويخيل إلى أنه ينبغى أن تكلمه بما يكفى من التلطف حتى لا يشكو ، ولكن بحزم يثنيه عن العودة إلى خطئه . فإذا حصلت على كلمة شرف منه فإنى أعتقد أنه لن يحنث بها . معذرة ألف مرة ، ولكن سلامى النفسى كان فى خطر »(٥٧) .

وطلبت الشرطة إلى روسو أن يكف عن قراءاته ، فوافق ، وخلص إلى أنه لم يستطع قط أن يظفر بالاستماع المنصف إليه فى حياته ، وأعان

شعور الأحباط هذا على اختلاط عقله . وبعد عام ١٧٧٢ أغلق بابه دون الزوار كافة تقريباً عدا برنار دان دسان — بيير . وكان فى جولاته منفرداً يخامره الظن بأن كل من يمر به تقريباً عدو له . وفيما عدا أشباح العداء هذه فإنه احتفظ بطبيعته الطيبة الأصيلة . فاكتتب رغم مقاومة فولتير فى المال المجموع لإقامة تمثال له . وحين أرسل إليه أحد الآباء الروحيين كراسة تندد بفولتير وبخ الكاتب قائلا : « لاريب فى أن فولتير رجل ردىء وليس فى نيتى أن أثنى عليه ، ولكنه قال وفعل أشياء طيبة كثيرة جداً بحيث ينبغى أن نرخى الستار على أخطائه »(٥٨) .

وحين كان يصرف فكره عن « المؤامرة » التى يتخيلها من حوله ، كان فى استطاعته أن يكتب بوضوح كالعهد به من قبل ، وبروح مدهشة من المحافظة والواقعية وقد رأينا كيف التمس المؤتمر البولندى المنعقد عام ١٧٦٩ اقتراحاته بشأن دستور جديد . وقد بدأ كتابه « آراء حول حكومة بولنده » فى أكتوبر ١٧٧١ ، وانتهى منه فى أبريل ١٧٧٢ . وأول انطباعاتنا عنه أنه يخرق جميع المبادىء التى دافع عنها من قبل دفاعاً مشبوباً . فإذا اعدنا قراءته فى شيخوختنا كان عزاء لنا أن نرى أن روسو (وقد بلغ الستين) يمكن أن يشيخ هو أيضاً ، وأن ينضج — كما يحب الشيوخ أن يقولوا . فالرجل الذى صرخ قائلا « ولد الإنسان حراً ، وهو فى كل مكان يرسف فى الأغلال » هذا الرجل بعينه نبه الآن البولنديين ، الذين حكم عليهم « حق النقض المطلق » بالفوضى ، إلى أن الحرية امتحان عسير كما أنها عطية إلهية ، وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيراً من طاعة الأوامر الخارجية . قال :

« إن الحرية طعام قوى ، ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين . . انى أضحك من تلك الشعوب المنحطة التى تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس ، والتى تجرؤ على التحدث عن الحرية وهى تجهل كل الجهل ما تعنيه ، والتى تتصور أنه لكى يتحرر الإنسان يكفى أن يكون ثائراً متمرداً . أيتها الحرية المقدسة السامية ! ليت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة ، ليتهم يتعلمون أى

ثمن يبذل للظفر بك ولصيانتك ، وليت فى الإمكان تعليمهم ان قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل ! »(٥٩) .

لقد علمت الحياة ومونتسكيو روسو أن مناقشات مثل « عقده الاجتماعى» إنما هى أحلام تهوم فى الفراغ ونظريات مجردة لا ترتكز على الواقع . لذلك سلم الآن بأن جميع الدول تضرب جذورها فى التاريخ والظروف ، وأن مصيرها الفناء ان هى قطعت جذورها دون تمييز . ومن ثم فقد نصح البولنديين بألا يدخلوا تغييرات فجائية على دستورهم ، وبأن يحتفظوا بملكهم المنتخب على أن يقيدوا حق النقض المطلق ، وبالكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة مع تطوير نظام تعليمى يستقل عن الكنيسة(٦٠) . وقد بدت له بولنده بحال مواصلاتها ووسائل نقلها الراهنة أوسع من أن تحكم من مركز واحد ، فمن الخير إذن تقسيمها إلى ثلاث دول تتحد فقط فى الاتصالات المشتركة والشئون الخارجية . ومن عجب أن الرجل الذى ندد من قبل بالملكية الخاصة أصلا لكل الشرور ، كرس الآن الإقطاعية البولندية ، واقترح فرض الضرائب على جميع الأراضى ، على أن تترك حقوق الملكية الراهنة دون مساس بها . ثم أعرب عن أمله فى أن تلغى القنية يوماً ما ، ولكنه لم يدع إلى انهائها فى وقت قريب ، فهذا فى رأيه يجب أن يؤجل إلى أن يتاح للقن مزيد من التعليم . وقد أكد أن كل شىء رهن بنشر التعليم ، وتعزيز الحرية بأسرع من تعزيز الذكاء والأخلاق معناه فتح الباب على مصراعيه للفوضى وتقسيم البلاد .

غير أن التقسيم تم قبل أن يتمكن روسو من انهاء مقاله . فالسياسة العملية تجاهلت تشريعه الفلسفى فى بولنده كما تجاهلته فى كورسيكا . وقد شارك هذا الأحباط المزدوج فى تكدير سنيه الأخيره ، وزاد من حدة احتقاره لجماعة الفلاسفة الذين أثنوا من قبل على أولئك الحكام — فردريك الثانى ، وكاترين الثانية ، ويوزف الثانى — الذين يقطعون الآن أوصال بولنده ، وامتدحوهم باعتبارهم حكاماً مستبدين مستنيرين وملوكاً فلاسفة .

وفى ١٧٧٢ بدأ محاولة أخرى للرد على خصومه وسمى الكتاب « حوارات :

روسو يحاكم جان — جاك». وقد عكف على هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته ٤٥٠ فترات متقطعة على مدى سنين أربع ، وكان الظلام يغشى عقله أكثر فأكثر كلما مضى فيه . وقد رجت المقدمة القارىء أن يقرأ الحوارات الثلاثة قراءة دقيقة شاملة ، « انظر إلى هذا التفضل الذي يطلبه منك قلب أثقله الحزن على أنه دين انصاف تفرضه السماء عليك »[٦١] . وقد اعترف بما يشوب الكتاب من « إسهاب مفرط وتكرار ، وحشو ، وفوضى »[٦٥] ، غير أن مؤامرة اتصلت خمسة عشر عاماً — فيما زعم — للنيل من سمعته ، ولا بد أن يبرىء نفسه قبل أن يموت . وقد نفى وجود أي تضارب بين فردية « الأحاديث » وجماعية » العقد الاجتماعي » ، وذكر قراءه أنه لم يرغب قط في أن يقضي على العلوم والفنون ويرتد إلى الهمجية . ووصف مؤلفاته — لا سيما « جولي » و « أميل » — بأنها غنية في الفضيلة والحنان ، وتساءل كيف يمكن أن يؤلف مثل هذه الكتب فاسق أنهكه المرض كما صوره المنتقصون من قدره[٦٣] . واتهم أعداءه بأنهم أحرقوا دمية تصوره ، وبأنهم ألفوا السرينادات عنه للهزء به[٦٤] وشكا من أنهم ، حتى الآن ، يراقبون كل زواره ويحرضون جيرانه على إهانته[٦٥] . ثم كرر قصة ميلاده ، وأسرته ، وصباه ، ووصف رقة خلقه ونزاهته ، ولكنه اعترف بما فيه من كسل ، و « ميل إلى أحلام اليقظة »[٦٦] ، ونزوع إلى أن يخلق في جولاته منفرداً عالماً وهمياً يستطيع أن يسعد فيه ولو للحظة . وعزى نفسه بهذه النبوءة « أنا واثق من أنه سيأتي يوم يبارك فيه الناس الطيبون الشرفاء ذكراي ويبكون على مصيري »[٦٧] .

ثم أضاف إلى الحوار الأخير فصلا عنوانه « تاريخ هذا الكتاب » ذكر فيه كيف أنه لكي يلفت نظر باريس وفرساي لكتابه اعتزم أن يودع نسخة من المخطوط ، موجهة إلى العناية الإلهية ، على المذبح الأعلى في كتدرائية نوتردام . وقد حاول هذا في ٢٤ فبراير ١٧٧٦ ، فلما وجد المذبح مسدوداً بدرابزين ، حاول الدخول إليه من جانبيه ، فلما وجدهما مقفلين أصابه دوار ، وخرج عدواً من الكنيسة ، وراح يضرب على غير هدى ساعات

فى الشوارع فى شبه هذيان قبل أن يبلغ مسكنه »[٦٨]. ثم كتب نداء للشعب الفرنسى عنوانه « إلى جميع الفرنسيين الذين ما زالوا يعشقون العدل والحق » ونسخ صوراً منه على إعلانات وزعها على المارة فى الشوارع . وقد رفضه العديد منهم قائلين أنه ليس موجهاً إليهم [٦٩] . فأقلع عن محاولاته ، واستسلم للهزيمة .

وهدأت الآن ثائرته بعد أن راض نفسه على الإذعان . وكتب فى هذه الفترة (١٧٧٧ — ٧٨) أجمل كتبه « أحلام جواب منفرد » فروى كيف أن أهل موتييه رفضوه وحصبوا بيته ، وكيف اعتكف فى الأيل دسان تبيير فى بحيرة بيين . وهناك وجد السعادة ، ثم راح — بعد أن استرجع ذكرى تلك الخلوة — يصور المياه الهادئة ، والجداول المتدفقة ، والجزيرة تغطيها الخضرة ، والسماء الكثيرة الصور والأشكال . وقد عزف على نغمة رومانسية جديدة بالماعه إلى أن الروح المتأملة قد تجد دائماً فى الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها . ونحن نسأل أنفسنا حين نقرأ تلك الصفحات ، أيستطيع رجل نصف مجنون أن يكتب بهذا الإتقان ، وبهذا الوضوح ، وأحياناً بهذا الهدوء والصفاء ؟ ولكن الشكاوى القديمة تعود إلى الظهور ، وينوح روسو من جديد لأنه نبذ أطفاله ، وأنه لم يؤت الشجاعة البسيطة التى تمكنه من تربية أبنائه . وقد رأى طفلا يلعب ، فعاد إلى حجرته و « بكى وكفر عن ذنبه »[٧٠] .

فى تلك السنين الأخيرة التى قضاها فى باريس كان ينظر بعين الحسد إلى ذلك الإيمان الدينى الذى سما بحياة العامة من الناس المحيطين به إلى مسرحية من الموت والبعث . وكان أحياناً يختلف إلى خدمات الصلاة الكاثوليكية . وقد زار ديراً مع برناردان دسان — بيير ، وسمع الرهبان يتلون ابتهالا فقال « آه ؛ ما أسعد الإنسان الذى يستطيع أن يؤمن »[٧١] . إنه لم يستطع أن يؤمن [٧٢] ، ولكنه حاول أن يسلك كمسيحى ، يتصدق ، ويفتقد المرضى ويواسيهم[٧٣] . وقد قرأ وكتب حواشى على كتاب توماس أكمبيس « الاقتداء بالمسيح » .

ثم خف إحساسه بالمرارة فى نفسه بدنو أجله . وحين وصل فولتير

إلى باريس فانهالت عليه أسباب التكريم ، شعر روسو بالغيرة منه ولكنه تكلم بخير عن عدوه القديم . ووبخ أحد معارفه الذى سخر من تتويج فولتير فى التياتر — فرانسيه فقال : « كيف تجرؤ على السخرية من التكريم الذى بذل لفولتير فى الهيكل الذى هو ربه ، وبيد الكهان الذين ظلوا خمسين سنة يعيشون على روائعه ؟ »[٧٤]. ولما سمع بأن فولتير يحتضر قال متنبئاً « كانت حياتانا مرتبطتين الواحدة بالأخرى ، ولن يطول عمرى بعده »[٧٥].

وحين بدأ ربيع ١٧٧٨ يزهر طلب بيتاً فى الريف ، فدعاه المركيز رينيه دجيراردان ليسكن كوخاً على مقربة من قصره الريفى فى ارمينونفيل ، على نحو ثلاثين ميلا من باريس . وذهب إليه جان — جاك وتريز فى ٢٠ مايو ، وهناك راح يجمع العينات النباتية ويعلم النبات لابن المركيز البالغ من العمر عشر سنين . وفى أول يوليو تعشى بشهية مع أسرة مضيفه . وفى صباح الغد أصيب بالنقطة ووقع على الأرض . فرفعته تريز إلى فراشه ، ولكنه وقع منه ، واصطدم بالأرض المبلطة صدمة حادة أحدثت قطعاً فى رأسه تدفق منه الدم ، وصرخت تريز مستغيثة ، فحضر المركيز ، ووجد أن روسو قد فاضت روحه .

ولا حقته الافتراءات إلى النهاية . فأذاع جريم وغيره القصة التى زعمت أن روسوا انتحر . وأضافت مدام دستال فيما بعد أنه قتل نفسه حزناً حين اكتشف خيانة تريز . وفاقت هذه القصة غيرها قسوة ، لأن تعقيب تريز عقب موته بقليل كشف عن حبها له . قالت « إن لم يكن زوجى قديساً فمن يستطيع أن يكون ؟ » ووصف غير ذلك من الشائعات روسو بأنه مات مجنوناً ، ولكن كل الذين كانوا معه فى أيامه الأخيرة تلك وصفوه بالهدوء والصفاء .

وفى ٤ يوليو ١٧٧٨ ووري الثرى فى جزيرة الحور فى بركة صغيرة على ضيعة جيراردان . وظلت جزيرة الحور هذه طويلا كعبة يحج إليها الأتقياء ، فأمها المجتمع العصرى كله — حتى الملكة — للصلاة على قبر روسو . وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ نقل رفاته إلى البانثيون حيث ثوى إلى جوار رفات فولتير .

ومن ذلك المرفأ الذى نعما فيه بسلام الجوار نهضت روحاهما لتجددا حربهما فى سبيل الثورة ، وفرنسا ، والإنسان الغربى .

ب — تأثير روسو

وهكذا ننتهى كما بدأنا بالتأمل المعزز بالدليل الآن ، فى ذلك الأثر الذى لايصدق ، والذى خلفه روسو فى أدب القرن الذى بدأ بموته ، وفى بيداجوجيته وفلسفته ، ودينه ، وأخلاقه ، وعاداته ، وفنه ، وسياسته . والكثير مما كتب يبدو اليوم أن فيه غلواً ، أو إسرافاً فى العاطفة ، أو سخفاً ، و«الاعترافات» و «أحلام اليقظة» فقط هما اللذان يحركان مشاعرنا ، ولكن حتى الأمس كانت كل كلمة من كلماته تسمع فى ميدان أو آخر من ميادين الفكر الأوربى أو الأمريكى . إن روسو كما قالت مدام دستال «لم يخترع شيئاً ، ولكنه أشعل النار فى كل شىء»(٧٦) .

فأول شىء بالطبع هو أنه كان بمكانة الأم من الحركة الرومانتيكية . وقد رأينا غيره كثيرين يبذرون بذرتها . «طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ورتشردسن ، وبريفو ، والمسيحية ذاتها ، التى يعد لاهوتها وفنها أعجب ضروب الرومانس قاطبة . ولكن روسو أنضج البذار فى مستنبت عواطفه الدافىء . وأسلم لنا الثمرة مكتملة النمو خصبة منذ مولدها ، فى «الأحاديث» و «العقد الاجتماعى» و «اميل» و «الاعترافات» .

ولكن ما الذى سنعنيه بالحركة الرومانتيكية ؟ تمرد الوجدان على الفكر ، والغريزة على العقل ، والعاطفة على الحكم ، والذات على الموضوع ، والنزعة الذاتية على الموضوعية ، والوحدة على التجمع ، والخيال على الواقع ، والخرافة والأسطورة على التاريخ ، والدين على العلم ، والتصوف على الشعائر ، والشعر والنثر الشعرى على النثر والشعر النثرى ، والفن القوطى المحدث على الكلاسيكى المحدث ، والأنثوى على الرجولى ، والحب الرومانسى على زواج المصلحة ، و «الطبيعة» و «الطبيعى» على المدنية والتكلف ، والتعبير العاطفى على الضوابط العرفية ، والحرية الفردية على النظام الاجتماعى ، وتمرد الشباب على السلطة ، والديمقراطية على الأرستقراطية ، والإنسان فى

مواجهة الدولة — وباختصار ، تمرد القرن التاسع عشر على الثامن عشر ، أو بعبارة أكثر تحديداً ، الفترة ١٧٦٠ — ١٨٥٩ على ١٦٤٨ — ١٧٦٠ : هذه كلها أمواج للمد الرومانتيكى العظيم الذى اكتسح أوربا فيما بين روسو وداروين .

ولقد وجد كل من هذه العناصر تقريباً فى روسو تعبيراً وتأييداً ، ووجد بعض الدعم فى حاجات العصر وروحه . ذلك أن فرنسا كانت قد ملت الفكر الكلاسيكى والانضباط الأرستقراطى . فأتاح تمجيد روسو للوجدان تحرراً للغرائز المكبوته ، والعاطفة المكظومة ، والأفراد والطبقات المظلومة . وأصبحت « الاعترافات » كتاب الوجدان المقدس كما كانت « الموسوعة » العهد الجديد لعصر العقل . ولا يعنى هذا أن روسو رفض العقل ، فهو على العكس وصفه بأنه عطية إلهية ، وقبله حكماً نهائياً [٧٧] ؛ ولكنه أحس أن نوره البارد فى حاجة إلى دفء القلب ليلهم العمل والعظمة والفضيلة . وأصبحت « الحساسية » شعار النساء والرجال . وتعلم النساء الأغماء ، والرجال البكاء ، بأسرع من ذى قبل . وتذبذبوا بين الفرح والحزن ؛ ومزجوا الإثنين فى دموعهم .

وقد بدأت الثورة « الروسوية » على صدور الأمهات . هاتيك الصدور التى آن الآن أوان تحريرها من عقال المشدات . على أن هذا الجانب من الثورة كان أصعب جوانبها ، ولم يعقد له النصر إلا بعد أكثر من قرن تراوح فيه الحبس والإفراج . وبعد نشر « اميل » أرضعت الأمهات الفرنسيات أطفالهن ، حتى فى دار الأوبرا ، وفيما بين الألحان[٧٨] . وأطلق الطفل من سجن أقمطته ، وقام أبواه على تربيته بأنفسهم . فإذا التحق بالمدرسة حظى بالتعليم « على طريقة روسو » فى سويسره أكثر منه فى فرنسا ، ولما كانت النظرة للإنسان الآن تعده خيراً بطبيعته ، فإن التلميذ وجب أن ينظر إليه لا على أنه عفريت صغير مشاكس بل ملاك رغباته هى صوت الله . ولم تعد حواسه تدان لأنها أدوات الشيطان ، بل تعد أبواباً للخبرات المنيرة ولمئات المباهج البريئة . ووفقاً للنظرة الجديدة لا تعود حجرات الدرس سجوناً . أما التعليم فيجب أن يجعل طبيعياً وساراً بتفتيح حب الاستطلاع

والقوى الفطرية وتشجيعها . وأما حشو الذاكرة بالحقائق ، وخنق الفكر بالعقائد القطعية ، فيجب أن يحل محلهما التدريب على فنون الإدراك الحسى ، والحساب ، والتفكير . ويجب أن يتعلم الأطفال من الأشياء لا من الكتب كلما أمكن — من النبات فى الحقل ، والصخور فى التربة ، والغيوم والنجوم فى السماء . وقد حفز التحمس لأفكار روسو التربوية بستالوتزى ولافاتير فى سويسره ، وبازدوف فى المانيا ، وماريا مونتسورى فى إيطاليا ، وجون ديوى فى أمريكا ؛ و « التربية التقدمية » هى جزء من تراث روسو . وقد أنشأ فريدرش فروبل نظام رياض الأطفال فى ألمانيا ، ومنها انتشر فى العالم الغربى طولا وعرضاً .

ثم أدركت الفن نفحة من الإلهام الروسوى . فقد أثر تمجيد الطفولة فى جروز ومدام فيجيه — لبرون ، وعكست لوحات الفنانين من المدرسة السابقة — للرفائيلين فى انجلتره تمجيد العاطفة والغموض . وأعمق من هذا أثر روسو فى الأخلاق والسلوك . فطرأ المزيد من دفء الصداقة ووفائها ، ومن التضحيات والاهتمامات المتبادلة . واقتنص الحب الرومانسى الأدب وشق طريقه إلى الحياة . واستطاع الأزواج الآن أن يحبوا زوجاتهم دون هزء بالتقاليد ؛ واستطاع الآباء أن يحبوا أبناءهم ، وأصلح ما فسد من الأسرة ، « كان الناس يغضون عن الخيانة الزوجية ، أما روسو فقد جرؤ على اعتبارها جريمة »[٧٩]. صحيح أنها استمرت ، ولكنها لم تعد أمراً لاغنى عنه . وحل محل الإعجاب الأعمى بالمحظيات الشفقة على المومسات . وقاوم احتقار العرف طغيان الأتيكيت . وارتفعت سمعة الفضائل البورجوازية ، كالاجتهاد ، والاقتصاد ، وبساطة العادات واللباس . وعما قليل ستطيل فرنسا « الكيلوت » (السراويل القصيرة) إلى سراويل طويلة وتصبح « صان — كيلوت » (متطرفة) فى زيها كما هى فى سياستها . وقد ساهم روسو مع البستنة الانجليزية فى تغيير الحدائق الفرنسية من رتابة طراز النهضة إلى المنحنيات الرومانتيكية والأركان الفجائية ، وأحياناً إلى فوضى برية و « طبيعة » . وانطلق الرجال والنساء من المدينة إلى الريف ، وزاوجوا

بين حالات الطبيعة وحالاتهم النفسية وتسلق الرجال الجبال ، والتمس الرجل منهم الوحدة ودلل « أنا » .

واستسلم الأدب بجملته تقريباً لروسو والموجة الرومانتيكية ، فغمر جوته بطله « فوتر » فى فيض من الحب ، والطبيعـــة ، والعبرات (١٧٧٤) ، وجعـــل بطله فاوست يختزل نصف روسو فى كلمات ثلاث « الوجدان هو الكل » . قال فى ١٧٨٧ مسترجعاً ذكرياته « كان لكتاب اميل وماحوى من عواطف تأثير شامل على العقل المثقف »[٨٠] وأكد شيلر التمرد على القانون فى « اللصوص » (١٧٨١) ، وحيا روسو محرراً وشهيدا ، وقارن بينه وبين سقراط[٨١] . وصاح هردر فى مرحلة مماثلة من مراحل تطوره « تعالى يا روسو وكن لى مرشدا »[٨٢]. وأعانت بلاغة روسو على تحرير الشعر والمسرحية الفرنسيين من قواعد بوالو ، وتقليد كورنيى وراسين ، وقيود الأسلوب الكلاسيكى الصارمة . وقد أبدع برناردان دسان — بيير ، وهو تلميذ متحمس لروسو ، رائعة رومانسية فى « بول وفرجينى » (١٧٨٤) . وانتصر تأثير جان — جاك الأدبى بعد الفاصل النابليونى فى أشخاص شاتوبريان ، ولا مارتين ، وموسيه ، وفينى ، وهوجو ، وجوتييه ، وميشليه ، وجورج صاند . وقد أنجب هذا التأثير جيلا من الاعترافات ، وأحلام اليقظة ، وقصص العاطفة أو الغرام ، وحبذ تصور العبقرية على أنها فطرية لا تعرف قانوناً ، وأنها القاهرة للتقليد والتقييد ، فحرك فى إيطاليا ليوباردى ، وفى روسيا بوشكن وتولستوى ، وفى انجلتره وردزورث ، وصلى ، وكولردج ، وبايرون ، وشلى ، وكيتس ، وفى أمريكا هوثورن وثورو .

ونصف فلسفة القرن المحصورين « هلويز الجديدة » (١٧٦١) وكتاب داروين « أصل الأنواع » (١٨٥٩) يلونه تمرد روسو على عقلانية حركة التنوير . والواقع أن روسو كان قد أعرب من قبل فى رسالة وجهها عام ١٧٥١ إلى بورد عن احتقاره للفلسفة[٨٣] ، وأقام احتقاره هذا على عجز العقل فى زعمه عن تعليم الفضيلة للناس . فالعقل يبدو أنه بغير حس أخلاقى ، وهو يناضل للدفاع عن أى رغبة مهما كانت فاسدة إذن فالحاجة إلى شىء

آخر — إلى وعى فطرى بالصواب والخطأ ، وحتى هذا الوعى لا بد من أن يدفئه الوجدان إن أريد منه أن يولد الفضيلة ، وأن ينجب رجلا فاضلا لا آلة حسابية ماهرة .

وهذا بالطبع كلام قاله بسكال من قبل ، ولكن بسكال كان قد رفضه فولتير ، وفي ألمانيا كانت « عقلانية » فولف في صعود في الجامعات . وحين أصبح إمانويل كانط أستاذاً في كونجزبرج كان قد اقتنع بما قاله هيوم وجماعة الفلاسفة الفرنسيين من أن العقل وحده لا يمكنه أن يقدم الدفاع الكافي حتى عن أساسيات اللاهوت المسيحى . ولكنه وجد في روسو سبيلا لإنقاذ تلك الأساسيات : هى أن تنكر مفعول العقل فى العالم فوق الحسى ، وتؤكد استقلال الفكر ، وأولوية الإرادة ، والقوة المطلقة للضمير الفطرى ؛ وتستنبط حرية الإرادة ، وخلود النفس ، ووجود الله ، من شعور الإنسان بالتزام غير مشروط بالقانون الأخلاقى . وقد أقر كانط بدينه لروسو ، وعلق صورته على جدار مكتبه ، ونادى به « نيوتنا » للعالم الأخلاقى(٨٤) . وشعر ألمان آخرون بروح روسو تتقمصهم : ياكوبى فى فلسفة الوجدان ، وشلايرماخر فى تصوفه الدقيق النسيج ، وشوبنهاور فى تمجيده للإرادة . وتاريخ الفلسفة منذ كانط صراع بين روسو وفولتير .

أما الدين فقد بدأ بتحريم روسو ، ثم انتقل إلى استخدامه منقذاً له . وأجمع القادة البروتستنت والكاثوليك على تكفيره ، ووضع على صعيد واحد مع فولتير وبيل بوصفهم رجالا « يبثون سموم الضلالة والفسوق »(٨٥) . ومع ذلك فحتى في حياة روسو وجد نفر من رجال الدين والعلمانيين راحة وعزاء حين سمعوا أن قسيس سافوا قد قبل بتحمس العقائد الجوهرية للمسيحية ، وأنه نصح الشكاك بأن يثوبوا إلى إيمانهم الأصيل . وحين فر روسو من سويسره عام ١٧٦٥ رحب به أسقف ستراسبورج ، وبعد أن عاد من انجلتره وجد بعض الكاثوليك الفرنسيين يستشهدون بأقواله شاكرين في ردهم على غير المؤمنين ، وتراودهم الآمال فى هدايته الظافرة .

وقد حاول منظرو الثورة الفرنسية إقامة أخلاقية مستقلة عن العقائد

الدينية ؛ على أن روبسبير فى اقتدائه بروسو أقلع عن هذه المحاولة لفشلها ، والتمس قوة تأييد المعتقدات الدينية فى صيانة النظام الأخلاقى والمضمون الاجتماعى . وأدان جماعة الفلاسفة لأنهم رفضوا الله وأبقوا على الملوك ؛ أما روسو (فى رأى روبسبير) فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء ، وهاجم جميع الملوك بشجاعة وجاهر بالدفاع عن الله والخلود[٨٦] .

وفى ١٧٩٣ بلغ تراثا فولتير وروسو المتنافسان مرحلة الحسم فى الصراع بين جاك — رينيه إيبير ومكسمليان روبسبير . فأما إيبير ، أحد قادة كومون باريس ، فقد اتبع العقلانية الفولتيرية ، وشجع انتهاك حرمات الكنائس ، وأقام العبادة العلنية لألاهة العقل (١٧٩٣) . وأما روبسبير فكان قد رأى روسو أثناء مقام هذا الفليسوف آخر مرة فى باريس . وقال مناجياً جان — جاك « إيه أيها القديس ! . . . لقد تطلعت إلى محياك المهيب . . وفهمت كل أحزان حياة نبيلة كرست نفسها لعبادة الحق »[٨٧] . وحين تقلد روبسبير زمام السلطة أقنع المؤتمر الوطنى بتبنى « اعلان الإيمان » الذى دان به قسيس سافوا ديناً رسمياً للأمة الفرنسية . وفى مايو ١٧٩٤ افتتح مهرجان الكائن الأعظم إحياء لذكرى روسو . وحين أرسل إيبير وغيره إلى الجيلوتين بتهمة الإلحاد ، شعر بأنه يتبع نصائح روسو بحذافيرها . ووافق نابليون اللا أدرى روبسبير على الحاجة إلى الدين . وأعاد وضع الحكومة الفرنسية فى جانب الله (١٨٠٢) . ثم أعيدت الكنيسة الكاثوليكية إعادة كاملة بعودة الملكية البوربونية الفرنسية (١٨١٤) وكسبت أقلام شاتوبريان ، ودميتر ، ولامارتين ، ولامنية القوية . ولكن الإيمان القديم اتكأ الآن أكثر فأكثر على حقوق الوجدان لا على حجج اللاهوت ، فحارب فولتير وديدرو بپسكال وروسو . وازدهرت من جديد تلك المسيحية التى بدت محتضرة فى ١٧٦٠ — فى انجلترة الفكتورية وفرنسا فى عهد عودة الملكية .

ونحن الآن فقط — من الناحية السياسية — نخرج من عصر روسو . وأول علامة على تأثيره السياسى كانت فى موجة التعاطف العام الذى أيد المعونة الفرنسية الفعالة للثورة الفرنسية . وقد اقتبس جفرسن إعلان الاستقلال من روسو كما اقتبسه من لوك ومونتسكيو ، واستوعب الكثير من كل من

فولتير وروسو حين كان سفيراً لدى فرنسا (١٧٨٥ — ٨٩) ، وردد صدى جان — جاك فى افتراضه أن هنود أمريكا الشمالية « يتمتعون فى جملتهم بقدر من السعادة يفوق بمراحل أولئك الذين يعيشون فى ظل الحكومات الأوربية »[٨٨] . وقد رفع نجاح الثورة الأمريكية مكانة فلسفة روسو السياسية .

وتزعم مدام دستال أن نابليون عزا الثورة الفرنسية إلى روسو أكثر من أى كاتب آخر[٨٩] . وقد ذهب إدمند بيرك إلى أن فى الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية (١٧٨٩—٩١) خلافاً كبيراً بين زعمائهم على أيهم أقرب شبهاً بروسو . والحق أنهم جميعاً يشبهونه . . . فإياه يدرسون ، وإياه يتأملون ، وإليه يرجعون فى كل الوقت الذى يستطيعون اقتناصه من شرورهم المجهدة نهاراً أو فجورهم وعربدتهم ليلا . فروسو هو كاهن كتابهم المقدس . . . وله يقيمون أول تماثيلهم[٩٠] .

وفى ١٧٩٩ استعاد ماليه دويان إلى الأذهان أن « روسو كان له قراء من الطبقتين الوسطى والدنيا أكثر مائة مرة مما لفولتير . فهو وحده الذى لقح الفرنسيين بعقيدة سيادة الشعب . . . ومن الصعب ذكر ثورى واحد لم ينتشى بهذه النظريات الفوضوية ولم يشتعل بغيرة تحقيقها . . . وقد سمعت مارا فى ١٧٨٨ يقرأ « العقد الاجتماعى » ويعلق عليه فى الشوارع العامة ، فيقابله السامعون المتحمسون بالتصفيق » . . . [٩١] .

واستشهد الخطباء فى طول فرنسا وعرضها بأقوال روسو فى التبشير بسيادة الشعب ؛ وبعض الفضل فى استطاعة الثورة أن تعيش عقداً من الزمان الزمان رغم خصومها وشططها راجع إلى الترحيب العارم الذى لقيته هذه العقيدة .

وقد اتصل تأثير روسو فى السياسة طوال تقلبات الثورات والرجعية . وبسبب تناقضاته ، وبسبب القوة والحماسة اللتين بشر بهذه التناقضات بهما ، وجد فيه الفوضويون والاشتراكيون على السواء نبياً وقديساً ؛ ذلك لأن كلتا

الدعوتين المتعارضتين وجدتا غذاء فى إدانته الأغنياء وعطفه على الفقراء. وقد ألهمت النزعة الفردية التى اتسمت بها أول «الأحاديث» ورفضه «المدينة» الثوار من بين، وجودوين، وشلى، إلى تولستوى وكروبوتكين وادورد كاربنتر. قال تولستوى «كنت وأنا فى الخامسة عشرة أحيط عنقى بمدالية عليها صورة روسو بدلا من الصليب المعتاد»[٩٢]. وقد وفرت عقيدة المساواة، التى بشر بها ثانى «الأحاديث» موضوعاً أساسياً لضروب منوعه من النظرية الاشتراكية، من «جراكوس» بابوف وشارل فورييه وكارل ماركس إلى نيقولاى لينين. يقول جوستاف لانسون «كان كل تقدم أحرز طوال قرن من الزمان فى الديمقراطية، والمساواة، وحق التصويت للجميع، وكل دعاوى الأحزاب المتطرفة التى قد تكون موجة المستقبل، والحرب على الثراء والملكية، وكل الحركات المحرضة للجماهير الكادحة المعانية، كل أولئك كان، من بعض النواحى، من عمل روسو»[٩٣] أنه لم يخاطب المثقفين والكبار بالمنطق والحجة، بل تكلم إلى الشعب كله بشعور وحماسة فى لغة يستطيعون فهمها، وكانت حرارة بيانه، فى السياسة كما فى الأدب، أقوى من سلطان قلم فولتير.

٣ — لحن سير جنائزى

بعد أن رأى ديدرو فولتير عام ١٧٧٨ سأل صديقاً «لم يتحتم أن يموت؟»[٩٤]. ولقد بدا لحن السير الجنائزى الذى شيعت به جماعة الفلاسفة، من موت هلفتيوس فى ١٧٧١ إلى موت موريلليه فى ١٨١٩، كأنه تعليق ساخر على الغرور والخيلاء، ولكنا قد نتساءل أيضاً لم طال عمر بعض هؤلاء الرجال طولا جر معه كل آلام الشيخوخة وهوانها.

وقد مات المحظوظون منهم قبل الثورة، تعزيهم مائة أمارة على أن أفكارهم وشيكة الانتصار فقضى كوندياك فى ١٧٨٩، وطورجو فى ١٧٨١. أما دالامبير فقد مد فى أجله على كره منه بعد موت الآنسة دلسبيناس. وكانت قد أودعته أوراقها، ووضح منها أنها فى السنين الإثنتى عشرة الأخيرة من حياتها منحت حبها لمورا أوجيبير، ولم تترك له غير

صداقة يشوبها الضيق أحياناً . قال كوندورسيه لطورجو « ان دالامبير مطعون طعنه نجلاء ، وكل ما أرجوه له الآن أن تكون حياته محتملة »[٩٥] . وقد عاد إلى دراساته ، ولكنه لم يكتب بعدها شيئاً ذا بال . وكان يختلف إلى بعض الصالونات ولكن الحياة انطفأت من حديثه الذى كان يوماً ما ألمعياً . وقد رفض الاستجابة لدعوة فردريك إلى بوتسدام ، ودعوة كاترين إلى سانت بطرسبورج . وكتب إلى فردريك يقول : « اننى أشعر كأننى رجل تنبسط أمامه صحراء شاسعة تنتهى بهاوية الموت ؛ ولا أمل له فى لقاء إنسان واحد يحزن إن رآه يسقط فيها ، أو يفكر فيه مرة أخرى بعد أن يختفى »[٩٦] .

وكان فى هذا مخطئاً ، فقد اهتم به كثيرون ، ولو أولئك الذين كان يمدهم ببعض دخله بانتظام . ذلك أن هيوم أوصى لدالامبير بمائتى جنيه[٩٧] وهو واثق أنه سيوزع هذا المبلغ . ومع أنه كان يتقاضى مختلف المعاشات ، فقد عاش عيشة بسيطة إلى النهاية ، و ١٧٨٣ أصيب هو وديدرو بأمراض خطيرة — فأصيب ديدرو بذات الجنب ، ودالامبير باضطراب فى المثانة . وشفى ديدرو ؛ أما دالامبير فقضى نحبه (٢٩ أكتوبر ١٧٨٣) بالغاً من العمر سبعة وستين عاما .

وكان ديدرو قد عاد من مغامرته الروسية فى أكتوبر ١٧٧٤ . وقد أضناه طول السفر فى مركبة حبست حركته ، ولكنه تنبأ صادقاً بأن « القدر يخبىء له عشر سنين أخر فى جرابه »[٩٨] . ثم عكف على « خطة لإنشاء جامعة لحكومة روسيا » (لم تنشر حتى ١٨٠٣) ، وقد دعا للاهتمام الأشد بالعلم والتكنولوجيا ، ووضع اليونانية واللاتينية والأدب فى نهاية القائمة تقريباً ، وبين الطائفتين الفلسفة فسبق بذلك التطورات التربوية بمائة وخمسين عاما . وفى ١٧٧٨ بدأ « مقالا عن عهدى كلوديوس ونيرون ، وعن حياة سنكا ومؤلفاته » . واستطرد فى هذا المقال ليرجو الأمريكيين المنتصرين فى جمهوريتهم الجديدة أن « يمنعوا الزيادة الهائلة والتوزيع غير المتكافىء للثروة والترف ، والتبطل وفساد الأخلاق »[٩٩]. وفى القسم المخصص لسنكا

أفسح مكاناً للدفاع الحار عن جريم ومدام دبينيه وعن نفسه ضد التهم التى رماهم بها روسو فى قراءاته العلنية لاعترافاته ، قال :

« إذا صدر يوماً ما ، نتيجة جنوح المؤلف دائماً للاغراب والشذوذ ، كتاب يمزق فيه الشرفاء اربا بقلم وغد خبيث ... فانظروا إلى الأمام واسألوا أنفسكم هل . . . يجدر بنا أن نصدق رجلا وقحاً . . . اعترف بألف فعل شرير . فماذا يكلف الافتراء رجلا كهذا — وماذا تضيف جريمة كثيراً أو قليلا للفساد الخلقى المستتر لحياة تتخفى طوال أكثر من خمسين عاماً وراء أصفق أقنعة الرياء ؟ . . . فسحقاً للعاق الذى يذم من أحسنوا إليه ؛ سحقاً للرجل الأثيم الذى لا يحجم عن تشويه سمعة أصدقائه القدامى ؛ وسحقاً للجبان الذى يخلف فوق قبره كشف الأسرار التى أؤتمن عليها . . أما عن شخصى ، فأقسم أن عينى لن تتلوثا أبداً بقراءة كتابه ، وانى أوكد أنى أوثر أن يسبنى عن أن يمدحنى(١٠٠) .

وفى ١٧٨٣ ماتت مدام دبينيه . وأحس ديدرو بهذه الخسارة إحساساً عميقاً ، لأنه كان يستمتع بصداقتها وندوتها . وكان جريم ودولباخ على قيد الحياة . ولكن علاقاته بهما كانت فاتره ، وكان الثلاثة ينحدرون إلى الأنانية الضيقة التى تصحب الشيخوخة ، وكل ماكان فى استطاعتهم تبادله من حديث كان آلامهم . أما تشكيلة الأمراض التى شكا منها ديدرو فكان منها التهاب الكلية والتهاب المعدة ، وحصى المرارة ، والتهاب الرئتين ؛ ولم يعد فى قدرته صعود السلم من مسكنه فى الطابق الرابع فى‌لى مكتبته فى الطابق الخامس ، وشعر الآن أنه محظوظ لأن له زوجة ، وكان قد اختزل خياناته الزوجية إلى ذكريات حزينة ، وأبلت هى حصيلتها من الكلام ، وهكذا عاشا فى سلام الإعياء المشترك .

وفى ١٧٨٤ مرض مرضاً خطيراً . وحاول كاهن سان — سولبيس الذى فشل من قبل مع فولتير أن يكفر عن تقصيره برد ديدرو إلى حظيرة الإيمان ، فزاره ، وتوسل إليه أن يرجع إلى الكنيسة ، وأنذره بأنه ما لم يتناول الأسرار المقدسة فإنه لن يحظى بدفنه فى جبانة عامة . وأجاب ديدرو ،

« انى أفهمك ياسيدى الكاهن . فلقد رفضتم دفن فولتير لأنه لم يؤمن بلاهوت الإبن . حسناً ، انهم يستطيعون دفنى حين أموت فى أى مكان يشاءون ، ولكنى أعلن أننى لا أومن لا بالآب ولا بالروح القدس ولا بأى واحد فى الأسرة »(١٠١) .

وحين سمعت الإمبراطورة كاترين بأوصابه ، وفرت للى ولزوجته جناحاً فاخراً فى شارع ريشليو . وانتقلا إليه حوالى ١٨ يوليو . وابتسم حين رأى الأثاث الجديد يحمل إليه ، وقال إن فى استطاعته أن يستعمله بضعة أيام لا أكثر . وقد استعمله أقل من أسبوعين . وفى ٣١ يوليو ١٧٨٤ تناول وجبة شهية ، فأصابته جلطة تاجية ، ومات وهو على المائدة بالغاً الحادية والسبعين . وأقنعت زوجته وصهره كاهناً محلياً بالصلاة فى الكنيسة على جثمانه رغم إلحاده المشهور . ودفن فى كنيسة سان — روش ، ثم اختفى منها على نحو غامض فى تاريخ غير معروف .

وواصل الموكب سيرته . فمات ما بليه فى ١٧٨٥ ، وبوفون فى ١٧٨٨ ، ودولباخ فى ١٧٨٩ أما رينال فقد عمر إلى ما بعد الثورة كما رأينا ، وأدان جرائمها الوحشية ، وفاجأ نفسه بالموت ميتة طبيعية (١٧٩٦) . وأما جريم فقد قابل كل لطمات الحظ بصبر تيوتونى . ففى ١٧٧٥ رقاه يوزف الثانى بارونا من بارونات الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى ١٧٧٦ عينه دوق ساكسى — جوتا سفيراً لدى فرنسا . وأكثر « الرسائل الأدبية » كان يقوم بتحريرها بعد ١٧٧٢ سكرتيره ياكوب مايستر ، ولكن جريم شارك بمقالات لاذعة فى الأدب ، والفن ، والدين ، والأخلاق ، والسياسة ، والفلسفة . وكان الشاك الوحيد الممعن فى شكوكيته بين جماعة الفلاسفة ، لأنه تشكك أيضاً فى الفلسفة والعقل والتقدم . وبينما كان ديدور ونفر من فريق المؤمنين يتطلعون إلى الأجيال القادمة بأحلام الطوبى تنعكس فى أعينهم ، قال جريم أن هذا سراب قديم العهد جداً ؛ « وهم تحدر من جيل إلى جيل » ، وقد لاحظنا نبوءته عام ١٧٥٧ بنشوب « ثورة قاضية »(١٠٢) وشيكاً فلما جاءت الثورة وكانت سفاكة للدماء ، عاد إلى وطنه الأصلى ألمانيا وأقام فى جوتا

(١٧٩٣) وخففت كاترين من فقره وعينته سفيراً لها فى همبورج (١٧٩٦) فلما ماتت ولية نعمته الأمبراطورة ذهب ليعيش مع املى بلزونس ، حفيدة حبيبته مدام دبينيه . وعمر حتى ١٨٠٧ ، وعاش هذه الحقبة أولا على ذكريات تلك الأيام المثيرة التى كان فيها فكر فرنسا يقود أوربا إلى حافة شاهقة هى حافة الحرية .

: — خاتم الفلاسفة الفرنسيين

ولد جان — أنطوان — نيقولا كاريتا ، مركيز كوندورسيه ، وحفيد أسرة عريقة فى دوفينيه ، فى بيكاردى (١٧٤٣) ، وتلقى تعليمه على اليسوعيين فى رامس وباريس ، وظل سنين طويلة لا يفكر إلا فى أن يكون رياضياً كبيراً . وحين بلغ السادسة والعشرين أنتخب عضواً فى أكاديمية العلوم ، وحين أصبح فيها بعد سكرتيراً دائماً لها ، كتب التأبينات للأعضاء الراحلين ، كما فعل فونتينيل للأكاديمية الفرنسية . وقد أحب فولتير هذه التأبينات التذكارية كثيراً حتى أنه قال لكوندورسيه : « إن الجمهور يتمنى أن يموت أكاديمى كل أسبوع أو نحوه حتى تتاح لك فرصة الكتابة عنه »[١٠٣]. وقد زار فولتير فى فرنيه (١٧٧٠) ، وعلق على طبعة تنظم أعمال فولتير نشرها بومارشيه ، وكتب لها مقدمة حارة بعنوان « حياة فولتير » وأقنعه دالامبير بأن يكتب مقالات للموسوعة ، وقدمه لجولى دلسبيناس ، التى أصبح فى حفلات استقبالها قطباً من الأقطاب رغم خجله . لا بل انه كان فى نظر جولى لايفضاه غير دالامبير من حيث ســعة عقله ، وربما كان يفوقه فى حرارة حبه للخير . وكان أحد الرعيل الأول ممن انضموا للحملة التى شنت على تجارة الرقيق (١٧٨١) . وقد أعانت جولى على تحريره من ربقة عشقه اليائس للآنسة دوسى ، وهى فتاة لعوب استغلت حبه لها دون أن تبادله إياه . وقد عزى نفسه بصداقة جان — باتست سبوار ومدام سيوار ، وعاش معهم فى شركة ثلاثية قانعة .

وفى ١٧٨٥ أصدر « مقالا فى تطبيق التحليل على الاحتمالات » وفيه سبق نظرية مالثوس إذ قال إن نمو السكان ينحو إلى تجاوز إنتاج الطعام ، ولكنه لم يدع إلى العفة الجنسية علاجاً ، بل أقترح تحديد النسل[١٠٤] .

وقد رحب بالثورة فاتحة لمستقبل التعليم الجامعى ، والعدالة ، والرخاء . وفى ١٧٩٠ اختير للمجلس البلدى الذى كان قد تسلم إدارة باريس . ثم أنتخب عضواً فى الجمعية التشريعية التى حكمت فرنسا من أول أكتوبر ١٧٩١ إلى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، ووضع بوصفه رئيساً للجنة التعليم العام تقريراً يدعو إلى نظام قومى للتعليم الابتدائى والثانوى ، العام ، المجانى ، الشامل للجنسين على السواء ، والبعيد عن النفوذ الكنسى ، ويخطط التقرير لهذا التعليم تخطيطاً عاماً [١٠٥]، وقد وضع مبدأ « دولة الرفاهية » قال : « يجب أن يكون هدف جميع المؤسسات الاجتماعية تحسين الأحوال البدنية والفكرية والأخلاقية لأكثر طبقات السكان عدداً وأشدها فقراً »[١٠٦] . وقدم التقرير إلى الجمعية فى ٢١ أبريل ١٧٩٢ ، ثم عطلت حروب الثورة اتخاذ اجراءات تنفيذه ، ولكن حين وطد نابليون سلطته جعل تقرير كوندورسيه الأساس الذى أرسى فوقه تنظيمه للتعليم من جديد فى فرنسا تنظيماً بدأ به عهداً حاسماً .

ولم يتح لكوندورسيه مثل هذه المكانة المرموقة فى المؤتمر القومى الذى حل محل الجمعية التشريعية . لأن الجيرونديين المحافظين تشككوا فيه بوصفه جمهورياً ، وارتاب اليعاقبة المتطرفون فى نواياه بوصفه ارستقراطياً يحاول أن يخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى [١٠٧] . وقد صوت فى صف الذين أدانوا لويس السادس مذنباً بالخيانة ، ولكنه صوت ضد إعدامه . فلما عين مع ثمانية آخرين أعضاء فى لجنة وكل إليها صياغة دستور جديد ، قدم مشروعاً رفض بدعوى إسرافه فى محاباة البورجوازية — فلما تبنى المؤتمر الذى سيطر عليه اليعاقبة دستوراً أكثر تطرفاً ، كتب كوندورسيه نشرة غفلا من التوقيع ينصح فيها المواطنين أن يرفضوه . وفى ٨ يوليو ١٧٩٣ أمر المؤتمر بالقبض عليه .

وظل تسعة أشهر مختبئاً فى منزل لأرملة المصور كلود — جوزف فرنيه . ولكى يصرف ذهنه عن خوف القبض عليه ألف كتيباً يصلح تلخيصاً لحركة التنوير . و « كتاباً أزرق » (أى مخططاً) للمجتمع المثالى القادم . وعنوان المخطوط « نشرة تمهيدية لجدول تاريخى بمراحل تقدم العقل البشرى »[١٠٨] .

كذلك سماه Esquisse أى تخطيط ، ويبدو أنه كان يؤمل أن يكتب يوماً ما عرضا أكثر تفصيلا لفلسفته .

وقد استوحى مخطوطه من المحاضرة التى أجمل فيها طورجو ، يوم كان لاهوتياً ، (١١ ديسمبر ١٧٥٠) « المراحل المتعاقبة لتقدم الفكر البشرى »[١٠٩] وقسم كوندورسيه التاريخ إلى عشر مراحل : (١) اتحاد الأسر فى قبائل ، (٢) الرعى والزراعة ؛ (٣) اختراع الكتابة ؛ (٤) ازدهار الثقافة اليونانية حتى عهد الاسكندر ؛ (٥) تطور المعرفة خلال صعود روما واضمحلالها ؛ (٦) العصور المظلمة ، من ٤٧٦م . إلى الحروب الصليبية ؛ (٧) نمو العلم بين الحروب الصليبية واختراع الطباعة ؛ (٨) من جوتنبرج إلى بيكن ، وجاليليو ، وديكارت ، « الذين خلعوا نير السلطة ؛ (٩) من ديكارت حتى تأسيس الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية ؛ (١٠) عصر الفكر المحرر[١١٠] .

وكان كوندورسيه لا يعترف للعصور الوسطى بقدر ، شأنه فى ذلك شأن فولتير ، فقد تمثل فيها تسلط الكنيسة على الفكر الأوربى ، وتخدر الشعب بسحر القداس ، وانبعاث الشرك نتيجة لعبادة القديسين[١١١] . ومع أنه احتفظ — كفولتير أيضاً — بإيمان ربوبى بالله ، فإنه اعتمد على تقدم المعرفة وانتشارها لتقويض سلطان الكنيسة ، وتوسيع الديمقراطية ، بل والارتقاء بالأخلاق ، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حد كبير نتيجة للجهل[١١٢] . « سيأتى الوقت الذى تشرق فيه الشمس فقط على أحرار الرجال الذين لا يعرفون لهم سيداً غير عقلهم »[١١٣] . وقد اثنى على فولتير لإطلاقه الفكر من عقاله ، وعلى روسو لإلهامه الناس بأن يقيموا نظاماً اجتماعياً عادلا . وصور الخير العميم الذى سيفيض بهما القرنان التاسع عشر والعشرون بفضل جهود القرن الثامن عشر : التعليم العام ، وحرية الفكر والتعبير ، وتحرير المستعمرات ، والمساواة أمام القانون . وإعادة توزيع الثروة . وقد تذبذب بعض الشىء فى أمر حق التصويت للجميع : فهو يريد بصفة عامة أن يقصر التصويت على أصحاب الأملاك أو الثروة مهما قلت[١١٤] ، وكان أحياناً يخشى أن تمكن سذاجة الجماهير قلة غنية من أن تلقنهم آراءهم متى

شاعت ، وهكذا تخلق أو لحركية بورجوازية ، مستترة وراء واجهة ديمقراطية[١١٥] ، ولكن هروب لويس السادس وماري أنطوانيت إلى فارين ، والخوف من أن تحاول الدول إعادة الملكية الأوتقراطية فى فرنسا ، رداه إلى الدعوة لحق التصويت للجميع بما فيهم النساء[١١٦] .

وقد تطلع فى الخيال من عزلته المطاردة إلى مستقبل ملؤه جلائل الأعمال . فتنبأ بصعود الصحافة ضابطاً لطغيان الحكومة ؛ وبتطور دولة الرفاهية بفضل التأمين والمعاشات الاجتماعية ؛ وبحفز الثقافة نتيجة لتحرير المرأة ؛ وبإطالة عمر الإنسان بفضل تقدم الطب ؛ وبانتشار النظام الاتحادى بين الدول ؛ وبانقلاب الاستعمارية إلى معونة أجنبية تقدمها البلاد المتقدمة للمتخلفة ؛ وبخفة التعصب القومى نتيجة لانتشار المعرفة ؛ وبتطبيق البحوث الإحصائية على إنارة السياسات وصياغتها ؛ وبازدياد ارتباط العلم بالحكومة[١١٧] ، وإذ رأى كل عصر مضيفاً أهدافاً جديدة لإنجازاته ، فلا يمكن إذن أن تكون هنالك نهاية متطورة للتقدم . ولا يعنى هذا أن الإنسان سيغدو كاملا فى أى وقت ، بل أنه سيسعى أبدا إلى الكمال . « ان الطبيعة لم تحدد زماناً لكمال الملكات البشرية ، وقابلية الإنسان للكمال لامحدود لها ، وتقدم هذه القابلية — التى ستكون منذ الآن مستقلة عن أى قوة قد تبغى تعطيلها — لا حد له غير عمر هذا الكوكب الذى ألقتنا الطبيعة على سطحه[١١٨] »

وقرب ختام هذا التخطيط تصدى كوندورسيه للمشكلة التى سيعرضها بعد أربع سنين فى « مقال عن مبدأ السكان » (١٧٩٨) :

« ألا يجوز أن تأتى لحظة . . . يترتب فيها على زيادة سكان العالم عن أسباب العيش تناقص مستمر لسعادتهم ، . . . أو على أفضل تقدير تذبذب بين النفع والضرر ؟ وألا يدل ذلك على أن العالم قد وصل إلى نقطة يستحيل تحقيق المزيد من التحسين بعدها — وأن قبول النوع الإنسانى للكمال قد بلغ بعد سنين طويلة مرحلة يعجز عن تجاوزها ؟

ومنذا الذى يستطيع التنبؤ بالحالة التى يمكن أن يوصل إليها فن تسخير عناصر الطبيعة لحيز الإنسان فى الوقت المناسب ؟ . . . وحتى لو اتفقنا على

أننا سنصل يوماً ما إلى ذلك الحد . . . فإنه قبل أن يقع هذا كله سيكون تقدم العقل قد واكب تقدم العلوم ، وتعصب الخرافة السخيف قد كف عن إفساد القانون الأخلاقى والحط منه بتعاليمه المنكرة . . . ولنا أن نفترض أنه إذا جاء ذلك الوقت فإن الناس سيعرفون أن عليهم واجباً قبل أولئك الذين لم يولدوا بعد ، هو واجب تيسير السعادة لهم ، لا مجرد العيش وكفى »[١١٩] .

ولم يكن تفاؤل كوندورسيه تفاؤلا أعمى تماماً . « ما زلنا نرى قوى التنوير لا تملك أكثر من جزء صغير جداً من العالم ، والمتنورين حقاً وصدقاً تطغى عليهم كثرة جماهير الناس الذين مازالت تسيطر عليهم الجهالة والتعصب . وما زلنا نرى مناطق شاسعة يرزح فيها البشر تحت نير العبودية »[١٢٠] . ولكن « صديق الإنسانية » يجب ألا يفقد الأمل أمام هذه المصاعب ، فانظر إلى الكثير من الأشياء النبيلة التى أنجزت فعلا ، أنظر إلى التطور الهائل للمعرفة وحب المغامرة ، فأى شيء يستعصى على هذه الإنجازات إذا اتصلت وانتشرت؟ وهكذا أختتم كوندورسيه كتابه برؤيا كانت سنداً له فى الشدة ، وبديلا له ولآلاف غيره عن إيمان فوق طبيعى . وإلى القارىء الكلمة الأخيرة والمتوجة لحركة التنوير :

«كم تعزى الفيلسوف الذى يرثى للأخطاء والجرائم والمظالم التى مازالت تلوث الأرض ، والتى كثيراً ما يكون هو نفسه ضحيتها — لكم تعزيه هذه النظرة للنوع الإنسانى ، وقد تحرر من أغلاله ، . . . يسير قدماً بخطى ثابتة مطمئنة على طريق الحق ، والفضيلة ، والسعادة . ان تأمل هذا المشهد هو الذى يجزيه عن جميع ما بذل من جهود فى إعانة تقدم العقل والدفاع عن الحرية . . وهذا التأمل ملاذ له لاتستطيع ذكرى مضطهديه أن تتبعه إليه . فهناك يحيا بالفكر مع الإنسان وقد رد له حقه وكرامته الطبيعيان ، وينسى الإنسان الذى عذبه وأفسده الجشع ، أو الخوف ، أو الحسد ؛ هناك يحيا مع أترابه فى جنة خلقها العقل ، وجملتها أطهر اللذات التى عرفها حب البشر »[١٢١] .

ولقد أوشك اعتراف الإيمان هذا أن يكون صرخة رجل شاعر بأن

الموت يبحث عنه . فلما خشى كوندورسيه أن يلحق الضرر بمدام فرنيه إذا اكتشف أنها تؤويه ، أودعها مخطوطه وغادر بيتها متنكراً رغم اعتراضاتها . وبعد أن تشرد أياماً على أطراف باريس طلب طعاماً فى فندق . وأثار الشبهة مظهره وعدم وجود أوراق تعرف بهويته . وسرعان ما تبينه القوم أرستقراطياً. وقبض عليه ، وزج فى سجن بمدينة بور — لا — رين (٧ أبريل ١٧٩٤) . وفى صبيحة الغد وجد ميتاً فى زنزانته . وقد ذهب أول كاتب لسيرته إلى أنه حمل السم فى خاتم ، وابتلع هذا السم ، غير أن تقرير الطبيب الذى فحص الجثة عزا موته إلى جلطة فى أحد عروقه[١٢٢] . أما المؤتمر فقد أمر بعد حصوله على تخطيطه وقراءته بأن تطبع الدولة ثلاثة آلاف نسخة منه وتوزعها فى جميع أرجاء فرنسا .

٥ — الفلاسفة والثورة

اتفق بيرك ، وتوكفيل[١٢٣] ، وتين[١٢٤] ، على أن فلاسفة فرنسا ، من بيل إلى ما بلى ، كانوا عاملا كبيراً فى احداث الثورة . فهل نستطيع قبول النتيجة التى خلص إليها جهابذة المحافظين أولئك ؟

لقد كان جميع الفلاسفة المرموقين معارضين للثورة على حكومات أوربا القائمة آنذاك ، لا بل إن منهم من وضعوا إيمانهم فى الملوك لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية ؛ واحتفظ فولتير ، وديدرو ، وجريم بعلاقات صداقة ، إن لم يكن إعجاب شديد ، بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبداداً — فردريك الثانى ، كاترين الثانية ، جستاف الثالث ؛ وأسعد روسو أن يستقبل يوزف الثانى أمبراطور النمسا . أما ديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ ، فقد وجهوا النقد العنيف للملوك بصفة عامة ، ولكنهم لم يدعوا قط فى كتبهم التى بين أيدينا إلى الإطاحة بالملكية الفرنسية[١٢٥] . وعارض مارمونتيل ومورلليه الثورة فى غير مواربة[١٢٦] ، وجهر ما بلى ، الاشتراكى بأنه ملكى[١٢٧] ، أما طورجو معبود جماعة الفلاسفة ، فقد جاهد لإنقاذ لويس السادس عشر لا للقضاء عليه . ودعم روسو الأقطار الجمهورية ، ولكن لصغار الدول فقط ، وقبلت الثورة نظرياته وأغفلت تحذيره . وحين

أقام الثوار نظاماً جمهورياً فى فرنسا لم يقيموه على طريقة الفلاسفة الفرنسيين بل أبطال بلوتارخ من اليونان والرومان . ولم تكن قبلتهم فرنيه ، بل اسبرطه وروما الجمهورية .

ان الفلاسفة وفروا الإعداد الأيدولوجى للثورة . وكانت أسبابها اقتصادية أو سياسة ، وعباراتها فلسفية ، وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها بفضل عمل الهدم الذى قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة فى طريق التغيير ، مثل الإيمان بالامتيازات الإقطاعية والسلطة الكنيسية ، وحق الملوك الإلهى . فلقد كانت كل الدول الأوربية حتى عام ١٧٨٩ تعتمد على معونة الدين فى غرس قدسية الحكومات فى النفوس ، وحكمة التقاليد ، وعادات الطاعة ، ومبادىء الأخلاق ؛ وكانت بعض جذور السلطة الأرضية مغروسة فى السماء ، واعتبرت الدولة الله رئيس شرطتها السرية . كتب شامفور والثورة تدور رحاها يقول إن « الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة ، وقد أطاح به فولتير »(١٢٨) . وذهب توكفيل فى ١٨٥٦ إلى أن « سوء السمعة العام الذى انحدر إليه الإيمان الدينى كله فى نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر فى سير الثورة برمته »(١٢٩) .

ثم انتقلت الشكوكية التى مزقت اللاهوت القديم شيئاً فشيئاً إلى نقد المؤسسات والشئون العلمانية . وقد ندد الفلاسـفة بالفقر والقنية كما نددوا بالتعصب والخرافة ، وكافحوا ليقلصوا سلطان أمراء الإقطاع على طبقة الفلاحين . واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التى وجهت إليهم ، وفقد الكثير منهم الثقة فى تفوقهم الطبيعى وحقوقهم المتوارثة . استمع إلى الكونت لوى — فليب د سيجور» :

«كنا نقاداً شديدى الاحتقار للعادات القديمة ، ولكبرياء آبائنا الإقطاعية ومراسمهم المتزمته . . . وشعرنا بالميل إلى أن نتبع فى تحمس العقائد الفلسفية التى جهر بها الكتاب الأذكياء الجسورون . واجتذب فولتير انتباهنا ، ومس روسو قلوبنا . . . ولذنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم . . . فاستمتعنا فى وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء ومتع الفلسفة الشعبية »(١٣٠) .

وكان من هؤلاء الأشراف الذين وخزهم ضميرهم أشخاص ذوو نفوذ كميرابو الأب والإبن ، ولاروشفوكو — ليانكور ، ولافاييت ، والفيكونت لوى — مارى دنواى ، و « فليب إيجاليته » (مساواة) ، والدوق أورليان ؛ ثم لنذكر المعونة والمواساة اللتين قدمهما لروسو المرشال لكسبورج ولوى — فرانسوا البوربونى أمير كونتى . وقد قادت الأقلية الليبرالية التى حفزتها غارات الفلاحين على الملكية الإقطاعية أمراء الإقطاع فى الجمعية التأسيسية على التخلى عن معظم حقوقهم الإقطاعية لقاء تعويضات (٤ أغسطس ١٧٨٩) . لا بل إن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التى أعان الفلاسفة على نشرها . وكان أبو لويس السادس عشر يحفظ عن ظهر قلب فقرات كثيرة من كتاب مونتسكيو « روح القوانين » ، وقد قرأ كتاب روسو « العقد الاجتماعى » وحكم بأنه « سليم إلى حد كبير » فيما خلا نقده للمسيحية . وعلم أبناءه (الذين أصبح ثلاثة منهم ملوكاً) أن « أسباب الامتياز التى تحظون بها لم تعطكم إياها الطبيعة ، التى خلقت الناس كلهم سواسية »(١٣١) . واعترف لويس السادس عشر فى مواسيمه بـ « القانون الطبيعى » و « حقوق الإنسان »(١٣٢) . المترتبة على طبيعة الإنسان بوصفه كائناً عاقلا .

وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية . ولقد استمدت تلك الثورة هى أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة ، وكان « إعلان استقلالها » مديناً للمفكرين الانجليز دينه للمفكرين الفرنسيين ، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلن وجفرسن ، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين . وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسى ، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة فى السلاح ، يعترف بها ملك فرنسى ، وتمضى فى إرساء دستور يدين ببعض الفضل لمونتسكيو .

ولقد مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل . فى الأولى حاول النبلاء عن طريق البرلمانات ، أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذى انتزعه منهم لويس الرابع عشر ، وهؤلاء النبلاء لم يستلهموا جماعة الفلاسفة . وفى

المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم فى الثورة ، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة ، ولكن المعنى الذى فهمته من « المساواة » كان مساواة البورجوازى بالاستقراطى . وفى المرحلة الثالثة انتزع الرياسة زعماء غوغاء المدينة . وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين ، ولكن زعماءهم كانوا قد فقدوا احترامهم للقساوسة والملوك ؛ وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية ، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه . وبعد ٦ أكتوبر ١٧٨٩ ، سيطر اليعاقبة على باريس ، وكان روسو إلاههم . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٩٣ احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل فى كتدرائية نوتردام . وفى تور أحل الثوار تماثيل جديدة تسمى ما بليه ، وروسو ، وفولتير محل تماثيل القديسين. وفى شارتر عام ١٧٩٥ ، فى الكتدرائية الشهيرة ، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين فى حملة على التعصب[١٣٣] .

لاسبيل إلى الشك إذن فى أن الفلاسفة أثروا تأثيراً عميقاً فى أيديولوجية الثورة ودرامتها السياسية . أنهم لم يقصدوا إلى العنف ، أو التقتيل ، أو الجيلوتين ؛ ولو قد شهدوا هذه المناظر الدموية لاقشعروا رعباً ، ولربما قالوا بحق إنه قد أسيء فهمهم على نحو قاس ، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد فى ضبط الغرائز الحيوانية للبشر . وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية فى طريقها فى ظل تلك الآراء الأخاذة والأحداث المرئية ، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الأرستقراطية والملك التسلط على الاقتصاد والدولة ، متذرعة بالفلسفة أداة من مائة أداة أخرى فى بلوغ غايتها تلك .

الفصل السادس والثلاثون

عشية الثورة

١٧٧٤ – ٨٩

١ – الدين والثورة

كانت الكنيسة الكاثوليكية من الناحية المالية أسلم مؤسسة فى البلاد ، تملك نحو ٦ ٪ من الأرض ، وأملاكاً أخرى تقدر قيمتها فى مجموعها بمبلغ يتفاوت بين بليونى جنيه وأربعة بلايين ، وتغل دخلا سنوياً قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه[١] . يضاف إلى هذا ١٢٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من العشور التى تجبى على غلات الأرض وماشيتها[٢] . وكانت هذه الدخول فى نظر الكنيسة لازمة لأداء مختلف وظائفها – وهى دعم الحياة الأسرية ، وتنظيم التعليم (قبل ١٧٦٢) ، وتربية الأخلاق ، وتأييد النظام الاجتماعى ، وتوزيع الصدقات ، ورعاية المرضى ، وتوفير الأديرة ملاذاً للنفوس النزاعة للتأمل أو العازفة عن السياسة يحميها من فوضى الزحام واستبداد الدولة ، وغرس مزيج حكيم من الخوف ، والرجاء ، والتسليم ، فى نفوس ضرب عليها الفقر أو المشقة أو الحزن نتيجة لعدم المساواة الطبيعية بين البشر .

كل أولئك زعمت أنها تفعله بواسطة اكليروسها الذى كان قوامه نحو نصف فى المائة من السكان . وكان عدد رجاله قد تقلص منذ عام ١٧٧٩[٣] ، وأصاب الأديرة اضمحلال خطير . ويروون إن « رهبان كثيرين كانوا يحبذون الأفكار الجديدة ، ويقرأون مؤلفات الفلاسفة »[٤] . وهجر مئات الرهبان حياة الرهبنة ولم يحل محلهم جدد ، وتقلص عددهم فى فرنسا بين ١٧٦٦ و ١٧٨٩ من ٢٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ ، وفى أحد الأديرة

من ثمانين إلى تسعة عشر ، وفى آخر من خمسين إلى أربعه[٥] . وقد أغلق مرسوم ملكى صدر عام ١٧٦٦ جميع الأديرة التى تضم أقل من تسعة نزلاء ، ورفع السن المسموح بها لنذر الرهبنة من ست عشرة سنة إلى إحدى وعشرين للرجال ، وإلى ثمانى عشرة للنساء . وكانت أخلاق الرهبان منحلة . كتب رئيس أساقفة تور فى ١٧٧٨ : « ان الأخوة الرماديين (الفرنسسكان) فى حالة انحطاط فى هذا الإقليم ، ويشكو الأساقفة من خلاعتهم وما فى حياتهم من فوضى »[٦] . أما أديرة الراهبات فكانت فى حالة طيبة . وكان هناك ٣٧,٠٠٠ راهبة يضمهن ١,٥٠٠ دير فى فرنسا عام ١٧٧٤[٧] ، وكانت أخلاقهن فاضلة ، وقد نشطن لمهامهن فى تعليم الفتيات ، والخدمة فى المستشفيات ، وتقديم المأوى للأرامل ، والعوانس ، والنساء اللائى تحطمن فى معركة الحياة .

وحسن حال الأكليروس من غير الرهبان مادياً فى مقار الأسقفيات وساء فى الأبراشيات . وقد كان هناك الكثير من الأساقفة المخلصين المجتهدين ، وبعض الكسالى المتشبثين بمتع الحياة الدنيا . وقد وجد بيرك أثناء زيارته لفرنسا عام ١٧٧٣ بعض الأساقفة ممن يعيبهم الجشع ، ولكن السواد الأعظم منهم وقعوا من نفسه خير موقع بعلمهم ونزاهتهم[٨] . وقد خلص مؤرخ ألم بكتب الفضائح إلى هذا الحكم « يمكن القول بصفة عامة أن الرذائل التى استشرت فى جسم الأكليروس كله خلال القرن السادس عشر قد اختفت فى القرن الثامن عشر . وكان قساوسة الريف عادة رجالا ذوى أخلاق كريمة ، متقشفين ، فضلاء[٩] رغم قانون التبتل » ، وقد شكا كهنة الأبرشيات هؤلاء من الكبرياء الطبقية فى الأساقفة ، وكانوا كلهم نبلاء ، ومن إلزامهم بتحويل الجزء الأكبر من العشور إلى الأسقف ، وما ترتب على ذلك من فقر ألجأ القساوسة إلى أن يفلحوا الأرض كما يخدمون الكنيسة . وقد تأثر لويس السادس عشر من احتجاجاتهم ؛ وأمر برفع رواتبهم من خمسمائة جنيه فى العام إلى سبعمائة . فلما أقبلت الثورة أيد كثيرون من صغار الكهنة الطبقة الثالثة . كذلك ظاهر بعض الأساقفة الإصلاح السياسى والاقتصادى ، ولكن أكثرهم ظل صلباً لا يلين فى عدائه لأى تغييرات فى الكنيسة أو الدولة[١٠].

وحين أشرفت خزانة فرنسا على الإفلاس ظهر ثراء الكنيسة مناقضاً لفقر الدولة تناقضاً مغرياً بالعدوان عليه ، وبدأ أصحاب الصكوك الذين تشككوا فى قدرة الحكومة على دفع فائدة قروضهم أو أصولها يرون فى نزع أملاك الكنيسة السبيل الأوحد لإصلاح مالية البلاد . والتقى رفض العقيدة المسيحية المنتشر مع هذا الدافع الاقتصادية .

وزكا الإيمان الدينى فى القرى ، وخبا فى المدن ؛ وفى المدن احتفظت نساء الطبقتين الوسطى والدنيا بتدينهن التقليدى . قالت مدام فيجيه — ليرون مسترجعة ذكرى ماضيها «كانت أمى تقية جداً . وكنت أنا أيضاً تقية فى قرارة نفسى . وقد ألفنا دائماً أن نستمع إلى القداس المطول ونخاف إلى خدمات الكنيسة »[١١] . وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين فى الآحاد والأعياد الدينية[١٢] . ولكن عدم الإيمان بين الرجال كان قد تسلط على نصف العقول القائدة . وفى أوساط النبلاء أصبحت الشكوكية المرحة زياً راج حتى بين النساء . كتب مرسييه فى كتابه « صورة باريس » فى ١٧٨٣ يقول: « لم يحضر أفراد المجتمع العصرى القداس طوال السنوات العشر الماضية ، فإذا حضروا فلكيلا يصدموا شعور أتباعهم الذين يعرفون أنهم يفعلون هذا إرضاء لهم »[١٣] ، وحذا القطاع الأعلى من الطبقة الوسطى حذو الأرستقراطيين . أما فى المدارس « فإن مدرسين كثيرين سرت إليهم عدوى الإلحاد بعد عام ١٧٧١ »[١٤] ، وأهمل كثير من الطلاب حضور القداس وقرأوا كتب الفلاسفة . وفى ١٧٨٩ صرح الأب بونفاكس بأن «أخطر فضيحة ، والفضيحة التى ستجر أوخم العواقب ، هى الهجر التام تقريباً للتعليم الدينى فى المدارس العامة »[١٥] . وقد قيل عن إحدى الكليات أن « ثلاثة من البلهاء فقط » هم الذين يؤمنون بالله[١٦] .

أما بين الأكليروس فقد اختلف الإيمان عكسياً باختلاف الدخول . فالأساقفة « قبلوا المبادىء النفعية التى قال بها جماعة الفلاسفة ، واحتفظوا بالمسيح واجهة ساترة فقط »[١٧] . وكان مئات من رؤساء الأديرة مثل ما يليه ،

وكوندياك ، وموريلليه ، ورينال ، هم أنفسهم « فلاسفة » ، أو معتنقين للشكوك السارية . ثم أساقفة كتاليران لم يتظاهروا بالإيمان المسيحى إلا قليلا ؛ ورؤساء أساقفة مثل لومنيه دبريين ، شكا لويس السادس عشر من عدم إيمانهم بالله[١٨] . وقد رفض لويس أن يكلف قسيساً بتعليم ولده محافة أن يفقد الغلام إيمانه الديني[١٩] .

وواصلت الكنيسة مطالبتها بالرقابة على المطبوعات . ففى عام ١٧٧٠ أرسل الأساقفة إلى الملك مذكرة تناولت « العواقب الخطيرة لحرية التفكير والنشر »[٢٠] . وكانت الحكومة فى عهد لويس الخامس عشر قد تساهلت فى تطبيق القوانين التى منعت دخول البروتستنت إلى فرنسا ، فكان منهم الآن مئات فى المملكة ، يحيون فى ظل قيود سياسية ، وفى زيجات لا تعترف بها الدولة ، وفى خوف كل يوم من أن تطبق عليهم فى أى لحظة قوانين لويس الرابع عشر القديمة . وفى يوليو ١٧٧٥ التمس مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك من الملك أن يحظر اجتماعات البروتستنت ، وزيجاتهم ، وتعليمهم ، وأن يحرم البروتستنت من جميع المناصب العامة ؛ كذلك طلب خفض السن التى يسمح فيها بنذر الرهبنة إلى السادسة عشرة[٢١] . وناشد طورجو لويس السادس عشر أن يغفل هذه المقترحات ، وأن يخفف عن البروتستنت قيودهم ، فشارك الكهنة فى الحملة لإقصائه . وفى ١٧٨١ أحرقت الطبعة الثانية من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى لجزر الهند الشرقية والغربية » بأمر من برلمان باريس ، ونفى المؤلف من فرنسا . وهاجمت الصوربون بوفون لأنه وصف تطوراً طبيعياً للحياة . وفى ١٧٨٥ طالب الأكليروس بالحكم بالسجن المؤبد على الأشخاص الذين يدانون ثلاث مرات بالإلحاد[٢٢] .

غير أن الكنيسة التى أوهن بأسها قرن من الهجمات لم تعد قادرة على الهيمنة على الرأى العام ، ولا على الاعتماد على « الذراع العلمانية » فى تنفيذ أوامرها . فبعد أن ظل لويس السادس عشر شديد القلق بسبب يمين التتويج التى أقسمها لمحق الهرطقة ، أذعن لضغط الأفكار الليبرالية وأصدر فى ١٧٨٧ مرسوماً للتسامح أعاده دالمبرت : « ان عدالتنا لاتسمح لنا بأن نحرم بعد اليوم

من حقوق الدولة المتحضرة رعايانا الذين لا يعترفون بالكاثوليكية »[٢٣] . وقد أبقى المرسوم على حرمان غير الكاثوليك من المناصب العامة ، ولكنه أعطاهم جميع الحقوق المهنية الأخرى ، وسمح لهم بالمهن الحرة ، وأضفى الشرعية على زيجاتهم الماضية والمستقبلة ، وأباح لهم الاحتفال بخدماتهم الدينية فى المنازل الخاصة . ويجب أن نضيف أن أسقفاً كاثوليكياً هو لا لوزرن أيد بقوة تحرير البروتستنت وإطلاق الحرية الكاملة للعبادة الدينية[٢٤] .

ولم تكن هناك طبقة فى مدن فرنسا أبغض إلى أقلية الذكور المتعلمة من الأكليروس الكاثوليك . يقول توكفيل أن الكنيسة كانت مكروهة « لا لأن القساوسة زعموا أنهم ينظمون شئون العالم الآخر ، بل لأنهم كانوا ملاكاً للأرض ، وأصحاب ضياع وعشور وحكاماً فى هذا العالم »[٢٥] وكتب فلاح إلى نكير فى ١٧٨٨ يقول : « إن الفقراء يقاسون البرد والجوع بينما يرتع كهنة الكتدرائيات فى رغد من العيش ولا يفكرون إلا فى تسمين أنفسهم كأنهم خنازير ستذبح للفصح »[٢٦] . وغاظ الطبقات الوسطى إعفاء ثروة الكنيسة من الضرائب .

ولقد كانت معظم الثورات السابقة ثورات اما على الدولة وإما على الكنيسة ، وندر أن نشبت ضدهما معاً فى وقت واحد . فالقبائل الهمجية أطاحت بروما ، ولكنها قبلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . والسوفسطائيون فى اليونان القديمة ودعاة الإصلاح البروتستنتى فى أوربة القرن السادس عشر ، رفضوا الدين السائد ، ولكنهم قبلوا الحكومة القائمة . أما الثورة الفرنسية فإنها هاجمت الملكية والكنيسة جميعاً ، واضطلعت بمهمة ومخاطرة مزدوجة ، هى مهمة الإطاحة بالركيزتين الدينية والدنيوية للنظام الاجتماعى القائم . فهل من عجب أن يركب فرنسا الجنون عقداً من الزمان ؟

٢ — الحياة على شفا الثورة

أدرك الفلاسفة أنهم وقد رفضوا الأسس اللاهوتية للأخلاق ملتزمون أدبياً بالعثور على أساس آخر ، على نسق آخر للإيمان يحمل الناس على السلوك الكريم بوصفهم مواطنين ، وأزواجاً ، وآباء ، وأبناء[٢٧] . ولكنهم لم

يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة على هذا الحيوان البشرى دون ناموس أخلاقى مكرس تكريساً فوق طبيعى . وانتهى فولتير وروسو إلى الاعتراف بالضرورة الأخلاق لإيمان دينى شعبى . وكتب مابليه إلى جون آدمز فى ١٧٨٣ فى « ملاحظات على حكومة . . . الولايات المتحدة الأمريكية » عام ١٧٨٣ منبهاً إلى أن عدم المبالاة بأمور الدين ، مهما كان غير ضار بالأفراد المتنورين العقلانيين ، إلا أنه وبيل على أخلاق الجماهير . ورأى أن على الحكومة أن تضبط وتوجه فكر هؤلاء « الأطفال » كما يفعل الآباء مع أبنائهم الصغار[٢٨] . أما ديدرو فى النصف الثانى من حياته فكر ملياً فى وضع أخلاقيات طبيعية ، ثم اعترف بفشله : « بل إننى لم أجرؤ على أن أخط أول سطر . . ولست أخالنى كفئاً لهذا العمل الجليل »[٢٩] .

ولنسأل الآن أى ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات على المعتقدات فوق الطبيعية ؟ وفى جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا نصور النصف الأول من القرن الثامن عشر فى صورة مثالية . لقد قال فونتنيل قبيل موته فى ١٧٥٧ إنه يتمنى لو مد فى أجله ستون سنة أخرى « لأرى النهاية التى تنتهى إليه الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع الروابط »[٣٠]. فإذا كانت تلك العبارة (التى لعلها لم تنصف الطبقتين الوسطى والدنيا) تعطى صورة صادقة لأخلاق الطبقة العليا فى فرنسا قبل « الموسوعة » (١٧٥١) ، فلن نكون محقين إذا عزونا إلى جماعة الفلاسفة العيوب التى شابت الأخلاق فى النصف الثانى من القرن . ذلك أن عوامل أخرى غير اضمحلال الإيمان الدينى كانت توهن قوة الناموس الأخلاقى القديم ، فتكاثر الثروة مكن الناموس من الإنفاق على آثام كانت من قبل غالية التكلفة . وقد صور لنا رستيف دلابرتون بورجوازياً فاضلا يتحسر على تدهور الخلق الفرنسى بانتقال السكان من القرى والمزارع إلى المدن[٣١] ؛ وكان الشبان يهربون من النظام المفروض عليهم فى الأسرة ، والمزرعة ، والناحية ، إلى حياة المدن بما فيها من اتصالات وفرص مؤذية ، واختفاء للشخصية بين حشود المدينة . وفى كتابه « ليالى باريس » وصف رستيف باريس الثمانينيات كأنها دردور هائل عنيف يعج بالأحداث المنحرفين ، وصغار اللصوص ،

ومحترفى الإجرام ، والبغايا إناثاً وذكورا . وذهب تين إلى أن فرنسا فى ١٧٥٦ — ٨٨ ابتليت « بالمتشردين » والمتسولين ، وبكل ضروب النفوس العنيدة . . . الكريهة ، القذرة ، الشرسة ، المتوحشة ، التى ولدها النظام ؛ وقد تجمعت كالحشرات على كل قرحة اجتماعية »[٣٢] . وكانت حثالة الكائن الاجتماعى هذه نتائج الطبيعة البشرية وحكم البوربون ، ولا يمكن أن تعزى إلى الفلسفة أو انطفاء شعلة الإيمان .

وربما كان بعض القمار الذى ازدهر فى باريس (كما فى لندن) مرتبطاً بعدم الإيمان ، ولكن الجميع شاركوا فيه ، أتقياء وعصاة على حد سواء . وفى ١٧٧٦ ألغيت جميع ألوان اليانصيب الخاص لتدمج فى « اليانصيب الملكى » . ومع ذلك يجوز أن نعزو إلى حد معقول شطراً من الفوضى الجنسية فى الطبقات العليا إلى الإلحاد . ففى كتاب شودرلو دلاكلو « العلاقات الغرامية الخطرة » (١٧٨٢) نجد أشرافاً وهميين يتبادلون الملاحظات فى فن الإغواء ، ويضعون الخطط لفض بكارة فتاة فى الخامسة عشرة بمجرد تركها الدير ، ويعتنقون فلسفة العدمية الأخلاقية . وحجة البطل ، الفيكونت فالمون ، أن جميع الناس أشرار فى رغباتهم على السواء ، ولكن أكثرهم يخفقون فى تحقيقها لأنهم يسمحون للتقاليد الأخلاقية أن تخوفهم . ويقول فالمون أن الرجل العاقل يسعى إلى اشباع أى أحاسيس تعده بأعظم لذة ، ويحتقره كل النواهى الأخلاقية[٣٣] . ويحضرنا فى هـــذا المقام أن بعض السوفسطائين اليونان توصلوا إلى مثل هذه النتائج بعد أن نبذوا آلهتهم[٣٤] .

وفلسفة انعدام الحس الأخلاقى هذه ، كما يعرف العالم كله الآن ، غلا فيها غلواً مقززاً الكونت دساد — الذى يسمى خطأ عادة بالمركيز دساد . وقد ولد فى باريس عام ١٧٤٠ ، وخدم فى الجيش اثنتى عشرة سنة ، وقبض عليه وحكم عليه بالإعدام بتهم اللواط (١٧٧٢) ، ثم فر ، وقبض عليه ، وفر ثانية ، وقبض عليه من جديد ، ثم حكم عليه بالسجن فى الباستيل . وهناك ألف عدة قصص وتمثيليات ، فيها من الفحش والبذاءة ما اتسع له خياله : وأهمها « جوستين » (١٧٩١) ، و « قصة جولييت ، أو ازدهار

الرذيلة » (١٧٩٢) . وهو يزعم أنه مادام الإله غير موجود ، فإن العاقل من سعى إلى إشباع كل رغبة ما استطاع دون أن يجر عليه عقوبة أرضية . وكل الرغبات خيرة على السواء ، وكل الفوارق الأخلاقية أوهام ؛ والعلاقات الجنسية الشاذة مشروعة ؛ وهي ليست في حقيقتها شاذة ؛ والجريمة ممتعة لو تجنبت افتضاح أمرك ؛ وقل أن تجد شيئاً ألذ من ضربك فتاة جميلة . ولم يصدم القراء بانعدام الحس الأخلاقي عند دساد كما صدموا بالماعة إلى أن القضاء المبرم على النوع الإنساني لن يصيب الكون بأى أذى يذكر حتى أنه « لن يقف مسيره أكثر مما لو باد نوع الأرانب البرية أو البيئية كله »[٣٥] . وفي ١٧٨٩ نقل دساد إلى مستشفى الأمراض العقلية في شارنتون ، ثم أفرج عنه في ١٧٩٠ ، وحكم عليه بالعودة في ١٨٠٣ لاستعصاء شفائه ، ومات في ١٨١٤ .

وقد يدفع الفلاسفة بأن هذا الانعدام للحس الأخلاقي هو استنتاج خلق لنقدهم اللاهوت المسيحي ، وأن العقل السليم يقر الالتزامات لأدبية سواء دان أو لم يدن بالإيمان الديني ، وقد أقرها كثيرون . وكان بين سكان فرنسا — بل سكان باريس — الأسوياء في تلك السنين عناصر كثيرة للتجدد الأخلاقي : ازدياد رقة العاطفة والحنان ، وانتصارات الحب الرومانسي على زيجات المصلحة ، والأم الشابة ترضع طفلها بفخر ، والزوج يتودد إلى زوجته ، والأسرة ترد إلى سابق وحدتها باعتبارها أسلم منبع للنظام الاجتماعي . وكثيراً ماكانت هذه التطورات ممتزجة ببقايا من العقيدة المسيحية ، أو بفلسفة روسو نصف المسيحية ، ولكن ديدرو الملحد أيدها تأييداً حماسياً .

وقد أعقب موت لويس الخامس عشر انتقاض على إباحيته الجنسية . وضرب لويس السادس عشر المثل الطيب ببساطة لباسه وحياته ، وبوفائه لزوجته ، وبأدانته للقمار . وشاركت الملكة ذاتها في زى البساطة ، وقادت حركة إحياء الحساسية ورقة العاطفة . وجرت الأكاديمية الفرنسية على منح جائزة كل سنة للفضيلة البارزة[٣٦] . وكان أكثر الأدب مهذباً ، ونحيت قصص كريبيون الإبن جانباً ، وقررت قصة برناردان دسان — بيير « بول وفرجيني » طابع الطهارة الخلقية في الحب . وعكس الفن الأخلاق الجديدة ، ومجد جروز ومدام فيجيه — لبرون الأطفال والأمومة .

وغذت المسيحية والفلسفة معاً نزعة إنسانية بثت المئات من أعمال البر والخير . وفى شتاء ١٧٨٤ القارس خصص لويس السادس عشر ثلاثة ملايين من الجنيهات لإغاثة الفقراء ، وشاركت مارى أنطوانيت بمائتى ألف من جيبها الخاص ، وحذا الكثيرون حذوهما . وساعد الملك والملكة على تمويل مدرسة الصم والبكم التى أسسها الأبيه دليبيه فى ١٧٨٨ لتعليم أبجديته الجديدة التى ابتكرها للصم والبكم ، ومدرسة الأطفال المكفوفين التى افتتحها فالنتان هاوى فى ١٧٨٤ . وأسست مدام نكير (١٧٧٨) ملجأ ومستشفى للفقراء ، ظلت تشرف عليهما بشخصها عشرة أعوام . ووزعت الكنائس ، وأديرة الرهبان والراهبات ، الطعام والدواء . وفى هذا العهد تشكلت حملة لإلغاء الرق .

كذلك كانت آداب السلوك كالأخلاق انعكاساً لعصر روسو . فهى لم تبلغ قط فى عهد ملوك البوربون هذا المبلغ من الدمقراطية . صحيح أن الفوارق الطبقية ظلت قائمة ، ولكن خفف منها لطف أعظم ومجاملة أوسع . وكان الموهوبون من الرجال ، الذين لا يحملون ألقاب شرف ، يلقون الترحيب فى أعرق البيوت محتداً . ومرة قفزت الملكة من مركبتها لتعين حوذياً جريحاً ، ورفع الملك وأخوه الكونت دارتوا بكتفيهما العجلة ليساعدا عاملا على تخليص عربته من الوحل . وأصبح اللباس أبسط : فاختفت البواريك ، وتخلى السادة ، إلا فى البلاط ، من مطرزاتهم ، ومخرماتهم ، وسيوفهم ، بحيث كان من العسير فى عام ١٧٨٩ أن ينبىء المرء عن طبقة رجل من زيه . وحين استهوى فرانكلن فرنسا استسلم له حتى الخياطون ؛ وظهر الناس فى الشوارع « يلبسون على الطريقة الفرانكلينية قماشاً خشناً ، وحذاء سميكاً »(٣٧) .

أما سيدات الطبقة البورجوازية فتزين فى لباسهن تزين سيدات البلاط . وبعد ١٧٨٠ نبذت النساء الطوق الحديدى الثقيل ، ولكنهن حصن قوامهن بتنانير قاسية يلبسنها متراكبة كالأحجية الصينية المعقدة . وقصرت الصدارات من أمام ، ولكن الصدر كان عادة يغطى بمنديل مثلث يسمونه (رباط) ،

وفى الإمكان تكثيف هذه المناديل لستر النهود النحيلة ، ومن ثم سماها الفرنسيون المناديل « الغشاشة » أو « الكاذبة »[٣٨] . وظلت تسريحات الشعر عالية ، ولكن حين فقدت مارى أنطوانيت معظم شعرها أثناء حمل لها أحلت العقاص محل تسريحة « البرج » ، وانتشرت هذه الموضة الجديدة من البلاط إلى باريس . وكان هنالك مائتا طراز لقبعات النساء ؛ وكان بعضها هيا كل ضعيفة من السلك ، والريش ، والأشرطة ، والأزهار ، والخضر الاصطناعية ؛ ولكن النساء اتبعن فى أوقاتهن الأكثر دعة واسترخاء الطراز الذى ابتدعته الملكة فى البتى تريانون ، والذى يغطى الرأس بوشاح بسيط . وفى أعظم الثورات قاطبه لبس بعض النساء الأحذية الواطئة أو الإخفاف المريحة[٣٩] .

ورافق هذا التغيير إلى لباس أروح وأيسر أسلوب فى العيش أصح . وأقبلت قلة متزايدة على « العيشة الطبيعية » : فلا مشدات ، ولا خدم ، ومزيد من الحياة فى الهواء الطلق ، وهروب من المدن إلى الريف كلما أمكن . كتب آرثر ينج يقول «كل من يملك بيتاً فى الريف يهرع إليه ، ومن لايملك يزور من يملك . والثورة التى قلبت آداب السلوك الفرنسية هى ولاريب من أفضل الملامح التى أخذوها عن انجلتره . وقد زاد ادخالها يسراً سحر مؤلفات روسو»[٤٠] . غير أن الكثير من هذا « الرجوع إلى الطبيعة » كان كلاماً أو عاطفة أكثر منه عملا أو واقعاً ، وظلت الحياة فى باريس تجرى فى سباق مجنون مع الحفلات الموسيقية ، والأوبرات ، والتمثيليات ، وسباقات الخيل ، ورياضات الماء ، وألعاب الورق ، والرقص ، والحفلات الراقصة ، والدردشة ، والصالونات .

الصالونات (Salonniéres)

جملت النساء الفرنسيات اضمحلال الإقطاعية لا بمفاتن أشخاصهن وأزيائهن فحسب ، بل بقدرتهن التى لاتبارى على جعل المجتمع الفرنسى جزءاً حيوياً من الحياة الفكرية للأمة ، لا مجرد اجتماعات للثرثرة والقيل والقال . كتب جبون بعد أن وصل فى ١٧٧٧ ما انقطع بينه وبين صالونات باريس يقول :

« لو أتيح ليوليانوس الآن أن يلم من جديد بعاصمة فرنسا (حيث ولد عام ٣٣١م) . لاستطاع أن يتبادل الحديث مع علماء وعباقرة قادرين على فهم تلميذ من تلاميذ اليونان وعلى تعليمه ، ولعله مغتفر تلك الحماقات اللطيفة التى تند عن أمة لم يوهن روحها الحربية قط حبها للترف ، وهو لابد مصفق لكمال ذلك الفن الرفيع الذى يرقق ويهذب ويجمل علاقات الحياة الاجتماعية »[41] .

ثم أضاف فى إحدى رسائله « لقد بدا لى دائماً أن النساء فى لوزان ، كما فى باريس ، أرقى كثيراً من الرجال »[42] .

وكانت قدامى الصالونيات يخلين المسرح على كره . فمدام جوفران ماتت عام ١٧٧٧ كما سبق القول . أما مدام دودفان فقد أوشكت أن تتم عبور القرن من أوله لآخره ، فقد دخلت التاريخ بوصفها إحدى خليلات الوصى على العرش[43] . وافتتحت صالوناً اتصل نشاطه من ١٧٣٩ إلى ١٧٨٠ ، وكانت قد خسرت معظم سباع الأدب ، إذ ظفرت بهم جولى دلسبيناس والصالونات الجديدة ، وقد وجد هوراس ولبول — الذى قدم إليها لأول مرة فى ١٧٦٥ — تشكيلتها من الشيوخ الأرستقراطيين مملة لا تثير اهتمامه : « إننى أتناول عشائى هناك مرتين كل أسبوع ، وأحتمل عشراءها المملين كلهم لأجل خاطر الوصى على العرش»[44] ، وهو يعنى ذكرياتها المرحة لفترة الوصاية الرائعة تلك التى قررت طابع المجتمع الفرنسى والأخلاق الفرنسية طوال الستين عاماً التالية . أما هى ذاتها (فى عبارة هوراس) « فلذيذة (فى الثامنة والستين) ، تواقة لمعرفة ما يجرى كل يوم توق لما جرى فى القرن الماضى » .

وقد أعجب بفكرها إعجاباً مفرطاً — لأنه لم يلتق قط بمثل هذا الذكاء اللامع فى نساء انجلترا اللائى مازلن مقهورات مكبوتات — حتى لقد ألف أن يلم بها كل يوم ، وقدم لها من التحية والأطراء ما بدا معيداً شبابها الذهبى ، وأفردت هى له مقعداً خاصاً يحجز له دائماً ، ووفرت له التدليل بكل لون من ألوان اهتمام المرأة ورعايتها . وإذ كان فى طبيعتها بعض الذكورة ، فإن

رقته الأنثوية تقريباً لم تسؤها . واستطاعت وهى عاجزة عن رؤيته أن تشكل صورتها عنه كما يشتهيها قلبها ثم أحبت تلك الصورة . أما هو فلم يستطع قط وهو المبصر أن ينسى شيخوختها وعجزها البدنى . وحين عاد إلى انجلتره راحت تدبج له رسائل فيها من حرارة الحب ما يقرب مما فى رسائل جولى دلسبيناس إلى جيبير ، مكتوبة بأروع ماأبداه ذلك العصر من نثر . وقد حاولت ردوده على رسائلها أن تكبح فرحتها ، وكان يقشعر فرقاً إذا خطر له ما قد يفعله كتاب انجلتره الهجاءون (مثل سلوين) بمثل هذه الأكلة المثيرة لشهية الهجاء . واحتملت لومه ، وأكدت حبها من جديد ، ووافقت على أن تسميه صداقة ، ولكنها أكدت له أن الصداقة فى فرنسا كثيراً ما تكون أعمق وأقوى من الحب . « انني ملكك أكثر منى ملك نفسى . . . وددت لواستطعت أن أبعث إليك بروحى بدلا من رسالة . وانى لأبذل السنين من عمرى عن طيب خاطر لأضمن وجودى على قيد الحياة حين تعود إلى باريس » وقد شبهته بمونتانى « وهذا أسمى مديح فى وسعى أن أخصك به ، لأنى لا أجد فكراً يعدل فكرة انصافاً ونصوعاً »[٤٥] .

ثم عاد إلى باريس فى أغسطس ١٧٦٧ . وانتظرته فى انفعال العذارى « أخيراً ، أخيراً ، لم يعد يفرقنا بحر . لا أستطيع أن أحمل نفسى على أن أصدق أن رجلا له شأنك فى الحياة ، ويداه على عجلة حكومة عظمى ، وإذن على عجلة أوربا ، فى وسعه . . أن يترك كل شىء ليحضر ويرى عرافة عجوزاً فى ركن دير . انه حقاً لأمر بالغ السخف ، ولكننى مسحورة ... فتعال يا معلمى ! ليس هذا حلماً — فأنا أعلم أنى صاحية — سأراك اليوم ! » وأرسلت مركبتها ليستقلها ، فوافاها على الفور . وظل ستة أسابيع يطربها بحضوره ويحزنها بتحذيراته . فلما عاد إلى انجلتره لم تستطع أن تفكر إلا فى رجوعه إلى باريس ، « ستجعل غروبى أجمل وأسعد كثيراً من ظهيرتى أو فجرى . أن تلميذتك ، المطيعة طاعة طفل ، لا أمنية لها إلا أن تراك »[٤٦] .

وفى ٣٠ مارس ١٧٧٣ طلب إليها أن تكف عن الكتابة[٤٧] . ثم لانت قناته واستؤنفت الرسائل بينهما . وفى فبراير ١٧٧٥ طلب إليها أن ترد إليه جميع رسائله ، فامتثلت ، مع إلماعة رقيقة إلى رغبتها فى أن يرد إليها رسائلها

« سيكون لديك ما يكفي لإثارة أحاسيسك الحارة مدى طويلا ان أضفت إلى رسائلك كل الرسائل التي تلقيتها مني وسيكون هذا انصافاً ولا ريب ، ولكني أترك هذا الأمر لحكمتك »(٤٨) . ولم يبق من رسائله الثمانمائة إليها غير تسع عشرة ، أما رسائلها فقد احتفظ بها كلها ، ونشرت بعد موت ولبول . وحين سمع أن معاشها توقف عرض أن يعوضه من إيراده الخاص ، ولكنها لم تر ضرورة لهذا .

وقد زاد انهيار غرامها من قتامة ذلك التشاؤم الطبيعي لامرأة فقدت ألوان الحياة ولكنها عرفت أمواهها الضحلة والعميقة . فقد استطاعت حتى في عماها ، أن تنفذ ببصيرتها خلال الظاهر الأنيق لتصل إلى أنانية البشر التي لا يدركها التعب . وقد سألت ولبول « يامعلمي المسكين ، ألم تلق غير الوحوش ، والتماسيح ، والضباع ؟ أما أنا فلا أرى غير الحمقى ، والبله ، والكذابين ، والقوم الحاسدين ، الغادرين أحياناً .. ان كل من أراه هنا يذبل روحي . فلست أجد في أحد فضيلة ، ولا إخلاصاً ، ولا بساطة »(٤٩) . ولم يبق لها غير أثارة من إيمان ديني يعزيها . ومع ذلك فقد واصلت حفلات عشائها ، مرتين في الأسبوع عادة ، وكثيراً ما كانت تتغذى خارج مسكنها ، ولو هروباً من سأم أيام مظلمة كالليالي .

وأخيراً كفت عن التشبث بالحياة بعد أن تعلمت أن تكرهها ، وراضت نفسها على تقبل الموت . وكانت الأمراض التي تبتلي بها الشيخوخة قد تفاقمت واصطلحت عليها ، فشعرت وهي في الثالثة والثمانين بأنها أضعف من أن تقاومها . واستدعت كاهناً وأسلمت نفسها للأمل دون كبير إيمان . وفي أغسطس ١٧٨٠ بعثت بآخر رسالة إلى ولبول تقول :

« إنني اليوم أسوأ حالا . . . ولست أخال لهذه الحال معنى إلا النهاية . وليس في من القوة ما يكفي للإحساس بالخوف ، وبما أنه قدر على ألا أراك مرة أخرى فليس لدي ما أسف عليه . . . فسل نفسك يا صديقي ما استطعت . ولا تبتئس لحالتي . . . وسوف تأسف علي ، لأن المرء يطيب له أن يعرف أنه محبوب »(٥) .

وماتت فى ٢٣ سبتمبر تاركة لولبول أوراقها وكلبها .

وواصلت الكثيرات غيرها من الصالونيات هذا التقليد الجليل : السيدات دودتو ، ودبينيه ، ودنى ، ودجنليس ، ولكسمبور ، وكوندورسيه وبوفليه ، وشوازيل ، وجرامون ، وبوهارنيه (زوجة عم لجوزفين) . يضاف إليهن جمعاً آخر صالونات ما قبل الثورة ، وهو صالون مدام نكير العظيم . وقد بدأت حوالى ١٧٧٠ حفلات استقبالها فى الجمعة من كل أسبوع ، ثم أضافت الثلاثاء بعد ذلك وفيه كانت الموسيقى هى الغالبة على الندوة ؛ وهناك قسمت المدعوين للعشاء حرب جلوك — بلتشينى حزين ، ثم وحدت بينهم الآنسة كليرون بتلاوتها فقرات من أحب أدوارها التمثيلية إليها . وفى الجمع كان رواد الصالون يلتقون بديدرو ، ومارمونتيل ، وموريليه ، ودالامبير (بعد موت جولى) ، وسان — لامبير ، وجريم (بعد موت مدام دبينيه) ، وجبون ، وزينال ، وبوفون ، وجيبير ، وجاليانى ، وبيجال ، وأنطوان توما صديق سوزان الأديب الأثير لديها . وفى أحد هذه الاجتماعات (أبريل ١٧٧٠) طرقت فكرة إقامة تمثال لفولتير . هناك كان ديدرو يكتت هرطقاته ، وهناك كاد يصبح رجلا مهذباً مصقولا . كتب إلى مدام نكير يقول « مما يؤسفنى أن الحظ لم يواتنى بمعرفتك فى وقت أسبق ، وإلا لكنت بلا ريب بعثت فى إحساساً بالنقاء والرقة يسرى من نفسى إلى كتبى »[٥١] . ولم يبد غيره رأيهم فيها بمثل هذا الثناء . فمارمونتيل مثلا ، وهو الذى ظل صديقاً لها خمسة وعشرين عاماً ، وصف سوزان فى مذكراته بهذه العبارات : « لم تؤت شيئاً من مفاتن الشابات الفرنسيات لجهلها بآداب باريس وعاداتها .. فلا ذوق فى لباسها ، ولا يسر فى حركاتها ، ولا سحر فى أدبها ، وكان ذهنها ، كما كان تعبير وجهها ، ثابتين ثباتاً مفرطاً بحيث أفتقدا الخفة والرشاقة . وكان أكثر صفاتها جاذبية هى المجاملة ، والإخلاص ، ورقة الفؤاد »[٥٢] . ولم تحبها نساء الطبقة الأرستقراطية . مثال ذلك أن البارونه دوبركيرش التى زارت آل نكير مع الغراندوق بول فى ١٧٨٢ لم تر فيها « ببساطة أكثر من مربية »[٥٣] ، أما المركيزه دكريكى فقد مزقتها إرباً فى صفحات مشحونة بالغل الظريف[٥٤] ، ولا بد أن مدام نكير أوتيت الكثير من الخصال

الطيبة حتى ظفرت بحب جبون الدائم ، ولكنها لم تتغلب تماماً على تراثها الكالفنى إطلاقاً ، فظلت متزمتة صارمة التدين رغم ثرائها ، ولم تكتسب قط ذلك المرح الراقى الذى توقعه الرجال الفرنسيون من النساء .

وفى ١٧٦٦ أنجبت الفتاة التى أصبحت فيما بعد مدام دستال . وقد غدت هذه الفتاة جرمين نكير — التى شبت وترعرعت بين الفلاسفة والحكام — عالمة وهى فى العاشرة . وجعلها نبوغها المبكر مفخرة لأبويها إلى أن أرهق مزاجها العنيد العصبى أعصاب أمها . وقد أخضعت سوزان ابنتها لنظام صارم لأن الأم كانت تزداد غلواً فى المحافظة كل يوم ، فتمردت الفتاة ، وأصبح الشقاق فى هذا البيت الأنيق منافساً للفوضى الضاربة فى مالية الدولة . وأضافت إلى تعاسة الأم تلك المصاعب التى لقيها نكير فى محاولته تفادى إفلاس الحكومة رغم الحرب الأمريكية ، وكرهها الكل نقد توجهه إليه الصحافة ، حتى بدأت سوزان تحن إلى الحياة الهادئة التى كانت تحياها فى سويسرة .

وفى ١٧٨٦ تزوجت جرمين ، واضطلعت ببعض واجبات المضيفة فى صالون أمها . غير أن الصالون الفرنسى كان آخذاً فى الاضمحلال . فالنقاش الأدبى كان يخلى مكانه للسياسة المتحمسة المتحزبة . كتبت سوزان إلى صديقة فى ١٧٨٦ تقول « ليس عندى أنباء أدبية أسوقها إليك ، فحديث الأدب لم يعد الآن موضة العصر ، والأزمة بالغة الشدة ، والناس لا يهتمون بلعب الشطرنج وهم على شفا جرف هار»[٥٦] . وفى ١٧٩٠ انتقلت الأسرة إلى كوبيه ، وهو قصر ريفى اشتراه نكير على سواحل بحيرة جنيف الشمالية ، وهناك ملكت مدام دستال ، وعانت مدام نكير سنوات من مرض عصبى أليم قضى على حياتها فى ١٧٩٤ .

٤ — الموسيقى

كتب موتسارت من باريس فى أول مايو ١٧٧٨ : « من حيث الموسيقى أرانى محاطاً بوحوش ضاربة لا أكثر . . . سل أى شخص شئت — شريطة ألا يكون فرنسى المولد — فإذا كان له أى علم بالموضوع أجاب بهذا الجواب بالضبط . . سأكون شاكراً الإله القدير إذا هربت دون أن يفسد ذوقى »[٥٦] .

وهذا حكم صارم ولكن جريم وجولدونى وافقا عليه[٥٧] . إلا أن هؤلاء النقاد الثلاثة كانوا كلهم أجانب . وقد عكس الذوق الموسيقى للباريسيين من علية القوم آدابهم ، فمال إلى القصد فى التعبير والرتابة فى الشكل ، وظل يردد أصداء عصر لويس الرابع عشر . ومع ذلك ففى هذه السنوات الأولى للحكم الجديد بالضبط فقد نصف باريس قصدهم ، وربما آدابهم ، فى وطيس المعركة الدائرة حول بكينى وجلوك . تأمل رسالة جولى ليسبيناس المؤرخة ٢٢ سبتمبر ١٧٧٤ ، « انى أشاهد باستمرار « أورفى وأوريد يتشى » وأنا تواقة إلى لاستماع مراراً وتكرار فى اليوم لذلك اللحن الذى يمزق نياط قلبى « لقد فقدت حبيبتى أوريد يتشى »[٥٨] . ان باريس لم تكن صماء لاتستطيب الموسيقى ، وان زاد ما استوردته منها على ما أنتجته .

وفى ١٧٥١ قدم فرنسوا — جوزف جوسيك ، البالغ سبعة عشر ربيعاً ، من موطنه هاينو إلى باريس يحمل خطاب تقديم إلى راموا . وحصل له الفنان العجوز على وظيفة قائد للأوركستر الخاص الذى يديره الكسندر — جوزف دلابويلنير . وألف جوسيك لهذه « الفرقة » (١٧٥٤ وما بعدها) سمفونيات سبقت سمفونية هيدن الأولى بخمس سنوات ، وفى ١٧٥٤ نشر رباعيات سبقت رباعية هيدن بسنة . وفى ١٧٦٠ قدم فى كنيسة سان روش « قداس الموتى» الذى استحدث فكرة العزف على آلات نفخ «التوبا » خارج الكنيسة . ولم يكن لإقدام جوسيك وتعدد مواهبه نهاية . ففى ١٧٨٤ أسس « مدرسة الغناء الملكية » ، التى أصبحت نواة كونسرفتوار باريس الموسيقى الذائع الصيت . وقد حقق نجاحاً متواطعاً فى الأوبرا ، الهازلة منها والجادة . ثم تكيف مع الثورة ، وألف بعضاً من أشهر أغانيها ، ومنها «ترنيمة للكائن الأعلى» لاحتفال روبسبيير (٨ يونيو ١٧٩٤) . وعمر بعد انحسار جميع موجات السياسة ، ومات فى ١٨٢٩ بالغاً من العمر خمسة وثمانين عاماً .

أما أبرز شخصية فى أوبرا ذلك العهد الفرنسية فهو أندريه جريترى . وكان أجنبياً ككثيرين غيره من أقطاب الموسيقى الفرنسية فى القرن الثامن

عشر ، فقد ولد فى لييج عام ١٧٤١ لعازف كمان . ويروى أنه فى أول مرة تناول فيها القربان طلب إلى الله أن يدعه يموت لتوه ما لم يكتب له أن يكون رجلا صالحاً وموسيقياً عظيماً . فى ذلك اليوم سقطت عارضة خشبية على رأسه وجرحته جرحاً خطيراً ، ثم تماثل للشفاء ، واستنتج أن السماء تعده بمستقبل سام(٥٩) . وكان منذ عامه السادس عشر يعانى دورياً من نزيف داخلى ، يتقيأ فيه ستة أقداح من الدم فى اليوم ، وكان عرضة للإصابة بالحمى وبالهذيان ينتابه بين الحين والحين ، وكاد أحياناً يجن لعجزه عن وقف نغمة موسيقية من التردد فى رأسه دون توقف . ولعلنا نغتفر حتى الموسيقى الرديئة لرجل لقى كل هذا العذاب واحتفظ رغم ذلك بابتهاجه طوال اثنتين وسبعين سنة .

وحين كان فى السابعة عشرة ألف ست سمفونيات كانت من الجودة بحيث حصلت له من كاهن إحدى الكتدرائيات على المال اللازم لسفره إلى روما . وقطع الطريق كله على قدميه فيما روته « المذكرات » الجذابة التى نشرها عام ١٧٩٧(٦٠) ، وخلال الأعوام الثمانية التى أقام فيها بروما حمله نجاح برجوليزى على تأليف الأوبرات الهازلة . فلما جاء باريس (١٧٦٧) لقى التشجيع من ديدرو ، وجريم ، وروسو . ودرس فن الآنسة كليرون المسرحى ، واكتسب مهارة غير عادية فى مواءمة موسيقاه لنبرات الحديث الدرامى وتغيراته ، وحقق فى أوبراته رقة ونعومة غنائيتين كأنهما انعكاس لروح روسو ، وللعودة إلى البساطة ورقة العاطفة فى الحياة الفرنسية . وظل محتفظاً بشعبيته طوال الثورة ، التى أمرت بنشر مؤلفاته على نفقة الحكومة ، وكانت الجموع الثورية تتغنى بألحان من أوبراته . وقد منحه نابليون معاشاً . وقد أحبه الجميع لأن حظه من وصمات العبقرية كان ضئيلا ؛ فهو رقيق القلب ، ودود ، أنيس ، متواضع ، يذكر منافسيه بالخير ، ويؤدى ديونه . وقد أحب روسو مع أن روسو أساء إليه ، واشترى الإرميتاج فى شيخوخته ، وهو الكوخ الذى أقام فيه روسو من قبل . فى ذلك الكوخ ، فى ٢٤ سبتمبر ١٨١٣ ، بينما كان نابليون يحارب أوربا كلها ، مات جريترى .

٥ — الفن فى عصر لويس السادس عشر

واصل « طراز لويس السادس عشر » ، الذى بدأ تقريباً مع مولد لويس السادس عشر (١٧٥٤) ، انتقاضه على شذوذات الباروك المعقدة ورقائق الروكوك الأنثوية ، وتحرك صوب الخطوط الرجولية والنسب السمترية لفن كلاسيكى محدث ألهمته حفائر هركولانيوم وحماسة فنكلمان للفن اليونانى — الرومانى . وأشهر مثال على الطراز الجديد فى العمارة هو البتى تريانو ، ومن الطريف المسلى أن تتفق مدام دوبارى ومارى أنطوانيت ، على ما بينهما من عزوف عن المخالطة ، فى الاستمتاع بهذا التقدير المتواضع للنظام والبساطة الكلاسيكيتين . ومثال جميل آخر هو « قصر اللجيون دونور » الحالى ، والذى بناه باسم « الأوتيل سالم » (١٧٨٢) بيير روسو على ضفة السين اليسرى . وهناك نتاج أضخم لهذا الطراز هو « قصر العدالة » الذى أعيد بناؤه فى ١٧٧٦ ، بمصبعاته الفاخرة من الحديد المشغول فى واجهة « الكور دمية » . أما « مسرح الأوديون القومى » (١٧٧٩) فقد اتخذ نمطاً دورياً قاتماً ؛ وألطف منه المسرح الذى شاده فى أميان (١٧٧٨) جاك روسو بطراز جمع بين الطراز الكلاسيكى وطراز النهضة . وقد بنى فكتور لوى فى بوردو (١٧٧٥) على النمط الكلاسيكى مسرحاً ضخماً وصفه آرثر ينج بأنه « إلى حد كبير أفخم مسرح فى فرنسا ، ولم أر مسرحاً يدانيه »[٦١] .

أما الزخرف الداخلى فقد احتفظ بالأناقة الفرنسية . وكان زى النسيج المزدان بالرسوم فى طريقه إلى الزوال إلا لتغطية الكراسى ذات الذراعين والأرائك ؛ وكان ورق الجدران المرسوم يصل من الصين ، ولكنه استعمل أساساً فى المخادع ، وقسمت جدران الصالونات عادة إلى حشوات من الخشب المشغول ، المنقوش أو المزين بأشكال أو زخارف نباتية عربية تضارع خير نظائرها فى إيطاليا . وأبدع الأثاث المصنوع فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر صممه ونفذه ألمانيان هما جان — هنرى ريزنر ودافيد رونتجن ؛ وتحوى مجموعة ولسن نماذج رائعة صنعت لمارى أنطوانيت والبتى تريانون .

وازدهر فن النحت ، وامتد العمر بببيجال ، وفالكونيه ، وجان —

جاك كافييرى من أيام لويس الخامس . أما أوجستن باجو ، الذى كان قد بدأ العمل فى ذلك العهد ، فقد نال الآن ما يستحقه من تقدير . وقام بتكليف من لويس السادس عشر بنقش الزخارف للباليه — رويال . والباليه — بوربون . وفى تمثاله « هجران بسيخى »[٦٢] حاول التوفيق بين عنصرين فى العهد الجديد — العاطفة الرقيقة والشكل الكلاسيكى . ثم نقل فنه — وزوج ابنته — لكلوديون ، واسمه الحقيقى كلود ميشيل . وقد شق كلوديون طريقاً إلى الثراء بمجموعات من التيرا — كوتا (الطين التضيج) فيها شائبة من الشهوانية ، وبلغ أوجه بتمثال لمونتسكيو[٦٣] . وكل نشوة الجسد تغنى فى تمثاله « الحورية والساطير » المحفوظ بمتحف المتروبولتان للفنون فى نيويورك .

على أن أعظم نحاتى العصر هو جان — أنطوان أودون . وكان أبوه بواباً ، ولكن فى مدرسة للفن . وإذا كانت فرساى مسقط رأس جان ، فقد تنفس النحت من التماثيل التى بثها لويس الرابع عشر فى حدائق لنوتر . وبعد أن درس على بيجال فاز بجائزة روما وهو فى العشرين ، فانطلق إلى إيطاليا (١٧٦٠) . وقد اغتبط البا كامنت الرابع عشر بتمثال « القديس برونو » الذى نحته فى روما اغتباطاً شديداً فعاق عليه بقوله « إن القديس يود أن ينطق لولا أن قواعد رهبنته تفرض الصمت »[٦٤] . وفى باريس نحت أو صب سلسلة متعاقبة من تماثيل ديانا . وتمثال برونزى منها فى مجموعة هنتنجتن يعد آية فى القسمات الكلاسيكية والرشاقة الفرنسية . وأشهر منه تمثال « ديانا العارية » « البرونزى المحفوظ الآن باللوفر ، وقد ضن عليه بمكان فى « صالون » ١٧٨٥ ، ربما (كما قال ناقد) « لأنها كانت أكثر جمالا وعرياً من أن تعرض على الجماهير »[٦٥] ، وأرجح من هذا السبب أن التمثال انتهك الفكرة التقليدية عن ديانا التى تصفها بالعفة .

وقد وجد أودون ككثيرين غيره من فنانى القرن الثامن عشر فى تصوير معاصريه ربحاً يفوق تصوير الربات اللائى لا تنتهك حرماتهن . على أنه قرر أن يكون منصفاً للحقائق وأن يظهر الشخصية لا الوجه . وكان ينفق ساعات كثيرة فى حجرات التشريح بمدارس الطب لدراسة التشريح ، وكان يقيس

رأس من يصوره بعناية كلما استطاع ، ثم ينحت تمثاله أو يصبه وفق هذه المقاييس ، وحين أثير سؤال عن جثة نبشت فى باريس وهل هى حقيقة جثة جون بول جونز كما قيل ، قورن شكل الجمجمة ومقاييسها بشكل الصورة التى صبها أودون فى ١٧٨١ ومقاييسها ، وبلغ من توافق الشكلين أن عد التطابق مؤكداً [٦٦] . وقد نحت فى رخام التمثال الذى صنعه لميرابو كل غارات الجدرى ، وأبرز كل الظلال والتجاعيد ، بل توقد العينين وعمقهما ، والشفتين تنفرجان استعداداً للكلام .

وسرعان ما أسعد جبابرة الثورة أن يجلسوا إليه ليصنع تماثيلهم ، فنقلهم إلينا بأمانة أحالت الرخام والبرونز إلى لحم التاريخ وروحه . وهكذا نستطيع الآن أن نرى فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، وبوفون ، وطورجو ، ولويس السادس عشر ، وكاترين الثانية ، وكاليوسترو ، ولافاييت ، ونابليون ، وناى . وحين قدم فولتير إلى باريس عام ١٧٧٨ صنع له أودون عدة تماثيل تصوره : منها تمثال نصفى برونزى محفوظ الآن فى اللوفر ، يبدو فيه الإرهاق والكلال ، وتمثال نصفى شبيه به فى متحف فكتوريا وألبرت ، وآخر فى مجموعة ولس ، ثم رأس مبتسم مهذب مثالى الشكل طلبه فردريك الأكبر ، وأشهر الكل ذلك التمثال الذى قدمته مدام دنى إلى الكوميدى — فرانسيز : تمثال فولتير جالساً فى روب فضفاض ، أصابع نحيلة تمسك بذراعى المقعد ، وشفاه رقيقة ، وفم أهتم ، وفى العينين الحزينتين مازالت أثارة من مرح — أنه واحد من التماثيل العظيمة فى تاريخ الفن . فى ذلك العام ، حين سمع أودون بوفاة روسو ، هرع إلى أرمنون — فيل وصب قناعاً لغريم فولتير الميت ، ومنه صنع التمثال النصفى المحفوظ الآن باللوفر ، وهو أيضاً آية من آيات الفن .

وكان هناك أبطال أمريكيون أيضاً ، وقد صنع أودون رءوساً تماثيلهم نابضة بالحياة حتى أن قطع العملة المسكوكة فى الولايات المتحدة مازالت تحمل صورة لواشنطن ، وفرانكلن ، وجفرسن . وحين عاد فرانكلن إلى أمريكا عام ١٧٨٥ ذهب أودون معه ؛ وأسرع إلى مونت فرنون وأقنع

واشنطن ، الرجل المشغول النافذ الصبر ، بأن يجلس إليه في فترات متقطعة على مدى أسبوعين ، وهكذا صنع التمثال الذى يزدان به مبنى برلمان الدولة فى رتشموند بفرجينيا — رجل من الجرانيت ، تجلله انتصارات غالية وأعباء باقية . هنا أيضاً نجد ذلك الاتحاد بين الجسد والروح الذى هو علامة فن فن أودون وخاتمه .

مثل هذا النحت كان من الجائز أن يجعل التصوير بالقياس إليه ترفاً صغيراً لولا أن جروز وفراجونار واصلا العمل طوال هذا العهد وخلال الثورة ، لولا أن المصور جاك — لوى دافيد صعد إلى مقام الدكتاتورية على جميع الفنون فى فرنسا فى انطلاقة تبزكيه كانطلاقة نابليون . وقد تعلم تقنيته من عمه البعيد فرانسو بوشيه ، وأصبح رساماً من الطراز الأول ، وأستاذاً أتقن الخط والتأليف أكثر من إتقانه اللون . وقد أدرك بوشيه أن تغير الأخلاق من بومبادور ودوبارى إلى مارى أنطوانيت كان يقلص الطلب على الصور التى تبرز النهود والأرداف ، فنصح دافيد بأن يذهب ويلتقط الأسلوب الكلاسيكى المحدث البسيط فى مرسم جوزف فيان ، الذى كان يرسم الجند الرومان والنساء الأبطال . وفى ١٧٧٥ وافق دافيد فيان إلى روما . وهناك أحس بتأثير فنكلمان ومنجز ، والمنحوتات القديمة فى متحف الفاتيكان ، والأطلال التى كشف عنها فى هركولانبوم وبومبى . وقد قبل مبادىء الكلاسيكية المحدثة ، واتخذ النحت اليونانى نموذجاً يحتذيه فى تصويره .

فلما قفل إلى باريس عرض سلسلة من الموضوعات الكلاسيكية المرسومة بصرامة : أندروماك تبكى على جثمان هكتور (١٧٨٣) ، وقسم الهوراتيين (١٧٨٥) ، وموت سقراط (١٧٨٧) ، وبروتس عائداً من الحكم بالموت على أبنائه (١٧٨٩)[٦٧] . (وتقول الأسطورة التى رواها ليفى أن لوشياس جونيوس بروتس ، حين كان بريتورا لجمهورية روما الفتية (٥٠٩ ق . م) ، حكم على أبنائه بالإعدام لتآمرهم على إعادة الملوك إلى عرش روما) ، وكان دافيد قد رسم هذه الصورة الأخيرة فى روما ، فلما عرضها على الأكاديمية فى باريس حظر عرضها ، ولكن جمهور الفن احتج ،

وأخيراً عرضت اللوحة ، فزادت من حمى العصر الثورية . ورأت باريس فى هذه الرسوم ، وفى الأخلاقيات الصارمة التى عبرت عنها ، ثورة مزدوجة على الروكوك الأرستقراطى والطغيان الملكى . وأصبح دافيد البطل الراديكالى لأستوديوهات باريس .

وقد أنتخب أثناء الثورة عضواً فى المؤتمر ، وفى يناير ١٧٩٣ صوت بالموافقة على إعدام الملك . ثم قتل أحد المتشيعين للملكية عضواً آخر من نواب المؤتمر صوت بالموافقة مثل دافيد (٢٠ يناير ١٧٩٣) ، فعرض جثمانه على الجماهير شهيداً جمهورياً ، ورسم دافيد « آخر لحظات لبوليتييه » ، وعلق المؤتمر اللوحة فى قاعته . وحين قتلت شارلوت كورداى مارا (١٣ يوليو ١٧٩٣) صور دافيد الميت راقداً فى حمامه نصف مغمور فى الماء ، وندر أن كان التصوير ممعناً فى تصويره للواقع إلى هذا الحد ، أو فى تعمده إثارة المشاعر . وقد أرست اللوحتان سجل شهداء الثورة . وعمل دافيد بحماسة لدانتون وروبسبير ، ومكافأة له عين مديراً لجميع ضروب الفن فى باريس .

فلما أن تقلد نابليون زمام السلطة بلقب « القنصل » الرومانى ، رسم دافيد له بذات الحماسة التى رسم بها لزعماء الإرهاب . فرأى فى بونابرت ابن الثورة ، الذى يقاتل ليمنع ملوك أوربا من رد ملك نظيرهم إلى عرش فرنسا . وحين نصب نابليون نفسه امبراطوراً (١٨٠٤) لم يفتر إعجاب دافيد به ، وعينه نابليون مصوراً للبلاط الإمبراطورى فرسم له المصور عدة صورة مشهورة : نابليون يعبر الألب ؛ نابليون يتوج جوزفين ؛ وتوزيع النسور ؛ وقد علقت هذه اللوحات الضخمة بعد ذلك على جدران حجرات قصر فرساى . وأظهر دافيد أثناء ذلك تعدد مواهبه بلوحتين رائعتين رسم فيهما مدام ريكامييه والبابا بيوس السادس[٦٨] . فلما رد آل بوربون نفى دافيد باعتباره من قتلة الملك ، فاعتكف فى بروكسل ، حيث وافته زوجته لتشاركه منفاه (وكانت قد هجرته فى ١٧٩١ لتحمسه للثورة) . وعاد الآن إلى المواضيع الكلاسيكية ، وإلى أسلوب التصوير النحتى الذى حبذه منجز ،

وفى ١٨٢٥ أختتم وهو فى السابعة والسبعين حياة من أروع ما عرف تاريخ الفن .

ومن لوحاته لوحة تصور مدام فيجيه — لبرون ، التى رفضت الثورة وآثرت الملوك والملكات . وقد نشرت وهى تدنو من عامها السابع والثمانين (١٧٥٥ — ١٨٤٢) مذكرات تروى وصفاً لطيفاً لشبابها ، وتذكر قصة محزنة لزواجها ، ويوميات برحلتها الفنية الطويلة ، وصورة لامرأة فاضلة يصدمها عنف التاريخ . وقد مات أبوها وهى فى الثالثة عشرة ، وكان مصور أشخاص ، ولم يترك لها مالا ، ولكن اليزابث كانت تلميذة شديدة الذكاء ، فاستطاعت وهى بعد فى السادسة عشرة أن تكسب دخلا طيباً من صورها . وفى ١٧٧٦ تزوجت مصوراً آخر اسمه بيير البرون ، وكان ابن أخ بعيد لشارل لبرون الذى كان مدير الفنون للويس الرابع عشر . وبدد زوجها ثروتها وثروته (كما تقول) «بشغفه الجامح بالنساء السيئات الخلق ، وبولعه بالقمار»[٦٩] . وقد ولدت له ابنة ، ثم هجرته بعد ذلك بقليل .

وفى ١٧٧٩ رسمت صورة لمارى أنطوانيت ، التى بلغ إعجابها بها أن جلست لها لترسمها فى عشرين لوحه . وتوثقت الصداقة بين المرأتين فكانتا تشتركان فى غناء الألحان الرقيقة التى كان جريترى يستدر بها العبرات من عيون باريس . وقد فتح كل الأبواب أمام المصورة الجذابة هذا العطف الملكى وما تميز بها عملها من أناقة مهذبة . وقد خلعت الحسن على كل امرأة ، ووضعت الورود فى الخدود الذابلة ، ومالبثت كل سيدة ثرية أن اشتاقت للجلوس إليها لتصورها . وكانت تتقاضى أتعاباً يسر لها ارتفاعها الاحتفاظ بشقة غالية وصالون يختلف إليه خيرة موسيقيى باريس .

وقد ذهبت ثلاث مرات لتصور مدام دوبارى فى لوفسيين رغم صداقتها للملكة . وفى المرة الثالثة (١٤ يوليو ١٧٨٩) سمعت قصف المدافع فى باريس . فعادت إلى المدينة لتجد أن الباستيل سقط ، وأن جماهير الغوغاء الظافرة تحمل الرءوس النبيلة على أسنة الرماح الملطخة بالدماء . وفى ٥ أكتوبر بينما كان حشد آخر من الغوغاء يسير صوب فرساى ليأسر الملك والملكة ، جمعت

ما استطاعت جمعه من متاعها وبدأت ثلاثة عشر عاماً من النفى الاختيارى. وقد رسمت فى روما لوحتها المعروفة التى تصورها وتصور ابنتها[٧٠]، وفى نابلى رسمت الليدى هاملتن فى صورة باخوسية[٧١]. ورسمت فى فيينا، وبرلين، وسانت بطرسبرج، وحين أنهت الثورة شوطها قفلت إلى فرنسا (١٨٠٢). وهناك عمرت أربعين سنة أخرى بعد أن انتصرت على غير الدهر كلها، وأحسنت صنعاً بموتها قبل أن تندلع الثورة من جديد.

٦ — الأدب

أنجب الأدب الفرنسى فى الحقبة القصيرة الواقعة بين ١٧٧٤، ١٧٨٩ بعض الآثار المذكورة التى مازالت تجد القراء وتحرك العقول: منها «الحكم» لشامفور، وبول وفرجينى لبرناردان دسان — بيير، والعلاقات الغرامية الخطرة لشودرلو دلاكلو (التى تكلمنا عنها بما فيه الكفاية)، ومجلدات رستيف دلابريتون الكاشفة على ما فيها من فوضى.

تلك كانت جزراً انبعثت من بحر أدبى يموج بالمدارس والمكتبات، ومجموعات القراء، والمحاضرات، والصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، فيض من المداد فيه الزبد وفيه الخمير لم يعرف العالم له نظيراً من قبل. ولم يكن يلم بالقراءة من الشعب الفرنسى غير قلة قليلة[٧٢]، ومع ذلك كان الملايين منهم متعطشين للمعرفة جياشين بالأفكار. واتسع الطلب على الموسوعات، وخلاصات العلم الوافية، وملخصات المعرفة، وكان جماعة الفلاسفة والمصلحون يعلقون الآمال العراض على نشر التعليم.

وكان أكثر التعليم لايزال فى أيدى رجال الدين رغم إقصاء اليسوعيين وإشراف الدولة على المدارس. أما الجامعات المتصلة فى تقاليدها الدينية والسياسية فكانت قد تبلدت وساءت سمعتها، وكانت فى نهاية القرن بادئة لتوها فى الالتفات إلى العلوم. غير أن المحاضرات العامة فى العلم كانت تجد رواداً حريصين عليها، وكانت المدارس التقنية فى ازدياد. وكان كل تلاميذ الكليات تقريباً من الطبقة الوسطى. أما شباب النبلاء فآثروا إحدى

الأكاديميات الحربية الإثنتى عشرة التى أنشأها سان — جرمان عام ١٧٧٦ أو بعده (وفى واحدة منها — بمدينة بريين — كان نابليون بونابرت يتلقى دروسه) . ويروون أن طلبة الكليات «كثيراً ما ألفوا التنظيمات لتأييد المظاهرات السياسية» [٧٣] ، ولما كان عدد خريجى الكليات فى تلك الفترة يجاوز طاقة الاقتصاد الفرنسى على استخدامهم ، فقد بات الخريجون العاطلون مصدراً للسخط والتذمر ، وألف هؤلاء الرجال نشرات أججت نيران الثورة .

وكان للأغنياء مكتبات خاصة فى مقار تحسد عليها ، تضم كتباً تجلد تجليداً فاخراً وتقرأ أحياناً . أما أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا فكانوا ينتفعون بالمكتبات المتنقلة ، أو يشترون كتبهم — وكلها تقريباً ورقية الغلاف — من الأكشاك أو الحوانيت . وفى ١٧٧٤ قدر المبيع من الكتب فى باريس بأربعة أمثال المبيع فى لندن الآهلة بعدد أكثر كثيراً من السكان[٧٤] ، وذكر رستيف دلابريتون أن القراءة قد جعلت عمال باريس « عنيدين »[٧٥] .

أما الصحف فكانت تنمو عدداً وحجماً وتأثيراً . وكانت صحيفة « الجازيت دفرانس » القديمة ، التى أنشئت فى ١٦٣١ ، لا تزال الأداة الرسمية — وغير الموثوق بها — فى نقل الأنباء السياسية . وكانت صحيفة « المركير دفرانس » التى بدأت فى ١٦٧٢ باسم « المركيز جالان » توزع فى ١٧٩٠ ثلاثة عشر ألف نسخة ، وهو توزيع كان يعد ممتازاً ؛ وقد وصفها ميرابو بأنها أكفأ الصحف الفرنسية[٧٦] . وفى ١٧٧٧ صدرت « الجورنال دبارى» — وهى أول الصحف اليومية الفرنسية ، أما صحيفة « المونيتور » الأوسع شهرة فلم تصدر إلا فى ٢٤ نوفمبر ١٧٨٩ . وكان هناك الكثير من الصحف الإقليمية ، مثل « الكوربيه دبروفانس » التى كان يحررها ميرابو الإبن .

وكانت النشرات أو الكراريس فيضاناً غامراً اكتسح فى النهاية كل شيء أمامه ، ففى الشهور الأخيرة من عام ١٧٨٨ صدر منها نحو ٢,٥٠٠ فى فرنسا[٧٧] ،

وكان لبعضها تأثير تاريخي ، مثل كراسة الأبيه سبيس « ما الطبقة الثالثة » أو كراسة كامى دمولان « فرنسا الحرة » . حتى إذا جاء يوليو من عام ١٧٨٩ وجدنا الصحافة أعظم قوة فى فرنسا . وقد وصفها نكير فى ١٧٨٤ بأنها « قوة غير مرئية تملى أوامرها على المدن والمحاكم على السواء ، وحتى فى قصور الملوك ، رغم أنها بلا مال ، وبلا سلاح ، وبلا جيش »(٧٨) . ولعبت الأغانى دوراً فى الدعوة والتحريض ، وقد وصف شامفور الحكومة بأنها ملكية مقيدة بالأغانى الشعبية(٧٩) .

وطوى تيار الثورة شامفور نفسه فانتقل من كونه « شخصاً مرضياً عنه » فى البلاط إلى المشاركة فى اقتحام الباستيل . وقد ولد لبدال ريفى (١٧٤١) ، وقدم إلى باريس وكسب قوته بالحيلة والظرف . وكانت النساء يسكنه ويطعمنه لالشيء إلا للاستمتاع بإثاره حديثه ، وقد كتب عدة مسرحيات ، أبهجت إحداها مارى أنطوانيت كثيراً فأقنعت الملك بأن يمنحه معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه . وعين سكرتيراً لأخت للويس السادس عشر ، وتلقى راتباً إضافياً قدره ألفا جنيه فى العام . وبدا أن كل شيء يربطه بالقضية الملكية ، ولكن فى ١٧٨٣ التقى بميرابو ، فما لبث أن انقلب لاذعاً للحكومة . وهو الذى اقترح على سبيس العنوان اللافت الذى وضعه على كراسته الشهيرة .

وفى هذه الأثناء ، وبوحى من لاروشفوكو ، وفوفنارج ، وفولتير ، دون بإيجاز وعلى عجلة « حكما » أفصحت عن نظرته الساخرة إلى العالم . وقد قالت مدام هلفتيوس التى ظلت تستضيفه فى بيتها بسيفر طوال سنين أربع « كلما جرى حديث بينى وبين شامفور فى الصباح ، كان الحزن يغمرنى بقية اليوم »(٨٠) . وقد رأى الحياة خدعة ينخدع بها الأمل « ان الأمل دجال لايفتأ يحتال علينا ، أما أنا فإن سعادتى لم تبدأ إلا يوم طلقت الأمل »(٨١) . « لو أن الحقائق القاسية ، والاكتشافات المحزنة ، وأسرار المجتمع — التى تتألف منها معرفة رجل الدنيا الذى بلغ الأربعين — عرفها هذا الإنسان نفسه وهو فى العشرين ، لأصابه اليأس ، أو لبات إنساناً فاسداً عن عمد »(٨٢) .

وقد سخر شامفور من العقل ، وهو الذى جاء فى ختام عصر العقل ، ورأى فيه سيداً على العاطفة أقل منه أداة للشر . « ان الإنسان فى حالة المجتمع الراهنة يبدو أكثر فساداً بسبب عقله منه بسبب عواطفه المشبوبة »[٨٣] . أما عن النساء « فمهما بلغ سوء رأى الرجل فيهن ، فما من امرأة لايسوء رأيها فيهن عن رأيه »[٨٤] . والزواج فخ ، « ان الزواج والعزوبة كليهما مجلبة للعناء : وينبغى أن نفضل منهما ما ليست متاعبه بغير دواء»[٨٥] . « ان النساء لا يمنحن للصداقة إلا ما يقترضنه من الحب» [٨٦] . و « الحب الذى يوجد فى المجتمع ليس إلا تبادل أوهام واحتكاك بشرتين [٨٧] .

فلما خرج شامفور من القصور والبيوت الفاخرة إلى شوارع باريس اشتد تشاؤمه . « باريس ، مدينة اللهو واللذة ، حيث يموت أربعة أخماس الناس حزناً ... المكان الذى يفوح نتنه وليس فيه إنسان ينبض قلبه بالحب»[٨٨] .

والعلاج الوحيد لهذه الأحياء الفقيرة هو العقم . « من سوء حظ النوع الإنسانى ، وحسن حظ الطغاة ، أن الفقراء والتعساء لا يملكون غريزة الكبرياء التى يملكها الفيل ، فهو لايتوالد وهو أسير» ... [٨٩] .

وكان أحياناً يسترسل فى الحلم بمثل أعلى « من الضرورى الجمع بين النقائض : حب الفضيلة دون اكتراث للرأى العام ، والميل للعمل دون اكتراث للشهرة ، وحب المرء لصحته دون اكتراث للحياة » [٩٠] . وقد خطر له فى بضع سنين أن يضفى على الحياة معنى بتكريس نفسه للثورة ، ولكن خمس سنين من التعامل مع ميرابو ، ودانتون ، ومارا ، وروبسبيير ، أحيت يأسه من جديد وبدا له يومها أن شعار الثورة « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » أصبح معناه «كن أخى وإلا قتلتك » [٩١] . واختار الانضمام إلى صفوف الجيروند ، وراح يسوط الزعماء الأكثر تطرفاً بدعابته المتهورة . فقبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد قليل . فلما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ثانية ، ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه . ومد فى أجله حتى ١٣ أبريل ١٧٩٤ ثم مات بعد أن قال لسييس ، « انى منطلق فى النهاية من هذا العالم الذى لابد فيه للقلب أما أن ينكسر أو يتقسى .

وإذا كان تأثير فولتير هو الغالب عند شامفور ، فإن تأثير روسو كان كاملا وسافراً فى جاك — هنرى برناردان دسان — بيير . ففى الحادية والثلاثين (١٧٦٨) كلف بوصفه مهندساً بمهمة حكومية فى الأيل دفرانس ، المسماه الآن موريتيوس . فى تلك الجزيرة الجبلية ، المطيرة ، الكثيرة الثمر ، وجد ما خاله « حالة الطبيعة » التى تخيلها روسو — رجالا ونساء يعيشون ملتصقين بالأرض لم تلوثهم رذائل المدنية . فلما عاد إلى فرنسا (١٧٧١) أصبح صديقاً مخلصاً لجان — جاك ، وتعلم أن يحتمل غضباته ، وأن يرى فيه مخلصاً ثانياً للبشرية . وفى كتابه « رحلة إلى الأيل دفرانس » (١٧٧٣) اوصف حياة سكان الجزيرة البسيطة وإيمانهم الدينى الذى يشددهم . وقد رأى أسقف اكس فى هذا الكتاب انتقاضاً سليماً على فولتير ، وحصل للمؤلف على معاش ملكى قدره ألف جنيه . واستجاب برناردان بكتاب عنوانه « دراسات للطبيعة » (١٧٨٤) ، وآخر عنوانه « توافقات الطبيعة » (١٧٩٦) ، وصف فيهما عجائب حياة النبات والحيوان ، وزعم أن الأمثلة الكثيرة للتوفيق ، والهدف ، والخطة ، تثبت وجود عقل أعلى . ووفاق روسو فى تمجيده للوجدان فوق العقل . «كلما تقدم العقل أتانا بالدليل على تفاهتنا ، وبدلا من أن يهدىء أحزاننا بأبحاثه ، فهو كثيراً ما يزيدها بنوره . . أما الوجدان . . . فيعطينا دافعاً سامياً ، وهو إذ يخضع عقولنا يصبح أنبل الغرائز وأكثرها إشباعاً فى حياة البشر»[٩٣] .

وقد ألحق برناردان بالطبعة الثانية من « الدراسات » (١٧٨٨) رواية سماها « بول وفرجينى » ظلت واحدة من عيون الأدب الفرنسى خلال التقلبات الكثيرة التى اعترت الذوق الأدبى ، وخلاصتها أن امرأتين فرنسيتين حبليين تنزلان موريتيوس ، إحداهما مات زوجها ، والأخرى هجرها حبيبها ، وتلد الواحدة بول والأخرى فرجينى . ويشب الطفلان ويترعرعان فى واد فى الجبل ، وسط مناظر رائعة ينتشر فيها أريج الأزهار الطبيعية . ويشكل أخلاقهما حب الأم وتعاليم الدين حتى إذا بلغا الحلم أحب أحدهما الآخر .

إذ ليس حولهما أحد غيرهما . وتبعث فرجيني إلى فرنسا لتتسلم إرثاً ، وهو أمر لايحدث كثيراً فى الحالة الطبيعية . فيعرض عليها هناك الزواج والثراء العريض إن أقامت فى فرنسا ، ولكنها ترفضهما لتعود إلى موريتيوس وبول . ويعدو بول هابطاً إلى الشاطىء ليرى سفينتها وهى تدنو من البر ، وتغمره الفرحة بخواطر الحب والسعادة ، ولكن السفينة تجنح إلى مياه ضحلة فترتطم بالقاع وتحطمها عاصفة . وتغرق فرجيني وهى تحاول الوصول إلى البر ، ويموت بول حزناً عليها .

والكتيب قصيدة منثورة ، رواها المؤلف ببساطة فى الأسلوب، ونقاء وموسيقى فى اللغة لايفوتها كتاب فى الأدب الفرنسى . ووافقت تقواه ورقة عاطفته مزاج الجيل ، ولم يزعج أحداً أن لهاتين المرأتين الفاضلتين ولطفليهما عبيداً(٩٤) . وهلل القوم لبرناردان خلفاً أصيلا لروسو ، وكتبت إليه النساء بنغمة الإعجاب الحار التى طيبت من قبل خاطر مؤلف «اميل» . وحذا برناردان حذو روسو فلم يستغل شهرته ، بل تجنب مخالطة المجتمع ، وعاش عيشة هادئة بين الفقراء . وتركته الثورة دون أن تمسه بسوء . وفى إبان عنفها تزوج وهو فى الخامسة والخمسين من فيليسيتيه ديدو ، البالغة اثنتين وعشرين ربيعاً ، فولدت له طفلين سميا بول وفرجيني . وبعد أن ماتت فيليسيتيه تزوج ثانية وهو فى الثالثة والستين من شابة تدعى ديزيريه وبيلبو ، رعته فى حب حتى مات فى ١٨١٤ . وقبل رحيله شهد بزوغ نجم شاتوبريان الذى تلقى من يديه مشعل الرومانسية والتقوى الفرنسيتين وحمله إلى القرن التاسع عشر .

هذا وقد ظهرت فى هذا العصر كتب أقل شأناً لم يعد الناس يقرءونها اليوم ، ولكنها شاركت فى إعطاء الجيل صوته ولونه . من ذلك أن الأبيه جان — جاك بارتلمى أصدر وهو فى الثانية والسبعين (١٧٨٨) كتاباً سماه « رحلة الفتى أناخارسس فى اليونان » بعد أن عكف على تأليفه ثلاثين عاماً ، وقد زعم الكتاب أنه وصف لطبيعة اليونان وآثارها ومؤسساتها وعاداتها وعملاتها فى القرن الرابع قبل المسيح ، كما رآها رحالة سكوذى . وقد صعد الكتاب إلى قمة الموجة الكلاسيكية ، وكان من أبرز الكتب الكلاسيكية الناجحة فى ذلك العصر ، وكاد يرسى أصول علم العملات فى فرنسا .

ونافس شعبيته كتاب آخر هو «الأطلال ، أو تأملات فى ثورات الامبراطوريات » الذى أصدره الكونت كونستانتان دفولنى فى ١٧٩١ بعد أن قضى أربع سنوات من الرحلة فى مصر والشام . وحين رأى حطام الحضارات القديمة تساءل «من يستطيع أن يؤكد لنا أن مثل هذا الخراب ان يكون يوماً ما مصير بلادنا ؟ » وقد نتردد الآن فى إعطاء جواب متفائل عن هذا السؤال ، ولكن فولنى الذى جاء فى ختام عصر العقل ، والذى ورث كما ورث كوندورسيه كل آماله للبشرية ، أخبر قراءه أن سقوط تلك الإمبراطوريات القديمة مرده جهل شعوبها الذى نجم عن صعوبة نقل المعرفة من إنسان إلى آخر ومن جيل إلى جيل . أما الآن فقد ذللت هذه الصعوبات باختراع الطباعة . فكل ما يلزم منذ الآن لتفادى تدمير الحضارة هو بث المعرفة على نطاق واسع ، الأمر الذى يفضى بالناس والدول إلى المواءمة بين دوافعهم غير الاجتماعية والصالح العام . وفى هذا التوازن بين القوى ستخلى الحرب مكانها للتحكيم ، «وسيصبح النوع الإنسانى بأسره مجتمعاً عظيماً واحداً ، أسرة واحدة تحكمها روح واحدة وقوانين عامة ، وتتمتع بكل السعادة التى فى مقدور الطبيعة البشرية »[٩٥] .

والآن نصل إلى سيرة عجيبة هى سيرة نيقولا — إدمون رستيف دلابريتون ، الذى لقبه بعض معاصريه «روسو البالوعات» و «فولتير خادمات المخادع » ، وهو مؤلف نحو مائتى كتاب ، طبع الكثير منها بيديه وبمطبعته ، وبعضها فيه فحش متعمد ، وكلها يؤلف صورة تفصيلية لأخلاق وعادات الطبقات الدنيا فى عهد لويس السادس عشر .

ففى كتابه «حياة أبى» (١٧٧٩) أعطانا وصفاً صور فيه أباه إدمون فى صورة مثالية مشربة بالحنان ، هذا الأب الذى تذكر أن له « طلعة هرقول ورقة صبية »[٩٦] . أما الإبن فقد سجل حياته هو فى ستة عشر كتاباً مستفيضة عنوانها «مسيو نيقولا» (١٧٩٤ — ٩٧) ، اختلطت فيها الحقيقة بالخيال عن تقلبات حياته وغرامياته وأفكاره . وقد ولد فى بيت بمزرعة (١٧٣٧) فى ساسيه (التى سمى قسم منها لابريتون) ، على عشرين ميلا من أوكسير . ويروى أنه حين بلغ الحادية عشرة أصبح أباً لأول مرة[٩٧] . وفى الرابعة

عشرة أحب جانيت روسو ، وكانت فى السابعة عشرة ، وبدأ إعجابه الذى امتد طوال حياته بأقدام الأنثى «كا شعورى نحوها نقياً رقيقاً كما كان حاداً . . وكانت قدمها الجميلة شيئاً لا أستطيع مقاومته »[٩٨] . ولعل الرغبة فى تخليصه من شراك كهذه هى التى أوحت بإيفاده إلى أوكسير (١٧٥١) ليعمل تلميذاً لطابع . وسرعان ما أغوى زوجته معلمه ، ولكن لا سند لنا لهذه الواقعة غيره . ثم يقول إنه فى الخامسة عشرة كان له خمس عشرة «خليلة» . وبعد أربع سنين من هذه الهواية انتقل إلى باريس ، وهناك استخدم طابعاً باليومية يكسب فرنكين ونصفاً فى اليوم : وهو أجر مكنه من الحصول على طعامه ودفع أجر مومس بين الحين والحين ، وكان إذا قلت موارده نام مع الخادمات[٩٩] . وفى ١٧٦٠ حين كان فى السادسة والعشرين تزوج امرأة تكاد تقاربه خبرة ، واسمها أجنيس لوبيك ، ثم تبين أن كليهما غير وفى لصاحبه . وتم طلاقهما فى ١٧٨٤ ، لا بسبب هذه الزلات ، بل لأن كليهما وقع فى شرك التأليف ، وكانا يتنافسان على الورق والمداد والشهرة .

وكان نيقولا قد بدأ حياته كاتباً فى ١٧٦٧ بقصته « قدم فانشيت » التى كانت قدم الصبية هى « أبرز ملامحها Piéce de résistance وكان أول عمل أدبى ناجح له هو « الفلاح المنحرف» (١٧٧٥) وهو يقص بالرسائل كيف انحرف الفلاح إدمون بعد انتقاله إلى باريس متأثراً بحياة المدينة وفسوقها . فيعلمه ملحد يدعى جودى داراس أن الله أسطورة وأن الأخلاق أكذوبة . وأن كل اللذات مشروعة ، وأن الفضيلة عبء ثقيل لامبرر له على الحقوق الطبيعية لرغباتنا . وأن أول واجباتنا أن نعيش ملء حياتنا ما استطعنا العيش[١٠٠] . ويقبض على أراس ، فيقول له إدمون « يوجد إله » ، ويشنق أراس غير نادم ولا تائب . وقد سمى أحد معاصرى المؤلف هذا الكتاب « علاقات الناس الغرامية الخطرة »[١٠١] ، وذهب رستيف إلى أنه سيعيش ما عاشت اللغة الفرنسية[١٠٢] وفى كتاب مرافق سماه « الفلاحة المنحرفة » (١٧٨٤) واصل هجومه على انعدام المسئولية الأخلاقية ومفاسد حياة المدينة . وقد استعمل حصيلته من كتبه ليرفع مقامه درجة أو اثنتين على السلم الاجتماعى للفسق .

أما أهم أعمال رستيف فهو « المعاصرات » الذى طال حتى بلغ خمسة وستين مجلداً (١٧٨٠ — ٩١) . وكان لهذه القصص القصيرة عنوان فرعى جذاب هو « مغامرات أجمل نساء عصرنا » — وفيه وصف لحياة وغراميات وآداب بائعات الزهر ، وبائعات القسطل ، وبائعات الفحم ، والخياطات ، والحلاقات ، بلغ من الواقعية والدقة مبلغاً أتاح للنساء الحقيقيات أن يتبين أنفسهن فيه ويلعن المؤلف حين يلقينه فى الشوارع[١٠٣] . ومثل هذا المشهد العريض من الحياة البشرية لم يقدمه كاتب فى الأدب الفرنسى حتى جاء بلزاك . وقد أدان النقاد إدمان رستيف على « الموضوعات المنحطة » ، ولكن سباستيان مرسييه ، الذى كان كتابه « لوحة باريس » . (١٧٨١ — ٩٠) يعرض مسحاً للمدينة أفضل ترتيباً ، حكم بأنه «أعظم قصاصينا غير منازع»[١٠٤] .

وقبيل نشوب الثورة بدأ رستيف يسجل فى « ليالى باريس » (١٧٨٨ — ٩٤) الأحداث التى شهدها (أو تخيلها) فى جولاته الليلية . وهنا أيضاً كان أهم ما لاحظه الأعماق السفلى لباريس — الشحاذين ، والحمالين ، والنشالين ، والمهربين ، والمقامرين ، والسكارى ، وخاطفى الأطفال ، واللصوص ، والمنحرفين ، والبغايا ، والقوادين ، والمنتحرين . وقد زعم أن حظه من السعادة كان ضئيلا ، ومن الشقاء موفوراً ، وصور نفسه بطلا منقذاً فى حالات كثيرة . وقد ألم بالمقاهى القريبة من الباليه — رويال ، ورأى الثورة تتشكل ، سمع كامى ديمولان يدعو الناس دعوته المشهورة إلى حمل السلاح ، ورأى الدهماء الظافرين يجوبون المدينة عارضين رأس دلونى مأمور سجن الباستيل المفصول عن جسده ، ورأى النساء يزحفن على فرساى لأسر الملك[١٠٥] . ثم لم يلبث أن مل العنف والإرهاب وعدم الأمان . وتعرض غير مرة لخطر القبض عليه ، ولكنه نجا بإعلانه الولاء للثورة . أما فى مجالسه الخاصة فكان يندد بهذا كله ويتمنى لو أمكن « رد لويس السادس عشر الطيب إلى مكان السلطة »[١٠٦] . وقد عنف فى لوم روسو لأنه أطلق العنان لانفعالات الشباب والجهال والعاطفيين ، « ان كتابه أميل هو الذى

رمانا بهذا الجيل المغرور ، العنيد ، الوقح ، المتصلب ، الذى يعلو صوته على من هم أكبر منه سناً فيسكتهم »[١٠٧] .

وهكذا تقدم به العمر وندم على أفكار شبابه لا على خطاياه . وفى ١٧٩٤ عاد فقيراً كما كان ، غنياً فى ذكرياته وحفدته فقط ؛ وقد وضع فى المجلد الثامن من « المسيونيقولا » « تقويماً » بالرجال والنساء الذين عرفهم فى حياته ومنهم عدة مئات من العشيقات ، وأكد من جديد إيمانه بالله . وفى ١٨٠٠ أخبرت الكونتيسه بوهارنيه نابليون بأن رستيف يعانى شظف العيش وأن حجرته ليس بها نار تدفئها ، فبعث إليه نقوداً وخادماً وحارساً ، ثم عينه (١٨٠٥) فى وظيفة بوزارة الشرطة . وفى ٨ فبراير ١٨٠٦ مات رستيف وقد بلغ الثانية والسبعين . واشتركت الكونتيسه وعدة أعضاء من المجمع الفرنسى (الذى كان قد رفض انضمامه إليه) مع جمع العامة البالغين ألفاً وثمانمائة فى تشييعه إلى مثواه الأخير .

٧ — بومارشيه

كتب أرثر ينج فى ١٧٨٨ يقول «كلما خبرت المسرح الفرنسى وجدتنى مضطراً إلى الاعتراف بتفوقه على مسرحنا ، سواء فى عدد ممثليه الأكفاء ، أو فى نوعية الراقصين والمغنين والأشخاص الذين تعتمد عليهم صناعة المسرح ، وكلهم راسخ القدم على نحو رائع »[١٠٨] . وكانت الحفلات التمثيلية تحيا كل ليلة ، بما فيها ليالى الأحد ، فى التياتر — فرانسيه الذى أعيد بناؤه فى ١٧٨٢ ، وفى كثير من المسارح الإقليمية . وجاءت الآن فترة خلت فيها خشبة المسرح من فحول الممثلين فقد مات لوكان ، وتقاعدت صوفى أرنو فى ١٧٧٨ ؛ ثم استهل تالما الذى سيصبح أثير نابليون حياته المسرحية مع الكوميدى — فرانسيز فى ١٧٨٧ ، وحقق أول انتصار له فى مسرحية مارى — جوزف شنييه « شارل التاسع » فى ١٧٨٩ . وكان أحب كتاب العصر المسرحيين إلى الشعب ميشيل جان سيدين الذى ألف كوميديات عاطفية استأثرت بالمسرح الفرنسى طوال قرن من الزمان . ونحن نحييه وننتقل إلى الرجل الذى نفخ الحياة فى « فيجارو » بمساعدة موتسارت وروسينى ، وأعطى الحرية لأمريكا (فى زعمه) .

وقد عاش هذا الرجل ، وهو بيير – أوجستن كارون ، كما عاش فولتير ، أربعة وعشرين عاماً دون أن يعرف اسمه التاريخى . وكان أبوه صانع ساعات فى ضاحية سان – دينى الباريسية . وبعد أن تمرد قليلا راض نفسه على احتراف حرفة أبيه . فلما بلغ الحادية والعشرين اخترع ضرباً جديداً من الهروب مكنه من أن يصنع « ساعات ممتازة بلغت غاية ما يناسب من الصغر والتسطح »[١٠٩] . وقد أبهج لويس الخامس عشر بعينة منها ، وصنع لمدام بومبادور ساعة كانت من الصغر بحيث أمكن إدخالها فى خاتمها ، وزعم أن هذه أصغر ما صنعه الصانعون من الساعات اطلاقاً . وفى ١٧٥٥ اشترى من مسيو فرانكيه المسن وظيفته التى كان يشغلها بوصفه أحد المشرفين على المائدة الملكية الذين كانوا يقومون على خدمة الملك خلال تناوله الطعام ؛ ولم تكن بالوظيفة المرموقة ، ولكنها أتاحت لبيير مدخلا إلى البلاط . وبعد عام مات فرانكيه ، فتزوج بيير أرملته(١٧٥٦) وكانت تكبره بخمس سنين . وإذ كانت تملك إقطاعة صغيرة ، فقد أضاف بيير اسم الإقطاعة إلى اسمه ، فأصبح بومارشيه . فلما ماتت زوجته (١٧٥٧) ورث أملاكها .

ولم يكن قد حظى بأى تعليم ثانوى على الإطلاق ، ولكن الجميع – حتى الأرستقراطيين الذين ساءهم تسلقه السريع – أقروا بتيقظ ذهنه وسرعة خاطره . والتقى فى الصالونات والمقاهى بديدرو ، ودالامبير ، وغيرهما من جماعة الفلاسفة ، فنهل من التنوير . وقد استرعى انتباه بنات لويس الخامس عشر العوانس تحسين أدخله فى نظام دواسة الهارب ، وفى ١٧٥٩ بدأ يعطيهن دروساً فى الهارب . وطلب المصرفى جوزف بارى – دوفرينه إلى بومارشيه أن يستعين بالآنسات الملكيات فى الحصول على تأييد لويس الخامس عشر للمدرسة الحربية التى كان رجل المال يديرها ، وأفلح بيير فى الأمر ، فأعطاه بارى – دوفرنيه أسهماً قيمتها ستون ألف فرنك . يقول بومارشيه « لقد أطلعنى على أسرار عالم المال . . . وبدأت أجمع ثروتى بإرشاده ، وعملا بنصيحته دخلت فى مضاربات عديدة ، أعاننى فى بعضها بماله أو باسمه »[١١٠] . وهكذا أصبح بومارشيه فيلسوفاً من أصحاب الملايين ، مقتدياً فى هذا وفى كثير غيره بالسوابق التى وضعها فولتير . فما وافى عام

١٧٧١ حتى بلغ من الثراء ما أتاح له شراء وظيفة سكرتارية شرفية لدى الملك ، جاءته بلقب النبالة . وسكن منزلا رائعاً فى شارع كونديه أنزل فيه أباه وأخواته الفخورين .

وكان له أختان أخريان تعيشان فى مدريد — إحداهما متزوجة والأخرى — واسمها لبزيت — مخطوبة لخوزيه كالافيجو أى فخاردو المحرر المؤلف الذى ظل ست سنوات يؤجل الزواج غير مرة . وفى مايو ١٧٦٤ خرج بومارشيه فى رحلة طويلة راكباً عربة البريد نهاراً وليلا إلى العاصمة الإسبانية . فعثر على كلافيجو ، ووعده هذا بأنه سيتزوج لبزيت عما قليل ، ولكنه زاغ متنقلا من مكان إلى مكان . وأخيراً أدركه بيير ، وطالبه بالتوقيع على عقد زواج ، فاعتذر خوزيه بحجة أنه تناول لتوه مسهلا ، وكان القانون الإسبانى يعتبر أى عقد يوقع فى ظرف كهذا باطلا . فهدده بومارشيه ، فاستعدى عليه كلافيجو قوى الحكومة . وهزم الفرنسى الذكى بسلاح التسويف والمماطلة . فلما أقلع عن المطاردة ، حول جهوده إلى ميدان التجارة وكون عدة شركات ، إحداها لإمداد المستعمرات الإسبانية بالعبيد الزنوج . (ونسى أنه قبل سنة واحد فقط كتب قصة ذم فيها الرق) (١١١) . وتحطمت هذه الخطط جميعها على صخرة الموهبة الإسبانية ، موهبة التسويف والتأجيل . على أن بيير استمتع أثناء ذلك بالصحبة الطيبة وبخايلة تحمل لقب نبالة ، وخبر من العادات الإسبانية ما أعانه على تأليف تمثيلياته عن حلاق أشبيلى . أما لبزيت فقد وجدت حبيباً آخر ، وقفل بومارشيه إلى فرنسا خاوى الوفاض إلا من الخبرة . وقد كتب مذكرات رائعة عن رحلته ، ألف منها جوته مسرحيته « كلافيجو » كما أسلفنا .

وفى ١٧٧٠ مات بارى — دوفرنيه تاركاً وصية أقر فيها بأنه مدين لبومارشيه بخمسة عشر ألف فرنك . ونازع أهم الورثة وهو الكونت دلابلاش على صحة هذه الفقرة مدعياً أنها مزورة . وأحيل النزاع على برلمان باريس ، فعين المستشار لوى — فالنتن جوزمان ليبدى رأيه فيه . فى هذا الظرف الحرج كان بومارشيه نزيل السجن نتيجة شجار عنيف مع الدوق دشولن على خليلة . فلما أفرج عنه مؤقتاً ، أرسل « هدية » من مائة جنيه ذهبى (لوى

دور) ، وساعة مرصعة بالماس ، إلى السيدة جوزمان اغراء لها على أن تمهد السبيل لاستماع زوجها إليه ، فطلبت خمسة عشر جنيهاً ذهبياً أخرى أجر « سكرتير » ، فأرسلها . وظفر بالمقابلة ، ولكن المستشار اتخذ قراراً ضده ، فأعادت السيدة جوزمان كل شيء إلا الخمسة عشر جنيهاً ذهبياً ، وأصر بومارشيه على ردها هذا المبلغ أيضاً ، واتهمه جوزمان بتقديم الرشوة . فعرض بيير الأمر على الشعب فى سلسلة من « المذكرات » فيها من الحيوية والظرف ما أكسبه ثناء عريضاً باعتباره مجادلا بارعاً ان لم يكن رجلا أميناً كل الأمانة . وقد قال فولتير عنها : لم أر قط شيئاً أقوى ولا أجرأ ولا أفكه ولا أظرف ولا أشد إذلالا لخصومه . فهو يحارب « دستة » منهم فى وقت واحد ويحصدهم حصداً »[١١٢] . وأصدر البرلمان حكماً برفض دعواه فى حقه فى الميراث (٦ أبريل ١٧٧٣) ، واتهمه فى الواقع بالتزوير ، وحكم عليه بدفع ٥٦,٣٠٠ جنيه نظير التعويض والديون .

فلما أفرج عن بومارشيه (٨ مايو ١٧٧٣) استخدمه لويس الخامس عشر جاسوساً فى بعثة إلى انجلتره ليمنع تداول نشرة فاضحة فى حق مدام دوباری . فنجح فى مهمته ، وواصل اشتغاله عميلا فى عهد لويس السادس عشر الذى كلفه بأن يعود إلى لندن ويرشو جوليلمو انجيلوتشى كى يمتنع عن اصدار نشرة فى حق مارى أنطوانيت . وسلم انجايلوتشى المخطوطة نظير ٣٥,٠٠٠ فرنك ورحل إلى نورمبرج ؛ واشتبه بومارشيه فى حيازته نسخة ثانية ، فتبعه عبر المانيا ، وأدركه قرب نويشتات ، وأكرهه على تسليمه النسخة ، ثم هاجمه قاطعاً طريق ، فدفعهما عنه ، ولكنه جرح ، وشق طريقه إلى فيينا ، حيث قبض عليه بوصفه جاسوساً ، وقضى فى السجن شهراً ، ثم أطلق سراحه ، فركب قافلا إلى فرنسا .

ولكن مغامرته الجريئة التالية أحق بمكان فى التاريخ . ذلك أن فرجين أوفده فى ١٧٧٥ إلى لندن ليستطلع له حقيقة الأزمة المتصاعدة بين انجلتره وأمريكا . وفى سبتمبر بعث بومارشيه إلى لويس السادس عشر بتقرير تنبأ بنجاح الثورة الأمريكية ، وأكد وجود أقلية مناصرة للأمريكيين فى انجلتره ،

وفى ٢٩ فبراير ١٧٧٦ وجه إلى الملك رسالة أخرى ، أوصى فيها بإرسال المعونة الفرنسية سراً إلى أمريكا ، بحجة أنه لا سبيل أمام فرنسا لحماية نفسها من التبعية إلا بإضعاف شوكة انجلتره[١١٣] . ووافق فرجين على هذا الرأى ، ورتب كما رأينا أن يمول بومارشيه لتزويد المستعمرات الانجليزية بالعتاد الحربى . وفرغ بومارشيه بجملته لهذه المغامرة . فنظم شركة « رودريج هورتاليه وشركائه » . وراح يتنقل بين الثغور الفرنسية ويشترى السفن ويجهزها ويشحنها بالمؤنه والعتاد ، ويجند الضباط الفرنسيين المدربين للجيش الأمريكى ، وينفق (فى زعمه) عدة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص فوق المليونين اللذين أمدته بهما الحكومتان الفرنسية والإسبانية . وقد أبلغ سايلاس دين الكونجرس الأمريكى (٢٩ نوفمبر ١٧٧٦) « انى ماكنت لأستطيع انجاز مهمتى لولا جهود مسيوبومارشيه الذكية السخية التى يعتريها الكلل ، هذا الرجل الذى تدين له الولايات المتحدة من جميع الوجوه ، أكثر من دينها لأى رجل آخر على هذا الجانب من المحيط »[١١٤] . وفى نهاية الحرب قدر سايلاس أن أمريكا تدين لبومارشيه بمبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك . أما الكونجرس الذى افترض أن كل العتاد كان منحة من الحلفاء ، فقد رفض الطلب ، ولكنه فى ١٨٣٥ دفع ٨٠٠,٠٠٠ جنيه لورثة بومارشيه .

ثم انه وجد خلال هذا النشاط المحموم وقتاً لكتابة المزيد من المذكرات الموجهة إلى الشعب والتى يحتج فيها على مرسوم البرلمان الصادر فى ٦ أبريل ١٧٧٣ . وفى ٦ سبتمبر ١٧٧٦ ألغى ذلك المرسوم ، وردت إلى بومارشيه كل حقوقه المدنية . وفى يوليو ١٧٧٨ أصدرت محكمة فى اكس — أن — بروفانس حكما لصالحه فى النزاع على وصية بارى — دوفرنيه ، واستطاع بومارشيه أن يحس أنه فى النهاية قد برأ أسمه .

ولم تكفه كل هذه المغامرات فى الحب ، والحرب ، والتجارة ، والقضاء . فقد بقى عالم لم يغزه بعد ، هو عالم الكلام ، والأفكار ، والطباعة ، وعليه ففى ١٧٦٧ قدم للكوميدى — فرانسيز أولى تمثيلياته « أوجينى » ، وقد عرضت فى ٢٩ يناير ١٧٦٩ ، واستقبلها النظارة استقبالا حسناً ، ولكن

النقاد رفضوها . ثم سقطت تمثيلية أخرى هى « الصديقان » (١٣ يناير ١٧٧٠) رغم الأعداد المألوف ، « لقد ملأت الصالة بأفضل العمال ، بأيد كالمجاذيف ، ولكن جهود العصبة المتآمرة » غلبته [١١٥] . ذلك أن جمعية الأدباء التى يتزعمها فريرون قاومته باعتباره دخيلا ، ومجرماً ، زمناً انقلب كاتباً مسرحياً ، تماماً كما ناصبه بلاط فرساى العداء لأنه صانع ساعات انقلب نبيلا . ومن ثم نراه فى مسرحيته التالية يجعل فيجارو يصف « جمهورية الأدب » بأنها « جمهورية الذئاب ، الذين لا يفتأ بعضهم ينشب مخالبه فى رقاب البعض الآخر . . . كل الحشرات ، والبعوض الصغير والكبير ، والنقاد ، وكل الحاسدين من الصحفيين ، والكتبيين ، والرقباء »[١١٦] .

ولقى بومارشيه فى المسرح كما لقى فى الحياة جيشاً من الأعداء فهزمهم جميعا . وفى أروع لحظات الإبداع التى جادت بها عبقريته المتعددة المناحى تصور شخصية فيجارو الحلاق ، الجراح ، الفيلسوف ، اللابس صدرية من الساتان وسراويل ركوب ، وقيثارته المعلقة على كتفه ، وذهنه المتوقد على استعداد لتذليل أى صعوبه ، وذكاؤه يخترق حجب النفاق والأكاذيب والمظالم التى تلوث عصره . ويمكن القول أن فيجارو من ناحية لم يكن خلقاً جديداً ، إنما هو اسم وشكل جديدان لشخصية مألوفة هى شخصية الخادم الذكى فى الكوميديا اليونانية والرومانية ، وفى الكوميديا ديللارتى الإيطالية ، وفى شخصية موليير « سجاناريل » ولكنه كله كما عرفناه من صنع بومارشيه إلا الموسيقى ، لا بل حتى الموسيقى كانت أصلا من صنعه . فقد ألف أول الأمر « حلاق أشبيليه » أوبرا هازله عرضها على الكوميدى — ايتاليين فى ١٧٧٢ فرفضت ، ولكن موتسارت تعرف إلى هذه الموسيقى حين كان فى باريس [١١٧] . وعدل بومارشيه الأوبرا إلى كوميديا ، فقبلها الكوميدى — فرانسيز وحدد تاريخاً لإخراجها ولكن سجن المؤلف (٢٤ فبراير ١٧٧٣) اضطر الفرقة لتأجيل عرضها . فلما أفرج عنه استؤنف اعدادها للعرض ولكنها أجلت لأن مؤلفها وجهت إليه التهمة من البرلمان . غير أن النجاح الذى لقيه دفاع بومارشيه عن نفسه فى « مذكراته » حدا بالمسرح مرة أخرى إلى ترتيب اخراجها ، فأعلن أنها ستعرض فى ١٢ فبراير ١٧٧٤ . يقول

جريم « نفدت كل المقاصير حتى الحفلة الخامسة »[١١٨] . ولكن حظرت التمثيلية فى اللحظة الأخيرة بحجة أنها قد تحدث تأثيراً ضاراً بالقضية المعلقة فى البرلمان .

ومضت سنة أخرى ، وجاء ملك جديد خدمه بومارشيه ببسالة معرضاً حياته للخطر غير مرة ، فأعطى الإذن ، وفى ٢٣ فبراير ١٧٧٥ وصلت « حلاق أشبيليه » آخر الأمر إلى خشبة المسرح . غير أن الحظ لم يحالفها ، فقد كانت مفرطة الطول ، وكانت الإثارة التى مهدت لها قد جعلت جمهور النظارة يتوقع منها فوق ما ينبغى . وعليه فى يوم واحد راجعها بومارشيه واختصرها فى عملية جراحية رائعة ، فنقيت الكوميديا من التعقيدات المشوشه ، وأخليت الفكاهة من الإسهاب فى الحديث ، وأزال بومارشيه العجلة الخامسة من العربة على حد قوله — وحققت التمثيلية انتصاراً فى المساء الثانى ووصفتها مدام دو دفان التى كانت تحضر الحفل بأنها « نجحت نجاحاً مفرطاً . . ولقيت من الاستحسان والتصفيق ما جاوز كل الحدود »[١١٩] .

ثم تحداه الأمير كونتى أن يكتب تتمه للمسرحية يبدو فيها فيجارو شخصية أكثر تطوراً ونضجاً . وكان المؤلف مستغرقاً الآن فى دور المنقذ لأمريكا ، فلما أنجز تلك المهمة عاد إلى المسرح وأخرج كوميديا خلقت تاريخاً أكثر درامية حتى من « طرطوف » موليير . فى هذه الكوميديا — زواج فيجارو — نرى الكونت المافيفا وروزينا ، وهما شخصيتا حلاق أشبيليه — يقضيان عدة سنين فى حياتهما الزوجية ، وكان قد مل المفاتن التى سحرته خلال الكثير من المواقف المعقدة ، وانصرف الآن إلى مغامرة هى إغواء سوزان ، خادمة الكونتيسه وخطيبة فيجارو الذى أصبح كبير خدم الكونت وقهرمان القصر الريفى . ويقوم تابع فى الثالثة عشرة يدعى شيروبان بدور أشبه باللحن الرشيق المصاحب للموضوع الرئيسى وذلك بعشقه الغرير للكونتيسه التى يبلغ عمرها ضعف عمره . أما فيجارو فقد تحول فيلسوفاً ، ويصفه بومارشيه بأنه « العقل موشحاً بالمرح والملح »[١٢٠] . ويكاد هذا أن يكون تعريفاً للروح الغالية ولحركة التنوير .

يقول لسوزان « ولدت لأكون رجل بلاط » ، فإذا رأت فى هذه الوظيفة « حرفه عسيرة » أجابها « مطلقاً . الاستقبال ، والأخذ ، والطلب — هذا هو السر فى كلمات ثلاث »[١٢١] . وفى المناجاة التى جعلها روسينى تدوى فى جنبات العالم كله يخاطب نبلاء أسبانيا (وفرنسا) باحتقار يوشك أن يكون ثورياً ، « ما الذى صنعتموه لتنالوا هذا الحظ الوفير ؟ لقد كلفتم أنفسكم مشقة أن تولدوا ، لا أكثر ، وفيما عدا ذلك فأنتم قوم عاديون تماماً ، فى حين أننى أنا ، التائه وسط الجماهير ، كما على فى سبيل تحصيل قوتى فقط أن أستعين بقدر من العلم والحساب يفوق ما أنفق فى حكم أسبانيا كلها هذه السنين المائة المنقضية »[١٢٢] . وهو يهزأ بالجنود الذين « يقتلون ويقتلون فى سبيل مصالح يجهلونها تماماً . «أما أنا فأريد أن أعرف لماذا يشتدغضبى »[١٢٣] ، وحتى النوع الإنسانى ينال منه ما يستحقه من قصاص : « أن يشرب وهو غير عطشان ، وأن يمارس الحب فى جميع المواسم — هذا وحده ما يميزنا عن سائر الحيوان »[١٢٤] . ثم يكيل شتى الضربات لبيع الوظائف العامة ، وسلطة الوزراء التعسفية ، وإخفاقات العدالة ، وحالة السجون ، والرقابة على الفكر واضطهاده « مسموح لى أن أنشر ما أشاء ، شريطة ألا أذكر فى كتاباتى لا الحكام ، ولا دين الدولة ، ولا السياسة ، ولا الأخلاق ، ولا الموظفين ، ولا المالية ، ولا الأوبرا ، ولا . . . أى شخص ذى خطر ، على أن أخضع لتفتيش رقيبين أو ثلاثة »[١٢٥] . واتهمت فقرة جنس الذكور بأنهم مسئولون عن البغاء — وهى فقرة حذفها الممثلون ، ربما لأنها اقتربت قرباً شديداً من أسباب ترفيههم — : أن الرجال يخلقون العرض بطلباتهم ، ثم يعاقبون بقوانينهم النساء اللائى يلبين هذا الطلب »[١٢٦] . أما حبكة التمثيلية فلم تكتف بإظهار الخادم أذكى من سيده — فهذا تقليد مألوف جداً بحيث لايسىء لأحد — بل انها فضحت الكونت النبيل فأظهرته رجلا زانياً بكل ما فى الكلمة من معنى .

وقبل الكوميدى — فرانسيز « زواج فيجارو » فى ١٧٨١ ، ولكن لم يتيسر اخراجها حتى ١٧٨٤ . ذلك أنها حين تليت على مسامع لويس السادس

عشر احتمل بروح الفكاهة المتسامحة ما تخللها من هجاء عارض ، ولكن حين سمع المناجاة وما اشتملت عليه من هزء بطبقة النبلاء وبالرقابة ، أحس أنه لا يسعه السماح بأن تهان هذه المؤسسات الأساسية علانية ، فصاح قائلا « هذا شيء بغيض ، ويجب ألا يمثل أبدا . ان السماح بعرضه ليعدل تدمير الباستيل . فهذا الرجل يسخر من كل شيء يجب احترامه فى أى حكومة »[١٢٧] . ثم حظر تمثيل المسرحية .

وقرأ بومارشيه أجزاء منها فى بيوت خاصة ، فأثار هذا فضول القوم . ورتب بعض الحاشية أن تمثل أمام البلاط ، ولكن هذا أيضاً حظر فى اللحظة الأخيرة . وأخيراً أذعن الملك للاحتجاجات والالتماسات ، ووافق على اعتماد تمثيلها علناً بعد أن ينقى الرقباء النص بعناية . وكانت حفلة العرض الأولى (٢٧ أبريل ١٧٨٤) حدثاً تاريخياً . وبدت باريس كلها مصممة على حضور هذه الحفلة الأولى . واقتتل الأشراف والعامة على دخول المسرح ، وحطمت البوابات الحديدية ، وهشمت الأبواب ، واختنق ثلاثة أشخاص . وكان بومارشيه موجوداً ، وقد سعد بهذا الشجار . وبلغ من نجاح المسرحية أنها مثلت ستين مرة دون انقطاع ، وكان المسرح يغص بالنظارة فى كل حفلة تقريباً . أما الحصيلة فلم يسبق لها نظير ، وتصدق بومارشيه بنصيبه كله — البالغ ٤١,٩٩٩ جنيهاً[١٢٨] .

ولقد رأى التاريخ فى « زواج فيجارو » إرهاصاً بالثورة ، ووصفها نابليون بأنها « الثورة وقد أخذت تفعل إفعالها »[١٢٩] . ودخلت بعض عباراتها فى خميرة العصر . وقد أنكر بومارشيه فى المقدمة التى صدرت بها بعد ذلك المسرحية المنشورة أى قصد ثورى ، واستشهد بفقرات من كتاباته دافع فيها عن الملكية والأرستقراطية . فهو لم يطلب هدم المؤسسات القائمة بل القضاء على المظالم المتصلة بها ، وتوفير العدالة المتكافئة لجميع الطبقات ، ومزيداً من حرية الفكر والنشر ، وحماية الفرد من أوامر القبض المختومة

وغيرها من ضروب شطط السلطة الملكية . وقد رفض الثورة كما رفضها معبوده فولتير لأنها دعوة إلى الفوضى وطغيان الرعاع .

وواصل دراسة أعمال فولتير طوال شتى الاضطرابات العارمة التى اكتنفته . وأدرك أوجه الشبه بينه وبين الشيخ — ولكن لعله لم يدرك البعد — : ذلك المركب الذى جمع بين النشاط الذهنى المحموم والدراية البارعة بأمور المال ، وذلك الاحتقار للشكوك والوساوس الخلقية ، وتلك الشجاعة فى محاربة الظلم والمحن والشدائد . واعتزم أن يحفظ أعمال فولتير وينشرها طبعة جامعة كاملة . وكان على يقين من أن هذا غير ميسور فى فرنسا حيث حظر الكثير من مؤلفات فولتير . لذلك ذهب إلى موريا وأخبره أن كاترين الثانية مزمعة إصدار طبعة فرنسية فى سانت بطرسبرج . وقال إن هذا سيكون وصمة عار على فرنسا ، وأدرك الوزير المعنى المراد ، ووعد بالإذن بتداول طبعة كاملة . وكان كتبى باريسى يدعى شارل — جوزف بانكوك قد حصل على حقوق طبع مخطوطات فولتير التى لم تنشر ، فاشتراها بومارشيه بمبلغ ١٦٠,٠٠٠ فرنك . ثم جمع كل ما وجده من مؤلفات فولتير المنشورة ، واستورد حروف باسكرفيل الطباعية من انجلتره ، واشترى مصانع للورق فى الفوج . وظفر بكوندورسيه معلقاً ومترجماً لفولتير . واستأجر حصناً قديماً فى كيل ، عبر الرين من ستراسبورج ، وركب المطابع ، وأخرج طبعتين رغم مئات المحن والشدائد ، إحداهما فى سبعين مجلداً من قطع الثمن ، والأخرى فى اثنين وتسعين مجلداً من القطع الإثنى عشرى (١٧٨٣ — ٩٠) . وهذا أضخم مشروع طباعى حاوله إنسان حتى ذلك التاريخ فى أوربا ، بما فى ذلك « الموسوعة » . وطبع بومارشيه خمسة عشر ألف مجموعة وهو يتوقع بيعاً عاجلا لها ، فلم يبع منها غير ألفين ، من جهة بسبب الحملات التى شنها البرلمان والاكليروس على المشروع [١٣٠] ، ومن جهة ثانية بسبب الاضطرابات السياسية فى ١٧٨٨ — ٩٠ ، ومن جهة ثالثة لأن قلقة مركز الناس المالى منعتهم من شراء المجموعة الغالية الثمن — وزعم بومارشيه أنه خسر فى هذه المغامرة مليوناً من الجنيهات . على أنه أخرج أيضاً طبعة من أعمال روسو .

أما الثورة التى أعان على الإعداد لها فكانت نكبة عليه . ذلك أنه فى ١٧٨٩ بنى لنفسه ولزوجته الثالثة قصراً غالى التكلفة تجاه الباستيل ، ملأه بالبديع من الأثاث والرياش وأحاطه بفدانين من الأرض . ونظر الرعاع الذين أثاروا الشعب مراراً فى المنطقة شزراً إلى هذا الترف ، فأغاروا على بيته مرتين ، وأصبح بومارشيه الذى اكتمل الآن صممه وشاخ قبل الأوان مهدداً باعتباره أرستقراطياً . لذلك بعث بملتمس إلى كومون باريس يعلن فيه إيمانه بالثورة ، غير أنه قبض عليه رغم ذلك (٢٣ أغسطس ١٧٩٢) ثم أفرج عنه بعد قليل . إلا أنه عاش فى خوف من الاغتيال لا يفتأ يؤرقه . ثم دارت عجلة الخطر فكلفته حكومة الثورة (١٧٩٢) بالسفر إلى هولنده وشراء المدافع للجمهورية . على أن المفاوضات أخفقت وصودرت أملاكه فى غيابه ، وقبض على زوجته وابنته (٥ يوليو ١٧٩٤) ، فهرع قافلا إلى باريس ، وحصل على الإفراج عنهما ، وسمح له باسترداد أملاكه . وعاش بعد ذلك ثلاث سنين محطم الجسد لا الروح ، ورحب بصعود نجم نابليون ، ثم مات فى ١٨ مايو ١٧٩٩ بالنقطه وقد بلغ السادسة والسبعين . ونذر حتى فى تاريخ فرنسا أن عاش رجل حياة بمثل هذا الملء والتنوع والمغامرة .

* * *

الفصل السابع والثلاثون

تشريح الثورة

١٧٧٤ — ٨٩

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة — فحصنا فلسفتها ، ودينها ، وأخلاقها ، وسلوكها ، وأدبها ، وفنها . ولكن هذه كانت أزهاراً هشة نبتت من أرض اقتصادية ، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها ، لا بل إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال السياسى الذى أطاح بـ « النظام القديم » دون أن نفحص كل جهاز من أجهزة الاقتصاد الفرنسى ، كل بدوره ولو فى إيجاز ، ونرى كيف عاونت حالته على مجىء هذه القارعة الكبرى .

وعلينا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة . نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام ؛ ومديرون وعمال يصنعون السلع ؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة ؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع ، وربات بيوت مهمومات وجماهير رعاع متمرده ؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار ، والملاحين ، والبحارة ، والرجال المغامرين ؛ ومصرفيون يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير ، وبالحياة مثل لافوازييه ؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب ، أنها لصورة معقدة رهيبة .

١ — النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين ٢٤,٦٧٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وهكذا قدر نكير عدد السكان فى ١٧٨٤[١] . فقد تصاعد عددهم من ١٧,٠٠٠,٠٠٠

فى ١٧١٥ بفضل زيادة إنتاج الطعام وتحسن وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبى والحرب الأهلية ، وحظيت الأمة فى مجموعها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر ، ولكن أكثر الثراء الطارىء انحصر فى الطبقة الوسطى [٢] .

وكان كل الفرنسيين ريفيين فيما عدا مليونين من الأنفس ، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون ، والمديرون الاقليميون ، وكهنة الأبرشيات ، والسادة — أى أمراء الإقطاع — الذين قدر عددهم فى ١٧٨٩ بنحو ٢٦,٠٠٠ . هؤلاء وأبناؤهم خدموا وطنهم فى الحرب بأسلوبهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً) . ولم تبق إلا قلة من النبلاء فى البلاط ، أما السواد الأعظم فعاشوا فى ضياعهم . وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية ، والرقابة البوليسية ، والمحاكم ، والمدارس ، والمستشفيات ، والإحسانات . على أن معظم هذه المهام كانت قد تلقاها عمال للحكومة المركزية ، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة المحلية ، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثرياً ، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعى ، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية. وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة ، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (١٧٨١) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى فى الجيش والبحرية والحكومة كل من لايظاهره أربعة أجيال من الأستقراطية .

ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بورا فى الوقت الذى يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن . ويصدق على الكثير من بقاع فرنسا هذا الوصف الذى كتبه آرثر ينج عن قطاعى اللوار ونهر شير : « ان الحقول مسرح للإدارة المهلهلة ، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع . ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسين لو عرفوا ما ينبغى أن يصنعوه بها »[٣] . وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء ،

(*) قام آرثر يونج ، أحد وجوه المزارعين الانجليز ، برحلات فى القارة فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وروى مشاهداته فى « رحلات فى فرنسا » (١٧٩٢) وفى آرائه بعض التحيزات الانجليزية (« خذ جماع الجنس البشرى ، تجد فى انجلترة فى نصف ساعة قدرا من حسن الادراك أكثر مما تجده فى فرنسا فى نصف سنة (٤) .) ولكن يبدو انه قدم لنا وصفا منصفا موثوقا به لما رأى . وسنراه يذكر الثراء كما يذكر الفقر . وأهم مآخذه على فرنسا تتركز فى تخلفها التكنولوجى ، وحكومتها المسرفة فى المركزية ، والقهر ، والاوتقراطية .

بعضهم لنقص كفايتهم ، وبعضهم لسوء طالعهم ، وبعض لإرهاق أرضهم . وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك ، وتلقى العديد منهم منحا من خزانة الدولة .

أما القنية بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة من الأرض وخضوعه بصفة دائمة لمالكها في أداء الرسم والخدمات ، فكانت قد اختفت من فرنسا إلى حد كبير في ١٧٨٩ ، وبقى نحو مليون من الأقنان أكثرهم على الأملاك الديرية . فلما حرر لويس السادس عشر الأقنان العاملين على الأراضي الملكية (١٧٧٩) ، سوف برلمان فرانسن — كونتيه (في شرقي فرنسا) تسعة أشهر حتى سجل مرسومه . ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوى ودير فونتين ، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف قن ، ودير سان — كلود في مديرية الجورا الحالية ، وكان لديه عشرون ألف قن ، وذلك رغم عدة نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيسيين(٥) . على أن هؤلاء الأقنان اشتروا حريتهم شيئاً فشيئاً ، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر في ١٧٧٩ حق المالك في مطاردة الأقنان الآبقين خارج أملاكه .

ومع أن ٩٥٪ من الفلاحين كانوا أحراراً في ١٧٨٩ ، إلا أن السواد الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التي تختلف في الدرجة من اقليم لآخر . وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف في القرن الثامن عشر) ، ورسماً نظير حق التوريث ، وأجراً عن استعمال مطحن السيد وأفرانه ومعاصره وبرك سمكه — التي كانت كلها حكراً له . وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح ، وسيج مساحات متزايدة من الأرض المشاع التي كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته لترعى . أما السخرة فقد خففت في معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع نقداً ، ولكن ظل الفلاح في أوفرن ، وشمبانيا ، وأرتوا ، واللورين ، مطالباً بأن يبذل للإقطاعي المحلى كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذي لايتقاضى عنه أجرا ، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية(٦) . ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت في جملتها ومتوسطها

عشرة فى المائة من إنتاج الفلاح أو دخله ، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنيسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة فى المائة . فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة ، وضرائب السوق والبيوع ، والرسوم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العماد والزواج والدفن ، لم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده .

ولما كانت قيمة المبالغ النقدية التى يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة ، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم ، وإحياء رسوم عفى عليها الدهر ، وتسييج المزيد من الأرض المشاع . وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً مالا يعرفون الرحمة فى أداء عملهم . فإذا تشكك الفلاح فى حق السيد فى رسوم معينة قيل له أنها مدرجة فى قوائم الضياع أو سجلاتها . فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى المحكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمى الذى كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم[٧] . وحين نشر بونسير ، بتشجيع طور جوسرا ، (١٧٧٦) كراسة عنوانها «مساوىء الحقوق الإقطاعية» أوصى فيها باختزال هذه الحقوق ، لامه برلمان باريس . وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين ، فكتب يقول : إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم ، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات . . . أنها قضية الكنيسة ، والنبلاء ، وأعضاء البرلمان . . . متضافرين ضد العدو المشترى — أى الشعب»[٨] .

على أن هناك ما أمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهى من وجهة نظر النبيل رهن عقارى قبله الفلاح بمحض حريته كجزء من الثمن الذى اشترى به قطعة أرض من مالكها الشرعى — الذى كان فى كثير من الحالات قد اشتراها بحسن نية مالكها السابق . وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون فى قوتهم على هذه الرسوم . وكان الفلاح يعانى من شر الضرائب ، والعشور ، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعانى من الرسوم الإقطاعية . استمع إلى أعظم وأشرف الاشتراكيين الفرنسيين وهو جان —

جوريه يقول « لو لم يكن فى المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر مساوىء غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعى) ، لما دعت الحاجة لثورة تشفى هذا الجرح المتقرح ، ولكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلا بإحداث التغيير بطريقة سلمية [٩] .

وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب ، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة فى رفض اللاهوت القديم ، بل ان بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التى عفى عليها الزمن[١٠] . وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلا أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية[١١] . وكانا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذى لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا خاض بقوة ذلك الكفاح فى سبيل الإصلاح السلمى . وقد ندد بالرق ، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد فى جيانا الفرنسية[١٢] . وفشا الجهر بالمبادىء اللبرالية ، والدفاع عن الإصلاح ، فى شطر من الأرستقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك ، ودبوفليه ، ودبرين ، ودلكسمبور . ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً فى الحملات التى شنت لتحقيق المساواة فى الضرائب ، والحد من الإسراف الحكومى ، وتنظيم أعمال البر ، وإنهاء السخرة[١٣] . وبذل بعض الأشراف ، كدوقة بوربون ، معظم ثروتهم للفقراء[١٤] .

على أن هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان ، وهو أن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها . صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسئولياتهم التقليدية ، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذى يرتع فيه الإقطاعيون الأثرياء وبين شظف العيش الذى تعانيه جماهير أشرفت غير مرة على المجاعة ، أثارت العداء والاحتقار . وقبل ذلك بزمن مديد أصدر رجل ، كان هو نفسه نبيلا عظيماً ، حكم الإعدام على طبقته . فلنستمع إلى رينيه — لوى دفوايه ، مركيز دارجنسون ، وزير الدولة (١٧٤٤ — ٤٧) يكتب حوالى ١٧٥٢ :

« لابد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاء مبرما . وأعنى بالعظام أصحاب الألقاب والأملاك والعشور والمناصب والوظائف ، الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلاكفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين ، فهم لذلك عديمو القيمة فى كثير من الأحايين . . . وإنى ألاحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصلية ، ولكن متى تدهورت السلالة قضوا عليها »[١٥] .

هؤلاء السادة بعينهم ، الأغنياء ، المتكبرون ، الذين لاوظيفة لهم فى الغالب ، هم الذين بدأوا الثورة . ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذى سبق ريشليو ، يوم كانت طبقتهم هى السلطة الحاكمة فى فرنسا . وحين أكدت البرلمانات حقها فى إبطال المراسم الملكية ، انضم نبلاء الدم والسيف إلى نبلاء الرداء — وهم القضاة الوراثيون — فى محاولة لإخضاع الملك . وهللوا لخطباء البرلمان الذين رددوا صيحة « الحرية » وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التنديد بسلطة لويس السادس عشر المطلقة . وليس فى وسعنا أن نلومهم على هذا ، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا ١٧٨٩ الجمعية التشريعية التى تهيمن عليها الطبقة البورجوازية من أن تستحوذ على السيادة فى فرنسا . وهكذا دق النبلاء أول مسمار فى نعشهم .

٢ — الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعى المؤدى على الخمسة والخمسين فى المائة من أرض فرنسا الذى يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك ، يؤديه محاصصون يأخذون المواشى والأدوات والبزار من المالك ويدفعون له نصف المحصول عادة . وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر ينج على هذا النظام بأنه « لعنة البلاد بأسرها وخرابها »[١٦] ، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك .

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعوا خمسة وأربعين فى المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم . الأمر الذى حد

.ن استعمال الآلات الزراعية استعمالا راجحاً . وتخلفت التكنولوجيا الزراعية في فرنسا عن نظيرتها في انجلتره . صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية ، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين . ولعل ستين في المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فداناً) اللازمة لإعاشة الأسرة ، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراء على المزارع الكبيرة . وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثني عشر في المائة بين ١٧٧١ و ١٧٨٩ ، ولكن الأسعار ارتفعت في الفترة ذاتها خمسة وستين في المائة أو أكثر [١٧] . ومع أن الإنتاج الزراعي ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر ، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً ، وألفوا برولتاريا ريفية كانت في فترات العمالة الراكدة بمثابة معمل تفريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمتشردين . وقد ذهب شامفور إلى أنه « لاجدال في أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون ، واثني عشر يعجزون عن التصدق » [١٨] .

ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة في وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة ؛ فهم لم يروا العملة والسلع المخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة . وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة . فقد وجد آرثر ينج مناطق يعمها الفقر والتوحش والقذارة كما في بريتاني ، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما في بيارن [١٩] . ويمكن القول عموماً أن الفقر في ريف فرنسا عام ١٧٨٩ لم يكن مدقعاً كما كان في إرلنده ، ولا أسوأ منه في أوربا الشرقية أو في بعض الأحياء الفقيرة المزدحمة في المدن « الغنية » في وقتنا الحاضر ، ولكنه كان أسوأ منه في انجلتره أو في وادي بو المعطاء أبداً . وتشير أحدث الدراسات إلى أنه «كان هناك أزمة زراعية في نهاية النظام القديم » [٢٠] . فإذا جاء القحط والمجاعة . كما حدث في ١٧٨٨ — ٨٩ بلغت معاناة الفلاحين لاسيما في جنوبي فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصدقات التي وزعتها الحكومة والكهنة .

وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أداؤه للدولة والكنيسة والنبلاء . ووقعت ضريبة التاي — أي ضريبة الأرض — كلها تقريباً على كاهله . وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم . وقد تحمل عبء

احتكار الحكومة للملح . وكان الفضل لجهده فى صيانة الطرق والجسور والقنوات . ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر — فهو رجل « يخاف الله » والعشور تجبى جباية رحيمة ، ونادر أن اقتضته عشر دخله بالضبط(٢١) ، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشيه ليعول أسقفا فى بلد ناء ، أو كنسياً عاطلا فى البلاط ، بل حتى علمانياً اشترى حصة فى العشور المستقبله . وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح ، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت فى كثير من الأقاليم(٢٢) .

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة ؟ لقد كان فقره عاملا درامياً فى مركب من أسباب عدة . كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا ؛ فى استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث ، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا الهمة لتنظيم الثورة ، إلى أن استنفرهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى ، وانتفاضات رعاع باريس . على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكرى ، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرياناً خطراً ، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربى يأتيها من فرساى — عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية ، فتجمعوا ، وتبادلوا الشكاوى والعهود ، وتسلحوا ، وهاجموا القصور الريفية ، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتغطرسين ، ودمروا السجلات الإقطاعية التى استشهدوا بها على صحة الحقوق الإقطاعية ، هذا العمل المباشر ، الذى هدد بتدمير شامل لأملاك الإقطاعيين ، هو الذى روع النبلاء فنزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (٤ أغسطس ١٧٨٩) . ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم .

٣ — الصناعة والثورة

فى موضوع الصناعة على الأخص تغيم الصورة السابقة للثورة وتتعقد(١) . فالصناعة البيتية — صناعة الرجال والنساء والأبناء فى البيت — كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشترون الناتج(٢) ، والطوائف الحرفية — المعلمون ، وعمال اليومية ، والصبية — كانت تنتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع خاص . وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة ، ولكن فى

١٧٨٩ كان قد أوهنها غاية الوهن نمو(٣) المشروعات الحرة الرأسمالية — وهى شركات كان لها أن تجمع رأس المال من أى مصدر ، وأن تستأجر أى إنسان . وأن تبتكر وتطبق أساليب جديدة فى الإنتاج والتوزيع ، وأن تتنافس مع أى إنسان ، وأن تبيع فى أى مكان . وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر ، فكان فى مرسليا وحدها عام ١٧٨٩ ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون ، وثمانية وأربعون للقبعات ، وثمانية للزجاج ، واثنا عشر لتكرير السكر وعشر مدابغ[٢٣] . أما فى المنسوجات ، والبناء ، والتعدين ، وتصنيع المعادن ، فقد اتسعت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق ، وكان هذا عادة بفضل شركات المحاصة .

وكانت فرنسا بطيئة فى الأخذ بآلات النسيج التى كانت آنئذ تفتتح الثورة الصناعية فى انجلتره ، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دواليبها فى آبفيل ، وأميان ، ورامس ، وباريس ، ولوفييه ، وأورليان ، وازدهرت صناعة الحرير فى ليون . وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العمائر الضخمة ذات الشقق ، التى مازالت تضفى على المدن الفرنسية ملامحها المميزة . وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال فى نانت ، وبوردو ، ومارسليا ، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً . وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق فى التربة السفلية ، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز ، وفرضت قانون أمن للمعدنين[٢٤] ، وحفرت الشركات مداخل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم ، وركبت أجهزة غالية للتهوية ، والصرف ، والنقل ، وخلقت أصحاب ملايين . وكان لشركة انزان (١٧٩٠) أربعة آلاف عامل ، وستمائة حصان ، واثنتا عشرة آلة بخارية ، وكانت تستخرج ٣١٠,٠٠٠ طن من الفحم فى العام . وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن المادة لصناعة معدنية متسعة . وفى ١٧٨٧ جمعت شركة كروزر المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات فى إنتاج المصنوعات الحديدية ، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ ، والمطارق ، والمثاقب ، ومكنت السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جياد .

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة فى هذه السنين . ففى ١٧٧٦ رفه المركيز جوفروا عن الجماهير المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية ، وذلك قبل أن يبحر زورق فولتن « كليرمونت » التجارية فى نهر هدسن ذهاباً وإياباً . بل أدهش من هذا كانت الخطوات الأولى فى غزو الفضاء . ففى ١٧٦٦ أثبت هنرى كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء ، واستنتج جوزف بلاك أن كيساً يملأ بالهيدروجين يستطيع الصعود فى الجو . وعكف جوزف وإتيين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء تقل كثافته إذا سخن ؛ وفى ٥ يونيو ١٧٨٣ ، فى انونيه قرب ليون ، ملأ بالوناً بالهواء المسخن ، فارتفع إلى علو ألف وستمائة قدم ، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه . وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك — الكسندر شارل من باريس فى ٢٧ أغسطس ١٧٨٣ على مشهد من ٣٠٠,٠٠٠ متفرج يهتفون له ، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلا مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو [٢٥] . وفى ١٥ أكتوبر قام جان — فرنسوا بيلاتر دروزييه بأول طيران مدون للإنسان ، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن ، واستمر صعوده أربع دقائق . وفى ٧ يناير ١٧٨٥ طار الفرنسى فرنسوا بلا نشار ، والفزيائى الأمريكى جون جفريز ، فى بالون من انجلتره إلى فرنسا . وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا [٢٦] .

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الحاسم بعد أن غذتها الصناعة والتجارة . فكانت ليون تشغى بالحوانيت والمصانع والمشروعات . وذهل آرثر ينج لفخامة بوردو . وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً ، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادى يهيمن على نصف عاصمة فرنسا ، ومن ثم على نصف اقتصادها . وكان يسكنها عام ١٧٨٩ نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة [٢٧] . ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع ، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال [٢٨] . وقال بريستلى الذى زارها فى ١٧٧٤ : « لا أستطيع الزعم بأنه قد راعنى شىء منها غير اتساع

العمائر العامة وبهائها ، وفى مقابل هذا ساءنى كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها ونتنها »[٢٩] . ومثل هذا الوصف كتبه ينج :

« ان تسعة أعشار الشوارع قذر ، وكلها خلو من أرصفة المشاه . والمشى — الذى تجده فى لندن غاية فى الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً — هو هنا كد وعناء للرجل ، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب . . وعربات الركوب كثيرة ، وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من « الكبريلات » التى يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم . بسرعة فائقة . . . تجعل الشوارع بالغة الخطر . . . وقد لطخنى أنا نفسى رشاش الوحل غير مرة »[٣٠] .

وأخذت طبقة من العمال الكادحين « برولتاريا » تتشكل فى المدن كبيرها وصغيرها ، رجال ونساء ، وأطفال يعملون لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم . ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم ، ولكن قدر عددهم فى باريس عام ١٧٨٩ بـ ٧٥,٠٠٠ أسرة ، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرد[٣١] . وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة فى آبفيل ، وليون ، ومرسليا . وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة ، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (١٢ نوفمبر ١٧٧٨) حظر على العمال تنظيم أنفسهم . وقد ارتفعت الأجور ما بين عامى ١٧٤١ و ١٧٨٩ اثنين وعشرين فى المائة ، وارتفعت الأسعار خمسة وستين فى المائة[٣٢] ، ويبدو أن حال العمال تدهور فى عهد لويس السادس عشر[٣٣] . فلما قل الطلب ، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث فى ١٧٨٦) ، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان . وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز ، الذى كان قوام نصف طعام الجماهير الباريسية[٣٤] . وكان ثلاثون ألف شخص يتلقون الإغاثة العامة فى ليون عام ١٧٨٧ ، واشتد فقر ثلثى سكان رامس فى ١٧٨٨ عقب أحد الفيضانات . وفى باريس عام ١٧٩١ قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة[٣٥] . وكتب مرسييه حوالى ١٧٨٥ يقول « ان عامة الشعب فى باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوقو النمو وكأنهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات فى الدولة[٣٦] .

وألف العمال الاتحادات وأضربوا فى تحد لأوامر الحظر ففى ١٧٧٤ توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور ، ولأن قوانين العرض والطلب غير المنظمة تهوى بالعمال إلى درك الكفاف لا أكثر . أما أرباب العمل الذين امتلأت مخازنهم بالطعام فقد انتظروا أن يكره الجوع العمال على طلب الصلح . ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مدناً أخرى ، بل مهاجرين إلى سويسره أو إيطاليا ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى مواطنهم قسرا . وثار العمال ، واستولوا على مكاتب البلدية ، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البرولتاريا على الكومون . فاستدعت الحكومة الجيش الذى أخمد التمرد ، ثم شنق اثنان من زعماء العمال ، وعاد المضربون إلى ورشهم مقهورين ، يشعرون بالعداء نحو الحكومة وأرباب العمل على السواء [٣٧] .

وفى ١٧٨٦ عادوا إلى الإضراب ، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، شاكين من أنهم يعاملون « بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية ، فحتى هذه تعطى من الطعام ما يكفى لحفظها سليمة قوية »[٣٨] . ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة ، ولكنها حظرت أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص . واضطلعت كتيبة مدفعية بتنفيذ هذا الحظر ، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص ، وعاد المضربون إلى العمل وسحبت العلاوة منهم بعد ذلك [٣٩] .

وقد نشبت حوادث الشغب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة ، متفرقة طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فوقعت منها ستة فى نورمنديه بين عامى ١٧٥٢ ، و ١٧٦٨ ؛ وفى ١٧٦٨ سيطر القائمون بالشغب على روان ، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية ، وسلبوا المتاجر ، ووقعت أحداث مماثلة فى رامس عام ١٧٧٠ ، وفى بواتيه عام ١٧٧٢ ، وفى ديجون وفرساى وباريس ويونتواز عام ١٧٧٥ ، وفى اكس — ان — برو فانس عام ١٧٨٥ ، ثم فى باريس عامى ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ [٤٠] .

فأى دور إذن لعبه فقر البرولتاريا ، أو فقر المدن عموماً ، فى إحداث الثورة ؟ لقد كان فى ظاهر الأمر سبباً مباشراً ، فالعجز فى الخبز وما ترتب عليه من شغب فى باريس فى ١٧٨٨ — ٨٩ رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفراده على استعداد للمغامرة بحياتهم فى تحدى الجيش والهجوم على الباستيل . على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة ، ولكنهما لا يعطيان القيادة ، ومن المحتمل أن حوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو لم توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزحف على فرساى . ثم ان الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أى فكرة عن قلب الحكومة ، أو خلع الملك ، أو إقامة جمهورية . وكانت طبقة البرولتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل ، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة . لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد — بينما عارضته البورجوازية — أو على الأقل بتحديد سعر الخبز ، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم ، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة . صحيح . أنه حين جد الجد كان رعاع باريس المدفوعون بالجوع والمحرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية ، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم .

٤ — البورجوازية والثورة

كان الملمح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال . وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير ، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والقنوات الممتازة التى يسرت التجارة ، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات ، وارتفعت إلى مكان مرموق فى الوظائف الإدارية (حتى ١٧٨١) ، وهيمنت على مالية الدولة .

ولكن ازعجتها إلى حد التمرد تلك المكوس التى فرضت لصالح

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع ، وذلك الفحص المضيع للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذى يحمل بضاعة من جنوبى فرنسا إلى باريس [٤١]. وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبتهم فى هذه الحرية بين الأمم . وفى ١٧٨٦ . وبدافع من نظريات الفزيوقراطيين ، خفضت الحكومة التعريفات على المنسوجات والبضائع الحديدية الواردة من انجلتره ، مقابل خفض التعريفات الانجليزية على الخمور والزجاج والحاصلات الفرنسية الأخرى . وكان من نتائج هذا إصابة صناعة النسيج الفرنسية بضربة ، لأنها لم تستطع منافسة المصانع الانجليزية المجهزة بآلات أحدث . وبلغت البطالة فى ليون ، وأميان ، نقطة التفجر.

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارة الخارجية وملأ خزائن طبقة التجار . وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامى ١٧٦٣ و ١٧٨٧ ، ونيفت على بليون فرنك فى ١٧٨٠ [٤٢] . واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار ، والشاحنين ، والملاحين ، والمتاجر ، ومعامل التكرير ، ومصانع التقطير . فى تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هى الغالبة قبل أن تكرس الثورة تفوقها القومى بزمان .

وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة ، وهو ما كانت عليه الحال فى انجلتره . ففى ١٧٨٨ شحن تجار الرقيق الفرنسيون ٢٩,٥٠٦ زنجياً إلى سان — دومنج (هايتى) وحدها » [٤٣] . وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفى جوادلوب والمارتنيك . وفى سان — دومنج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون ٤٨٠,٠٠٠ عبد [٤٤] . وتألفت فى باريس « جمعية أصدقاء السود » عام ١٧٨٨ برآسة كوندورسيه ، وكانت تضم بين أعضائها لافاييت وميرابو الابن ، وتستهدف إلغاء الرق ، غير أن الشاحنين أصحاب المزارع أغرقوا الحركة باحتجاجاتهم . وفى ١٧٨٩ صرحت غرفة بوردو التجارية بالآتى : « أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

لصيانة تجارتها ، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية فى هذا الجزء من العالم ، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى»[٤٥] .

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال ، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين ، وعرضت شركات المحاصة السندات ، وطرحت الحكومة أسهم القروض ، وتطورت المضاربة فى بيع وشراء السندات المالية ، واستأجر المضاربون صحفيين لبث الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها[٤٦] . وشارك أعضاء الوزارات فى المضاربة ، فأصبحوا خاضعين لضغط المصرفيين أو نفوذهم . وكانت كل حرب تزيد من اعتماد الدولة على الماليين ، وتزيد من اهتمام الماليين اهتماماً جدياً بسياسة الدولة وقدرتها على الوفاء بديونها . وحظى بعض المصرفيين بثقة شخصية تفوق الثقة فى الحكومة ، ومن ثم استطاعوا أن يقترضوا بفائدة منخفضة ، ويقرضوا الحكومة بفائدة أعلى ، ويزيدوا ثروتهم بإمساك دفاترهم لا أكثر — مادام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها .

وتعاظم ثراء الملتزمين العامين (وهم الماليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرضاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم ، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة ، كضرائب البيوع عموماً ، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية . وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفتيوس ولافوازييه ، رجالا ذوى نزاهة نسبية وروح وطنية ، أسخياء فى مساهمتهم فى البر والآداب والفنون[٤٧] . وتبينت الحكومة مساوىء نظام الالتزام هذا ، وخفضت عدد الملتزمين من ستين إلى أربعين فى ١٧٨٠ ، ولكن عداء الشعب لهم استمر . وقد ألغت الثورة النظام ، وكان رأس لافوازييه أحد الرءوس التى تهاوت فى هذه العملية .

ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة ، فلابد لنا من أن نذكر القارىء مرة أخرى بمختلف الضرائب التى كان الفرنسيون يدفعونها . (١) كانت التاى ضريبة على الأرض والأملاك الشخصية . وقد

أعفى الأشراف منها لما يؤدونه من خدمة حربية ، وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعى ويصلون من أجل الدولة ، وأعفى القضاه وكبار الإداريين ، وموظفو الجامعات ، ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة — ومن ثم على الفلاحين فى المقام الأول . (٢) ضريبة الرءوس وكانت تفرض على كل رأس فى الأسرة ، ولم يعف منها غير الأكليروس (٣) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية ، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرءوس باستخدام النفوذ الخاص ، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات فى القانون ، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعطاء اختيارى دورى للدولة (٤) كانت كل مدينة تدفع ضريبة للحكومة وتفرضها على مواطنيها . (٥) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل : (أ) مكوس النقل . (ب) مكوس الاستيراد والتصدير . (حـ) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجلد والحديد وورق اللعب الخ . (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح ، فكان على كل فرد أن يشترى كل عام حداً أدنى مقرراً من الملح من الحكومة بالسعر الذى تحدده ، وكان دائماً أعلى من سعر السوق . وكانت ضريبة الملح (الجابل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (٦) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة . وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة فى المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين فى المائة من دخله [48] .

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبية والمعلمين والمؤلفين والفزيائيين والمحامين والقضاء من غير ذوى الألقاب — إذا أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية ، أمكننا أن نفهم كيف أنها فى ١٧٨٩ كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة . ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملك طبقة النبلاء [49] ، وكان فى استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

أو وظيفة من وظائف « السكرتيرين » الكثيرة للملك . وبينما خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحال البيولوجى ، وخسر الأكليروس الأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة ، والحياة والناموس الأبيقوريين الحضريين ، إزدادت الطبقات الوسطى ما لا وقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية ، فملأت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكات) التى أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألمو بباريس أوليون أورامس أو بوردو(٥٠) . وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغنى الطبقة البورجوازية التى قدمت النقل والمواد . وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاظمة فى المدن ؛ وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون فى التجار والماليين . فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون فى ١٧٨٩ ثروة جملتها ستون مليون جنيه(٥١) ، وجمع مصرفى واحد هو بارى — مونمارتل مائه مليون(٥٢) .

أما السبب الأساسى فى الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادى والنظم السياسية ، بين أهمية الطبقة البورجوازية فى إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية . وتدنت الطبقة الوسطى الراقية على وعى بقدراتها وحساسة للاستخفاف بها . وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعى ووقاحتها — كما حدث لامرأة ألمعية هى مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء فى بيت أرستقراطى ، ثم وجدت الطعام يقدم لها فى جناح الخدم(٥٣) . وقد رأى البورجوازيون طبقة النبلاء تستنزف مال الدولة فى الإنفاق المسرف والولائم الباذخة فى الوقت الذى أنكر فيه المنصب أو الترقية السياسية أو الحربية على الرجال الذين وسعوا بجرأتهم وابتكارهم اقتصاد فرنسا الجالب للضرائب ، والذين تدعم مدخراتهم الخزانة الآن . ثم رأو الأكليروس يلتهمون ثلث دخل الأمة فى الإبقاء على لاهوت عده كل الفرنسيين المتعلمين تقريباً طفلياً وأثرا متخلفا من تراث العصر الوسيط .

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة فى الإطاحة بالملكية ، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها . ولم يكن بها رغبة قط فى الديمقراطية ، ولكنها أرادت

حكومة دستورية ، يمكن أن يحشد فيها ذكاء جميع الطبقات للتأثير فى التشريع والإدارة والسياسة . وقد طالبت بالتحرر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة ، ولكنها لم تكره الإعانات المالية الحكومية ، أو التأييد من الفلاحين وجماهير المدن لتحقيق أهدافها . وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبلاء والأكليروس ، وهى بورجوازية استخدمت سخط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية ، وسخط جماهير المدن لشل جيوش الملك . فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة ، ألغت نظام الإقطاع ، وصادرت أملاك الكنيسة ، وأجازت تنظيم التجار ، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (١٤ يونيو ١٧٩١) [٥٤] .

٥ — احتشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار ، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات ومؤججاً لها . وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة التى نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيون شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التى فصلها فى الجيل الماضى موريللى ، وما بلى ، ولنجيه[٥٦] . فسبق بريسو دفارفيل بكتابه « مباحث فلسفية حول حق الملكية » (١٧٨٠) كتاب بيير برودون «ليست الملكية إلا لصوصية» ، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هى سرقة للممتلكات العامة ، فليس هناك « حق مقدس ... يبيح أكل طعام عشرين رجلا بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف « والقوانين » مؤامرة الأقوياء على الضعفاء ، والأغنياء على الفقراء »[٥٧] . وقد اعتذر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب ، وأصبح من زعماء الجيروند ، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (١٧٩٣) .

وفى ١٧٨٩ قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل ، أصدر فرنسوا بواسيل «كتاب تعليم للنوع الإنسانى بالسؤال والجواب » ، قطع الشوط كله إلى الشيوعية ، فزعم أن كل الشرور مردها » الطبقة المرتزقة ، القاتلة للبشر ، المعادية للمجتمع ، التى ظلت إلى الآن تحكم الناس وتذلهم وتدمرهم »[٥٨] . ولقد استرق الأقوياء الضعفاء ، ووضعوا القوانين ليحكموهم . واخترعت

الملكية ، والزواج ، والدين ، لأضفاء الشرعية على الغصب ، والعنف ، والخداع ، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هي التي تملك الأرض ، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد . وما الزواج إلا ملكية خاصة في النساء ، وليس لإنسان حق في أكثر مما يحتاج إليه ، وكل ما زاد على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته . وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا ، ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس [٥٩] .

أما أطرف هؤلاء الراديكاليين وأبعدهم أثراً فهم فرنسوا — اميل بابيف . فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس في تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين [٦٠] ، أرسل إلى أكادمية آراس (٢١ مارس ١٧٨٧) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب في هذا الموضوع « إذا أخذنا في الاعتبار مجموع المعرفة التي حصلناها الآن ، فماذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة . . . التي يكون فيها كل شيء مشتركاً بينهم » [٦١] . غير أن الأكاديمية لم تستجب لاقتراحه ، فبين جراكوس بابيف (كما سمى نفسه فيما بعد) في رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٧٨٧ أن كل الناس متساوون بالطبيعة ، وأن كل الأشياء مشتركة في الحالة الطبيعية ، أما كل التاريخ التالي لهذه الحالة فهو انحطاط وخداع . وقد جمع خلال الثورة أتباعاً كثيرين ، وكان على وشك تزعم تمرد على حكومة الإدارة ، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (١٧٩٧) .

على أن آراء كهذه لم تلعب غير دور متواضع في توليد الثورة . فلم يكن هناك أثر يذكر للميول الاشتراكية في « كراسات المظالم » التي وردت لمجلس طبقات الأمة من جميع أرجاء فرنسا في ١٧٨٩ ، ولم يحتو أي منها على هجمات على الملكية الخاصة أو النظام الملكي — وكانت الطبقة الوسطى تمسك بزمام الموقف .

ثم هل كان البناءون الأحرار (الماسون) عاملا في الثورة ؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية في انجلترة (١٧١٧) وأول ظهورها في فرنسا (١٧٣٤) ، وقد انتشرت سريعاً في أوربا البروتستنتية ، وأيدها

فردريك الثانى فى المانيا ، وجستاف الثالث فى السويد . وحظر البابا كلمنت الثانى عشر (١٧٣٨) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوى ، فجرده بذلك من مفعوله القانونى فى فرنسا . وفى ١٧٨٩ كان هناك ٦٢٩ محفلا ماسونياً فى باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة [٦٢] ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وأخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء حركة التنوير [٦٣] ، وفى ١٧٦٠ أسس هلفتيوس محفل العلوم ، وفى ١٧٧٠ وسعة الفلكى لالاند إلى « محفل الأخوات التسع » (ربات الفنون) . هنا التقى برتولليه ، وفرانكلن ، وكوندورسيه ، وشامفور ، وجروز ، وأودون ، ثم سييس ، وبريسو ، وديمولان ، ودانتون [٦٤] .

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل « فاسق كافر » وكل « ملحد غبى » [٦٥] ، وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ « مهندس الكون الأعظم » ولم تشترط فى العضو عقيدة دينية غير هذه ، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية . ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا [٦٦] . وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترابطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الدينى والإصلاح السياسى . وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متحررين فى الجمعية الوطنية — لافاييت ، وميرابو الأب والإبن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو — ليانكور ، ودوق أورليان [٦٧] .

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسى الواضح . وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الانجليزية — لتناول الطعام ، والسمر ، والقراءة — ثم أصبحت حوالى عام ١٧٨٤ مراكز للدعوة شبه الثورية . قال معاصر إنهم فى هذه الأندية « يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد فى حقوق الإنسان ، ومزايا الحرية ، والشرور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة فى ظروف الحياة » [٦٨] . وبعد تجمع مجلس الطبقات كون المندوبون عن

إقليم برتنى « نادى برتن » ، ولم يلبث النادى أن وسع عضويته فشملت غير البرتنيين كميرابو الإبن ، وسييس ، وبروبسبير . وفى أكتوبر ١٧٨٩ نقل مقره إلى باريس ، وأصبح « جمعية اليعاقبه » .

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية ، وهو ما يحدث فى معظم الأحداث البالغة الأهمية فى التاريخ . وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً ، ومطالبتها بوضع سياسى واجتماعى يتناسب وإسهامها فى حياة الأمة ومالية الدولة ، وخشيتها من أن تجعل الخزانة سنداتها الحكومية عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس . ومما لحق بهذا العامل واستخدمه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرخون طلباً للتخفف من الرسوم والضرائب والعشور ، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفى لتحدى الإقطاعيين وجباة والضرائب والأساقفة وأفواج الجند ، والسخط المنظم الذى استشعرته جماهير المدن التى عانت من التلاعب فى إمدادات الخبز ، ومن تخلف الأجور عن الأسعار فى التصاعد التاريخى للتضخم .

أضف إلى هذا أشتاتاً متشابكة من العوامل المساعدة : إسراف البلاط المكلف ، وعجز الحكومة وفسادها ، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء ، وانعدام المؤسسات السياسية التى يمكن عن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانونى وبناء ، ومستويات الإدارة الرفيعة التى يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أى شعب من الشعوب المعاصرة . هذا فضلا عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر ، وبث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، ودولباخ وهلفتيوس ، وموريلليه ، وموريللى ، ومابلى ، ولنجيه ، وميرابوا الأب ، وطورجو ، وكوندورسيه ، وبومارشيه ، وميرابوا الإبن ، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعيه وقوة ، والذين تغلغلت دعوتهم فى كل طبقة باستثناء

طبقة الفلاحين — فى ثكنات الجيش ، وصوامع الرهبان ، وقصور الأشراف ، وحجرات الانتظار الملكية . يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذى أصاب الإيمان فى صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهى ، وبشرت بفضائل الطاعة والإستسلام ، وكدست قدراً هائلا من الثروة المحسودة فى الوقت الذى لاتستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة . ثم انتشار الإيمان بـ « قانون طبيعى » يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة ، و بـ « حالة طبيعية » معطاءة كل الناس فيها متساوون ، فضلاء أحرار ، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة ، والحرب ، والقانون الذى يوجه لخدمة الطبقة المميزة ، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته ، ولإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها ، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم ، والنشاط السرى للأندية السياسية ، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه .

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً فى حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله ، والدوافع المتضاربة فى داخله ، واتركها تفعل فعلها فى شعب أشد وعياً بمظالمه ، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالا من أى شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجها لتحدث انفجاراً ممزقاً إلا حادث يمس الجماهير ، ويتغلغل تغلغلا أعمق من الفكر فى أقوى غرائز البشر . وربما كانت هذه هى وظيفة قحط عام ١٧٨٨ ومجاعته ، وشتاء ١٧٨٨ — ٨٩ القاسى . لقد تنبأ المركيز دجيراردان فى ١٧٨١ بأن « الجوع وحده سيولد هذه الثورة الكبرى[٦٩] » . وقد وصل الجوع إلى الريف ، وإلى المدن ، وإلى باريس ، وأنشب فى الجماهير أظفاره فى ضراوة تكفى التغلب على التقاليد ، والاحترام ، والخوف ، ولتوفير معلية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الطيب . وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين ، واندلع لهيب الثورة .

الباب الثالث

الانهيار السياسى

١٧٨٣ – ٨٩

١ – القلادة الماسية : ١٧٨٥

فى يونيو ١٧٨٣ عاد أكسيل فون فرسن إلى فرنسا بعد أن أبلى بلاء حسناً فى الدفاع عن أمريكا وكسب الفخار فى يوركتون ، فوجد مارى أنطوانيت فى روعة حسنها الذى تركها عليه قبل ثلاث سنين . وحتى فى ١٧٨٧ ، حين كانت فى الثانية والثلاثين ، وجدها آرثر ينج « أجمل امرأة » رآها فى البلاط ذلك اليوم[١] . ولم تتردد فى تأييد طلب جوستاف الثالث إلى لويس السادس عشر أن يعين فرسن الوسيم كولونيلا للفوج السويدى الملكى فى الجيش الفرنسى – مما سيتيح له قضاء وقت غير قصير فى فرساى . واعترف أكسيل لأخته صوفى بأنه يحب الملكة ، وأنه يعتقد أن حبه يلقى استجابة منها . وما من شك فى أنها كانت تحس الود الحار نحوه ، وقد تبادلا الرسائل الرقيقة بعد ثمانية أعوام عقب المحاولة الباسلة التى بذلها لتهريبها هى والملك من فرنسا ، غير أن دعوتها لصوفى أن تأتى وتعيش بقربه توحى بعزمها على أن تحتفظ بشعورها نحوه فى نطاق الحدود اللائقة[٢] . ولم يكد يؤمن ببراءتها أحد فى البلاط غير زوجها . وأكدت علاقتها الآثمة أغنية ذاعت بين عامة الشعب تقول :

إن أشئت أن تعرف
ديوثا ، وابن زنا ، وامرأة فاجرة ،
فانظر إلى الملك ، والملكة .
والأمير ولى العهد[٣] .

ولقد لخص لوى — فليب د سيجوز الأمر فى هذه العبارة : « لقد فقدت سمعتها ولكنها صانت فضيلتها »[٤] .

وفى ٢٥ مارس ١٧٨٥ ولدت مارى أنطوانيت ابناً ثانياً سمى لوى — شارل . وسر الملك سروراً عظيماً فوهبها قصر سان — كلو الذى كان قد اشتراه من الدوق أورليان بستة ملايين من الجنيهات . وأدان البلاط غلو تقديره للملكة ، ولقبتها باريس على سبيل التهكم (السيدة العجز)[٥] . وقد استخدمت نفوذها على زوجها لتوجيه تعيينه للوزراء والسفراء وغيرهم من كبار القوم وحاولت دون جدوى أن تغير من كراهيته للتحالف مع النمسا ، وزادت جهودها هذه من كره الشعب لها .

فى هذا الجو من عداء الشعب لـ « النمساوية » L, Autrichienne كما كانوا يلقبونها نستطيع أن نفهم تصديق الناس لقصة القلادة الماسية . وكانت هذه القلادة ذاتها أمراً لايصدق ، فهى خيط من ٦٤٧ ماسة قيل إنها تزن ٢,٨٠٠ قيراط[٦] * وكان اثنان من جواهرية البلاط هما شارل بومر وبول باسانج— قد اشتريا ماساً من نصف العالم ليصنعا قلادة لمدام دوبارى ، اثقين من أن لويس الخامس عشر سيبتاعها لها . ولكن لويس الخامس عشر مات ، فمن تراه يشترى الآن حلية باهظة الثمن كهذه ؟ وعرضها الجوهريان على مارى أنطوانيت لقاء ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه ، فرفضتها لغلوها الشديد[٧] وهنا تصدر الصورة الكردينال برنس لوى — رينيه — ادوار دروهان .

وكان الكردينال ثمرة ناضجة لأسرة من أعرق الأسر الفرنسية وأغناها ، قيل إن دخله بلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام . رسم قسيساً فى ١٧٦٠ ، وعين مساعداً لعمه رئيس أساقفة ستراسبورج ، وبصفته هذه رحب رسمياً بمارى أنطوانيت أول مرة دخلت فيها فرنسا (١٧٧٠) . فلما وجد ستراسبورج ميداناً يضيق به طموحه ، عاش أكثر وقته فى باريس ، حيث انضم إلى

(*) إذا أخذنا تقدير عام ١٩٦٥ معيارا لسعر الماس (١٢٠٠ ريال القيراط) كانت القلادة تساوى ٣٣٦٠٠٠٠ دولار .

الحزب المناوىء للنمسا والملكة . وفى ١٧٧١ أوفده لويس السادس عشر إلى فيينا مبعوثاً خاصاً لاستطلاع المناورات النمساوية لتقسيم بولنده . واغتاظت ماريا تريزا من الولائم الباذخة التى كان يولمها ومن بثه الشائعات الفاضحة عن ولى العهد الجديد . واستدعاه لويس السادس عشر إلى باريس ، ولكن الأقارب الأقوياء أقنعوا الملك بأن يعينه كبير المتصرفين فى المبرات الملكية (١٧٧٧) . وبعد عام رقى القس المرح الوسيم إلى رتبة الكردينالية ، وفى ١٧٧٩ أصبح رئيساً لأساقفة ستراسبورج وهناك التقى بكاليوسترو فوقع تحت سحر المشعوذ وانطلت عليه دعاواه . وإذ كان روهان قد ارتفع إلى هذا المقام العالى بهذه السرعة الكبيرة ، فقد خيل إليه أن فى وسعه الطموح إلى تقلد منصب كبير وزراء لويس السادس عشر ، شريطة أن يكفر عن سنوات معارضته للملكة .

وكان من أسباب لهوه فى باريس مدام دلا موت — قالوا ، المرأة الجذابة الذكية . وكانت جان دسان — ريمى دفالوا هـذه تدعى أنها تحدرت من هنرى الثانى ملك فرنسا وإحدى خليلاته . ولكن أسرتها فقدت ثروتها ، فاضطرت جان إلى الاستجداء فى الشوارع . وفى ١٧٧٥ أكدت الحكومة نسبها الملكى ، ومنحتها معاشاً قدره ثمانمائة فرنك . وفى ١٧٨٠ تزوجت أنطوان دلاموت ، وكان ضابطاً فى الجيش يهوى الدس والتآمر ، خدعها فى أمر دخله ، فكان زواجهما على حد قولها رباطاً بين القحط والمجاعة[٨] . وقد انتحل لقب كونت ، فأصبحت جان كونتيسه دلاموت ، وبهذه الصفة راحت ترف حول باريس وفرساى ، وتغزو قلوب الرجال بما سمته « مظهر العافية والشباب (الذى يسميه الرجال التألق) ، وبشخصية غاية فى الحيوة والمرح »[٩] . فلما أصبحت خليلة للكردينال (١٧٨٤)[١٠] ، ادعت أن لها صلات وثيقة جداً فى البلاط ، وعرضت أن تنال له موافقة الملكة على أهدافه . فكلفت ريتو دفيليت تقليد خط جلالتها ، وجاءت الكردينال برسائل حب زعمت أنها من مارى أنطوانيت ، وأخيراً وعدت بأن ترتب له لقاء مع الملكة . ثم دربت مومساً تدعى « البارونه » أوليفيا على انتحال شخصية الملكة ، وفى « بستان فينوس »

« بفرساى ، فى جوف الليل البهيم ، التقى الكوردينال فترة قصيرة بهذه المرأة ، وحسبها أنطوانيت ، ولثم قدمها ، وتلقى منها وردة عربوناً للتصالح (أغسطس ١٧٨٤) ، أو هكذا تروى « الكونتيسة »[١١] .

ثم غامرت مدام دلاموت الآن بخطة أكثر جرأة لو نجحت لوضعت حداً حداً لفقرها . ذلك أنها زورت خطاباً من الملكة يخول لروهان شراء القلادة باسمها ، وقدم الكردينال الخطاب إلى بومر ، فسلمه هذا الجواهر (٢٤ يناير ١٧٨٥) بعد تعهد كتابى منه بدفع ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك منجمة . وأخذ روهان الماسات إلى الكونتيسة ، وبناء على طلبها سلمها إلى ممثل مزعوم للملكة . أما تاريخ الماسات بعد ذلك فغير مؤكد ، ويبدو أن الكونت » دلاموت أخذها إلى انجلتره وباعها قطعة قطعة [١٢] .

وأرسل بومر فاتورة بالقلادة إلى الملكة فردت بأنها لم تطلبها قط وأنها لم تكتب قط الخطاب الذى يحمل اسمها . فلما وافى القسط الأول (٣٠ يوليو ١٧٨٥) ولم يعرض روهان غير ثلاثين ألف فرنك من المبلغ المستحق وقدره ٤٠٠,٠٠٠ عرض بومر الأمر على البارون دبروتوى وزير البيت الملكى . فأنبأ بروتوى به الملك . فاستدعى لويس الكردينال ودعاه لتفسير تصرفاته ، فأراه روهان بعض خطابات زعم أنها من الملكة . وفطن الملك للتو إلى أنها مزورة وقال « ليس هذا خط الملكة ، والتوقيع ليس له حتى الشكل المميز »[١٣] ، واشتبه فى أن روهان وغيره من الحزب المناوىء لزوجته قد بيتوا هذه المؤامرة لتشويه سمعتها . فأمر بزج الكردينال فى الباستيل (١٥ أغسطس) وطلب إلى الشرطة البحث عن مدام دلاموت وكانت قد هربت إلى المخبأ تلو المخبأ ، ولكن أمكن القبض عليها ، فزجت هى أيضاً أيضاً فى الباستيل . كذلك قبض على « البارونة » أوليفيا ، وريتو دفيليت ، وكاليوسترو ، الذى اشتبه خطأ فى أنه مدبر المؤامرة ، مع أنه فى الواقع فعل قصاراه ليثبطها[١٤] .

واعتقد لويس أنه لابد من محاكمة علنية لإقناع الشعب ببراءة الملكة ، فعرض القضية على أعدائه ، وهم برلمان باريس . وكانت المحاكمة أشد قضايا

القرن فى فرنسا إثارة لاهتمام الرأى العـــام ، كما أصبحت قضيـــة وارن هيستنجز فى انجلتره بعدها بثلاث سنين . وصدر حكم البرلمان فى ٣١ مايو ١٧٨٦ . فأعلنت براءة الكردينال روهان ، باعتباره مخدوعاً أكثر منه خادعاً ، ولكن الملك حرمه مناصبه الرسمية ونفاه إلى دير لاشيز — ديو . وحكم على اثنين من الشركاء فى الجريمة بالسجن ، وبرئت ساحة كاليوسترو. أما مدام دلاموت فقد جردت من ملابسها علانية وضربت بالسوط فى « الكوردمى » أمام قصر العدالة ، ورسمت بحرف V (اختصاراً لكلمة Voleur أى اللصة) وحكم عليها بالسجن مدى الحياة فى سجن سالبتريير ، وهو سجن النساء سيئى السمعة . وبعد أن قضت عاماً فى هذا المحبس الذى يورث الجنون فرت ، ولحقت بزوجها فى لندن ، وكتبت ترجمة لحياتها شرحت فيها كل شىء ، ثم ماتت فى ١٧٩١ .

واغتبط النبلاء وجماهير الباريسيين بتبرئة ساحة الكردنيال وانتقدوا الملكة لإيصالها الأمر إلى محاكمة علنية ، وكان الشعور العام أن شرهها المعروف للجواهر هو عذر الكردينال فى تصديق الرسائل المزورة . وغالت الشائعات والأقاويل إلى حد اتهامها بمخللة روهان [١٥] ، مع أنها لم تكن رأته خلال السنوات العشر السابقة للقبض عليه . ومرة أخرى صانت الملكة عرضها ولحق الأذى بسمعتها . قال نابليون « إن موت الملكة يجب أن يؤرخ من محاكمة القلادة الماسية [١٦] .

٢ — كالون : ١٧٨٣ — ٨٧

فى ١٠ نوفمبر ١٧٨٣ عين الملك شارل — ألكسندر دكالون مراقباً عاماً للمالية . وكان كالون قد أصاب نجاحاً فى منصب الناظر الملكى بمتز وليل ، واشتهر بآدابه الساحرة ، وروحه المرحة ، وبراعته فى أمور المال — رغم أنه هو ذاته كان غارقاً فى الدين شأنه شأن الحكومة التى دعى لإنقاذها[١٧] . ولم يجد غير ٣٦٠,٠٠٠ فرنك فى الخزانة ، مع دين قصير الأجل قدره ٦٤٦,٠٠٠,٠٠٠ ، يزيد خمسين مليوناً من الفرنكات كل سنة . وقد رفض كما رفض نكير من قبل فرض المزيد من الضرائب مخافة أن يثير الأمر التمرد.

ويضعف الاقتصاد ، وبدلا من الضرائب قرر عمل يا نصيب بعد المفاوضة ، جاء بمائة مليون من الجنيهات . ثم لجأ إلى الأكليروس وظفر منهم بمنحة قدرها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات بعد أن تعهد بمصادرة الطبعة التى أصدرها بومارشيه من أعمال فولتير . ثم أعاد سك العملة الذهبية فربح للخزانة بذلك خمسين مليوناً . واقترض ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ من المصرفيين . وحداه الأمل فى حفز التجارة إلى تخصيص مبالغ كبيرة للمشروعات الصحية العامة فى المدن ولتحسين الطرق والترع والثغور ، واستفادت موانىء الهافر ودنكرك وديبب ولا ووشيل ، وبدأت الأرصفة الكبرى فى شربورج . وعملا بالنظرية التى تزعم أنه لابد للحكومة من أن تتخذ لها دائماً واجهة من الثراء ، خصص الاعتمادات دون تردد للحاشية ، ولم يسأل أسئلة حول نفقات أخوة الملك والملكة . أما الملك نفسه ، فإنه برغم نواياه الطيبة سمح بزيادة نفقات بيته من ٤,٦٠٠,٠٠٠ جنيه فى ١٧٧٥ إلى ٦,٢٠٠,٠٠٠ فى ١٧٨٧ (١٨) .

وكان كالون يقترض كلما زاد إنفاقه ، وكلما اقترض ازدادت الفائدة التى يتعين دفعها على الدين . وفى أغسطس ١٧٨٦ اعترف للملك المذهول أن كل الوسائل قد استنفدت ، وأن الدين القومى والعجز السنوى زادا زيادة لم يسبق لها نظير ، وأنه لانجاة للحكومة من الخراب المالى إلا بتوسيع الضرائب لتشمل النبلاء الأكليروس . وكان كالون عليماً بأن برلمان باريس الذى كان آنئذ مرتبطاً بنبلاء السيف فى حلف سافر سيقاوم هذا الاقتراح ، ومن ثم اقترح أن يدعى لفيف من الرجال البارزين يختارهم بمعرفته من الطبقات الثلاث كلها فى جميع أرجاء فرنسا إلى فرساى للتشاور إنقاذاً لمالية الدولة ، فوافق الملك .

والتأم شمل « مجلس الأعيان » فى ٢٢ فبراير ١٧٨٧ ، وكان يضم ٤٦ نبيلا ، و ١١ كنسياً ، و ١٢ عضواً من مجلس الملك ، و ٣٨ قاضياً ، و ١٢ نائباً من « أقطار الدولة » (وهى أقاليم تتمتع بامتيازات خاصة) ، و ٢٥ موظفاً بلدياً ، وجملتهم ١٤٤ . ووجه كالون إليهم الخطاب بصراحة تنطوى على الشجاعة ، وأفاض فى الحديث عن المساوىء التى لابد من القضاء عليها

أيا كان رسوخها فى الزمن والميول المغرضة ، لأنها « ثقيلة الوطأة على أكثر الطبقات إنتاجاً وكدا » . وأدان عدم المساواة العام فى منح الإعانات المالية ، و « عدم التناسب الهائل فى النصيب الذى تسهم به مختلف الأقاليم والرعايا الذين يدينون بالتبعية لملك واحد » [١٩] . ثم عرض اقتراحات أكثر راديكالية من اقتراحات طورجو ، وقدمها على أن الملك قد وافق عليها ، ولو أنها نفذت لربما تفادت اندلاع الثورة . وقبل الأعيان بعضها مما تحدر من عهد طورجو كخفض ضريبة الملح ، وإلغاء المكوس على التجارة الداخلية ، وإعادة حرية الاتجار فى الغلال وإنشاء المجالس الإقليمية ، وإنهاء السخرة . أما طلبه فرض ضريبة جديدة وعامة على الأرض فقد رفض ، وكانت حجة الأعضاء الأشراف والأكليروس أن « إعانة الأرض » تقتضى مسحاً لجميع الأراضى ، وإحصاء لكل ملاك الأرض ، فى فرنسا ؛ وهذا يستغرق سنة ، ولن يكون له أثر فى الأزمة الراهنة .

ولجأ كالون إلى الشعب بنشر خطبه . ولم يستطب النبلاء ولا الأكليروس هذا الالتجاء للرأى العام . ورد المجلس بأن طالب كالون بتقديم حساب كامل عن الإيرادات والمصروفات أثناء وزارته . فرفض الامتثال للطلب ، لأنه عرف أن الكشف عن وسائله ونفقاته سيكون فيه القضاء عليه . وأصر المجلس على أن الحاجة إلى القصد فى النفقات أمس منها إلى تعديل هيكل الضرائب ، ثم تشكك فى سلطته فى وضع نظام جديد للضرائب ، فمثل هذه السلطة لا يملكها إلا مجلس طبقات الأمة (Etats Généraux وهو مؤتمر قومى من نواب تختارهم الطبقات الثلاث états) ولم يدع مجلس كهذا منذ عام ١٦١٤ .

ووافق أحد الأعيان ، وهو لافاييت ، على معظم مقترحات كالون ، ولكنه كان عديم الثقة بالرجل — فاتهمه ببيع بعض الأراضى الملكية دون علم الملك ، وتحداه كالون أن يثبت التهمة ، فأثبتها[٢٠] . وكان لويس السادس عشر قد ساءه التجاء كالون للشعب متخطياً بذلك رجال الحكومة ، فأدرك

الآن بعد أن تكشفت له الأمور تباعاً أن كالون قد غشه فى حالة الخزينة ، ووضح له أنه لن يستطيع الحصول على أى تعاون من الأعيان مادام كالون مراقباً للمالية . فلما طلب كالون إقالة ناقده البارون دبرتوى الذى كان صديقاً شخصياً لمارى أنطوانيت ، أشارت على الملك بأن يقبل كالون بدلا منه . فاتبع النصيحة بعد أن أرهقته هذه الضجة الشديدة (٨ أبريل ١٧٨٧) . أما كالون فقد هرب سراً إلى انجلترا بعد أن علم بأن برلمان باريس يخطط للتحقيق فى إدانته وفحص شئونه الخاصة . وفى ٢٣ أبريل حاول لويس تهدئة الأعيان بالوعد بالوفر الحكومى ونشر مالية الدولة . وفى أول مايو ، وبناء على نصيحة الملكة أيضاً ، عين أحد الأعيان رئيساً لمجلس فرنسا »

٣ — لومينى دبريين : ١٧٨٧ — ٨٨

كان رئيساً لأساقفة تولوز ، ولكنه كان حر الفكر حرية اشتهر بها حتى أن جماعة الفلاسفة رحبوا بتقلده السلطة . وقبل ست سنوات ، حين زكى ليخلف كرستوف دبومون رئيساً لأساقفة العاصمة ، اعترض لويس السادس عشر قائلا « يجب على الأقل أن يكون لنا رئيس أساقفة لباريس مؤمن بالله »[٢١] . وكان من أعظم ضرباته الموفقة وهو وزير للمالية أنه حصل على نقله لرآسة أساقفة سانس ، وهو منصب أغنى كثيراً من منصب رئيس أساقفة تولوز . وقد أقنع الأعيان بالموافقة على خطته الرامية إلى جمع ثمانين مليوناً من الفرنكات ، ولكن حين طلب إليهم الموافقة على ضريبة الأرض الجديدة عادوا يعتذرون بأنهم لا يملكون سلطة هذه الموافقة . فلما رأى لويس أن الأعيان لن يزيدوا على ذلك أقاله فى لطف (٢٥ مايو ١٧٨٧) .

وقد حاول بريين تحقيق الوفور بطلبه الخفض فى نفقات كل مصلحة حكومية ، فقاومه رؤساء المصالح ، ولم يؤيد الملك وزيره . وخفض لويس نفقات بيته بمليون فرنك ، وارتضت الملكة خفضاً كهذا (١١ أغسطس) وقد أوتى بريين من الشجاعة ما جعله يرفض المطالب المالية التى طالب بها البلاط ، وأصدقاء الملكة ، وأخ الملك . ومما يشرفه أنه استصدر من

البرلمان الكاره (يناير ١٧٨٨) وفى وجه مقاومة معظم زملائه الأساقفة ، المرسوم الملكى الذى بسط مظلة الحقوق المدنية على البروتستنت .

وكان من سوء طالعه أنه تقلد السلطة فى فترة انتشر فيها انكماش اقتصادى استمر حتى الثورة ، نتيجة لنقصان المحاصيل مراراً ولمنافسة الواردات البريطانية . وفى أغسطس ١٧٨٧ تصايحت جماهير المشاغبين الجائعة فى باريس بالنداءات الثورية وأحرقت الدمى التى مثلت بعض الوزراء . كتب أرثر ينج فى ١٣ أكتوبر يقول « يبدو أن الناس جميعاً يشعرون بأن رئيس الأساقفة لن يقوى على تخليص الدولة من عبء موقفها الراهن ، . . . وأن شيئاً خارقاً للعادة سيقع ، وأن إشهار الدولة لإفلاسها فكرة ليست بعيدة الشيوع إطلاقاً »(٢٢) ثم أضاف فى اليوم السابع عشر « إن رأياً واحداً غلب على الجماعة كلها ، وهو أنهم على شفا ثورة عظيمة فى الحكومة . . . وغليان شديد فى جميع صفوف الناس ، الذين يتوقون إلى تغيير ما ، . . . وخميرة قوية من الحرية ، تكبر كل ساعة منذ الثورة الأمريكية »(٢٣) .

وكانت الإصلاحات التى دعا إليها كالون وبريين ، وقبلها الملك ، تنتظر تسجيل البرلمانات لها وإقرارها قانوناً للدولة ، أما برلمان باريس فقد وافق على إطلاق حرية تجارة الغلال وتحويل السخرة إلى مبلغ نقدى ، ولكنه رفض التصديق على ضريبة دمغة . وفى ١٩ يوليو ١٧٨٧ أرسل إلى لويس السادس عشر تصريحاً بأن « الأمة ، ممثلة فى مجلس الطبقات ، هى وحدها صاحبة الحق فى أن تمنح الملك الموارد التى قد يتبين أنه لا غنى عنها »(٢٤) . ووافقت جماهير باريس على هذا الحكم ، وفاتها أن مجلس الطبقات ، كما هو معلوم إلى ذلك الحين فى التاريخ الفرنسى ، ليس إلا مؤسسة إقطاعية شديدة الانحياز إلى الطبقات المميزة . أما نبلاء السيف ، الذين لم تغيب عنهم هذه الحقيقة ، فقد وافقوا على التصريح ، ومنذ ذلك الحين انضموا إلى البرلمان ونبلاء الرداء فى هذا « التمرد النبيل » الذى مهد للثورة . وأما لويس فقد تردد فى دعوة مجلس الطبقات مخافة أن ينهى المجلس استبدادية الملكية البوربونية بتأكيده للسلطات التشريعية ،

وفى أغسطس ١٧٨٧ قدم للبرلمان مرسوماً بضريبة على جميع الأراضى فى جميع الطبقات . فرفض البرلمان تسجيلها . فدعا لويس الأعضاء إلى مجلس قضائى أعلى « سرير عدالة » فى فرساى ، وأمرهم بالتسجيل ، فلما عاد الأعضاء إلى باريس أعلنوا أن التسجيل باطل ، وعادوا يطالبون بعقد مجلس الطبقات . فنفاهم الملك إلى ترويه (١٤ أغسطس) وثارت البرلمانات الإقليمية احتجاجاً ، واندلعت حوادث الشغب فى باريس ، وأذعن بريين والملك ، فاستدعى البرلمان (٢٤ سبتمبر) وسط مظاهر ابتهاج الشعب .

ثم تجدد الصراع حين رفض البرلمان التصديق على اقتراح بريين جمع قرض قدره ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ودعا الملك لعقد « جلسة ملكية » للبرلمان (١١ نوفبر ١٧٨٧) قدم فيها وزراؤه الحجج المؤيدة لتسجيل القانون . ولكن البرلمان أصر على الرفض ، وصاح الدوق ورليان « مولاى ، هذا غير قانونى ! » وأجاب لويس فى نوبة غضب طائشة على غير العادة « هذا لا يغير من الأمر شيئاً ! انه قانونى لأنى أريده » — وهكذا أكد مبدأ الحكم الاستبدادى فى غير مواربة . ثم أمر بتسجيل المرسوم ، فسجل ، ولكنه ما إن غادر القاعة حتى ألغى البرلمان التسجيل . فلما سمع لويس بهذا نفى الدوق أورليان إلى فيلليه كوتريه ، وزج باثنين من أعضاء البرلمان فى الباستيل (٢٠ نوفبر) . واحتجاجاً على هذين الأمرين وغيرهما من أوامر القبض دون محاكمة ، بعث البرلمان إلى الملك (١١ مارس ١٧٨٨) « اعتراضات » اشتملت كلاماً سر النبلاء والعامة على السواء : « ان القوانين التعسفية تنتهك الحقوق التى لا يمكن انتزاعها ... ان الملوك يحكمون إما بالقهر أو بالقانون . . . والأمة تطلب من جلالته أعظم خير يمكن لأى ملك أن يعطيه لرعاياه — وهو الحرية »[٢٥] .

ورأت الوزارة أن تهدىء ثائرة البرلمان بالإذعان لما طالب به من نشر بيان بإيرادات الحكومة ومصروفاتها . فزاد هذا النشر الطين بلة لأنه كشف عن عجز مقداره ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . ورفض المصرفيون أن يقرضوا الدولة مزيداً من المال ما لم يصدق البرلمان على القرض ، وأقسم البرلمان أنه

لن يفعل . وفى ٣ مايو ١٧٨٨ أصدر « إعلاناً للحقوق » ذكر لويس السادس عشر ووزراءه بأن فرنسا « ملكية يحكمها ملك ، طبقاً للقوانين » ، وأن على البرلمان ألا يتخطى عن حقه القديم فى تسجيل المراسيم الملكية قبل أن تصبح قوانين . ثم عاود المطالبة بعقد مجلس الطبقات . وأمر الوزراء باعتقال عضوين من زعماء البرلمان هما ديمرنيل وجوابلار (٤ مايو) ، وتم هذا وسط فوضى واضطراب فى القاعة واحتجاجات غاضبة فى الشوارع . وفى ٨ مايو أعلن بريين عزم الحكومة على إنشاء محاكم جديدة ، ترأسها « محكمة مطلقة السلطة » يكون لها وحدها منذ الآن سلطة تسجيل المراسيم الملكية ، أما البرلمانات فتقتصر سلطتها على أداء الوظائف القضائية البحته ، ثم يصلح هيكل القانون الفرنسي بجملته . ومنح برلمان باريس أثناء ذلك « أجازة » — أى أنه من الناحية الفعلية أوقف عمله .

وعليه لجأ البرلمان إلى النبلاء ، والأكليروس ، والبرلمانات الإقليمية ، فخف الجميع لتأييده . وأرسل الأدواق والأشراف إلى الملك احتجاجات على إلغاء حقوق البرلمان التقليدية . وأدان مؤتمر للاكليروس (١٥ يونيو) « المحكمة المطلقة لسلطة » الجديدة ، وخفض « منحته » من إثنى عشر مليون جنيه فى المتوسط إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، ورفض أى معونة أخرى حتى يعاد البرلمان [٢٦] . ثم شقت البرلمانات الواحد تلو الآخر عصا الطاعة على الملك . وأعلن برلمان بو (عاصمة بيارن) أنه لن يسجل مراسيم رفضها برلمان باريس ؛ وحين هددت الحكومة أعضاءه باستعمال القوة تسلح الشعب ليحميهم . أما برلمان روان (عاصمة نورمنديه) فقد شهر بوزراء الملك باعتبارهم خزنة ، وحرم من حماية القانون كل الأشخاص الذين يستخدمون المحاكم الجديدة . وأصدر برلمان رين (عاصمة برتنى) قوانين مماثلة ، فلما أرسلت الحكومة الجند لفضه تصدى لهم موظفو النبلاء المحليون المسلحون [٢٧] . وحين أذاع الحاكم العسكرى فى جرينوبل (عاصمة الدوفينه) مرسوماً ملكياً بحل البرلمان المحلى ، هبت جماهير المدينة التى عززها الفلاحون الذين دعاهم ناقوس الخطر ، فقذفت الجند الكارهين لمهمتهم ببلاط من الأسطح ،

وأكرهت المحاكم على سحب مرسوم الملك (٧ يونيو ١٧٨٧ ، « يوم البلاط ») وإلا شنقوه على ثريا ردهته . ولكن القضاة امتثلوا لأمر ملكي بنفيهم .

ولقد صنع مجتمع جرينوبل التاريخ بانتقاضه هذا . وصمم النبلاء الاكليروس والعامة على إعادة مجلس طبقات الدوفينية ليلتئم فى ٢١ يولو . ولما كانت الطبقة الثالثة قد قادت النصر فى « يوم البلاط » فقد منحت تمثيلا مكافئاً لتمثيل الطبقتين الأخريين مجتمعتين ، واتفق على أن يكون التصويت فى المجلس الجديد بالأفراد لا بالطبقات ، وقد وضعت هذه الاتفاقات سوابق لعبت دوراً فى تنظيم مجلس الطبقات القومى . فلما حظر على مجلس طبقات الدوفينه أن يجتمع فى جرينوبل ، اجتمع فى فيزيل على بضعة أميال ، وهنالك ، بقيادة محام شاب يدعى جان — جوزيف مونييه ، وخطيب شاب يدعى أنطوان بارناف ، وضع النواب الخمسمائة قرارات (أغسطس ١٧٨٨) أيدت حقوق البرلمانات فى التسجيل ، وطالبت بألغاء أوامر القبض الملكية ، ودعت إلى عقد مجلس لطبقات الأمة ، وتعهدت بعدم الموافقة إطلاقاً على ضرائب جديدة ما لم يصدق عليها مجلس الطبقات . هنا كانت إحدى بدايات الثورة الفرنسية : فإن إقليماً بأسره تحدى الملك ، وطالب فى واقع الأمر بملكية دستورية .

واستسلم الملك بعد أن قهره هذا التمرد الذى شمل الأمة كلها تقريباً على السلطة الملكية ، فقرر أن يدعو مجلس الطبقات ، ولما كان آخر اجتماع لهذه الهيئة قد انقضى عليه ١٧٤ عاما ، ولما كان نمو الطبقة الثالثة قد استحال معه اتباع الإجراءات القديمة ، فقد أصدر لويس السادس عشر (٥ يوليو ١٧٨٨ (نداء غير عادى على أنه أمر من أوامر مجلس الملك :

« سيحاول جلالته العمل بما يقرب من الإجراءات القديمة ، ولكن إذا لم يتيسر التحقق من هذه الإجراءات فإنه يريد أن يسد الثغرة بالتأكد من مشيئة رعاياه . . . وعليه فقد قرر الملك أن يأمر بإجراء كل البحوث الممكنة الخاصة بالأمور سالفة الذكر فى جميع محفوظات كل إقليم ، وأن تبلغ نتائج هذه البحوث إلى مجالس الطبقات الإقليمية ومؤتمراتها ، . . . التى بدورها

تبلغ جلالته برغباتها . . . ويدعو جلالته جميع الدارسين والأشخاص المتعلمين فى مملكته . . أن يوافوا حامل الأختام بجميع المعلومات والمذكرات المتصلة بالشئون التى يتضمنها هذا المرسوم »[٢٨] .

وفى ٨ أغسطس دعا لويس طبقات فرنسا الثلاث أن توفد مندوبين إلى دورة لمجلس الطبقات تجتمع بفرساى فى أول مايو ١٧٨٩ . ثم عطل فى اليوم ذاته « المحكمة المطلقة السلطة » التى سرعان ما طواها التاريخ فى زوايا النسيان . وفى ١٦ أغسطس اعترفت الحكومة بإفلاسها فى الواقع ، إذ أعلنت أن التزامات الدولة ابتداء من ٣١ ديسمبر ١٧٨٩ لن تدفع كلها عملة بل يدفع بعضها ورقاً على المواطنين جميعاً أن يقبلوه عملة قانونية . وفى ٢٥ أغسطس استقال بريين محمد بالرضى والثراء فى الوقت الذى أحرقت فيه جماهير باريس دمية تصوره . ثم اعتكف فى سانس ، وهناك انتحر فى ١٧٩٤ .

٤ — عودة نكير : ١٧٨٨ — ٨٩

وطلب الملك إلى نكير على مضض أن يعود إلى الحكومة (٢٥ أغسطس) ومنحه الآن لقب الوزير ومقعداً فى المجلس الملكى . وهلل الجميع لهذا التعيين من الملكة والأكليروس إلى المصرفيين وعامة الشعب . وتجمع حشد فى فناء قصر فرساى ليرحبوا به ، فخرج إليهم وقال لهم « نعم يا أبنائى ، أنا باق ، فاطمئنوا » ووقع بعضهم على ركبهم وقبلوا يديه[٢٩] فبكى على طريقة ذلك العصر .

على أن الخلل الذى استشرى فى الإدارة ، وفى الشوارع ، وفى الفكر الحكومى والشعبى ، كان قد قارب جداً حالة التحلل السياسى بحيث كان قصارى ما استطاعة نكير هو الاحتفاظ بالاستقرار حتى يجتمع مجلس الطبقات ، ثم بلفتة كريمة منه لاستعادة الثقة بالحكومة وضع مليونى فرنك من ماله فى الخزانة ، وارتهن ثروته الخاصة ضماناً جزئياً لالتزامات الدولة[٣٠] . ثم ألغى الأمر الذى صدر فى ١٦ أغسطس بإلزام حملة السندات بقبول

البنكنوت بدلا من النقود ، وارتفعت أسعار السندات الحكومية ثلاثين فى المائة فى السوق ، وقدم المصرفيون من المال للخزانة ما يكفى لتجاوز الأزمة عاما .

وعملا بنصيحة نكير دعا الملك البرلمان ثانية (٢٣ سبتمبر) . واقترف البرلمان فى نشوة انتصاره خطأ التصريح بأن مجلس الطبقات القادم ينبغى أن يعمل كما عمل سابقه فى ١٦١٤ — أى منعقداً بطبقات منفصلة ومصوتاً فى وحدات طبقية ، وهذا كفيل بأن يصيب الطبقة الثالثة أوتوماتيا بالعجز السياسى . أما جماهير العامة التى كانت قد صدقت دعوى البرلمان بأنه يدافع عن الحرية ضد الطغيان ، فقد أدركت أن الحرية المقصودة هى حرية الطبقتين المميزتين فى التسيد على الملك . وهكذا حرم البرلمان نفسه ، بانضمامه على هذا النحو إلى صف النظام الإقطاعى ، من تأييد الطبقة الوسطى القوية ، ولم يعد منذ الآن عاملا مؤثراً فى تشكيل الأحداث . وبلغ « التمرد النبيل » بهذا حدوده وأنهى شوطه ، ثم أخلى الآن مكانه للثورة البورجوازية .

وقد زاد مهمة نكير عسراً ما حل بالبلاد عام ١٧٨٨ من قحط انتهى بعواصف ثلجية أتلفت المحاصيل الهزيلة . وكان شتاء ١٧٨٨ — ٨٩ من أقسى ماعرفه تاريخ فرنسا ، ففى باريس هبط الترمومتر إلى ١٨° تحت الصفر الفارنهيتى ، وتجمد السين تماماً من باريس إلى الهافر . وارتفع سعر الخبز من تسعة سنتات فى أغسطس ١٧٨٨ إلى أربعة عشر فى فبراير ١٧٨٩ ، وبذلت الطبقات العليا قصارى جهدها للتخفيف عن الشعب ، وأنفق بعض النبلاء ، كالدوق أورليان ، مئات الألوف من الجنيهات فى إطعام الفقراء وتدفئتهم ، وتبرع رئيس الأساقفة بأربعمائة ألف جنيه ، وظل دير للرهبان يطعم ألفاً ومائتى شخص يومياً على مدى ستة أسابيع [٣٢] . وحظر نكير تصدير الغلال ، واستورد منها ما قيمته سبعون مليون جنيه ، فأمكن تفادى المجاعة ، ولكنه ترك لخلفائه أو لمجالس الطبقات مهمة سداد القروض التى اقترضها .

ثم أقنع الملك أثناء ذلك (٢٧ ديسمبر ١٧٨٨) بأنه يجب فى مجلس الطبقات القادم أن يكون نواب الطبقة الثالثة مساوين فى العدد لنواب الطبقتين الأخيرتين مجتمعتين ، وذلك رغم النصيحة المضادة التى أشار بها النبلاء الأقوياء . وفى ٢٤ يونيو ١٧٨٩ أذاع على جميع أقسام فرنسا دعوة لتنتخب ممثلين لها بالتصويت . وكان كل رجل فرنسى فى الطبقة الثالثة يزيد عمره على أربعة وعشرين عاما ويدفع أى ضريبة ، من حقه — بل أنه مأمور — بأن يدلى بصوته ، وكذلك جميع المهنيين ، ورجال الأعمال ، وأعضاء الطوائف الحرفية ، أى أن جميع العامة — باستثناء المعدمين وأفقر العمال — كان عليهم أن يدلوا بأصواتهم[٣٢] . واجتمع المرشحون الناجحون على هيئة لجنة انتخابية اختارت نائباً عن القسم . أما فى الطبقة الأولى (الأكليروس) فكان كل كاهن أو خورى ، وكل دير للرهبان أو الراهبات ، يدلى بصوته لاختيار ممثل فى الجمعية الانتخابية للقسم ، وكان رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، أعضاء فى تلك الجمعية بحكم وظائفهم ، واختارت الجمعية مندوباً فى مجلس الطبقات . أما فى الطبقة الثانية (الأشراف) فقد كان كل نبيل فوق الرابعة والعشرين تلقائياً عضواً فى الجمعية الإنتخابية التى اختارت مندوباً يمثل نبلاء قسمه . وفى باريس وحدها قصر حق التصويت على من يدفعون فرضة رؤس قدرها جنيهات أو أكثر ، وقد أسقط بذلك معظم أفراد الطبقة العاملة[٣٣] .

ودعت الحكومة كل جمعية انتخابية فى كل طبقة لوضع «كراسة بالشكاوى والمظالم» لإرشاد ممثلها . ولخصت كراسات الأقسام لكل طبقة فى كراسات إقليمية ، ثم قدمت هذه للملك ، كاملة أو مختصرة ، وأجمعت الكراسات كلها على إدانة الحكم المطلق ، والمطالبة بملكية دستورية تتقيد فيها سلطات الملك ووزرائه بالقانون وبمجلس منتخب على نطاق قومى يجتمع دورياً وله وحده حق تقرير الضرائب الجديدة واعتماد القوانين الجديدة . وطلب إلى جميع النواب تقريباً عدم الموافقة على اعتماد أموال للحكومة حتى تحصل الأمة على دستور كهذا . وأدانت جميع الطبقات عدم كفاية الحكومة فى شئون المال ، والمظالم المقترنة بالضرائب غير

المباشرة ، وشطط السلطة الملكية كما يتمثل فى أوامر القبض الملكية . وطالب الجميع بالمحاكمة وفق نظام المحلفين ، وبسرية الرسائل ، وبإصلاح القانون . ودعا الجميع للحرية ، ولكن على طريقتهم الخاصة : فالنبلاء لاستعادة السلطات التى كانت لهم قبل حكم ريشليو ، والأكليروس والبورجوازيون للتحرر من كل تدخل للدولة ، والفلاحون للتحرر من الضرائب الظالمة والرسوم الإقطاعية . وقبل الجميع من حيث المبدأ المساواة فى الضرائب على جميع أنواع الملكية . وأعرب الجميع عن الولاء للملك ، ولكن أحداً لم يذكر « الحق الإلهى » فى الحكم [٣٤] ، فقد كان هذا الحق بإجماع الآراء فى عداد الموتى .

واشترطت كراسات النبلاء أن تجتمع كل طبقة من الطبقات الثلاث فى مجلس الطبقات منفصلة وتصوت بوصفها طبقة متحدة . أما كراسات الاكليروس فقد رفضت التسامح الدينى ، وطلبت إلغاء الحقوق المدنية الممنوحة للبروتستنت مؤخراً . وطالبت بعض الكراسات بترك شطر أكبر من ضريبة العشور الأبرشية ، وبفتح المناصب فى السلم الكهنوتى أمام جميع القساوسة على السواء . وأسفت معظم الكراسات الكنسية على ما شاب العصر من فساد أخلاقى فى الفن والأدب والمسرح ، وعزت هذا التدهور إلى حرية النشر المفرطة ، وطالبت بقصر الأشراف على التعليم على الاكليروس الكاثلوليكى دون سواه .

أما كراسات الطبقة الثالثة فأعربت أكثر ما أعربت عن آراء الطبقة الوسطى والفلاحين الملاك . فطالبت بإلغاء الحقوق الإقطاعية ومكوس النقل ، وبفتح الطريق للمواهب لجميع الطبقات ولجميع المناصب . ونددت بثراء الكنيسة وتبطل الرهبان الغالى التكلفة . واقترحت إحدى الكراسات على الملك إن أراد تغطية العجز أن يبيع أراضى الاكليروس وإيجاراتهم ، واقترحت كراسة أخرى مصادرة جميع الأملاك الديرية [٣٥] . وشكت كراسات كثيرة من العبث المنكر الذى تحدثه بالمزارع حيوانات النبلاء ومطاردتهم لصيدهم . وطلبت التعليم المجانى للجميع ، وإصلاح المستشفيات والسجون ، والقضاء المبرم على القنية وتجارة الرقيق . وأكدت كراسة

نموذجية للفلاحين « أننا ركيزة العرش الرئيسية ، وسند الجيوش الصادق . . . إننا مصدر الثراء للآخرين ، بينما نظل فقراء »[٣٦] .

لقد كان انتخاب مجلس الطبقات هذا ، فى جملته ، لحظة نبيلة باعثة على الفخر فى تاريخ فرنسا . وكادت فرنسا البوربونيه ، ولو للحظة ، أن تصبح دمقراطية ، على الأرجح بنسبة من السكان تدلى بأصواتها تفوق نسبة من يدلون بأصواتهم فى إنتخاب أمريكى يجرى اليوم . وكان انتخاباً عادلا ، لا يشوبه الخلل الذى قد يتوقع فى عملية بهذه الجدة ، وواضح أنه كان أقل فساداً من معظم الانتخابات التى أجريت فى دمقراطيات أوربا اللاحقة [٣٧] . ولم يحدث قط من قبل ، على قدر علمنا ، أن أصدرت حكومة من الحكومات دعوة عريضة كهذه لشعبها لتحيطه علماً بالإجراءات ، ولتتعرف إلى شكاوى الشعب ورغباته ، وقد أتاحت هذه الكراسات فى جملتها للحكومة نظرة للأحوال فى فرنسا أشمل من أى نظرة أتيحت لها فى أى عهد قبل ذلك . فالآن امتلكت فرنسا ، إن كانت قد امتلكت فى أى عهد ، المواد المؤهلة لفن الحكم ، والآن اختارت خيرة رجالها بمحض حريتها من كل طبقة ، ليلتقوا بملك كان قد قام فعلا بمقدمات شجاعة للتغيير . وملأ الأمل فرنسا كلها حين اتخذ هؤلاء الرجال القادمون من كل فج الدولة سمتهم إلى باريس وفرساى .

٥ — يدخل ميرابو

وكان أحدهم نبيلا انتخبه العامة عن إكس — أن — برفانس ومرسليا . وقد أصبح هذا الرجل ، أنوريه — جابرييل — فكتور ركيتى ، كونت ميرابو — الدميم الوجه الساحر الشخصية ، والذى تفرد بهذا الشرف الشاذ المزدوج ، علماً مسيطراً من أعلام الثورة منذ وصوله إلى باريس (أبريل ١٧٨٩ (حتى موته السابق لأوانه (١٧٩١) .

ولقد نوهنا من قبل بأبيه — فكتور ركيتى ، مركيز ميرابو — فزيوقراطيا و « صديقاً للإنسان » ، أى لكل إنسان عدا زوجته وأبنائه ، وقد وصف

فوفنارج « صديق الإنسان » هذا بأنه « ذو طبع نارى مكتئب ، أشد عتواً وتقلباً . . . من البحر ، يتسلط عليه نهم دائم للذة والمعرفة والمجـــد »[٣٨] . وقد اعترف المركيز بهذا كله ، وأضاف إليه أن « الفساد الخلقى طبيعة ثانية فيه » . وحين بلغ الثامنة والعشرين صمم على أن يكتشف إن كان ممكناً أن يكتفى بامرأة واحدة ، فطلب يد مارى دفيسان ، التى لم يرها قط ، ولكنها كانت الوريثة غير المنازعة لثروة كبيرة . وبعد أن تزوجها وجد أنها امرأة سليطة رثة عاجزة ، ولكنها أنجبت له فى إحدى عشرة سنة أحد عشر طفلا ، تخطى الطفولة منهم خمسة . وفى ١٧٦٠ زج المركيز فى « الشاتو دفانسين » بتهمة الكتابات المهيجة ، ولكن أفرج عنه بعد أسبوع . وفى ١٧٦٢ هجرته وعادت إلى ألها .

وشب ابنه البكر ، أونوريه — جابرييل — وسط هذه الدراما العائلية . وقد ماتت إحدى جدتيه مجنونة ، وتعرضت إحدى شقيقاته وأحد إخوته للجنون بين الحين والحين ، ومن المعجزات أن ينجو جابرييل نفسه من الجنون وهو يصارع الكارثة تلو الكارثة . وقد ولد وله سنان ، وكأنهما تحذير للعالم . وحين بلغ الثالثة أصيب بالجدرى الذى خاف فى وجهه ندوباً ونقراً كأنه ساحة قتال . وكان غلاماً شديد الحيوية ، مشاكساً ، عنيداً ، وكان أبوه ، الشديد الحيوة ، المشاكس ، العنيد ، يكثر من ضربه ، فربى فيه كراهية أبيه ، وسر المركيز أن يتخلص منه بإرساله حين بلغ الخامسة عشرة (١٧٦٤) إلى أكاديمية حربية فى باريس . وهناك تعلم جابرييل الرياضيات والألمانية والانجليزية ، وقرأ بنهم إذ تسلطت عليه رغبة عارمة فى الإتيان بجلائل الأعمال . وقرأ فولتير ففقد دينه ، وقرأ روسو فتعلم أن يتعاطف مع عامة الشعب ، وفى الجيش سرق خليلة قائده ، واشتبك فى مبارزة ، وشارك فى الغزو الفرنسى لكورسيكا ، وظفر بقدر من الثناء على بسالته أشعر أباه بحبه ولو لحظة .

وحين بلغ الثالثة والعشرين تزوج ابتغاء المال بصراحة من إميلى مارنياك ، وكانت تتوقع أن ترث ٥٠٠,٠٠٠ فرنك . فولدت لجابرييل ولداً ، ثم اتخذت عشيقاً ، واكتشف خيانتها ، وأخفى خيانته ، ثم غفر لها . وتشاجر

مع رجل يدعى فللنيف ، وحطم شمسية فوق ظهره ، فاتهم بتعمد القتل ، ورغبة فى تفادى القبض عليه حصل أبوه على أمر ملكى مختوم زج بمقتضاه جابرييل فى الشاتوديف ، القائم على جزيرة حيال مارسليا ، وطلب إلى زوجته أن تلحق به ، ولكنها رفضت ، وتبادلا رسائل فيها حنق متصاعد ، انتهت بأن أقرأها « الوداع إلى الأبد » (١٤ ديسمبر ١٧٧٤) .واستدفأ أثناء ذلك بمضاجعة زوجة مأمور السجن بين الحين والحين .

وفى مايو ١٧٧٥ نقل بمسعى أبيه إلى سجن أرخى فى الشاتودجو ، قرب بونتارلييه والحدود السويسرية . ودعاه سجانه المسيو دسان — مورى إلى بحفلة التقى فيها بصوفى دروفيه ، الزوجة ذات التسعة عشر ربيعاً للمركيز دمونييه السبعينى . وقد وجدت ميرابو أكثر إشباعاً من زوجها ؛ صحيح أن وجهه كان منفراً ، وشعره صرفى القوام ، وأنفه ضخماً ، ولكن عينيه كانتا متقدتين ، وطبعه كان « نارياً » وكان فى استطاعته أن يغوى بحديثه أى امرأة . واستسلمت له صوفى كلية ، وفر من بونتارلييه ، ثم هرب إلى تونون فى إقليم سافوا ، وهناك أغوى ابنة عم له . وفى أغسطس ١٧٧٦ لحقت به صوفى فى فريير بسويسره لأن العيش بعيداً عنه كما قالت معناه « الموت ألف مرة كل يوم »(٣٩) . وأقسمت الآن « أما جابرييل أو الموت ! » واقترحت أن تشتغل ، لأن جابرييل كان مفلساً .

فصحبها إلى أمستردام حيث استخدمه مارك ريه ، ناشر كتب روسو ، مترجماً ، وعملت صوفى سكرتيرة له ، واشتغلت بتدريس الإيطالية . وقد كتب عدة كتب صغيرة تحدث فى أحدها عن أبيه فقال « انه يعظ بالفضيلة ، والبر ، والقصد ، فى حين أنه أسوأ الأزواج ، وأقسى الآباء وأكثرهم إسرافاً »(٤٠) . ورأى ميرابو الأب فى هذا خروجاً على أصول اللياقة . فاتفق مع والدى صوفى على تدبير إعادة الزوجين من هولنده ، فقبض عليهما (١٤ مايو ١٧٧٧) وجىء بهما إلى باريس . وبعد أن فشلت صوفى فى محاولة الانتحار ، أرسلت إلى إصلاحية ، أما جابرييل الساخط فقد زج فى الشاتو دفانسين ، مقتفياً فى ذلك خطى أبيه وديدرو . وهناك ظل

يقضى فى السجن اثنين وأربعين شهراً . وبعد أن قضى فيه عامين سمح له بالكتب والورق والقلم والمداد ، فراح يبعث لصوفى برسائل ملؤها الإخلاص المشبوب . وفى ٧ يناير ١٧٧٨ ولدت بنتاً لعلها كانت ابنته وفى شهر يونيو نقلت الأم وطفلتها إلى دير فى جيان قرب أورليان .

والتمس ميرابو من أبيه أن يصفح عنه ويعمل على اطلاق سراحه . وقال متوسلا « دعنى أرى الشمس ، دعنى أتنسم هواء أكثر حرية ، دعنى أرى وجه اخوانى البشر ! . انى لا أبصر غير الجدران المظلمة . ابتاه سأموت من آلام التهاب الكلى ! » ولكى يخفف من شقائه ويكسب بعض المال لصوفى ، ويتقى الجنون ، ألف عدة كتب ، بعضها جنسى . وكان أهمها هو « الأوامر الملكية المختومة » الذى وصف مظالم القبض دون إذن والسجن دون محاكمة ، وطالب بإصلاح السجون والقانون فلما نشر هذا الكتيب فى ١٧٨٢ بلغ تأثر لويس السادس عشر به مبلغاً حمله على أن يأمر فى ١٧٨٤ بالإفراج عن جميع السجناء المعتقلين فى فانسين[٤٢] .

وقد ترفق سجانو ميرابو به ، وبعد ١٧٧٩ سمح له بالتمشى فى حدائق الشاتو ولقاء الزوار ، ووجد فى بعض زائريه منصرفات لطاقته الجنسية العارمة [٤٣] . ووافق أبوه على أن يعمل على الإفراج عنه إذا اعتذر لزوجته واستأنف معاشرتها ، لأن المركيز العجوز كان تواقاً لحفيد يواصل بقاء الأسرة . فكتب جابرييل إلى زوجته يطلب الصفح . وفى ١٣ ديسمبر ١٧٨٠ أطلق سراحه بكفالة أبيه ، الذى دعاه إلى قصر الأسرة فى لوبنيون ، وكانت له بعض العلاقات الغرامية فى باريس ، وزار صوفى فى ديرها ، والظاهر أنه أخبرها أنه ينوى العودة إلى زوجته . ثم مضى إلى لوبنيون ، وأبهج قلب أبيه . وتلقت صوفى مالا من زوجها ، وانتقلت إلى بيت قريب من الدير ، وانهمكت فى أعمال البر ، ووافقت على الزواج من كبتن سابق فى الخيالة . ولكنه مات قبل أن يزف إليها ، فانتحرت فى الغد (٩ سبتمبر ١٧٨٩)[٤٤] . أما زوجة ميرابو فقد رفضت لقاءه ، فأقام عليها دعوى تهمها فيها بهجرها له ، وخسر دعواه ، ولكنه أدهش الأصدقاء والأعداء

ببلاغه مرافعته التي ستغرقت خمس ساعات دفاعاً عن قضية يستحيل الدفاع عنها . وتبرأ منه أبوه ، فقاضاه ، وحصل منه على راتب قدره ثلاثة آلاف فرنك فى السنة ، وراح يقترض المال زيحيا حياة مترفة . وفى ١٧٨٤ اتخذ خليلة جديدة تدعى هنرييت نيرا . واصطحبها فى رحلة إلى انجلتره وألمانيا (١٧٨٥ — ٨٧) . وفى الطريق كانت له مغامرات غرامية عارضة ، غفرتها له هنرييت لأنه — كما قالت — « ما إن تتودد إليه امرأة أقل تودد حتى يلتهب لفوره »[٤٥] . والتقى بفردريك مرتين ، وعرف عن بروسيا ما يكفى لتأليف كتابه « فى الملكية البروسية » (١٧٨٨) (من مادة زوده بها ضابط بروسى) ، وقد أهدى الكتاب لأبيه ، الذى وصفه بأنه « مصنف ضخم لعامل هائج . » وكلفه كالون برسائل سرية عن الشئون الألمانية ، فأرسل منها سبعين أدهشت الوزير بإدراكها المرهف وأسلوبها القوى .

فلما عاد إلى باريس رأى أن سخط الشعب قارب الحماسة الثورية . وفى رسالة إلى الوزير مونموران حذر من نشوب الثورة ما لم يجتمع مجلس طبقات الأمة قبيل عام ١٧٨٦ « انى أسأل هل حسبتم حساب قوة الجوع المزلزلة إذا تفاعلت مع روح اليأس . انى أسأل من سيجرؤ على أن يكون مسئولا عن سلامة جميع من يلتفون حول العرش ، أجل ، بل سلامة الملك نفسه ؟ »[٤٦] وقد طواه خضم هذا الهياج فاندفع فيه ووفق فى مصالحة هشة مع أبيه (الذى مات فى ١٧٨٩) . ثم رشح نفسه فى اكس — أن — بروفانس لمجلس طبقات الأمة ودعا نبلاء الإقليم لاختياره ، فرفضوا ، فاتجه إلى الطبقة الثالثة ، التى رحبت به . وانبعث الآن من شرنقتين المحافظة واتخذ له أجنحة بوصفه ديمقراطياً « أن حق السيادة كامن فى الشعب وحده ، والملك لا يمكن أن يكون أكثر من القاضى الأول للشعب »[٤٧] . وقد أراد الاحتفاظ بالملكية ، إنما حماية للشعب من الارستقراطية ، ثم دعا بإلحاح أثناء ذلك إلى إعطاء حق التصويت لجميع الذكور البالغين[٤٨] . وفى خطاب موجه لمجلس طبقات إقليم بروفانس هدد الطبقات المميزة بإضراب عام : « حذار من أن تحتقروا هذا الشعب الذى ينتج كل شىء ، هذا الشعب الذى لا يحتاج إلا لفرض الجمود عليه حتى يصبح رهيباً جباراً »[٤٩] .

ثم اندلع شغب بسبب الخبز فى مارسليا (مارس ١٧٨٩) ، وأرسل أولو الأمر فى طلب ميرابو ليهدىء ثائرة الشعب لأنهم كانوا على بينة من شعبيته ، وتجمعت الجماهير فى حشد من ١٢٠,٠٠٠ للهتاف له[٥١] . فنظم دورية لمنع حوادث العنف . وفى « بيان لشعب مارسليا » نصح العامة بالصبر حتى يتاح لمجلس طبقات الأمة الوقت للموازنة بين المنتجين الذين يريدون أسعاراً عالية والمستهلكين الذين يريدون أسعاراً منخفضة . وأطاعه القائمون بالشغب . وبقوة الإقناع ذاتها هدأ تمرداً نشب فى إكس . وانتخبته إكس ومرسليا نائباً عنهما ، فشكر الناخبين ، وقرر أن يمثل إكس . وفى أبريل ١٧٨٩ اتخذ سمته إلى باريس ومجلس الطبقات .

٦ — التجربة الأخيرة للدراما : ١٧٨٩

واخترق بلداً يواجه المجاعة ويجرب الثورة . ففى ربيع عام ١٧٨٩ نشب فى أقسام عديدة تمرد متكرر على الضرائب وغلاء الخبز . من ذلك أن الجماهير فى ليون أغاروا على مكاتب جابى الضرائب وأتلفوا سجلاته . وفى آجده ، قرب مونبلييه ، هدد الشعب بعمليات سلب ونهب شاملة ما لم تخفض أسعار السلع ، ومنعت القرى التى خشيت عجز الغلال عنوة تصديرها من الأقسام . وتحدث بعض الفلاحين عن احراق جميع القصور الريفية وقتل أمراء الإقطاع (مايو ١٧٨٩)[٥١] . وفى مونلرى قادت النساء حشداً من الغوغاء فى حملة على مخازن الغلال والمخابز حين نمى إليهن أن سعر الخبز قد زيد ، واستولين على كل ما وصلت إليه أيديهن من الخبز والدقيق . ومثل هذا حدث فى بريه — سير — سين» وبانول ، وأميان ، وفى كل مكان بفرنسا تقريباً . وفى المدينة تلو المدينة أثار الخطباء الشعب بأنبائهم بأن الملك أجل دفع الضرائب كلها[٥٢] . وسرى خلال إقليم بروفانس فى شهرى مارس وأبريل نبأ يقول ان « خير الملوك يريد المساواة فى الضرائب ، وألا يكون بعد اليوم أساقفة ، ولا إقطاعيون ، ولا عشور ، ولا مكوس ، ولا ألقاب ، ولا امتيازات»[٥٣] . وبعد أول أبريل ١٧٨٩ كف الناس عن دفع الرسوم الإقطاعية ، وهكذا لم يكن نزول النبلاء « التطوعى » عن

حقوقهم الإقطاعية فى ٤ أغسطس عملا من أعمال التضحية ، بل إقراراً بالأمر الواقع .

وازداد الانفعال والإثارة فى باريس كل يوم تقريباً باقتراب موعد انعقاد مجلس طبقات الأمة . فتدفقت النشرات من المطابع ورفع الخطباء عقائرهم فى المقاهى والأندية وصدرت أشهر وأقوى نشرة فى التاريخ بأسره فى يناير ١٧٨٩ ، بقلم رجل من أحرار الفكر هو الأبيه إمانويل — جوزف سييس ، الوكيل العام لأسقفية شارتر . وكان شامفور قد كتب متسائلا « ما الطبقة الثالثة ؟ — إنها كل شىء . وماذا تملك ؟ لا شىء » . فصاغ سييس هذا « الأجرام » المتفجر عنواناً جذاباً وحوله إلى ثلاثة أسئلة سرعان ما رددتها نصف فرنسا :

« ما الطبقة الثالثة ؟ كل شىء
ماذا كانت إلى اليوم فى النظام السياسى ؟ لا شىء .
ماذا تطلب ؟ أن تصبح شيئاً (٥٤) .

وذكر سييس أنه من بين سكان فرنسا البالغين ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، ينتمى إلى الطبقة الثالثة — العامانية المجردة من الإلقاب — على الأقل ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ وهذا معناه فى حقيقة الأمر أن الطبقة الثالثة هى الأمة . فإذا أبت الطبقتان الأخريان الجلوس معها فى مجلس الطبقات ، كان لها العذر فى أن تؤلف بنفسها « الجمعية الوطنية » . وقد حفظ التاريخ تلك العبارة فيما حفظ .

على أن الجوع كان أبلغ حتى من الكلام . فتقاطر الشحاذون والمجرمون على مراكز الإغاثة كلما أقامتها فى باريس الحكومة والكهنة والأغنياء ، وافدين من داخل البلاد ليأكلوا ويغامروا بفقرهم فى أفعال يائسة . وكانت الجماهير هنا وهناك تنفذ إرادتها بنفسها دون اعتداد بالقانون ، فهددت بشنق أى تاجر يخفى الغلال أو يغالى فى سعرها على أقرب عمود نور ، وكثيراً

ما اعترضت قوافل الغلال ونهبتها قبل أن تستطيع هذه القوافل الوصول إلى السوق ؛ وكانت أحياناً تطبق على الأسواق بالغوغاء وتستولى عنوة ودون دفع الثمن على الغلة التى أتى بها الفلاحون ليبيعوها[٥٥] . وفى ٢٣ أبريل استصدر نكير من المجلس الملكى مرسوماً يخول للقضاه والشرطة جرد مخازن الغلال الخاصة وإلزامها حيثما عز الخبز بإرسال غلالها للسوق ، ولكن هذا الأمر نفذ فى تراخ . كذلك كانت صورة باريس فى ربيع ذلك العام .

فى هذه الجماهير الغاضبة من الدهماء تبين الدوق أورليان أداة قد تحقق له مآربه . وكان الحفيد البعيد لفليب أورليان الذى كان وصياً على عرش فرنسا (١٧١٥ — ٢٣) . وقد ولد فى ١٧٤٧ ، ولقب بدوق شارتر فى الخامسة من عمره ، ثم تزوج فى الثانية والعشرين بلويز — مارى دبوربون بنتييفر ، التى جعلته ثروتها أغنى رجل فى فرنسا[٥٦] . وفى ١٧٨٥ ورث لقب دوق أورليان ، وبعد ١٧٨٩ ، وبفضل دفاعه عن القضايا الشعبية ، عرف بفليب إيجالتيه (المساواه) . وقد رأيناه يتحدى الملك فى البرلمان وينفى إلى فيلليه — كوربه . فلما عاد بعد قليل إلى باريس صمم على أن يجعل من نفسه معبود الشعب ، مؤملا أن يختار خلفاً لابن عمه لويس السادس عشر أن اعتزل أو خلع هذا الملك الذى أزعجته الخطوب . فسخا فى عطائه للشعب ، وأوصى بتأمين أملاك الكنيسة[٥٧] ، وفتح للجماهير حديقة البالية — رويال وبعض حجراته فى قلب باريس ، وكانت له شمائل الارستقراطى الجواد وأخلاق سلفه الوصى على العرش . وقامت مربية أبنائه مدام جنليس ، همزة وصل بينه وبين ميرابو ، وكوندورسيه ، ولافاييت ، وتاليران ، ولافوزييه ، وفولنى ، وسييس ، وديمولان . وقد بذل له زملاؤه من الماسون الأحرار التأييد الكبير[٥٨] . وقام الروائى شوديرلو دلاكلو ، وكان سكرتيره ، بدور العميل له فى تنظيم المظاهرات والانتفاضات الشعبية . وفى الحدائق والمقاهى وبيوت القمار ، والمواخير القريبة من قصره كان كتاب النشرات يتبادلون الأفكار ويضعون الخطط ، هنا شارك آلاف الناس من جميع الطبقات فى اضطرابات الساعة وانفعالاتها ، وأصبح البالية — رويال ، بوصفه اسماً على هذا المركب كله ، قلب الثورة النابض .

ويزعمون ، وهو زعم محتمل ولكنه ليس مؤكداً ، أن مال الدوق ، ونشاط شودرلو دلا كلو ، لعبا دوراً فى تنظيم الهجوم على مصنع ريفيون فى شارع سانت – أنطوان . أما ريفيون هذا فكان يتزعم ثورته الخاصة : يحل محل الرسوم والنسجيات الجدارية ورقاً رقيقا رسمه فنانون بتقنية طورها بنفسه ، وينتج ما وصفه حجة انجليزى بأنه « أجمل ما صنع على الإطلاق من ورق الحائط بغير جدال »(٥٩) . وقد استخدم مصنعه ثلاثمائة عامل ، كان الحد الأدنى لأجر العامل منهم خمسة وعشرين سوا (١,٥٦ دولاراً ؟) فى اليوم . وفى اجتماع لجمعية الناخبين فى حى سانت – مارجريت نشب نزاع بين ناخبي الطبقة الوسطى والعمال ، وخيف أو تخفض الأجور(٦١) . وسرى نبأ كاذب بأن ريفيون قال « ان العامل الذى له زوجة وأولاد فى استطاعته أن يعيش على خمسة عشر سوا فى اليوم » . وفى ٢٧ أبريل احتشد جمع أمام منزل صاحب المصنع ، فلما لم يجدوه أحرقوا دمية تمثاله . وفى اليوم الثامن والعشرين ، أغار الغوغاء بعد أن عززوا قوتهم وتسلحوا على بيته ، ونهبوه ، وأشعلوا النار فى أثاثه ، وشربوا الخمر من مخزن خموره ، واستولوا على النقود والآنية الفضية . ثم انتقل القائمون بالشغب إلى المصنع ونهبوه . وجرد الجنود لقتالهم ، فدافعوا عن أنفسهم فى معركة اتصلت عدة ساعات ، لقى فيها اثنا عشر جندياً ونيف ومائتا مشاغب مصرعهم . وأغلق ريفيون مصنعه وشد رحاله إلى انجلتره .

كذلك كان مزاج باريس حين وصل النواب المنتخبون ومناوبوهم لحضور مجلس طبقات الأمة فى فرساى .

٧ – مجلس طبقات الأمة : ١٧٨٩

فى ٤ مايو تحرك النواب فى موكب مهيب للاستماع إلى القداس فى كنيسة القديس لويس : يتقدمهم كهنة فرساى ، ويليهم ممثلو الطبقة الثالثة فى ثياب سوداء ، ثم نواب الأشراف فى ثيابهم الزاهية وقبعاتهم المزينة بالريش ، ثم النواب الكنسيون ، ثم الملك والملكة يحيط بهما أفراد الأسرة المالكة . وازدحم أهل المدينة فى الشوارع والشرفات وأسطح المنازل ، وصفقوا

لممثلى العامة ، وللملك والدوق أورليان ، واستقبلوا بالصمت النبلاء ، ورجال الاكليروس ، والملكة ، وكان كل إنسان (عدا الملكة) سعيداً ذلك اليوم ، لأن الأمل الذى تطلع إليه الكثيرون قد تحقق . وبكى الكثيرون ، من بين النبلاء ، لمرأى الأمة المنقسمة وقد بدت متحدة .

وفى ٥ مايو اجتمع النواب فى « قاعة الملاهى الصغيره الضخمة ، الواقعة على نحو أربعمائة ياردة من القصر الملكى . وبلغ عددهم ٦٢١ من العامة ، و ٣٠٨ من الاكليروس ، و ٢٨٥ من النبلاء (وفيهم عشرون من نبلاء الرداء) . أما النواب الكنسيون فكان نحو ثلثيهم من أصل شعبى ، وقد اختار كثيرون من هؤلاء الوقوف فى صف العامة . وكان نصف نواب الطبقة الثالثة تقريباً من المحامين ، وخمسة فى المائة من أرباب المهن ، وثلاثة عشر فى المائة من رجال الأعمال ، وثمانية فى المائة يمثلون الفلاحين[٦٣] . ومن رجال الاكليروس أسقف أوتان ، شارل — موريس دتاليران — بيريجور ، الذى وصفه ميرابو وصفاً سبق به عبارة نابليون « الوحل فى جوارب حريرية » فقال عنه « رجل خسيس ، جشع ، سافل ، دساس ، لايشتهى غير الوحل والمال ، يبيع روحه فى سبيل المال ، وهو إن فعل كان على حق ، لأنه عندها سيأخذ الذهب بدل كومة من الروث »[٦٤] ، ولم يكن فى هذا الوصف إنصاف لذكاء تاليران الطيع . وكان بين النبلاء عدة رجال دعوا إلى الإصلاحات الجوهرية : لا فاييت ، وكوندورسيه ، ولا للى — تولندال ، وفيكونت نواى ، وأدواق أورليان ، وايجيون ، ولا روشفوكو — ليانكور . وقد انضم معظمهم إلى سييس ، وميرابوا ، وغيرهم من نواب الطبقة الثالثة فى جمعية الثلاثين» التى قامت بدور الجماعة المنظمة للإجراءات اللبرالية » ومن أبرز نواب الطبقة الثالثة ميرابو ، وسييس ، ومونييه ، وبارناف ، والفلكى جان بابى ، ومكسمليان روبسبيير . وكان هذا الجمع فى مجموعه أبرز تجمع سياسى فى التاريخ الفرنسى ، وربما فى التاريخ الحديث بأسره . وتطلعت النفوس الكريمة فى طول أوربا وعرضها لهذا الحشد عساه أن يرفع لواء ينضوى تحته المظلومون فى كل أمة .

وافتتح الملك الجلسة الأولى بخطاب موجز اعترف فيه صراحة بما تعانيه حكومته من كرب مالى نسبه إلى « حرب غالية التكالفة ولكنها شريفة » وطلب « زيادة فى الضرائب» وأبدى الأسف على « الرغبة المغالية فى التجديد » . ثم تبعه نكير بخطاب استغرق ثلاث ساعات واعترف فيه بعجز بلغ ٥٦,١٥٠,٠٠٠ جنيه (وحقيقة الأمر أنه بلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وطلب الموافقة على قرض قدره ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وتململ النواب من الإحصاءات المرهقة للذهن ، وكان أكثرهم يتوقع من الوزير اللبرالى أن يبسط برنامجاً للإصلاح .

ثم بدأ صراع الطبقات فى الغد ، حين انفرد كل من طبقة النبلاء والاكليروس بقاعة منفصلة وشق جمهور الشعب الآن طريقه عنوة إلى قاعة الملاهى الصغيرة ، وسرعان ما أخذ يؤثر فى أصوات النواب بأعرابه القوى — المنظم عادة — عن الاستحسان أو الاعتراض . ورفضت الطبقة الثالثة أن تعترف بنفسها هيئة منفصلة ، وانتظرت فى تصميم أن تنضم إليها الطبقتان الأخريان ويتم التصويت عضواً عضواً . ورد النبلاء بأن التصويت بالطبقات — أى بصوت لكل طبقة — جزء من الدستور الملكى لا يمكن تغييره « ذلك أن إدماج الطبقات الثلاث فى طبقة واحدة والسماح بالتصويت الفردى ، فى جمعية تؤلف الطبقة الثالثة الآن نصف مجموعها وفى استطاعتها دون عناء أن تكسب التأييد من صغار الاكليرزس هذا كله معناه تسليم عقل فرنسا وخلقها لمجرد الكثرة العددية والإرادة البورجوازية . أما مندوبو الاكليروس المنقسمون بين محافظين وأحرار ، فلم يتخذوا موقفاً من الطرفين ، منتظرين أن تهديهم الأحداث إلى أفضل طريق . ومضى شهر على هذه الحال .

وكان سعر الخبز أثناء ذلك يواصل ارتفاعه برغم محاولات نكير لضبطه ، وخطر العنف الجماهيرى يتزايد . وتدفق فيض من النشرات ، فكتب آرثر ينج فى ٩ يونيو يقول : « ان الحركة التجارية المتزايدة الآن فى حوانيت باريس التى تبيع النشرات لاتصدق . ولقد ذهبت إلى الباليه رويال لأرى

ما جد نشره ولأحصل على قائمة بكل ما نشر ووجدت أن كل ساعة تلد جديداً . فقد صدر من النشرات اليوم ثلاث عشرة ، وأمس ست عشرة ، وفى الأسبوع الماضى اثنتان وتسعون . . وتسع عشرة من عشرين من هذه النشرات يناصر الحرية ، ويناوىء الاكليروس والنبلاء عادة . . . ولايصدر أى رد عليه »[٦٥] .

وفى ١٠ يونيو أوفد نواب الطبقة الثالثة لجنة إلى النبلاء والاكليروس تكرر دعوتهم إلى اجتماع موحد ، وتصرح بأنه إذا واصلت الطبقتان الاجتماع منفصلتين فإن الطبقة الثالثة ستأخذ فى التشريع للأمة بدونهم . ووقع التصدع فى صراع الإرادات الجماعية فى ١٤ يونيو ، حين انضم تسعة من كهنة الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأى
الابرشيات إلى نواب العامة . فى ذلك اليوم أنتخبت الطبقة الثالثة ، بأيى
رئيساً لها ، ووضعت لنفسها نظاماً للمناقشة والتشريع . وفى اليوم الخامس عشر اقترح سييس أن يطلق النواب المجتمعون فى قاعة الملاهى الصغيرة — الذين يمثلون ستة وتسعين فى المائة من الأمة — على أنفسهم اسم « جمعية نواب الأمة الفرنسية المعترف بهم والثابتة صحة عضويتهم . ورأى ميرابو أن العبارة فضفاضة ولا بد أن الملك سيرفضها . وبدلا من أن يتراجع سييس ، بسط الإسم المقترح فجعله «الجمعية الوطنية » ، وكذلك تمت الموافقة على الإسم الجديد بأغلبية ٤٩١ مقابل ٨٩ صوتاً [٦٦] . وقد غير هذا الإعلان الملكية المطلقة تلقائياً إلى ملكية مقيدة ، وأنهى السلطات التى امتازت بها الطبقات العليا ، وشكل — من الناحية السياسية — بداية الثورة .

ولكن هل يقبل الملك هذا الغض من سلطته ؟ ولكى تعطفه الجمعية الوطنية للقبول قررت أن جميع الضرائب القائمة ينبغى دفعها كالسابق إلى أن تحل الجمعية ، وبعدها لا تدفع ضرائب إلا ما أذنت به الجمعية ؛ وأن الجمعية ستنظر بأسرع ما تستطيع فى أسباب عجز الخبز وعلاجه ؛ وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها ، وقد استهدف أحد هذه القرارات تهدئة القائمين بالشغب ، وسعى آخر إلى

كسب تأييد حاملي السندات الحكومية ، وقد وضعت كلها بمهارة لتقلل من مقاومة الملك .

واستشار لويس مجلسه . فحذره نكير من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تزعن الطبقتان المميزتان ، وأن الضرائب لن تدفع ، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة . واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردى سيكون معناه دكتاتورية الطبقة الثالثة وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسى . وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والأكليروس . فأعلن أنه سيلقى خطاباً على مجلس الطبقات فى ٢٣ يونيو . وقدم نكير استقالته بعد أن هزم . ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه .

واقتضت « الجلسة الملكية » المقررة تجهيز قاعة الملاهى الصغيرة بترتيبات مادية جديدة فأرسلت الأوامر بإجراء هذه الترتيبات إلى مهرة صناع القصر دون إشعار الجمعية . فلما حاول نواب الطبقة الثالثة دخول القاعة فى ٢٠ يونيو وجدوا أبوابها مغلقة وداخلها مشغولا بالصناع . واعتقد النواب أن الملك يخطط لطردهم ، فانتقلوا إلى ملعب للتنس مجاور (وصالة ملعب التنس وأقسموا يميناً صنعت التاريخ .

« حيث أن الجمعية الوطنية دعيت لوضع دستور المملكة ، ولإحداث التجديد فى النظام العام ، ولصيانة المبادىء الصحيحة للنظام الملكى ، وحيث أنه ما من شىء يقوى على منعها من مواصلة مداولاتها فى أى مكان تضطر إلى الاجتماع فيه ؛ وأخيراً ، بما أنه حيثما اجتمع أعضاؤها فهناك تكون الجمعية الوطنية ، لذلك تقرر الجمعية أن يقسم جميع أعضائها يميناً مغلظة بألا يتفرقوا ، وأن يعاودوا الاجتماع كلما دعت الظروف ، حتى يستقر حال المملكة ، ويرسى على أسس مكينة ، وأنه بعد حلف اليمين المذكورة سيصدق جميع الأعضاء ، وكل منهم بمفرده ، على هذا القرار الثابت بالتوقيع عليه»[٦٧] .

وقد وقع جميع النواب الحاضرين وعددهم ٥٥٧ نائباً وعشرون مناوباً إلا اثنين ، ثم وقع فى تاريخ لاحق خمسة وخمسون أخر وخمسة قساوسة . فلما

أن ترامى نبأ هذه الأحداث إلى باريس احتشد جمع غاضب حول الباليةـ رويال وأقسموا على الدفاع عن الجمعية الوطنية أيا كان الثمن . وفى فرساى بات من الخطر على أى شريف أو أسقف أن يظهر فى الشوارع ، وقد لقى عدد منهم معاملة خشنة ، ولم ينج رئيس أساقفة باريس بجلده إلا حين وعد بأن ينضم إلى الجمعية . وفى ٢٢ يونيو اجتمع النواب الذين أقسموا اليمين فى كنيسة سان لوى ، وهناك انضم إليهم بعض النبلاء و ١٤٩ من النواب الكنسيين البالغ عددهم ٣٠٨ .

وفى ٢٣ يونيو اجتمع نواب الطبقات الثلاث فى قاعة الملاهى الصغيرة ليستمعوا إلى الملك . وطوق الجنود القاعة . وتخلف نكير عن الحضور مع الحاشية الملكية على نحو واضح . وتكلم لويس فأوجز ، ثم أناب وزيراً فى قراءة قراره . وقد رفض القرار دعوى النواب الذين أعلنوا أنفسهم جمعية وطنية باعتبارها غير قانونية وباطلة . وسمح باجتماع موحد للطبقات الثلاث ، وبالتصويت الفردى على المسائل التى لاتؤثر فى هيكل فرنسا الطبقى ، ولكن بحظر أى عمل يمس « الحقوق القديمة والدستورية . . . للملكية ، أو الامتيازات التشريفية . . . للطبقتين الأوليين » ، أما الأمور المتصلة بالدين أو الكنيسة فلا بد من أن يوافق عليها الاكليروس . وسمح الملك لمجلس الطبقات بحق الاعتراض على الضرائب والقروض الجديدة . ووعد بالمساواة فى فرض الضرائب إذا وافقت عليها الطبقتان المميزتان ، وعرض أن يتلقى توصيات بالإصلاح . وينشىء مجالس اقليمية يكون التصويت فيها فردياً . ووافق على إنهاء السخرة ، والأوامر الملكية المختومة ، والمكوس على التجارة الداخلية ، وكل آثار القنية فى فرنسا . ثم ختم الجلسة بمظهر وجيز للسلطة ؛ :

« لو أنكم تركتمونى وحدى فى هذه المغامرة الكبرى فسأعمل وحيداً لرفاهية شعبى . . . وسوف أعد نفسى دون سواى الممثل الحقيقى لهم . . . ولن تصبح خطة من خططكم أو اجراء من اجراءاتكم قانوناً ما لم أوافق عليه صراحة . . . وانى آمركم بالتفرق فوراً ، وبمضى كل نائب إلى قاعة طبقته صباح غد لتستأنفوا مناقشاتكم »(٦٨) .

فلما انصرف الملك رحل معظم النبلاء وقلة من الاكليروس . وأعلن المركيز بريزيه ، كبير التشريفات ، على النواب الذين بقوا أن الملك يريد الجميع أن يبرحوا القاعة . ورد ميرابو رداً مشهوراً : « سيدى .. . ليس لك هنا مكان ولا صوت ولا حق فى الكلام . . . فإذا كنت قد كلفت بإرغامنا على مبارحة هذه القاعة ، فلا بد لك من طلب الأوامر باستعمال القوة ، . . . لأننا لن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح»[٦٩] . وظاهرت هذا التصريح صيحة هتف بها الجميع « هذه إرادة الجمعية » فانسحب بريزيه ، وصدرت الأوامر للجند المحليين بإخلاء القاعة ، ولكن بعض النبلاء الأحرار أقنعوهم بالا يتخذوا أى اجراء . فلما أنبىء الملك بالموقف قال « تباً لهم لهم ، فليمكثوا إذن »[٧٠] .

وفى ٢٤ يونيو كتب ينج فى يوميته : « ان الغليان فى باريس لا يمكن تصوره ، فقد كان عشرة آلاف شخص طوال اليوم فى الباليه رويال . . . والاجتماعات المستمرة هناك تتصل وتبلغ من التهور . وسورة الحرية درجة لاتكاد تصدق »[٧١] . وعجزت السلطات البلدية عن حفظ النظام ، لأنها لم تستطع الاعتماد على « الحرس الفرنسيين» المحليين ؛ ذلك أن كثيرين من هؤلاء كان لهم أقرباء شرحوا لهم قضية الشعب ، وتآخى بعض هؤلاء الجند مع الحشد المحيط بالباليه — رويال ؛ وفى فوج فى باريس كانت هناك جمعية سرية أقسمت ألا تطيع أوامر مناوئة للجمعية الوطنية . وفى ٢٥ يونيو اجتمع الرجال الذين انتخبوا من قبل نواب الطبقة الثالثة عن باريس ، وعدد هؤلاء الرجال ٤٠٧ — وأحلوا أنفسهم محل الحكومة الملكية للعاصمة ، فأختاروا مجلساً بلدياً جديداً ، كله تقريباً من الطبقة الوسطى ، وترك لهم المجلس القديم مهمة حماية الحياة والأملاك . فى ذلك اليوم نفسه انتقل سبعة وأربعون نبيلا يتقدمهم دون أورليان إلى قاعة الملاهى الصغرى . وبدا أن انتصار الجمعية أصبح الآن أكيداً ، وأن القوة وحدها هى التى تستطيع زعزعته .

وفى ٢٦ يونيو ، وبرغم معارضة نكير ، أخبر الأعضاء المحافظون فى الوزارة الملك أن الجنود المحليين فى فرساى وباريس لا يمكن بعد الآن الركون

إلى طاعتهم الأوامر ، وأقنعوه بأن يرسل فى طلب ستة أفواج من الأقاليم . وفى السابع والعشرين ، وتحولا إلى نصيحة نكير ، أمر لويس وفود النبلاء والاكليروس بالانضمام إلى باقى النواب . ففعلوا ، ولكن النبلاء أبو المشاركة فى التصويت بحجة أن تفويضهم عن دوائرهم الانتخابية يمنعهم من التصويت الفردى فى مجلس الطبقات . وخلال الأيام الثلاثين التالية عاد أكثرهم إلى ضياعهم .

وفى أول يوليو استدعى الملك إلى باريس عشرة أفواج ، معظمهم من الألمان والسويسريين . وفى الأسابيع الأولى من يوليو احتل ستة آلاف جندى بقيادة المرشال برولى فرساى ، واتخذ عشرة آلاف أخر بقيسادة البارون بزينفال مواقعهم حول باريس ، لا سيما فى الشان دمارس . واعتقدت الجمعية والشعب أن الملك يخطط لتفريقهم أو تخويفهم ، وبلغ الخوف من القبض ببعض النواب مبلغاً جعلهم يبيتون فى قاعة الملاهى الصغرى بدلا من العودة إلى بيوتهم ليلا[٧٢] .

فى جو الإرهاب هذا عينت الجمعية لجنة لوضع مخططات الدستور جديد . وقدمت اللجنة للجمعية تقريراً تمهيدياً فى ٩ يوليو ، ومن ذلك اليوم أطلق النواب على أنفسهم اسم « الجمعية التأسيسية الوطنية » . وكان الميل السائد بين الأعضاء فى جانب الملكية الدستورية . وكان من رأى ميرابو المطالبة بـ « حكومة شبيهة بحكومة انجلتره بوجه عام » تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية ، ولكنه واصل فى السنتين اللتين أفسحتا له فى أجله الإلحاح على الاحتفاظ بملك لفرنسا . وأثنى على لويس السادس عشر لما أتصف به من طيبة قلب وسماحة مقصد يشوش عليهما أحياناً مشيروه قصار النظر ، ثم تساءل :

« هل درس هؤلاء الرجال ، فى تاريخ أى شعب من الشعوب ، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ ؟ وهل لاحظوا بأى سلسلة رهيبة من الظروف يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيراً حدود الاعتدال ، وبأى دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط لو فكروا فيها مجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا ؟ »[٧٣] .

وخامرت الجمعية الشك فى أن ميرابو مأجور من الملك أو الملكة ليدافع عن الملكية ، ولكنها أساساً اتبعت نصيحته . وأحس النواب ، الذين كان العنصر السائد فيهم الآن رجالا من الطبقة الوسطى ، أن جماهير الشعب أخذت تصبح عسيرة القياد إلى حد خطر ، وأن السبيل الوحيد للحيلولة دون التحلل الشامل للنظام الاجتماعى هو الإبقاء فترة على الهيكل التنفيذى الراهن للدولة .

على أنهم لم يشعروا بمثل هذا الانعطاف نحو الملكة . فقد علم أنها شاركت إيجابياً فى تأييد الحزب المحافظ فى مجلس الملك ، وأنها تمارس سلطة سياسية تفوق كفايتها كثيراً . وكانت خلال هذه الأشهر الحرجة قد تجلدت لتكل ربما نال من أى قدرة أوتيتها على الحكم الهادىء المتعقل . ذلك أن ابنها البكر ، ولى العهد لويس ، كان شديد المعاناة من الكساح واعوجاج العمود الفقرى إلى درجة أعجزته عن المشى بغير معونة(٧٤) . وفى ٤ يونيو مات . ولم تعد مارى أنطوانيت التى حطمها الحزن والخوف تلك المرأة الفاتنة التى كانت تمرح طوال سنى الحكم الأولى . وباتت وجنتاها شاحبتين نحيلتين ، وأخذ الشيب يتسلل إلى شعرها ، وشاب الحزن بسماتها وهى تذكر أياماً أسعد ، ثم أرق مضجعها وعيها بحشود الدهماء تلعن اسمها فى باريس وتحمى الجمعية فى فرساى وترهبها .

وفى ٨ يوليو وافقت الجمعية على اقتراح لميرابو يطلب إلى الملك أن ينقل من فرساى جنود الإقليميين الذين جعلوا من حدائق لنوتر معسكراً مسلحاً . ورد لويس بأنه ليس هناك أذى مقصود بالجمعية ، ولكن فى ١١ يوليو أفصح عن سطوته بإقالته نكير وأمره بمغادرة باريس فوراً . تقول مدام دستال مستحضرة ذلك الحدث « وتقاطرت باريس كلها لتزوره فى الساعات الأربع والعشرين التى سمح له بها للاستعداد لرحلته . . . وأحال الرأى العام عاره انتصاراً »(٧٥) . ثم رحل هو وأسرته فى هدوء إلى الأراضى المنخفضة . أما الذين أيدوه فى الوزارة فأقيلوا معه . وفى ١٢ يوليو ، وفى استسلام كامل لدعاة استخدام القوة ، عين لويس صديق الملكة ، البارون دبروتوى ، خلفاً لنكير ، وعين دبرولى وزيراً للحربية . وبدا أن الجمعية وثورتها الوليدة مقضى عليهما قضاء مبرما .

ولكن الإنقاذ جاءهما من شعب باريس .

٨ — إلى الباستيل

كانت عوامل كثيرة تحمل الجماهير على الانتقال من الغليان إلى مرحلة العمل . فقد كان سعر الخبز قضية مثيرة لحفيظة ربات البيوت ، وانتشرت الشبهة فى أن بعض تجار الجملة يحبسون الغلال عن السوق طمعاً فى أسعار أعلى حتى مما وصلت إليه[٧٦] . وأرسلت السلطات البلدية الجديدة الجند لحماية المخابز مخافة أن يفضى الجوع إلى النهب العشوائى . وكانت القضية التى تؤرق الباريسيين علمهم بأن الأفواج التى فى خارج المدينة ، والتى لم يتسن بعد كسب تأييدها لقضية الشعب ، تهدد الجمعية والثورة . وقد بلغ غضب الجماهير وخوفهم أثر سقوط نكير المفاجىء — وهو الرجل الوحيد فى الحكومة الذى كان الشعب قد وثق به — نقطة كفت عندها كلمة واحدة لتثير رداً عنيفاً . ففى ١٢ يوليو وثب كامى ديمولان ، وكان أحد خريجى مدارس اليسوعيين ولكنه أصبح الآن محامياً متطرفاً فى التاسعة والعشرين من عمره ، فوق مائدة خارج « الكافية دافوا » على مقربة من البالية — رويال وندد بأقالة نكير باعتبارها خذلاناً للشعب ، وصاح « إن الألمان (الجند) فى الشان دمارس سيدخلون باريس الليلة ليذبحوا سكانها ! » ثم لوح بطبنجة وسيف وهتف « إلى السلاح ! »[٧٧] . وللتو تبعه فريق من السامعين إلى ميدان فاندوم يحملون تماثيل نصفية لنكير والدوق أورليان ، وهناك أكرههم بعض الجند على الفرار ، ثم تجمع فى المساء حشد فى حدائق التويلرى ، فهاجمهم فوج من الجند الألمان ، فقاوموهم بالقوارير والحجارة ، فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين ، وبعد أن تفرقوا عادوا إلى التجمع فى الأوتيل دفيل ، وشقوا طريقهم إليه عنوة ، واستولوا على ما وجدوه من سلاح . وانضم الشحاذون والمجرمون إلى القائمين بالشغب ، ثم انقض الجميع على عدة بيوت ونهبوها .

وفى ١٣ يوليو تجمع الحشد مرة أخرى ، ودخلوا دير سان — لازار ، واستولوا على مخزونه من الغلال وحملوه إلى السوق فى لى هال ، وفتح

حشد آخر سجن لا فورس وأطلق سراح السجناء وكان أكثرهم من المدنيين وراح أفراد الشعب يفتشون عن البنادق فى كل مكان ، فلما لم يجدوا منها إلا القليل ، صنعوا خمسين ألف حربة [٧٨] . وخافت الطبقات الوسطى فى باريس على بيوتها وممتلكاتها ، فألفت مليشيا خاصة بها وسلحتها ، وفى الوقت نفسه واصل الأغنياء تشجيع الجماهير الثائرة وتمويلها وتسليحها لعل هذا أن يثنى الملك عن استعمال القوة مع الجمعية[٧٩] .

وفى صباح ١٤ يوليو الباكر أغار حشد من ثمانية آلاف رجل على الأوتيل ديزنفاليد ، واستولوا على ٣٢,٠٠٠ بندقية ، وبعض البارود ، واثنتى عشرة قطعة من المدفعية . وفجأة صاح أحدهم « إلى الباستيل » . ولكن لم الباستيل بالذات ؟ لا لإطلاق سراح سجنائه ، الذين لم يتعدوا السبعة ، فضلا عن أنه كان بوجه عام منذ ١٧١٥ يستعمل مكاناً لحبس راق لسراة القوم . غير أن هذه القلعة الضخمة التى بلغ ارتفاعها مائة قدم وسمك أسوارها ثلاثين قدماً والتى أحاط بها خندق عرضه خمسة وسبعون قدماً ظلت أمداً طويلا رمزاً للاستبداد . وكانت ترمز فى ضمير الشعب إلى مئات السجون والزنزانات الخفية ، وكان بعض الكراسات قد طالب بتدميرها . ولعل ما أثار الجمع علمهم بأن الباستيل قد صوب بعض المدافع إلى شارع وضاحية سانت — أنطوان ، وهى حى يغلى بالمشاعر الثورية . وربما كان أهم من هذا كله ما قيل من أن الباستيل احتوى مخزناً ضخماً من السلاح والذخيرة ، لا سيما البارود ، ولم يملك الثوار منه إلا القليل . وكان فى القلعة حامية قوامها اثنان وثمانون جندياً فرنسياً واثنان وثلاثون من الحرس السويسرى ، بقيادة المركيز داونى ، وكان رجلا لين الطبع[٨٠] . ولكن ذاع عنه بين الجماهير أنه وحش غليظ القلب[٨١] .

وبينما كان الجمع الذى تألف أكثره من الباعة والصناع يتجه صوب الباستيل استقبل دلونى وفداً من المجلس البلدى ، طلب إليه سحب المدافع المهددة من مواقعها ، وألا يتخذ أى اجراء عدائى نحو الشعب ، ووعد نظير ذلك باستخدام نفوذه لثنى الجمع عن مهاجمة الحصن . ووافق القائد ، واستضاف الوفد تناول طعام الغداء ، وتلقت لجنة أخرى أوفدها المحاصرون

أنفسهم تعهداً من دلونى بألا يطلق جنوده النار على الشعب ما لم تكن هناك محاولة لاقتحام الحصن عنوة . ولكن هذا لم يرض الجمع الهائج ، فقد كان مصمماً على الاستيلاء على الذخيرة التى لاتستطيع بنادقه بدونها أن تقاوم الزحف المنتظر من جنود بيزنفال الأجانب على المدينة . على أن بيزنفال لم يكن حريصاً على الزحف إلى داخل باريس إذ خامره الظن بأن جنوده سيرفضون إطلاق النار على الشعب . لذلك انتظر الأوامر من دبرولى ، ولكن شيئاً منها لم يصله .

وحوالى الواحدة بعد الظهر تسلق ثمانية عشر من الثوار سور بناء مجاور ، ووثبوا إلى داخل الفناء الأمامى للباستيل ، وأنزلوا كوبريين متحركين ، فعبر المئات فوق الخندق ، وأنزل كوبريان آخران ، وسرعان ما امتلأ الفناء بجمع متحفز واثق من نفسه . فأمرهم دلونى بالانسحاب ، فأبوا ، وعليه فقد أصدر أمره لجنوده بإطلاق النار عليهم . ورد المهاجمون على النار وأشعلوا النيران فى بعض الأبنية الخشبية والملاصقة للأسوار الحجرية . وحوالى الثالثة انضم أفراد من الحرس الفرنسيين المتطرفين إلى المحاصرين ، وأخذوا يقصفون الحصن بخمسة من المدافع التى استولت عليها الجماهير ذلك الصباح من الأوتيل ديزنفاليد . وبعد أربع ساعات من القتال لقى ثمانية وتسعون من المهاجمين وواحد من المدافعين مصرعهم . أما دلونى فحين رأى الجمع لايفتأ يزداد عدداً بوصول امداد جديدة ، وإذ لم تصله كلمة تعده بالعون من بزينفال ، ولم يكن لديه مؤونة من الطعام تثبت للحصار ، فقد أمر جنده بالكف عن إطلاق النار ورفع علم أبيض . ثم عرض الاستسلام إذا سمح لجنوده بالخروج بسلاحهم آمنين ، فرفض الجمع الذى هاجه منظر قتلاه النظر فى أى شىء غير التسليم دون قيد أو شرط(٨٢) . وأراد دارنى نسف الحصن فمنعه رجاله . وعليه أرسل إلى المهاجمين أسفل الحصن مفتاح المدخل الرئيسى . واندفع الجمع ، وجردوا الجنود من سلاحهم ، وقتلوا ستة منهم ، وقبضوا على دلونى ، وأطلقوا سراح السجناء المذهولين .

وبينما كان كثير من المنتصرين يستولون على ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وذخيرة ، قاد فريق من الجمع دلونى إلى الأوتيل دفيل توطئة لمحاكمته

فيما يبدو على جريمة القتل . وفى الطريق أوقفه المتحمسون منهم وأوقعوه أرضا ، وأوسعوه ضرباً حتى مات ، ثم قطعوا رأسه ، واخترقوا شوارع باريس فى عرض ظافر وهم يحملون هذه الغنيمة الدامية مرفوعة عالياً فوق حربة .

فى عصر ذلك اليوم عاد لويس السادس عشر إلى فرساى من رحلة صيد قضى فيها نهاره ، ودون فى يوميته هذه الملاحظة « ١٤ يوليو : لا شيء » فلما وصل الدوق دلا روشكوكو — لا نكور قادماً من باريس أنبأه بنبأ الهجوم الناجح على الباستيل . وقال الملك مندهشاً « ماذا ، هذا تمرد ! » وأجاب الدوق « لا يا مولاى ، إنها ثورة » .

وفى ١٥ يوليو ذهب الملك إلى الجمعية فى تواضع وأكد لها أن الجنود الإقليميين والأجانب سيبعدون عن فرساى وباريس ، وفى ١٦ يوليو أقال بروتوى واستدعى نكير لوزارة ثالثة . وبدأ بروتوى وأرتوا ودبرولى وغيرهم من النبلاء حركة نزوح المهاجرين عن فرنسا ، ودمرت الجماهير أثناء ذلك الباستيل بعد أن تسلحت بالمعاول والبارود . وفى ١٧ يوليو ذهب لويس إلى باريس يرافقه خمسون من الجمعية ، واستقبله المجلس البلدى والشعب فى الأوتيل دفيل ، وثبت على قبعته شارة الثورة الحمراء البيضاء الزرقاء .

ختـــام

وهكذا نختتم فى هذين المجلدين الأخيرين مسحنا للقرن الذى مازالت صراعاته وإنجازاته فعالة اليوم فى حياة البشر . لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التى قد تحقق — قبل أن نصل إلى الألف الثانى للميلاد — حلم أرسطو بالآلات التى تحرر البشر من كل عناء يدوى . ولقد سجلنا المراحل التى خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها . ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل فى شئون البشر الدنيوية . ولقد تتبعنا باهتمام حى محاولة تحرير الدين من الشعوذة والتعصب الأعمى وعدم التسامح ، وتنظيم الأخلاقية

دون استعانة بالثواب والعقاب السماويين ؛ ولقد عاصتنا جهود الساسة والفلاسفة أن نقيم حكومة عادلة قادرة ، وأن نوفق بين الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية . ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال فى الباروك ، والفن الكلاسيكى المحدث . وانتصارات الموسيقى فى باخ ، وهندل ، وفيفالدى وفى جلوك ، وهايدن ، وموتسارت . ولقد شهدنا ازدهار الأدب فى ألمانيا على يد شيلر وجوته ، وفى انجلترة على يد فحول الروائيين وأعظم المؤرخين ، وفى أسكتلنده على يد بوزويل وبيرنز ، وفى السويد بتفجر الأغنية فى عهد جوستاف الثالث ؛ وفى فرنسا ترددنا بين فولتير منافحاً عن العقل والذكاء وبين روسو مدافعاً بالدموع عن حقوق الوجدان . ولقد سمعنا التصفيق الذى عاش عليه جاريك وكليرون ، وأعجبنا بسلسلة من النساء الفاتنات فى صالونات فرنسا وانجلترة ، وبملك النساء المتألق فى النمسا وروسيا . ثم راقبنا الملوك الفلاسفة .

وقد يبدو من السخف أن ننهى قصتنا فى اللحظة التى أوشك الكثير جداً من الأحداث على بث الحياة ونفخ الروح فى هذه الصفحات . وما كان أسعدنا لو أتيح لنا الزحف خلال ضجيج الثورة وعجيجها ، ثم فحصنا ذلك التفجر البركانى للطاقة المعروف بنابليون ، واستمتعنا أيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر فى الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والموسيقى ، والفن ، والتكنولوجيا ، والحكم . وكان يبهجنا أكثر لو عدنا إلى وطننا أمريكا ، جنوبها وشمالها ، وحاولنا أن ننسج قطعة النسيج المعقدة ، نسيج الحياة والتاريخ الأمريكيين فى صورة واحدة متماسكة متحركة . بيد أنه لابد لنا أن نروض أنفسنا على تقبل فكرة الفناء ، وأن نترك لعقول أنضر القيام بمهمة ومغامرة ، هما إضافة تجارب فى التأليف والتركيب إلى البحوث الأساسية التى قام بها الإخصائيون التاريخيون والعلميون .

لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ، ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل ، فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة فى التاريخ ، وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين

يطمو نهر المعرفة ويتعاظم . غير أننا ونحن نتابع درستنا من قرن إلى قرن ، ازددنا يقيناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً ، وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلا ، كما كان يعاش ، في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ . وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد . والآن وقد أقبل هذا اليوم فإننا عليمان بأننا سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً .

وإننا لشاكران للقارئ الذي صاحبنا هذه السنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها . لقد كنا على الدوام واعين بحضوره . والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع .

* * *

المراجــــع

CHAPTER XXVII

1. Shakespeare, *Richard II*, Act II, Sc. i.
2. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 130.
3. Namier, Sir Lewis, *Crossroads of Power*, 175.
4. Ashton, T. S., *Economic History of England*, 179.
5. Watson, J. S., *Reign of George III*, 28.
6. Nussbaum, 73.
7. Hammond, J. L. and Barbara, *The Village Labourer*, 17.
8. Usher, A. P., *An Introd. to the Industrial History of England*, 323.
9. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 79.
10. Mantoux, Paul, *The Industrial Revolution in the 18th Century*, 258.
11. Samuel Smiles, *Lives of the Engineers*, in *History Today*, April, 1956, 263.
12. *Ibid.*, 263, 265.
13. *The Age of Voltaire*, 517.
14. Mantoux, 326.
15. Usher, *Introd. to Industrial History*, 326.
16. Boswell, *Life of Johnson*, 598.
17. Lipson, E., *Growth of English Society*, 190.
18. Mantoux, 385; George, *London Life*, 206-7.
19. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 73.
20. Mantoux, 439; Smith, 60.
21. Ashton, 203.
22. Mantoux, 70.
23. Arthur Young in Turberville, *Johnson's England*, I, 218.
24. Müller-Lyer, F., *History of Social Development*, 221.
25. Mantoux, 420.
26. *Ibid.*, 421.
27. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 313.
28. Webb, Sidney and Beatrice, *History of Trade Unionism*, 51.
29. Ashton, 235.
30. Traill, H. D., *Social England*, V, 336.
31. Mantoux, 411.
32. *Ibid.*, 413.
33. 413.
34. Lecky, *History of England*, III, 135-36.
35. Smith, *Wealth of Nations*, I, 59.
36. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 89.

CHAPTER XXVIII

1. George, M. D., *England in Transition*, 218 f.
2. *Ibid.*, 219.
3. 218.
4. Namier, *Structure of Politics at the Accession of George III*, 80.
5. New *CMH*, VII, 245.
6. Lecky, *History of England*, III, 171.
7. Wilson, P. W., *William Pitt the Younger*, 6.
8. Plumb, J. H., *Men and Places*, 22.
9. Namier, *Structure of Politics*, 77-79.
10. *Ibid.*, 150.
11. Lecky, III, 171.
12. Blackstone, Sir W., *Commentaries on the Laws of England*, 17 (p. 50 of orig. ed.).
13. Namier, *Crossroads of Power*, 133.
14. Thackeray, *The Four Georges*, 62.
15. *Cf.* Butterfield, *George III and the Historians*, 175; Morley, John, *Burke: a Historical Study*, 9.
16. Lecky, III, 11; Namier in *History Today*, September, 1953, p. 615.
17. Watson, J. S., *The Reign of George III*, 6.
18. *Age of Voltaire*, Ch. iii, Sec. IX; present volume, Ch. ii, Secs. II, IV.
19. Walpole, Horace, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 331.
20. Burke, Edmund, speech on American Taxation, in *Speeches and Letters on American Affairs*, 28.
21. Burke, *Vindication of Natural Society*, 9.
22. *Ibid.*
23. 12-20.
24. 20.

25. 22.
26. 44.
27. 21.
28. 48.
29. 50.
30. Morley, John, *Burke*, 13.
31. *Vindication*, 4 (preface).
32. Burke, *On Taste, and On the Sublime and Beautiful*, 45 f.
33. *Ibid.*
34. 93.
35. 95.
36. Macaulay, *Essays*, I, 454.
37. Morley, *Burke*, 30.
38. *Ibid.*, 104.
39. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 141.
40. Stephen, Sir Leslie, *History of English Thought in the 18th Century*, I, 222.
41. *Parliamentary History*, XXXVII, 363, in Buckle, H. T., *An Introd. to the History of Civilization in England*, I, 327.
42. Piozzi, Hester Thrale, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 138.
43. Morley, *Burke*, 107.
44. In *Cambridge History of English Literature*, XI, 9.
45. *Enc. Brit.*, XI, 644d.
46. Moore, Thomas, *Memoirs of the Life of Sheridan*, I, 78.
47. Drinkwater, John, *Charles James Fox*, 9, 11.
48. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 277.
49. Thackeray, *Four Georges*, 87.
50. *Enc. Brit.*, IX, 568b.
51. Drinkwater, 195.
52. Walpole, Horace, *Letters*, Feb. 4, 1778.
53. Lecky, III, 468.
54. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 54.
55. National Gallery, London; Dulwich College; National Gallery, Washington.
56. Moore, *Sheridan*, I, 17.
57. *The Rivals*, Act I, Sc. ii.
58. *Ibid.*, III, iii.
59. In Taine, H., *English Literature*, 355.
60. *Enc. Brit.*, XVII, 973b.
61. Wilson, P. W., *William Pitt*, 58.
62. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 75.
63. Walpole, letter of Oct. 31, 1760.
64. Laski, Harold, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 144.
65. Butterfield, *George III*, 173.
66. Lecky, III, 61.
67. Macaulay, *Essays*, I, 431.
68. Wilson, *William Pitt*, 44.
69. Gibbon, Edward, *Journal*, 145.
70. *Enc. Brit.*, XXIII, 602b.
71. *Ibid.*
72. Sherwin, *A Gentleman of Wit and Fashion: The Life and Times of George Selwyn*, 47-53.
73. Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 140.
74. Walpole, *Memoirs of Reign of George III*, I, 248.
75. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
76. Walpole, *Reign of George III*, I, 263.
77. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica and France*, 5.
78. Walpole, *Reign of George III*, III, 239.
79. Lecky, III, 151.
80. S. MacCoby, ed., *The English Radical Tradition*, 2.
81. Lecky, III, 175-76.
82. *Ibid.*, 152.
83. MacCoby, 2.
84. Lecky, III, 153.
85. Junius, *Letters*, 3-6.
86. Junius, letter of Nov. 29, 1769.
87. *Letters*, pp. 134, 148.
88. *Ibid.*, p. 29.
89. Lecky, II, 468.
90. Walpole, *Reign of George III*, IV, 78; Lecky, III, 143.
91. MacCoby, 31.
92. *Enc. Brit.*, XXIII, 603d.
93. *CMH*, VIII, 714.
94. Lecky, III, 268.
95. *Ibid.*, 300.
96. Watson, *Reign of George III*, 174.
97. Ashton, 158; Traill, V, 115.
98. Hammond, J. L. and Barbara, *Rise of Modern Industry*, 32.
99. Lecky, III, 299.
100. Drinkwater, 94.
101. *CMH*, VIII, 521.
102. Lecky, III, 331.
103. Beard, Charles and Mary, *Rise of American Civilization*, I, 212.
104. Peterson, Houston, *Treasury of the World's Great Speeches*, 102-22.
105. Lecky, III, 530.
106. *Ibid.*, 531.
107. 545.
108. Peterson, 143-46.
109. *CHE*, IX, 6.
110. Sherwin, 205.
111. Burke, *Speeches and Letters on American Affairs*, 84.
112. *Ibid.*, 118-19.
113. Drinkwater, 145.
114. Walpole, letter of Sept. 11, 1775.
115. Lecky, IV, 82.
116. Churchill, Sir Winston, *History of the English-Speaking Peoples*, II, 116.
117. Lecky, IV, 221.
118. Namier, *Crossroads*, 130.
119. *Enc. Brit.*, V, 833d.
120. Namier, *Crossroads*, 164.
121. Walpole, letter of Mar. 5, 1772.
122. Lecky, III, 491.
123. *CMH*, VI, 570.
124. *Ibid.*, 572.

125. 578-80.
126. Walpole, letter of Mar. 2, 1773.
127. Wilson, *William Pitt*, 171.
128. Morley, *Burke*, 33; Namier, *Crossroads*, 165-67.
129. Watson, *Reign of George III*, 319.
130. Morley, *Burke*, 125.
131. G. G. S., *Life of R. B. Sheridan*, 113.
132. Macaulay, *Essays*, I, 633.
133. Peterson, *Great Speeches*, 179.
134. Gibbon, *Memoirs*, 334.
135. Macaulay, I, 644.
136. Burke, *Observations on the State of the Nation* (1769), in Lecky, V, 335n.
137. Burke, speech on "Relief of Protestant Dissenters" (1773), in Morley, *Burke*, 69.
138. Wilson, *William Pitt*, 226.
139. Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 279.
140. Lecky, V, 449; Wilson, 235.
141. Burke, *Reflections on the French Revolution*, 8.
142. *Enc. Brit.*, IV, 418c.
143. Burke, *Reflections*, 35.
144. *Ibid.*, 18 f.
145. 36.
146. 73.
147. *Enc. Brit.*, IV, 418d.
148. *CHE*, X, 285.
149. Morley, *Burke*, 179.
150. *Ibid.*, 15.
151. Burke, *Reflections*, 93.
152. *Ibid.*, 6.
153. *CHE*, XI, 11.
154. *Letter to a Member of the National Assembly*, in *Reflections*, 279.
155. Burke, 87.
156. Lecky, III, 218-19; Stephen, *English Thought in the 18th Century*, I, 251-52; Laski, 159, 171.
157. Laski, 147.
158. Sherwin, *Selwyn*, 275.
159. Taine, *English Literature*, 416.
160. Wilson, 325.
161. G. G. S., *Life of Sheridan*, 155.

CHAPTER XXIX

1. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, Mar. 12, 1827.
2. Lecky, *England in the 18th Century*, VI, 139.
3. Quennell, *Everyday Things*, 93.
4. George, *London Life*, 103.
5. Quennell, 90.
6. George, 26.
7. Boswell, *Hebrides*, 31.
8. Lecky, VI, 153.
9. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 128.
10. Boswell, *Life of Johnson*, 1, 781.
11. Sherwin, *George Selwyn*, 34.
12. *Ibid.*, 125.
13. Drinkwater, *Charles James Fox*, 13.
14. Lecky, VI, 152.
15. Boswell, *Johnson*, 978.
16. *Age of Voltaire*, Ch. ii, Sec. vi.
17. *Wealth of Nations*, II, 276.
18. Stephen, *English Thought*, I, 421.
19. Besant, *London*, 282-83.
20. Sherwin, 288.
21. *Vicar of Wakefield*, Ch. xxiv.
22. Boswell, *Johnson*, 338.
23. Lecky, VI, 268; Drinkwater, 131.
24. Lecky, VI, 269.
25. Boswell, *Johnson*, 846.
26. Walpole, Mar. 22, 1780.
27. *CMH*, VI, 187.
28. Buckle, *An Introd. to the History . . of England*, I, 321n.
29. George, *London Life*, 135.
30. Botsford, J. B., *English Society in the 18th Century*, 332 f.
31. Blackstone, *Commentaries*, 128-29.
32. *Enc. Brit.*, XX, 780a.
33. *Ibid.*, 780d.
34. Faÿ, Bernard, *Franklin*, 77.
35. Mowat, *Age of Reason*, 61.
36. Quennell, 9.
37. Watson, P. B., *Some Women of France*, 77.
38. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, IV, 158.
39. Boswell, *Johnson*, 597.
40. Burke, *Reflections*, 86.
41. *Boswell on the Grand Tour: Italy* . . . , 184.
42. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 206.
43. *Boswell in Holland*, 62.
44. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, V, 554.
45. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 273.
46. *Age of Voltaire*, pp. 528, 580.
47. Cowper, *The Task*, ii, lines 378-94.
48. Stephen, *English Thought*, II, 375.
49. Walpole, June 3, 1780.
50. Walpole, June 7, 1780.
51. June 16, 1780.
52. Lecky, V, 189.
53. Sir F. D. McKinnon, in Turberville, *Johnson's England*, II, 289.
54. Bentham, Jeremy, *A Fragment on Government*, 22.
55. Blackstone, *Commentaries*, Vol. I, p. 3.
56. *Commentaries* (orig. ed.), Book I, Ch. vii.
57. *Commentaries* (1914 ed.), Vol. II, p. 129.
58. Lecky, VI, 261.
59. *Ibid.*, 255-58; Turberville, I, 17-21; Johnson, *The Idler*, Jan. 6, 1759.
60. Besant, *London*, 608.
61. Bentham, *Fragment*, 10.
62. *Ibid.*

63. Ch. iv, No. 20.
64. Bentham, *Fragment*, 3.
65. *Ibid.*, 56.
66. *Age of Voltaire*, 139, 149, 529, 687.
67. Mack, M. P., *Jeremy Bentham*, 102-5.
68. Bentham, *Introduction to Principles of Morals and Legislation*, 189.
69. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 127.
70. Davidson, W. L., *Political Thought in England: The Utilitarians*, 26.
71. Turberville, II, 178.
72. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, V, 388.
73. Krutch, *Samuel Johnson*, 272.
74. Barton, Margaret, *Garrick*, 53.
75. *Ibid.*, 59.
76. 50.
77. Burney, Fanny, *Diary*, 12.
78. Hawkins, Sir John, *Life of Samuel Johnson*, 189.
79. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 282.
80. Johnson, Samuel, *Works*, I, 196.
81. Krutch, 37.
82. George, *London Life*, 288.
83. *Boswell: The Ominous Years*, 118.
84. Turberville, I, 195.
85. George, *London*, 171.
86. *Ibid.*, 24.
87. Turberville, I, 171.
88. *Boswell's London Journal*, 81.
89. Boswell, *Johnson*, 733.

CHAPTER XXX

1. Geiringer, *Haydn*, 95.
2. *Ibid.*, 103.
3. Burney, Charles, *History of Music*, II, 868.
4. Walpole, June 23, 1789.
5. National Portrait Gallery, London.
6. Burney, II, 9.
7. Sherwin, *Selwyn*, 110.
8. Lewis, W. S., *Horace Walpole*, 107.
9. Turberville, II, 110.
10. Dillon, *Glass*, 299.
11. Samuel Smiles in Mantoux, *Industrial Revolution*, 385.
12. London, Royal Academy of Arts.
13. Turberville, II, 10.
14. *Ibid.*, 91.
15. Wilson, *William Pitt*, 97.
16. Collection of Lady Ford.
17. Greenwich, Eng., National Maritime Museum.
18. London, National Gallery. (Unallocated pictures are in private collections.)
19. National Portrait Gallery.
20. *Ibid.*
21. Reynolds, Sir Joshua, *Portraits*, 110.
22. National Portrait Gallery.
23. *Ibid.*
24. San Marino, Calif., Huntington Art Gallery.
25. Waterhouse, *Reynolds*, 110.
26. *Ibid.*, 127.
27. 79.
28. 87.
29. 63.
30. 267.
31. 291; London, National Gallery.
32. Waterhouse, 57.
33. Wallace Collection, London.
34. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 3.
35. Wilenski, R. H., *English Painting*, 150.
36. Reynolds, *Portraits*, 167.
37. Boswell, *Johnson*, 651.
38. National Portrait Gallery.
39. Royal Academy of Arts.
40. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 78 (Discourse VI), 8 (I).
41. *Ibid.*, 7 (I).
42. 14 (II).
43. *Ibid.*
44. 30 (III).
45. *Ibid.*
46. 264 (XV).
47. Wilenski, 113.
48. Allan Cunningham in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 789.
49. Gillet, Louis, *La Peinture, xvii^e et xviii^e siècles*, 416.
50. Washington, National Gallery.
51. Edinburgh, National Gallery.
52. Millar, Oliver, *Thomas Gainsborough*, 11.
53. Clark, B. H., *Biographies*, 796.
54. Craven, Thomas, *Treasury of Art Masterpieces*, 214.
55. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 230 (XIV).
56. Waterhouse, *Gainsborough*, 36.
57. Pijoan, Joseph, *History of Art*, III, 479.
58. Reynolds, *Fifteen Discourses*, 227 (XIV).

CHAPTER XXXI

1. Lecky, *England in the 18th Century*, IV, 314.
2. *New CMH*, VIII, 28.
3. *Ibid.*, 714.
4. Lecky, IV, 317.
5. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 545; *Enc. Brit.*, X, 659d.
6. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 399.
7. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 70.
8. Johnson, *Works*, II, 271, 345.
9. Boswell, *Hebrides*, 135.
10. *Enc. Brit.*, XX, 169d.
11. Snyder, F. B., *Life of Robert Burns*, 189.
12. *Age of Voltaire*, 184.
13. *Ibid.*, 507-86.
14. 586-602.
15. 139-61.
16. Reid, Thomas, *Works*, I, 7, 81, 91.

17. *Ibid.*, 12.
18. 106.
19. Hume, David, *Treatise of Human Nature*, I, 254.
20. Reid, *Works*, 423.
21. Boswell's Journal, Sept. 16, 1769 (*Boswell in Search of a Wife*, 293).
22. London National Portrait Gallery.
23. Edinburgh National Gallery.
24. Private Collection.
25. Carlyle, *Schiller*, 103.
26. Walpole, July 11, 1759.
27. Gibbon, *Memoirs*, 122.
28. Stewart, Dugald, *Life of Robertson* (1811), 305.
29. Gibbon, *Memoirs*, Appendix 22, p. 296.
30. Black, *Art of History*, 15.
31. Brandes, *Goethe*, I, 84.
32. See *The Age of Faith*, 498.
33. Thomson, Derick, *The Gaelic Sources of Macpherson's "Ossian,"* 4-5, 80.
34. Macpherson, James, *Poems*, 40 (*Fingal*, Book I).
35. *Ibid.*, 49, 52, 54.
36. 415-16.
37. Johnson, *Works*, XII, 375; Boswell, *Hebrides*, 163.
38. Boswell, *Johnson*, 496.
39. Thomson, Derick, 16 f.
40. Buckle, Ib, 347.
41. Smith, Adam, *Moral and Political Philosophy*, 75.
42. *Ibid.*, 255.
43. 191.
44. Laski, *Political Thought in England*, 99, 101, 188; see also *Age of Voltaire*, 155.
45. Smith, *Wealth of Nations*, II, 107.
46. *Ibid.*, 113.
47. 121.
48. See *Age of Voltaire*, 138.
49. *Wealth of Nations*, II, 180.
50. *Ibid.*, I, 26, 29.
51. I, 119.
52. 129.
53. 129.
54. 42.
55. 75, 2.
56. 73.
57. 72, 345.
58. Rosebery, Lord, *Pitt*, 4.
59. Waterhouse, *Reynolds*, 329.
60. Burns's autobiographical letter to John Moore, in Neilson, W. A., *Robert Burns*, 1.
61. In Snyder, *Burns*, 54.
62. *Ibid.*, 67.
63. 67.
64. 239.
65. See "The Ordination."
66. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
67. Hill, J. C., *Love Songs and Heroines of Robert Burns*, vii-2.
68. Burns, Robert, *Works*, I, 85, 75.
69. *Ibid.*, 101.
70. Witte, *Schiller and Burns*, 10.
71. "The Rigs o' Barley."
72. Burns, *Works*, I, 85, 77.
73. *Ibid.*, 50.
74. Brown, Hilton, *There Was a Lad*, 23, 50.
75. Carlyle, *Essay on Burns*, in *Works*, XIII, 294-96.
76. Burns, *Works*, I, 162.
77. Keith, Christina, *The Russet Coat*, 81.
78. Burns, *Works*, I, 141.
79. Brown, Hilton, 26.
80. Snyder, 297.
81. *Ibid.*, 308.
82. Hill, J. C., 102.
83. Snyder, 360, 374, 379, 390.
84. Burns, Robert, and Mrs. Dunlop, *Correspondence*, 11, viii.
85. Burns, *Works*, I, 24.
86. Currie, James, *Life of Robert Burns*, in Burns, *Works*, II, 58.
87. Robert Chambers in Snyder, 432.
88. Snyder, 432-35.
89. *Ibid.*, 430.
90. *Boswell's London Journal*, 108.
91. Pearson, 107.
92. *Boswell's London Journal*, 66.
93. *Ibid.*, 93.
94. 66.
95. 93.
96. 137.
97. 206-9.
98. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 44.
99. Boswell, *Johnson*, 237-40.
100. *Boswell's London Journal*, 251, 281.
101. *Boswell in Holland*, Sept. 18, 1763.
102. *Ibid.*, 387-90.
103. 46.
104. 157.
105. 259-61.
106. 314.
107. 328.
108. 330.
109. 349.
110. 368.
111. *Boswell on the Grand Tour: Germany*, 134.
112. *Ibid.*, 117.
113. 164-66.
114. 241.
115. *Boswell in Search of a Wife*, 24.
116. *Ibid.*, 36-37.
117. 76.
118. 207.
110. 240.
120. *Boswell for the Defense*, 140.
121. *Boswell: The Ominous Years*, 34-48.
122. *Ibid.*, 304-7.
123. Macaulay, *Essays*, II, 539-41.
124. *Boswell: The Ominous Yea[illegible]*[illegible]38

125. *Boswell in Search of a Wife*, 40.
126. *Boswell: The Ominous Years*, Introd., *x*.

CHAPTER XXXII

1. Johnson, *The Idler*, No. 40.
2. Brooke, Henry, *The Fool of Quality*, 80.
3. Cross, Wilbur, *Life and Times of Laurence Sterne*, 99.
4. *Ibid.*, 179.
5. *Ibid.*
6. 183.
7. Parton, *Life of Voltaire*, II, 267.
8. Mossner, E. C., *Life of David Hume*, 503.
9. Sterne, Laurence, *Tristram Shandy*, Book VIII, Ch. ii.
10. *Ibid.*, Book IV, Ch. xxxviii.
11. Cross, 263.
12. Sterne, *Letters to Eliza*, x.
13. *Ibid.*, letter of Apr. 14, 1767.
14. Sterne, *Journal*, Apr. 24, 1767.
15. Moore, Thomas, *Life of Lord Byron*, in Taine, *English Literature*, 477.
16. Macaulay, *Essays*, II, 565.
17. Burney, Fanny, *Diary*, 17.
18. Burney, Fanny, *Evelina*, 22.
19. Letter of Mar. 5, 1772.
20. Walpole, Feb. 28, 1769.
21. See *Age of Voltaire*, 95-98.
22. Lewis, *Horace Walpole*, 12n: Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, II, 28.
23. Walpole, "Reminiscences," in *Letters*, I, *xciii*.
24. Letter of Mar. 2, 1773.
25. Nicolson, Harold, *The Age of Reason*, 249.
26. Walpole, *Memoirs of the Reign of George III*, II, 154.
27. Letter of Nov. 24, 1774.
28. Nicolson, 248.
29. *Ibid.*, 249.
30. Letter of July 24, 1756.
31. Letter of Dec. 2, 1762.
32. Sherwin, *Selwyn*, 104.
33. Letter of Nov. 11, 1766.
34. Walpole, *Memoirs of the Last Ten Years of the Reign of George the Second*, p. *xl*.
35. Letter of June 15, 1768.
36. Oct. 1, 1782.
37. Nov. 11, 1763.
38. Lewis, *Horace Walpole*, 5.
39. Feb. 7, 1772.
40. Jan. 12, 1766.
41. Letter to John Chute, January, 1766.
42. Lewis, 20.
43. Wharton, II, 83.
44. Lewis, 81.
45. Jan. 18, 1759.
46. Gibbon, *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xxi*; Robertson, J. M., *Gibbon*, 1.
47. *Memoirs*, 20.
48. *Age of Voltaire*, 127.
49. *Memoirs*, 45.
50. *Ibid.*, 51, 54.
51. 65.
52. 69.
53. 105.
54. 106, 156.
55. Gambier-Parry, M., *Madame Necker*, 16.
56. Gibbon, *Journal*, introd., *lxxii*.
57. *Memoirs*, 107.
58. *Ibid.*, 120.
59. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, No. 1.
60. *Ibid.*, liii.
61. *Memoirs*, 143.
62. *Journal*, 22.
63. *Ibid.*, 136.
64. *Memoirs*, 153.
65. Robertson, J. M., *Gibbon*, 117; *Memoirs*, 158.
66. *Ibid.*, 167.
67. *Decline and Fall of the Roman Empire*, final page.
68. *Memoirs*, Appendix 30.
69. *Ibid.*, 172.
70. 189.
71. 191n.
72. 193.
73. Robertson, *Gibbon*, 119; Drinkwater, *Charles James Fox*, 206.
74. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 282.
75. *Memoirs*, 190.
76. *Ibid.*, 195.
77. 195.
78. *Decline and Fall*, I, 316. Renan agreed with Gibbon about the Antonines; see his *Marc Aurèle*, 479, Calmann-Lévy, Paris, n.d.
79. *Decline and Fall*, I, 316.
80. *Ibid.*, 250.
81. 9 and 10 William III, c. 22.
82. *Decline and Fall*, II, 72-73.
83. *Ibid.*
84. 102-5.
85. 182.
86. 244; see Voltaire's view in *The Age of Voltaire*, 486.
87. Low, 260.
88. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 152-53.
89. Low, 258.
90. Gibbon, *Miscellaneous Writings*, 277.
91. Walpole, Jan. 27, 1781.
92. *Memoirs*, 211.
93. *Decline and Fall*, 432-33.
94. *Memoirs*, 213.
95. *Ibid.*, 215.
96. Low, 302.
97. *Memoirs*, 214.
98. Walpole, June 5, 1788.
99. *Decline and Fall*, VI, 656.
100. *Memoirs*, 225.
101. *Ibid.*, 89n.

102. Fuglum, Per, ***Edward Gibbon***, 15.
103. *Memoirs*, 240.
104. Boswell, *Johnson*, Mar. 19, 1781.
105. Low, 222-23.
106. *Memoirs*, 230-31.
107. Low, 320.
108. *Memoirs*, 228, 234. G. G. S., *Life of Sheridan*, 122.
109. *Memoirs*, Appendix 55.
110. *Ibid.*, 241n.
111. Appendix 66.
112. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 159.
113. *Memoirs*, Appendix 66.
114. *Ibid.*, 339 and Appendix 62.
115. Gibbon, *Correspondence*, II, 93, 298, in *Memoirs*, 339.
116. *Correspondence*, II, 255, in Robertson, *Gibbon*, 120.
117. Gibbon, *Autobiography*, Everyman's Library ed., in Gay, P., *Voltaire's Politics*, 259.
118. *Memoirs*, introd. by G. B. Hill, *xii*.
119. Low, 344.
120. Gibbon, letter of Nov. 11, 1793.
121. *Decline and Fall*, 1776 ed., I, 206.
122. Bury, J. B., in *Enc. Brit.*, X, 331d.
123. *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, I, *xli*.
124. *Ibid.*, *xlvii*; Robertson, *Gibbon*, 15; Black, *Art of History*, 161.
125. *Decline and Fall*, IV, 673.
126. *Ibid.*, 99.
127. I, 314.
128. Voltaire, *Works*, XVIa, 250-51.
129. *Decline and Fall*, III, 97.
130. VI, 337.
131. *Cf.* Fuglum, 136.
132. *Decline and Fall*, Ch. lxiv.
133. V, 237.
134. *Ibid.*, 423.
135. III, 522.
136. Preface to Milman ed., p. 6.
137. *CHE*, X, 445.
138. Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*, 228.
139. Walpole, letter of Nov. 15, 1764; *Reign of George III*, II, 25.
140. Nevill, J. C., *Thomas Chatterton*, 96.
141. Chatterton, *Complete Poetical Works*, 207.
142. *Ibid.*, 64.
143. Walpole, letters of June 19, 1777, and July 24, 1778.
144. Irving, Washington, *Oliver Goldsmith*, 266.
145. Stanza xlv.
146. Cowper, William, *Poems*, 135.
147. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 173.
148. Cowper, 188.
149. *CHE*, XI, 89.
150. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 176-77.
151. Cowper, 87.
152. See *Age of Voltaire*, 331.
153. Cowper, *The Task*, Book I, line 749.
154. *Ibid.*, line 718.
155. II, lines 1-7.
156. II, 11-28.
157. 206.
158. Cowper, *Poems*, 172.
159. *Enc. Brit.*, X, 495a (by Macaulay).
160. Boswell, *Johnson*, 252.
161. *Ibid.*, 305.
162. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 37, 170.
163. Thackeray, *English Humourists*, in *Works*, 281n.
164. Irving, 170.
165. *Vicar of Wakefield*, preface.
166. Boswell, *Johnson*, 449.
167. Barton, *Garrick*, 256.
168. E.g., Reynolds, *Portraits*, 38.
169. Irving, 121.
170. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 342; Irving, 320.
171. *Boswell for the Defense*, 167.
172. Thackeray, *English Humourists*, 291.
173. *Ibid.*
174. Goldsmith, Oliver, *Select Works*, 194.

CHAPTER XXXIII

1. Boswell, *Johnson*, 17.
2. Boswell, *Hebrides*, 142.
3. Krutch, *Johnson*, 12.
4. Pearson, *Johnson and Boswell*, 6.
5. Krutch, 10.
6. Boswell, *Johnson*, 564.
7. *Enc. Brit.*, XIII, 109d.
8. Hill, G. Birkbeck, *Johnsonian Miscellanies*, II, 309; Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 133.
9. Johnson, *London*, line 102.
10. Hawkins, *Life of Samuel Johnson*, 55-57.
11. Krutch, 49.
12. *Ibid.*
13. Turberville, *Johnson's England*, I, 318n.
14. Boswell, *Johnson*, 94.
15. *Enc. Brit.*, XIII, 110a.
16. Boswell, *Johnson*, 1177.
17. Hawkins, 66.
18. Hume, David, *Essays, Literary, Moral, and Political*, 52.
19. Johnson, *Works*, I, 213.
20. *Ibid.*, 215.
21. 217.
22. Hawkins, 98.
23. Johnson, *The Rambler*, 257-64.
24. Boswell, *Holland Journal*, Sept. 23, 1763.
25. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, 72.
26. Hill, G. B., *Miscellanies*, I, 136.
27. Boswell, *Johnson*, 165.
28. *Ibid.*, 242.
29. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 130.
30. Boswell, *Johnson*, 992.

31. *Ibid.*, 157.
32. *Boswell for the Defense*, 55 (Mar. 23, 1772).
33. *Johnson's Dictionary*, preface; p. 20.
34. *Ibid.*, 284.
35. Boswell, *Johnson*, 179.
36. Arthur Murphy in Johnson, *Works*, I, 89.
37. *Works*, V, 419.
38. *Rasselas*, Ch. vi.
39. *Ibid.*, Ch. xix.
40. Ch. xxviii.
41. Ch. xli.
42. Boswell, *Johnson*, 228.
43. *Ibid.*, 260.
44. Wharton, Grace and Philip, *Wits and Beaux of Society*, I, 366.
45. Krutch, 264.
46. Pearson, 184.
47. Boswell, *Johnson*, 272.
48. Bailey, John, *Dr. Johnson and His Circle*, 35.
49. Boswell, 542.
50. *Boswell for the Defense*, 175.
51. Boswell, *Hebrides*, 189.
52. Pearson, 195.
53. *Boswell's London Journal*, 234.
54. Piozzi, *Anecdotes of the Late Samuel Johnson*, 190.
55. National Portrait Gallery.
56. National Gallery, London.
57. Hawkins, 293.
58. Turberville, I, 384.
59. Boswell, *Johnson*, 283; Hawkins, 147.
60. Boswell, *Hebrides*, 136.
61. Boswell, *Johnson*, 49.
62. Pearson, 81.
63. *Boswell: The Ominous Years*, 264.
64. Bailey, 29.
65. Boswell, *Johnson*, 955.
66. *Ibid.*, 1197.
67. 293.
68. Piozzi, 181.
69. Hawkins, 122.
70. *Rasselas*, Ch. xliii.
71. Hawkins, 132.
72. Boswell, 586.
73. Turberville, II, 198.
74. Krutch, 369.
75. This is Hume's report, in Krutch, 221, and Pearson, 48; the phraseology was made more decorous in Boswell.
76. Boswell, *Hebrides*, 144.
77. Walpole, May 26, 1791.
78. Irving, *Goldsmith*, 183.
79. Piozzi, 70.
80. *Ibid.*, 57.
81. Boswell, *Johnson*, 1124.
82. *Ibid.*, 1126.
83. Bailey, 30.
84. Boswell, 351.
85. Krutch, 366.
86. Boswell, *Hebrides*, 200.
87. Boswell, *Johnson*, 343.
88. *Boswell: The Ominous Years*, 133.
89. Low, *Gibbon*, 223.
90. Lovejoy, Arthur, *Essays in the History of Ideas*, 39.
91. Walpole, Mar. 28, 1786.
92. In Gibbon, *Memoirs*, 220n.
93. Boswell, *Hebrides*, 11.
94. Boswell, *Johnson*, 222.
95. *Hebrides*, 140.
96. *Johnson*, 988.
97. Pearson, 262.
98. Greene, Donald, *Politics of Samuel Johnson*, 270.
99. Boswell, *Johnson*, 744.
100. *Ibid.*, 1025.
101. 807.
102. 362.
103. Bailey, 104.
104. Boswell, *Johnson*, 807.
105. *Ibid.*, 410.
106. 263.
107. 525.
108. 274.
109. Hawkins, 208.
110. Boswell, *Johnson*, 267, 414, 469, 514, 740; *Boswell's London Journal*, 276, 281.
111. *Ibid.*, 253; Johnson, *Works*, XII, 111.
112. Boswell, *Johnson*, 787.
113. *Ibid.*, 341.
114. 309.
115. 486.
116. Greene, 161.
117. *Ibid.*, 167.
118. *Taxation No Tyranny*, in *Works*, XII, 225.
119. Boswell, *Johnson*, 508.
120. Johnson, *Works*, XII, 198n.
121. Hawkins, 222.
122. Boswell, *Johnson*, 505.
123. *Ibid.*, 507.
124. 654.
125. In Greene, 195.
126. Boswell, *Johnson*, 33, 1051; Piozzi, 14.
127. Boswell, *Johnson*, 1102-3.
128. *Ibid.*, 282.
129. 421; Bailey, 103.
130. Pearson, 252.
131. *Ibid.*, 251.
132. *Lives of the English Poets*, I, 63 ("Milton").
133. *Rasselas*, Ch. xxxi; Hawkins, 131.
134. *Lives*, I, 63.
135. Pearson, 248.
136. Boswell, *Johnson*, 352, 807.
137. *Ibid.*, 309.
138. 308.
139. Hopkins, Mary A., *Hannah More*, 61.
140. Hawkins, 108.
141. Johnson, *Works*, X, 169.
142. *Ibid.*, 137, 149.

143. Krutch, 289.
144. Boswell, *Hebrides*, 178.
145. *Ibid.*, 268.
146. *Works*, XII, 413.
147. Pearson, 237.
148. Boswell, *Johnson*, 685n.
149. *Lives*, I, 93.
150. Walpole, Feb. 19, 1781.
151. Walpole, Apr. 14, 1781.
152. Piozzi, 186.
153. Krutch, 522.
154. *Ibid.*, 509.
155. Schuster, *Treasury of the World's Great Letters*, 133.
156. Burney, Fanny, *Diary*, 92.
157. Boswell, *Johnson*, 1109.
158. Krutch, 547.
159. Boswell, *Johnson*, 1059.
160. Hawkins, 255.
161. *Ibid.*, 259.
162. Krutch, 551.
163. Boswell, *Johnson*, 1181.
164. Davis, Bertram, *Johnson before Boswell*, vii.
165. *CHE*, X, 213.
166. *Boswell: The Ominous Years*, 103.
167. E.g., Boswell, *Note Book*, xvii, 1, 23; Krutch, *Johnson*, 384.
168. E.g., *Boswell: The Ominous Years*, 111.
169. Boswell, *Johnson*, x.
170. Hannah More, *Letters*, 102.
171. *CHE*, X, 213.
172. Letter of May 26, 1791.

CHAPTER XXXIV

1. Gooch, *Maria Theresa*, 124.
2. *Ibid.*, 7.
3. 8.
4. Bearne, Mrs., *A Court Painter*, 323.
5. Ercole, *Gay Court Life*, 272.
6. Castelot, André, *Queen of France*, 20.
7. Zweig, Stefan, *Marie Antoinette*, 5.
8. Padover, Saul, *Life and Death of Louis XVI*, 30.
9. Gooch, *Maria Theresa*, 122.
10. Padover, 30.
11. Castelot, 37.
12. *Ibid.*, 40.
13. Zweig, 21.
14. Castelot, 64.
15. *Ibid.*, 73; Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, 19.
16. Walpole, July 10, 1774.
17. Mathiez, Albert, *The French Revolution*, 9.
18. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 122.
19. Maine, Sir Henry, *Ancient Law*, 48.
20. Cobban, Alfred, *History of Modern France*, I, 127.
21. Taine, *The Ancient Regime*, 95.
22. *Ibid.*, 68-69.
23. Mathiez, 5.
24. Taine, *Ancient Regime*, 118, 98.
25. Ercole, 370.
26. Castelot, 85.
27. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 317.
28. Mossiker, Frances, *The Queen's Necklace*, 201.
29. *Ibid.*, 163.
30. Castelot, 66, 158.
31. Lacroix, *The Eighteenth Century*, 35.
32. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 56.
33. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 294.
34. Castelot, 174.
35. Cobban, Alfred, *Historians and the Causes of the French Revolution*, 5, 14.
36. Mme. Campan gives several examples (*Memoirs*, I, 190-94).
37. Cobban, *History of Modern France*, I, 115.
38. Castelot, 123.
39. Faÿ, Bernard, *Louis XVI, ou La Fin d'un monde*, 311.
40. Havens, G. R., *The Age of Ideas*, 392.
41. In Mossiker, *Queen's Necklace*, 160.
42. Castelot, 119.
43. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 119, 125.
44. *Ibid.*, 119.
45. Castelot, 122.
46. *Ibid.*, 121.
47. 124.
48. Zweig, *Marie Antoinette*, 137.
49. Padover, *Louis XVI*, 102.
50. Ségur, Marquis de, *Marie Antoinette*, 104.
51. *Ibid.*
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 491.
53. "The Good-natured King."
54. Campan, Mme., *Memoirs*, I, 178.
55. Padover, *Louis XVI*, 118-19.
56. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 545.
57. Gibbon, *Decline and Fall*, ed. J. B. Bury, IV, 529.
58. Padover, *Louis XVI*, 23.
59. Campan, Mme., I, 185n.
60. Faÿ, *Louis XVI*, 8.
61. Taine, *Ancient Regime*, 304.
62. Funck-Brentano, 546.
63. Campan, I, 180.
64. Stryienski, *Eighteenth Century*, 213.
65. Gooch, *Catherine the Great*, 230.
66. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350.
67. Dakin, *Turgot*, 126.
68. Say, Léon, *Turgot*, 101.
69. Robinson, J. H., *Readings in European History*, 426.
70. See *Age of Louis XIV*, 160.
71. Voltaire, *Works*, XXIb, 347.
72. Parton, *Life of Voltaire*, II, 535.
73. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 340.
74. Dakin, 187; Padover, *Louis XVI*, 75.
75. Say, 12.

76. Dakin, 152; Tocqueville, 190.
77. Tocqueville, 190.
78. Say, 161-66; Funck-Brentano, 554.
79. Renard, Georges, *Guilds in the Middle Ages*, 125.
80. Martin, H., *France*, XVI, 371.
81. *Ibid.*, 372.
82. Taine, *Ancient Regime*, 237.
83. Padover, *Louis XVI*, 92.
84. Dakin, 221.
85. Say, 185-91.
86. Dakin, 263; Martin, H., *France*, XVI, 379.
87. Michelet, *Histoire de France*, V, 480.
88. Say, 43.
89. Warwick, *Mirabeau and the French Revolution*, 104. On L'Hôpital see *The Age of Reason Begins*, 337-45.
90. Jaurès, Jean, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 159.
91. Martin, H., *France*, XVI, 387.
92. Taine, *Ancient Regime*, 302.
93. Michelet, *Histoire de France*, V, 488.
94. Campan, Mme., I, 181.
95. Tocqueville, 191.
96. Lecky, *History of England in the 18th Century*, V, 39-41.
97. Padover, *Louis XVI*, 108; Martin, H., *France*, XVI, 416.
98. Becker, Carl, *The Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 77.
99. Lecky, IV, 50.
100. *History Today*, October, 1957, 659.
101. Martin, H., *France*, XVI, 428.
102. Morris, R. B., *The Peacemakers*, 104-7.
103. *CMH*, VIII, 93.
104. Gooch, *Catherine the Great*, 97.
105. Martin, H., *France*, XVI, 500-1.
106. *Ibid.*, 504.
107. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 337.
108. Morris, *Peacemakers*, 178-81.
109. Lecky, IV, 256-59.
110. *Ibid.*
111. Morris, 277.
112. *Ibid.*, 461.
113. Tocqueville, 155.
114. *Ibid.*, 119.

CHAPTER XXXV

1. Parton, *Life of Voltaire*, II, 491.
2. *Ibid.*, 496.
3. Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 427.
4. Chaponnière, *Voltaire chez les calvinistes*, 262.
5. Faguet, *Literary History of France*, 508.
6. Lanson, Gustave, *Voltaire*, 158.
7. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 150.
8. Brandes, *Voltaire*, II, 317.
9. Wagnière in Parton, II, 564.
10. *Ibid.*
11. Note to Walpole, *Letters*, VII, 35.
12. Brandes, *Voltaire*, II, 322; Parton, II, 367.
13. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, VIII, 199-200; Campan, I, 323; Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 393.
14. Parton, *Life of Voltaire*, II, 568.
15. Brandes, II, 324.
16. Pomeau, 263.
17. Noyes, *Voltaire*, 583.
18. Pomeau, 307.
19. Desnoiresterres, VIII, 230.
20. Lanson, *Voltaire*, 200.
21. Desnoiresterres, VIII, 232-33.
22. *Ibid.*, 235.
23. 236.
24. 245.
25. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 357.
26. Noyes, 600.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 336.
28. *Ibid.*, 337.
29. Desnoiresterres, VIII, 283-91.
30. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 199.
31. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 121.
32. Desnoiresterres, VIII, 302.
33. *Ibid.*, 306; Brandes, *Voltaire*, II, 340.
34. Strachey, Lytton, *Books and Characters*, 121n.
35. Brandes, II, 341.
36. Desnoiresterres, VIII, 334, 365.
37. Pomeau, 447.
38. Desnoiresterres, VIII, 359.
39. *Ibid.*, 366; Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 235n.
40. Brandes, *Voltaire*, II, 348.
41. Gooch, *Catherine the Great*, 70.
42. In Brandes, *Voltaire*, II, 94n.; the order has been slightly changed.
43. *Ibid.*, 354.
44. Parton, II, 494.
45. Voltaire, *La Guerre de Genève*, in Josephson, *Rousseau*, 479.
46. Hendel, Charles, *Citizen of Geneva*, 92.
47. Josephson, 481.
48. Hendel, *Citizen*, 98.
49. *Ibid.*, 99 (letter of Oct. 10, 1769).
50. *Ibid.*, 101 (letter of Jan. 17, 1770).
51. See *Age of Voltaire*, 565.
52. Michelet, *Histoire de France*, V, 485.
53. Morley, *Rousseau*, II, 156.
54. Josephson, 495.
55. Rousseau, *The Confessions*, II, end.
56. Josephson, 501.
57. *Ibid.*
58. Desnoiresterres, VII, 488.
59. Vaughn, C. E., *Political Writings of Rousseau*, II, 445.
60. *Ibid.*, 376, 381.
61. Rousseau, *Rousseau juge de Jean-Jacques*, p. x.
62. *Ibid.*, 19.

63. 64-67.
64. 120, 124.
65. 117-18.
66. 292, 302, 327.
67. Third Dialogue.
68. *Rousseau juge*, 319 f.
69. Josephson, 508.
70. *Reveries of a Solitary*, Ninth Promenade.
71. Josephson, 518.
72. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 213-15, 301-2.
73. *Ibid.*, 246.
74. Josephson, 502; Faguet, *Vie de Rousseau*, 399.
75. Josephson, 527.
76. Babbitt, Irving, *Spanish Character and Other Essays*, 225.
77. Cassirer, *The Question of Rousseau*, 39.
78. Lemaître, *Rousseau*, 247.
79. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
80. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 236.
81. Schiller, "Rousseau," in *Poems*, 25. In *Works*.
82. In Maritain, *Three Reformers*, 225.
83. *Collection complète des oeuvres*, I, 186.
84. Cassirer, *Question of Rousseau*, 39.
85. Pomeau, 340.
86. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 239-44.
87. *Ibid.*, 74.
88. In Morley, *Rousseau and His Era*, II, 273.
89. Masson, *La Religion*, III, 227.
90. Burke, "Letter to a Member of the National Assembly," in *Reflections on the French Revolution*, 262.
91. Taine, *Ancient Regime*, 317.
92. Lemaître, 361.
93. Lanson, *Histoire de la littérature française*, 798.
94. Crocker, *The Embattled Philosopher*, 310.
95. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 4[illegible].
96. Letter of Feb. 27, 1777, in Hazard, *European Thought*, 323.
97. Ford, Miriam de, *Love Children*, 212.
98. Havens, *Age of Ideas*, 351.
99. Crocker, *Embattled Philosopher*, 400.
100. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, "Avertissement," *v-vi*.
101. Crocker, *Embattled Philosopher*, 433.
102. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 213.
103. Schapiro, J. S., *Condorcet*, 69.
104. Russell, Bertrand, *History of Western Philosophy*, 722.
105. Schapiro, *Condorcet*, 91.
106. Martin, H., *France*, XVI, 525.
107 Schapiro, 96-97.
108. So reads the ms. in the Bibliothèque de l'Institut.
109. See *The Age of Voltaire*, 775.
110. Condorcet, *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Mind*, p. *v*.
111. *Ibid.*, 105.
112. 10.
113. 179.
114. Aulard, A., *The French Revolution*, I, 123.
115. Schapiro, 80, 88.
116. Condorcet, 193.
117. *Ibid.*, *x-xi*, 175.
118. 4.
119. 188.
120. 169.
121. 202.
122. Schapiro, 107.
123. Tocqueville, 8.
124. Taine, *Ancient Regime*, 317.
125. Aulard, I, 83.
126. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 284.
127. Aulard, I, 83.
128. Robertson, J. M., *Short History*, 288.
129. Tocqueville, 165.
130. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 107.
131. Padover, *Louis XVI*, 6, 7, 11.
132. Tocqueville, 156.
133. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 237.

CHAPTER XXXVI

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 61; Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 60; Taine (*The French Revolution*, I, 168) estimated the value of church property at four billion livres.
2. Herbert, Sydney, *The Fall of Feudalism in France*, 40.
3. Mornet, Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 278.
4. *Ibid.*, 274; Sée, 66.
5. *Ibid.*; Taine, *French Revolution*, I, 162-63.
6. Sée, 66.
7. Taine, *French Revolution*, I, 167.
8. Burke, Edmund, *Reflections on the French Revolution*, 142.
9. Sanger, W., *History of Prostitution*, 131.
10. Sée, 23; Mornet, 276.
11. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 14.
12. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 346.
13. Taine, *Ancient Regime*, 291.
14. Mornet, 335.
15. Lacroix, 265
16. Mornet, 331.
17. Faÿ, *Louis XVI*, 280.
18. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 512.
19. Faÿ, 280.
20. Lecky, *England in the 18th Century*, V, 308.

21. Martin, H., *France*, XVI, 353.
22. Mornet, 212.
23. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 554.
24. Martin, H., *France*, XVI, 585.
25. Tocqueville, 9.
26. Herbert, S., *Fall of Feudalism*, 84.
27. See *Age of Voltaire*, 776-80.
28. In Crocker, *Age of Crisis*, 392.
29. In Becker, *Heavenly City*, 80.
30. Carlyle, *Essay on Diderot*.
31. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 90 f.
32. Taine, *Ancient Regime*, 380.
33. Laclos, Choderlos de, *Les Liaisons dangereuses*, Letter LXVI.
34. See Plato, *The Republic*, Nos. 338-44.
35. De Sade, Comte, *Juliette*, in Crocker, *Age of Crisis*, 15.
36. Guerard, Albert, *Life and Death of an Ideal*, 204.
37. Mme. d'Oberkirch in Taine, *Ancient Regime*, 163.
38. Köhler, Carl, *History of Costume*, 366.
39. Boehn, *Modes and Manners*, IV, 215.
40. In Loomis, *Du Barry*, 169.
41. *Decline and Fall of the Roman Empire*, near end of Ch. xix.
42. Gibbon, *Correspondence*, II, 46, in *Memoirs*, 222n.
43. See *Age of Voltaire*, 301-2.
44. Walpole, Dec. 2, 1765.
45. Koven, Anna de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 102, 116.
46. *Ibid.*, 127.
47. Watson, Paul, *Some Women of France*, 90.
48. *Ibid.*
49. 89; Koven, 157.
50. *Ibid.*, 195.
51. Crocker, *Embattled Philosopher*, 354.
52. Gambier-Parry, *Madame Necker*, 78.
53. *Ibid.*, 215.
54. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 192-94.
55. Gambier-Parry, 250.
56. Anderson, E., *Letters of Mozart*, II, 787.
57. Einstein, *Mozart*, 356.
58. Lespinasse, *Letters*, 138.
59. Rolland, Romain, *Essays in Music*, 147.
60. *Grove's Dictionary of Music*, II, 456.
61. Young, Arthur, *Travels in France*, 67.
62. Louvre.
63. In the Institute, Paris.
64. Dilke, Lady Emilia, *French Architects and Sculptors*, 130. It is now in the École des Beaux-Arts in Paris.
65. *Time* magazine, Jan. 31, 1764, p. 44.
66. *Ibid.*
67. All in the Louvre.
68. Both in the Louvre.
69. Vigée-Lebrun, 42.
70. Louvre.
71. Private collection.
72. Taine, *French Revolution*, I, 141; Mornet, *Origines intellectuelles*, 419; La Fontainerie, *French Liberalism*, 23.
73. Mornet, 443.
74. Lecky, V, 394.
75. Mornet, 426.
76. *Enc. Brit.*, XVI, 340d.
77. Lecky, V, 425.
78. Ducros, *French Society*, 314.
79. *Ibid.*
80. Faguet, *Literary History*, 539.
81. Chamfort, Sébastien, *Maximes*, 25.
82. *Ibid.*, 27.
83. 6.
84. 71.
85. 67.
86. 69.
87. 62.
88. 87.
89. 89.
90. 26.
91. 539.
92. *Ibid.*, preface, p. 50.
93. In Masson, *La Religion de Rousseau*, III, 137-38.
94. Bernardin de Saint-Pierre, *Paul et Virginie*, 15, 34, 58.
95. In Bury, J. B., *The Idea of Progress*, 200; italics ours.
96. Restif de La Bretonne, *La Vie de mon père*, 75.
97. Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 172.
98. *Ibid.*, 191.
99. Restif, *La Vie de mon père*, 14.
100. Chadourne, *Restif de La Bretonne*, 185.
101. *Ibid.*, 354.
102. Palache, 246.
103. Chadourne, 223.
104. *Ibid.*, 219.
105. Restif, *Les Nuits de Paris*, Nos. 109-114.
106. Ibid., No. 112.
107. No. 103.
108. Young, Arthur, 143.
109. Beaumarchais, letter of June 16, 1755, in Loménie, *Beaumarchais and His Times*, 55.
110. *Ibid.*, 78.
111. 94.
112. Voltaire, letter of Jan. 3, 1774.
113. Loménie, *Beaumarchais*, 263, 269 f.
114. Havens, *Age of Ideas*, 368.
115. Beaumarchais, *The Barber of Seville*, Act I, in Matthews, *Chief European Dramatists*, 332.
116. *Ibid.*
117. Blom, Eric, *Mozart*, 119n.
118. Loménie, *Beaumarchais*, 250.
119. *Ibid.*, 252.
120. *Le Mariage de Figaro*, directions to the players, in Beaumarchais, *Oeuvres*, 184.
121. *Ibid.*, Act II, Sc. ii.

122. V, vii.
123. V, xii.
124. II, xxi.
125. V, iii.
126. Preface, *Oeuvres*, 172.
127. Loménie, *Beaumarchais*, 351.
128. *Ibid.*, 383-84.
129. Havens, 382.
130. Loménie, 348.

CHAPTER XXXVII

1. Sée, *Economic and Social Conditions*, 8.
2. Labrousse, C. E., in Cobban, *Historians and . . . the French Revolution*, 35.
3. Young, Arthur, *Travels in France*, 70.
4. *Ibid.*, 19.
5. Herbert, *Fall of Feudalism*, 5-10.
6. *Ibid.*, 12, 15.
7. Lefebvre, Georges, *Coming of the French Revolution*, 121.
8. Sée, *Economic Conditions*, 54.
9. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 36.
10. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution*, 143.
11. Michelet, *Histoire de France*, V, 548.
12. Martin, H., *France*, XVI, 512n.
13. Tocqueville, 193; Taine, *Ancient Regime*, 300 f.; Taine, *French Revolution*, I, 157.
14. Goodwin, *The European Nobility*, 41.
15. Argenson, Marquis d', *Pensées sur la réformation de l'état*, in Sée, *Economic Conditions*, 109.
16. Young, 24.
17. Herbert, *Fall of Feudalism*, 58; Sée, 5; Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 310.
18. Chamfort, *Maximes*, 90.
19. Young, 125, 61.
20. Lefebvre, 116; see also Taine, *Ancient Regime*, 335-36.
21. Lefebvre, 118.
22. *Ibid.*
23. Jaurès, I, 76.
24. N . . *CMH*, VII, 237.
25. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 137.
26. Stryienski, *Eighteenth Century*, 271.
27. Lefebvre, 87
28. Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 340.
29. French, Sidney, *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 87.
30. Young, 103.
31. Lefebvre, 97.
32. *Ibid.*, 21.
33. Sée, 183; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 198.
34. Mousnier and Labrousse, 186.
35. Taine, *Ancient Regime*, 387.
36. *Ibid.*, 388.
37. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 109.
38. *Ibid.*, 110.
39. *Ibid.*
40. Taine, *Ancient Regime*, 334.
41. *Ibid.*, 361.
42. Lecky, V, 394; Gershoy, 308.
43. Jaurès, I, 69.
44. *Ibid.*, 68.
45. Sée, 148.
46. Cobban, *History of Modern France*, I, 123.
47. Jaurès, I, 62; Sée, 197-98.
48. Taine, *Ancient Regime*, 351-52.
49. Lefebvre, 14.
50. Jaurès, I, 62.
51. *Ibid.*, 98.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 404.
53. Taine, 320.
54. Beard, Miriam, 352.
55. Lecky, V, 484.
56. See above, Ch. iii, Sec. v.
57. Lichtenberger, André, *Le Socialisme et la Révolution française*, 35; Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 252.
58. Lichtenberger, 447.
59. *Ibid.*, 446-50.
60. *Enc. Brit.*, II, 238b.
61. Lichtenberger, 442 f.
62. Mornet, 360.
63. *Ibid.*, 364; Lefebvre, 43.
64. Cumming, Ian, *Helvétius*, 126-28.
65. *Ibid.*, 119.
66. Fülop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 436.
67. Faÿ, *La Franc-Maçonnerie*, 242.
68. Georgel, *Memoirs*, II, 310, in Buckle, Ib, 665.
69. Mornet, 450.

CHAPTER XXXVIII

1. Young, Arthur, *Travels in France*, 15.
2. Ségur, *Marie Antoinette*, 121; Castelot, 184.
3. Faÿ, *Louis XVI*, 293.
4. Gooch, *Maria Theresa*, 168.
5. Vigée-Lebrun, *Memoirs*, 57.
6. Mossiker, *Queen's Necklace*, 36.
7. *Ibid.*, 37, 200, 203.
8. 105.
9. *Vie de Jeanne de Valois*, by herself, in Mossiker, 63.
10. *Enc. Brit.*, VII, 321a.
11. Mossiker, 183-84.
12. *Ibid.*, 226.
13. 273.
14. 269.
15. Faÿ, *Louis XVI*, 275.
16. Mossiker, *ix*.
17. Martin, H., *France*, XVI, 539.

18. Taine, *Ancient Regime*, 92.
19. Martin, H., XVI, 573.
20. Paine, Thomas, *The Rights of Man*, 80.
21. Stryienski, *Eighteenth Century*, 286.
22. Young, Arthur, 92.
23. *Ibid.*, 97.
24. Guérard, A., *Life and Death of an Ideal*, 308.
25. Martin, H., *France*, XVI, 597.
26. Lefebvre, 29; Cobban, *History of Modern France*, I, 128.
27. Martin, H., XVI, 608.
28. Stewart, J. H., *Documentary Survey of the French Revolution*, 27-29; Martin, H., XVI, 612.
29. Michelet, *The French Revolution*, 118.
30. Michelet, *Histoire de France*, V, 545.
31. Faÿ, *Louis XVI*, 308; Taine, *French Revolution*, I, 2.
32. Aulard, I, 129; Michelet, *French Revolution*, 73.
33. Lichtenberger, 20; Martin, H., XVI, 630n.
34. Tocqueville, 121.
35. Herbert, *Fall of Feudalism*, 76, 87.
36. *Ibid.*, 76.
37. *CMH*, VIII, 128.
38. Barthou, Louis, *Mirabeau*, 11.
39. *Ibid.*, 62.
40. 68.
41. Michelet, *Histoire de France*, V, 515.
42. Crocker, *Embattled Philosopher*, 436.
43. Barthou, 91.
44. *Ibid.*, 97.
45. 118.
46. 138.
47. 162.
48. 163; Martin, H., *France*, XVI, 624.
49. Jaurès, I, 77.
50. Michelet, *Histoire de France*, V, 554.
51. Herbert, *Fall of Feudalism*, 95.
52. Taine, *French Revolution*, I, 17.
53. Taine, *Ancient Regime*, 378.
54. Martin, H., *France*, XVI, 625.
55. Lefebvre, 94.
56. *Enc. Brit.*, XVI, 909d.
57. Faÿ, *Louis XVI*, 312.
58. *Ibid.*, 305.
59. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
60. Taine, *French Revolution*, I, 28.
61. *Enc. Brit.*, XII, 491b.
62. Taine, I, 28.
63. *CMH*, VIII, 133; Cobban, *History of Modern France*, I, 140.
64. Barthou, 171.
65. Young, Arthur, 153.
66. Lefebvre, 72.
67. Young, 176.
68. Lefebvre, 76.
69. Young, 176.
70. Lefebvre, 77.
71. Young, 177.
72. Michelet, *French Revolution*, 137; Lefebvre, 80-81.
73. Speech of July 8, 1789, in Barthou, 186.
74. Mme. Campan, *Memoirs*, I, 358.
75. Mme. de Staël, *Considérations sur la Révolution française*, in Ducros, *French Society*, 316.
76. Kropotkin, Peter, *The Great French Revolution*, 61-63.
77. Michelet, *French Revolution*, 133.
78. *Ibid.*, 141.
79. Lefebvre, 86.
80. Taine, *French Revolution*, I, 42.
81. Michelet, *French Revolution*, 150.
82. Lefebvre, 101.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٥٦٦

مطابع الدجوى القاهرة — عابدين